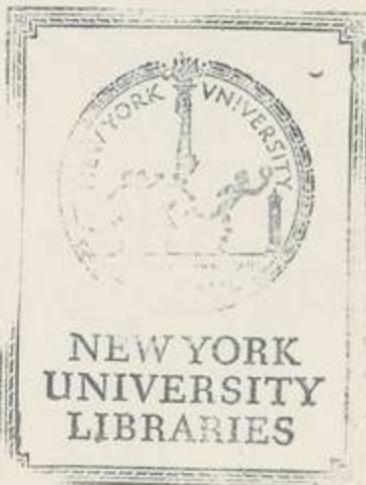


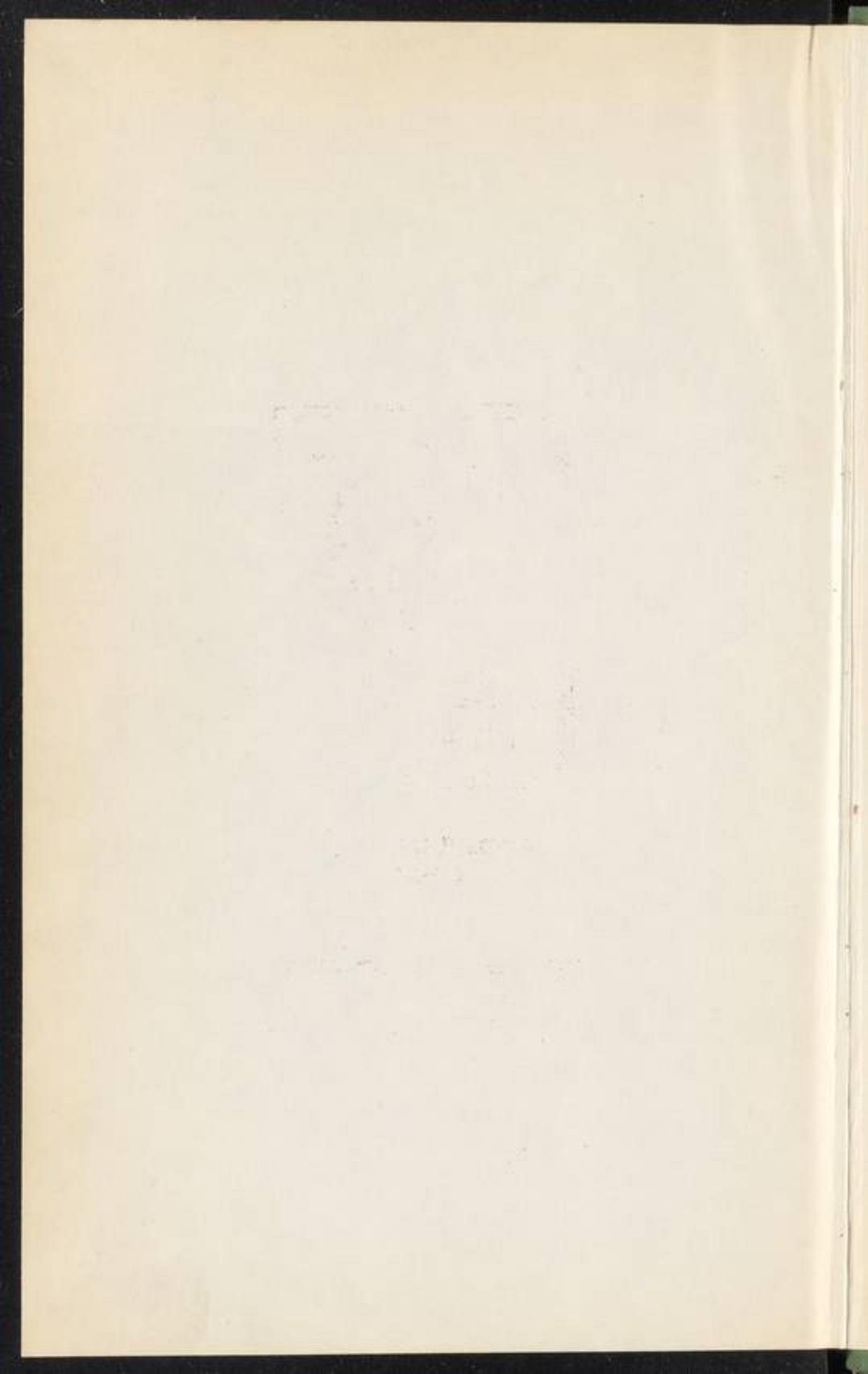
BOBST LIBRARY

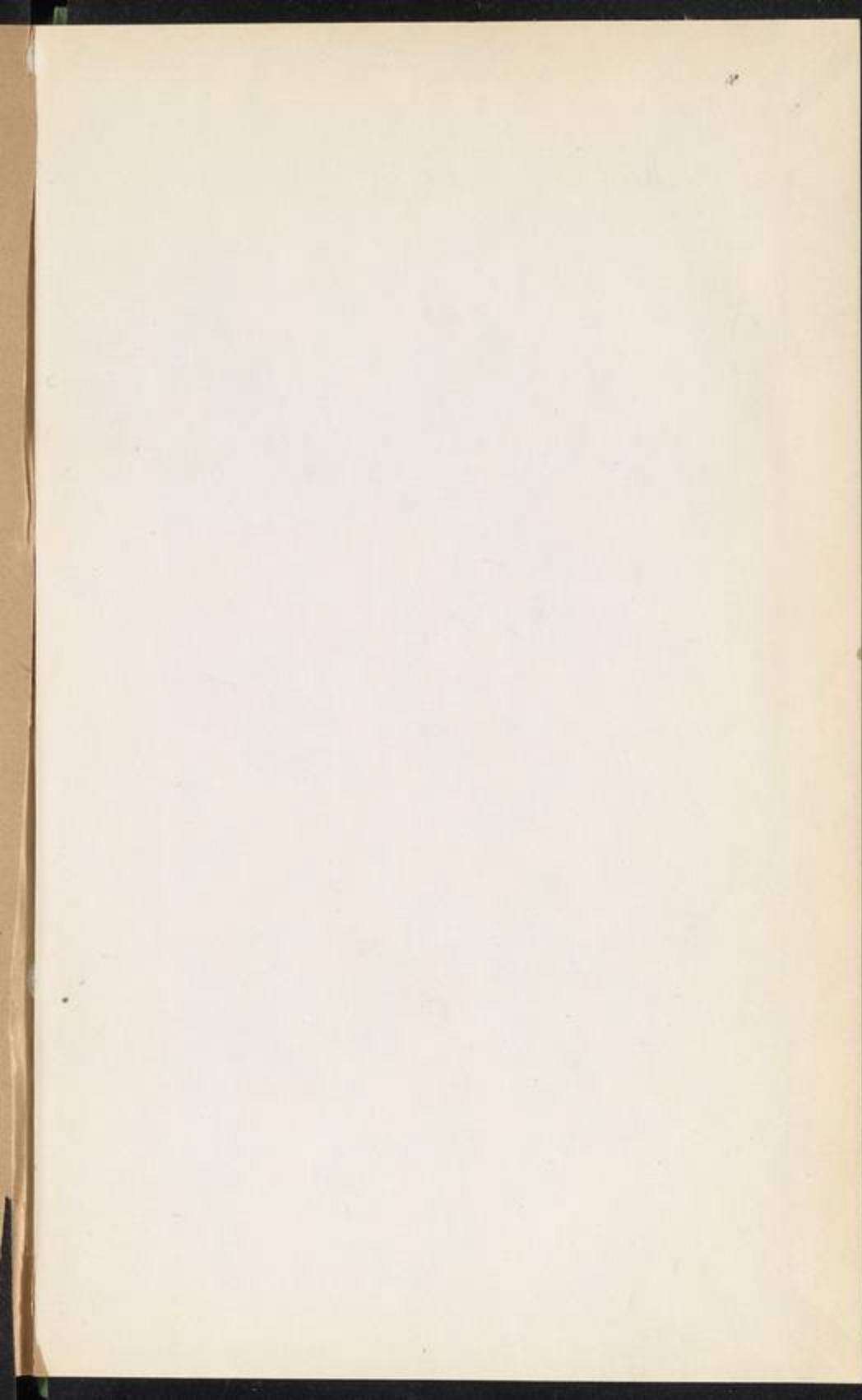


3 1142 02881 6547



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





al-Khaṭīf, Māhmūd

Aḥmad 'Arābi

الاهداء

إلى الأشبال النواهض الميامين من شباب هذا
الجيل ، في وادينا المبارك ، وفي الأقطار العربية الشقيقة
أهدى سيرة هذا الزعيم المصري الفلاح ، الذي جاهد في
سبيل الحق ومات على دين الحق ، والذى آن ينصفه
التاريخ وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية .

محور الحفظ

Near East

DT

107

4

.K5

C-1

N. Y. U. LIBRARIES

مُتَدَمِّمة

كان المصريون إلى عهد قريب يذكرون اسم عرابي فلا ينتمي هذا الاسم وأسفاه في أذهانهم إلا صور العنف والتزق والحق وراثم وإن لم يقصدوا يقرنون اسم عرابي بعماي المزعنة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعنى من مرادفاته وما أذكى مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابي إلا وسرت في الوجوه كتابة ، وتسابقت الألسن إلى المهزء به وتعديه مساوئه وإبراز مثالبه ، اللهم إلا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعون عنه هذا الظلم وكانت أبداً أحد الخالفين الذين يحسون في قراره أنفسهم أن الرجل مظلوم وأنه مفترى عليه ، وكانت أسأل نفسى دائمًا ما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

والحق أنه قل أن نجد في رجالنا رجالاً ضاعت حسناته في سباتاته كما ضاعت حسنات عرابي فيما افترى عليه من سباتات ، كذلك قل أن نجد في رجالنا رجالاً كرهه أكثر بني قومه مضللين ، واستنكروا أعماله جاهلين بقدر ما كرهه هؤلاء عرابياً واستنكروا ما فعل وما أنسد إليه من الأعمال زوراً وإفكاً ؛ وفي ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عادماً كما قد يحيطه غير عادم ؛ وفيه كذلك دليل على أن الأمور كثيراً ما تجري فيه كايشه الحظ لا كما يكون العدل والقسطاس ، فيكون نصيب بعض الرجال من التمعظيم والتوقير بقدر ما يتواافق لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجني على كثير من ذوى النفوذ السجيعة والمظلمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الأيام ...

وما كان عرابي فيما أعتقد إلا طالب حق يتحقق به في طلب الحق الخطا

والصواب كا يلحق بغيرة ؟ ولعل استطاعت أن أجلو ذلك في سيرته بقدر ما وصلت إليه من الأدلة في تلك السيرة التي بالغ كثير من ذوى الأغراض فى تشويها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الأمر فا أحسب أن فى الناقين على عربى من يستطيع أن يعari فى أنه كان زعيم حركة داعية فكرة وأنه أخطأ وأصاب كان مخلصاً فيما يفعل أو يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة نجم من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطالم بقضية من القضايا الوطنية الكبرى : ونادى على رأس المنادين بمعطال مصر ، وصار اسمه فى ظرف هام من ظروف نهوضها عملاً على الجهاد ورمزًا للمقاومة ومثلاً للقومية حتى شامت الأقدار فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنىها الفلاحين يذود عن أراضيها ويقف غير طامع ولا هازل فى وجه الفادرین الباطشين من أعدائها

بهذه الروح كتبت عن عربى ، وعلى هذا الأساس بنت سيرته فالأخلاص فى الرجال هو عندى مقاييس بطولتهم بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ؛ أما الصواب والخطأ وما إلىهما فامور توجد فى الأبطال وغير الأبطال ، ولا فرق فيها فى كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء ...

وإنى إذ كنت أكتب سيرة عربى كانت تقوم في ذهنى الفترات التي افترست عليه ولكن ذلك لم يضعف قط إحساسى بأنه كان شديد الأخلاص لقضيته متوقف الحية فى وطنيته شديد الأنفة فى قوميته وليس بضائرة بعد ذلك ما يرميه به المبطلون أو المفترضون ، ولو قد واتاه الحظ الأعمى كما وأبلى الآلاف غيره من الرعماه والقواد فانتصر فى معركة التل الكبير ، أو لو أنه لم يحيط به من الخيانة فى أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به وأبلى فى تلك المعركة بعض البلاء أو قتل فى غمرتها لرأينا اليوم له التمايل فى عواصمها ولزخرت الكتب بالثناء عليه وعندى أنه من أكبـر الظلم أن ننسى حسناه وهي لعمر الحق كثيرة ولا تذكر

إلا خطاؤه ما اقتربه وما افترى عليه منها لتساق أدلة على ما يشاء بعض المؤرخين
نعته به ...

ولقد كان هذا الظلم الذى لقيه الرجل على أيدي فريق من بني قومه هو حافزى
للكتابة فأخذت أنشر سيرته تباعاً في مجلة الرسالة الفراء ، وما أن رأى بعض أبناءه
المقال الرابع حتى تقضوا بزيارتى بدار المجلة معتبرين لي عن شكرائهم ثم وضموا
بيان يدى مذكرة المخطوطة وبعض الكتب التى كانت ترد إليه فى منفأة وغيرها
من الوثائق والصور المظيمية القيمة ، مما أثني عليهم من أجله أعظم الثناء ...
ومما طبت له نفساً ما أفضى إلى به أحدهم ومؤداته أن والده رحمه الله تنبأ بأن
الذى سيدافع عنه هو شاب من شباب الجيل القادم الذى لم يفسده الاحتلال ...
وما زادتني هذه النبوة إلا اهتماماً بدراسة سيرته لعلى أكون هذا الشاب
الذى يحسن أن يدافع عن عربى ، ولقد كنت قبل هذا كذا ذكرت أحس أنه
مظلوم وأن أعداءه بالغوا في الكيد له والزيارة عليه ، وألمى من هذا الظلم فضلاً
عما يلحق عراياً منه أنه ينال كذلك من حرارة مصر القومية على يديه تلك الحركة
الجليلية التي حاول البطلون تشويهاً .

وبعد فهذا كتابى أقدمه للقراء ، فإن كنت وفت إلى ما أحببت فحسب
جزاء على ما بذلت من جهد أنى أنصف مظلوماً قضى بمحبه ولم ينصفه أحد ، وأنى
بسطت سيرة الحركة القومية وأمل في هذا البسط عبرة وذكرى لهذا الجيل الذى
يتورّب ويتعلّم إلى الجدد ، وإن كنت قصرت عما أردت فعذرى أن هذا جهد
ما استطعت؛ ولتكن هذه خطوة متواضعة يسرنى أنأشهد بعدها خطوات يخطوها
غيرى من الكرام الكاتبين في سبيل هذا الوطن الذى نخلص له الحب والولاء .
وفقنا الله لعمل مصر وهياً لمصر المكان المرجو من المزة والسؤدد والحرية .

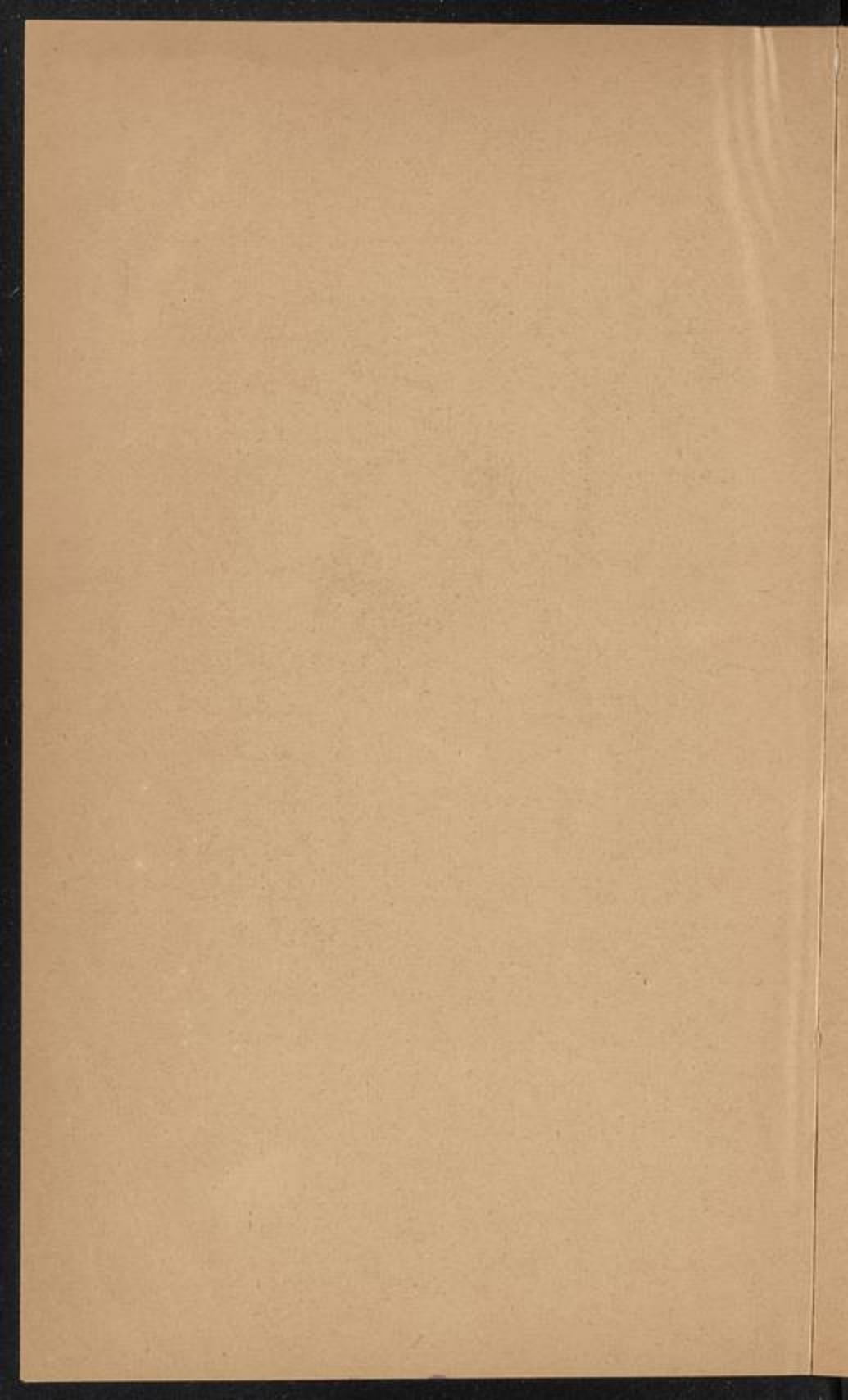
محمود العبيسي

الفهْرِسُ

٤٦

الإهداء	ج
المقدمة	٥
الصبي القروي	١
في صفوف الجيش	٦
يقظة ونهوض	١٨
الهندي الثائر	٣٤
الفلاح الزعيم	٤٨
الوطنيون والمسكريون	٥٤
دسائس ومخاوف	٦٩
يوم عابدين	٧٨
رجل أمة	٨٨
توفيق والثورة	٩٥
بيت عربي وبلنت	١٠٠
الشعال وبنات آوى	١٠٧
غصبة جديدة	١٢٢
عربي الوزير	١٢٩
وطنية لازق	١٣٦
أهانى مصلح	١٥٦
مراوغة وتربيص	١٦١
إعنات وإخراج	١٦٨
بني وعدوان	١٨٩
عربي ملاذ البلاد	٢١٠

二





أحمد شوقي المarsi

الصبي القروى

يجد كتاب التراجم الذين يتناولون سير المظاء طائفة من الأنبياء التي تخلو حياة هؤلاء إيان طفو لهم فيستعرضونها مستخرجين منها ما يدعونه من أمارات النجابة ومن بشائر النبوغ والتبريز ، أو ما يرون أنه من الشواهد على قوة الشخصية وبعد المهمة ومضاء المزعجة وما إليها مما تقوم عليه المظامة .

ونحن إذ نتكلم عن أحد عربى توزنا المصادر التي يمكن أن نعلم منها الكثير عن سيرته وخلاله في طفولته وقصارانها أن نقول إنه ولد في شهر مارس سنة ١٨٤١ في هرية رزنة ، وهي قرية بالشرقية تقع غير بعيد من مدينة الرقازيق ...

ونشأ الصبي القروى كأيضاً الآلاف مثله في قرى مصر على نعطا من العيش لا تحسبه مختلفاً كثيراً أو قليلاً في قرية عنه في أخرى من هاتيك القرى التي بنيت منذ الأزل على ماء النيل .

نشأ في هذه القرية الصغيرة ذلك الصبي الذي قدر له أن يجري اسمه يوماً على كل إسان في مصر ، والذى صارت حياته فيما بعد فصلاً من تاريخ وطنه ، والذى تداوات اسمه أنسن الساسة في إنجلترا وفرنسا دهرأً طويلاً ، والذى أجبر الخديو على التزول إليه حيث وقف على رأس الجيش يوم عابدين ليسممه كلة الأمة ، والذى يحتل جهاده أبرز مكان في كل كتاب تناول ما تعارف المؤرخون على تسميته المسألة المصرية ...

ودرج الصبي القروى بين لداته في هرية رزنة عرضة للأوبئة المختلفة ، يحيط به في قريته الجهل والفقر والمرض أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة وال عمران مثل ما يجده من ينشأ في مدينة كبيرة أو يتلقى العلم في مدرسة منتظمة . وكان أبوه محمد عرابي شيخ هرية رزنة أو على الأصح أحد « مشائخها » على

حد الاصطلاح الإداري فكانت تقسم القرى في تلك الأيام أقساماً يسمى الواحد منها «حصة» ويعين على كل حصة شيخ يختار لبروز شخصيته إما بالتراث أو بالقوة أو بالاستنارة بشيء من التعليم أو بها جهيناً، ولم تكن وظيفة العمدة على النحو القائم في القرى الآن قد عرفت بعد.

ويذكر عراقي عن أبيه في مذكرة أنه كان «شيخاً جليلاً رئيساً على عشيرته عالماً ورعاً نقياً نقياً موصوفاً بالعفة والأمانة»؛ وزرمه عند ذكر نسبة عدد آباء حتى يصل إلى السيد صالح البلاسي فيذكر أنه ينسب إلى بلاس وهي كما يقول قرية صغيرة بيتاً في العراق، كما يذكر أنه أول من هبط مصر من أجداده وأنه تزوج بالسيدة صفية السيدة السيد أحمد الرفاعي الصيادي؛ وما زال عراقي يرتفق بنسبه إذ يذكر آباءه بعد البلاسي هذا حتى يصله بالإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي الراشر زين العابدين بن الإمام الحسين رضي الله عنه.

ويذكر عراقي كذلك فيما يذكره من آباء والده قوله «وكان قد أمر والدى بترتيب درس فقه في المسجد الذى جدده للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد في دينهم وتحت عبادتهم وحسن حالمهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل الملة».

وأدخله أبوه مكتب القرية وهو كايقول من منشأته فيها؛ وفي هذا المكتب فتحت عينا الصبي على نور العلم خفظ شيئاً من القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ...

ويمكننا أن نتصور حال هذا الصبي في أول عهده بالتعلمقياساً على ما نعرف من حال أمثاله من أبناء المكاتب في كل قرية، وهي حال تكاد أن تكون في القرى جهيناً واحدة فلا فرق بين مكتب ومكتب إلا بقدر ما يكون من فرق بين قرية وقرية

(١) كشف الستار عن سر الأسرار في التحفة المصرية الشهيرة بالرواية .

فهذا صبي في جلباب طوبل من القطن أو التيل وفوق رأسه قنسوة ، يخاطر بين حسبيه مثله إلى المكتب وتحت إبطه لوح من الصفيح وبهذه محبرة فيها لأفلام الفاب خزانة أو هي محبرة ذات « مقلمة » كما يقول أبناء المكتب ، وهو لا يمتاز عن بقية الصبيه في شيء إلا بما عسى أن يكون في قدميه من نعل لأنه ابن شيخ البلد وأكثرهم حفاة ، وما يحضر في جيشه من فطاير بأكملها متى جاء أو يدفعها إلى « الفقيه » على جوعه في حين لا يوجد في جيوب لداته إلا الخنزير والسبي ..

وفي المكتب يجلس الصبي على الأرض بين أقرانه ولعمل المريض يرفعه درجة فيجلسه على خصیر أو على دكة من الخشب ثم يكتب له بعض الكلمات في لوحة ليكتب مثلها ، أو بعض أرقام الحساب ليقلد رسماها ، فلا يضع لوحة إلا حين يتلو المريض على الصبيه بعض سور القرآن الصغيرة جملة بجملة فيرددون ما يتلو في نفمه مثل نفسمه ، ويردد الصبي كما يفعلون واسكته أفعص منهم إساماً وأسرع حفظاً ، فالقصاحة هي أول ما يظهر من صفات ذلك الصبي وبها يتحدث المريض إلى أبيه ! وتعهده صراف القرية كذلك ميخائيل غطاس فعماه مبادئه الحساب ، وكان تعلم الحساب يحدث عادة على يده هؤلاء الصيارفة وبخاصة لأبناء الشاشن الذين يتصل بهم هؤلاء ومحرسون على موتهم ورضائهم .

ومات أبوه وهو في الثامنة من عمره ، ولكن ينته لم يحمل بيته وبين أن ينال قسطاً من التعليم في الأزهر ، فقد أرسله أخيه الأكبر محمد عرابي إلى هناك عسى أن يكون عالماً من علمائه ، ولكن الصبي لم يلبث بالأزهر إلا أربع سنوات تعلم فيها على طريقة الأزهر يومئذ شيئاً من الفقه والتفسير وال نحو ؛ وحفظ الصبي القرآن بالضرورة كما يفعل من ياتحقون بهذا الجامع المقيد .

وعاد الصبي إلى قريته واستأيا نعلم ما الذي حمله على العودة ، أكان ذلك نفوراً من التعليم وركوناً إلى البطالة أم كان لرغبة منه في أن يسلك في الحياة - بيلاً غير سبيل الأزهر ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نتبينه على وجه اليقين . وكان من الممكن أن يعيش هذا الصبي القروي بقية عمره في تلك القرية زارعاً ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين .

ولكن الأقدار تخرجه بعد قليل من القرية ليغدو فيما بعد رجالاً من رجال مصر ، بل ليكون أول مصرى فلاح ينطق بحق مصر وتمثل في حركته الروح القومية لمصر وقد استيقظت من سبات طويل وأخذت تنفس عندها غبار القرون ؟ أجل أخرجت الأقدار هذا الفلاح من قريته ليقف وجهاً لوجه تلقاء خديو مصر يعلن إليه في رسالة وفي غير طيش أن « أهل مصر ليسوا عبيداً وأنهم لن يورثوا بعد اليوم » ويفتح بهذه الوقفة وبهذه الكلمة فصلاً جديداً في تاريخ هذه البلاد فيكون فضله فضل الرواد يخطون الخطوة الأولى فيظل لهم الفضل ويظل لهم الحمد وإن اتسعت بعدم الخطوات وتواتر الوثنات ؟ ومناسب خطوة عرابي في طريق الحرية والقومية كانت أقل خطراً من وثبة سعد ، ذلك الفلاح الذى نهض من بعده والذى غضب مثل غضبه ووثب مثل وثبته وأتجه نفس وجهته ، ولكن لم يكن من رجال السيف فلم يشهر إلا القلم سلاحاً ولم يتعط إلا أعود النابر بمحاهدة وكفاحاً . ونخب أن نقف عند أمرين في شأنه كان لهما أثر بعيد في تكون خلقه وخلق شخصيته ؟ أما أولهما فهو أن أبوه كان شيخاً في القرية ، وأما الثاني فهو أنه في التحدث عن نسبة يصل أجداده بالحسين عليه السلام .

كان يجد أبناء الحكماء في القرى حتى وإن لم يكن حظ آبائهم من التراء كبيراً أنهم في موضع يصغر دونه موضع أبناء الزراع ، ففيهم على لدائنهم شيء من الترفع وفي نفوسهم شيء من الكبر على من حولهم من الناس ، إذ يجد الصبي منهم أيام محااطاً بالتوقيير من حنوف الجان يتقدم الناس إذا سار ويفسح له صدر المجلس إذا جلس ، وتبعد عليه إذا كان ذا مال آثار النعمـة في مظهـره وملبسـه كـأنـدو ذلك الآثارـ في مسكنـه وفيـها يقتـنـي من دوابـ وفيـها يقـومـ على خـدمـتهـ من خـدمـ أو يـلـوذـ بهـ من أـتـيـاعـ أو يـحـيطـ بهـ من بـطـانـةـ ؟ لذلك كان إذا خـرجـ هـؤـلاـ الأـبـناـءـ من القرـيـةـ إلى مـحـالـ أوـسـعـ منهاـ خـرجـواـ وـفـيـ أـنـفـسـهـمـ ذـلـكـ الـاعـتزـازـ الـذـىـ أـفـوهـ فـيـ يـثـئـمـ الـأـوـلـىـ فـاـ يـحـبـونـ أـنـ يـسـمـعواـ كـلـةـ نـايـةـ بلـ أـنـهـمـ لـيـكـوـهـونـ أـنـ يـجـدـواـ عـدـمـ الـاـكـتـرـاتـ لـهـمـ بـلـ التـطاـولـ عـلـيـهـمـ ؟ ولـقـدـ يـوحـيـ إـلـىـ الصـبـيـ مـنـهـمـ مـاـ غـرـسـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـذـ صـفـرـهـ أـنـ يـثـورـ عـلـيـهـ

الوضع الجديد إما باظهار القوة المدنية على من كانوا في مثل سنه ، أو بالتفاخر عليهم بالمال والنسب ، وإما بالعناد والشغف على من لهم عليه حق الطاعة من المربيين والرؤساء ؛ ولقد يسرف هؤلاء في توهمون الذلة فيما ليس فيه مذلة أو يفسرون بالإهانة ما لم يقصد به أية إهانة فيبدون لذلك كثيراً من الإباء ويفالون فيه حتى ينقلب إباوهم شرامة أو حتى يمحسوه الناس شراسة .

ونحس من سيرة عربابي أنه كان أحد هؤلاء ، فلما قدر له أن يخالط قوماً كانوا يتظلون إلى المصريين جميعاً نظرة الاحتقار ويجعلون نعهم بالفلاحين مسبة لهم ، ثارت في نفسه الحمية ثم عصفت في رأسه النخوة فـكان صوته أول صوت مصرى مثل القومية المصرية وإن كان بذلك يفصح عن شعور غيره من أحاسوا مثل إحساسه ولكن لم يكن لهم مثل جرأته وقوته شخصيته .

وزاد الحمية تسعراً في نفس عربابي ثانية الأمراء الذين أشرنا إليهمما وذلك وصله أجداده بالحسين بن علي رضى الله عنهما ؟ فسواء أصحت هذه الصلة أم لم تصح فقد كان بها مؤمناً ، وكان إيمانه بها كفيلاً أن يعلاه أ Ngha فـعزه فـن كان مثله كما زعم شريفاً عريباً ينتهي إلى الحسين عن عليه أن يستذل وبخاصة بأيدي قوم يرى أنهم هم علواً فـهم دونه علواً وشرفاً ؟ وإنك لتلمع اعتزازه بـنسبه في تمله بـبيت الفرزدق « أولئك آباؤي » في خاتمة كلامه عن نسبة في مذكراته .

بق الصبي في قريته لا يعلم ماذا يكون من أمره في غده ، ولا يخالط إلا الفلاحين من أبناء القرية ، أما الشراكسة المترفمين الذين يعتقدون الفلاحين فـلم يـلك يـعلم من أمرهم شيئاً ولا كان يـسمع يومئذ بـوجودهم ، وأـنـ له ذلك في قريته ، ولكن الأقدار عمـما قـرـيب سـترـميـ بهـ إـلـيـ حيثـ يـجـدـ نـفـسـهـ كـاـيـمـدـ بـنـيـ قـوـمـهـ مـوـضـعـ اـزـدـرـاءـ هـؤـلـاءـ ، فـلاـ يـطـيقـ هـذـاـ الـفـلاحـ الـمـصـرـىـ تـرـفـهـمـ وـكـبـرـيـاهـمـ وـالـمـنـتـعـ بـأـكـثـرـ الـنـاصـبـ فـالـجـيـشـ ، وـإـذـ ذـاكـ يـنـاضـلـ عـنـ قـوـمـيـتـهـ وـيـنـضـبـ لـكـرـامـتـهـ وـيـكـوـنـ فـهـذـهـ الدـائـرـةـ الضـيـقـةـ وإنـ لمـ يـقـصـدـ مـمـثـلـاـ مـصـرـ كـلـهاـ الـقـرـيـهـ كـرـهـتـ الـأـجـابـ يـوـمـئـذـ وـقـدـ اـسـتـيقـظـتـ فـيـهـارـوـحـ الـقـومـيـةـ ، تـلـكـ الـرـوـحـ الـقـيـمـةـ تـنـمـيـلـ فـيـاـ اـمـتـلـاـتـ بـهـ نـفـسـ ذـلـكـ الـفـتـيـ الـقـرـوـيـ الـقـادـمـ مـنـ قـرـيـةـ مـصـرـيـةـ .

في صفوف الجيش

لم يطل بالصبي المقام بالأزهر ، ولم يطل به كذلك المقام في قريته ، فإن القدر الذي لم يشا له أن يكون شيخاً من أشياخ الأزهر ، ولا فلاحاً من فلاحي القرية ، قد شاء له أن يكون جندياً في صفوف الجيش .

أراد سعيد باشا أن ينهض بالجيش المصري ، فأمر أن يكون في صفوفه أبناء الشايخ والأعيان ، كيلا يختقر الجندي في نظر الناس ، إذ كانوا لا يرون إلا المستضعفين والفقراه يخشدون ويساقون إلى الجيش ليكونوا عسكراً ، أما ضباطه وقادده فكان أكثرهم من الشركس .

وكان بين من الحق بالجيش من أبناء الأعيان هذا الفتى الأزهري الفروي ، وكان بمئذنة الرابعة عشرة من عمره ؛ وبالتحاقه بالجيش تبدأ مرحلة جديدة في حياته ، ثم تنتهي من ناحية أخرى مرحلة تعليمه ، ومن ذلك ترى أن كل ما ناله هذا الفتى من المعرفة لم يعده ما تلقاه في المكتب ثم في الأزهر حتى سن اليقاعة ، اللهم إلا ما كان من مطالعاته فيما بعد ، وهي أمر لا تستطيع تحديده ...

انتظم عربي في سلك الجيش جندياً صغيراً ، ولكن حظه من القراءة والكتابية على قلته ، وإنماه بشيء من علم الحساب قد أجدى عليه من أول الأمر فهين في عمل من أعمال الكتابة بالأورطة الرابعة من آلات المشاة الأول^(١) .

وما ابى أن رق عربي بعد سنتين إلى رتبة ملازم ثان ثم إلى رتبة ملازم

(١) ويدرك عربي في تاريخ حياته الذي كتبه لست بذلت وألطفه هذا بكتابه ، أنه كره أن يعمل هذا العمل الكثافي لأنه لا مجال فيه للرق ، وعا أنه كان يطمع أن يكون شخصية كبار الإقليم . فقد ألح على رئيسه أن يلحقه بصفوف الجيش ، ولكن رئيسه أفهمه أنه يخسر بذلك ، لأن أجره في وظيفته هذه ستون قرشاً في الشهر وأجر الجندي خمسة عشر قرشاً . وما زال عربي بهذا الرئيس حتى ألح له بالجيش في مرتبة جاوشن .

أول فيوزباشي في نفس السنة ، وكان يومئذ في السابعة عشرة ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائد قسم ، وكان عربي أول مصرى وصل إلى هذه الرتبة كما يقول في مذكراته .

وصل هذا الجندي من رتبة الجنادى إلى رتبة قائد قسم في أقل من أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوظه له عند أحد ، وإنما كان سلاحه ذلك الفدر من العم الذى أشرنا إليه ، فيه تذكر أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز بها الامتحان متوفقاً ، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين في ذلك الجيش ، ولا شك في أن هذا الترقى السريع قد ثبت في نفس الفتى القروى كثيراً من الطموح والإقدام ...
على أنه كان طموحاً يطبعه ، جريئاً في عصر كثيراً ما كانت تتم الجرأة فيه خرباً من المصييان والتمرد كاسياً بيابنه ، ولوسون روى من موافقه في ذلك العصر ما يزيد معنى بسالته وضوحاً ، ويظهرها مصاعفة .

وأول ما عرف عنه في الجنديه كراهته للمنصر الشركى ، فكان لا يفتأ
يقارن بين نصيب هذا المنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيد المقارنة
إلا غضباً وكراهة لمؤلاء الأجانب ...

أليست هذه النزعة فيه هي زعيمه الوطنية في الجيش يوم تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم ألسنا نجد فيها جانبًا من الوطنية ونحس معنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهمون هذا من جانب عربي إلا على أنه خرب من الأنانية والجشع ، بل لقد يسرف بعضهم في رمونه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعلى المراتب في غير جدارة ؟ وإنهم في الحق ليتدحرون بذلك من حيث لا يشعرون وإن كان الطموح بالنفس والشغور بالقومية تبجح ، فإذا نسمى التقاعد والتخاذل والاستخذاه أمام الأجنبي ؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عربي هذا ، فما أجدره بالإعجاب والثناء .

وكيف يستطيع رجل في مثل موقفه أن يقنع السكارى أن زعيمه كانت قومية يقصد بها بنى قومه جهيناً ؟ وأى عيب في أن يبدأ بنفسه فيرق بها ؟ أليس مصر يا ؟

وهل كان يمتنز إلا بمصراته إذا اعترض نفسه ؟ على أنه لو أراد بالرق نفسه خسب دون أى اعتبار قوى فما وجه العيب في ذلك ؟ أى يكون من العيب أن يتطلع الإنسان إلى المعاش ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه في غير حق ، حتى ولو كان ذلك الغير أجنبيا ؟

كره عربى الأجانب فى الجيش كرهاً شديداً ، وبخاصة هؤلاء الشراكسة التنصbullيين لأنفسهم المترفرين على المصريين ، واستقر هذا الكره في أعماق نفسه ، ولسوف يجر عليه عنتاً كثيراً وضيقاً ، ولكنه لن يأبه لذلك ، ولسوف يظل على عناده وإصراره حتى يصبح الأمر أمر الوطنين جميعاً في الجيش لا أمر أحد عربى خسب وظل عربى في مرحلته الأولى في الجندي ساخطاً على هؤلاء الأثراك والشركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم شفبه ، يكيدون له ويکيد لهم ؛ وإنما انلمس في هذا سبباً قوياً من أسباب زعامته لاحرك المسكرية فيما بعد ، فلسوف يلتقي في دار هذا التبرم الساخط رؤوس الساقطين الحانقين من رجال الجندي يوم يزمعون أن يستنكوا إلى الحكومة في أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من أذى من جراء سياسة وزير الجهادية الشركسي عنان رفق ...

ويذكر عربى في مذكراته ما كان يبنه وبين سعيد باشا من حسن الصلة حتى لقد اختاره ياوراً له في زيارة المدينة المنورة ، فكان على مقرية منه أثناء هذه الرحلة وقد أهدى إليه هذا الوالى كا يذكر تاريخ نابليون مترجمًا إلى العربية ؛ ولقد قرأ عربى هذا التاريخ كله في ليلة ، كما قال في مذكراته عن نفسه التي كتبها لستر بلنت والتي أثبتهما هذا في آخر كتابه ، وقد ذكر فيها عربى أن سعيداً ألق بالكتاب مغضباً على الأرض إذ رأى أن نابليون استطاع أن يفتح مصر بثلاثين ألف جندى ؛ وتتناول عربى الكتاب فلم يتم حتى أنه ، وجاء إلى سعيد يتبئه أن نابليون استطاع ذلك بالجيش المدرّب ، وأن سعيداً يستطيع أن يجعل لمصر جيشاً مدرّباً على تحطيم جيش نابليون ؛ ولست أستطيع أن أتبين على وجه اليقين ما تركته قراءة مثل هذا التاريخ من آثر في نفسه ، فلم يعلق هو على ذلك إلا بقوله : « ولما

طالمت ذلك الكتاب شمرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سبباً لطالعى كثيراً من التوارىخ العربية »^(١) .

ولست أدرى كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بمحاجة مصر إلى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة ذلك الجندي المفاسد الذى وصل بمحده إلى قمة المجد الحربي وبلغ أوج الشهرة والجاه ، توحى إلى كل من يقرؤها معانى الإقدام والبطولة وتغلاً النفس تطلعاً وحماسة ؛ وعلى هذا فلا يصعب أن تصور ما عسى أن تلقىه تلك السيرة من المعانى في نفس كنفس عربى الجندي المتعطلاً المتوقتب ...

ويشير عربى في مذكرةه إلى أن سعيداً كان يميل إلى المصريين في الجيش ويريد أن يرفع عنهم مالحقهم من غبن على يد الشركس ، كما يشير إلى أنه كانت لسعيد زرعة وطنية تتجلى في محبتة لمصر والمصريين ، وفي رغبته أن ينالوا قسطهم الحق من الترق في الجيش .

وما يعنينا من ذكر هذه العلاقة بين سعيد وعربى إلا ما فيها من إقبال عربى على كل من يحب المصريين ، فهذا الإقبال دليل على أن الزرعة الوطنية القومية كانت منبعثة من أعماق نفسه ، وعلى أن شفبه على الشركس والترك لم يatk بداعم الأثرة كما يخلو لبعض الناس أن يرموه .

ويقول عربى إن ميول سعيد الوطنية قد تبيئت في خطبة ألقاها في حفل جمع كثيراً من علية القوم ، وقد أثبت عربى في مذكرةه بضعة أسطر تحت عنوان : خطبة المرحوم سعيد باشا ، وبدأها بقوله : قال مرحلاً .

فهل أثبت عربى خطبة الباشا وهو ياقبها ؟ إذا صح ذلك كان لـكلام سعيد الذى يورده عربى أهميته في الدلالات على اتجاه هذا الراوى يومئذ ، وإذا كان عربى يذكر ما وعنته ذاكراً كرهه خسب ، فإن في هذا الذى يذكره عن سعيد ما هو كاف لأن يكشف عن زرعته ؟ وقد جاء في هذه الخطبة قول سعيد حسبما أثبتت عربى

(١) كشف الستار عن سر الأسرار .

« وحيث أنّي أعتبر نفسي مصرياً فوجب على أن أربّ أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجمله صالحًا لأنّي خدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل » .

يقول عراقي : « فلما انتهت الخطبة خرج الدعوون من الأمراء والمعظمه غاضبين حانقين مدھوشين مما سمعوا ، وأما المصريون خرجوا ووجوم تهلل فرحاً واستبشراراً . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر في أساس نظام مصر المصريين . وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضح أساس هذه النهاية الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة » .

ولقد كتب عراقي هذه الآراء بعد الثورة ، واملأ في ذلك ما يدعو إلى ضعف الثقة في قيمتها عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال مثلاً في مذكرات نابليون التي كتبها في منفاه في سنت هيلانة ، فلقد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا إلى نفسه فنظر وتدبر .

ولكن أعمال عراقي التي لا ينكرها المؤرخون ، حتى المفترضون منهم ، لا تتناقض مع كثير مما جاء في مذكراته ، وعلى الأقل في هذا الجانب الذي تخلص فيه الدليل على ما تنسنه من أن عراياً قد أتجه منه نشأته اتجاهها وطنياً قومياً ؛ وهذا أمر نداء على جانب عظيم من الأهمية ، فوق هذه النزعة القومية ترى عراياً الحقيق . أما عراقي الذي صوره خيال المفترضين من المؤرخين والمدافعين عن الاحتلال من كتاب الإنجليزي ذا إيمد عن هذا ؛ وهل كان يحمل لهؤلاء الذين استغلوا حركة عراقي أقبع استغلال إلا أن يصوروه أقبع صورة ، فلا يكون عندهم إلا جندية جاهلاً مفروضاً ، وانته الظروف فراح يختبط في حماقته لا يلوى على شيء ، وما زال في جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يسلمه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الإنجليزي ...

ما كانت حركة عراقي عسكرية بحثة كما يتصور البعض ، وما كان هو بالأحق ولا بالمحنون ، وإنما كان لا بد أن تلتقي الحركة العسكرية ، وهي لا تخلي من

الصفة الوطنية ، بالحركة الوطنية العامة ، ولقد تم هذا الانتقام في شخص عرابي ، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الأمة يوم عابدين ؛ ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاكم الدائين وتقود نار الفتنة تنفيذاً لسياسة مرسومة سوف تحيط اللثام عنها بكل ما وسعنا من حجة .

هذه البرزعة الوطنية القومية في نفس هذا المصرى الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة هي التي جعلت إليه قيادة الحركتين يوم التقى ؟ وما نشير إليها الآن هذه الإشارة في غير موضعها من سيرته إلا لتبين هنا أنها نزعة أصلية فيه جاشت بها نفسه منذ شب ، وكانت الثورة التي نشير إليها هي مظاهرها فيما بعد . كتب في ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابي يقول في علاقة عرابي بسعيد : « وقد حظى عرابي ، وكان شاباً حسن الطميمة ، بمعطفه ، حتى لقد اختاره أركان حرب له ورافقه إلى المدينة في السنة التي سبقت وفاته . وقد كون عرابي آراءه السياسية الأولى أثناء هذه الصلة القريبة بسعيد » ، وهذه الآراء هي المساواة بين طبقات الأمة ، وما يجب لل فلاح من احترام باعتباره المنصر الفالب في القومية المصرية ؛ وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذي جعل لعرابي ميزة بين مصلحى ذلك العصر . فقد كانت حركة الأزهر ترى إلى إصلاح حال المسلمين عاملاً بغير تمييز بينما كانت حركة عرابي في جوهرها قوامها الجنسية ، وهذا جعلها أوضح في معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر شهرة وذبوعاً » .

ولقد كان لصلة عرابي بسعيد على هذا النحو أثرها في حنق عرابي على إسماعيل فلم يكن في قلب هذا الوالي شيء مما كان في قلب سلفه من الميل إلى المصريين ، بل لعل ميله كان إلى الشراكسة ؛ وقد أدى ذلك منه إلى ازدياد كراهية عرابي لهؤلاء واضطهادهم ، إذ رأى أن كل حظوظهم عند الوالي إنما هي على حساب الوطنيين وقويت في نفسه البرزعة الوطنية ، وزادها قوة اتصاله بتلك الحركة الوليدة التي أخذت تدب في جسم الأمة وقد كرّتها الكوارث من وراء سياسة إسماعيل ودبور إسماعيل .

وازدادت كذلك في نفسه نزعة الترد والسطح ، وتحلت في موقف له كان من أهمها ما كان ينته وين خسر وباشا الذي ما زال يكيد له ويسمى بالوشایة به عند أولى الأمر حتى رفت من الجنديه .

وكان خسر هذا شركسيا ، وقد رق حتى أصبح في مرتبة اللواء وصار رئيساً لمرابي الذي كان يومئذ قائماماً للآلية السادس ، وينذر عرابي أنه رق «لابعله وعارفه» ، بل لكونه جركسياً ومن الخارجيين على الدولة العلية مع إبراهيم باشا بن محمد على باشا في تلك الفتنة الدهاء التي دككت سياج الإسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الخامسة لجيمع الودادين » .

ويمزو عرابي سبب رفته إلى أن خسر وقد سار بالوقيعة ينته وين وزير الجهادية متهماً إياه بأنه «صلب الرأي شرس الأخلاق لا ينقاد لأوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية» ؟ ثم يقول عرابي معقباً على ذلك : «وما بي والله من شراسة ، ولكنني جئت على حب العدل والإنصاف وبغض الظلم والإجحاف» .

وينذر عرابي سببين للخلاف ينته وين خسر ، أولهما أنه لم يشأيه فيما ذهب إليه من رغبة في ترقية أحد الضباط من كان عرابي من ممتحنיהם وكان في نظر عرابي لا يستحق الترقية بينما كان خسر وشديد الرغبة في ترقيته ، هذا في الوقت الذي أبعد فيه خسر عن الترقية ضابطاً آخر يستحقها ؛ وأوعز خسر إلى أحد الضباط فدبر مكيدة لعرابي ، فاتهم بإساءة استعمال سلطنته وحكم عليه بالحبس واحداً وعشرين يوماً ، ولكنه رفع ظلامة إلى المجلس العسكري الأعلى فقضى بيراءته .

أما السبب الثاني ، وعلمه فيما أحسن أقوى السببين ، فهو أن خسر وسمى سعيه حتى حرر عرابي من أرض أنعم عليه بها الخديو إسماعيل فيمن أنعم عليهم من رجال الجيش ، وذلك عقب حفلة سر فيها الخديو من حسن نظام الجندي .

ومازال خسر يكيد له حتى رفت من الجنديه كما أسلفنا ، ولنا أن نتصور مبلغ ما وافق في نفسه من السخط والثورة على خسر وعلى الشراكسة جميعاً في شخص خسر و

والذى يعنينا ما كان بينه وبين خسره أنه يصور لنا شدة الخلاف بين عربى ورؤسائه فى الجيش مما كانت أسباب ذلك الخلاف .

كذلك يكشف لنا ما علق به عربى على هذه القصة عن ناحية من نواحي عقله ، فلقد راح يذكر ما حل عن آذوه من مصائب معدداً أسماء هم مبيناً ما لحق بكل منهم مورداً ذلك على أنه انتقام له من الله ... وفي هذا نوع من السذاجة في رأى من ينظرون إلى مثل هذه العقائد نظرة يقولون إنها حرة ، ونوع من الإيمان في نظر آخرين لا يعرفون هذه النظرة التي يصفها أصحابها هذا الوصف ؛ كما أن فيه دليلاً على ما كان للدين من سلطان على عقل عربى وقلبه .

على أن خصومه قد استغلوا هذه الناحية الدينية من حياته استغلالاً مزدوجاً إذ يحاولون أن يسوقوها دليلاً على أنه كان رجلاً لا يختلف كثيراً عن عامة الناس في جميع أفكاره وزعاته ، وليثم يشعرون أنهم بهذا التعميم الذي لا يبرر لهم إثنا عشر مثالاً من عقولهم ؛ وأنهم يسيئون إلى أنفسهم ولا يسيئون إليه .

كان للدين سلطان على عربى ما في ذلك شك ؟ ولكن تلك كانت نزعة العصر ؛ على أنها نسأل ماذا يضيره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وخلائقه أن يهدى من حسنهاته ؟ وهل عاب أحد هذا العيب على كرمول وهو جندي مثله تزمهته ونقشهه وضرامته في دينه ؟ وهب أن عربياً كان يغلو أحياناً في الخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسي أو صرفه عن وجهته التي عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على أنه أخذ يوماً من الدين سلاحاً في غير موضعه ؟ أو أنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجihad والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عربى ثلاث سنوات مبعداً عن وظيفته إلى أن عفا عنه الخديو بعد أن خللت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاثة مهملة في غير سبب ظاهر ؛ ولقد تأصل في نفسه كره الاستبداد في كافة صوره كما استقر في قلبه حب الانتقام من هؤلاء

الشراكة الذين يرثون أدى ونفحة على المنصر الوطني .

وطلب عرابي أن يحال على الأعمال المدنية ليبعد عن دسائس أعدائه كما يقول في مذكرةه ؛ وإنه ليدرك أنه بذل في تلك الأعمال جهداً عظياً ووفر في أحدها للخزانة مبلغاً كبيراً كان لو لا نشاطه ذاهباً لا محالة إلى خزانة إحدى الشركات الأجنبية ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية أما هو فكان جزاؤه كما يقول « وكوفئت أنا على تلك الأعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى في الله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ! وما أكثر المجاذب في الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة » . على أن يلقيت يذكر في كتابه أن تكليف عرابي بتلك الأعمال كان على غير رغبته ، وأن ذلك كان سبباً من أسباب نفحة على العهد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه إلى الساخطين والمتذمرين .

ولم يلقيت عرابي أن أعيد إلى صفوف الجيش ، وكانت الحكومة تستعد للحملة الحبشية فرفقت بعض رجال الجيش إلى مناصب أعلى مما كانوا فيها ، ولم يرق عرابي وكان قد جمل على ديوان الحرية في ذلك الوقت الأمير حسين كامل ابن اسماعيل باشا ويقول عرابي في مذكرةه « وبعد اختيار المختارين للفرقة الثانية من الذين ترقوا بمحضره الأمير المشار إليه قال للذين تأخروا عن الترق : اجهدوا أيها الضباط في التعليم والتمرин حتى تدركوا ما وصل إليه إخوانكم الذين ترقوا ؛ والله يشهد وفطاحل الجهادية أن التأخرين في الترق هم أساندة الذين ترقوا في العلوم الحرية وهم أرق أخلاقاً وأدباً ... ولكن الفرض يعمى ويصم ... ثم التفت الأمير إلى وقال بلهجة الآسف : إنني طلبت من أفندينا ترقيتك إلى رتبة الميرالاي فقال إنك من بقوع سعيد باشا ، فقطعته الكلام وقلت إنني استبقت أحد بل خادم الحكومة والوطن وبلدي هربة رزنة بمديرية الشرقية ، ولكن بقاع سعيد باشا هو راتب باشا لأنه ملكه ، فقال لا تفتر هتيك في تأدبة واجباتك وإنني سأبذل جهدي في ترقيتك عند ترتيب الفرقة الثالثة ، فشكرت له وخرجت وأنا شاعر

بأن لا أثال خيراً في عهد والده لأن متحقق من أن خسرو باشا وراتب باشا
ورؤساء الجراكسة يمارضون في ترقى بكل ما في قدرهم ، وقد سمعت من أحد
أمرائهم وهو رجل معقول غير متخصص لبني جنسه على ما فيه من غلطة أنه حضر
مجلس لأولئك الجراكسة حيث تذكرةوا في اختيار الذين يريدون ترقيتهم إلى
الفرقة الثالثة فعرض عليهم ترقى إلى رتبة الأمير الای مراعاة للحق والإنصاف
فأبوا عليه ذلك ، فقال لهم ربما ترقى قهراً عنكم بوماً ما إذا لم يرتفع برمائكم
واختياركم وأنتم تعلمون أنه أقدم الفاقعات وأعلمهم وفيكم من كان تحت إمرته
فالأخلى بكم لا تعرضا أنفسكم للاتقاد ؟ ولكنهم لم يزدادوا إلا اعتواً ونفوراً ؟
ولما رتبت الفرقة الثانية والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجمادية الأمير
حسين كامل باشا على الوفاء بوعده لإصرار السردار راتب باشا على رفض ترقى ؟
ومن الغريب أن الآلای الذي تحت إدارته ظل خالياً من ضابط من رتبة
الأمير الای مدة ثمانية أعوام ، وكانت أنا القائم بوظيفة الأمير الای بأحسن نظام
وأكمل تربية وأدق تعليم وأحسن هيئة عسكرية ، فما أوضح هذا الفلم المبين » .
هذا كلام عربى ومهمها يكن من أمره فإن حرمانه من الترقية سواء أكان
مرده إلى دسائس الشراكسة أم إلى أي سبب آخر كان خليقاً أن يحمله على الثورة
والسخط ، وأن يغيل به إلى اعتناق مبادى الحركة الوطنية التي أخذت تشيع في
نفوس الساخطين على حكم إستعمال .

والحق عرب بالحالة الحبسية ، ولكن عمله في هذه الحلة لم يكن عمل الجندي
المحارب ، فقد كان يعمل في منصب « مأمور مهمات » بخصوص ، ولقد حنق عربى
على تلك الحلة ، فهو ما يفتاً يندد بها في مذكرةه وبصف ما حل فيها بالجيش من
كوارث في غير موجب ، وقد اتهم لورنج القائد الأميركي الجنس فيها بالخيانة ،
إذ كان يتصل عن طريق أحد القساومه بالأحباش ويطلعهم على كل شيء ...

ويقول بلنت في كتابه أنه « قد عاد من الحلة ساخطاً كاسخط العائدون
على ما كان فيها من الوضى ، وإليها يرجع أجياد نفسه نحو السياسة ، وازدياد بعضه

وغضبه ، ذلك الغضب الذى كان في ذلك الحين متوجهاً أكثر ما يتوجه إلى الخديو ». وفي شهر فبراير عام ١٨٧٠ وقعت مظاهره الضباط الخاطئة ، تلك المظاهر التي نصح فيها بوادر الثورة العسكرية ؛ وبتلخيص هذا الحادث في أن عدداً من الضباط بزعامة البكباشى لطيف سليم قد توجهوا إلى وزارة المالية يطالبون ببرتباتهم التأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هؤلاء الضباط عليهم وأشبعوا نوبار لطا واسكا وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك إلى وزير المالية ؛ وكاد يتفاقم الحادث لو لا أن خف إلى هناك الخديو بنفسه في فرقة من حرسه حينما تمنى إليه ذلك النبأ ، وأمر الخديو بإطلاق النار إرهاياً ، فأطلقت رصاصات في الهواء وفر المتظاهرون . ولكن تهمة القيام بهذه المظاهره وتدبرها قد وجهت إلى عرابي واثنين آخرين من الضباط ، وعقد لهم مجلس يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبتهم وفصل كل منهم عن الأداء إلى جهة بميدة ، وكانت الإسكندرية من نصيب عرابي وفيها اتصل بكثير من الأوروبيين .

وبدفع عرابي التهمة عن نفسه مقرراً أنه لم يكن له يد فيها قط ، إذ كان في رشيد وقت وقوع الحادث ؛ ذكر ذلك في مذكرةه وذكره كذلك في التاريخ الذي كتبه لستر بلنت بناء على طلبه عام ٩٠٣؛ بعد عودته من منفاه ؛ ولقد أطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابي ، فوافق على براءته من هذا الحادث .

ولقد أدى انهاجم عرابي على هذا النحو إلى ازدياد كرهاته لإسماعيل وعهد إسماعيل ؛ ولوسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التي توجهه إلى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجود الإصلاح ؛ قال عرابي في ذلك التاريخ الذى كتبه لصديقه بلنت والذى أثبتته هذا في آخر كتابه « ولكن قبل أن نفترق اجتمعنا فافتتحت أن نتحد ونخلع إسماعيل ، ولو أننا فعلنا ذلك لكان خير حل للقضية ، لأنه كان يسر الفنائل أن يتخلصوا من

إسماعيل على أية صورة ، ثم إنه كان يوفر على البلاد ما حذر بعد ذلك من تعدد في الأمور : كما كان يوفر تلك الملايين الخمسة عشرة الذى جعلها إسماعيل معه عندما خلع ؛ ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فإن مقترحى لم ينفذ وإن حاز القبول ؛ وقد أتى خلع إسماعيل بعد ذلك عبئاً ثقيراً عن كواهتنا وعم الفرج ، ولكن لو أثنا فعلمبا ذلك بأنفسنا لكان أفضل إذ أنها كما نستطيع أن نتخلص من أمراء محمد على كلها فإنه لم يكن فيها حاكم صالح إلا سعيد وكنا نستطيع أن نعلن إقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل إسماعيل عند جسر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » .

ومن هذا الذى ذكره عرابي يتبعى مبلغ حنفته على إسماعيل ، ولو لا أن سعيداً كان يعطى على المصريين حقاً وأن إسماعيل لم يكن يجد منه ما كان يجد من سعيد من مظاهر هذا العطف ، لجاز أن يتم لهم عرابي بأنه يحب سعيداً وبغض إسماعيل متأثراً بداعع شخصية .

أما عن اتهام عرابي وزميليه فى هذا الحادث ، فإن عرابياً يورد له سبباً فهو يتهم إسماعيل بأنه كان المحرض على هذه الفتنة ليتخلص من الوزارة الأوروپية ، ولكن ينفي عن نفسه الشبهة ، فإنه اتهم هؤلاء الضباط الثلاثة بأنهم مدبروا الحركة .



يفظه ونهوض

أخذت الجلترة وفرنسا تتنافسان في بسط نفوذها في مصر منذ حملة بونابرت على هذه البلاد ، ولكنهما وجدتا في محمد علي رجلا يمد سلطانه لا يفقد ذلك السلطان ، فاكتفت أولاهما بالعمل على تحطيمه وفرحت الثانية بمصادفته ...

وساقت الأقدار ولادة المهد لإسماعيل قبل موت سعيد فاستبشر الناس وارتقبوا الخير في عهد هذا الأمير الذي ذاع من صفاتـه فيهم ما حبـبه إلـيـهم ، وكانـوا قد عـلمـوا أنهـ من ذـوى الـنبـاـهـةـ والـحـزـمـ وبـخـاصـةـ فـي شـؤـونـ الـمالـ ، وـلـمـ يـطـلـ تـرـقـ الناسـ فقدـ آـلـ إـلـيـهـ الـأـمـرـ عامـ ١٧٦٣ـ .

وراحت مصر تستقبل طوراً من أطوار تاريخها ، نحو أشد الحيرة ماذا نسميه وبأى الصفات تتعـهـ ... طوراً كانـ غـربـياً حقـاً تركـ غـرابـتهـ المـقولـ في دهـشـةـ وتكلـفـ منـ يـريـدـ الإـنـصـافـ فـي درـسـهـ عـسـراًـ شـديـداًـ .

ما برحت فرنسا والجلترة تراقبان سير الحوادث في وادي النيل ؛ أما فرنسا فكانت لا تـنـعـمـ علىـ أنـ زـيـدـ نـفـوذـهاـ فيـ مـصـرـ ذـلـكـ النـفـوذـ الذـيـ وـضـمـتـ أـسـاسـهـ جـلـتهاـ عـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ ، وـالـذـيـ مـاـ فـتـىـ يـعـظـمـ وـيـزاـيدـ فـيـ عـهـدـ مـحـمـدـ عـلـىـ ، وـهـاـ هـوـ ذـاـ فـيـ عـهـدـ إـسـمـاعـيلـ قـدـبـلغـ مـبـلـغاًـ عـظـيـماًـ حـيـماًـ اـنـصـلـ الـبـحـرـانـ وـاسـتـطـاعـ دـىـ لـسـبـسـ أـنـ يـجـرـىـ بـيـنـهـماـ القـنـاءـ الـتـيـ سـوـفـ تـغـيـرـ جـرـىـ تـارـيخـ هـذـاـ الـوـادـىـ .. وـأـمـاـ الجـلـترةـ فـكـانتـ دـائـيـةـ عـلـىـ سـيـاسـتـهـاـ تـحـولـ دونـ ظـهـورـ قـوـةـ فـيـ مـصـرـ ، وـقـدـ اـسـتـرـاحـتـ مـنـ مـحـمـدـ عـلـىـ وـرـاحـتـ الـيـوـمـ تـقـفـ فـيـ وـجـهـ حـفـيـدـهـ وـخـرـصـ عـلـىـ أـنـ يـظـلـ خـاصـيـاًـ لـلـخـلـفـةـ ، وـلـاـ التـقـ الـبـحـرـانـ أـصـبـحـ هـمـهـاـ مـتـجـهـاًـ إـلـىـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ مـصـرـ اـتـسـيـطـرـ عـلـىـ القـنـاءـ .

ونـصـبـتـ كـلـ مـنـ الدـوـلـتـيـنـ شـباـكـهاـ وـعـوـلـتـ كـلـ مـنـهـماـ عـلـىـ أـنـ تـتـدـخـلـ فـيـ شـؤـونـ مـصـرـ مـنـ طـرـيقـ الـمـالـ أـوـلـاـ ثـمـ مـنـ طـرـيقـ السـيـاسـةـ بـعـدـ ذـلـكـ .

شهدت مصر في هذا المهد جلائل الأعمال ومظاهر الاستقلال ، كما شهدت عوامل الـيل وعـناصر الانـحلال ، شـهدت يـد التـعمـير تـبـعـثـ الحـيـةـ والنـشـاطـ والنـقـوةـ فيـ الـعـاصـمـةـ وـعـلـىـ صـفـحةـ الـوـادـيـ ؛ وـشـهـدـتـ يـدـ التـخـرـيبـ تـهـوـيـ بـعـوـهـاـ فـغـيرـ رـحـمـةـ أوـ هـوـادـةـ فـتـزـلـلـ الـبـنـيـانـ وـتـقـوـضـ الـأـرـكـانـ ؛ شـهـدـتـ الـعـظـمـةـ الشـاغـةـ والنـرـوـةـ الـبـاذـخـةـ وـشـهـدـتـ الـذـلـةـ السـتـخـذـيـةـ وـالـفـقـرـ الـمـسـكـنـ ؛ شـهـدـتـ دـوـافـعـ الـحرـيـةـ وـشـهـدـتـ نـواـزعـ الـاسـتـبـادـ ؛ شـهـدـتـ موـافـقـ الـبـطـولـةـ وـالـصـدـقـ وـشـهـدـتـ مـخـازـيـ الدـسـ وـالـبـهـتـانـ ... شـهـدـتـ مـصـرـ ذـلـكـ كـلـهـ وـشـهـدـتـ زـيـادـةـ عـلـىـهـ ماـشـهـدـهـ الـفـرـيـسـةـ تـجـمـعـتـ عـلـيـهـاـ الـذـئـابـ وـأـوهـنـهاـ طـوـلـ الـدـفـاعـ وـالـجـلـادـ ...

أراد إسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه السـكـالـ ، فـلـنـ يـجـمـلـ بـمـصـرـ وـهـوـ وـالـهـاـ أـنـ تـكـوـنـ قـطـمـةـ مـنـ أـفـرـيـقـيـاـ وـلـاـ أـنـ تـكـوـنـ جـزـءـاـ مـنـ تـرـكـيـاـ ، وـانـ يـهـدـأـ لـهـ بـالـحـتـىـ تـنـتـسـبـ مـصـرـ إـلـىـ أـورـوـبـاـ ، وـحتـىـ تـحـطـمـ الـأـسـفـادـ وـتـنـطـرـحـ عـنـ عـنـقـهـاـ نـيـرـ الـاسـتـبـادـ ...

ولـمـ يـعـضـ مـنـ عـهـدـ هـذـاـ الـأـمـيـرـ الفـذـ إـلـئـاـ عـشـرـ عـامـاـ حـتـىـ غـمـرـ مـصـرـ فـيـضـ مـنـ الـإـلـاصـاحـ ؛ وـهـيـاـ لـهـاـ مـنـ أـسـبـابـ الرـقـ مـاـلـمـ يـكـنـ يـهـيـأـ مـثـلـهـ فـيـ أـقـلـ مـنـ قـرنـ إـذـاـ سـارـتـ الـأـمـوـرـ سـيرـهـاـ الـمـادـيـ ... فـقـiـ تلكـ الـفـتـرـةـ الـقـصـيـرـةـ وـصـلـ بـيـنـ الـبـحـرـيـنـ وـشـفـقـ التـرـعـ الـطـوـلـةـ تـحـمـلـ إـلـىـ أـنـهـاءـ الـوـادـيـ مـنـ مـيـاهـ النـيـلـ وـغـرـيـنـهـ مـاـيـدـرـأـ عـنـهـ رـمـالـ الصـحـراءـ ، وـمـدـتـ سـكـكـ الـحـدـيدـ وـأـسـلـاكـ الـبـرـقـ ، وـنـظـمـ الـبـرـيـدـ وـمـهـدـتـ السـبـيلـ ، وـأـقـيمـتـ الـجـسـورـ ، وـاـصـلـحـتـ الـوـانـيـ وـشـيـدـتـ الـنـائـرـ ؛ وـبـنـيـتـ الـمـصـانـعـ ، وـفـاقـتـحـتـ دورـ الـعـلمـ لـلـبـنـيـنـ وـالـبـنـاتـ عـلـىـ نـحـوـ يـذـكـرـ بـالـجـمـدـ وـالـإـعـجـابـ .

وـفـيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ تـقـلـصـ نـفوـذـ السـلـطـانـ ، وـأـحـاطـتـ بـوـالـيـ مـصـرـ مـظـاهـرـ السـيـادـةـ غـلـقـبـ باـلـنـدـيـوـ وـنـظـمـ وـلـاـيـةـ الـمـهـدـ وـسـمـحـ لـهـ بـعـنـحـ الـأـلـقـابـ وـأـطـلـقـتـ يـدـهـ فـأـصـلـحـ الـقـضـاءـ وـأـدـخـلـ عـلـىـ النـظـامـ الـإـدـارـيـ كـثـيرـاـ مـنـ الـإـلـاصـاحـ ...

وـفـيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ سـارـتـ الـقـاـهـرـةـ تـسـتـبـدـلـ حـيـاةـ بـحـيـاةـ ، وـمـظـهـرـاـ بـمـظـهـرـ ، فـتـخـلـصـ عـاـمـاـ وـسـعـهـاـ الـجـهـدـ مـنـ أـفـرـيـقـيـاـ وـلـاـ تـنـقـرـبـ مـنـ أـورـوـبـاـ ، وـرـاحـ الـنـدـيـوـ الـعـظـيمـ يـنـشـرـ

فيها من مظاهر همته ما جمل أعماله في هذا المضمار من محابي القرن التاسع عشر ، وما برجت القاهرة طول عهده خاصة « باللونة والأحجار » تلك التي كانت هوية الخديو ومسرة فؤاده ...

ولتكن إسماعيل وأسفاه أفق في سبيل ذلك الحمد ما زاد على خمسين مليوناً من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر ؛ ولذلك لم يلبي أن رأى مصر التي أراد أن تكون قطعة من أوروبا تساق على رغمها لتكون ملكاً لأوروبا ! فن أوروبا استبدلت تلك الملاليين ، ولما عجزت عن دفع ديونها كانت رهينة لهذا الدين ! ولما أرادت مصر أن تجد لشكلتها المالية حلاً ستحت الفرصة للإنجليزية فراحت تتذكر مصر وتربص بها الدواز وكان لا بد للمسألة المالية أن تنتهي إلى ما انتهت إليه من تغلغل الإنجلترا والفرنسيين في صناعات شؤون مصر .

على أن هذا التدخل لم يك شرآً كله كما اعتاد المؤرخون أن يصوروه ؛ وحسبينا مما انطوى عليه من عناصر الخير أن قد استيقظت على صوبه وضجيجه مصر ؛ فانبعثت القومية المصرية ومضت مصر تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما بدا في ثورتها على نابليون ثم على كايمير ، وما ظهر من آمالها وروحها ومشيئتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشراقي يلبسون محمد على الكرك والقططان دون أن يرجعوا في ذلك إلى السلطان ...

وتراكت الديون على مصر حتى أنها لم تك تقل عن تسعين ألف ألف من الجنيهات في عام ١٨٧٥ ، فن ديون سائرة كانت في ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانٍ الفتن ، إلى ديون ثابتة فيها أوضح معانٍ الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، إلى قروض داخلية لجأ إليها « الفتشر » ذلك الذي قام على شؤون مصر المالية فكان في ذاته عبئاً فوق ما ألقها من عبء ، ومن تلك القروض الدالة على الارتكاك والخلل ديناً المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت إنجلترا نحو هدفها ، وكانت أولى حركاتها في هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة ، اشتراكه دزرائيلي رئيس وزرائها يومئذ بشمن بمحسن ؟

ولم يرده عن ذلك عطلة البرلمان في تلك الأثناء ، وكيف يغوت ذلك الداهية أمر كهذا الأمر بحمل مقام بلاده في القناة كقان فرنسا أو أعظم ، ويصحح خطأ وقفت فيه الجلالة إلا وهو استهانتها بالمشروع أول الأمر ظنًا منها أنه لن يتم ، ثم تراخيها في شراء الأسلحة بعد ذلك رغبة في إحباطه ؟

ولكن مصر بعد بيع أحدهما لاتزال في حاجة إلى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال ؛ وأنى لها المال بعد هذا كله ؟ وأية دولة تتدبر إليها يدها ؟ إذًا فلتتذرع مصر في الإصلاح ، وافتدرك الجلالة في اصطياد الفريسة . طلب الخديو موظفًا إنجلزيًا يدرس لصر شؤون مالها ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ؛ فتكلّلت الجلالة أول الأمر لأنها عن دهاء وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أبواب غيرها ...

وجاء الموظف ولكنها كان من ودًا من قبل حكومته بأوامر ، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يتحقق ويدقق ثم يرفع إلى حكومته تقريرًا عما رأى ! وما لهذا أراده إسماعيل فما كان يريد والي مصر إلا أن يكون هذا الموظف مُعيينًا له على إصلاح مالية البلاد .

ورفع «كيف» التقرير إلى حكومته ! وجاء دور دزراائيل فأعلن في البرلمان الإنجلزي في غير تردد ولا استحياء أنه يرغب عن نشر التقرير لأن الخديو رجاه منه ألا يفعل ؛ ولعمر الحق مارجا الخديو منه شيئاً ولا وأشار إلى ذلك من قريب ولا من بعيد .

ذعر الدائتون وهبطت قيمة أحدهم مصر كما يقول رجال المال ؛ وتلقى الخديو الصدمة العنيفة من أمل على أيديهم الإصلاح وقال في صرارة وغيره «لقد احتفروا لي قبرى» وهي كلية موجهة جامعة ، وبعد هذا التصرّع من جانب دزراائيل سيكون الطوفان ...

وما كان في تقرير كيف إلا أن مصر «تشكو مما ينتشر في الشرق من أمراض منها الجهل والإسراف والاختلاس والإهمال والتبذير وأنها تشكو من

كثرة النفقات التي سببها محاولة إدخال مدينة الغرب والتي ترتب على مشروعات لا تجدى نفعاً وعلى مشروعات نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ « بل لقد ذكر كيف في عبارة صريحة « أن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد » ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التي كثيراً ما تسخر بما تواعض عليه أئمّار الناس من قواعد الخلق والاستقامة .

لم تستطع مصر أن تفلت من دائرتها فكان لا بد من إدعاها لراقبة مندوبيهم وأقيم في مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الأجانب داخل حكومتها ؛ ثم وافق الخديو مكرهاً على تعيين مراقبين أجنبيين أحدهما إنجلزي للدخل والآخر فرنسي للصرف ، وعين لهذين موظفين من الأجانب بأجر ضخمة ؟ وعن الخديو حقاً يصلاح الحال يومئذ ولكن يد الفدر كانت من وراءه ببعث الارتباك وتنصب الشباك .

وبعد الخديو فيما قبل على رغمه تأليف لجنة من الأجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دي لسبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة ، فاكادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان استعدادها في بدء عهدها لسوء حظها برجل من رجال مصر كان يتحفز ويتحمّل الفرصة ليث وكأن هذا الرجل هو محمد شريف باشا ... استدعت اللجنة شريفاً ليثل أمامها لتسفيهه فتماظمه الأمر فلي ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنها خشي هو أيضاً على كرامته وكرامة منصبه فأصر كأصرت ... ليث شريف أمام لجنة من الأجانب ؟ ولم لا تنتقل إليه اللجنة وهو العزيز بزاهته واستقامته ، الكبير بشخصه ومنصبه ، المظيم بوطنيته وكرامته ؟ إذن فليطلق شريف المنصب غير آسف ، وقد كان ما أراد فاستقال ، وهزت البلاد استقالته بما تنطوى عليه يومئذ من المعانى فلقد كانت وتبة منه في حينها كاما جاءت على قدر من الأيام ، ففي مصر يتوئب مثله رجال وتحفظ بالوطنية قلوب وتضيق من تدخل الأجانب صدور ؟ وقدر لشريف أن يكون

في تاريخ وطنه من أولئك الأمانة الذين توحى مواقفهم البطولة وتخلق الأبطال !
كان في استقالة شريف معنى الفوضى ، ولكن لم يكن غضب فرد لشخصه
غضباً وإنما كان له ما كان يومئذ من خطر ؟ كان غضب رجل لشخصه
ولقوميته مما أمام لجنة من الأجانب ت يريد أن تظهر بمظاهر السيادة ، وتحرص أشد
الحرص على ذلك المظاهر ، ولذلك كان هذا الغضب ثورة ، وما لبثت تلك الثورة
أن بعثت في كل نفس من نفوس الأحرار ثورة مثلها ، وبذلك تميّزت البلاد لأن
ثبتت للأجانب وجودها ، وأغتنى شريف بما فعل أول رجالها ورأس أبطالها .

ورب قائل يقول وماذا كان في ذلك الموقف من معانٍ البطولة ؟ هذا رجل
اعتزل منصبه فكيف يكون الاعتزال رجولة ؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ نفوذ
الأجانب ومبلغ ما مني به المصريون يومئذ من خور وما عرف عنهم إذ ذاك من
الحرص على المناصب والألقاب يدركون ما ينطوي عليه موقف شريف من عزة
وتضحيّة ؛ هذا إلى ما سبق استقالته من تحدياته للجنة وسلطانها ؛ ولو أن
الخديو آزر شريفاً لما ترك منصبه وكان بذلك يدع اللجنة في أخرج الواقع كلها
أمعن في عصيانه وترفعه ... ولكن الخديو على جلال قدره طلب إلى اللجنة فيما
يشبه الرجاء أن تكتفى من شريف بأن يرد على أسئلتها كتابة ، ولما رفضت اللجنة
ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو قول يكون فيه معنى التأييد لرجله والاستئثار
الفعال للأجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف إلا أن يتخد من استقالته
مظهراً من مظاهر الاحتجاج على تدخل الأجانب في شئون البلاد ، فكان ذلك
المظاهر أول إنذار بالثورة .

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة ؛ ولقد جعلت اللجنة هدفها
بالضرورة العمل لصالح الدائنين ولذلك لم تأت جهداً في أن ترجع بكل المساوىء
إلى الخديو وحكومة الخديو متناسبة ما فعله الدائنين من مخاطرائهم بأموالهم
ابتفاء الربع الوفير وما جرّه جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم
من غدر وبهتان وزور واحتلال .

تعامت اللجنة بما كان يفاصيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم ترَع في تقريرها بؤس أولئك الذين أفلتهم الضرائب وهدم الجموع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيراً ما يفرون من أرضهم لكتلة ما كان يطلب منهم ؛ أولئك الذين غمرهم في سنة من تلك السنتين السود سيل جارف لم يكن أقل هولاً عليهم من طالبي الضرائب ، إلا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ؛ أولئك الذين أحاط بهم الربوبون والأرض معاً ، وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه !

وتفاغلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجذبون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئاً داخل البلاد في ظل تلك الامتيازات المسؤولية التي كانت من أكبر المساوى في مصر ، والتي قل أن يجد المؤرخ مثيلاً لها كانت تتطوى عليه من جور ، وما كانت تقوم عليه من باطل وبهتان ؛ وكذلك تفاغلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين زايد عددهم في الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتغاضون عن الأجور المالية جزاء على ما اتصفوا به من الكسل وقلة الروح وجود العاطفة ؛ بينما كانت مرتبات الوطنين لا تدفع لهم إلا في مشقة وعناء وهي من القلة بحيث كانت تؤدي بالكثيرين إلى الاختلاس والتهاون في العمل ...

واقترحت اللجنة في قرار تميمى أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة إلى وزراء يسألون عن أعمالهم ، أى أن تكون عليهم تبعية ما يعملون ، وأن يتزل عن أملاكه نظير مبلغ معين ، وكذلك تنزل أمراته عن أملاكها ، كل ذلك دون أن تفكِّر اللجنة في أن يتنازل الدائتون عن شيء من ديونهم ، وهي تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف زايدت أرباحها حتى بلغت ما بلغته .

وقبل الخديو تأليف الوزارة المُسؤولة فاستدعى نوبار من أوروبا وعهد إليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها في التبعية وتقوم بالحكم في البلاد ، ونظر المصريون فإذا وزارة المالية تسند إلى رجل إنجليزي ، وإذا وزارة الأشغال تسند إلى رجل فرنسي ، وهكذا يسيطر الأجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها كانت لا تعبأ بشئ ، إلا بما يرى الأجانب ، فلم يك مجلس شورى النواب حق إسقاطها ، بل لم يك له حق محااسبتها ، ولم يك للخديو نفسه في الواقع سلطان عليها ، فكانت الوزارة بهذه الصورة سخرية من سخريات الأجانب هي في ذاتها من أبلغ نكباتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد .. على أنه سرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه ، أو على الأصح بينه وبين نوبار والوزيرين الأجنبيين ، فلقد كان في الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الأعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض . . . وتزداد هذا الخلاف حتى أصبح إسماعيل ولاهم له إلا أن يتخلص من هذه الوزارة التي لم تدع له من السلطة إلا اسمها .

ومنحت له الفرصة في حادث مظاهره الضباط الذى أشرنا إليه ، فأعلن إسماعيل على أثر الحادث أنه غير مسؤول عن الأمان في البلاد ما دام محروماً من السلطان ، ومن ثم رأى نوبار أن لا قبل له بمحاجمة الحال بعد ذلك فرفع إلى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التي اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الأوروپية .

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية ، كان باعثها الأول هذا البلاء الذى كانت تعانيه ، ولو سوف تلتقي هذه الحركة فيما بعد بالحركة المسكرية التي هي في جوهرها غضبية قومية على أجانب من جنس آخر هم الشراكسة ؛ وتنالف من التيارين تلك الثورة التي كان بطلها أحد عربى ، والتي تعمد كثير من المؤرخين تشويها ، والتي أخطأ فيها عدد منهم ليس بالقليل من جراء ما هوش وافترى كتاب الاحتلال . . .

وكان لهذه الحركة الوليدة مركزان : أولهما المركز الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثائهما المركز الأهلى وهو بيت السيد البكري نقيب الأشراف حيث كان يلتقي الأحرار من العلماء والنواب والأعيان وضباط الجيش الناقفين . وكان قد هبط مصر السيد جمال الدين الأفغani بيت فيها مبادئه ويحمل إليها

عقبسه ، وكان جمال ذلك الرجل الذى أطلمه الشرق ليضيفه إلى كواكبه الذهور ،
يرى أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سلبية الأرادة تحكم
على رغبها وتسخر لحساب الحاكمين ، ولا يخرج لها إلا أن تعود حرة كما كانت
من قبل حرة ، وإن يكون هذا إلا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد ، وأن ينسخ
نور العلم ما تراكم في الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربية في مصر صالحة لبذوره فنمث نموا سريعاً يحمل على الدهشة ،
فاسرع أن ظهرت في البلاد حركة حرة كأعظم وأجل ما تكون الحركات الحرة
وراح تلاميذ جمال الدين يذيمون في البلاد مبادئه ، يقول في ذلك الشيخ محمد
عبدة أنفع تلاميذه وأحبيهم إليه : « وكان طلبة العلم ، طلبة جمال الدين ، ينتقلون
بما يكتبوه من تلك المعرفة إلى بلادهم أيام البطالة والزائرون يذهبون بما يتناولونه
إلى أحياهم ، فاستيقظت مشاعر وانتهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف
متعددة من البلاد وبخاصة في القاهرة » .

وظهرت في تلك الأيام الصحافة الغربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات
الوطنية وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، فانتشرت أرواحهم
وهفت إلى الانطلاق من الأسر قلوبهم .

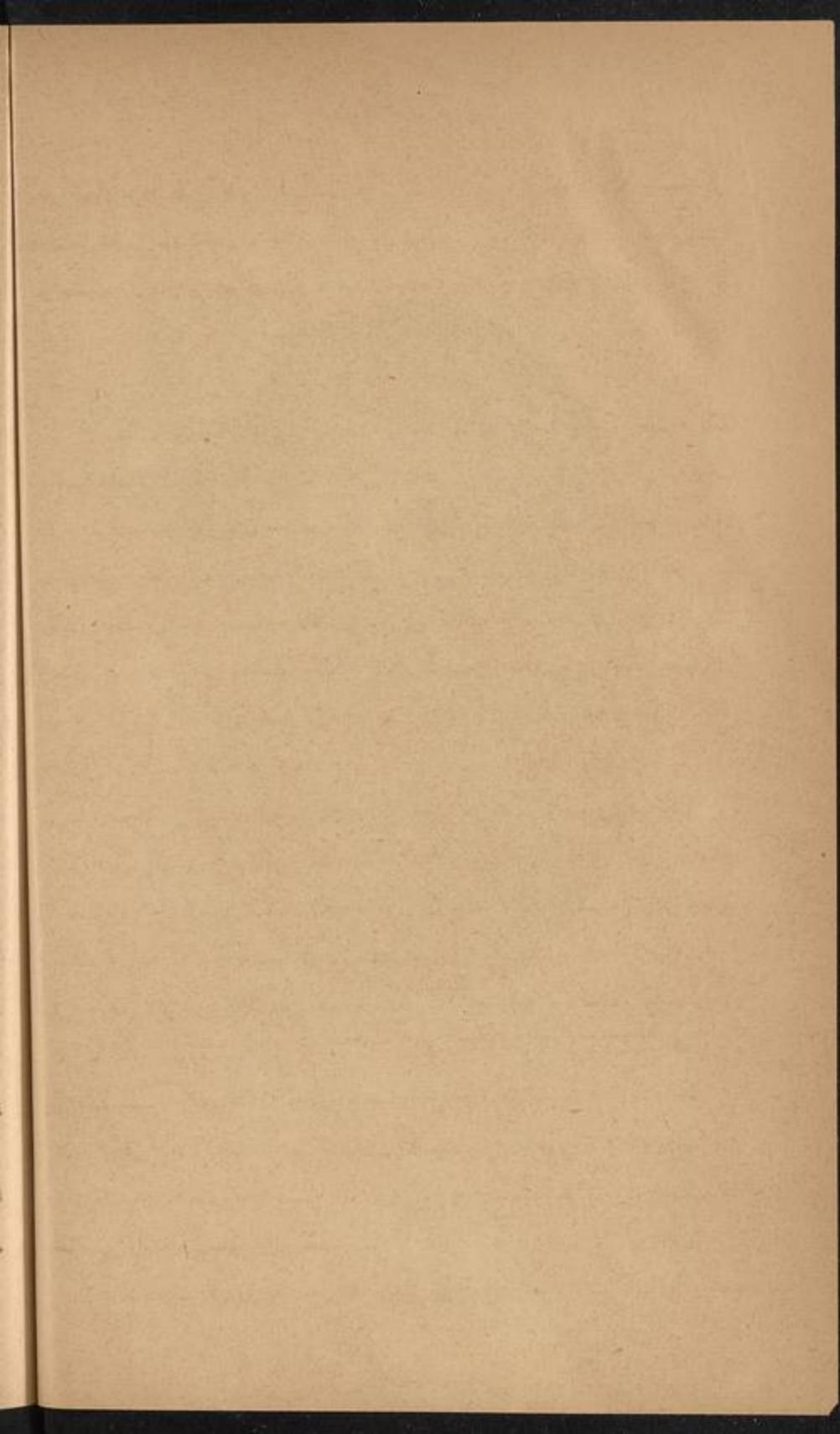
وأدى اتصال المصريين بالأجانب ، وقد كثر مجتمعهم إلى مصر ، إلى تتبع الأنباء
المالية في الحرب والسياسة ، فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوها بين حال
الشعوب الحرة وبين حالم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء
ودلة .

وبهذه العوامل مجتمعة قام في مصر رأى عام بعد شيئاً جديداً حقاً في تاريخها
ال الحديث ، فقد اشتتد الوعى القوى ، وكان من أكبر بواعته ، ذلك المدون الذى
أشرف فيه الأجانب على مصر في غير حياة أو مبالاة .

أخذت تشتد الروح الوطنية وتتغلغل في النفوس ، وكان شريف باشا يرق



السيد ماجد الدين الانصاري



وسقطت الوزارة الأوروپية ، ولكنها ألغت ثانية برياسة الأمير توفيق ، فلقد رفض قنصلا إنجلترا وفرنسا أن يرأس إسماعيل نفسه الوزارة كما طلب ؛ ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نواب الوزارة الجديدة فرفض الخديرو وسمم على الرفض ، ورأى الدولتان مبلغ حرص إسماعيل على إيماد نواب ، فاشترطتا لقبول ذلك أن يعطي المضوان الأوروپياني في الوزارة حق « الفيتو » على قرارات مجلس الوزراء ورضي إسماعيل بذلك ، فصار للمضوان الأوروپياني حق إيقاف أي قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه ؛ ومعنى ذلك أنهما يحكمان البلاد حكما لا يدع للخديرو في مصر سلطة أو ظل لها . . .

وأن مجلس شورى النواـءـ أن يخـطـو خطـوـةـ ما كـانـ أـعـظـمـهاـ منـ خطـوـةـ ؟ـ نـيـ إلىـ المـحـلـسـ فـيـهـ نـيـ إـلـيـهـ مـنـ أـبـاءـ الـوـزـارـةـ الـأـوـرـوبـيـةـ أـهـمـاـ تـقـمـرـ بـالـمـجـلـسـ وـتـنـوـيـ التـخـاصـ مـنـهـ ،ـ فـصـمـ الـأـعـضـاءـ الـأـيـفـرـقـوـاـ وـأـنـ يـظـلـوـاـ فـيـ أـمـاـكـنـهـمـ لـلنـظـارـ فـيـ شـؤـونـ الـبـلـادـ فـيـ تـلـكـ الـآـوـنـةـ الـمـصـبـيـةـ .ـ أـلـسـنـاـ زـرـىـ فـيـ ذـلـكـ صـورـةـ مـاـ حـدـثـ فـيـ فـرـنـسـاـ فـيـ مـسـتـهـلـ عـهـدـ مـلـكـهـاـ لـوـيـسـ السـادـسـ عـشـرـ ،ـ حـينـ اـشـتـدـتـ الضـائـفـةـ الـمـالـيةـ وـرـأـيـ نـوـابـ الـشـعـبـ وـجـوـبـ الـمـعـلـ علىـ وـضـعـ حـدـلـسوـهـ الـحـالـ ؟ـ وـلـسـوـفـ تـؤـدـيـ الـظـرـوفـ إـلـىـ أـنـ يـصـبـحـ ذـلـكـ الـمـحـلـسـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ لـهـ حـولـ وـلـاقـوـةـ ،ـ هـيـثـةـ تـحـاسـبـ الـوـزـارـاءـ عـلـىـ أـعـمـالـهـمـ وـعـلـكـ إـقـصـاءـهـمـ عـنـ مـنـاصـبـهـمـ إـذـاـ هـاـوـنـوـاـ فـيـ حـقـوقـ الـبـلـادـ ،ـ وـلـقـدـ كـانـ لـشـرـيفـ باـشـاـ الـفـضـلـ كـلـ الـفـضـلـ فـيـ نـالـهـ الـمـجـلـسـ مـنـ حـقـوقـ حـتـىـ لـيـعـدـ شـرـيفـ بـذـلـكـ مـؤـسـسـ الـحـرـكـةـ الـدـسـتـورـيـةـ فـيـ مـصـرـ .ـ

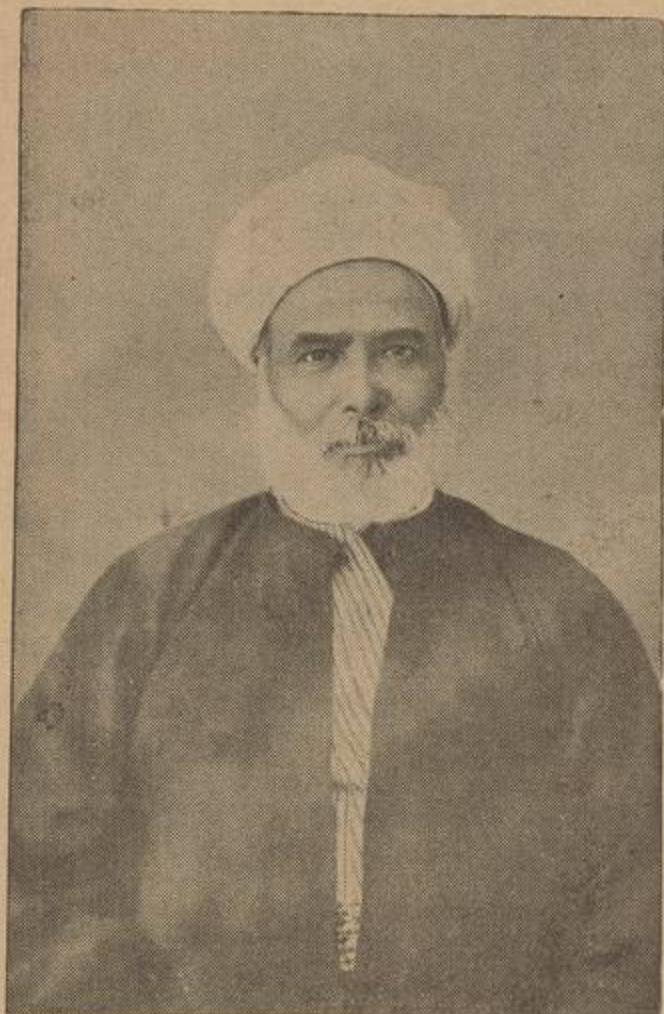
وكان المجلس في وزارة نوبار قد أرسل إلى السير ريفرز وزير المالية يدعوه

ليحضر أمامه لسؤاله عن بعض الأمور فسوف وماطل ، ثم لم يحضر أو يرسل إلى المجلس شيئاً مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات ، وضاق المجلس بما فعل وزير المالية ، وفسر عمله بأنه إهانة موجهة إلى الأمة المصرية في أشخاص نوابها . . .

وفي وزارة الأمير توفيق استصدر وزير الداخلية وهو يومئذ رياض باشا أمراً من الخديو إلى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ، وذهب رياض بتلوي على النواب هذا الأمر ؛ وهنا وقف النواب وفقة جديرة بأن تفخر بها مصر فيما تفخر به من موافق البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياضاً بما عسى أن يقع منحوادث في البلاد بسبب سياسة الوزارة ، وحملوا تبعية ذلك عليهما ؛ ولسمك زرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الأمة في فرنسا ، حين وقف فيه نواب الشعب الفرنسي يتهددون قرار الملك على أثر صيحة ميرابو المدوية التي نقلت تاريخ فرنسا من فصل إلى فصل .

ولكن النواب هنا لم يكونوا في الحقيقة يتهددون الخديو ، فقد كانوا يعلمون أنه يعطى على حركتهم ليتخلصون بهم من تدخل الأجانب في شؤون مصر ، ذلك التدخل الذي حرمه كل سلطة ، وإنما كان النواب يتهددون الوزارة الأوروبية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها . . .

وكانت مطالبات المجلس يومئذ تتحصر في المسألتين الدستورية والمالية ؟ أما أولاهما فتتلخص في أن تكون الوزارة مسؤولة أمام المجلس بحيث يصبح هيئتها لها مكانها الفعلى في حكومة البلاد ، وأما الثانية فتؤدّاها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الأجانب ، وأن يقرر في أمر الدين والضرائب ما تخلية عليه مصلحة البلاد . وأصر النواب على ما طلبوا فكانت حركتهم هذه حركة قومية إلى أقصى ما يتسع له معنى هذه الكلمة ، وكان يظاهر النواب أحجار البلاد من العلماء والأعيان والتجار ، الذين لم تقطع اجتماعاتهم في بيت البكري ؟ وأخيراً انعقد كلّهم جميعاً على أن يتوجهوا إلى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ؛ وفيها



(۳ - م)

ما زا
ف
ع لى

ي د
أ ت
و د

و ا
ال و

م د
م م

د ب
د ب

و د
و د

م د
م د

د د
د د

يُعترض النواب على اقتراحات ريفز ولسن التي كانت ترمى إلى إعلان إفلاس مصر ويقررون أن إرادة مصر ينبع بدفع ديونها ، ويطلبون إلى الخديو تقرير مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس ، وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الأوروبية التي خانت بسياستها البلاد . . .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت إشراف شريف ، فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته إلى هذه البلاد ، كما كانت أهم خطوهاته السياسية وأبعدتها أثراً في مجرب الحوادث ؟ ووُقِّعَ على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ، ومثلهم من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الأزهر كأوقع البطريرك والخاخام ؟ وكذلك وقع عليها عدد كبير من الأعيان والتجار والموظفين والضباط ؟ ودفعت بعد ذلك إلى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه إلى النفوذ الأجنبي ضربة قوية فالبلاد من ورائه تشد أزره ولذلك لم يتتردد في الموافقة على اللائحة ؛ وسرعان ما هزت البلاد فعلته هزة قوية ، هي هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنية والأمل في مستقبل حطم فيه البلاد أغلالها وتنعم بالراحة والرخاء . . .

واستقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الأ بصار إلى شريف واتفقت عليه القلوب والأهواء وما لبث أن تضاعف سرور البلاد بأن أُسندت إليه رئاسة الوزارة الوطنية وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الأمة . . .

وراح الخديو يكيد للجانب كيداً شديداً وظهر كمن يريد أن يثار لنفسه فلم يكتف بأجابة الوطنيين إلى ما طلبوا ، بل لقد ذهب إلى حد مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالمعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلأقامه في داره السيد على البكري ودعا إليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو في ذلك موقف الرعيم .

وتنقل الأجانب الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهبوا عمما يجب عليهم أن يعملوا إزاء موقف الخديو ومن أجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنتا بالغا ، فتبددت في صوراضائهم كل دعوة إلى الحكمة وضرب الحقد على آذانهم وجمل الغضب على أبصارهم غشاوة . . .

ولكن شريفا ظهر يومئذ يعاظه جدير بالإعجاب حقاً، فلا هو خشى جانب الأجانب فتخاذل حما هو بسيطه ولا هو مال كل الميل فانقلب سياسته شططاً، وبذلك جمع شريف بين حميه الوطنى الناشر وكياسته السياسى الراهن ورويه المغرب البصير ...

احتاج الأجانب على إبعاد الوزيرين الأوروبيين واستقال كثیر منهم من مناصبهم، وراح أحجلترة وفرنسا تمددان الخديو وحكومته وتنددان بهما، وتوجه الدائتون إلى المحاكم المختلفة فرفعوا أمامها القضايا؛ وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة مفلسة منذ أكثر من عامين؛ ولما عرض شريف على هؤلاء الأجانب الصالحين استعداده لإعادة المراقبة الثانية وفق ما كانت تقضى به تعهدات الخديو في حالة ما إذا أخرج الوزيران الأجنبيان أو أحدهما، رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم في الكيد، ورغبة في زيادة الأمور حرجاً وتعقداً.

ولكن شريفا لم يلوه حرج الموقف عن وجهته، وما كانت وجهته إلا أن يحمل صرامة الأمور إلى الأمة، ولنن كان يقتضي تدخل الأجانب فإنه كان كذلك يكره استبداد الخديو بالأمر أشد الكراهة؛ لذلك جعل محور سياسته أن يكون الوزراء مسؤولين أمام مجلس شورى النواب؛ وتم له ما أراد بفاء في كتاب الخديو إليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلها يذكر الخديو أنه يرجع بالأمور إلى الأمة ويوافق على مسئوليية الوزارة أمام مجلسها.

بهذا كان شريف كاذكينا أباً الدستور في مصر فإن ذلك المجلس الذي تعهد برعايته منذ نشأته سنة ١٨٦٦ قد تحق له السلطة على يديه سنة ١٨٧٩ فصار الحكم في مصر دستورياً لا يشوبه شائبة مهما يقل القائلون في طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم.

أجل إن المعهد الدستوري في مصر يرجع إلى سنة ١٨٧٩، وهذا الدستور إنما نالته مصر بجهاد بنها، وما كان دستور سنة ١٩٣٣ إلا الدستور الثانى للبلاد أو بعبارة أخرى ما كان إلا توقداً لتلك الجمرة التي ظلت مطمورة تحت رماد الاحتلال

حتى جاء سعد نحلف عرائيا في قيادة الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد وفتح في تلك الجرة فأوقد نارها .

لم تكدر البلاد ، وأسفاه تفرغ من مظاهر فرحتها حتى جات الآباء بعزل عاهلها إذ ما زالت إنجلترا وفرنسا بالسلطان حتى استطاعت إقناعه بعزل إسماعيل خلفه على أريكة مصر ابنه توفيق وبخروج إسماعيل من مصر فقدت البلاد الرجل الذي كان يمكن الاعتماد عليه في مناهضة نفوذ الأجانب .

ورفع شريف استقالته إلى الخديو الجديد كنقطة التقاليد الدستورية ، فطلب إليه الخديو إعادة تأليفها وأشار توفيق صراحة في أمره وخطابه أمام مجلس الشورى ميله إلى المطاف على الأمانى القومية كاظهر في الحركة الدستورية الوطنية ؟ ومسار شريف على همجه الدستوري يدعم ما بنت يداه ويجهد ق توطيد أساسه .

ولكن توفيقاً مالبث حين وصل إليه فرمان توليته أن تنكر للحركة الوطنية شاً كان في موقفه الأول إلا مدعياً يكتسب الوقت فلما اطلاع إلى منصبه بدأ سياساته الجديدة بأن رفض أن يحيط رئيس وزرائه إلى ما طلب بشأن توسيع مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستوري ثابت ؟ ورأى شريف في هذا إقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة كذلك عملاً قوياً من عوامل إدراكه الروح الوطنية وإشعاع جذورها .

وما كان أحوج الخديو يومئذ إلى شريف دون غيره من الرجال ؟ أجل ما كان أحوجه إلى ذلك الرجل الذي كانت تجتمع فيه الرجال ، وتلتقي في سياساته الآمال .

وما أشبهه توفيقاً بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك المسكين الذي قال عنه بعض المؤرخين إنه ورث عن أسلافه الثورة والعرش مما ؟ فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، وما زالت تنمو وتزداد ، وما زالت تلك الأقلام الجبارية أقلام قاتلة وروسها وأضرابهما تهدوها وتعهد الطريق لها حتى جاء عهد

ذلك المالك فانفجر البركان وكانت الراجفة التي زلزلت فرنسا زلزاً شديداً . وأرى توفيقاً قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية في عهد ذلك الخديو المخلوع ، ثم راحت تخدوها وتنهيده لها أفلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فرجفت الراجفة .

وما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحمله لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد ، أو عن غفلة ، وإن الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نجح كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ؟ وإنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وصفها في جملة هي التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما ؛ فلما ذهب عرابي إلى الخديو على رأس جنده في اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ذهب يحمل إليه مطالب الجيش ومطالب الأمة مما ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم مالت المصريون كما أسلفنا أن يجتمعوا في آمالهم بتدخل الدولتين تدخلًا جريئًا في شؤونهم أدى إلى عزل الخديو وتركهم ذاهلين تنازع افتديتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل .

ونولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فهاهم أولاء المصريون تاججج نيران الحقد في قلوبهم على الأجانب ، ولن يطيقوا بعد اليوم أى جنوح إليهم ، وهذا هي ذي الجلترة تحفز وتربص ، ثم ها هي ذي فرنسا تتحين الفرصة لتنقلب على منافسها وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد سلطانها في مصر ميرته الأولى فتردها الدولتان المنافستان على عقبها .

والربان غير عالم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم من ذلك يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلاص من شريف وهو أحوج ما يكون إليه ، وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقةً أن يمتعض عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على تناسي ما لحق بمنصب الخديوية من هوانٍ صغر به في أعينهم ؛ ولكن

توفيقاً غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رأه من إقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة .

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعابة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضاً يختار الخديو في استكماره الدستور على المصريين فيقنع بما لا يقنع به وطني مكتفيًا ببعدها مسؤولية الوزارة عن أعمالها مستغفلاً عن مجلس شورى النواب الذي يحرص عليه الوطنيون كل الحرص .

وجاء قانون التصفية في عهد رياض فازداد به الوطنيون آلاماً على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلّى في إلغاء دين المقابلة ، وقد أخذ من جيوبهم ، كراروا فيه ما هو أكثـر من الغبن لا وهو عدم تنازل الأجانب عن شيء من الدين وهم يعلمون كيف كانت تفترض الأموال ومبـلغ ما كان يصل مصر منها ؟ وهم يعلمون كذلك ما كان من مجازفة الأجانب بأموالهم مما يلقى عليهم كثيراً من التبـعة ؛ هذا إلى أنـهم رأوا مرتبات الموظفين الأجانب في الحكومة المصرية تبقـى على حالـها من الارتفاع ، فلم يدر بخلد من وضعوا تلك التصفية أنـيراعوا ذلك في قرارـهم فينزلوا بها إلى الحـد اللائق ...

ذلك هي الحـركة الوطنية ، أو تلك هي نذر الراجفة ، وما كانت الحـركة العسكرية التي بدأت في عهد إسماعيل واستفحـل أمرـها في عهد توفيق إلا بعض هذه الحـركة الوطنية العـامة ، حتى قدر أنـ يكون لها الـقيادة آخرـ الأمرـ وأنـ تسمـى بالثورة العـربية نسبة إلى الجنـدي الوطنـي التـأثرـ أحمد عـرابـي .

ابن داود الشاز

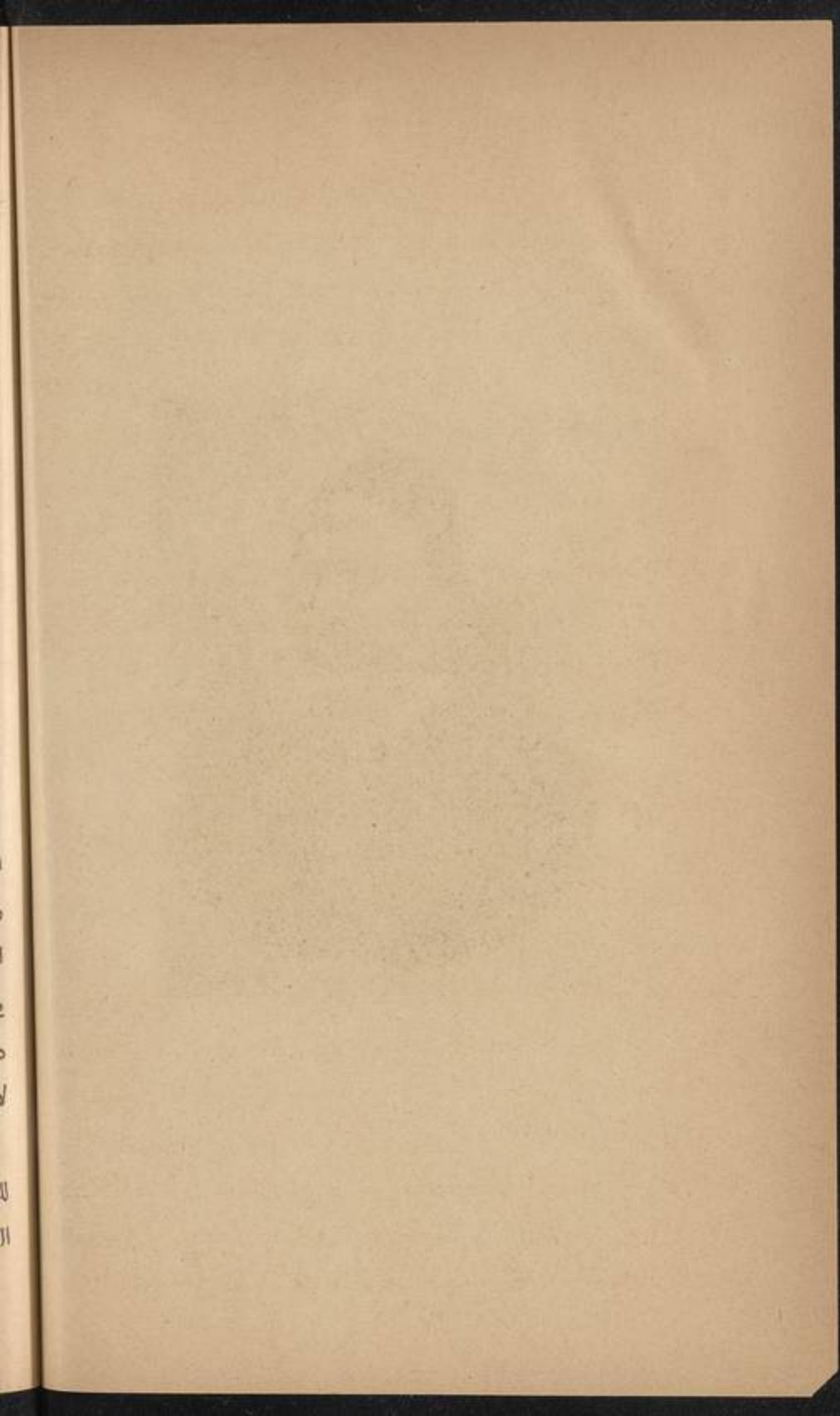
بدأت الثورة العسكرية كما أسلفنا في عهد إسماعيل ، وكان أول مظاهر لها ذلك الحادث الذي اعتدى فيه فريق من الضباط على نواب أمام وزارة المالية ؛ وكان ما دفع الضباط إلى ذلك الحادث في الواقع أو ما جعل التحرير يرى أيا كان مصدره ، يحدث أثره فيهم ، ما لحقهم من الضيق بسبب الاستغناء عن عدد كبير منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم ، بينما كان لا يلحق بالشراكة في الجيش شيء من هذا ... ويدرك بلنت في كتابه «التاريخ السري» حركة لنفر من الضباط المصريين في شهر مايو سنة ١٨٨٠ ، وكان من بينهم أحد عرباب . وخلاصة هذه الحركة كما يصفها بلنت ، أن هؤلاء الضباط قدموا شكوى إلى وزارة الجمادية من تأخر مرتباتهم ؛ ونظرت الوزارة في الأمر ، وكان قنصل إنجلترا وفرنسا قد تدخل فيه وألفت لجنة لتحقيق المسألة ، وقد أقرت هذه اللجنة مطالب الضباط ، ولكن رياضًا وزیره رأى في ذلك العمل القانوني حركة جريئة ، وخروجًا على النظام .

ويقول بلنت إن قنصل فرنسا البارون دي رنج أبدى كثيراً من العطف على هؤلاء الضباط ، وأصبح محبوبياً لديهم ، وكان بين هذا القنصل وبين رياض كثير من المزارات ...

وكان لعرباب كما يذكر بلنت نشاط ملحوظ في هذه الحركة ، ولكنه كان معتقداً حتى لقد اكتسب باعتداله ثناء القنصل عليه .

وبتهم بلنت الخديو بأنه وجد في هذه الحركة فرصة للدس والكيد لوزيره رياض ، فاتصل بالضباط وكان رسوله إليهم على فهمي رئيس الآلات الأولى لحرس الخديو ؟ وكان على فهمي صديقاً لعرباب وإن لم يكن له ضلع في هذه الحركة ولا وجهة معينة في السياسة .





ويذهب بذلك إلى القول بأن توفيقاً أخبر الضباط على لسان على فهمي بأن رياضًا وزيراً للجهازية بيبيان لهم الكيد، وأنهم إن لم يعملاً على إقصائهم عن مناصبهم حق بهم السوء، وإن يدخل الخديو بمعاونتهم لأنه يعطف على مطالبهم ...
ولو صح هذا الذي يرويه بذلك لكشف لنا عن جانب من ضعف توفيق،
ذلك الذي يستعين بالضباط على وزيره، لأن بيده كانت متناولة عنه بسلطة الأجانب.
ولكن هذا الذي يذكره بذلك لم يرد ذكره فيما كتبه عرابي في مذكرةه،
ولا في ذلك النوجز الذي كتبه بذلك فأثبتته في آخر كتابه، وما كان عرابي ليسمو
عن أمر كهذا لا يتحقق ما له من أهمية.

وكذلك لم أقع على ذكر هذا الذي ينسب إلى الخديو فيما تناولته من الكتب
التي عنيد بتفاصيل الحركة العسكرية، ولعل بذلك ينفرد بهذه الرواية.
على أن مسلك الخديو لو سمعت الواقعه أمر لا يستغرب، فقد استعان بإسماعيل
نفسه بالضباط على نوبار وزميليه من قبل، إذ عجز عن مناواتهم مناوهة علنية
خوفاً من الأجانب ...

استغنى عن عدد كبير من الجنود الوطنيين في أوائل عهد توفيق حتى نزل عدد
الجيش المصري بما اتفق عليه في بداية هذا العهد؛ وولى وزارة الجهازية في حكومة
رياض عثمان رفق الشركسي، وكانت جمل هذا الوزير أساس سياساته الكيد
المصريين ما وسعه الكيد، فلقد راح يذيفهم من بيده ونكله بقدر ما راح
يفيض على الشراكة من عطفه وإحسانه، ولم يكن ذلك بمحاجأ من جانبه، ففي
دمه ما في دم بني جنسه من بعض قديم للمصريين الذين كانوا في رأيهم فلا حدين
لا يصلحون إلا ليكونوا عبيداً ...

وكان طبيعياً أن يجعل هذا الوزير الشركسي أكثر الترقيات في الجيش
لشراكة؛ وأخذ عثمان رفقه بعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجنود من تحت
السلاح لكي يبق الشراكة في الجيش هم المنصر الذي يسود ...
أما عن كبار الضباط فقد بدأ يعزفهم أو يقصيهم عن مواضعهم، كما حدث

في أمر أحد عبد الفقار قاتل قاتل السواري ، إذ عزله رفقى وعين مكانه أحد الشراكسة وهو شاكر طلازه ، وكما حدث في نقل عبد العال حلى إلى عمل في ديوان الوزارة ووضع شرکسى مكانه طاعن في السن لا كفاية له وهو خورشيد نعسان .

وأما عن الجندي فقد كانت الحكومة تسخرهم في أعمال لاتحت بصلة إلى الجنديية كففر الزرع والزراعة في أرض الخديو وغير ذلك ؟ وما هو جدير بالذكر هنا أن عن أيها عارض معارضه شديدة في أن يعمل جنوده في حفر الرياح التوفيق ، وهذا بلا شك موقف من موافق شجاعته ، تلك الشجاعة التي يأبى خصومه أبداً إلا أن يروها تهوراً ، والتي زراها في أكثر الأحوال على خير ما تكون شجاعة أولى الحمية والإخلاص من الرجال ؟ وأى مأرب كان لم رأى في مثل هذا الموقف وفيم تكون معارضته في أن يسخر جنده في مثل تلك الأعمال إذا لم يكن مبعتها الإنصاف والغيرة ؟ وما يكون إنصافه وغيره في موقف كهذا إلا بسالة وإقداماً .
وكان رجال الجيش بوجه عام يحسون قلة عنانية الوزارة بالأمور العسكرية بل كانوا يلحسون إهمالها هذه الأمور في الوقت الذي أولت فيه شيئاً من عنانيتها غيرها من المسائل . . .

ولو أن الوزارة عاجلت هذه الحال بما يقتضيه العدل والإنصاف لما قدر للحركتين الوطنية والعسكرية أن تختلا فيكون منها تلك الثورة التي اقترنت باسم عربي ؛ لكن كان دون علاجها عقبات ؛ فهناك تمصب رفق وغضرهسته ، وجهل رياض بالشؤون الخربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجندي ، لأنه كان يترفع عن الفلاحين جديماً ؛ ثم هناك دسائس الشراكسة في الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الكيد الذي لم يكن يفتر . . .

علم عربي بما أراده عنان رفق بكل من أحد عبد الفقار وعبد العال حلى قبل أن ينشر ، إذ كان مدعوا إلى وليمة بدار أحد الباشوات ، وقد أبناء هناك أحد أصدقائه بما اعتزمه رفق فقال عربي مفضلاً « إن هذه لقمة كبيرة لا يقوى عنان رفق على هضمها » كما جاء في مذكرة ، ويقول عربي في تلك المذكريات « وبعد

تناول الطعام جاءني ضابط وأخبرني بأنَّ كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزل
قتوجةت إليهم في الحال فوجدت من ضمنهم الأمير لای عبد العال بك حمل حكمدار
الآلای السوداني الكائن مركزه في طره ، والبكباشى خضر أفندي من الآلای
المذكور أيضاً ؛ وعلى بك فهمي أمير لای الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى
محمد أفندي عبید من الآلای المذكور ؛ والبكباشى أولى أفندي يوسف من الآلای السوارى
الرابع البيادة حكمدار بيبي ؛ والقائم مقام أحمد بك عبد الففار من الآلای السوارى
وغيرهم . وكانوا جميعاً في هياج عظيم إذ بلغتهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل
إرسالها إليهم ، فلما رأونى أفسدوا إلى بما سمعته من تحييب بك وإسماعيل باشا كامل
من قبل ، فقلت لهم قد سمعت هذا من غيركم فإذا تريدون ؟ قالوا وليس الأمر
كذلك فقط ، بل إنه قد كثار اجتماع المنصر الجركسى في منزل خسر وباشا
الفريق وهو يتذاكرؤون في تاريخ دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقي
ويعلمون خيراً بك لتسليمه وإذعانه للسلطان سليم ؛ ويقولون إنه قد حان الوقت
لرد بضاعتهم إليهم ؛ وأنهم لا يطلبون من قلة ؛ وظنوا أنهم على كلون مصر
ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل ؛ ثم عقب الضباط بأنهم قد تتحققوا
صدق تلك الأنباء من يوثق بخيه ؛ فقلت وماذا تريدون إذا ؟ فقالوا إنما جئناك
لنزى رأيك ؛ فقلت رأى أن تطبيقاً فنوسكم وتهدوأ روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم
وتقوضوا إليهم النظر في مصالحكم ؛ وهم يتخذون من بينهم رئيساً لهم يثقون به
كل الوثوق ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحافظونه بعماضتكم إذا أرادت
الحكومة به شرآ ، فقالوا كلهم إنما فوضنا إليك هذا الأمر ، فليس فيما من هو
أحق به وأقدر عليه منك . فقلت كلا ، بل انظروا غيري وأنا أسمع له وأطيع
وأنصح له جهدي ؛ فقالوا إنما لا نبغى غيرك ولا ثق إلا بك ، فأبانت لهم أن
الأمر عصيب ولا يسع الحكومة إلا القتل من يتصدى لها فقالوا نحن نفديك ونندى
الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم أقسموا لي إذا على ذلك فأقسموا ؛ وفي الحال
كتبت عريضة إلى رئيس النظار مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب

عنان وفقى باشا لجنسه وإيجحافه بمحقوق الوطنين وطلبت فيها : أولاً : عنز ناظر الجهدادية المذكور وتعين غيره من أبناء الوطن عملاً بالقوانين التي بأيدينا ؛ ثانياً : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الأمة تنفيذاً للأمر الخديوى الصادر عقب ارتقاءه مسند الخديوية ؛ ثالثاً إبلاغ الجيش العامل إلى ١٨٠٠٠ تطبيقاً لفرمان السلطانى ؛ رابعاً : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافية للمعدل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الأجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مسامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختتمى وختم على ياك فهمى وبعد العال ياك حللى ؛ وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديوى والمائة الخديوية والوزراء إذا حدث أى حادث أى حدث من الضباط الجنراكسه مع ترتيب ما يلزم لحفظ البنوك وبيوت التجار الأجانب والوطنين من مطامع الراعى ؛ وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة إذا أرادت الإيقاع بنا وارفض الاجتماع على ذلك » .

ويتبين من اجتماع الضباط عنز عرابى على هذه الصورة وفيهم من لم ينلهم في أنفسهم شيء من الأذى أن السخط على رفقى كان من كل قلب ، وأن المسألة في حقيقتها كانت شعوراً قومياً تجاه تمصب هؤلاء الشراكسه ، وعلى رأسهم كبيرهم الذى يمكن لهم على حساب المصريين أو الفلاحين كما كانوا يسمونهم ، وفي هذا أبلغ رد على الذين تشاء لهم أهواؤهم أو يدفعهم جهلهم إلى تشويه ما كان يدفع عراياها إلى الترد من نبيل الشعور ، وذلك بقولهم إنه كانت تحركه دوافع شخصية .

ويجدر أن نبين هنا لماذا انضم إليهم رجل مثل على فهمى وقد كان في حرمس الخديوى ؛ الواقع أنه فعل ذلك نتيجة لسياسة رفقى كذلك ، فقد وشى به رفقى عند الخديوى حتى غيره عليه ، وأحس فهمى أن مكانته عند توفيق لم تعد كائنة ، فانطوت نفسه على الصفن وصم على أن ينتقم من رفقى متى سنت الفرصة ؛ وما لبث أن أحس مثلكما كان يحس عرابى من كراهية هؤلاء الشراكسه جيئماً ،

والتعصب للقومية المصرية ، وهو بالارب نتيجة لتأثره بشخص عرابي بعد مصاحبته وقطنه إلى ميله وأفكاره .

يذكر عرابي في مذكرة هذه أنه قد جاء في الشكوى تشكيل مجلس نواب وزبادة عدد الجيش ؛ ويذكر ذلك أيضاً في التاريخ الموجز الذي كتبه عن نفسه وأثبته بلنت في آخر كتابه ، ولكن لم يقع في مصدر آخر على أن المريضة احتوت المطالبة بتشكيل مجلس نواب زياده عدد الجيش ؛ ولقد علق بلنت على ذلك قائلاً : « أظن أن عرابياً قد وقع هنا في خطأ خلط بين ما احتوته المريضة وبين هذين المطلبين اللذين جاءا فيما بعد يوم ٩ سبتمبر ؛ ولكن عرابياً أصر على أن الطالب الثلاثة جاءت أول ما جاءت في فبراير وأنها كتبت يومذاك » . وقد عرض بلنت ما كتبه عرابي عن تاريخ حياته على الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٣ في منزله بعين شمس فأقر أكثره ولكنه وضع ملاحظاته على بعضه ومنه محتويات تلك الشكوى ويوثق كد الشيخ عبده أنه لم يكن في تلك الشكوى أية إشارة إلى تشكيل مجلس نواب أو إلى زياده عدد الجيش .

ويقول كرومر في كتابه « مصر الحديثة » « لقد جاء في المريضة أن وزير الحرب عثمان باشا رفق عامل الضباط المصريين في الجيش معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ؛ وقد سلك في ذلك مسلكاً كما لو كان هؤلاء أعداء أو كما لو أن الله قد أرسله ليصب غضبه على المصريين ؛ وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانوني وعلى ذلك فقد طلب الشاكون مطلبيين : أولهما أنه يجب إقصاء وزير الحرب لأنه غير كفء لهذا المنصب العالى ؛ وثانيهما أنه يجب أن يجري تحقيق يتناول مبلغ كفاية الذين ظفروا بالرقب » .

هذا ما ذكره كرومر عن محتويات الشكوى ولو أنه كانت بها إشارة إلى ذينك المطلبين اللذين أشار إليهما عرابي ما أغفلهما كرومر لما يكون لثنיהם من خطر في ذلك التاريخ الذي يكتبه ...

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافي في كتابه « الثورة العرابية » « ويلوح

لنا أن ورود هذه المطالب كلها في عريضة الضباط أمر مبالغ فيه ومشكوك في صحته ، فالستر بلنت — وقد قص له عرابي واقعة قصر النيل — يقول إن العريضة كانت مقصورة على عزل عثمان باشا رفق من منصبه ، والشيخ محمد عبد ينق روایة عرابي ويقول إن العريضة تتضمن الشكوى من الحيف الذى وقع بالضباط من عثمان رفق وطلب عزله ، وإنه لم يرد بها أية إشارة إلى الدستور أو إلى زيادة الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندي ؛ وقال على باشا فهمى في استجوابه إن العريضة مقصورة على طلب عزل عثمان رفق ، وذكر البارون دى رېچ فنصل فرنسا العام في مصر في رسالته عن واقعة قصر النيل أن العريضة مقصورة على إعادة قائم القرسان « ويرى الأستاذ الرافى أن عرابياً « حين كتب مذكرةاته بعد وقوع حوادث بسبعين خلط بين مطالب الضباط في واقعة قصر النيل ومطالبهم بعد انتصارهم فيها » .

وأنا أميل إلى ما ذهب إليه الرافى ؛ وأحسن أن عرابياً لم يعن بالدقائق في بعض تفاصيل هذا الحادث ومنها ما احتوته العريضة ، فقد ذكر في ذلك التاريخ الوجز الذى كتبه بلنت بناء على طلبه أنه علم في بيت نجم الدين باشا أن عثمان رفق كان بنوى عزله وعزل عبد العال ، وهذا يخالف ما جاء في مذكرةاته ؛ وكذلك جاء في ذلك الوجز أن عبد العال اقترح عليه حينما وافاه ومن معه في منزله الذهاب إلى بيت عثمان رفق والقبض عليه أو قتله ، وأنه رد على عبد العال قائلاً « كلا ، بل نشتكي إلى رئيس الوزراء ، فإن لم يقبل فإلى الخديو » ؛ وهذا أيضاً يخالف ما جاء في المذكرات ، ومنه يحس المرء أن عرابياً كان يكتب من ذاكرته أحياناً ولذلك كان يختلط عليه الأمر في بعض المسائل .

ومهما يكن من أمر محتويات العريضة ، فالذى تقاد تتفق عليه الروايات أن الضباط طالبوا بعزل عثمان رفق من منصبه وليس هذا بالأمر المين ، بل إنه لحرة عظيمة في عهد كذلك المهد ...

يدرك عرابي في مذكرةاته أنه بين للضباطين خطورة الحركة ، ولكنهما

أصرّاً عليها فطلب إليهما أن يقسموا أمماً له أن يخلصا له النية ؟ ولنا أن نتساءل هنا لم اختيار عرابي قائدًا لهذه الحركة دون غيره ، وقد كان فهوى في حرم السرای وله صلات برجال الحاشية ، ولم يكن عبد المال دون عرابي منصبة وخبرة ؟ لم عقد الضباط اجتماعهم في داره وأرسلوا يطلبونه وقد نهى إليهم مما يدبر رفق ما نهى ؟ إن اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوي لا ريب على معنى ؟ فما ولدت الرعامة في الغالب إلا على هذه الصورة ، ففي ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتتجتمع عليه القلوب والأهواء في لحظة لا يكون للتنافس الشخصي فيها مجال ؛ وهذا في رأي من أفضل مقاييس الرعامة وبخاصة إذا كان من يختار معرفة من قبل من يختارونه ؛ فلا يكون إقبالهم عليه إعجاباً وقتياً لا يلبث أن يتبع خطأهم فيه .

ولن يشذ عرابي عن هذه القاعدة ، فإنما اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات الجرأة والحماسة والإخلاص ، ولما عهدوا ما عليه من الصدق وحسن الطوبية ؛ هذا إلى أنه كان يفوقهم من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء إلا وهى فصاححة اللسان ، فلقد كان هذا الرجل الذي جعل الجهل في مقدمة عيوبه أفسح الضباط لساناً ، وقد كانت الخطابة إحدى مواهبه حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد ، لا في الجيش خحسب ، بل بين المواطنين جميعاً ...

وامتاز أحد عرابي بشيء آخر لعله خير ما امتاز به ، وذلك أنه كان أكثر المصريين في الجيش سخطاً على الشراكسة وأشدتهم نفوراً منهم ، وأعظمهم اعتزازاً وشعوراً بقوميته ، وهذا لعمري ما سوف يظل التاريخ يذكره عن هذا الرجل الذي جعله أكثر بني قومه زماناً طويلاً ، وما مستظل الأجيال تزداد منه وتوقاً حتى يغدو هذا المصري الفلاح من أحب زعماء مصر إلى قلوب أهل مصر ...

وما كان اضطغنان عرابي على الشراكسة لدافع شخصي ، فهو مصرى قبل كل اعتبار وما يلحقه من أذى أو احتقار على أيدي هؤلاء إنما يناله رجالاً وبناته مصرى في وقت واحد ؛ ولم يقف سوء معاملاتهم عنده حتى يقال إنه غضب لـ

لحقة ، وإنما كانت سياسة الشرا كسة تعصباً لجنسهم على حساب المصريين ، فكان هذا الضابط المصري أكثراً أقرانه من المصريين نحوة وأعزهم نفساً ، وفضلاً عن هذا كله فقد حظى عربي نفسه في أوائل عهد توفيق بالرق إلى مرتبة أمير آلاي ، وكان ذلك كفياً لأن يزيل ما عسى أن يكون قد بقى في نفسه مما لحقه من أذى في عهد إسماعيل .

أعد الضباط عريضة بخطابهم ووقع عليها عربي وزميلاه ، وذهب ثلاثة منهم فرفموها إلى رياض باشا في منتصف يناير سنة ١٨٨١ وإنهم ليعلمون ما كان ينطوي عليه مثل هذا العمل من جرأة في ذلك الوقت ، وكان عربي هو الذي يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جيمما ، كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلاه له كذلك في مستهل الثورة الثانية إلى مقر المعتمد البريطاني يرفع مطالب مصر عقب المدة التي ختمت بها الحرب العالمية الأولى ...

وكان رياض يكره تقديم العرائض منها كان من عدالة ما تحتوى من المطالب وكان يلقى في السجن أو يحكم بالنفي على من يخاطرون مثل هذه الخطوة ، كما حدث للسيد حسن موسيي العقاد فقد نفى إلى السودان لأنه انتقد إلغاء قانون المقابلة على الصورة التي جاءت بها لجنة التصفية ، وكما حدث لكثيرين غيره من أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة .

وقابل رياض الضباط مفيناً مختناً وخطابهم في كبراء وغلاطة كما يقول عربي فقال لهم فيما قال « إن أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطراً من عريضة أحد فني الذي أرسل إلى السودان ». .

وكان هذا الفتى قد نفى كذلك لأنه طلب المساواة في المعاملة بغيره من موظفي الديوان محتاجاً على ما كان يجرى من صور المسؤولية ، وقد قضى في منفاه نحوه . يقول عربي « فأجبته بأننا لم نطلب إلا حقاً وعدلاً وليس في طلب الحق من خطير ؟ وإنما لنعتبرك أباً للمصريين فما هذا التلويح والتخويف ؟ فقال ليس في البلاد من هو أهل لأن يكون عضواً في مجلس النواب ، فقلت له إنك مصرى وباق



عليه
الله يحيى
المصري

محمد علي
الله يحيى
المصري
١٨٨٥
برقم المتن

زد
فأ
تم
تفيد
وأ
أرد

نوعا
وزير
أنسل
في مع
بيان لـ
يصر و
المنف
برالة

النظام المصري والخديو أيضاً مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقتم ؟ كلا
فإن فيها العلماء والحكماء والنهاه ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون
عضوًا في مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون
كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالاً يخدمون الوطن بصائب
فكيرهم ، ويمضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر وكأنا كبر لديه
ما سمعه منا ، ثم قال سنتظر بدقة في طلباتكم هذه فانصرفنا على ذلك » .

ويتضمن كلام عرابي هذا أنه طالب بمجلس للنواب ؛ ولكن بلنت يورد
الحادي في كتابه على صورة أخرى قائلاً إنه يورده كعلم من عرابي ؛ قال عرابي في
رواية بلنت ما ترجمته « ذهبنا بمرتضتنا إلى وزارة الداخلية وطلبنا أن نقابل رياضنا
 فأدخلنا حجرة خارجية ودخلنا ننتظر حتى قرأ الوزير المريضة في حجرة داخلية ؛
ثم ما لبث أن جاء إلينا يقول إن عريضتنا مهلكة ، ماذا تطلبون ؟ أطلبون
تنحيل الوزارة ؟ وماذا تضمون مكانها ، ومن تفترحون ليدير شؤون الحكومة ؟
وأجبته قائلاً يا سعادة البشا هل مصر امرأة ولدت عيادة أبناء ثم عقتم ؟ وقد
أردته بهذا والوزراء السبعة تحت إمرته » .

واشتد غضب رياض لمطالبة التأثيرين بعزل عيادة رفق فقد رأى في هذا الطلب
نوعاً من الترد الجرىء إذ ما دخل الجيش في سياسة الحكومة حتى يطالب بعزل
وزير من الوزراء ؛ وكانت الحكومة لا ريب محققة في هذا الغضب ، ولكنها لم
تسلك إزاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة ، فكان عليها أن تنظر
في مطالب الجيش فتجد منها ما يزيد أسباب الشكوى ، ثم تقنعهم بعد ذلك
 بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفق .

سكت رياض أسبوعين وهو يحاول إقناع الضباط بسحب المريضة ولكنهم
صرون عليها ؛ وغضب الخديو أشد الغضب وأشار عليه بعض الحيطين به باتباع
لنفس نحو الضباط ؛ ثم نهى إلى رياض أن سكوته قد يفسر بأنه ممالة للجيش وعدم
موالاة للخديو ؛ ويقول بلنت في كتابه إن الخديو من ناحيته أراد أن ينتهز هذا

الحادي للانتقام من رياض في موقع المداواة والشحنة بيته وبين رجال الجيش ؟ وكان من رأى رياض لا يجعل من المسألة قضية تتجه إليها أذهان الناس ، كما أن رفقياً كان يخشى أن تظهر المحاكمة سوء سياسته .

ولما فطن رياض إلى ما قد يفسر به سكوته وافق على عما كة الضباط ، ووقع الخديو على أمر بمحاكمة ، ودعى وزير الجمادية الضباط الثلاثة إلى ديوان الجمادية بقصر النيل بمحاجة الاستعداد لخلافات زفاف إحدى الأميرات ؛ فأخذتهم من الدعوة ريبة إذ لم تجر العادة بمثل هذا ، وأخذوا الأمر ما يجب من حيطة ، فاتفقا مع فرقهم أن تذهب إليهم إذا تأخرت عودتهم عن ساعتين ، ثم ذهبوا إلى حيث طلب إليهم أن يحضروا ...

وكان الضباط في الواقع على علم بما در لهم ، فلم يكن من العسير عليهم في مثل ذلك الموقف أن يدركون ما عسى أن تبيئه لهم الحكومة من كيد ؛ ولقد قيل إن قنصل فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة التية عليه .

وما كاد ثلاثة يدخلون وزارة الجمادية وكان ذلك أول فبراير سنة ١٨٨١ حتى ألقوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من الشراسة قبض عليهم وانتزعت منهم سيفهم وأودعوا السجن وهم يسمعون عبارات السب والشماتة يقدفهم بها هؤلاء الشراسة الأجلاف وكانت كلة « فلاخ » أكثر ما أطلق به ألسنتهم هؤلاء السفهاء من الشراسة ، وقد ساء وقها في نفوس الضباط الثلاثة وفي نفس كل من علم بها من المصريين . وكان دخولهم السجن توطئة لمحاكمتهم فعقد لهم مجلس عسكري بمحاكمة برياسة رفقى نفسه .

وعين رفقى ثلاثة غيرهم على آلاتهم فأحل محمود طاهر محل عرابي ، وخورشيد نعman محل عبد العال حلبي وخورشيد بسمى محل على فهمى ، وعمل رفقى على تنفيذ هذا الأمر ساعة صدوره ...

شاع الخبر في الجندي الوطنيين فثارت ثائرتهم ، وكان أكثرهم جرأة وإقداماً

وفاة الضابط الباسل محمد عبيد بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان في آلاته على فهمي بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادي جنده نداءه العسكري ، فاختشدوا فأصرهم بالسير إلى قصر النيل ، فأعرضوه خورشيد بسمى ذلك الذي حل محل فهمي فلم يسقمع محمد عبيد إليه ، بل لقد اعتقله في إحدى حجرات القشلاق ؟ وشهد الخديو تأهب الجندي للمسير فأرسل إليهم الفريق راشد باشا حسني سير ياوره ليصدهم عن سبيلهم فاستمعوا له ؟ وأرسل توفيق يستدعى عبيداً وبعض إخوانه فرفضوا أن يذهبوا إليه ...

وأحكم عبيد المحجوم على قصر النيل ، ولا ذرفة بالمرتب من إحدى النوافذ في صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته ، واعتدى الجندي على أفلاطون باشا وستون باشا وبعض من صادفهم من الضباط الأجانب ، وما زال عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنوده وراحوا يحطمون الأبواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق سراحهم ...

وتحرك آلاته طرة قاصداً قصر النيل ، واستمر رجاله في سيرهم على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد خلّي سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقادتهم خضر أفندي خضر يهاده عن المضمار ؟ وتوجه خضر إلى عابدين وقد علم أن عراياً وصاحبها قد ساروا إلى هناك .

ولم يتخلّف إلا آلاته العباسية وهو آلاته عرايا نفسه ؟ وقد ندموا بذلك على قمودهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاوون ، ثم جاءوا عشاء إلى عابدين فألقوا معاذيرهم بين يدي عرايا وأكدوه الولاء .

ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرايا موقفه هو وزميليه بعد أن دخلوا السجن قال « ولأقفل علينا باب الفرقه تأوه رفيق على ياك فهمي وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار ؟ ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمي بنفسه في النيل من نافذة الفرقه فشجعه متمثلاً بقول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفقي ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفوج
وعتل عرابي بأبيات أخرى نسبها إلى السيدة زينب رضى الله عنها إلى أن قال
« فلا والله ما كانت إلا هنمية حتى جاءت أورطنان من آلات الحرس الخديوي
وأحدق رجالها بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والمساكر فأخرجونا من
السجن ، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعاً إلى
سرای عابدين » ...

وإنما نورد هنا ماذ كرمه عرابي لأنه من جهة يصور لنا جانبًا من شخصيته وناحية
من ثقافته ، ويرينا نزعة اتكاله على الله ، تلك النزعة التي سوف لا تخلي عنده حتى
بعد أن تخلي عنده عزيمته عند انصرافه عنه عقب مأساة التل الكبير ، ثم
لأن كلامه من جهة أخرى متفق مع ما يقول الرواة فلا ضير أن نورد القصة على إسامه .

* * *

ذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الأسر إلى الخديوي يسمعونه
شكواهم ، وكان بعض أعون الخديوي يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة
الثائرين ولو أدى الأمر إلى إطلاق النار عليهم وقال البعض إن من العبث أن تلجم
الحكومة إلى البطش وليس لديها وسائله ، فالفرق جميعاً تؤيد عرابياً ومن معه .
والرأي أن يسلك الخديوي معهم جانب الain فيطبقه بذلك نار الفتنة ؛ وكان مما
أشاروا بهذا الرأي محمود ساي البارودي الذي سوف يندو من زعماء المرابطين ...
وتغلبت الحكمة على الطيش ، ووضع الain في موضع البطش ، فأوفد الخديوي
إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم بأجابتهم مطلبهم
الأول فقد عزل رفق ، وطلب إليهم أن يختاروا من يحمل حمله حتى لا يمودوا إلى
الشکوى فوقع اختيارهم على البارودي ؛ ووعدهم الخديوي أن ينضر في بقية مطالبهم
وأن يعمل على إنصافهم بعد أن أعادهم إلى مناصبهم والتنس الضباط الإذن على
الخديوي فلما مثلوا بين يديه أعرموا له عن امتنانهم وصادق ولاهم اشخصه وعظيم
إخلاصهم لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجناد فرحين مستبشرين .

ولقد كان على الخديو أن يتذر في الأسر منذ بدايته وينظر ما إذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة إن كان لا بد من وضع العنف موضع العدل ؟ فأن عدم القوة كان أمامه أن يلتجأ إلى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ؛ ولكنها تصرف على نحو ما رأينا فأفضى به تصرفه إلى تائج خطرة سوف تؤثر أثراها في مجرب الحوادث ، فظفر الجندي بعطاياهم في عنف ، وعجز الحكومة عن مقاومتهم وسلوكها ذلك المسلك الشائن قد وضع الخديو وحكومة في موضع الضعف وأحل عرائس وحزبه محل التوبي والتلطخ وجعلهم مناط الأمل والرجاء ، هذا إلى ما تركه هذا الحادث من سخيمة في نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاصي ، ويسهل أن يلبس فيها كل حق بالباطل ، وما به من حذر ورببة في نفوس الجندي بحيث يرون في كل حركة من حركات الحكومة شبح الغدر ويلبسان كل عمل من أعمالها ثوب الرياء ...



لِفَلَاحِ الْزَّعْجِيمِ

أدى حادث قصر النيل وانتصار عربى وزميلاه على هذه الصورة التي وصفنا
إلى ذيوع صيت عربى على نحو لم يسبق لفلاح قبله في مصر منذ قرون ، فما يذكر
تاریخ مصر منذ أن منيت بالفتح والقهر أن قام من بينها رجل من أعماق القرى
فتفرد على ما يعتقد أنه ظلم يحيق به وبيني نفسه ، كما تفرد وأجترأ هذا الفلاح فأبعد
من الوزارة شركسياً قوى الشوكة وأملأ رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى
الخدبو إملاء ونال بغيته غلاباً ، ولم ياك بالذى يغفل عما كان عسياً أن يؤدى إليه
صنيعه هذا من هلاك ...

والحق أن هذا العمل يومذاك كان بالغ الجرأة ، فقد كان المصريون يدينون
بالطاعة للخدبو وبهابون سلطانه وجاهه ، ويرون فيه سيداً وضعه الخليفة حيث كان
ليطاع ولتعنوا له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقر سلطانه رجل
نشأ في قرية ومن ورائه جند فلاحون مثله فيقولون له نحن زيد ونحن نطلب ثم
يظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسهم العذاب الأليم ...

وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل إسان في القاهرة وسمع
 بذلك الاسم من لم يسمع به من قبل من الأجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين .
 ولم يقف الأمر عند القاهرة ، فقد رن هذا الاسم في القرى وتقلغل في أعماقها
 فأفاق على رئيشه أولئك الأعيان والأشياخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا
 خضوعاً مطلقاً للأتراك والشراسة الكسة الذين كانوا ينظرون إلى الفلاحين جميعاً مهما
 يكن من نراء بعضهم نظرهم إلى دوابهم ، والذين كرههم الفلاحون بقدر
 ما خافوهم ولكنهم لم يجدوا من الإذعان لهم من بد ...

عجب أولئك الفلاحون أن يجرؤون على تحدي الخدبو والرؤساء

الشرا كسة ، فتعلقا بها هذا الرجل ولم يروه ، ورغم الكثيرون منهم في رؤيته ،
قدموا إلى القاهرة يحملون إليه المدايا ويبرون له عن محبتهم إياه وإنجذابهم عبادته
التي كان قوامها إنصاف الفلاحين في الجيش ، وراح عربي يخطفهم شاكراً إياهم بأنما
فيهم روح الحرية والإباء .

وليت شعرى ماذا تكون الرعامة إذا لم تكن هذه زعامة ؟ ألسنا نرى الآن في
عربى شخصيتين : شخصية الجندي الذى يسير بخطاب الجندي على رأس الجندي ،
ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خضوها
أجيالا طويلا ؟ ألا إن لآلئس فى تلك الصحوة غير عصر جديد للقومية المصرية ،
كان عربي أول مؤذن به ؛ ألس ذلك الفجر الذى سوف ينبعج صباحه بعد قليل
على صيحة أخرى كانت صدى لهذه الصيحة هتف بها فلاح آخر برب من القرى كما
برز عربي ، وذلك هو سعد ابن مصر العظيم واحد أبطالها ومفخرة رجالها ...

ولمن كان جمال قد يفظ الغاففين في المدن ، فإن عربياً قد يبعث بإقدامه أهل
القرى من صراديهم ، فإن عمله هذا أوحى إليهم أنه من الممكن أن يخرج من بينهم
من يشمخ بأفنه على أولئك الذين طالما استذلوا في مصر الرقاب ...
ولاقى عربي وقد أصبح في رأى الناس حارى الأمة من الظلمات تأييداً من العلامة
الذين أحببوا مجرأه وحياته ...

ولم يبلغ عربي هذه المسکانة في نفوس الناس بعلم اشتهر به أو فلسفة عمل
على تعميقها في التفوس ، أو آراء في الإصلاح والنهوض عمل على إذاعتها في الناس
كما فعل جمال الدين وكما فعل من بعده تلميذه محمد عبده وإنما بلغه عربي ما بلغه من
الصيت بح敏يته وغيره ثم بصلابة عوده وجرأته ، وكانت تلك الخلال هي أخص
ما يطلب يومذاك ، حيث كان يحيط بالناس البطش والتخويف ويقعد بهم
الذل والخوف .

وعلى الذين يذكرون أقدار الرجال أن يتذروا في موقف عربي هذا ، ثم
لينظروا بعد ذلك هل كان صنعته ضئيلاً كما يزعمون ، ولتكن لا نوجه القول

إلى هؤلاء وأمثالهم من يكتمون الحق وهم يعلمون ...

وهل داع صيت ميرابو واغتنى في قومه زعيمًا بفلسفته وثقافته وهو الفكر الواسع الأفق ، أم كان ذلك بصيحة منه تحدي بها القوة فلات أسماع قومه ونفذت إلى كل قلب في فرنسا يؤمن بالحرية ، يوم كانت فرنسا في مفرق الطرق إما إلى الحرية وإما إلى العبودية ؟

ولو أن جاندارك كتب ألف كتاب أو خطبت الناس ألف خطبة ، أكان ذلك يساوى لبسها الدرع واعتلاها صهوة جواد وسيرها تقد الرجال مؤمنة إما إلى القبر وإما إلى النصر ؟

إن الخطوة الأولى في كل حركة تتطلب إقداماً وبسالة كانت وما زال هي التي تنقل التاريخ من صفحة إلى صفحة ، وما يغفل عن قيمة الإقدام وخطره وبعد أثره إلا مكار جحد به واستيقنته نفسه ...

وما ندعى أن عربياً قد اتفقت له صفات الزعامة كلها أو أكثرها ، ولكننا منه تلقاء صفة لن تقوم بدورها زعامة ، تلك هي الشجاعة التي يأخذ بها الرجل أن يذل ، ويزيد في جلال هذه الشجاعة بروزها في وقت كذلك الوقت الذي تتحدث عنه ، ذلك الوقت الذي لم يكن يجد فيه الشجاع إلا قليلاً من يتأنس بهم أو يسير على رحبيهم ، والذى أَلْفَ فيه الذل حتى نسى الناس أنهم في ذل ، والذى لم يكن فيه لدى التخوة عاصم من قانون أو دستور أو رأى عام ، أو ما إليها مما يستعصم به الناس اليوم من جور الطاغين ومكر المستبدin .

يقول بلنت في كتابه « كان تاريخ هذه القلاقل العسكرية في قصر النيل هو أول فبراير سنة ١٨٨١ ؛ وقد حدث وكفت لا أزال في مصر ولكن بعد أن غادرت القاهرة ، ولست أتذكر أنى سمعت اسم عربي يذكر قبل حدوثها ؛ ولكن الدور الذى لعبه في ذلك اليوم قد أكسبه شهرة سريعة ، وسرعان ما صار اسمه على كل لسان ، اسم رجل نجح في تحدي الحكومة والظهور عليها وإحداث تغيير في الوزراء ؛ وأصبح مقامه في بضعة أسابيع مقام رجل ذى ثقة وقوة في

مصر أو على الأقل أصبح يعزى إليه القوة وصارت تتقاطر عليه كاكا هي المادة في مصر الفظلامات من أناس عانوا الظلم ويطلبون معونته للوصول إلى العدالة ؟ ولقد أذاع صيته خارج القاهرة ظهوره في ثورته بعاظهر الذي يحمي الفلاحين من جور الحكام الشراكسة ، واتصل به كثيرون من الأعيان وأشياخ البلاد ، وكان يرد على كل بما يسمعه من رد حسن أو بما يدخل في طوفه المحدود من عون ؛ وكان يؤثر في الناس تأثيراً حسناً أينا لقوه بحسن محضره وبابتسامته الجذابة وفصاحته في الخوار ؛ ولقد اتفق كل الاتفاق لمراي في مظهره الشخصى من الواهب ما يهميه إلى ما ندب له من دور يلعبه في تاريخ مصر مثلاً طبقته ، فهو فلاح كادق مانكون صورة الفلاح ، طويل القامة ، تميل الساقين ، بطيء الحركة إلى حد ما ، وبهذه الصفات تمثل لنا فيه قوة البدن الممتلىء التي هي من خصائص الفلاح العامل في دلتا النيل ؛ ولم يكن له شئ من خفة الجندي وكان في ملامحه شئ من ذلك السكون الذي أكسبه الوعار والذى يامحه المرء في وجهه أشياخ القرى ، وكانت ملامحه مظامة في حال سكونه ، وكانت لعينيه نظرية جامدة كنظرة الحالم ، وليس يفطن المرء إلا حين يبتسم أو يتكلم إلى ما بنفسه من ذكاء عظيم وعطف ، فعمد في شرق وجهه كما يشرق المنظر المظلم بنور الشمس ... ويجب أن نذكر أنه في تاريخ مصر كله ، لم يبرز في مدى ثلاثة قرون على الأقل فلاح بسيط إلى أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خططها ، أو إلى أن يصبح داعية إصلاح أو إلى أن يهمس بكلمة تدعو حقاً إلى الثورة » .

والحق أن مجرد غضبة مصرى في مثل ذلك الوقت لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة التي تبلغ لما أحاط بها من ملابسات حد البطولة ، ولن ينكر على عربي المصرى الفلاح ما في غضبة من معانى الزعامة والبطولة إلا مفترض أو جاهل ؛ وهو لم ينضب فحسب ولم يعلن غضبه حتى رأى الخوف فنكص وإنما طالب رئيس الوزراء بما اعتقد أنه الحق غير هيبة ولا متلهم ، وأخذ يعد المدة بعدها لما عسى أن يدبر له من كيد ، ولم يرض من الغنيمة بنجاته مما وقع

فيه ، وإنما ذهب على رأس جنده وحمل الخديو على إجابة ما يريد الجيش ، فابعد
من منصبه ذلك الوزير الشركسي الذي كان يبعد المصريين من مناصبهم لا لشيء
 سوى أنهم مصريون ...

بهذا الذي فعله ذلك الفلاح الثاير حقّت له الرّعامة على الفلاحين من بني قومه
واكّن الأمر لم يقتصر على الفلاحين ، فقد بات يخطب وده رجال الحزب الوطني
كما سنبينه في موضعه .

وأصبح بيت عربي مقصد الكثيرين من الأحرار كما كان موئلاً رجال الجيش ،
ولم يجعل منه الوطنيون أداة لتنفيذ أغراضهم كازن البيه أو الجهل لبعض المؤرخين
أن يقولوا ، فلقد كان مؤمناً ببدأ الشورى كإيمانهم به كما كان يكره المستبدون من
الشراكسة ومن المصريين أكثر مما كان الوطنيون يكرهونهم ، ولقد
تجلى من قبل ميله إلى كل من يعطف على المصريين في علاقته بسعيد باشا ومشدة
ولاته له ...

وهكذا أصبح عربي الفلاح ملتقى الآمال ، يمحض على الصلة به الوطنيون
والجندي والفالحون ، وقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى
ما يستطيع أن يخفى تلك الغيرة .

ومما ذكره بذلت في هذا الصدد قوله « وكان توفيق كارأينا رجالاً متغلب
الأهواه ، في بينما كان لا يزال ينوي أن يعتمد على الجيش للتخلص من رياض ،
كانت تساوره نوبات من الحقد على عراي لما يرى من سرعة ذيوع صيته وكان
هذا الصيت قد ملحوظ طيلة أشهر الصيف وقد أدى إلى اتصاله بعدد كبير
من أشياخ القرى وأعيانها أولئك الذين كانت دعوة تحرير الفلاح ، تلك الدعوة
التي تولى قيادتها ، شيئاً توق إلى نفوسيهم ؛ وأخذ الناس في الأقاليم يذكرونها
بقولهم « الوحيد » وقد استحق هذه التسمية حقاً فإنه في مدى عدة قرون الرجل
الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذي استطاع أن يقاوم بنجاح طغيان
رجال الطبقة الحاكمة من الأракش والشراكسة » .

آن لمصر بعد طول المذلة أنَّ محمد الرجل الذي يترجم عن آمالها ويدافع عن حقوقها وينطق باسمها فاتجحها كأتجه الجيش إلى هذا الفلاح الزعيم .
وعندى أنَّ الحركة التي تهدى مكملة ثورة عرابى أو بماً لها هي ثورة مصر الثانية سنة ١٩١٩ ، وأنَّ الزعيم الذي يلحق جهاده بجهاد أحمد عرابى وتضاف مبادئه إلى المبادئ التي دعا إليها أحمد عرابى هو سعد زغلول الفلاح الزعيم الثاني ولكن في صورة غير صورة سابقه وفي ظروف غير ظروفه و المجال أوسع من مجاله وإن اتفقا في روح مبادئهما وقومية بواعيدهما وأغراضهما ، كل من الثورة التي حمل لواءها ...

وما ننسى أنَّ سعداً قد أعطى هذا الزعيم الأول حقه إذ كان يستعرض ذات صرعة أطوار الوطنية المصرية فذكر له ما لا يمكن أن ينسى له من فضل .



الوطنيون والعسكريون

يُبَلَّغ مَا أُصِيبَ بِهِ الْأَحْرَارُ فِي آمَالِهِمْ مِنْذَ أَنْ عَزَلَ إِسْمَاعِيلَ وَعِينَ تَوْفِيقَ ، وَرَأَيْنَا مَا صَدَمَ النَّفُوسَ مِنْ خَيْرٍ إِذَا سَكَنَ تَوْفِيقُ الدُّسْتُورَ عَلَى مِصْرَ ، الْأَمْرُ الَّذِي أَغْضَبَ شَرِيفًا فَاسْتَقَالَ ، وَحَلَّ مَحْلَهِ رِيَاضَ ...

لَمْ يَكُنْ لِرِيَاضَ مِثْلَ مَا كَانَ لِشَرِيفِ فِي قُلُوبِ الْوَطَنِيِّينَ مِنْ حُبَّةٍ ، فَقَدْ كَانَ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا اشْتَهِرَ بِهِ مِنْ بِرَاعَةٍ وَاسْتَقَامَةٍ مُتَكَبِّرًا مُحَافِظًا يَسِيِّدُ الظُّنُونَ الْوَطَنِيِّينَ وَحْرَكَاهُمْ وَيُوجِسُ خَوْفًا مِنْهَا ؛ كَمَا كَانَ فِي خَلْقِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْضُوضِ وَالتَّحْفِظِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ صِرَاطِهِ شَرِيفٌ وَلَا مِثْلُ شَجَاعَتِهِ الْأَدِيَّةِ وَإِقدَامِهِ وَزَرْعَتِهِ الدُّسْتُورِيَّةِ الْحَرَةَ ...

وَقَدْ اسْتَطَاعَ رِيَاضَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ الْحَاكِمَ الْمُطْلَقَ الْفَعْلِيَّ لِلْبَلَادِ ، وَذَلِكَ بِضَمِّنِهِ رِضاَتِ تَوْفِيقَ ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُ حَقَّ رِيَاسَةِ مَجْلِسِ الْوَزَارَةِ مَقْتَأَدًا ؛ وَقَدْ حَرَصَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى السَّيْرِ فِي إِدَارَةِ شَئُونِ الْبَلَادِ وَفَقَدَّ مُبِدِّأً مَسْؤُلِيَّةِ الْوَزَارَةِ عَنْ أَعْمَالِهِ ، ذَلِكَ الْمُبِدِّأُ الَّذِي قَرَرَهُ إِسْمَاعِيلُ فِي أَغْسَطِ سَنَةِ ١٨٧٨ ، وَالَّذِي يَعْقِضُنَاهُ لَا يَنْتَصِلُ وَزِيرٌ مِنْ مَسْؤُلِيَّةِ عَمَلِهِ بِرَدِّهِ إِلَى مَشِيشَةِ الْخَدِيوِ كَمَا كَانَ الْحَالُ قَبْلَ تَقْرِيرِهِ الْمُبِدِّأِ ...

وَكَانَ تَطْنِي عَلَى الرَّأْيِ الْعَامِ الْمَصْرِيِّ رُوحَ الْاسْتِيَاءِ الْعَامِ ، فَكَانَ عَهْدُ وزَارَةِ رِيَاضَ كَجَمِيعِ الْمَهْوُدِ الَّتِي تَهْيَأَ فِيهَا الْأُمُّ لِلثُورَاتِ ، فَتَكَوَّنُ فِي نَفْسِ كُلِّ اَمْرِيَّ ثُورَةٌ وَإِنْ لَمْ تَنْدِرْ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ مَا بَوَاعُهُ .

وَالْحَقُّ أَنَّ اسْتِيَاءَ النَّفُوسِ هُوَ وَلِيدُ مَا يُبَلَّغُ مِنْ أَسْبَابِ تَعْصِبِ الْمَصْرِيِّينَ وَسَخْطِهِمْ أَنْتَهَ حُكْمَ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا ، وَجَاءَتْ وزَارَةُ رِيَاضَ عَقبَ اسْتِقْلَالِ شَرِيفِ مِنْ

أجل تمكّه بالدستور فلم يبق مجال للأمل وخيم اليأس على النفوس ، حتى لم يعد هناك بد من متنفس لهذا الشعور المكتوب .

ولو أن رياضًا فطن إلى تلك الحال النفسية لأمكنه أن يعمل على تجنب عواقبها ولكن رياضًا على حد تعبير الشيخ محمد عبده كان « لا يخلو فكره ريبة في سكون المصريين إلى إطاعة كل ما يؤمرؤن به حلا لهم على سوابقهم وسالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من ناحيّتهم ولم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يتبرّع من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والأجانب » .

أو كما قال عنه إنه كان « صادق النية مخلص السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لا يالي في تأدبة ما يراه واجبًا عليه بما يحرج القلوب ويؤلم النفوس ، وبظنه أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته ، وإن لم يبيّنها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر النهاية الصالحة منه ... »

وزاد الناس نفورًا من المهد كله ، ضعف شخصية توفيق في ذاته وما لحق منصب الخديو من مهانة بسبب خلع إسماعيل ، فقد أفق في روع الناس وبخاصة حين رفض الدستور قاعدة للحكم أن مثله لا يرجى خير على يديه وأنه بات صنيعة للأجانب يأتمر بأمرهم من وراء ستار بعد موارأة من عزل أبيه ، وأن رفضه الدستور لم يكن إلا مشابهة للأجانب في نظرهم إلى المصريين ...

ولم تكن في مصر طبقة راضية عن وزارة رياض أو عن الحال القائمة بمذاك الحال بوجه عام سواء نسبت إلى رياض أم لم تنسّب إليه ، وخاصة المصريين ، الذين كانوا عهد بدركون حال بلادهم حق الإدراك ، والذين أثروا فيهم آراء جمال الدين ، كانوا كل مند عهد إسماعيل ساخطين على تغلغل نفوذ الأجانب في مصر ، وعلى السياسة التي جرت على مصر العسر والدين ، ومن هؤلاء سوف يتكون الحزب الوطني في مرحلة رياض كاسمه في هذا الفصل .

وكان أعيان البلاد ينقمون على رياض إلغاء دين المقابلة ، ويررون أن هذا أفحى (م — ٥)

الذين إذ تلقي وزارة مصرية ديناً أخذ من المصريين ولا ينجرو على إلغاء شيء من أموال الأجانب ، تلك الأموال التي شعر الناس جميعاً بعبلغ ما كان فيها من مغالطة وسرقة .

وكان رجال الجيش ينقمون على رفق تعصبه لجنه ويشركون رياضاً معه في هذا الظلم بالضرورة لأنه أقره ولم يكن يشكو الجندي من تعصب رفقه فحسب ، بل كان يؤلمهم سوء ما يعاملون به مما يدل على الرغبة في امتهانهم وإذلالهم فكان يكتفى ب مجرد التهمة ليفصل الجندي من الخدمة ، أو تنزع منه درجته أو ينفي إلى مكان سحيق في السودان ولو لم يثبت شيء عليه ، وكان ذلك خليقاً أن علاً النفووس بالحفيظة ويدفعها إلى الرغبة في الانتقام ، فليس الأمر أصل ظلم فحسب ، ولكنه بتحيز الحكومة للشراكسة الذين يحتقرون المصريين كان ظلماً على ظلم ...

وزاد السخط في نفوس العسكريين إنقاوص وزارة رياض عدد الجيش إلى إثنى عشر ألفاً إلى أقل مما يقضى به الفرمان الذي أرسله السلطان إلى توفيق والذى يقضى بجعل الجيش عما يزيد عن عشر ألفاً ؛ وقد أدى هذا إلى صرف عدد من الضباط والجندي إلى مواطنهم فأصابتهم العسر وكانوا من الساخطين ، كل ذلك والشراكسة لا يعفهم شيء بل لا يجدون إلا التقلب في النعمة والتمتع بالرق .

وكان الناس بوجه عام ومنهم الفلاحون ، يشعرون أن لا عدالة ولا قانون يحمى المظلومين من تجبر الظالمين ، الحكم منهم وذوى الجاه والثراء ، فالكرياج والسخرة والنفي إلى السودان وأمثالها من العقوبات تقع على الناس في غير رحمة ، بل في غير حق ، وظل التعذيب والسخرة والإذلال أموراً شائعة في القرى على أيدي المدربين والأغنياء على الرغم من إصدار رياض أوامره بالكشف عنها ، ولقد كان نهيه عنها مما يحمله ولكن قموده عن إبطالها كان مما يؤخذ عليه لا ريب .

ولقد بلغ عدد الذين تقدموا إلى شريف باشا يلتعمسو من رفع الظلم عنهم حين ألف وزارته بعد يوم عابدين نيفاً وتسعاً كثيرة كان تقرر إبعادهم إلى السودان ! وكان مما يتأمل منه الفلاحون إندساس كثيرين من المرايين الأجانب بهم

والعمل بكلفة الحيل على إيقاعهم في الشرك والاستيلاء على أكثر ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم .

كانت المحكمة تقضى أن يأخذ رياض الأمور بالرفق عمله يتتجنب ابعاد العاصفة ، ولكنها عمل بسياسته على ثورانها ، ولعل صد ذلك إلى جهله بحقيقة ما كان يحيط به واستبعاده الثورة على المصريين ...

ولعل كذلك خيل إليه أنه قادر بالقمع والعنف على أن يحكم البلاد ؛ ولذلك رصد عيونه يتعقب الساخطين من الخاصة ، وكان يشتبه في كل حركة ويخاف من أقل بادرة ...

وأنزل العقاب الشديد عن يعارض سياسته ، ومن ذلك ما حل بالسيد حسن موسى العقاد ، الذي كان كل ذنبه أنه دعا الناس إلى التوقيع على مظلمة ترميم لولاة الأمر مما وقع على الناس من غبن بإلغاء دين المقابلة ، وكان جزاًًءه على ذلك النفي إلى فازو على بالسودان ؛ ومنه أيضاً ما لحق الفريق شاهين باشا كنج الوزير السابق فقد جرد من رتبه وألقاه مجرد اتهام أنه يتصل بالوطنيين الناقدين ...

وتتسبّب رياض الصحف بالتمليل الوقتي والإذار والإلغاء ، بهمة إثارة الرأي العام ، ومنها جريدة مصر والتجارة ، وقد جاء في قرار الوزارة بالغاتهم قولهما : « حيث سبق صدور الإنذارات صراراًً عديدة وتنبيهات شفاهية من إدارة المطبوعات إلى أصحاب امتياز الجرائد الأهلية عموماً ، وإلى صاحب امتياز جريدة مصر والتجارة خصوصاً بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ولا ينشرون ما يوجد تشويش الأفكار ، صدر له آخر إنذار بأنه إذا رجع لثل ذلك ، فلتلي جرتداته بالسکلية ، وحيث أنه بعد هذا الإنذار لم يترك مسلكه الأول لانشره في جريدة التجارة نمرة ١٢٣٣ الصريح في أنه لا يرجع عما هو مصر عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدين ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال صدور الحكم بالغاتهمما مؤبداً » .

وتناول بطش رياض غير هاتين من الصحف فلم تنج في عهده صحيفة من التمعظ أو الإلغاء أو الإذار .

أدت هذه السياسة التي جرى عليها رياض ، إلى أن ينشط الناقون في العمل على مقاومته والتخلص من حكمه ، وكان هؤلاء الناقون هم قادة الحركة الوطنية الذين كانوا يجتمعون منذ أواخر عهد إسماعيل أى قبل ذلك بنحو أربعة أعوام في بيت نقيب الأشراف السيد البكري ؛ ونظرًا لما يشه رياض من عيون تحصى عليهم حركاتهم فقد تركوا القاهرة وجعلوا اجتماعهم سراً في حلوان ، ومن ثم تألف حزب أطلق عليه أول الأمر جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطني ... وكان من أشهر رجال هذا الحزب محمد سلطان وسلیمان أبااظة وحسن الشريبي ومحمد شريف وإسماعيل راغب وعمر لطفى ؛ وقد نشروا في أواخر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسي لهم وطبعوا منه آلاف النسخ وأذاعوها بين الناس ، ولقد حنف رياض أشد الحقن على ناشري البيان وبذل جهداً كبيراً ليعرف أسماءهم كي يرسلهم إلى السودان ، فلم يهتد إلى أحد ...

وأوفد الحزب أديب إسحق إلى أوروبا ليدافع عن مبادئه الوطنية فأناشأ في باريس جريدة القاهرة ، وكان من أشد الساخطين على رياض لأنه عطل له جريدة مصر والتجارة ، ثم إن أديباً كان من تلاميذ جمال الدين وكانت من المؤمنين بالستور والمبادئ الحرة ؛ ولقد جمل حملة شديدة على رياض في جريدة الجديدة وندد باستبداده وقسوته ونسب إليه الظلم والجهل والحق ، وعاب عليه ما رماه به من الخضوع للجانب والركون إليهم على حساب أمته ، ولم يدع عيباً يستطيع أن يرميه به إلا بالغ فيه وأعاده وكرره ولم يترك غمزة في خلقه أو فملا إلا أبرزها وراح ينوهه بأوجع الهجاء ؛ وكان رجال الحزب الوطني يحصلون سراً على نسخ من هذه الجريدة ويزعونها في البلاد ، وكان من بينهم اثنان من المديرين هما سليمان باشا أبااظة مدير الشرقية وحسن باشا الشريبي مدير النيل ...

وكان رجال الحزب الوطني ، يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الأجانب من التدخل في شؤون البلاد لا من ناحية السياسة فحسب ولكن من ناحية المال كذلك ، وقد أيقنوا أن الحكم الدستوري الذي يرد فيه كل أمر إلى الأمة هو وسنه العلاج الشاف من كل الأدواء القائمة ...

ولكن رجال هذا الحزب كانوا لا يزالون في المرحلة السرية من جهادهم خوفاً من بطش رياض ومن ورائه توفيق ، وخوفاً من نفوذ الأجانب ودسائسهم ، وحسب الرء أن يذكر أن الحكم كان يومئذ وفق العرف لمدرك مبلغ ما كان يتمتع به رياض من سلطة ومبلغ ما كان يخشاه الوطنيون من نكل ...

وفي نفس ذلك الوقت الذي كان فيه يتشارو الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشدته في صفوف الجيش ، على رفقه وسياساته ومن ثم على رياض وزارته ، وكان سخط الجنود بلا ريب ناحية من ذلك الاستثناء العام الذي شمل مصر كلها ، ولذلك فإن من ينظر إلى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة متفرقة إنما يخطيء خطأً كبيراً ؛ وبخاصة إذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين في جوهره كان تحييز رفقى لبني جنسه الشراكسة على حساب هؤلاء المصريين الذين كانوا ينتظرون بالفلاحين .

إذا فقد كان عربى بمثيل ناحية من الحركة الوطنية حين ذهب إلى رياض يشكوا إليه رفقى ، وما كان الجنود مدفوعين بعاصتهم وحدها وإنما كان يغضبهم الجور ويدفعهم إلى الشكوى ، ولو لم يكن هناك شراكسة يظفرون دونهم بالرق والنعمة لما كان لحركتهم هذا الطابع القوى الذى نعجب كيف يعارى فيه المارون ! .. وإن نسى فى هذا الصدد أن نشير مرة أخرى وقد رأينا مبلغ خوف الناس جميعاً من سطوة رياض إلى ما كان فى موقف عربى من جرأة وشجاعة وعزة لن يمحوها إلا الظالمون ...

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقي الوطنيون والمسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على كوه رياض والاستثناء من المهد كله ما كان يتحقق ٣٣ جيئاً من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جيئاً في أنفسهم من أن مرد ذلك إلى الحكمطلق الذي يسير عليه توفيق ووزيره ومن ورائهم تدخل الأجانب . ولذلك ما كاد عربي يخطو خطواته حتى حفت له الزعامة كما يتنا ، فقد اتجهت إليه القلوب ، إذ هزت الناس جرأته وحياته ، وأحسن الناس في دخلة نفوسهم أن الثورة قد هيء لها الرجل الذي يقودها .

ولئن زين لم يغض الناس أن يقولوا إنه ما كان يستطيع أن يفعل هذا لو لم يكن يستند إلى الجيش فإنما يقول لهم ولم يضطّل بالقضية رجل غيره من رجال الجيش ، ولم يكن أعلاهم مرتبة ؟ ولقد كان معه زميلان حين وتب وتبته فلم تتنسب الحركة إلا إليه ، ولم لم يجر على الألسنة اسم غير اسمه ؟ ومن أدراه أن الجيش لن يخذه إذا جد الجد ؟ وهل قبده به تقسيمه في ذلك وهو ما دار بخليمه بالضرورة حين أقدم على هذا الأمر الخطير عن أن يخطو خطوه ؟ وهل كان يعنيه ما أخذته على زملائه من الموانق والأعوان إذا خاف الجندي جانب الحكومة فقدموا كما قدم آلايه هو عن التحرك من العباسية إلا بعد المشاء ؟ ألا إنها الجماعة التي تقوم عليها كل زعامة من الزعامات ...

وندع للشيخ محمد عبده أن يبين لنا كيف اتجهت النفوس إلى عربي ، قال في مذكرة عن الثورة العراقية « شاع هذا الخبر بين الناس على حسب الموارد في مصر ، وعلم الكثير من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب المالى وأتحدت وجهتهم في النهاية وإن اختللت الدواعي والبواعث ، فطلب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشـكيله ، والتعجبون من استبداد بعض المأمورين ، والخائفون من أن يؤخذوا بالشـبه رجـون بالتبديل كـشفاً لـكربـتهم وأمنـاً على أنفسـهم »

والواجدون على السلطة الأجنبية يرجون شفاء شئ من وجدهم والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون في إرضاء شرهم ، والأجانب الربويون يتطلعون إلى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماسية وقنصل فرنسا البارون دريج يسمى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأن خلف له يمكنه بمحارته في مطالبه ، والجناب الخديو لا يكره أن يتخل里 رياض باشا عن رئاسة النظار بل تلك أمنية من أيامه .

فأخذت هذه العوامل جمعها تشتعل لتفوقة جانب الضباط وتشجيعهم على الإلحاد في الطلب وكل من وصل إليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث إليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحرية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيهم الأخبار بأن الجناب الخديو لا يأب إجابة طلفهم بل يحب أن يمكن لهم أمانيهم وإنما رياض، باشا هو الذي لا يريد ذلك . والله أعلم من أين كانت تأتיהם هذه الأخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا « .

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجيش من ظفر سريع ، بينما قد لحقهم هم الفشل ، واستطاع توفيق أو استطاع في واقع الأمر رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والمعلم ، فسرعان ما اهتدوا إلى الطريق الذي يوصلهم إلى أغراضهم فتقرروا من عراي وتوددوا إليه ، فأخذ شريف برأسه وبعقد بينه وبينه أواصر المودة ، وهذا حذو شريف زعماء حركة الإصلاح في الأزهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذي كان يمثل الأعيان كذلك لأنه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لاقصاء رياض عن موضعه ، وبعث الدستور المؤود وتحقيق الإصلاح المنشود .

ويقول بلنت عن ذلك في كتابه « وفضلا عن أن عرايًا قد رأى أعيان الفلاحين يسعون إليه ، فإنه قد رأى الطالبين بالدستور كذلك يجتمعون منه حلوفاً لهم ، وقد كان الكثيرون منهم أعضاء في الطيبة الحاكمة وكانوا في قراره أنفسهم

يقاومون حرية الفلاح كـ يقاومها رياض نفسه ... وكان شريف رئيس هؤلاء الدستوريين ، وقد أدى به مجرى الحوادث فى الصيف إلى أن يجد نفسه ذاتصلة وثيقة بعرابى وإن لم تكن صلة مباشرة ، وذلك كوسيلة لبعث الدستور الذى هو وسيلة لاستئناف سلطته ؛ ولما كان عرابى على الدوام ميلاً إلى مبدأ الدستور منعطفاً إليه فقد أبى صرحاً بالفكرة ، وزاده إقبالاً عليها أن سلطان باشا نفسه أقوى أعيان الفلاحين يومئذ ، كان من أشد أنصار الدستور وقد أخذ دور الوسيط في الصلة بينه وبين شريف »

والآن نقول إن الثورة العرابية فيحقيقة أمرها هي التقاء الوطنيين والمسكرين على هذه الصورة التي يبتناها ، ولسننا بمحاجة بعد ذلك فيما نعتقد إلى كثير ولا إلى قليل من القول لنرد على الذين يزعمون أن الثورة العرابية لم تكن إلا حركة عسكرية بعضها دوافع شخصية ؟ فأما الذين يزعمون هذا الرعم عن جهل فازناتاب في أنهم يزعمون عن زعمهم بهذا ، وأما الذين ساءت ذيئهم فزعموا هذا الرعم مغرضين فـ لنا إلى إقناعهم وسيلة ..

إن تحرير الثورة العرابية من صفتها القومية الدستورية هو من صنع كتاب الاحتلال ، ومن ذهب مذهبهم من المخدوعين ومن البطلين ؛ وماذا كان يصنع الاحتلال غير هذا ليبرر وجوده ؟ لقد شوه القضية وحصرها في فتنة عسكرية حقاء هو جاء ، وبذل غاية جهده واستعمال بجاهه ليصرف الأذهان عن أي معنى من المعانى السامية في ثورة عرابى الذى أتقى به وبالبطال من زملائه في منفى بعيد يدعوى أنهم من المصاة المفسدين في الأرض ، ثم دأب كتاب الاحتلال وصنائعه على تضليل أبناء الجيل الذى أعقب الثورة ، وجاراهم في ذلك من الكتاب المصريين وأسفاه الجهلاء الذين اندعوا بما عمل الاحتلال على إقراره في الأذهان ، والضففاء الذين رأعوا جانب توفيق ثم جانب ابنه من بعده . ذلك الذى ما كان يستطيع أحد أن يجهز بالثناء على عرابى في عهده ؛ وملئت كتب المدارس

بالأغليط والأباطيل ، حتى ما يذكر المذاكرون اسم عربي ونورته إلا قرنوها
بعمان الطيش والسفه والاحتلال ...

ولكن الحق إن أخفى عن الناس ردها من الزمن ، لا يستطيع إخفاؤه عنهم
إلى الأبد ، وإلا ما كان حقاً ، فهو الحق في أنه لا بد منتصر مهما طال عليه
الأمد ومهما استعدى عليه الباطل من أوان الخداع والبهتان .

وإن مصر اليوم لتعطف على عربي ونورته عربي ، وقد آن لها أن تتصف
هذا المصرى الفلاح وأن تحدد له مكانه بين قواد حركتها القومية ...

وليس بعجب أن يعوه كتاب الاحتلال وصنائعهم وأن يلبسوا الحق بالباطل
ويكتمو الحق وهم يعلمون ، نقول ليس ذلك بعجب ونحن نجد وأسفاه رجالاً
من خيرة رجالنا ومن مفاخر أبطالنا يكتب عن عربي صاحبه في الجهاد وزميله
فيما كان يطمح إليه من آمال ، فيذكر عليه زعامته ويقدح فيه قدحاً كم تأملنا
لصدوره عنه بالذات ، وله في نقوسنا ما له من الإجلال والإكبار ؟ ذلك هو
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ...

وإنا إذ نحرك القلم لتنقل هنا ما كتبه ذلك الشيخ الجليل عن عربي
لنحس بكثير من الحجل والأسف ، فما كنا نحب إلا أن يتزه الإمام الكبير بما
وقع فيه غيره ؟ وما نريد بنقل ما كتبه الأستاذ الإمام عن عربي وبين ما أحاط
به من ملابسات أن نسى إلى ذلك الشيخ فتوقيرنا إيه وإجلالنا له فوق كل شك
 وإنما قصدنا أن نبين كيف تبعد أحياناً بالمرء على رغمه عوامل وظروف مما يجب
من إنصاف ؟ وبهمنا بوجه خاص حدوث ذلك من الشيخ محمد عبده بالذات ، فقد
هان بعده كل اتهام يوجه إلى عربي وصفر كل ادعاء من ادعاءات المغرضين ؟ وإذا
كان الشيخ محمد عبده يكتب عن عربي هذا الذي نورده وهو العليم به الخبر
بأحداث عصره ، وهو فوق ذلك الإمام الرعيم ، فكيف بالظالمين الفاسدين من
أنصار الاحتلال وأبواقه ؟

وكأنه بالقارئ يقول في نفسه ولم لا يكون حقاً ما قاله الأستاذ الإمام عن عربي

وللقارئ أن يتتساول هذا التساؤل ، ولكنك لن يلبث حتى يعلم اليقين ...

كتب الأستاذ الإمام محمد عبده مذكرة عن عرابي بطلب من الخديو عباس حلمي ، وهذه دعوى لا تحتاج إلى دليل فقد جاء في مقدمتها قوله «هذا مقام الناكر لعمتك ، المارف يقدر من قدرك ، العاجز عن الإيفاء بحق شكرك ، التالي في سره وجهه لآيات حمدك ، طوقتني إحساناتك أكن أنا ملهم ، إذ أمنته أمراً ما كفت تخيله ، أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت في الحوادث العربية من عهد نشأتها إلى نهايتها » إلى أن يقول « مولاي : أرفع إلى سدتك السنوية ما وقفت عليه بنفسك غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري ، اللهم إلا بعض الأوامر الرسمية أو شئ من المخابرات السياسية التي تضطرني في بيان الواقع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارئ عن الإطلاع عليها ». إذا كان هذا شأن هذه المذكرات فليس مما يتوقعه المرء أن يعتقد محمد عبده عرابياً ويظهره على حقيقته زعيماً وطنياً مجاهداً مطالباً بالدستور الذي أنكره توفيق ، فيسىء بذلك إلى عباس بن توفيق ...

ولقد كانت صلة الإمام بالخديو أول الأمر طيبة فلما دب بينهما ديب الخلاف فيما بعد أمسك الأستاذ عن إتمام تاريخ الثورة العربية ، ولو أن محمدأً عبده كتب هذا التاريخ بغير طلب الخديو أو لو أنه كتبه بعد الخلاف بينه وبينه لما ذكر عن عرابي ما ذكره مما سيأتي بيانه ، ولقد كان محمد عبده فيما كتبه عن توفيق متوفقاً به كل التوفيق يقتبس له الماذير في كل أمر وفي هذا وحده ما يكفي لإبيان ما كان يحيط به من عوامل بعدت به عن الإنفاق .

يضاف إلى ما تقدم أن الأستاذ الإمام ، وإن كان من دعاة الشورى والحكم الدستوري كأستاذ جمال الدين إلا أنه كان يرى أن مصر لم تكن تهيأ يومئذ لهذا الحكم وكان يميل إلى حكم رياض ويخسب أنه يجده فيه المستبد العادل الذي ينهض به الشرق ؛ ولذلك نقم الأستاذ على عرابي ونفرت نفسه من الحركة العسكرية ، نجد الدليل على ذلك في قول الشيخ رشيد رضا تلميذه وكاتب تاريخ

حياته « إن الأستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الإصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجي أن ينهض بالأمة في مدى خمس عشرة سنة كما ين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيبة راها القارىء في الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الأمة لها » .

نورد بعد ذلك ما كتبه الأستاذ عن عرابي ، فنقول إنه استبعد أن يكون عرابي من طلاب الدستور لذاته فكانه ما طال بالدستور إلا محافظة على نفسه بعدهما كان من فعلته التي أدت إلى حدث قصر النيل يقول الأستاذ « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تتمثل له جنابته في صور أغوال فاغرة الأفواه محددة الأنبياء ، وزمه خيالها في يقظته ومتناه ، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء ، يتلفت عينها وشحالا فلا يرى إلا سيفاما مسلولة أو حبلا منصوبة ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة الخلاص الخلاص المهرب المهرب ، ولم يتمثل في خياله مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه » .

وقال في موضع آخر « استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يغنى به إلى ضياء الجيش وأن يشير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الأمانى من العزة والسلطان والصمود إلى أعلام رراق الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال إلا مجلس النواب » وقال في موضع ثالث « أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به في متنه أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى إليه ، وإنما الذي أحاط بفكرة وملئ جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسنة والمنافرة من عثمان باشا » .

هذه آراء أقل ما يقال فيها بعد ما أشرنا إليه من ملابسات كتابتها أنه كتبها « غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سابق به غيره » كما ذكر في مقدمة مذكرةه التي كتبها للخديو عباس ، أعني أنها آراء يوزعها الدليل من المحوادث أو الشواهد ؟ على أننا إذا أخذناها على عالتها فإذا تخرج به منها إلا أن عرابيا رأى

الظلم محيطاً به فاراد أن يعتصم بالعدل في صورة مجلس نيابي؟ ولم لا تكون مصر كلها ممثلاً في شخص عراقي فـكانت تحيط بها الظلم وتحسّن الطغيان ولم يكن لها من عامم إلا حكم الدستور؟ ولقد بینا مبلغاً ما كانت تعانيه مصر منذ حكم إسماعيل؛ وإذا دفع الإنسان الخوف من الظلم إلى مقاومة الظلم فهل يكون ذلك دليلاً على جبنه ورغبته في المهرج أم يكون دليلاً على شجاعته وتحديه المخاوف؟ إن الذي يعنيني من هذا الذي ذكره الأستاذ الإمام هو أن أيين مالحق عراياً من الظلم، حتى من أقرب الناس إليه عسى أن يخدر القاريء مما قد يتجده من غير الآلام من هذا القبيل وعسى أن يطرح من ذهنه ما قد يكون قد علق به، وما أحسب أن في تاريخ الزعماء من تجمعت عليه الظالم كاجمعت على عرايا في حياته وبعد موته كذلك لست أذكّر حركة جردت من معاناتها السامية حتى تركت فارغة شوهاً تذكرها النفوس كهذه الحركة القومية التي تخسّها المبطلون حقها هذا البخس الشنيع كانت الثورة العرائية ثورة قومية جمعت بين الدينين والمسكريين من أبناء أمة واحدة أيقظتها الظلم وإذا كان المسكريون أو زعيمهم عراي قد طالبوا بالدستور خوفاً على أنفسهم كما يذكّر الشيخ محمد عبده، فلماذا طلبه الدينون؟ إن كانوا طلبوه خوفاً على أنفسهم كذلك من مغبة معارضتهم الخديو ووزيره وكان ذلك معناه عند الشيخ الجن فإنه لا قومية ولا وطنية هناك، ويكون شأن الوطنين في هذا ومنهم الشيخ عبده شأن عراي وأعوانه ...

إن الوطنين والمسكريين قد أحاطت بهم المخاوف من كل جانب فطلبوا الدستور وطلبه عراي فيما طلبوا وقد استعان به الوطنين، واستأذنوا أنفهم لماذا يفرق الشيخ محمد عبده بين البعث لعرابي على طلبه وبين باعث الوطنين؟ لقد كان يجوز أن تعلق بكلامه بعض الوجاهة لو لم يثبت أن الوطنين اتصلوا بعرابي وطلبوا عونه أى لو أن عراي وحده قد التجأ إلى الاعتراض بطلب الدستور كفكرة عارنة أملأها عليه الخوف وليس في البلد حركة دستورية؟ أما أن تكون المطالبة بالدستور حركة عامة سابقة لشکوى عراي وزميليه ويكون هو قد شاعرها

بوجданه متفاهمًا مع زعمائها لإيمانه بعدها الشورى ولما كان ينصب على الجميع من مظالم يبنوها في موضعها، ثم يُصوّر لنا طلبه كصوره الإمام فذلك ما لا يستطيع أن نحمل عقلنا على قبوله؛ ولو أن عرائياً كان من طبعه الخوف والهرب لما أثار تلك الحرب على الشراكسة ولما أقدم على رفع الشكوى إلى رياض ولا على تدبير حادث قصر النيل ولا على الذهاب إلى عابدين بعد إخراجه من السجن؟ أجل ما كان ليفعل شيئاً من هذا جبان خائف فهى أفعال ان ينهض بها إلا مقدام؟ قال الشيخ محمد عبدة فيما علق به سنة ١٩٠٣ على ما كتبه عرابي من تاريخه لبلنت حين أطاعه عليه^(١) « كانت الأشهر السبعة بين حادث قصر النيل ومظاهرة ٩ سبتمبر أشهر نشاط سياسى عظيم شمل جميع الطبقات، وأكسبت عرائياً فعلته كثيرةً من ذيوع الصيت ووصلت بينه وبين المدىين من أعضاء الحزب الوطنى مثل سلطان باشا وسلیمان أبااظة وحسن الشريبي وشخصى، وكنا نحن الذين أبرزنا فكرة تجديد الطالبة بالدستور؛ وكانت وجهة نظره يومئذ أن ذلك يهوي له ما يعصمه وبضم زملاءه العسكريين من انتقام الخديو ووزرائه، وقد أخبرنى بذلك صراراً أثناء الصيف، وبناء على ذلك أعددنا ملتمسات للمطالبة بالدستور وشفعنا ذلك بحملة في الصحف، وقد لاقى عرابي سلطاناً في الصيف مرات كثيرة وقد اهتم به سلطان وقد كان عظيم التراه، اهتماماً شديداً وأرسل إليه كثيراً من المدايا كالمطلبات الزراعية والخليل وما إليها، وذلك كي يثير حماسته، ولكن يظفر بمعونته في الحركة الدستورية ولقد دبرت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان ». .

وخلاصة ما يستخرج من هذه الفقرة أن الوطنيين وال العسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور وأن الوطنيين أرادوا أن يستعينوا بقوة العسكريين، وأن الباعث العسكريين كان رغبتهم في إيجاد ما يعصمه من انتقام الخديو؛ وأى عيب في هذا الباعث وهل كان غيره منـذ نشأت الحركات الدستورية باعثاً للألم على المطالبة بالحكم الدستوري؟ إن كل منصف لا يسمع إلا أن يرى فيما وصف به الشيخ محمد

(١) The Secret History of The British Occupation of Egypt. P. 490

عبدة عرائياً من صفات الفرع والخوف والمُهرب تزيداً لا مبرر له ولا ينفع من الحوادث دليل عليه ، بل إن الحوادث جمِيعاً تنقضه فالآمر هيئ بين ينحصر في أن عرائياً وإخوانه رأوا في الحكم الدستوري عاصماً لهم من الجور كرأى ذلك الوطنيون ومنهم الشيخ محمد عبدة ...

التق الوطنيون والمسكريون فكان من التقائهم وأتجاههما وجهة واحدة حركة قومية غايتها الدستور والحرية وقد نجحت تلك الحركة بجاحداً يدعو إلى أكبر الإعجاب وببلغت غايتها دون أقل مقدار يوم عابدين ، ولو لا ما كان من موقف توفيق بعد ذلك ومن كانوا يتربصون بالبلاد من الشعاب وبنات آوى لسارت مصر قدماً في طريق الحرية والمهوض ...

وما يشين هذه الحركة مشاركة العسكريين فيها ، فليست في ذلك بدعاً من الحركات ، فما خلت حركة قومية من عنصر الجندي إما متطوعين أو من الجيش القائم ؟ وهل يعيي حركة استقلال المستعمرات الأمريكية مثلًا أن وشنطون الجندي كان زعيماً ؟ وهل يشين الثائرين من الأحرار على استبداد الملك شارل الأول في إنجلترا استعانتهم بكرمول وجندوه ؟ وهل كان في انضمام الجيش في فرنسا إلى أكثر الحركات الثورية مما يذهب بمحال هذه الثورات ؟ ذلك ما لا يقوله منصف ...

حق لمصر أن تفخر بأنها ثارت ثورة قومية حرة في القرن التاسع عشر عصر القوميات والثورات وتلك هي الثورة العرابية التي مهدت لها عوامل وأسباب تجعلها أشبه ما تكون بأجل الحركات القومية في أوروبا ... وسيخنق الاحتلال هذه الحركة القومية وبطنه شعلتها ولكن جرتها تبقى تحت الرماد إلى أن ينفع فيها سعد من روحه فتشتعل وتتوهج حتى ما يستطيع مستبد ولاطاغية بعد ذلك أن يخمد نارها أو يطفئ نورها ...

دسايُّس ومحاذيف

كانت سياسة توفيق إن كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل ألم
العوامل في تطور الحوادث على النحو الذي سوف نراه ؟ فلقد أجاب الضباط إلى

مطالبهم وفي نيته أن يغدر بهم متى حانت الفرصة ...

وأدرك الضباط لا ريب أنه أجابهم إلى ما طلبوا لأنهم لم يكن لهم ذلك بد ،

ولذلك أحسوا أنه لا بد من تربص بهم فترقصوا به كذلك به ...

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضًا ويعلم على التخلص منه ؛ لذلك
وضع نفسه في موضع عجيب حقاً ، فيلينا هو يسرخ على الضباط ويعتبر حركتهم
إذا به يتخذ منهم كاسبزى أداة للكيد لوزيره بغية إقصائه عن منصبه .
وهكذا تشاء الظروف النكدة أن يكون رجل كتوفيق هو الذي يحرك دفة
الأمور في مثل ذلك الزمن العاصف .

لم يكن أمام توفيق كأسلافنا إلا أن يتخذ سبيلا إلى قلوب الوطنيين فيجعل
من نواب الأمة سندًا له كما فعل أبوه في أواخر أيامه ...

ولتكن توفيقاً لم يلتجأ إلى ذلك الحل ، وما نشأ في أنه كان يفطن إليه ، ولكن
كان يقتضيه أن ينزل عن سلطانه إلى نواب الأمة وهو ما نشأ كل الشك في أنه
كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدق به وبعمر الأخطار ، في
وقت نشطت فيه دسائس الأجانب الذين أحکموا شباباً كفهم لاقتناص الفريسة الغالية
في تلك الأيام الكدرة .

وقع حادث قصر النيل في فبراير سنة ١٨٨١ ، وفي أعقاب الحادث صرت على
مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها في كثرة ما حيكت فيها من
الدسائس على قصر أمرها ...

أمر الخديو فاقيم حفل بعد حادث قصر النيل دعى إليه كبار رجال الجيش ، وخطب الخديو فأعلن عفوه عما حدث وأنه لا يضرم لأحد سوءاً وتحت الجندي على الطاعة والنظام وأكده لهم أن الحكومة تهم بأمرهم كل الاهتمام . وقابل الضباط خطاب الخديو بالابتهاج والشكر وعطفوا به معبرين عن ولائهم له معلنين بين يديه أنه لن يرى منهم إلى الطاعة والولاء .

ونظر البارودي وزير الجهادية الجديدة في مطالب الجيش فأجابهم إلى أكثرها وكانت تدور حول زيادة المرتبات وإصلاح قانون الترقية وقانون الأجازات والمعنوية بما كل الجيش وملبسه ، كما طلب الضباط إعادة أحمد بك عبد الففار قائم السواري إلى الخدمة وتم لهم ما أرادوا فعادوا إلى حيث كان قبل أن يعزله رفقه وأقام البارودي حفلاً للضباط بعد إصلاح حالم شهده الوزراء ، وخطب البارودي كما خطب رياض ، وأنهى رياض على الجندي وحدهم على النظام وسألهم أن يقابلو ما لقوا من إصلاح بالطاعة وأداء الواجب ؛ وخطب عرابي فأثنى على الخديو وأعرب عن ولاء الجيش لسموه ...

بهذا خيل للناس أن المدوه قد حل محل الثورة وأن السلام قد محا كل أثر لما كان من خصام ، ولكن لم تسد تنفسى بضعة أيام حتى امتلاك الجو بالنذر والشائعات .

سمع الضباط أول ما سمعوا أن آعون الخديو يغرون بالمال والمناصب بعض رجال الآلات ليكونوا في الوقت الموعود إلى جانب الخديو ، ونفي إليهم فيما نفي أن رياض يفكك في طرق إجرامية لفتلك بهم ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة في أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرايياً أو من يحضر من زميليه . وحدث في آلاي طره وهو الآلاي السوداني الذي كان يرأسه عبد العال حلى ، أن كتب ثمانية من صف الضباط السودانيين يتصلون من حادث قصر النيل ويعلمون ولاءهم للخديو ويبدون اعتذارهم ويتهمون رؤسائهم ، وأمر عبد العال بإجراء تحقيق ثبت منه أن باشجاويساً مركسيّاً هو الذي حرضهم على

ذلك وأن الذى حرض هذا الباشجاويش هو يوسف كمال باشا ناظر دائرة الخديو الذى دفع لكل من هؤلاء المئانية ، جنیهات مئانية ؛ وغضب عبد العال واشتکى إلى رياض ورفع رياض الأمر إلى الخديو ونصح بعزل يوسف كمال باشا مهدئة للخواطر وقتلا للفتنة في مهدتها وأجا به الخديو إلى ما طلب ، وعاقب عبد العال ذلك الشركى الحرض بالحبس ستة أشهر ... ؛ وكشف عبد العال دسيسة أخرى كان يدبرها سودانى في الاستبداع هو الأمير الای فرج بك الزيني وكان مسكنه على مقربة من مقر آلاى طره وأثبت التحقيق أنه كان على صلة بيوسف كمال باشا ، وقد ضبطه عبد العال بنفسه في حقل قمح يحرض بعض الجندي على كتابة الطاعن في رؤسائهم ؛ وقد أبعد الزيني إلى السودان ؛ ويقول عرابي في مذكرةه « إن دسيسة فرج بك الزيني كانت أيضا من يوسف كمال باشا ، وإن الخديو أراد أن يموضعه عما فاته في مصر من رعايته فلما نف إلى السودان أرسل إلى رؤوف باشا حكمدار السودان وقتله ليتحققه بخدمة الحكومة السودانية ومنحه رتبة لواء فصار يعرف بفرج باشا الزيني »

وأتهم تسعة عشر ضابطا أحد رؤسائهم بأمور نسبوها إليه أثبتت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم فبادر الخديو بأعادتهم ، الأمر الذى حقق له زعماء الجيش ، إذ رأوا فيه أن الخديو إنما يقصد حركة الترد في صفوف سفار الضباط ويستميلهم إليه ضد رؤسائهم .

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الألائى السودانى بقيادة عبد العال بك إلى السودان ، بمحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام ، فأحس الضباط من ذلك أن النية متوجهة إلى تشتيتهم للقضاء عليهم متفقين ...

وترى إليهم أن الخديو يمرن حرسه في الاسكندرية على إطلاق النار ، وأنه بشهد ذلك بنفسه وينثر الذهب على الجندي متظاهراً بكافأة المجيدين في إصابة

المرى ، ولا يفسر مثل هذا العمل في ظروف كهذه إلا بأنه استعداد من جانب الخديو لما كان مقبلاً عليه من قمع وبطش ...

وأرادت الحكومة أن تسخر الجندي في حفر الرياح التوفيق ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى مخازن الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل ؛ ورفض عرابي أن يوافق على ذلك وأيده في رفضه البارودي ...

وحدث في الإسكندرية أن دهت عربة أحد التجار وكان سائقها أجنبياً أحد الجنود فنقل إلى المستشفى حيث قضى نحبه ؛ واستنشاط تسعه من الجنود غصباً ، وأملت عليهم سذاجتهم أن يحملوا زميлем القتيل إلى مراي رأس التين فيقت Hwyروا أبوابها على الرغم من مقاومة الحرس ويتناحرها داخل السرای شاكين من الأجانب راجين أن يتدخل الخديو بنفسه لمعاقبة هذا السائق الأوروبي . وسم الخديو لهذا الصبح فنهر الجندي بنفسه وصر لهم من حدائقه قصره ؛ وبدل هذا الحادث فضلاً عن سذاجة الجندي على مبلغ ما كان يتصوره الناس من عظم نفوذه الأجانب فما يجرؤ أن ينالم بالعقاب أحد إلا الخديو نفسه ، ولمؤلاء الجندي بعض العذر فيما تخيلوا وإن كان ذلك لا يبرر اقتحامهم القصر على هذه الصورة . ولكن العقاب الذي عوقبوا به على فعلتهم كان بالغ الصرامة والقسوة ، فقد عوقب الجندي الذي حرضهم على ذلك بالحبس المؤبد مع الأشغال الشاقة ، وعوقب الثانية الباقيون بالحبس في ليان المخروم ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة كذلك .

ولما ذاع النباء في الجيش استاء الضباط والجنود أعظم الاستياء من فداحة الحكم ، وكتب عبد العال تقريراً للبارودي يتظلم منه ويقارن بين هذا الحكم وبين ما عومل به الضباط التسعة عشر المتمردين وأظهر البارودي ميلاً إلى قول عبد العال ، وهي ذلك إلى الخديو فقضى أشد الغضب على البارودي ، وقد كان يكرهه ويظهر التسخط منه منذ أن أشار بأخذ الجندي بالرق وإجابة ملتمسهم عقب حادث قصر النيل ومنذ أن اختاره الجندي وزيراً للجهادية ، فقد دخل توفيقاً الشك

فيه ، ثم أصبح يعتقد أنه من روؤس الفتنة وأنه هو الذي يثير الجندي لأغراض
يسرى لتحقيقها ...

واستدعي الخديو وزرائه إلى الإسكندرية وصارحهم بأن وجود البارودي في
الوزارة هو سبب ما في الجيش من فوضى ، ولم يسع البارودي إلا الاستقالة وقد
كان الخلاف كذلك شديداً بينه وبين رياض ثم أبلغ البارودي أن عليه أن يرحل
غوراً فيقيم بضيعة من ضياعه كيلا يتصل بأحد من الجندي أو يتصل به أحد .

وعين داود يكن باشا صهر الخديو وزيرًا للجاهادية وهو شركسي لا يقبل
الحظاوة وحقاً عن عمان رفق ؛ وعزل الخديو محافظ القاهرة أحمد باشا الدرهمى
لامامه بالمعطف على الجندي وأحل محله عبد القادر حلمى باشا .

ولقد كان البارودي في الوزارة على صلة برجال الجيش فعلاً ، وكان ينتمي
بكل ما تزيد الحكومة بهم ، وقد اتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة
علامة اقتراب الخطير ...

وما ابى أن اتبع داود يكن منهى الصرامة في معاملة رجال الجيش ، فخطر
عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك مراكمتهم ليلاً أو نهاراً أو التحدث في السياسة
وأنذرهم بأشد العقاب إن هم خالفوا أمره ؛ ومع أن عرائياً وأنصاره قد هنأوه
بنصبه وطلبوه إليه أن يعمل على إيجابية مطالب الجيش التي كان يسمى البارودي في
إيجابيتها ، فإنه اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئاً ... قال عرابي معلقاً على أمر وزير
الجاهادية الجديد « ولما كانت تلك الأوامر مخالفة لقواعد العسكرية وهيئته
للشرف العسكري فقد ردت إليه من طرف أمراء الآلات » .

ولا يقل رد هذه الأوامر إلى الوزير مغزى عن حدث قصر النيل ، إن لم يكن
أشد منه خطراً فمعنى ذلك أن الجندي يمسون ما يلقى إليهم من أمر لا يقرؤنه وفي
ذلك الثورة أبلغ ما تكون الثورة ...

وبث حكمدار القاهرة الجديد عيونه وأرصاده على الضباط ، وكان داود يكن
بطوف بنفسه على مراكمتهم ليوقع الخوف في نفوسهم .

وأحيط بيت عرابي وعبد العال بالجوايس ، وجرت الشائعات بالذر فلا
القاهرة نباً عجيب مؤداته أن الخديو قد استصدر فتوى مديدة من شيخ الإسلام
بقتل عرابي ، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النباء الكاذب
أكبر المساعدة .

وطاب مجھول الإذن على عرابي في منزله فلم يؤذن له ، وشود أنه عاد عقب
ذلك إلى أحد مخافر الشرطة ؟ وذهب عرابي إلى منزل زميله عبد العال فعلم أنه
حدث هناك مثل ما حدث عنده ، فأيقنا أن حياهم يهددها الخطر ؟ ومما يذكره
عرابي في مذكرةه أن أحد الفاسقين الشراكسة في منزل عبد العال ، وهو ابن
زوج حرمته المتوفى قد دس له السم في اللبن بإيمان غلام آخر شركى من غلسان
الخديو ، ولو لا أن تنبهت الخادم لذهب عبد العال ضحية هذا الفدر الأليم ...
وكان للخديو في تلك الظروف مسلك عجيب ، لو لا أنه قام عليه الدليل
ما استطاع المرء أن يصدقه ، وذلك هو محاولة الاتصال بعرابي وزملائه ليستعين
بهم على إخراج البارودى من الوزارة ، وكان رسوله إلى عرابي هو على فهمى ثالث
الثلاثة في حادث قصر النيل ، ولقد أظهر له الخديو موته متذ أن عاد إلى آلاى
حرسه لكي يستعين به إذا لزم الأمر في تحقيق مآربه ...

أرسل الخديو من الإسكندرية قبل استقالة البارودى أو إقالته على الأصح على
فهمى بك رئيس الحرس إلى زميليه في القاهرة ، كما يقول عرابي في مذكرةه ،
ليقول لهم إن الخديو يرغب في عزل البارودى لما رأى من ذبذباته وسوء سيرته ،
وإن الخديو يعطف على مطالبهم « فهم ثلاثة وهو رابعهم » وأن سموه يطلب ألا
يعلم أحد بإيفاد على بك إليهم ...

وترجع صلة الخديو بالضباط إلى ما قبل ذلك ، فإنه كان يريد الاستناد إليهم
ليخرج رياضاً الذى كان يستند إلى الأجانب ؛ وقد ذكر عرابي أمر هذه القصة
سنة ١٩٠٤ بعد عودته من المنفى لبلنت في حوار بينهما إذ سأله بلنت عن مبدأ صلة
الخديو بهم ، فقرر أنها بدأت قبل حادث قصر النيل وقد ظن عرابي يومذاك أن

على فهمي يتتجسس عليه ولم يطمئن إلى إخلاصه إلا حين انضم إليه في الشكوى إلى رياض؛ وقد سأله بنته الشيخ محمد عبده عن ذلك فأيداه قال الشيخ عبده: «إن ما ذكره عرابي عن رسالة الخديو التي ذكر للاضباط فيها أنهم ثلاثة وهو رابعهم صحيح وهو بصورة أدق تصور الحال بينه وبينهم يومئذ»
ولا يخفى ما في مسلك الخديو من خطورة فأقل ما يوصف به أنه جعل الضباط يشعرون أن الجو كله جو دسائس ومخاوف، وأنه لا يمكن بأية حال الاطمئنان إلى موقف الخديو تجاه أحد.

هذه هي الحال في الأشهر السبعة التي أعقبت حادث قصر النيل؛ دسائس ومخاوف تحيط برجال الجيش وتوقع للانتقام في كل وقت ...
أما عن الوطنيين فقد أسلفنا القول أن صفهم بعرابي لم تنتقطع طول الصيف، وكان أكثرهم نشاطاً في الاتصال به سلطان باشا، وكذلك كان يعمل شريف على توثيق أواصر المودة بينه وبينه؛ وأيقن الجميع وطنيون وعسكريون أن لا منجاة لمصر من سوء الحال إلا بإزاحة رياض عدو الدستور عن الحكم وإجبار توفيق على أن يسلم بالحكم الدستوري الذي أظهر استعداده لقبوله عند تواليته ثم ما لبث أن تذكر له ...

ولا سبيل لإزاحة رياض وإجبار توفيق إلا الاستعامة بالجيش أو بعبارة أخرى بزعامة الجيش، وما كان زعماء الجيش إلا نفر من المصريين يحسون ما يحسه أبناء مصر جميعاً من مبادئ العهد يقول عرابي في مذكرةه «ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها على اغتيالنا، أخذنا حذرنا منها ومهمنا على إحباط تلك الدسائس المنكرة، وكان السير مالت فنصل الجلترة بعصر كثير التردد على الخديو ليلاً ونهاراً دون غيره من وكلاء الدول الأوروبيية، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا وخشياناً من مطامع الجلترة التي كانت ترمي إلى التهام وادي النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن الذي تدعيه أوروبا، فعوضنا

مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علماً بما كان جارياً في مصر ولـكيلـا يتورطـ
في تصديق ما قد يصلـ إلـيـهـ من دسـائـسـ أعدـاءـ الـبـلـادـ ؛ـ وـذـيـلـنـاـ المـرـيـضـةـ المـذـكـورـةـ
بـإـمـضـائـاتـ إـخـوـانـىـ عـلـىـ بـكـ فـهـىـ وـعـبـدـ العـالـ بـكـ حـلـمىـ وـأـمـحـدـ بـكـ
عـبـدـ الغـفارـ بـالـنـيـابـةـ عـنـ الجـيشـ ،ـ وـأـمـحـدـ بـكـ أـبـوـ مـصـطـفـىـ وـأـمـحـدـ بـكـ الصـبـاحـىـ وـعـمـانـ
باـشاـ فـوزـىـ وـغـيرـهـ مـنـ وـجـوهـ الـأـمـةـ بـالـنـيـابـةـ عـنـ جـهـىـ الـمـصـرـيـينـ »ـ .

ونقل مؤلف كتاب المسألة المصرية عن كتاب بلنـتـ العـبـارـةـ الآـتـيـةـ (١)ـ «ـ ثـمـ
إنـ الـأـمـةـ بـأـسـرـهـاـ وـبـعـبـارـةـ أـدـقـ إنـ طـبـقـاسـهاـ الـسـتـنـيـرـةـ الـدـسـتـورـيـةـ التـزـعـةـ قدـ تـبـيـنـتـ
جـلـةـ أـنـهـاـ لـيـسـ مـنـ الـضـعـفـ بـحـيـثـ ظـلـتـ نـفـسـهـاـ وـأـنـ هـاـ فـيـ الـجـيشـ قـوـةـ طـبـعـيـةـ
مـتـجـمـعـةـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـاـ ،ـ فـإـذـاـ مـاـ اـسـتـطـاعـتـ أـنـ تـضـمـهـ إـلـىـ جـانـبـهـاـ فـيـ قـضـيـةـ الـإـصـلاحـ
الـدـسـتـورـيـ فـإـنـهـ لـاـ بـدـ قـاضـ عـلـىـ مـاـ حـاـقـ بـالـأـمـةـ مـنـ شـدـةـ وـهـوـانـ طـالـ عـهـدـهـاـ وـمـرـعـانـ
مـاـ أـصـبـحـ عـرـابـيـ وـأـحـابـهـ بـجـراـءـهـ وـحـرـ كـتـبـهـ فـاجـحةـ مـعـقـدـ آـمـالـ الـأـمـةـ وـمـوـضـعـ
إـعـاجـبـهـ وـاسـتـحـالـ فـيـ نـظـرـ الـوـطـنـيـنـ مـاـ كـانـ يـقـصـدـ بـهـ أـنـ يـكـوـنـ مـحـرـدـ اـحـتـجاجـ
عـسـكـرـيـ إـلـىـ فـعـلـةـ مـدـنـيـةـ وـطـنـيـةـ وـأـصـبـحـ عـرـابـيـ رـجـلـ مـصـرـ الـشـارـ إـلـيـهـ بـالـبـنـانـ وـلـقـبـ
بـالـرـجـلـ الـوـحـيدـ وـمـاـ هـوـ إـلـاـ قـلـيلـ مـنـ الزـمـنـ حـتـىـ توـقـتـ الـمـلـاـقـيـ بـيـهـ وـبـيـنـ أـكـثـرـ
الـزـعـمـاءـ السـيـاسـيـنـ فـذـلـكـ الزـمـنـ »ـ .

وقـالـ مـؤـافـ ذـلـكـ الـكـتـابـ أـيـضاـ «ـ كـانـ فـوـسـ كـلـ إـنـسـانـ إـذـ ذـلـكـ أـنـ يـخـبـرـ
بـأـنـ الـجـيشـ إـنـ سـنـحـتـ أـوـ عـنـدـ مـاـ تـسـنـحـ لـهـ فـرـصـةـ لـلـفـلـهـورـ فـيـ مـيـدـانـ الـعـمـلـ مـرـةـ
أـخـرىـ فـإـنـ ذـلـكـ لـنـ يـكـوـنـ مـنـ أـجـلـ مـصـاحـ أـفـرـادـهـ أـوـ وـظـيـفـتـهـ وـلـكـنـ مـنـ أـجـلـ
مـصـاحـ الـأـمـةـ السـيـاسـيـةـ الـعـامـةـ »ـ .

أـعـدـ أـمـحـدـ عـرـابـيـ بـيـانـاـ أـرـسـلـهـ إـلـىـ أـعـيـانـ الـبـلـادـ ،ـ بـيـنـ فـيـهـ أـخـطـاءـ الـحـكـومـةـ
وـاسـتـبـادـهـ وـيـدـعـوـ النـاسـ إـلـىـ مـعـاـونـتـهـ لـاـنـتـشـالـ الـبـلـادـ مـاـ هـىـ فـيـهـ ،ـ وـقـدـ جـاءـ فـيـ
مـذـكـرـاتـهـ وـصـفـ اـسـتـمـادـهـ هـذـاـ الـعـمـلـ قـالـ «ـ ثـمـ أـخـذـتـ فـيـ نـشـرـ أـفـكـارـيـ بـيـنـ عـلـمـاءـ
الـأـمـةـ وـأـعـيـانـهـاـ وـعـمـدـ الـبـلـادـ وـمـشـاعـيـرـ الـمـرـبـانـ طـالـبـاـ مـنـهـمـ مـسـاعـدـيـ فـيـ حـفـظـ الـأـمـنـ

(١)ـ الـعـبـارـةـ مـنـ تـرـجـةـ الـأـسـتـاذـيـنـ الـعـابـدـيـ وـبـدرـانـ .

والراحة العمومية حتى تتفرغ للنظر في مصالح البلاد وتوفر على انتشالها من وحدة الاضمحلال » ... إلى أن قال « وسيل ذلك إسقاط الوزارة الحاضرة التي لا تريد بالبلاد خيراً ، وتشكيل مجلس نواب يمهد إليه في الوصول بنا إلى الحرية المنشودة ، وختمت النشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم ، وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر ، وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت إلينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد معلنة تصانيمها معنا في كل ما نقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج » .

هذا ما أعده عرابي لوبته الثانية في سبيل حرية وطنه ، أو هذا ما يعتزمه من إقدام الرجل الذي وصفه خصومه فيما وصفوه به بالجبن والخوف والرغبة في الخلاص والهرب ... ألا ليت كل شجاعة تكون كهذا الجبن الذي يصفون ، وليت كل شجاع مستطيع أن يهض لما هض له أحمد عرابي ...



يوم عابدين

هذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، أعظم يوم في تاريخ القومية المصرية ذلك التاريخ الذي افتتح في شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين إلى منزل محمد على فألبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان ...

وأخلق بهذا اليوم الشهود أن يكون له في نفوس المصريين مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو في نفوس الفرنسيين ... وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية في مصر أن يملموا أبناء هذا الشعب أن اليوم الذي تتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة ...

أخذ عربي للأمر عده على خير ما يستعد الرجل اليقظ إلى عواقب الأمور ؛ فكتت إلى وزير الحربية بطلب إليه أن يبلغ الخديو بأن آلات الجيش جمعاً مستحضر إلى ساحة عابدين في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها » .

وأرسل عربي إلى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأباهم أن لا خوف على أحد من الأجانب فإنها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلد الداخلية ...

قال بلنت « كان للمظاهرة كل ما يرجح أنها كانت سلمية ؛ فلذلك يقلل عربي من خطأ ما قد يكون من سوء الفهم ، ككتب إلى الخديو ينفيه بما اعتزم هو وزملاؤه من خطة ويقولون إن الدليل على أنهم لا يبغون بها عداء لشخصه أنهم لم يذهبوا إليه في قصره بمحى الأسماعيلية وأنهم قد صدوا مقره الرسمى في عابدين وتوسلوا إليه أن يلقاهم هناك ليستمع إلى مشكلاتهم »

ذعر الخديو وذعر رياض وقد دعاه إليه كادعا ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش وأحد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم في الأمر.

ورأوا أن يحاولوا إقناع عرابي بالإفلاع عن هذه المظاهره ، فأوفد الخديو إليه باوره طه باشا لطفى ، ورفض عرابي أن يعدل عما صمم عليه وأخبره بأنه لا يريد أكثر من «أن يعمل مظاهره عادلة لا بد منها لفخان حرية الأمة وسعادتها» . وفي هذا الذى صنع الخديو ومن معه أبلغ دايميل على ما وصلوا إليه من ضعف وقلة حيلة .

وكان الخديو في قصر الإسماعيلية فأرسل يستدعى السير أوكلند كافن المراقب المالي الأنجلينزى ، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل في هذا الموقف قال كافن يشير إلى ذلك «فتصحت إليه أنت يقاوم^(١)؟ فقد أخبرنى رياض باشا أن في القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أترت على الخديو أن يدعوهما إلى عابدين مع ما يعkin الاعتماد عليه من الحرس الحرى ، وأن يضع نفسه على رأسها . فإذا ما وصل عرابي بقضى عليه بشخصه . فأجابنى أنت لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار فأجابت أنت لن يحرروا على ذلك ؟ ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصيا ، فإنه يتمنى له أن يقتضى على التمردين ، وإلا فإنه ضائع^(٢)» هذا ما وأشار به كافن وما زراه يحمل كما يقول كروم «قطعا من تلك الروح التي تحىي جنسه الأمبراطوري» إلا على المعنى الذى نفهمه نحن ، وذلك أنه يلقى الزيت والخطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر ، وبعدها تقتنص الفريسة ، مصر السكينة ، بدعوى إنقاد البلاد من نار الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجا إلى دليل ، فهذا الذى يدعو إليه كافن لو وقع لن يكون إلا حرباً أهلية شرها مستطير وهو لها خطير ...

توجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير ، ومعه كافن

(١) يذكر بذلك في كتابه أن كافن نصح توفيقاً أن يطلق النار على عرابي يده .

(٢) Modern Egypt, Cromer, P. 144

ورياض وستون فاستدعي على بك فهمي رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول إلى القصر برفقته والتحصن بالنواخذة العليا وقد نصح للجند بقوله «أتم أولادي وحرمي الخصوصى فلا تتبعوا التمثيل ، ولا تقتندو بأعمال الآلات الأخرى ... فأطاع الجندي وأخذوا يتأهبون ...

ومسار الخديو بعد ذلك إلى الكلمة يحاول أن يتنى آلا يهـا بنفسه عما اعزم ، ولكنه لم يجد منه شيئاً مما وجد من حرسه من ولاء ؟ فسار إلى العباسية حيث كان آلاً عـراـبـيـ ، ولكـنه عـلـمـ هـنـاكـ أـنـ عـراـبـيـ سـارـ مـنـذـ سـاعـةـ عـلـىـ رـأـسـ جـنـدـهـ ومـعـهـ المـدـافـعـ بـطـرـيقـ الـحـسـيـنـيـةـ إـلـىـ عـابـدـيـ فـقـفـلـ أـدـرـاجـهـ إـلـيـهاـ ...

وفي عـصـرـ ذـلـكـ الـيـوـمـ الشـهـودـ التـاسـعـ مـنـ سـبـتمـبرـ سـنةـ ١٨٨١ـ تـحـركـ الجـيـشـ يـقـصـدـ عـابـدـيـ ؟ـ نـخـطـتـ الـثـورـةـ الـولـيدـةـ أـجـرـأـ خـطـوـاتـهـ وـأـبـعـدـهـ أـثـرـاـ فيـ تـطـلـورـ حـوـادـثـ ذـلـكـ الـعـهـدـ ...

وتـلاقـ عـراـبـيـ فـيـ مـيـدانـ عـابـدـيـ بـالـآـلـاـتـ الـأـخـرـيـ بـقـيـادـةـ أـمـدـ بكـ عبدـ الفـقارـ وـعبدـ العـالـ بكـ حـلـيـ وإـبرـاهـيمـ بكـ فـوزـيـ وـفـودـهـ أـفـنـدـيـ حـسـنـ وـغـيرـهـ مـنـ أـنـصارـهـ وـكانـ عـدـدـ الـجـنـدـ الـمـحـشـدـينـ مـحـوـ أـربـعـةـ آـلـافـ وـمـعـهـ المـدـفـيـةـ ،ـ وـأـرـسـلـ عـراـبـيـ يـسـتـدـعـيـ عـلـىـ بـكـ فـهـمـيـ مـنـ دـاـخـلـ الـقـصـرـ فـعـاتـبـهـ فـرـدـ بـقـولـهـ «ـإـنـ السـيـاسـةـ خـدـاعـ»ـ ثـمـ ذـهـبـ فـمـادـ بـرـفـقـتـهـ ،ـ وـانـضـمـ إـلـىـ الـجـيـشـ فـأـصـبـحـ الـقـصـرـ خـالـيـاـ مـنـ كـلـ عـنـاصـرـ الـقاـوـمـةـ ؟ـ وـكـانـ فـيـهـ صـنـعـ عـلـىـ بـكـ فـهـمـيـ كـثـيرـ مـنـ الـخـيـرـ لـأـنـ الـجـهـةـ الـوـحـيـدـةـ الـتـيـ كـانـ يـخـشـيـ مـنـهـ خـطـرـ الـحـربـ الـأـهـلـيـةـ ...

وـجـمـعـ وـرـاءـ صـفـوـفـ الـجـيـشـ آـلـافـ مـنـ أـهـلـ الـقـاهـرـةـ الـذـينـ أـخـذـتـهـمـ الـدـهـشـةـ هـذـاـ النـظـرـ لـرـبـ ؟ـ وـأـشـرـأـتـ أـعـنـاقـ الـشـعـبـ الـتـيـ طـالـ أـلـفـ الذـلـلـةـ ،ـ وـتـطـلـعـ مـنـ فـوـقـ أـكـتـافـ الـجـنـدـ ،ـ وـمـنـ خـلـالـ صـفـوـفـ الـفـرـسـانـ لـيـنـظـرـ مـاـ يـكـوـنـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـقـفـ الـرـهـيـبـ ؟ـ وـاسـمـ عـراـبـيـ يـجـرـيـ عـلـىـ الـأـلـسـنـ فـيـ حـيـنـ تـدـورـ الـأـبـصـارـ باـحـثـةـ عـنـ مـوـضـعـهـ وـهـوـ عـلـىـ ظـهـرـ جـوـادـهـ أـمـامـ جـنـدـهـ يـتـأـهـبـ لـقـدـمـ الـخـدـيـوـ يـلـيـسـمـعـهـ كـلـةـ مـصـرـ ،ـ كـلـةـ الـشـعـبـ الـذـيـ أـلـبـسـ جـدـهـ بـالـأـمـسـ الـسـكـرـكـ وـالـقـفـطـانـ شـارـقـ الـحـكـمـ دونـ رـجـوعـ إـلـىـ السـلـطـانـ ؟ـ

وَمَا أَعْظَمْ كَلَةً مِصْرَ يَنْطَقُ بِهَا فَلَاحٌ مِنْ أَعْمَاقِ الْوَادِيِّ نَبَتْ وَنَمَّا عَلَى ثَرَاهُ . . .
وَوَصَلَ الْخَدِيوُ إِلَى عَابِدِينَ بَعْدَ أَنْ فَشَلَتْ سِيَاسَةُ طَوَافِهِ عَلَى الْآلَاءِ ،
تَلَكَ السِّيَاسَةُ الَّتِي تَدَلَّ فِي ذَاهِبَاهَا عَلَى مُنْهَى الْضَّعْفِ ، وَالَّتِي لَا يَشْفَعُ لَهُ فِي اتِّبَاعِهَا
سُوَى أَنْهَا كَانَتْ آخِرَ سَهْمِ فِي جَمِيعِهِ إِنْ كَانَ هَذَا شَفِيعًا . وَالْحَقُّ أَنَّ الْخَدِيوَ قَدْ لَاقَ
فِي ذَلِكَ الطَّاوُفَ مَا تَنْخَلِعُ مِنْهُ أَفْتَدَهُ أَقْوَى مِنْ فَوَادِهِ ، وَحَسِبَكَ أَنَّ فَرْقَةَ الْقَلْمَةِ
تَارَتْ فِي وَجْهِهِ حِينَأَمْسَكَ بِنَفْسِهِ بِتَلَابِيبِ قَائِدِهَا فَوْدَةَ حَسَنَ حَتَّى لَقَدْ وَضَعَ
الْمَسَاكِيرَ الْأَسْنَةَ فِي بَنَادِقِهِمْ بِأَمْرِ مِنْ هَذَا الْقَائِدِ وَبِجَمِيعِهِ رَوْا حَوْلَ الْخَدِيوِ حَتَّى صَاحَ
بِالْقَائِدِ « أَفْسَحْ لَنَا الطَّرِيقَ يَا بَكِيَاشِي » .

ودخل الخديو السرای من الباب الخلفي ، باب باریز . ويقول كافن إنه فقر من العربية وأشار على الخديو أن يسير من فوره إلى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار إلى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين واحد أو اثنان من الضباط الأوربيين ، ويدرك عرابي أنه كان ممه كذلك كوكن ففصل الجلترة بالأسكندرية والجزر ال جولديست مراقب الدائرة السنوية . وتقدم الخديو ثابت الخطى ، فأشار عليه كافن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيما صرها بمثل هذا الأمر ...

وسار عراقي على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو قائلاً «إزل» فوت عراقي من فوق جواده، ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خسین ضابطاً فأدى التحية العسكرية؛ وأشار الخديو إشارة ذات معنى إلى سيفه فأسرع عراقي بأغماده ...

الوقف رهيب بالغ الرهبة ! في هذا الجانب حيث يقف الجندي زى مصر التي ابقطها الحزن والفواجع تمثل في هذا الجندي الفلاح تجرى على لسانه كلها في غير التواء أو تلعم ؛ وفي الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تعصبه هذه البقعة وتذهب له ، مع أنه رأها منذ بدايتها ؛ ورأى أباء على جلالته قدره يوسع لها صدره ويختضن لها جناحه فزداد بذلك رفعة ...

هنا الحرية الوليدة والديمقراطية الجديدة ؟ وهناك التقاليد المتبعة والأوتوقراطية العتيدة ؟ ومن وراء ذلك الشعاب وبنات آوى تتمكن لترى ...
وتربص لتفقد !

والتأريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفا من أروع مواقفها ، ومظهرا من أجل مظاهرها ، ويضيف بذلك إلى صفحات الحرية في سجل الأمم صحفة جديدة لن تبلي الأيام جدمها ، أو تخس أعراض البطلين قيمتها .

هس كافن في أدن الخديو : « هذه هي ساعتك » فأجاب الخديو « نحن بين أربع نيران » فقال كافن « كن شجاعا ، فتهاوس الخديو وأحد الضباط الوطنيين ثم التفت إلى كافن قائلا « ماذا عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران ... لأنهم يقتلوننا » ^(١) .

وبحسن أن نورد محدث بعد ذلك على لسان عربي وهو لا يخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها قال « ثم صاح بمن خلفي من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا إلى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفي ودم الوطنية يغلي في مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبني بقوله « ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » فأجبته بقولي « جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكالها طلبات عادلة فقال « وما هي هذه الطلبات ؟ » فقلت « هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التي أصرتم بوضعها » فقال « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن أبي وأجدادي ، وما أنت إلا عبيد إحساناتنا » فقلت « لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يختلفنا رأياً وعقلاً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إتنا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » ^(٢) .

(١) Modern Egypt-Cromer.

(٢) في رواية عراقى لستر بنت أن الخديو قال أيضا « أنا خديو البلد وأعمل زى ما أأنا عازز » وقد أورد بنت هذه العبارة كما هي معروفة أفرنجية .

تلفت الخديبو بعد ذلك إلى كافن قائلًا « أسممت ما يقول ؟ » فأشار عليه هذا بالعودة إلى القصر إذ لا يحمل أنزيد الأمر بعنه وبين عراني عن هذا الحد ؛ فانصرف الخديبو وبقى الجيش في مكانه لا يتزحزح .

وأقبل كوكسن فنصل الجلالة في الأسكندرية ، وكان ينوب عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيا به ؛ أقبل هذا ومعه ترجان يناقش عرانياً في غلطة مقصودة ، وكان هذا الأنجلزي كرجل الاستعمار جيئاً من بي جلدته ممن يحسنون دس آوفهم في كل شيء ، وما وجده إلى عراني قوله أن لا حق له في أن يطالب المجلس الثاني وإسقاط الوزارة فذلك من شأن الأمة ، أما عن زيادة الجيش فالية البلاد لا تساعد على ذلك ...

ورد عراني بقوله إن الأمة أنابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محمده إلى الجموع المتراصة خلف الجندي قائلًا هذه هي الأمة وما الجيش إلا جزء منها ؛ وبحسن أن نورد عبارته بنصها قال « أعلم يا حضرة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني نائباً عنهم في تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التي نفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والنفع ، وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم في طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لانتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ ». .

قال القنصل : « علمنا من كلامك أنك ترغب في تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشها » :

قال عراني « كيف يكون ذلك ؟ ومن ذا الذي يمارضنا في أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لumarضتنا أشد المقاومة إلى أن نفني عن آخرنا ». .

قال القنصل « وأين هي قوتكم التي ستدافع بها ؟ ». .

قال عراني « عند الاقتضاء يمكن أن نخشد مليوناً من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولي ويلبون إشارتي ». .

وَسَأْلَ كُوكِنْ عَرَابِيًّا بَعْدَ هَذَا سُؤَالًا يَتَجَلِّي فِيهِ خَبْثُهُ وَقَدْ ظَنَ أَنَّهُ أَحْكَمَ الرَّمِيمَةَ قَالَ « وَمَاذَا تَفْعَلُ إِذَا لَمْ تَجْبِ إِلَى مَا تَطَلَّبُ؟ » .

فَانظُرْ إِلَى رَدِّ هَذَا الْجَنْدِيِّ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي تَخْفُ فِي مَثَلِهِ أَحْلَامُ الرِّجَالِ ، وَالَّذِي تَرَدَّهُ الْقُوَّةُ فِيهِ الْقُلُوبُ فَتَسْلِبُ ذُوِّ الْمَعْقُولَ اتْرَانَ عَقْوَلِهِمْ ، انْظُرْ إِلَى عَرَابِيِّ فِي مَوْقِفِ الثُّورَةِ يَقُولُ لَهُ « أَقُولُ كَلَمَةً أُخْرَى » فَقَالَ الْقَنْصُلُ « وَمَا هِيَ؟ » قَالَ عَرَابِيُّ « لَا أَقُولُهَا إِلَّا عِنْدَ الْيَأسِ وَالْقُنُوطِ » .

وَأَخْذَ كُوكِنْ رِوحَ وَيَقْدُو بَيْنَ عَرَابِيِّ وَالْخَدِيدِيِّ حَتَّى جَاءَهُ آخِرُ الْأَمْرِ يَنْبَئُهُ بِقَبْوِلِ الْخَدِيدِيِّ إِسْقَاطَ الْوِزَارَةِ الْفَاعِلَةِ وَأَنَّ سَمْوَهُ سَيَنْتَظِرُ فِي بَقِيَّةِ الْمَطَالِبِ فَلَا بَدِّ فِي بَعْضِهَا مِنْ مَشَائِرَةِ السُّلْطَانِ . وَعَرَضَ الْخَدِيدِيِّ عَلَى الْجَيْشِ اسْمَ حِيدَرِ باشا لِرِيَاسَةِ الْوِزَارَةِ الْقَادِمَةِ وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوهُ ؛ وَجَرَى عَلَى الْأَلْسُونِ اسْمُ شَرِيفٍ بَطْلُ الدُّسْتُورِ وَنَصِيرِهِ ، فَعَادَ كُوكِنْ بَعْدَ حِينٍ يَعْلَمُ إِلَى عَرَابِيِّ قَبْوِلَ الْخَدِيدِيِّ تَعْيِينَ شَرِيفٍ فَقَوْبِلَ ذَلِكَ بِالْمُتَفَافِ بِحَيَاةِ الْخَدِيدِيِّ .

وَالْمُنْسُ عَرَابِيُّ وَنَفَرَ مِنْ زَمَلَائِهِ الْإِذْنَ عَلَى الْخَدِيدِيِّ ، فَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدِيهِ أَخْذَ عَرَابِيُّ يَعْبُرُ لَهُ عَنْ وَلَائِهِ وَوَلَاءِ الْجَيْشِ . وَذَكَرَ لَهُ الْخَدِيدِيُّ أَنَّهُ « وَافَقَ عَلَى تَلْكَ الْطَّلَبَاتِ بِنِيَّةٍ صَافِيَّةٍ » ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ الْجَيْشُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَدْوَهُ كُلُّ فِرْقَةٍ إِلَى مَقْرَبِهِ ...

* * *

هَذَا هُوَ يَوْمُ عَادِينَ الَّذِي عَدَهُ خُصُومُ عَرَابِيِّ مِنْ أَكْبَرِ سَيِّدَاتِهِ وَالَّذِي نَعْدَهُ فِي غَيْرِ مَغَالَةٍ أَكْبَرِ حَسَنَاتِهِ ؛ وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ هُؤُلَاءِ مِمَّا بَلَغَ مِنْ اضْطِفَانِهِمْ عَرَابِيُّ وَرَغْبَتِهِمْ فِي الْإِسَاعَةِ إِلَيْهِ أَنْ يَنْكِرُوا مَا يَنْطَوِيُ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ مَمَانِ؟ أَلَا إِنَّهُمْ لَيَتَغَافِلُونَ لِيَطْعَنُوا الرَّجُلَ فِي أَجْلِ مَوْاقِفِهِ وَأَعْظَمُ خَطْوَاهُ ، وَهُمْ إِنَّمَا يَتَالُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْالُوا مِنْهُ شَيْئًا ...

طَالَبَ عَرَابِيُّ بِالْدُسْتُورِ فَكَانَ فِي طَلْبِهِ هَذَا زَعِيمُ نُورَةِ تَقْوَمَ عَلَى أَجْلِ الْمَبَادِئِ الَّتِي شَاعَتْ فِي أُورُوبَاقِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالَّتِي عَدَهَا الْمُؤْرِخُونَ وَالنَّاسُ مِنْ أَعْظَمِ

خطوات البشرية صوب الرق والكوال؛ فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراـب؟ ولقد كثـرت في أوروبا المواقـف التي يـشهـدـها في مـعـناـها وـمـرـماـها هـذـا المـوقـف فـسـجـلـهـا الشـعـوبـ فـتـبـتـ مـفـاخـرـهـا وـعـدـهـا منـ أـيـامـاـ الشـهـوـدةـ الـتـيـ عـبـدـ كـلـ عـامـ ذـكـرـاهـاـ.

وـتـمـ لـمـرـابـيـ وـأـنـصـارـهـ ماـ أـرـادـواـ ،ـ فـغـيرـ عـنـفـ يـشـوهـ حـرـكـتـهـمـ أـوـ يـنـقـصـ مـنـ جـلـلـهـاـ كـاـ كـيـحدـثـ فـأـشـبـاهـهـاـ مـنـ الحـرـكـاتـ ...

لـقـدـ كـانـ القـصـرـ أـمـاـمـ الجـيـشـ خـلـوـاـ مـنـ أـيـةـ قـوـةـ ،ـ فـرـوـعـيـتـ حـرـمـتـهـ أـحـسـنـ مـرـاعـةـ وـرـوـعـيـ كـذـلـكـ مـقـامـ الـخـدـيـوـ ،ـ فـلـمـ يـخـرـجـ أـمـاـمـهـ هـذـاـ الجـنـدـيـ التـاثـرـ عنـ طـورـهـ ،ـ بـلـ لـقـدـ تـمـالـكـ نـفـسـهـ فـتـرـجـلـ وـأـدـىـ التـحـيـةـ وـأـغـمـدـ سـيفـهـ ؟ـ ثـمـ ذـهـبـ بـعـدـ ذـلـكـ فـأـعـربـ لـهـ عـنـ وـلـائـهـ وـشـكـرـهـ بـاـمـ الـأـمـةـ إـذـ أـجـابـهـ إـلـىـ مـاـ طـلـبـتـ عـلـىـ لـسـانـهـ ...
إـلـاـ إـنـاـ لـنـعـجـبـ بـذـلـكـ وـنـفـخـرـ بـهـ إـذـ نـكـتـهـ ،ـ وـمـاـ نـجـدـ مـنـ الـأـدـلـةـ الـتـيـ نـسـوـقـهـاـ عـلـىـ رـجـولةـ عـرـابـيـ وـشـهـامـتـهـ وـبـعـدـ عـمـاـ يـرـمـيـهـ بـهـ خـصـومـهـ أـتـوـيـ أـوـ أـجـلـ مـنـ هـذـاـ الـذـيـ نـشـيـرـ إـلـيـهـ ...

فـإـذـ أـضـفـتـ إـلـىـ ذـلـكـ مـاـ كـانـ يـدـبـرـ فـخـبـثـ مـنـ الدـسـائـسـ فـذـلـكـ المـوقـفـ الـرـهـيبـ ،ـ وـذـكـرـتـ كـيـفـ أـحـبـطـهـ عـرـابـيـ بـعـزـيجـ مـنـ الصـبـرـ وـالـبـسـالةـ يـدـعـوـ إـلـىـ الإـعـجـابـ حـقـاـ ،ـ اـزـدـدـتـ لـأـرـبـ إـكـبـارـاـ أـوـقـفـهـ فـذـلـكـ الـيـوـمـ ،ـ وـلـقـدـ كـانـ أـيـةـ كـلـةـ نـايـةـ أوـ أـيـةـ إـشـارـةـ يـسـاءـ فـهـمـهـاـ كـفـيـلـةـ بـأـنـ تـسـيـلـ الدـمـاءـ فـتـلـكـ السـاحـةـ ،ـ قـالـ عـرـابـيـ «ـ لـوـ حـاـولـ الـخـدـيـوـ قـتـلـ لـأـطـلـقـتـ النـارـ عـلـيـهـ »ـ^(١).

وـيـنـبـغـيـ أـلـاـ نـنـسـيـ مـاـ أـخـذـهـ عـرـابـيـ مـنـ الـحـيـطةـ قـبـلـ ذـهـابـهـ ،ـ وـذـلـكـ بـاتـصالـهـ بـالـقـنـاصـلـ وـبـالـخـدـيـوـ ،ـ فـقـدـ كـانـ بـذـلـكـ حـكـيـمـاـ مـوـفـقاـ ،ـ لـاـ يـدـعـ مـسـلـكـ مـحـلاـ لـفـمـيـزةـ أـوـ بـهـىـ مـسـبـباـ لـلـامـةـ ...

نـجـيـحـتـ حـرـكـةـ عـرـابـيـ أـتـمـ نـجـاحـ وـأـجـلـهـ وـتـهـيـأـتـ الـبـلـادـ لـأـنـ تـسـقـبـلـ عـهـدـاـ يـسـودـ فـيـهـ الـإـصـلـاحـ وـالـنـظـامـ فـلـقـدـ كـانـ قـبـولـ الـخـوـبـ وـمـطـالـبـ عـرـابـيـ الـتـيـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ يـنـطـوـيـ

(١) تاريخ عرابي الذي كتبه بقلمه لستر بلنت سنة ١٩٠٣.

على معنى عظيم ، ألا هو موافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستبدادي الرجعي ، والعودة إلى حكم الحرية الدستورية الذي سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتذكر له حين اطمأن في مصر إلى كرسيه ...

وراحت مصر تستقبل في تاريخها حقبة من أسمى الحقب فقد نالت أمانيها دون أن راق نقطتها دم ، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب أهم التورات التي قصد بها الحرية في تاريخ الإنسانية ؛ ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب ثورة سنة ١٩٨٨ في الجلالة وإلى جانب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية الكبرى .

ولولا ما كتبه عنها المرضون المبطلون من الأجانب ، وما ضربه الاحتلال على الآذان والقلوب خال بين المصريين وبين تاريخ قوميهم الحقيق لكان تاريخ هذه الثورة شأن غير هذا الشأن في هذا البلد السكين ...

وصف بذلك تلك الأيام السعيدة بقوله^(١) « إن ثلاثة الشهور التي أعقبت هذا الحادث هي من الوجهة السياسية أسعد الأيام التي شهدتها مصر ، ولقد ساعدني الحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعيق رأسى ، فلم أتلق معلومان عنها بطريق الساع ولو كان ذلك لشككت في حقيقتها . إن لم أرق في حياتي ما يشبه هذه الحوادث وأخشى الا أرى مثلها في المستقبل . إن كل الأحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلهم هنية من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لفرق في ذلك كما يظهر بين الخديو والأمة ، وسرت في مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون فكان الناس في شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعارفون وهم جذلوب مستبشرون بهدف الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إن ليلة مخيفة حائلة للظلم » ...

ولم يقتصر أمر هذه الفرحة الوطنية على القاهرة ، وإنما حلتها الصحف إلى

(١) المسألة المصرية لروتين : تعریف الأستاذین العبادی وبدران ...

المستشرقين في الأقاليم تبشر الناس بهم جديداً يشرق على البلاد فجره بحمد ذلك
في قول بلنت « وقد أذاعت الصحف هذه الآنباء في سرعة وقد تحررت من كثير
من قيودها تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحرراً لم تصل إلى مثله من قبل ،
وأستطاع الناس آخر الأمر أن يتلقوا ويتخاذلوا غير خائفين في كل جهة من جهات
الأقاليم لا يخسرون من الجوايس ولا من تدخل الشرطة ؛ وسرت هذه الروح
السعيدة إلى كل الطبقات من المسلمين والمسيحيين واليهود وشملت رجالاً من كل
دين ومن كل جنس ومن هؤلاء عدد غير قليل من الأوروبيين الذين اشتادت
صلتهم بالحياة المصرية ؛ حتى الفنادق أنفسهم لم يسعهم إلا أن يعترفوا أن المهد
الجديد كان خيراً من القديم وأن رياضاً ارتكب أخطاء وأن عرانياً إن لم يكن
مصيباً في كل شيء فهو على الأقل لم يكن خطئاً في كل شيء ». »



رجل أمت

اغتنى اسم عرابي على كل لسان في مصر ، فعلى يديه تم الانقلاب المنشود ، وإليه نسب كل فضل ، وأصبح الناس في القاهرة وفي القرى يتهدّون في إتجاه عظيم عن الفلاح ابن الفلاح الذي أسمّ الخديو كله مصر في إباء وعزّة وأجره على أن يحيي الأمة إلى ما طلبت ...

ومن السهل على المرء أن يتصور وقع هذه الأنباء في الناس في عصر كذلك المصر فقد تناقل الناس كلّات عرابي للخديو وهم لا يكادون يصدقونها ؛ ومن السهل كذلك أن يدرك المرء كيف اغتنى بحق عرابي في مصر رجل أمة ، فقد اجتمع فيه رجالها ؛ وأضحت تتفاخر به لأنّه من صميم فلاحيها ، ولأنّها باتت تتحتمي به وتحسّ إحساساً واضحـاً أن الرجل الذي كانت تتطلع إلى ظهوره كـما تتطلع كلّ أمة في مثل موقـعها ، قد تهـبـ لها في شخصـه آخر الأمر .

ولقد نبه اسم عرابي وحقـت له الـزـعـامـة عـقـب حـادـث قـصـر النـيل ، فـلـما كـان يـوم عـابـدـين ، وـفـقـ النـاس مـن بـطـولـته وـرـكـنـوا إـلـى زـعـامـته ، وـاستـمـدوا حـيـثـمـ من حـيـثـه وـبـأـتـوا يـرـبطـون مـصـيرـه بـاـيـقـولـ أوـيـقـولـ .

عارض شريف أول الأسراف قبول الوزارة ، وكانت حججـته في ذلك أنه بـقبـولـه الحـكـم من غير قـيد ولا شـرـط إنـما يـضـع نفسه تحت سـلـطةـ الحـزـبـ الـمـسـكـرىـ ، الأـمـرـ الذي لا يـطـيقـ أن يـحـمـلـ نـفـسـهـ عـلـىـ قـبـولـهـ ، ولـذـلـكـ دـارـتـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ عـرابـيـ وـذـمـلـاهـ مـفـاـوضـاتـ استـمـرتـ بـضـعـةـ أيامـ تـحرـجـتـ الـأـمـرـوـرـ فـيـهاـ حـتـىـ أـوـشـكـ شـرـيفـ أـنـ يـتـنـحـىـ عـنـ قـبـولـ الـوـزـارـةـ ..

ولـكـنـ بـوـارـقـ الـأـمـلـ مـاـلـبـثـ أـنـ لـاحـتـ ، وـكـانـ جـيـلاـ أـنـ تـلوـحـ مـنـ جـانـبـ



وله

امرا

لامه

جحي

بان

أ
ع
و
و
ا
م
ص
ص
ع
ب
ال
هذا
وبع
ما

ذلك الرجل الذى لا يزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالغوضى وردون أسباب مالحق مصر من ويلات إليه ، فيقيرون الدليل بذلك على أنفسهم أنهم إما ذوقوا أغراضاً ، أو ألو جهل بحقائق الأمور معيب ...
كان جيداً أن يبرق الأمل من جانب عرابي فيخفض جناحه لشريف ويدعنه لما اشترط من شروط في سدق إخلاص وعن طيب خاطر ...
دعا عرابي رجال الحزب الوطنى وأعضاء مجلس شورى التواب المطل ، وعرض عليهم الأمر ، وكان على رأسهم سلطان باشا ؛ وذهب وفد من هؤلاء إلى شريف يرجون منه قبول الحكم ، فمرفوا أنه يشترط ألا يتدخل الجندي فى شيء ؛ وأن يرحل عرابي وبعد المال بفرقتهم إلى مكانين مختلفتين لهما ، وأن يترك حراً في اختيارات وزرائه لأن عرابياً كان يطلب إليه إعادة البارودى وإدخال مصطفى فهمى باشا في الوزارة ، وكان شريف يرفض ذلك لأنهما لم يثبتا على عهدهما فدخلوا وزارة رياض عقب إقالة وزارته ...

وتمهد سلطان ووفده أنهم يضمون شريف خصوص عرابي والحزب العسكري وكان بين الوفد نفر من ذوى المنزلة في البلاد كأبااظة والشريبي والمنشاوى والمويلحى والشمسي والوكيل ، وهم أهل نفوذ وجاه يعرف شريف قيمة انضمامهم إليه ...
سمع عرابي ما عرضه سلطان ومن معه فذهب بنفسه إلى شريف يست卉نه على صرعة تأليف الوزارة ويظهر له ما يخشاه من الإبطاء ، فال عرابي « وفي يوم ١٤ صنتمبر سنة ١٨٨١ أقابلته مرة أخرى وقلت إنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له : إن لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا نظن أن ليس بالبلاد سواك ففيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لمد وجود غيرك لهذا المركز ... فاغرورقت عيناه بالسموع ولم يجر جواباً ، ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوى عاشور وكيل زراعته وقال إن البشا قبل ما عرضته عليه » .

وألف شريف وزارته الثانية ، وكانت هذه أولى ثمار الثورة ، وقد قبل الوزيرين

الذين أشار بهما عرابي ، كما قبل رجاء الحزب العسكري وهو النظر في القوانين الخاصة بالجيش وذلك في مقابل أن يخضعوا لحكمه ويتبعوا عن كل تدخل في شؤونه .

ودعا وزير الحرية عرابياً ، فأفهمه رغبة الحكومة في أن يسافر برفقته إلى رأس الوادي ، وأن يسافر عبد العال إلى دمياط ، فقبل عرابي ذلك ، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بالانتخاب لمجلس شورى التواب قبل السفر ؛ ولاريب أن هذا الشرط من جانب عرابي خروج منه على ما أخذته على نفسه من عدم التدخل في شؤون الحكومة ؛ وهو أمر لا يسعنا إلا أن نحسبه عليه ، بل نلومه عليه فيما كان ما ينطوي عليه طلبه من خير للبلاد ؛ ومهمما كان في هذا الطلب من معانٍ حرصه على الدستور والحياة النيابية ، وبخاصة لأن على رأس الحكومة رجالاً مثل شريف ...

أما عن امتثاله لأمر الحكومة بقبول السفر ، فهو في ذاته على الرغم مما أحبط به من اشتراط يعد من حامد عرابي ، إذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة في التفاهيم شتان بينها وبين ما يمزوه إليه خصومه وجاهلو أمره من جحادة وترق وعنف في كل ما يطوف بهم من سيرته ؛ كأنه يقدم بطاعته دليلاً على نبيل غرضه وحسن طويته فيما سمي إليه ...

* * *

وخرج عرابي في اليوم الثامن من شهر أكتوبر يقصد السفر برفقته إلى رأس الوادي ، وذلك بعد صدور أربعة أيام على موافقة الخديو على دعوة مجلس شورى التواب وكان قد سبقه عبد العال في السفر إلى دمياط ...

سار عرابي بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين رضوان الله عليه « فوق الآلـى مقابلـاً للمـسـجـدـ تـمـلـيـماً وـإـجـلـالـاً لـسـبـطـ الرـسـولـ عـلـيـهـ الصـلـةـ وـالـسـلامـ » ؛ ودخل عرابي القام الحسيني مع الضباط ، « وأمـرـ يـرـقـ الآـلـىـ عـلـىـ الفـرـسـيـ الشـرـيفـ » وسار بعد ذلك إلى المحطة فـاـكـادـ يـتوـسـطـ المـدـيـنـةـ حـتـىـ أـلـفـ الشـوارـعـ مـكـتـفـةـ

بالناس ، ولهم ليهتفون باسمه في حماسة وحيونه تحية الزعيم المقدّس ، ويلقون في طرقه الزهر والرياحين .

وفي المخطة وجد عربي جميع ضباط الجيش المصري وجمهوراً عظيماً من الأعيان وذوى المكانة وعددًا هائلًا من عامة الناس فاحتفلوا بعده ، وكانت توزع الحلوي وتنشر الزهور في فناء المخطة ؛ وكان يتتسابق الخطباء والشعراء في تمجيد ذلك الذي جرى اسمه على كل لسان في مصر ؛ ووقف عربي في هذا الجمجم خطيباً فقال : « سادتي وإخوانى : بكم ولكم قتنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد ولا ننتهى عن عزمنا حتى تحيى البلاد وأهلها ، وما قصدنا بشعبنا إفساداً ولا تدميراً ولكن لما رأينا أننا بتنا في إذلال واستعباد ولا يتمتع في بلادنا إلا الفرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحبة العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة ، وقد ساعدتنا العناية الإلهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائز بنا في غير طريق الوطنية ، وتنعمنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة في شؤونها وتعرف حقوقها كباقي الأمم المتقدمة في العالم ، ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوروبية ما تختص على الحرية إلا بالتهور وإراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها في ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلباً ، أو نضيع حقاً أو نخندش شرفاً ، وما وصلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا بالاتحاد والتضامن على حفظ شرف البلاد » .

وهتف عربي بحياة الخديو واهب الحرية وحياة الجيش ، وحياة الحرية ، ثم امتدح الوزارة ورئيسها ووصف البارودي بقوله : « رئيسنا الوطني الحر القائم بخدمة الوطن وأهله » . وحذر إخوانه في الجماعة من الوشاية والحساد ، وحثّهم على الاتحاد قائلاً : « البلاد تحتاج إلىينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه » .

ولنا إلى هذه الفقرة من خطبه عودة كما أن لنا عودة إلى فقرة غيرها نكتفى الآن بالإشارة إليها وهي قوله « وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتدى بنا من

يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم المهدوء والسكنينة ويجنب حدوث ما يكدر الراحة » .

واختتم خطابه بعبارات ذات مغزى مثل قوله « إن الطمأنينة عادت كما كانت وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة مولانا الخديو وحضورنا له ولوزاره الفخام ، فلا تأخذكم الأراجيف وإشاعات أعداء الوطن ونثروا بسمى أميرنا ورجاله » ومثل قوله « إن قيامنا كان لطلب الحقوق لا للمقوق » وقوله « وبيننا من الأعداء من يسمى في تفرق كلتنا وإضرام نار الفتنة بيننا » .

واستقبل عربي بمحفأة كبيرة في الخطط التي وقف بها القطار وكان يخطب الناس مرافقه في الرحلة السيد عبد الله نديم كما حدث في الزقازيق حيث كان على رأس مستقبليه فيها أمين بك الشمسي ووقف عربي يخطب الناس هناك فكان مما قاله : « أنا أخوك في الوطنية واسمي أحمد عربي ، ولدت في بلدة هريبة رزنة من بلاد الشرقية هذه فمن عرفني منكم فقد عرفني ومن لم يعرفني عرفته بنفسه ، وهذا أبداً واقف بين الأهل والخلدان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ؛ وبمعناية الله سبحانه منهانا مولانا الخديو هذه الأممية فتحن لم تخرب من العاصمة عصياناً ولا تظاهر بمدوان ، وإنما سرت بالجيش ووقفت بين يدي الخديو وقفه الطالب الراجي كرم مولاه ، فلا تمولوا على الأراجيف وإشاعات أهل الفساد ؛ واعلموا أن البلاد تحتاج إلى الخدمة بالقوة والفكر والعمل ؛ فأماماً القوة فتحن رجالها ، ولا ننسى عن عزمنا وف الجسم نفس ، وأمام الفكر فهو منوط بأميرنا العظيم وزواجه الكرام ؛ وأمام العمل فهو منوط بكم فإن القوة والفكر يمطلان بفقد رُؤْة تربتنا الطيبة المباركة ، وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الأمور منوطة بأهلها ، والحقوق محفوظة لذويها » .

وقال عربي في خطبة أخرى بالزقازيق ألقاها في ولية أعيدها له أمين بك الشمسي رئيس تجاري الزقازيق « سادتي وإخوانى الأعزاء : أحلى أسماعكم باسم مولانا وأميرنا الخديو الساعى في عمار الوطن وقطع عروق الاستبداد منه ؛

وأذ كركم بعده حجبت عنا فيها أنوار الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم
ولا يرحمنا أحد ، وأصبحت أموالنا وأرزاقنا معرضة للنهب والسلب تتخطفها
أيدي المستبددين قد تعمقت القسوة من قلوبهم ، وألفوا الظلم وكرهوا العدل والأنصاف
حتى كانت عاقبة أمرهم أن أصبح الناس قيد الفقر وذل الفاقة ، والقطار معرضاً
للأخطر مهياً لامتداد أيدي الطامعين إليه فمز على إخوانكم وأولادكم الجمادية
حالة البلاد ، وتحركت فيما الحمية العربية والغيرة الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد
ووقاية أميرنا من كل سوء ، وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام
مولانا الخديو حفظه الله ، وقد اشتدت شوكة جيش البني وقويت معارضته ...
وأنهذناكم من يد من لم يعرف لكم حرمة ولا يعترف بحق ، ولا يرى أنكم مثله
من نوع الإنسان ، وشكراً مولانا الخديو على حسن عنايته بنا وبالآمة
وعلى ما تفضل به من مجلس الشورى ، وأنتم الآن مهيئون للانتخاب فلا تغسلو
الأهواء والأغراض لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الأذكياء والنباه
الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والأنصاف
في بلادنا » .

وفي الزقازيق دعى عرابي لوضع أساس المدرسة الأميرية فذهب ووضع الحجر
الأساسي باسم الخديو قال « وتلألأ على الحاضرين خطبة ذكرت لهم فيها فوائد
التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل وال بصير على الأعمى ، وحرضتهم على
الاهتمام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم في المستقبل » .
وأولت لمráبí عدة ولائم في دور بعض وجوه مديرية الشرقية ، سافر بعدها
إلى رأس الوادي وليس يخفى ما ينطوى عليه من معانٍ تكريّم هذا الفلاح الذي
نشأ في بيت متواضع ، على أيدي هؤلاء السادة والكتاب ، ففي ذلك أول مظاهر
الديموقراطية الوليدة في هذا الوادي الذي خضع قبل ذلك زماناً طويلاً لظاهر السيادة
والاستوقة اطية .

توفيق والثورة

لندع عرائياً في رأس الوادي ولننتظر ماذا كان من أمر شريف ووزارة شريف . وهنا نبادر إلى القول بأن هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث كانت أئم الراحل جميعاً منذ الحلة الفرنسية ، وأدفها وأبعدها أنذاً فيها هي مقبلة عليه بعد من مراحل ...

ظن الناس أن قد أجلت الفاشية على نحو ما صور بلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون ، أو لم يكن يعلم إلا الأقلون منهم أن وراء هذا الصفو كدرا ، وأن سماه السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة تصفو هنيهة لتتبدل بعدها بالسحب المركبة ، وللتلاق في جوانها أبابيل سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها بعد الصفو أقبح ما تكرر منظراً ، وأشدما تكون إيلاما للنفوس وإزعاجاً للخواطر ... وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشياط منصوبة ، وقد أخذ الصادرون يدفعون الفرسنة إليها دفماً بعد أن أعيادهم الأمر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة ، أو أن يعصبو عينيهما كما كانوا من قبل يفعلون

كيف كان يرجى الصفاء ، وقد كان الخديوي يضمر عكس ما يظهر كان لم يكفيه ما أصاب البلاد من جراء سياساته وتنكريه للحركة الوطنية وإنجاده بما فعل الثغرة التي كانت تنفذ منها التعذيب وبنات آوى إلى صميم حركتها وقلب نهضتها ... وما أشبهه توفيقاً في ذلك الموقف بل في أكثر موافقه كما أسلفنا بذلك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك الذي كان يدفع الثورة في بلاده دفماً ، والذي يعزى إلى سياساته المتخوية المذبدبة أن تنسكب تلك الثورة منهاجاً السلمي العاقل وأندفعت في سبيل جرت فيها الدماء ونجمت على جانبها الأشلاء ظهر ذلك الملك للنواب أول الأمر في جلد الأسد ، ثم ما لبث أن استخرizi بعد

وثبة ميرابو ، ولكن الشائعات طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجتمع حوله الجناد ، هنا لبنت أن جرت الدماء في باريس ودك الناس الباستيل رمز العبودية والجبروت ؟ ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والزراية عليه والهزء به أنه يركب في جماعة من النواب كان في مقدمتهم ميرابو فيزور باريس ويطوف بأنحائه ، وغير بخراص الباستيل مظهراً عطفه على الثورة والثوار ، ولكنه يعود بعد ذلك فيأتي من معانى التحدى والنزرق ما يجعل الشعب يذهب فيقتصر عليه غرف قصره في فرساي ويعود به إلى باريس ليكون رهينة فيها ، ويم الدستور فيرفع إليه فيوافق عليه ولكن ربما بعد المدة للأهرب ، ثم يضيّع السكين وقد أوشك أن يختاز الحدود فيقضى عليه هذا العمل ، وتعفى الثورة في طريقها مجونة لا توى على شيء حتى تأكل آخر الأمر نفسها

ولقد كان توفيق يسلك تجاه الثورة المراجية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من ورائه الأنجلترا فلما جاء إليهم توفيق كا هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وإنما قضى على مصر ...
خلص توفيق من رياض وقد كان يسعى إلى التخلص منه . فكيف كان يريد أن يسلك مع شريف مسلكه مع رياض وقد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الديمقراطية والاستبداد ؟

عادت الفاروق من جديد تبين لأخديو بأجل وضوح أن الطريق الأوحد هو الانضمام إلى الحركة الوطنية ومشاعتها في صدق وإخلاص ، ففي ذلك منتجاته من نظر هذه الحركة وجوهها ، وفي ذلك منجاة البلاد من تدخل الأجانب باسم المحافظة على عرش الخديو ، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلال ... ولكن الخديو تكب هذا الطريق فدفع تيار الثورة بمسارك هذا ليمعج عجاجه ؟ وليس في نفسه الآن إلا أن يتخلص من هذه الحركة الوطنية التي وضعت السلطة موضعها الطبيعي في يد الأمة ...

ومن أعجب الأمور بل من أقبح الظلم أنه لما انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه

فيها يعد من عنف وجوح حمل زعماً لها كل أوزارها وخرج عرابي السكين بالتصيب الأولى من هذه الأوزار؛ وهي لو عرضت على حقيقتها ورددت فيها الأمور إلى أصولها لرد ما يمزى إلى عرابي أو أكثره إلى الخديو دون أن يكون في ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذلك

لقد ألقى الخديو بنفسه في أحضان الإنجليز منذ استعمال بكلفن يوم عابدين ومنذ أن جعل كوكسن رسوله إلى عرابي وهو على رأس جنده أمام القصر ، فلقد ظهر هنا عظيم من يعطف على توفيق ومن يستنكرون على عرابي ما فعل ؟ وقر في نفس توفيق أنهم ولهم وأن بني مصر أعداؤه

منذ ذلك الحين صار الأنجلترا في ظاهر الأمر أسناد الخديو وفي حقيقته ثواب تحتمال على اصطدام الفريسة وسيظلل هذا شأن توفيق حتى يدخل عاصمة مصر بعد هزيمة الجيش المصري ، في حراسة الأنجلترا وحاليهم ، فيصطف عساكرهم من المخططة إلى قصره وتحيط بعربيته كتيبة منهم وتستقبله على أبواب القصر كتيبة بالشيد الملكي البريطاني ... بل إننا نستطيع أن نقول إن تكون توفيق إلى الأنجلترا يرجع إلى يوم خلع أبيه ، فقد رأى أباه يخلع بنفوذ هؤلاء الأنجلترا لدى السلطان ، فأثر أن يركن إلى الأقواء عليهم يرثون عنه ! ونكدر القول إن من جاهاته ومن مواجهة مصر كانت في ركونه إلى الحركة الوطنية ، ولكن كيف كان يركن إلى من ينتزعون منه السلطة ليرودوها إلى الأمة صاحبها الحقيقة ولا يركن إلى من يتظاهرون لدعيتهم يظاهرون لزيادة سلطانه ويقضوا على مناوئيه ؟

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الأجانب أو عمل على إرضائهم بقبوله المراقبة الثانية ، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية ؛ ولكنه مالبث أن رأى هؤلاء الأجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو إليهم إلا اتبعوها ، حتى لقد ترك شريف بعد أيام قصير يعمل وحده ؛ وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه في عزلة ...

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال بالأجانب وبخاصة الإنجلترا

لهان أمرها ؛ ولكن توفيقاً سوق يخلق أول الأمر بعزمته ريبة ومخاوف في قلوب المصريين ، ثم تقلب الحال إلى كراهة وتؤدي الكراهة إلى المقاومة من جديد ؛ ولقد كان أمم توفيق في الواقع هيئتان : الوطنيون بزعامة شريف ، والمسكريون بزعامة عرابي ؛ وكان يستطيع بشيء من حسن السياسة ألا يدع مجالاً لتدخل العسكريين من جديد ، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالأمس القريب ...

افتتح مجلس شورى النواب في اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد جاء في خطاب توفيق في حفلة الافتتاح ما يأتي : — «أبدى حضرات النواب مسروريتي من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى في الأمور العائنة عليهم بالنفع ، وفي علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزرت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للان بسبب المشكلات التي كانت محبيطة بالحكومة ، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تحقيق أحوال الأهالى على قدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متшوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاحبه في هذا اليوم باجتماعكم » .

هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته ؟ تلك هي المسألة ... ورى أن خير ما نجح به هو أن ننظر في الحوادث التي تلت ذلك ومنها يستتبين إلى أي حد كان الخديو ينوي أن يعمل كما يقول .

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار ، أو دأبت التعامل وبنات آوى على تحريف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية ، وناحية تركيا ، موحدين إليه في الأولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو ، وفي الثانية أن تركيا لا ترتاح إلى توفيق وأنها تبيت له ما لا يحب ؛ وغرض هؤلاء الذين يعملون في الفلام واضح ، وهو أن يرکن الخديو إليهم ليخلص من هذا كله .

اما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضى حقاً أن يتنازل الخديو عن جانب

كبير من السلطان المطلق إلى نواب الأمة ، وتلك هي المشكلة ، وما كانت مشكلة مصر وحدها ، بل لقد كان لها مثيلات في جميع ما شهد العالم من حركات دستورية ، فما نجم الخلاف بين الملكية والشعب في فرنسا إبان ثورتها الكبرى إلا من هذه الناحية ، وما استمرت الفلاقل قرونا بين الملكية والشعب في إنجلترا إلا بسبب ذلك ؛ وما استقرت الأمور في الدولتين إلا حينما أثبت الشعبان قوتهما .
وإذا فكان لا بد أن يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو في مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف أتيحت الفرصة للتعالب ...

وأما عن تركيا فقد كان توفيق يسترب ويختلف من سياستها . ففكر السلطان أولاً أن يرسل جيش احتلال إلى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الأولى قبل عهد محمد علي ؛ ولكن انجلترا وفرنسا ما زالتا به حتى استطاعتا بالسياسة حينا وبالتهديد بعد ذلك حينا حتى أفلع عن هذه الفكرة ؛ ولقد أفادتا من ذلك فائدتين :بقاء الوضع في مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لهما بالتدخل في شؤونها ، والتأثير على الخديو وأنهما هما الملاذ والسد ...

ولقد كان الأمير عبد الحليم بن محمد علي في الآستانة يدرس الدسائس ويسمى معينا متصلًا لخلع توفيق وتولي حكم مصر بدلًا منه ، وكانت سيرة ذلك النشاط ترجع توفيقاً وتقلق مضجعه ...

وأخيراً أوفد السلطان وفداً إلى مصر برئاسة على نظاري باشا وقد فعل السلطان ذلك دون علم الدول الأوروبية ولم تعلم بذلك الحكومة المصرية إلا عند قيام الوafd .

وكان عرابي قد كتب إلى السلطان قبل يوم عابدين ، ولعمل السلطان أو جس خيفة من الحركة القائمة في مصر وظن أنها حركة تنتهي فيما تتطوى عليه على فكرة انفصالية ترمي إلى خلع سيادة الأتراك ...
وكان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحرية في بلاده ويطرد بالداعين إليها ؛ ومكث

الوفد أيام بمحصر ثم رحل فقرر عند السلطان نيابة عن الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخفى ؛ وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال المسكونية والعماء جميعاً يؤكدون ولاهم للسلطان ، وأنه لذلك يثق عليهم ولا يخالجه شك في حركتهم . وقامت إنجلترا وفرنسا بمعظاهرة بحرية في مياه الأسكندرية إذ أحضرت كل منهما بارجة إلى الميناء ، فلما سألهما الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجاباً إن سفينتهما تقادر أن تقادر الأسكندرية في اليوم الذي يسافر فيه الوفد العثماني عائداً إلى الآستانة ؟ وقد تم ذلك فعلاً حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك أن الدولتين لن تسمحا للسلطان حتى يجرد النظر في أحوال مصر ، ومعنى ذلك أيضاً أن يلقيا في روع الخديو أن يلجم إيماناً إذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه ...

ورب قائل يقول إن في مسلك تركياً ودسائس عبد الحليم ما يدع للخديو المذر في الاعتماد على الدولتين ؟ ولكن هذا زعم باطل ، فرجال مصر جميعاً وإن لم يكونوا في تلك الأيام يفكرون في الخروج على السلطان ، إلا أنهم كانوا لا يسمحون له أن يتعدى الفرمانات المقررة ؟ وهب أن للخديو العذر في أن يخاف جانب السلطان فهل كانت الدولتان تحميانيه إلا لغرض ؟ وهل كان هذا الغرض إلا رغبة كل منهما أن تحمل محل السلطان ؟

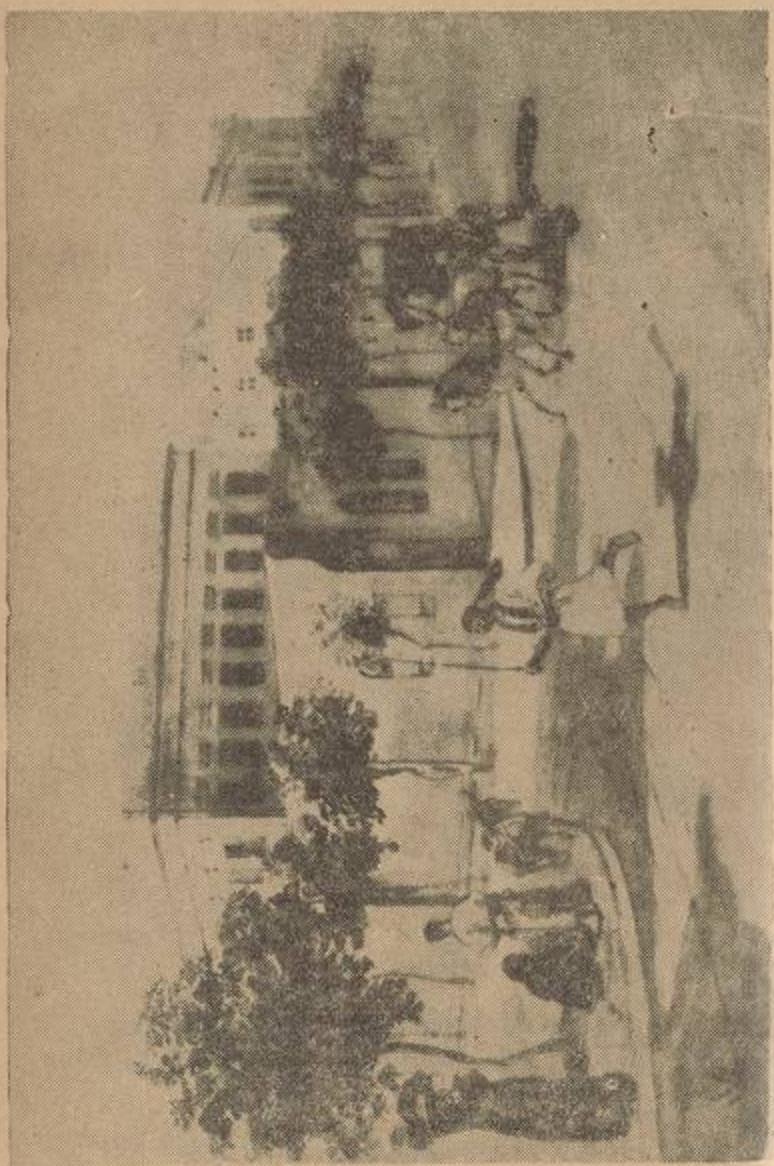
إن الحوادث جميعاً كانت تشير للخديو إلى الطريق الوحيد الذي كان عليه أن يسلكه ، ولكنه اختار الامحياز إلى إنجلترا منذ حدث عابدين كما أسلفنا القول مع ظاهره بأنه يمطّف على أمان البلاد ، وفي ذلك الخطأ كل الخطأ وفيه مسؤولية الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك إلى تلك السبيل التي أفضت بالبلاد إلى كارثة الاحتلال ؟ ومع هذا فإن بعض المصريين كانوا إلى عهد قريب ولمل منهم من لا يزال حتى اليوم ينن الاحتلال باسم عربي كلما ذكر هذا الاسم ، فإذا قلت لهم إن عرايضاً هو الذي جرس فين الاحتلال باسم عربي كلما ذكر هذا الاسم ، فإذا قلت لهم إن عرايضاً هو الذي جرس فين الاحتلال باسم عربي كلما ذكر هذا الاسم ، وبذل من الجهد وحمل من الأعباء ما لا يبذل أو يحمل مثله إلا أولو العزم من الرجال ، وأنه لو لاما أحاط به من خيانة لم يحط مثلها بقائد قبله لكان النصر حليفه لا محالة ، حلووا كلامك هذا على البالغة وصعب عليهم أن يصدقوه وقد أضلهم كتاب الاحتلال وصنائع الاحتلال ...

بین عراني و بلند

نود إلى عراقي فنقول إن الحكومة استدعته من مقره في رأس الوادي وأسندت إليه منصب وكيل وزارة الحربية وصدر الأمر العالى بذلك في اليوم الرابع من شهر يناير سنة ١٨٨٢ وهو يعزو ذلك إلى ما بلغ الحكومة على ألسنة جواسيسها أنه يحول في بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجوه وبأشياخ العرب محضًا داعيًّا إلى مبادئه وأغراضه ...

ويذكر عربي أنه فوج في أن ينعم عليه يومئذ برتبة اللواء فيصبح أحد
عربنا باشا ولكن رفضها مخافة أن يتم عمل شخصه ، واثن صبح هذا
وهو ملا نستبعده ، لكان لنا فيه حسنة نضيفها إلى كبريات حسنات هذا الرجل ،
فإن التهافت على الرتب والألقاب لم يزل حتى اليوم في بلادنا المسكينة داء عيال
يتفغل في نفوس سادتنا و كبارنا ..

ونقول لشن صح ذلك لأن الخبر من جانب عربي فهو في مرتبه الدعوى ..
ونقول إذا لا تستبعد مستندين في ذلك إلى شاهد قوي فهذا الرجل كان بطل
الانقلاب ، وعلى يده وصلت مصر إلى ما وصلت إليه ، ولكن لم يصب مفيناً ما ،
ولو كانت في نفسه أطماع وقتنى لرأينا يصل إلى مرتبة الوزير ، فقد كان في
موقف تحكم فيه في الخدو وفرض عليه الشخص الذي يؤلف الوزارة وهو موقف
يؤدي إلى الأنس الفرور ، فلو خالج نفس عربي يومئذ طمع في جاه أو منصب
لما وقف دونه إلى ما يقتفي حائل ...



يد
بو
أع
حي
بات
من

ويستكتبهن البيانات عن آماله ، فازدادت شخصيته بذلك خطرًا وذاع في الأولياء صيته ؛ وكانت زعامة تزداد رسوخاً في قلوب مواطنه حتى لقبوا بيته باسم «بيت الأمة»^(١) وبات يقصده كل متظلم يطلب معاونته حتى في أدنى الأمور ... وكان من انصلوا بعرابي يومئذ مستر بلنت فتعارفا ، وجرى بينهما حديث أثبته كل منهما في مذكرةه وفيه أشار عرابي إلى ارتياحه لخلص مصر من مساوىء حكم استغلال ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة إنجلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر في كياسة عن أمله في أن تمكف إنجلترا على حركة الحرية في مصر وهي الدولة التي تملن داعماً أنها نصيرة الحرية والديمقراطية وذكر عرابي أنه يتوقع المطاف من إنجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب جلاستون الذي اشتهر بمعطفه على الحرية في كل مكان ...

وليت شعرى ماذا يطلب الذين يرمون عرابياً بالطمع والجهل والتزق أكثر من هذه البراهين التي تُسوقها على أنه كان بريئاً من هذا كله ؟ ألم يكن لهؤلاء أن يقرأوا سيرة هذا الرجل في غير تحامل عليه حتى يمرفوه لهذا المصري المجاهد قدره وأثره في نهضتهم القومية ؟ ... وهل يوجد في العواقب القومية عيب أشد قبحاً من جهل قوم رجالهم في الوقت الذي يرون فيه غيرهم من الأمم يعيجون ذكرى الرجال فيوحون إلى الأجيال القادمة معانى البطولة بما يقدمون لهم من الأمثلة ؟ .

لقد أحبب بلنت بعرابي ووسمت عباراته من نفسه موقعًا حسناً ، قال بلنت يصف كيف تعرف إلى عرابي وكيف كان وقع لقاءه في نفسه « كان عرابي يومذاك في قمة صيته ، يتجددت عنه الناس في طول مصر وعرضها بقولهم «الوحيد» أعني أنه الرجل الوحيد ، وكان القوم من جميع أنحاء القاهرة يتراحمون على داره حيث يدعون ظلائهم بين يديه ، وكانت حجرته الخارجية ملائكة كل يوم بالتسلين وكذلك كان مدخل داره من الشارع ...

وكان قد سمع عنى أنى من يعطفون على قضية عنصر الفلاحين وأنى من

(١) كان في مكان عمارة بناجة الحالية تجاه وزارة الأوقاف وكان القضاء حوله متبعاً من كل ناحية بحيث يطل من الشرق على قصر عابدين ومن الغرب على قصر النيل

أصدقائهم ، ولقيني بكل مافي وسعه من حفاوة ، وبخاصة ، كما قال لي ، لما نمى إلى علمه من صلة أسرتي بيرون ذلك الذي كانت له في نفسه مكانة عالية وإن لم يعرف شيئاً عن شعوره ، لما كان من عمله من أجل حرية اليونان ... وهذا أمر جدير باللحظة لما فيه من دلالة خاصة على منحى عربي بالنسبة للإنسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة . فلم يكن فيه شيء من التبعصب إذا كان التبعصب معناه الكراهية الدينية ، وكان على أهبة أبداً لأن يتعاون من أجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى أو مع الكفارة على الرغم من تقواء التي لا تقوى فيها بأية حال ...

ولقد كملته طويلاً وفي غير تحفظ ودار الحديث حول المسائل التي كانت تشغل الأذهان يومئذ ، وووجهه يصارحنى كأصارحه ويتكلم في يسر ؛ وقد عبر عن ولائه التام للخديو طالما أنه يحافظ على وعوده ولا تظهر أية محاولة من جانبه ليسأل المصريين حريتهم الموعودة ؟ ولكن كان من الأمور البينة أنه كان لا يثق فيه كل الثقة ، وعد من واجبه أن يراقبه في حذر مخافة أن يتسلكب الطريق ... وفي كتاب أرسلته إلى جلادستون بعد ذلك بقليل أى في ٢٠ ديسمبر بعد أن تمت مقابلات ومناقشات أخرى بيني وبين عربي قلت عن عربي : إن الآراء التي يفصح عنها ليست تكراراً للعبارات المتداولة في أوروبا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربي تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الإسلام وهو ينكر كما اعتقاد كل مطعم شخصي ، وليس هناك شك في إخلاص الجيش والأمة له ... وقد تحدث عن مكانه في تواضع قائلاً : إن أمثل الجيش لأن الفاروق جعلت الجيش يشق بي ، ولكن الجيش نفسه إن هو إلا ممثل الشعب وحاميه حتى يأتي الوقت الذي لا يحتاج فيه إليه ؛ ونحن في الوقت الحاضر القوة القومية الوحيدة التي تقوم بين مصر وبين حكامها الآراك ، الذين لا يتورعون في أية لحظة إذا أُخْلِيَ سبيلهم أن يجددوا مساواه عهد إسْتَاعِيل .

وتحول المراقبة الأوروپية دون ذلك ولكن في صورة جزئية خسب ،
ولا تتحذل شيئاً من الحيطة بتعلم الشعب حكم نفسه ارتقاً لليوم الذي تتخل فيه
عن مهمتها المالية ، وهذا أمر علينا أن ننظر فيه ؛ لقد كسبنا للشعب حق التكلم
في مجلس يضم الأعيان وإنما نعمل على ألا يطردوا أو يخوّفوا فيخرجوا منه ؛ وإنما
في هذا لا نعمل لأنفسنا بل لأعاقبنا وللذين وضعوا ثقفهم فيينا ... ونحن الجند الآن
في وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين أجابوا الخليفة عمر حين سألهم في
شيخوخته عما إذا كانوا راضين عن حكمه وعما إذا كان فيه قد استقام على طريق
العدالة ، قالوا يا ابن الخطاب إنك استقمت على الطريق حقاً وهذا أحبابناك ،
ولكنك لست تعلم أننا كنا قريبين منك وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلاً
موجة لنردى إلى الطريق السوى بسيوفنا ... وإن على ثقة من أنه لن تكون بنا
حاجة إلى العنف ، فتحن عشر المصريين لا تحب الدماء وتأمل إلا نسفك شيئاً
منها ومتى تعلم برساننا الكلام فسينتهى واجبنا ؛ ولكننا نتعزم إلى أن نصل إلى
ذلك الوقت أن ندافع عن حقوق الشعب مهما كلفنا ذلك من ثمن ولن تخاف
بسم الله أن ثبتت أهليتنا لرعاية تلك الحقوق إذا زم الأمر ضد كل من يفعل
على إسكاتها ...

وقد أثر في تأثيراً جد عميق هذا النط من الكلام الذي يختلف كثيراً عما
يستعمله السياسيون الشرقيون في أحاديثهم مع الأوروبيين ؛ وقد كشفت لي عن
فارق عقلي كبير بين عربي وبين زعيم آخر من زعماء الحرية قابلته في دمشق
وحادثته وهو مدحت باشا ؛ فلم يكن في حديث عربي شيء من ذلك اللغو حول
السكك الحديدية والترع والتراكم كشروعات للإصلاح يمر بها الشرق ، ولكن
كان فيه كلاماً تنفذ إلى أعماق الأشياء ، وتحدد تبعية الحكومة الصالحة بحيث
تلقيها على الكواهل التي تستطيع وحدتها أن تحملها ؛ وأحسست أن مثل هذه
الكلمات خلقة بأن يصنف إليها في مجلس العموم إذا قدر لها أن تسمع هناك ...
وأما عن السلطان وعلاقة مصر بتركيا ، فقد كان كلام عربي كذلك مبيناً

لقد أخبرني أنه لا يحب الأراك الذين أساءوا حكم مصر عدة قرون ، ولا يحب أن يسمع عن تدخل من القسطنطينية في شؤون مصر الداخلية ؛ ولكنه يحمل فرقاً بين الحكومة المئانية وبين السلطة الدينية للسلطان ، وذلك أنه كأمير للمؤمنين يجب طاعته والإجلال له إذا عدل ؛ وكذلك يوحى إليه عمل فرنسا في تونس بعد أن انتزعها من الأمبراطورية واستولت عليها ، ضرورة الحافظة على الصلة برأس العالم الإسلامي ؛ قال عرابي : نحن جيمماً أبناء السلطان ونعيش مماً كاتعيش أمراً في بيته ؛ ولكن كما هو الحال في الأسر لـ كل منا نحن أهال الأقطار الإسلامية ، حجرة مستقلة يترك لنا أمر تنظيمها حسب إرادتنا ولا يسمح حتى للسلطان نفسه بالتدخل في ذلك وقد اكتسبت مصر هذا الوضع عقلياً ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن نحتفظ به ؛ ومحن إذا طالبنا بأـ أكثر من ذلك فإننا نركـ مـ الشطط وربما فقدنا حرمتنا فقداناً تاماً .

وأسأله في شيء من التقليل عما إذا كان ذا صلة شخصية بالقسطنطينية كما تؤكد الأشاعـات ، ولاحظـت عليه شيئاً من التحفظـ في الإجابة ، فـ لها لا شـكـ فيهـ أنـ حدـيـثـهـ معـ أـمـهـ رـاتـبـ ذـلـكـ الـحـدـيـثـ الـذـيـ لمـ يـكـنـ لـيـ بـعـدـ وـقـتـ ذـلـكـ ،ـ كـانـ يـجـولـ بـخـاطـرـهـ وـسـبـبـ هـذـاـ التـرـددـ وـلـكـنـهـ لمـ يـشـرـ إـلـيـهـ ...

وأخيراً تكلمنـا عن عـلـاقـةـ مصرـ بـالـمـراـقبـةـ الثـانـيـةـ ،ـ صـراـقبـةـ الـجـلـتـرـةـ وـفـرـنـسـاـ ؛ـ فأـقـرـ عـرابـيـ ماـ تـمـ منـ خـيرـ فيـ عـهـدـهاـ كـتـحرـرـ الـبـلـادـ مـنـ إـسـمـاعـيلـ وـتـنـظـيمـ الشـؤـونـ الـسـالـيـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ يـجـدرـ بـهـمـاـ أـلـاـ يـقـفـاـ فـيـ سـبـيلـ الـحـرـكـةـ الـقـومـيـةـ بـتـعـضـيـدـهاـ سـلـطةـ الـخـدـيـوـ الـطـلـقـةـ وـمـنـ حـوـلـهـ مـنـ الـبـاشـوـاتـ الشـرـاكـسـةـ ،ـ وـقـالـ إـنـ يـنـظـارـ إـلـىـ الـجـلـتـرـةـ أـكـثـرـ مـاـ يـنـظـارـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ لـنـصـرـةـ الـحـرـيـةـ الـوـلـيدـةـ فـيـ مـصـرـ وـبـخـاصـةـ جـلـادـسـتوـنـ الـذـيـ هـوـ مـنـ أـنـصـارـ الـحـرـيـةـ ؛ـ وـشـكـاـ مـاـلـتـ وـتـصـرـفـاهـ ؛ـ وـعـملـتـ عـلـىـ أـدـخـلـ الـطـمـائـنـيـةـ عـلـيـهـ مـنـ هـذـهـ النـاحـيـةـ بـقـدـرـ مـاـ اـسـتـطـعـتـ ،ـ ثـمـ اـفـرـقـنـاـ ...

وقد أثرـ فيـ نـفـسـيـ أـرـأـ حـسـنـاـ هـذـاـ الـلـقـاءـ الـأـوـلـ مـعـ هـذـاـ الـقـاعـقـامـ الـفـلاحـ ،ـ حقـ اـقـدـ ذـهـبـتـ مـنـ فـورـيـ إـلـىـ صـدـيقـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ لـأـعـبـرـ لـهـ عـنـ تـأـرـيـ ؛ـ وـاقـرـتـ

عليه أن يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذي ذكره عرابي كأرسنه إلى جلادستون ، فأني أعتقد أن برنامجاً كهذا لو أبلغ إليه من جهة يشق فيها جدير بأن يحدث في نفسه آثراً طيباً لصالحهم ؛ وحدثت مالك كذلك بهذا الاقتراح فذكر أنه يعتقد أنه يحدث ذلك الأثر الطيب ، وعلى ذلك وضمت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض زعماء الوطنيين ، وكان يعاوننا صابونجي ، برنامجاً يتضمن آراء الحزب الوطني ، وعرضتنا ذلك على البارودي فأقره ، وعرضناه كذلك على عرابي ؛ وبعد أن تم ذلك أرسلته إلى جلادستون قائلاً إنه وضع على علم من مالك وباقرار منه لما جاء فيه وشرح له الموقف كله ورجوت منه أن يعطف على حركة هي قريبة من المبادئ التي يعتقدها » .

هذا هو كلام بلنت عن عرابي نقلناه عن كتابه ، فإذا يرى فيه خصوم عرابي من جهلوا حقيقة أمره ومن التقولين عليه ؟
أيقولون على إصرارهم فلا يرون فيه إلا جاهلاً غرّاً لا دراية له بالسياسة وشأنها ؟ ألا يزال ينكر هؤلاء أنه كان مؤمناً برسالة يطمع أن يؤديها إلى بي وطنه ، رسالة الحرية والكرامة القومية ؟

حسب المرء أن يذكر مبلغ ذلك المضر من العلم ومن اليقظة القومية ، ومبلغ ما كان فيه من الرجال إذا قورن بالمضر الذي نحن فيه ، ليرى كيف بلغ عرابي بمحميته وإخلاصه وصادق حبه لوطنه مبلغاً من الزعامة خليقاً بأن يسلكه في عداد الأنداد من رجالنا في تاريخنا كله ...

وإن الذي يخطو الخطوة الأولى في كل ما يتطلب جرأة ليمضم فضله ويملو اسمه على كل من يختلفه حتى ولو كان في هؤلاء الخلف من هو أكثر جرأة وأجل آثراً وأعظم خطراً وأكبر عقلاً ؛ وذلك لأن الفضل للمبادئ . ولن يوجد في الخلف من يكون أعظم فضلاً ولا أخلاقاً جداً .

وإن الرجل الذي يقتدى بنسبته من الأبطال من بني قومه ، أو الذي يُلقي سعى البطولة في نفسه كثرة الأبطال من حوله ليحمد على بطاولته ، فكيف يعن

ينشأ على غير سابقة وبهض مدفوعاً بما في فطرته من معانى الإباء والأنفة كهذا الفلاح الذى كبر عليه أول الأمر أن يستذله ويستذل إخوانه المصريين رفق وأصحاب رفق فما تمازلمه أن يعمل على عزل رفق وما زال به حتى عزله ؟ والذى تفتحت نفسه للدستور فوضع يده فى أيدى الوطنيين وما استبعد الشقة أو قدم به ملل حتى ظفر لوطنه بالدستور وأبعد رياضاً وأحل عمله شريقاً ، والذى يحرس بعد ذلك على القومية المصرية ويخفى أن يعصف بها كيد الكاذبين فيتبص كا يترbusون ويتأهبون كا يتاهبون ...

لقد أعجب بشخصه وبآماله بلنت وحق له أن يعجب به ؛ ولقد قارن بيته وبين مدحت باشا فرجحت كفتة على كفة مدحت ، وذهب من فوره يعلن للشيخ محمد عبده مبلغ تأثيره بهذا الجندي الفلاح أو في الواقع بهذا الزعيم المصرى الذى أحبته مصر ...



الثالث ونهاية

قدر على شريف أن يلاقي عنتا شديداً من مسلك الخديو من أول الأمر ... وأخذت وزارته تشق طريقها في حذر شديد بين تلك الصعب القاعدة ، وكان أعظمها دسائس الأجانب وتوبتهم في ذلك الوقت ، وقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية إذ رأوا فيها بوادر القضاء على ما كانوا يعنون به أنفسهم في مصر ...

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة : تفكّر الخديو لقضية الدستور ، ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربيص ال دولتين بالحركة جيما ... كان طبيعياً أن تفيق البلاد على صيحة عرابي ، وأن تنطلق النfos من عقلاها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها عطاش تحرق نفوسهم ؟ فبدأ الوطنيون يعبرون عمّا احتبس في صدورهم منذ عزل إسماعيل ، وعادت الصحف تبر عن مساوىء التدخل الأوروبي ، وتندد بأساليب الدخالة في مصر أولئك الذين سلبوها أقواتها بالحيلة ، وحالوا بينها وبين أمانيها زمناً بالأرهاب والبطش ، والذين كان يختل السُّكُّرُونَ منهم المناصب المصرية الخطيرة ويُؤجرون على أعمالهم فيها إن كان ثمة لهم فيها من أعمال أجوراً غالية من خزانة مصر الفقيرة ...

وأخذت جريدة الطيف ، وكان يصدرها عبد الله نديم تقاوم الهرج الزائف الذي أخذ يلتقط في مصر فيخطف سرايه أبصار الجاهلين ، والذي سماه الأوروبيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طرزاً خاص يضفيونه إلى أسلحة الدس والكيد التي سلطوها على البلاد ؛ وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات المخمور دور المجنون ومواخير الدعاارة وغيرها من مباءات الفسوق التي كان

يذيعها في مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم في شئون البلاد رغبهم
في هداية أهلها إلى المدنية ! ...

وأخذ صيت عرابي يطفى على صيت جميع الرجال من حوله حتى البارودى
وشريف وكان لها الحكم والجاه ؛ والحق إن القلوب قد تعلقت بعرابى تعلقاً
يستحيل معه أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، بعد أن خطأ فى تاريخ قومه
تلك الخطوة الجريئة التي كان النجاح حليفها ...

أخذنا على عرابى أنه حينما طلب إليه أن يخرج من القاهرة بفرقه اشتربط
أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، فهل نأخذ
عليه أنه تدخل في الأساس الذى يجتمع عليه المجلس ؟ فقد كان يرى شريف أن
يكون ذلك وفق لائحة سنة ١٨٦٦ ، أى أول لائحة المجلس وقد وضعت فى السنة
الى أنشىء فيها ، على أن يضع بالتعاون مع مجلس الوزراء لائحة جديدة تحمل منه
مجلساً نياياً يلائم حال البلاد ، وبعد معارضة شديدة وافق عرابى على ذلك ...

وتدخل عرابى في مسألة أخرى وهى الميزانية المخصصة لأبلاغ الجيش
ثمانية عشر ألفاً من الجنود ، ولقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ
اللازم كله ، وبعد أخذ ورد وافق عرابى على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن
يوفر الباقى من وجوه أخرى

لقد قطع عرابى على نفسه عهداً كأسفنا لا يتدخل في شئون الحكومة
القائمة ، وعلى هذا الأساس قبل شريف رئاسة الوزارة ؛ لذلك يرى أن تدخل عرابى
في الأمور التي ذكرناها يجب ملامته ، ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ، ولن
يخفف من اللوم عليه أنه رضي آخر الأمر ولم يسبب للحكومة عنقها ، فهذه الأمور
من اختصاص الحكومة وهى لا تمس جوهر قضية البلاد

ووجه اللوم على عرابى أنه هىأ لاعداء الحركة القومية في مصر أن يعملا في
تصویرها صورة عسكرية بمحنة سببها تدخل الجنود في شئون الدولة
لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناؤتها في مصر وفي خارج مصر وإلى

هذه المزاولة يرجع سبب جوح هذه الحركة والتواهها على شريف ثم خروجها آخر الأمر من يده ، ولو أنه قدر لصر في تلك الأيام العصيبة أن سلك الخديو غير ما اختار لنفسه من مسلك فائز كبير وزراؤه ضد ما كان يحاك للبلاد من دسائس لأمكن أن يسير شريف بالسفينة إلى شاطئه السلام ؟ ولكن الخديو وأسفاه لم يكتف بعدم التوازرة ، بل لقد التجأ إلى الأجانب ، فكان عمله هذا أقوى مساعد على تجاه سياستهم ...

وكان كافن المضو الأنجليزي في لجنة المراقبة المالية وإدوارد مالت فنصل الجلسة في مصر ها اللذان يمحكان الشباك حول الخديو ، وكانت لهما سياسة ماهرة غادرة تقوم على أساس حكم وضمهما أولها وفق ماتعلم في المندن ؛ فهما يظهران الولاء للخديو فيسان له بذلك السُّم في الملق ، ثم هما يخوفانه أبداً من تركيا والمرابين جميعاً فيدران قلبه هواء ، وما بعد ذلك يتضللان الرأي العام في بلادها ويرسلان التقارير السرية بما يحب أن يتم إلى وزير الخارجية الأنجلizية ...

وكان وسيطهما في تضليل ذلك الرأي العام ، السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كافن نفسه مراسلاً لأحدى الصحف وكان مراسلاً للتميم يستقى منه المعلومات أما شركنا رويت وهافاس فقد كان يعطي لكل منها ألف جنيه في العام من خزانة مصر ! وقل أن نصادف في تاريخ السياسة عملاً أشد بخوراً من أن تقارب قضية شعب بنقدود من خزانته ...

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أشتعن السكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الأمر ، إلى أن منيت بعد هذه المقدمة بالتدخل الرسمى الفاجر الذى لم يدع في تاريخ العالم عرفاً إلا خرج عليه ولا قاعدة إلا سخر منها وحطمتها تحطيمها ...

أخذ محرروا الصحف في إنجلترا وفرنسا ينددون بشورة مصر ويستخرون من هضبة مصر ، ولو أنهم كانوا يحترمون المبادئ التي نادت بها بلادهم حقاً لمنعهم ذلك عمما فملوه ...

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوروبا حركتها بأسوأ ما تستقبل به
الحركات؟ ألم تحرر في أوروبا الدماء أنساراً في سبيل أمثال تلك المبادىء التي كان
ينادي بها المصريون؟ وكيف تكون نهايتها عذبة مشهداً إذا نفت بها أوروبا ثم
تكون ممحوجة مملولة إذا هتف بها الشرقيون؟

هذا شعب ينفض عن غبار القرون ، وينخطو نحو الحرية كما خطت أوروبا ،
ثم هو يدب الأجانب عن قوميته ، وقد نقلوا عليها بامتيازاتهم الائتمة الفاللة تقليل
الحشرات والهوام ، فماذا كانت ترى أوروبا في هذا من معانٍ الفوضى والمهمجية
ولم يصحب حرارة المصريين عدوان على أولئك الأجانب على ما كانوا يلاقونه
منهم من عنف وإفساد؟ إلا إنها السياسة والأطعاف الاستعمارية تقلب عرف الناس
نكراناً وتجعل المبادىء التي ينادي بها دعوة الإنسانية في نظر الساسة أحلاماً لا تجد
لها مستقرأً إلا في رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الأغوار من مصدقهم ...
أما الساسة فقد كانوا لا يتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعي في تلمس السبيل
التي يستولون بها على الفريسة ، وكان موقف الجلترة وفرنسا من مصر ينطوي
على كثير مما يبعث الألم والضيق مما ! وكم من المأسى ما تضحك منه النزوس
ضحكات لن يبلغ الدمع مبلغها !

كان موقف الدولتين كوقف رجلين يطمعان في استيلاب ثني ، وكلاهما
يريده لنفسه دون الآخر ولكنكه يموه على صاحبه ؛ وبفهم كلاهما حق الفهم
أن الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنكهما على الرغم من ذلك يتناين
ويضلالان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة في تلك الأيام ، ولكن شهد
المترجون يومئذ من الأساليب الميكانيقية وأوضاعها ، ولكن شهدوا من أساليب
غيرها لو قورنت هذه بها ل كانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمترجون
من أهل مصر لا يملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لـ رأوا ، بل لقد فرض
الاحتلال عليهم أن ينظموا أناشيد الملح والإعد سكوتهم جحوداً وعناداً .. وأى

نى، أنك وأوجع من أن يرغم شعب على تقبيل الأيدي التي استقلتها حقوقه والأغلال التي دارت حول عنقه؟

ويظهر أول شاهد على السياسة الإنجليزية في تقرير كتبه كافن بعد يوم عابدين بعشرة أيام جاء فيه «أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبعها إلا هدنة، وأن ما وصلنا إليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التي تعمل حولنا ونسعى في الاستفادة منها أو القضاء عليها»^(١).

وليس في هذه العبارة أول شاهد على السياسة الإنجليزية خسب، بل إن فيها خلاصة هذه السياسة؛ فستربص الجلترة بالحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بغيردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقطعاً يفطن إلى دقة الموقف، ويدرك مرارى السياسة الإنجليزية وأساليبها؛ ولذلك كان لا يفتئ يغض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحركة وبخاصة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم وأقوالهم ما تسيء أوربا تأويله فتسوء بذلك العاقبة ...

وأخذ فريق من رجال الحركة الوطنية يماونون شريفاً على ثبيت قواعد سياسته وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابي عن رأيه في الموقفين السالف ذكرهما، وكان من أثر ذلك أن خفت الصحف من لهجتها وكفركت من غلوتها؛ ولقد كان الشيخ محمد عبد فضل كبير في توجيه العناصر الوطنية نحو هذا المسلك فأثارت مصر أن تركن إلى الحركة وإن نفوذها لتضطرم بالثورة ...

ولكن الأفق مالبث أن تجمعت في حواشيه الغيوم، وأحسست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفذ لها صبر الريان أو كاد، وتلك هي أزمة الميزانية الشهيرة، وهل كانت الثعالب تعجز عن خلق ما تشتهي من أزمات؟

فرغ شريف من إعداد لائحة المجلس ثم عرضها على النواب، ومشد ما كانت

(١) المسالة المصرية لروتين: تعریف الأستاذین العبادی وبدران.

دهشتهم أن رأوا شريفاً يقرر فيها لا يكون من اختصاص المجلس عند النظر في الميزانية البحث في جزية الباب العالى والدين العام وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات ...

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، وعدوا ذلك من الحقوق التي لا تقبل مساومة مما يكن من الأمر ...

وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشأع النواب في نظرتهم ، وأخذ يطلب إليهم الأناة والحدر ويرتهم عاقداً التطرف والتجلل ، ولكنهم لم يلتقطوا إليه ، وظهرت في الوزارة نفسها بوادر التفكك ، فلقد كان البارودي يطمع في الحكم بعد شريف فكان لذلك يؤيد الوطنيين في موقفهم سراً .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يسلكه في سلك وزارة فوجد في الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسر عان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعطاله على الجنين والضمف . ثم بلغ الأمر حد اتهامه بالخيانة . ووقف شريف يواجه العاصفة في صبر وجلد ، وهو يؤمن أن يجتمع النواب إلى السلام والاعتدال واقتراح عليهم تأجيل النظر في هذه المسألة حيناً ، ونشط الشيخ محمد عبده في معاونة شريف ، وكان مما ذكره في هذا الصدد قوله « لقد ظللنا ننتظر حرثتنا مئات السنين أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى؟ » ثم بدا على الأفق بعد حين ما يبشر بقرب اكتشاف الغمة ، فلقد أخذ النواب يتذرون في عاقبة هذا التشدد وببدأ المقل يغلب شيئاً فشيئاً على العاطفة .

وخيّل لشريف أن الأزمة بسبيل أن تحول ، ولو أنه اطلع على الغيب لعلم أنها كانت تتضاعف ويشتد خطرها لتتخد في النهاية الوضع الذي سوف يغير تاريخ هذه البلاد !

لم ينقد الصادقون في هذه العاصفة الفرصة المرتقبة ! وهياهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها ؛ إن الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة

هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين والمسكريين جميعاً ، ويفقدوا هم الثقة فيه كل فقد فيقرب بذلك من الأجانب أو على الأصح يزداد قرباً منهم ...

ولن يعدم الإنجليز وحلفاؤهم أن يخافوا ألف مبرراً ليعملون ؟ ومن أيسر الأمور عليهم أن يعلنوا أن البلاد تشيع فيها الفوضى ، وأن الأجانب ومصالحهم تكتنفهم الأخطار من كل صوب ، وأن الخديو بات يخشى على عرشه ولا مخرج له مما هو فيه ، بل ولا مخرج لمصر مما هي فيه من خلل وارتباك إلا أن يضرب على أيدي التأثيرين المفسدين في الأرض ...

ومن غريب أمر هؤلاء الإنجليز أنهم بينهم وبين أنفسهم غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية ، فهم لا يقبلون من هذه الشعوب ما يدعونه عندهم من مفاسد الإنسانية ، وإنهم ليرون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها ، فالتآلم من الظلم تنصب على رؤوسهم تمرد ، والسمى إلى الحرية فوضى وهجينة ، والدفاع عن البلاد وذب الدخيل عنها وحشية وإجرام ! على أن هذه سنة الحياة بين القوى والضعف منذ كان الإنسان يتخذ سلاحه من الحجر وينجت مأواه في الجبل ...
وأقد كانت الدولتان تعاملان على الكيد للحركة الوطنية في مصر قبل انعقاد المجلس ، وكانت بينهما مراسلات في هذا الصدد ؛ وكانت فرنسا هي المحرضة هذه المرة ! فرنسا التي كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناورة النفوذ الإنجليزي في مصر ! ..

ولى المسيو ليون جبينا أمر وزارة الخارجية في فرنسا في شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ فسرعان ما اتصل بوزير خارجية الجلطة اللورد جرانفل محدثاً إياه في شأن مصر مبيناً له وجوب تضامن الدولتين في العمل إزاء ما يجري هناك من أمور .

وحار جرانفل أول الأمر ما ذا يجحب به على هذه الدعوة ، فهو إن قبلها أصبح مقيداً بالعمل مع فرنسا ، وإن هو رفضها قطع على دولته الطريق وجعل فرنسا للسكان الأول في شؤون مصر ...

وتنقى جراشل من مصر أنياء فاجرة مالت به إلى الطريق التي اختارها ...
كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عربى والمراقبين ، فأرجف
المرجفون أن عربياً يمتنع أن يأتي ثورة جديدة لاسقاط وزارة شريف وتنصيب
البارودى مكانه ...

وكتب السير إدوارد مالت وهو رجل مسؤول إلى اللورد جراشل يشكوك من
تدخل عربى ويتسائل في لمحة ساخطة برمته : كيف يستطيع شريف أن يقوم
على رأس الحكومة مع وجود عربى صاحب التفوذ الفعلى في البلاد ؟ وهكذا
يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرى عربياً بما هو برىء منه إذ يصوّره في
صورة المتسف الذي تدفعه المآرب الشخصية ، ولا يستحى بعد ذلك أن يكتب
إلى رئيسه ينبعه بمخصوص عربى رأى المراقبين ! ... ولكن جراشل كان قد خطأ
نحو فرنسا خطوة لا يمكنه التكوص بعدها ...

وكتب كافن كذلك إلى جراشل يقول « والحقيقة أن الإدارة المصرية شركة
ثلاثية ، فإذا لم تكن الدول على استعداد لتعديل نصيبيها فعليها أن تحافظ عليه
وتقويه في هذا الوقت الذي أصبح فيه المصريون في حال تطور وانتقال »^(١) هذا
عدا ما ذكره في تقريره عما يتوقفه من خطر إذا زيدت سلطنة المجلس وثبتت قواعد
المستور المصرى ...

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة إلى جريدة التيمس ، وفيه أقوى
حججة على براعة هذه الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الأجانب المالية ؛
وكان يأمل بلنت وأصدقاؤه من الوطنيين أن يكون لنشر هذا البرنامج أثره
الحسن في نفس جراشل ، ولكنه نشر في أول يناير سنة ١٨٨٣ بعد أن
قضى الأمر ، فلقد وافقت الجلالة على وجهة نظر فرنسا في يوم ٣١ ديسمبر أى
عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام ...

(١) المسألة المصرية لروشتن .

وخطا شريف باشا في تلك الأثناء خطوة حكيمة فأعلن بياناً^(١) يشير فيه إلى منهج حكومته، فذكر أنها تقوم على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التي حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو حاكماً دستورياً والتسليم بقاعدة المراقبة الثانية، ثم إنكار كل أتجاه نوري، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس نوابي ...

ولم يكن في الإمكان يومئذ السير على منهج أفضل من هذا المنهج الحكيم، الذي كان خليقاً أن يبعث الطمأنينة في نفوس الساسة من الدولتين، وكذلك لم يكن هناك رهان على حسن نيات الوطنيين أقوى مما نشرته التيمس لستر بلفت وهو شاهد عدل من الإنجليز للمصريين .

ولكن المسألة لم تكن مسألة اقتناع ، وإنما كانت نية مبيبة ، وهبها أن تخرب الأمور في السياسة على الأقتناع والاقتناع ، فدواجه الأقوباء إلى العمل في ذلك الضمار أطماءهم ، وبراهنهم أسلحتهم ، وما يكون الكلام إلا تعلة الضعف؛ وما أشبه كلام الضعفاء في مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تزييقها ...

ويذكر بذلك سبباً لأنجذاب الجملة إلى فرنسا فيقول إن الجملة كانت تسعى إلى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة الإنجليزية ؛ ومن أجل ذلك هاودت الجملة فرنسا وطاوتها فيما تقرّح في شؤون مصر فباعت الجملة بذلك مصر إلى فرنسا ...

وما نظن أن الجملة كانت من الغفلة بحيث تتنازل عن أغراضها في مصر من أجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية ، وإنما الذي نفهمه أن الجملة كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بعصر موقف الاتفاق في الظاهر ، بينما تعمل في الباطن وفق ما ت عليه عليها أطماءها ؛ وما يؤيد ما نقول التحفظ الذي أبدته الجملة وأقرّته فرنسا ومؤداته « إن الحكومة الإنجليزية يجب ألا تعد مقيدة بسبب هذه المذكرة بسلوك خطة خاصة إذا ما بدا لها أن العمل

(١) The Transit of Egypt By P. g. Elgood,

ضروري » ولسوف نرى من سياسة إنجلترا في مصر ما يؤيد ما نقول ...
تم الاتفاق بين الدولتين ، وكان المجلس في مصر كا تقدم بخلاف الوزارة في
مسألة الميزانية ، وكان بعض الوطنين يعلمون على الخروج من الأذى بالحسنى ،
ولاحت في أفق السياسة بوادر اكتشاف الغمة ...

وما أشد ما تخذه من ألم ومن غيظ أن نذكر أن البلاد ما لبثت أن تلقت من
الدولتين في اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ تلك الصيحة المشؤومة التي
سميت بالذكرة المشتركة ، والتي قل أن تجد في التاريخ السياسي ولا فيها يتحقق
للاطفال من خرافات مثلاً أوضح منها لتحكم القوى في الضعف واستهتاره به في
غير حياء أو تحرج .. وحسبك أن تقرأ هذا الكلام الذي بعثت به إنجلترا وفرنسا
زعيمتا الحرية والمديوعقاطية ! جاء في المذكرة^(١) « إن الحكومتين الإنجليزية
والفرنسية تريان أنبقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التي قررتها الفرمانات
السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسميًا هو الفعالة الوحيدة في الحاضر والمستقبل
لاستقرار النظام في مصر واطراد رخائها ، وهذا الأمر ان اللذان هم بهما فرنسا
وبريطانيا العظمى ؛ وإن الحكومتين اللتين اتفقا اتفاقاً تاماً في عزمهما على أن
تعنوا كل أسباب الارتباك الداخلية والخارجية التي يمكن أن تهدد النظام القائم
بحصر ، لا يدخلهما ريب في أن جهورهما بما عزمتا عليه رسميًا في هذا الأمر سيحول
دون الأخطار التي قد تتعرض لها حكومة الخديو والتي لا بد أن تقاومها فرنسا
 وإنجلترا مما ، وإن الحكومتين لتشقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد
ما يحتاج إليه من الفقة والقوة لتدبر شؤون بلده وشعبه » .

وأى كلام يمكن أن يعبر عمما تعلو على عليه هذه الذكرة من لوم وغور ؟
ما معنى الإشارة إلى بقاء سمو الخديو على العرش ؟ وما شأن الدولتين حتى تهان
بهذا الأمر ؟ وبأى حق تضطعنان بمنع أسباب الارتباكات الداخلية والخارجية ؟
وعلى أي أساس يقوم ادعاؤها وجود هذه الارتباكات ؟ وكيف يجوز أن يعمد

(١) المسألة المصرية لروشتن .

الخديو عليهم ويستمد الثقة منها مع وجود السلطان؟

هذه هي المذكرة المشتركة التي أشار إليها بلنت بقوله « هذه المذكرة المشؤومة التي إليها يرد كل ما وقع من المصاعب أثناء ذلك العام والتي أفقدت مصر حريتها كما أفقدت جلاستان شرفه وكما أفقدت فرنسا نفوذها في وادي النيل » .

ولا تسل عما أحدهته هذه المذكرة الحمقاء من سوء الأثر في مصر ؟ لقد بلغ من إثارتها الشعور وإحراجها الصدور أن تقم عليها مالت وكفن وتعنيا ولم تكن ! وقد كانا يريدان ألا تكون بعثة هذه الصراحة الطائشة ...

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال الحركة الوطنية إلى « العسكريين ، وهو على خلاف ما كانت تنتظره الدولتان في غباء مضحكت أو في غفلة لا ندرى كيف وفما فيها ، إلا أن تكونا أرادتا إيقاظ الفتنة وهو خير ما يفسر هذا الذي تحار فيه .

رأى عنصر الأمة ، الرجعية المسلحة ، بل رأوا الفدر الأثيم يهدد قضيئهم ؛ وابعثت الصيحات من كل مكان أن إنجلترا أقت نفسها في أحضان فرنسا ، وأن فرنسا تريد أن تصنع عصر ما صنعته بتونس ، ولذلك يجب الاتجاه إلى السلطان والمناداة بعيدها الجامحة الإسلامية لقاومة هذه الحركة الأثيمة ...

وعظم سخط المصريين جميعا حين علموا أن الخديو قد قبل هذه المذكرة ، ولم يكتف بهذا القبول المشين فكتب إلى القنصلين يشكر حكومتيهما على ما تبديان من عطف نحوه ، وفي هذا دليل صريح على أن الخديو آثر الانحياز إلى جانب الدولتين ونسى موضعه من السلطان ولم يعما بما يجده في مصر من الفوضى على مسلكه وضع كل أمل في هبة الخواطر ، فأصر مجلس شورى النواب على موقفه في وجوب نظر الميزانية ، ورأى شريف في المجلس إجماعا ضد ومحاسة ما رأى مثلها من قبل ؛ وقد رغب جرانثل في ملابضة الأعضاء في هذه المسألة كأنما يريد أن يعالج بعض خطئه ، ولكن جبئنا رفض ذلك بحججة أنه يسقط هيبة

الحكومتين أمام الوطنين ! وما أعجب أمر هذا الرجل الذي يرى أن الهيئة
تكتسب بالحاجة !

على أن جراحته ما لبث أن شفأها في حاجته فلقد كتب إليه مالت
يقول^(١) إن المجلس باق وسيظل باقياً مالم يحل بالقوة ؛ وهذا أمر لا يكون إلا
بالتدخل الذي هو آخر سهم في كنانتنا ، والذى لا يسوغه أبداً ما قد يكون من
خرق قانون التصفية ... إنى أعترف أنى أفضل أن يعطي المجلس ما يطلبه من الحق
وألا تتدخل حتى يسىء استعمال هذا الحق ... وبحب لا ننسى أن الأمة المصرية
قد أخذت تسلك طريق الحكم النبابي خيراً كان ذلك أو شرّاً ، وأن قانون المجلس
الأساسي هو صك حرفيها »

هذا ما ذكره مالت نفسه ولكن جرانفل لم يعبأ به وأرسل إلى جبطة ينبئه
بموافقة الحكومة الأنجلizية على آرائه ؛ ونسى جرانفل أو تسامي أنه كتب إلى
مالت قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشــيراً إلى حرية المصريين الوليدة « إن
الحكومة الأنجلizية إذا ما رغبت في نقص تلك الحرية أو العبث بتلك النظم التي
يرجع وجودها إليها فإنها تتبع سنة تختلف تقاليد تاريخها الوطنى . . . ليس من
شيء يحملنا على سلوك خطوة أخرى غير قيام حالة فوضوية في مصر »

فليت شعرى ما الذي حدث في مصر حتى تختلف إنجلترا على هذه الصورة
أجل تقاليد تاريخها الوطنى ؟ لا إنها السياسة التي لاتنور عن شيء ولا تستحبى
من شيء ، وليتذر في هذا الموقف من لا يزالون في هذا الشرق يتحدثون عن
الضمير البريطاني والشرف البريطاني . . .

حاول شريف أن يحصل على مذكرة تفسيرية يستعين بها على تسكين الخواطر ،
فرفض جبطة حتى هذه المذكرة وعاد جرانفل فشاعره في هذا مشــائمه عمياء على
الرغم من نصح الناصحين من الأنجلز والوطنيين . . .

(١) المسألة المصرية لروشتن

ولست أدرى كيف كانت ضمائر هؤلاء السياسة تطاوعلهم مع هذا على أن ينتموا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالا في السياسة لا يدركون ما يأخذون مما يدعون؟ ولكن مالى أعود إلى حديث الضمائر والأمر أمر السياسة وجشع السياسة؟

وضاقت بشريف السبيل فلم يدر ماذا يفعل ، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكا ، والريح من حولها عاصفة وليس في الجو بارقة أمل ، والنواب لا يفتر بأصرارهم ولا تنقطع زجرتهم ...

وعاد مالت يخدر جرائفل فقال في صراحة « إن التدخل المسلح سيصبح أمرا محتوما إذا تشبتنا بمنع المجلس من التصويت عن الميزانية ، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع ما يوجب هذا التدخل الذي إذا أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى إلى سوء التقلب في هذا البلد »

ولينظر في كلام مالت أولئك الذين يعودون باللوم على عرابي إذا ذكر الاحتلال والتدخل المسلح في شؤون مصر؛ ومتى يعلم هؤلاء أنه لو لم يوجد عرابي لعمل الإنجليز على خلقه؟

على الرغم من تحذير مالت أبلغت الحكومة المصرية رسميا في اليوم المشربن من شهر يناير ١٨٨٢؛ أن المجلس لن ينظر في الميزانية إلا إذا أخل بالأوامر المالية التي أنشئت بمقتضانها المراقبة الثانية ...

وكان المجلس قد جنح إلى الاعتدال على الرغم من أنه يرى تدخل الدولتين عملاً لاموج له قتساهيل تساهلا لا يدع مجالا لاتهامه بالشطط أو التورط ، فقبل أن يقتصر نظره في الميزانية على القدر الباقي منها بعد الجزية وقانون تصفية الديون والالتزامات الدولية

ولكن الدولتين أبتأ على هذه حتى هذا وأكيدتا لشريف أنه لن يقبله بحال ، وهذا في الحق هو الشطط ، بل هذه هي الفتنة ؟ والمسألة لا تحتاج إلى بيان فما كانت مسألة الميزانية إلا ذريمة للتدخل الفاجر ردأ على نجاح الثورة القومية بعد

يوم عابدين ، فقد كان هذا النجاح مؤذناً كاً يبدو لأول وهلة بالقضاء عهد سيطرة الأجانب على البلاد ... ولن تظاهر مالت وأمثاله من الانجليز بأنهم لا يريدون التدخل فذلك كلام يسبق كل رغبة في التدخل ثاني من جانب المستعمر ... والذى يفطن إليه المرء في غير طول نظر أن مالت كان يتصح بعدم التدخل لأنه كان يريد أن يبعد فرنسا فلا يجب أن يكون التدخل مشتركاً ، وإنما يجب كل الحب أن تكون الفرصة من نصيب إنجلترا وحدها

قال بلنت يصف لقاءه كافن وقت اشتداد الأزمة بين شريف والنواب «كان الخصم بين النواب وشريف في أشد حالاته فسأله عن رأيه في الموقف فقال إنه يراه خطيراً جداً . وكان من الأمور الواضحة أن زعماء الحركة القومية قد صمموا على إسقاط شريف ، فإذا نجحوا في ذلك فإنه كما قال يقطع صلته بهم ؛ ثم أخبرني بأنه غير آراءه تغييرًا تاماً فيما يتصل بهؤلاء فإنه ظنهم يجنحون إلى التعقل ولكنه يرى ألا سبيل إلى تعليمهم ولذلك سيبذل قصارى جهده للقضاء عليهم إذا وصلوا إلى الحكم ؛ فسألته كيف يتمنى له أن يقترح ذلك ، وكيف يعرض حركة أقرها أخيراً ، وقد خرجت عن طوفه وطوق كل شخص غيره ؟ كيف يتمنى ذلك إلا بنفس التدخل الذي كنا نحاول جيماً أن نتجنبه ؟ فقال إنه غير رأيه حول التدخل كذلك وأنه يراه الآن ضروريًا ويرى أنه لا مناص منه وسوف لا يألو جهداً في العمل عليه ؛ فأعتبرضته مبيناً أن التدخل معناه الحرب وال Herb معناها حرب مصر ؛ فقال إنه يدرك هذا المعنى كل الأدراك .. إن ما يحدث في مصر قد شوهد مثله مرات في الهند ، وإن إنجلترا لن تخلى عما تم لها من النفوذ في مصر ومن العبث الكلام في حقوق المصريين وأخطائهم ، فذلك مالا يصح اعتباره ، ثم كرد ما سلف أن قاله عن تحطم الحركة القومية والحزب الوطني مضيفاً إلى ذلك أنه لم يعد يجعل آراءه هذه سراً من الأمصار »

وذكر بلنت كذلك كتابين جاءاه من أصدقائه في إنجلترا أحدهما من الأحرار وهو چون مورلي والآخر من المحافظين وهو ليتون وكان قد كتب إليهما

يسألهما عطفهما على الحركة القومية في مصر ؟ فاما أولها فيقول «إن أشك فى أن
مشروعيتك تصادف نجاحا في هذا الوقت : إن مصر لسوء حظ أهلها ميدان
للتباين الأوروبي ، وستُمنع تسوية شريفة فيما بينهم مصالح أهلها لكي يتمشى ذلك
مع ما يلام فرنسا ؟ وليس لي حيلة في ذلك ؟ فأهـ تلك النقطة التي زلت بالدنيا
الـلا وهي السياسة العليا التي ستفسد كل شيء »

وأما ثالثهما فيقول «إن هذه الفتنة القاتلة من الشعب الأنجلزي التي تفك
في الأمور الخارجية ، قد امتلأـت أذهانها من قبل واضطربت أفكارها بسبب ذلك
الوضع الخاطئ ، الذى نساق إليه فى مصر ، ويقادون يخافون أكبر الخوف من
الجهر بآرائهم عن الموضوع ؛ وبظهرى أن أراهم واهية ؛ وفي رأي أن هذه
أولى ثمار تلك السياسة الخاطئة من أساسها التى أدت بنا إلى أن نفقد التعاون مع
الآنبا والنسا ووضعتنا فى الواقع تحت رحمة فرنسا ، تلك الدولة التى لا يمكننا أن
نعقد معها تحالفًا على أساس متبين يدعو إلى الاطمئنان »

وَمَا نَظَرْنَا بِحَاجَةٍ بَعْدَ هَذَا الَّذِي يُذَكَّرُهُ بَلْتَ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنْ
خَسَكَ النَّوَابُ بِنَظَرِ الْمِيزَانِيَّةِ هُوَ سَبَبُ مَا مَنَّيْتُ بِهِ الْبَلَادَ مِنَ التَّدْخُلِ الْأَجْنبِيِّ ...
وَلَا وَجَدَ النَّوَابُ شَرِيفًا يُمْكِنُ إِلَى موافَقَةِ الدُّولَتَيْنِ ، سَارَ وَفَدُهُمْ إِلَى الْخَدِيوِ
فَطَلَبُوا عَزْلَهُ ، وَتَعَيَّنَ رَئِيسُ الْلَّوْزَارَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْبِرَ مَعَ نَوَابِ الْبَلَادِ فِي سِيَاسَتِهِمْ.
وَسَقَطَتْ وزَارَةُ شَرِيفٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ فَبْرِيرَ سَنَةِ ١٨٨٢ وَيُرِيَ بَلْتَ أَنْ
مِنْ عَوَامِلِ سُقُوطِهَا كَذَلِكَ تَهْدِيدُ كَافَنَ بِالتَّدْخُلِ الْعَاجِلِ ؛ وَحَلَتْ مَعْلَمَهُ وزَارَةُ
الْبَارُودِيِّ بَعْدَ هَلَانَةِ أَيَّامٍ وَهِيَ الْوَزَارَةُ الَّتِي سُوفَ تَعْرَفُ بِاِسْمِ وزَارَةِ الثُّورَةِ



عِصْبَةُ جَدِيدَةٍ

ذكروا أنه كان من نتائج تلك المذكرة الشؤومة اتحاد الوطنيين والمسكريين ، ونذكر الآن أن عراياً ما لبث أن أتجهت إليه أنظار الجميع على نحو ما حدث قبل يوم عابدين ، ورأى الوطنيون أنه الرجل الذي يجب أن يحرصوا على معاونته لأن الجيش من ورائه بل لأن الأمة المصرية لا تذكر غيره ولا تتجه عند الخوف إلى سواه ...

وتذهب عربى ليخطو فى تاريخ هذا البلد خطوة جديدة ، وقد تأمت الشعوب وبنات آوى على اقتناصه هذا التأمر الوضيع ...

ولقد أحاس مالت بما كان المذكرة من أثر فى عودة عرايا إلى طليعة الصفوف فأوفد إليه فى مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت ، وكان يطمع فى أن يكسب عراياً إلى جانبه أو على الأقل كان يتمنى أن يهدى خاطره لتفطنه إلى ما يكون لصنيعه هذا من عظيم الأثر فى ذلك الموقف المصيب الذى سببته زعونة جبنا واصحابه ...

يقول بلنت « ذهبت بناء على ذلك إلى قصر النيل ظهر يوم ٩ ، وكان نص المذكرة قد وصل يوم ٨ ، ووجدت عراياً وحده فى مكتبه ؛ وكان غاضباً وهذه هي المرة الأولى والمرة الوحيدة التي رأيته فيها كذلك ... وكان وجهه كالسحابة الراءدة وتألقت عيناه ببريق خاص ، وكان قد اطلع على نص المذكرة وإن لم تكن قد نشرت بعد ، فإنها حتى ذلك الوقت كانت أرسلت بالبرق فحسب ؛ وسألته كيف فهمها فأجابنى قائلاً ، بل أخبرنى كيف فهمتها أنت » وعندئذ أفضى إليه رسالق فقال « لابد أن السير إدوارد مالت يظن أنناأطفال لا ندرك معنى الكلمات ... لأنها قبل كل شيء لغة تهدى وليس في هذه الإدارة كاتب يستعمل هذه المبارات مثل هذا المعنى » وألح إلى تلك الإشارة للأعيان التي جاءت في الفقرة الأولى

من المذكرة قائلًا : إن هذا تمديد لحريتنا ، ومفضى يقول إن إعلان اتحاد إنجلترا وفرنسا في السياسة معناه أن إنجلترا سوف تقزو مصر كما غزت فرنسا تونس ... ألا فلتدعهم يحضرنون ، إن كل رجل وكل طفل في مصر سوف يحاربهم ... إنه مما يتناهى مع ميداننا أن نبدأ بالعدوان فنضرب الفربة الأولى ولكننا نعرف كيف زردها ... ثم قال عما جاء بقصد الدفاع عن العرش « إن العرش إذا كان ثمة من عرش هو عرش السلطان ؟ وليس الحدبو بحاجة إلى حماية أجنبية ... إنك تستطيع أن تخبرني بما تشاء ولكنني أفهم معنى الكلمات خيراً مما يفهم السير إدوارد مالت .

وف الحق إن كلام مالت كان هراء ، وقد أحسست أن أحق بين يدي عربي وشعرت بالخجل أن سمعت لنفسي أن أكون حامل هذا اللغو إليه ، ولكنني أكدت له أنني أديت الرسالة كما حملنها إليه السير إدوارد وقلت له : إنه يطلب إليك أن تصدقها وأنا أطلب إليك أن تصدّقه .

وعند انصراف عاد إليه شيء من المدوء ، وأمسك بذراعي وهو يشتمي إلى أسفل البناء ، وقد دعاني إلى أن أظل على موته فأذوره في منزله كما كنت أفعل ، فقلت : إنني سوف أحضر حين تكون لدى أبناء طيبة لك خسب ، وكنت أقصد بذلك القول أن ألح له إلى ما كنا نرجوه من تفسير للمذكرة ، أبلغ مالت يستأذن في أن يتقدم به ...

ولما عدت إلى مالت وسألني عما صنعت قلت له إنه لا يرجي الصلح الآن فإن المذكرة قد ألغت بهم بين ذراعي السلطان ». .

هذا كلام بلغت ومنه تتبعين مبلغ غضب عربي من هذه المذكرة ، كأننا قهوم جانباً مما كان يجيش في نفس هذا الرعيم الثائر ، فهو لن يجيئ ولكننه لن يبدأ بالعدوان ، وهو يلمح نيات إنجلترا في هذه المذكرة ؛ وما كان عربياً مسرفاً في تصوير نيات الإنجليز فلسوف رى أن جراحته كان في ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة ...

عاد عراقي إلى الميدان ؟ وفي الناس من تبلغ بهم الغفلة إلى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ؟ وفيهم من يذهبون في اتباع أهوائهم إلى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيباته قاتلين في مثل منطق البلياء ، إن كان ثمة للبلاء منطق ، إنه بعودته هذه قد ساق البلاد إلى ما سيقت إليه من دمار ، كأن على كل رجل إذا رأى كرامته تداس وشرفه يهان أن يقف مكتوف اليدين وإلascاق نفسه إذا غضب إلى الدمار . إلا إن الرجلة خلاف ذلك ؟ فالرجل الذي يجد نفسه في موطن الإهانة لا سبيل له يمسك بها رجولته إلا أن يدافع عن نفسه أتفة وحفاظاً ولو أحقن أنه هالك .

ومن المؤلم الشير حقاً أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام ، دون أن ينظروا في موقف الخديو وموقف الإنجليز على نحو ما بيننا ، وهم لا يدركون من المسألة كلها إلا أن عراياً كان رجلاً ذا أطاع شخصية لا يدرى ماذا يفعل ، وكما هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بزرقة على إثارتها ليصل إلى تحقيق أطاعمه . إلى آخر هذه النغمة الباردة المرذولة التي ألقى بها الاحتلال في أذهان الأغفال ...

وأحسب الآن بعد الذي رأينا من موقف أعداء البلاد أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قاتلوه ؛ وإننا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم بعد أن نفرغ من سيرة هذا الزعيم المفترى عليه على نحو ما نبين من أوجه الحق لن يعودوا إلى مثل هذا الكلام ، فسييلنا كما يرون في إيقاعهم الحجة نستخلصها من الحوادث في عدالة يفرضها الحق ، وفي عطف يوجبه الإنفاق ...

نعمه عراقي لا يتدخل في شؤون الحكومة ، فكان إذعانه لهذا أمر لا بد منه . ولو أنه رفضه لكان في ذلك خطئاً أشد الخطأ ، ولكن عراياً لم يتمهد أن يدع وطنه و شأنه ، لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحرك لنجده ما عسى أن يلم بقضيته من الأحداث ؟ ولم يكن يستطيع عراقي أن يتمهد بعقل هذا ، وإن يستطيع ذلك غير عراقي من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم في حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ ...

وكيف يفعل ذلك عراقي أو أي رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفترطاً في

حق وطنه؟ وأى فرق بين مثل هذا التمهيد وبين المروق والخيانة والجود في أوضاع سورها وأقبحها؟ .

الا إن للحق كل الحق أن يطلب إلى بي الوطن لا يتدخلوا في أعمال الحكومة ، ولكن على شرط لا يكون من تلك الأعمال نفسها ما يحفز الناس إلى التدخل أو يوجه عليهم ... أما أن تفرط الحكومة في حق الوطن ، وأما أن توضع العقبات في سبيل قضيته ، ثم يطلب إلى الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو الباطل في أرذل صوره وأشدتها بخوراً ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد ضل في حق بلاده ضلالاً بعيداً ...

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير الحكومين وصلاح أمرهم ؛ على هذا الأساس ولدت الديمقراطية ، وبهذا المبدأ اقترن الحرية ، ولكن نادى بذلك القادة ودعا الإنسانية في الفرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضي وفصموا سلال الرجمية والعبودية ...

وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الإسلامية الأولى التي ولدت في السحراء قد جعلت تلك المبادئ أساس قيامها ؛ وما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الأول للناس : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بمخيركم فإن أحسنتم فأعينوني وإن صدفتم فقوموني » وأن يقول لهم الخليفة الثاني « من رأى منكم في أعواجاجاً فليقوم به » فيرد عليه أعرابي من أوزاع الناس بقوله « لو رأينا فيك اعواجاجاً لقومناه بسيوفنا » وأبلغ وأروع من قول أبي بكر وعمر قول الرسول الكريم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

قبل عرابي أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجري الأمور وفق ما أقرته الثورة من مبادئ ، فـكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الأنثيمة التي كانت تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدلاً وأقلهم علاقة بالسياسة وشئونها؟ .

إذاً فالفرق كبير بين أن يتدخل عربي في شؤون الحكومة وبين أن ينقض
لما حل بقضية وطنه ، وفي هذا الفوضى دليل وطنيته ووطنيّة كل غاضب معه ...
لقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ،
بل لقد كان ذلك عليه مستحيلا وإن لأرجو من الذين خاصموا هذا الرجل في غير
حق والذين خاصموه مضللين أن يستمعوا إلى هذا الرأي الذي أسوقه عنه إلا وهو
أن الحرية كانت من طبعه ، فطر عليها ولم يتتكلفها يوماً أو توجه إليها الحوادث
وهو يجهل كنها ، كما يقول الدين يريدون ألا يدعوا له محمد إلا جعلوها
بالباطل مذمة ...

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذي نقم على الشراكة في الجيش استبداده
فأكثر من الشعب عليهم وكانت الحرية هي التي دفت هذا الرجل إلى أن يقف موقفه
الشهود في ساحة عابدين عصر اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ؛ ولسوف
 تكون الحرية هي حافظه إلى ما يتب بعد المذكرة المشؤومة من وثبات ...

ولقد استوثق بذلك كما أسلفنا حينما اتصلت أسباب الودة بينه وبين
عربي ، وبين كيف ازداد عربي محبة له إذ علم بالصلة بين أسرته وأسرة
اللورد بيرون ...

وكيف يمجده هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية إلا أن يكون هذا تجاهوا
بين نفس حرّة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ،
فلم يكن حب عربي إيه إذاً مشوباً بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينا كانت وكيفها
كانت جنسية الداعين إليها وكيفها كان دينهم ...

ولنعد إلى خطبته التي ألقاها في محطة مصر ؛ لقد أفصح فيها وهو يتجملها عن
كثير مما كانت تنطوي عليه نفسه . والخطيب في مثل ذلك الموقف الحماسي ينسى
نفسه فلا يملك التتكلف والتتصنع ، بل لقد يكشف الخطيب عمما يريد أن يغطيه
إذا نسى نفسه في رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعاً . قال عربي
« البلاد تحتاج إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت

مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه » ... وقال « وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتدى بنا من يطلبه من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم المدوه والسكنية »

وقد صر بنا رأى بنت عن حبه للحرية ، ونورد هنا رأى جون نينيه^(١) وهو رجل سويسري حر عاشره وعرفه معرفة خبرة ووثيق كما عرفه بنت قال « كان أحمد عرابي رجالا مستقيما وصادماً لوطنه ، وشغوفا بالحرية ومؤمنا بالحق ، وخطيبا فصيحا ، وكادت شهرته تبلغ شاؤ غاريبولدي »

إينا لنرى في هذه الأدلة على حبه للحرية من القوة ما لا تجده معه مكارة ؟ وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ، ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

إننا بلد لا يهدى غنيا الفنى المنشود في الرجال ، وهذه حقيقة ثبتها والألم يرمض جوانحنا ، فكيف نرضى مع ذلك أن نشایع أعداءنا فلا ثبت في سجل رجالنا هذا الرجل الذي يحق لنا أن نفخر به ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن أن ينظروا وهم بقصد قضية استقلاله إلى هذا الرجل نظرهم إلى زعيم جاهد في الوطن حق جهاده ، وأن يكفووا عن تلك النظرة الفاتالة التي تصوره رئيس عصابة من الأوزاع والممتع لا يسيرون على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن أن يفطنوا إلى أن الاحتلال هو الذي صور عرايا هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك وجوده ؟ وأنهم بعجارتهم الاحتلال وصنائعه إلى يومنا هذا فيما ادعى إنما يثبتون على أنفسهم الففلة ويسيئون إلى رجل ما فكر يوما في الأساءة إلى وطنه ؟ رجل إن كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وإن فاته

(١) العبارة من ترجمة الأستاذ محمد اطفي جمه

النجاح فقد عظم في سبيل النجاح بلاه ، في حين قد قل في المحن نصراوه ،
وتمدد غدة الروع أعداؤه ...

لا جناح على عربي أن يمود إلى ميدان النضال في سبيل المبادىء التي اعتنقها
المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها ، بل إن ذلك لا غيره ما كان ينتظر منه ،
وما كان ليقبل منه قمود ؛ ولو أنه وقف في جهاده عند ثباته الجريئة يوم عابدين
لحق عليه ما نسبه إليه خصومه من النزق والسير على غير هدى ...

ومن أعجب ما يسمعه المرء من أقوال هؤلاء الحضور قولهم لقد أحبت مطالب
الجند على نحو ما كان عربي نفسه يحب فما عودته إلى التدخل فيما ليس من شأنه ؟
وأى غفلة أشد من هذه الففلة ؟ وإذا كان مثل هؤلاء يجهلون حقيقة الثورة المرادية
هذا الجهل المميم فكيف السبيل إلى إقناعهم ؟

وهاهم أولاء الوطنيون يسقطون شريفاً ويتمسكون بحق مجلس الشوري
بالنظر في الميزانية وقد رأوا من أعداء البلاد غدرهم الأثيم فهل ترى هؤلاء بالفوضى
والشطط ؟ وإذا كنا نسمى عملهم تحمساً وغيره وطنية فلم تستكتر ذلك على عربي
وقد غضب كما غضبوا وتحمسوا كما تحمسوا ؟

سيعود عربي إلى الجهد فيقف في وجه الدولتين الطامعتين ؛ وسيسير زعيم
الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادي ليذود عنه في رسالة جريئة وحافظ
على وفق ما توجبه الوطنية والرجولة ؛ وهذا لامر الحق ما كان يطلب منه في مثل
هاتهik الظروف ، أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسيبله إليه محدودة بمحدود
طبعته ومقداره ؛ ولقد يتوفّر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد معه يعتقد أنه قبل
وقوعه حقيقة لا سبيل إلى الريبة فيها ، ثم ينظر فإذا تلك الحقيقة خيال أو دون
الخيال ؛ ولكن أخطأ قائد أبلى مثلما أبلى عربي فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر
كما جلت أخطاء عربي ظلماً وعدواناً على معانٍ الخيانة والمطامع الشخصية ...

حسب عربي أن يجاهد وأن يقاتل وأن يثبت للدنيا أن في مصر من يذود
عنها وعن الحق بالسيف ...

عرب الوزير

اختير عرابي وزيراً للجهادية في وزارة البارودى ، وجلس هذا الفلاح على الكرسي الذى كان يجلس عليه بالأمس القريب رفقى الشركى ؛ وكان صيت عرابى في البلاد قد بلغ غايته ، وكان بيته كائناً وكم ذكر بلنت مفزع المظلومين ومتجه المجبين المؤمنين بحرية هذا الوطن ...

وكانت سياسة جبئتا قد صُبّفت بالصبغة الدينية عند المصريين ، وقر في أذهان الناس أنه كان مدفوعاً في سياسته بكراهيته للمسلمين ، وخوفه أن ينهضوا وتنقى بهم أواصر الأخاء فيكونوا بذلك حائلًا بين فرنسا وبين أطماءها في الشرق ، ويفسر بلنت نفسه مسللاً جبئتا هذا التفسير ، ويقول إن من نتائج المذكرة أن بات الناس يتوجهون نحو السلطان كنقد لهم ، وأصبحوا ينظرون إلى عرابي أنه عضد السلطان في مصر والحسن الذي تختتم فيه الآمال بعد أن يثروا كل اليأس من توفيق ...

ويظهر أن عرابياً كان يعيل من زمن إلى أن يجعل من خطته الاعتماد على السلطان ، ولم بلنت فهم ذلك من أحاديثه معه ؟ نجد إشارة إلى ذلك في قول بلنت عن آثر المذكرة المشتركة « وجد المصريون أنفسهم لأول مرة مرتبطين كل الارتباط فإن الشيخ محمد عبده ومن معه من المعتدلين من أنصار الإصلاح الأزهريين ألقوا بأنفسهم في زمرة الحزب الذى سبقهم بخطوات ، وشعر الناس جميعاً حتى الشراكسة شعور الاشتراك من التدخل الأجنبي ؛ ومن ناحية أخرى فإن أشد الناس نفوراً من الأتراث من عنصر القوميين ومنهم صديق الأزهري الشيخ المجريسى ، أصبحوا يرون أن عرابياً كان على حق في اعتماده سراً على السلطان ... وبهذا كسب عرابي كسباً عظيماً في ذهب الصيت والتوفير ، ولم أسمع لعدة أيام بعد ذلك من أصدقائى المصريين إلا الكلام عن الجامعة الإسلامية » .

وأنعم على عرابي برتبة الباشوية ؟ وهو يقول إنه قبلها هذه المره كارها ، فلولا أن المنصب كان يقتضى قبولها ما قبلها ؟ وأما عن قبولة المنصب ، فما نظن أنه كان يستطيع أن يبق معزلا عن الوزارة وقد صار له في سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين ؟ وإننا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلا لقبوله منصبا من المناصب ، ويتخذون ذلك القبول دليلا على أنه يبتغي الخير لنفسه خسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميعاً وسيلة إلى إشباع المطامع وجلب المنافع ؟ وأى شيء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شيء يمنع من أن تكون المناصب عند بعض الناس وسيلة لتحقيق غاية جليلة شريفة هي العمل للصالح العام ؟ ... وأى قرينة تمنع أن نسلك عرابياً في سلك هؤلاء الداعين إلى الخير العام ، الذين يتأخذون من المنصب أدلة لخدمة المجتمع ؟ إن أبسط قواعد العدالة تضع التهم على قدم المساواة مع البريء حتى تثبت إدانته ، فأية إدانة يلصقها بعرابي أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؟

لهم إذا يهمونه بالسمى لصالحه هو لا يمدون بذلك حد التهمة ، فله على أسوأ الفروض موضع البريء من العدالة حتى تثبت إدانته ، وما أيسر أن تكال التهم لأى فرد من الناس في غير حساب ، وما أصعب البينة على الذين يفتررون الكذب وهم يعلمون ...

إن الذين يرون في الحكم مغنا لهم ، إنما هم أولئك المفرطون في حقوق أو طاغتهم المؤلون للدخلاء فيها ، والمستضعفون من الرجال ، والذين في قلوبهم مرض ، والفترون بأوهام الحياة والمالئون بطوفهم كانوا كل الأنعام ؛ أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع أنفـهم الحياة الدنيا وزينتها ، ولن تقـلـهـمـ الحـيـةـ فـقـلـوبـهـمـ ماـيـحـلـيـ بهـ الأـغـارـ صـدـورـهـمـ منـ أـوـسـعـةـ ، أوـ تـرـدـهـ فـنـوـسـهـمـ الـكـبـيرـةـ الأـلـقـابـ وـالـرـتـبـ ، أوـ يـزيـغـ بـرـيقـ الـذـهـبـ أـبـصـارـهـ عنـ الـحقـ ، لأنـ هـذـهـ جـمـيعـاـعـدـهـ مـظـاهـرـ وـهـمـ يـحـتـقـرـونـ كـلـ مـظـاهـرـ إـذـ يـطـلـبـونـ الجـوـهـرـ . وـمـنـ كـانـ فـيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ كـبـيرـاـ

بنفسه فما به حاجة إلى أن يتكبر ، ومن تكبر وهو بنفسه صغير ، فلم يعُدْ أن أضاف إلى حقارته نفسه ما هو أحقر .

ولو كان عربي من ذوى الأطاع الشخصية لرأيناه يتكب طريق الجهاد ، ولرأينا الضعف يتسرّب إلى نفسه ففتّر حيّته وتبوخ وطنّيته . وما ضعف عربي وما استكان حتى بما مني به من محنة يوم التل الكبير لا بأيدي الآمرين الطامعين من الأجانب فحسب بل بأيدي الخوازين المارقين من بني الوطن ، وظل حتى هزّعه الرجل الذي يخشى جانبه وتتقى غضبته ، ولقد رأينا كيف أرسل إليه مالت يحاول أن يهدأ خطّره عقب المذكرة المشتركة ؛ ولو أنه كان ممن يشترون بالمال لأمكن شراوه كما اشتري بعد ذلك سلطان مثلًا ذلك الذي كان ي逞ّاً باهظًا من أكبر أنصار الحركة القومية ؟ ولكن عربياً كان مؤمناً بجهاده مخلصاً لقضيته فارتضى أن يخوض خمار الموت وأن ينفي بعد ذلك من الوطن وأن يسلب جميع ما ملك .

ورفض عربي أن يكون ولیاً لذوى الغایات والأطاع ؟ جاء في مذكرة عن نوباريasha قوله «أرسل إلينا أحد قبودان البكري من موظفي بوغاز الإسكندرية ليشكّرنا على إنقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدّين ويعرض علينا أنه مستعد لأن يقود حركة كتنا الوطنية بصفّ رأيه إذا دعوناه إلى رئاسة الحكومة واعتمدنا عليه وسلّينا أمورنا إليه ، فمجيئنا لذلك ؛ وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر لمصريين ، وللتزلّاء عندنا حسن الضيافة ومتّيـد الإكرام . وإننا لا نجهر الأدوار التي نعيها نوباريasha في مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية ، وفي مسألة تشكيل المجالس المختلفة في مصر ، تلك المجالس التي صرف عليها ١٢ مليوناً من جنيهات من أموال المصريين المساكين على يده وبسميه ، وكان هو أكبر مساعد مستبدّين وله الحظ الأوفر من تلك الفئائم » .

ويذكّر كذلك عن البارودي أمراً خطيرًا قال «وفي أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمففور له محمود باشا سائى ناظر الجهادية فأطّلب في الثناء على كبيراً

لقياني بنشر راية الحرية في مصر وملحقاتها من بعد مضي خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون في قيود الاستبداد والاستعباد ؛ ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي حياته ويجد آخر نقطة من دمه في تنفيذ رغبتي ، ويجرد حسامه وينادي باسمي خديوياً لمصر إذا رغبت في ذلك ؟ فقلت له مَاهِي محمود باشا فإني لا أريد إلا تحرير بلادى ولا أرى سبيلاً لنونا ذلك إلا بالمحافظة على الخديو كا صرحت بذلك صراراً وتكراراً ؛ وليس لي طمع أصلاً في الاستثمار بالمنافع الشخصية ؛ ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية إلى عائلة أخرى لاف ذلك منضرر » .

ولقد كان عربي كبير النفس كبير الآمال ، فكان النصب عنده وسيلة من وسائل الجهاد وباباً من أبوابه ، فما يعييه أن يقبل الحكم ، وإنما يعييه أن يعرض عن الحكم وبخاصة في مثل تلك الشدة التي ساق فيها الطامعون البلاد على غير إرادتها ، والذى يهدى قبول الحكم فيها تأهباً للنذور عن ثورة الحق على الباطل .. على أن الناس ما كانوا ينظرون إلى عرباب نظرتهم إلى وزير من الوزراء خحسب ، بل لقد كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه ؛ وكانت تقوم نظرتهم إليه على ما يلوا بأنفسهم من إخلاصه ، وما شهدوا من بسالته وجميته وبخاصة في يوم عابدين المشهود ، وعلى ذلك فما زاده المنصب في أعين الناس ما يطلبه غيره ليزداد به من مظاهر الجاه ، وأى شرف يطمع فيه الرجل أعظم من أن يكون في بني قومه معقد الرجاء وموضع الثقة ..

ولقد كان عربي في الوزارة إذا أردنا الحق أكثر من وزير ، فكانت الكلمة كلتها وكان الرأى رأيه أراد ذلك أو لم يرده ؛ ونقول أراده أو لم يرده لأنه بات في الزعماء رجالاً ليس لأحد مثيل ماله في قلوب الناس من مكانة وسحر ... وهل كان سعد في كرمى الرياسة كغيره من رؤساء الوزارات ، ليس لشخصه من تأثير في قلوب الناس إلا ما تمته هيبة المنصب ورهبته ؟ أم كان سعد في الناس رجالاً غير ما ألفوا ، تحف به هالة من أمجاده فتخلق له شخصية وسطاً بين الملايين

وألا الناس ؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئاً في أعين الناس أم أن المنصب هو الذي ازداد به علواً ومهابة ؟

على هذا القياس صور لنفسك شخصية عربي بين قومه يومئذ فلقد صار له من المكانة بعد يوم عابدين مثل ما صار لسعد من بعد في قومه ، فهو الرجل الذي تمثل في شخصه ثورة أمة ويجتمع فيه تاريخ حركة ، لذلك فهو بين الناس أكابر من أن يكون أحدهم ، تحيط به حالة من السحر تلق في روح محمد أنه تلقاء تاريخ يحدث أثره لا تلقاء رجل يعيش كما يعيش الناس ...

أما الفلاحون وأعيان البلاد من كانت تفاصيل أقدار الرجال عندهم بالألقاب والمناصب ، فقد كبر عربي في أعيانهم وازداد قدرأً في أنفسهم ، وأصبح هذا الفلاح الباشا الذي يجلس على كرسي وزارة الجمادية موضع أحابيبهم كلما تذكروا فيما بينهم أحداث البلاد في ذلك الوقت .

ولست أريد بقولي إن الرأي كان رأيه أنه كان يستبدل بالأمر ، أو كان يأخذ السبيل على البارودي فيما يريد من قول أو عمل ، وإنما أريد أن البارودي وغيره من الزعماء ما كانوا يخطون خطوة إلا على يينة مما يكون فيها مما عسى أن يرضي عربياً أو يغضبه لأنه بينهم ، وإن لم تسكن له الرياسة الرسمية ، الزعيم الذي تشارعه البلاد ، والذي استقر في أذهان أهلها وقلوبهم أنه موضع الأمل ومناط الرجاء ...

وقد بدأ عربي بآثا عمله في الوزارة بارسال مكتوب إلى جميع وحدات الجيش يعلن إليهم نباً تعينته فقال « حيث أن مسند نظارتي الجهادية والبحرية الجليلتين قد أحيل إلى عهتنا من طرف الجناب الخديو المعظم بارادة سنوية موشحة بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٩٩٩ نمرة ١١ فاعتقادي ووثيق بمساعدة حضرتكم وعموم حضرات الضباط والصف الضباط والمساكر في القيام بواجبات هذه النظارة مع الاستمرار في سيرها على المحوor اللائق الموافق لنص أحكام القوانين العسكرية ، قد جر أنى على قبول هذا المسند الجليل حالة كونى عالياً بما أنت عليه من وثوق

حضرت الجناب الخديوي بنا ، ولهذا لزم تحريره لحضرتكم إنطلاقاً بما ذكر وإعلان كافة الضباط والصف وعساكر الآلات إدارة حضرتكم وفقنا الله جيماً
لما فيه النجاح والصلاح »

وأخذ عرابي تنفيذ القوانين الخاصة بأصلاحات المسكرية التي كان يطالب بها
رياضاً وشريفاً من قبل ، وتناول بالترقية كثيراً من المصريين في الجيش وقد خطى
بالباشوية كل من على فهمي وعبد العال حلمي وطلبه عصمت وعلى الروبي وحسن
مظهر ويعقوب ساي

وقد تألف المنصر الشركسي لهذه الترقيات ، وعددها زعماء الشراكسة صورة
من صور الفوضى والتتصب في الوزارة ، لأن النظام كل النظام أن يرقى
الشراكسة ، وأنا أن يرقى المصريون الفلاحون فذلك هو التتصب المذموم وهو
الفوضى الجائحة

ولن يقتصر هؤلاء الشراكسة على الصخب والعيب ، بل سوف يعملون
على الانتقام ، كأنما كان المصريون يسلبونهم حقاً من حقوقهم ؛ ونسى هؤلاء
أو ننسوا ما كان يفعل رفقى من قبل

وأنجحه عرابي إلى إصلاح شأن وزارة فبعث فيها النشاط والجدة قال روستين
« وقد جد عرابي بنوع خاص في إصلاح نظارته التي كانت في منتهى الفوضى
والخراب ، وذلك ليستعد للطوارئ كالمأهولة بهمة فائقة في إصلاح حصون
السواحل ، ونظم احتياطي المدفعية ووزعه على تلك الحصون »

وأحسن عرابي في منصبه الجديد الظهور بعاظهر الوزير في غير صلف أو ادعاء
وصفه بلنت حين زاره بعد أزمة المذكرة يحمل إليه بما وساطته لدى جلاستون
قال « قفلت راجعاً إلى القاهرة في سرور وقد تسلحت بما علمته من حسن نية
جلاستون واستطاعت أن أخبر عرابياً أنني لم أؤكده عواطفه نحوه شيئاً ؛ وقد
وجدته في ديوان وزارة الخارجية يحيط به أصدقاء ، وكان يتحدث مع بطريرك

الأقباط؛ ومع طائفته من أهل الملك من الأوروبيين وأجناس شرق البحر الأبيض المتوسط من جاءوا يحيون هذه الشمس المشرقة؛ وقد ظهر فيهم الوزير الجديد في حسن سمت وسو كاتابه لاتفاقين؛ فلم يلبث بعده ذلك الجندي قائد الفرقة، ولكنه أُنْجى رجلاً تُقتل، مشاعره بالمسؤولية العامة؛ وكان لا يزال بعده فلا أحد ولا زال وطنياً ولكن في صورة الرجل السياسي؛ وقد انتهى في جانبي فأطلعته على كتاب جلادستون وقلبناه بيننا في سرور وعددهناه رسالة ذات فأل طيب «



وَظِنْيَةُ لَأَرْزَقَ

حل البارودى محل شريف وفى البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بینا دليلاً على سوء تدبیر واضعيبها وعلى قصر نظرهم ورعاونتهم؛ ولكن ما لنا نشير إلى قصر نظر الدولتين فيما فعلنا ونحن لا يتداخلنا شئ فى أممما كانتا تربان عاقبة فعلهما، وأنهما إنما أرادتا إثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والمسكريين، فبهذا يتيسرون لها الوصول إلى الترضي الرسمى ...

وكان طبيعياً أن يسير البارودى على نهج غير الذى سار عليه شريف، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين، وبحكم الظروف التى أدت إلى استقالة شريف، لم يكن ليستطيع أن يحمل نفسه على الموافدة والملائحة، وإلا فقيم كان إخراج شريف ثم إخراجه من الحكم؟ ... والأمر قبل كل شيء أمر كرامة الوطن تلقاء تحدى الأجانب وتحريشهم السخيف الآثم بحريته ...

ومن ذلك يتبيّن لنا أن البارودى لم يكن له منتصح عن السياسة التى جرى عليها، وأن صردها في الحق إلى مسلك الدولتين وعلى ذلك فن الظلم إن زرع باللوم كله على تلك الوزارة فيما أبدت من تطرف، فإن جانبها كبيراً من اللوم، بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفموا الوزارة بقبیح تدبیرهم وسوء نيتهم في تلك الطريق التي ما لبست أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة تدخل في أزمة غيرها.

وهكذا تدفع الدولتان البلاد في طريق الثورة دفماً ثم تتهماها مع ذلك بالفوضى وتحملان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلقل الداخلية وإنما لمن صنعتهما ... ولن يكون في صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوف

فوق رأسه فإذا تأوه ونفر من ألم الفرب عد تأوهه جوحًا ونفوره ثوره ! ..
كان على وزارة البارودى من بادىء الأمر أن تواجه أزمة الميزانية ، وقد
نجحت هذه الأزمة كارأينا من تجلى الدولتين على البلاد ومن غضب نواب الشعب
لكرامة بلادهم واستمساً كهم بمحقهم تلقاء باطل أعدائهم ، وكان من الطبيعي أن
تعمل وزارة البارودى ، أحد الزعماء العسكريين ، والتي كان عرabi نفسه أحد
وزرائها ، على تحقيق آمال البلاد ، بل لقد كان أمراً حتمياً على هذه الوزارة أن
تفعل ما كانت مقدمة على فعله ، فعلى هذا الأساس كان قيامها بالحكم ...
وما أسف كلام البطلين وأرذله تلقاء هذه الحقيقة التي تنهض الحوادث
ديلاً عليها ! أجل ما أرذل أن ترى وزارة البارودى بالنزق والعناد والرغبة
في إثارة الفتنة ، كالذى يأخذ على شخص طريقه في غير مبرر فإذا طلب إليه أن
يخل سبله انهره وتوعده ، فإذا خطأ خطوة ليتقدم رماه بالشطط والجنون وخوفه
عاقبة أمره ! ...

لقد قامت وزارة البارودى على إرادة الأمة ، لامرأة في ذلك ؟ فإن النواب
حيثما أظهروا لشريفهم أن يكون الجيب لطالبيهم رجل غيره ، وحيثما ذهبوا
إلى الخديو يشككون إليه حالمهم كانوا معينين في ذلك عن مشيئة الأمة ، وآية ذلك
أن الخديو لما سألهما بأى حق يطلبون إقالة شريف قالوا : هذه إرادة الأمة .
ولم يسمع الخديو إلا أن يذعن ، ولكن على طريقته في الإذعان ريثما تسنح
الفرصة ، فدعوا شريفاً وقنصليين الأجنبيين وعرض عليهمما الأمر ، فلم يكن أمام
شريف غير الاستقالة ؛ ثم إن الخديو سأل زعماء النواب عن رضونه لرئاسة
الوزارة ، فبعد أن يبنوا له أن ذلك من حقه اختاروا البارودى واشترطوا أن يكون
قيام وزارته على أساس إجابة مطالب النواب ^(١) .

ولقد أضاف الخديو إلى خطأه خطأ جديداً بقبوله هذا الوضع ، فمن حقه
وحده اختيار رئيس وزرائه ولكنه خطأ حتى هذه الخطوة باشرارة القنصليين ، فلقد

(١) مقدمة كتاب التاريخ السرى ترجمة البلاغ والمقدمة بقلم الأستاذ عبد القادر جزء .

أوهاء أن في هذا خيراً له ، فيه يخلو من التبعة ويلقها على عاتق النواب والزعماء ...
ولكنهما كانوا في الواقع يريدان أن يوسعوا مسافة الخلف بين الخديو ونواب البلاد ،
ومن السهل عليهما أن يوحيا إليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس
له من الأمر شيء ...

على أن مالت وكلفن وأشياعهما لما لبتوه أن راحوا يذمون المفتريات في مصر وفي
أوربا عن الوزارة ويرمونهما بكل باطل من الاتهام ، فهى وزارة عسكرية لا تعرف
سياسة أو تنظر في عاقبة أمر من الأمور ، وإنما قوام أعمالها العنف والثورة ، وهى
وزارة لا تخسب لأى سلطة غيرها حساباً فليس للخديو وجود فعلى بازيمها ، وليس
للاجانب على مالهم من ديون في مصر حق أو شبه حق ... إلى غير ذلك من
اللغو والإفك ...

أما عن عراي نفسه فقد خرج بأوفر نصيب من التهم الباطلة ، ومن هذه
التهم ما عزمه إليه جريدة التيمس من أنه تهدد شريفاً ، وأنه ثهر سيفه في وجه
سلطان وهدده بتنقيمه أطفاله في مسددة الخلاف على مسألة لائحة المجلس ، ولقد كان
مالت من صاروجي هذه الأشاعة ومن التمسكين بها ، بل لقد ذهب مالت إلى
أكثر من هذا فأثبتت في يومياته كذلك أن الخديو ما قبل استقالة شريف إلا تحت
تأثير تهدد لا يقل عن هذا ...

ويذكر بذلك أنه يرجح أن الخديو هو مصدر هذه الفرية لما كان يبدو منه
يومئذ من بالغ الحقد على الوزارة ، وقد أصبح لهذه الفرية خطراً حين أرسل
مراسيل روبرت إلى أوربا يزعم ضفت العسكريين على شريف ...

قال بذلك « ومع ما يبدو من سخف هذه القصة فقد غضب منها سلطان غضباً
شديداً ، ولما كفت يومئذ معروفاً لدى النواب بأنى صديقهم طلب إلى سلطان
لقائه وسائلى أن أحمل إلى مالت إنكاره القصة كلها إنكاراً تاماً ، وعلى ذلك
توجهت إلى بيت سلطان باشا حيث جمع عدداً كبيراً من النواب ومن عليه القوم
رمن بين هؤلاء المفتى الأكبر العباسى وعبد السلام الوبالجى باك وأحمد السيوفى

بات وأحمد محمود أفندي وهام حمادى أفندي وشديد بطرس أحد كبار نواب الأقباط وقد أنكر هؤلاء جميعاً مع سلطان أفهم عملاً تحت أي إكراه ، وتكلم سلطان في غضب عن سخف القصة فيما يتصل به قائلاً إن أحمد عرابي يثابة ابن لى ، وهو يعرف ما هو من حق وما هو من حقه ، فشكاني في البرلمان ومكانه في وزارة الحربية وجدت به أن يطلب نصحي لأن يجرؤ على أن ينصحني فيما يعيقني من الأمور ، وأما عن شهرة السيف في حضوري فإنه لا يفعل ذلك إلا لقاء عدو يهاجمني ، وهذه قصص لا يصدقها من يعرفنا كلينا وإنها لماطلة كل البطلان وتستطيع أن تأخذ على اليقين أن أقل عضو هنا من يمثلون الشعب أحسن حكماً على مطالبه من أكبر جندى . إننا نحترم عرابياً لأننا نعرفه وطنياً وجلاداً فطنة سياسية لا لأنها جندى . وقد أثبتت كلام سلطان باشا هذه في حينها ، وقد اشتكت إلى هذا الشيخ من سياسة مالت وتعضيده مخترعى الأباطيل وطلب مني أن أطلعه على الحقائق وأن أبرقها إلى جلادستون وأذيمها في الجرائد الأولية وقد فعل ذلك على خير ما يدخل في وسمى ، فأرسلت نصاً كاماً منها إلى « التيمس » ومع ذلك فانها على ما ذكر لم تنشره لسبب ما ، وكذلك أرسلت تأثيراً بالمعنى نفسه إلى مستر جلادستون ، ثم كتبت إليه كتاباً مطولاً أشرح فيه الموقف كله .

وذهبت من فورى إلى مالت وناقشتة في شدة ولكننى أصر على صدق قصته التي استقاها كما أخبرنى أول الأمر من سلطان نفسه والتي عاد يقول إنه استمد هامن يمكن الاعتماد عليه ، ولما أحتجت عليه أن أعرف من هو المصدر غضب وقال إنه ليس لي من حق أن أستجوه على هذه الصورة »

هذا هو كلام بلنت عن هذه الفريدة ، وما أجمل ما وصف به سلطان عرابياً فهو لا يحترمه لأنه جندى ولكننى يوقره لوطنيته ولقدرته السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أو تعلق ، فقد كان أكبر من أن يخاف أو يتملق ، وهو بطبيعة شديد الكبر كثير المباهاة بمحاهه والاعتزاز بثروته بل إن صدور هذا الكلام عن رجل هذه صفاته إنما يزيد في قيمته ويجعل منه

وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرّابى إلى قراءتها في روية وحسن طيبة . .
ويذكّر بذلك أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب ما ، والأمر بين لا يحتاج
إلى طويل شرح ، فالتيمس وأخراها من الصحف الإنجيزية تخدم قضية الاستعمار
أبداً ، وهي خير من يدرك نيات الساسة في بلدها وأول من يطلع على حقائق
الأمور ، فلم تكن تجاهل يومئذ ما كانت تبيّنه إنجلترا لقضية الأحرار في مصر ،
بل وما كانت تنتوّيه السياسة الإنجيزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولي
عليها فرنسا ، ولذلك فما كانت تنشر رأياً مثل هذا الرأي يأتي على لسان رجل
مثل بذلك فيكون به من الإنجليز شاهداً من أنفسهم عليهم

* * *

ف مثل هذا الجو الذي كدرته دسائس الماكرين والطامعين ، راحت وزارة
البارودي تعالج ما كانت تشكو منه البلاد ، ومن ورائها نواب الأمة يشدون أزرها
وأنهم ليعلمون ما كان يحيط بوطنيهم من الكيد والأعنة
وأحس البارودي من أول الأمر بتزايد الجفاة بينه وبين الخديو ، فما كان
ليسعي توفيق أن يصبح الأمر بينه وبين الوزارة قائمًا على غير ما ألف من مبادئ
السيطرة ونوازع الاستبداد ؟ ولكن الوزارة استعاضت عن معونة الخديو بوزارة البلاد
وكان أول ما واجهته الوزارة تلك المشكلة التي خلقها السكادون وهي مسألة
الميزانية ، أو بعبارة أخرى لائحة المجلس التي استقال بسببها شريف أو أجر في
الحق على الاستقالة . .

ويحمل بنا أن نأتي بالحديث على سرده في هذه المسألة لتتبين إلى أي مدى كان
افتياض الدولتين على البلاد ، وليري الذين رموا حركها الوطنية ورجلها بمختلف
التهم مبلغ ما في مزاعمهم من جهل أو عدوان . .

جاء في خطاب شريف باشا الذي تقدم به إلى المجلس بعد انعقاده قوله « فإنه
لم يمحجر عليكم في شيء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، إنما
لا يخفى لكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات

الأجنبية بها ، ونشأ عن ذلك تكاليفها بترتيب مصالح ، وتعهداتها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بمقدور خصوصية ، والبعض بقانون التصفية ، فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعًا لنظرها أو نظر النواب؟ حاشا لأنه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشيء ما ، حتى نصلح خللنا ، وتزداد ثقة العموم بنا ، ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية ، ومتى رأت منها تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن إخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه؟

بهذه الكلمة مهد شريف خطته فيما يتعلق بلائحة المجلس ، أو ما نسميه دستوره وبخاصة فيما يتصل بالميزانية ثم جاءت اللائحة تحرر على المجلس النظر في الميزانية ولقد كان المجلس يطمع في أن ينظر في الميزانية مادام هو القائم على حقوق البلاد ولكن المحكمة قضت عليه أن يتواضع فيقبل كأسلافنا النظري نحو نصف الميزانية وهو القدر الباقي بعد الجزية وما يقتضيه قانون التصفية ، ففعل ذلك ولكنه لم يف والأسفاء من حكمته شيئاً ، فقد كبر على الدولتين أن ينظر المجلس حتى في هذا القدر فرمته بالذكرة المشوهة التي كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المتدينين وثورة المتطرفين والتقاؤها جيماً ، وتنسكمها بالنظر في الميزانية منها يكن من الموابق ، الأمر الذي طاح بوزارة شريف وأحل محلها وزارة البارودي ...

وجاءت وزارة البارودي فلم يكن أمامها إلا طريق واحدة ، هي السير وفق رغبة النواب والرأي الوطني العام في البلاد ، نفحت هذه الخطوة معتمدة على حقها مستندة إلى مؤازرة الأمة إياها ، فكان ما قررته في مسألة الميزانية ما يأتي : « لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفقات الوركوا المقرر للاستانة أو الدين العمومي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية »

« وترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ، بمراعاة البنود السابقة ، ويدين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأي لأعضاء مجلس النظر

ورئيشه ، لينظروا جيماً في الميزانية ويفرروها بالاتفاق أو بالأـ كثـريـة «
ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التي تقدمت بها إليه وزارة البارودى ،
وكان هذا الرأى الأخير أعنى تكون لجنة من أعضاء المجلس مساوية في المدد
لأعضاء مجلس النظار قد عرض كل من الخالول على وزارة شريف ، فأبـتـ الدـولـاتـانـ
قبـولـهـ ، فـلـمـ قـضـتـ وزـارـةـ الـبـارـودـىـ فـإـلـأـمـ حـسـبـ مشـيـةـ التـوـابـ ،ـ ثـارـتـ ثـارـةـ
الـدـولـاتـ الـلـتـيـنـ جاءـتـ لـنـشـرـ رـوـحـ الـمـدـنـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ فـيـ الشـرـقـ ..

ولقد جعلت الوزارة الأمر الـلـامـةـ فيما إذا وقع خلاف بين المجلس والوزارة ،
فنـصـ فـيـ دـسـتـورـ الـجـلـسـ أوـ لـاـنـخـتـهـ الـأـسـاسـيـةـ ماـ يـأـتـىـ :ـ «ـ إـذـاـ حـصـلـ خـلـافـ بـيـنـ
مـجـلـسـ التـوـابـ وـمـجـلـسـ النـظـارـ ،ـ وـأـصـرـ كـلـ عـلـىـ رـأـيـهـ بـعـدـ تـكـرـارـ الـخـابـرـةـ وـبـيـانـ
الـأـسـبـابـ وـلـمـ تـسـتـعـفـ النـظـارـةـ فـلـلـحـضـرـةـ الـخـدـيـوـيـةـ أـنـ تـأـمـرـ بـفـضـ مـجـلـسـ التـوـابـ
وـتـجـدـيدـ الـاـنـتـخـابـ عـلـىـ شـرـطـ أـلـاـ تـجـاـزـ الـفـتـرـةـ تـلـاثـةـ أـشـهـرـ مـنـ تـارـيخـ يـوـمـ الـاـنـفـضـاضـ
إـلـىـ يـوـمـ الـاجـمـاعـ ؛ـ وـيـجـوزـ لـأـرـبـابـ الـاـنـتـخـابـ أـنـ يـنـتـخـبـوـ نـفـسـ التـوـابـ السـافـينـ
أـوـ بـعـضـهـمـ »

«ـ إـذـاـ صـدـقـ الـجـلـسـ الثـانـيـ عـلـىـ رـأـيـ الـجـلـسـ الـأـوـلـ الـذـىـ رـتـبـ الـخـلـافـ عـلـيـهـ
يـنـفـذـ الرـأـيـ الـذـكـورـ قـطـعـيـاـ »

وقد فـرـحـ التـوـابـ ،ـ وـفـرـحـ النـاسـ جـيـعاـ مـنـ وـطـنـيـنـ وـعـسـكـرـيـنـ لـصـدـورـ الـلـائـحةـ
أـوـ دـسـتـورـ ،ـ وـأـخـذـتـ مـصـرـ تـسـتـقـبـلـ عـهـداـ دـسـتـورـيـاـ كـانـ يـعـدـ بـدـاـيـةـ طـيـةـ جـداـ
لـلـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ مـصـرـ بـلـ وـفـيـ الشـرـقـ كـلـهـ

وـيـتـجـلـيـ فـرـحـ مـصـرـ فـيـ تـلـكـ الـحـفـلـاتـ الـتـيـ أـقـيمـتـ غـدـاءـ صـدـورـ الـدـسـتـورـ ،ـ وـمـنـهاـ
حـفلـةـ جـمـعـيـةـ الـقـاصـدـ الخـيـرـيـةـ وـكـانـ بـالـغـةـ الرـوـعـةـ وـالـجـلـالـ وـقـدـ شـهـدـهـاـ الـبـارـودـىـ
وـعـرـائـىـ وـجـهـورـ كـبـيرـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـأـعـيـانـ وـرـجـالـ الجـيـشـ ،ـ وـتـبـارـىـ الـخـطـبـاءـ وـفـيـ
مـقـدـمـهـمـ السـيـدـ عـبـدـ اللهـ نـديـمـ فـيـ بـيـانـ مـزاـيـاـ الـدـسـتـورـ وـإـلـانـ اـبـهـاجـ الـنـفـوسـ بـهـ ،ـ
وـالـشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ الـذـيـ دـعـىـ إـلـىـ نـشـرـ الـتـعـلـيمـ لـيـقـومـ الـدـسـتـورـ عـلـىـ أـسـاسـ مـلـيمـ قـويـ .ـ
وـمـنـ تـلـكـ الـحـفـلـاتـ حـفـلـتـاـ نـائـيـ الـبـحـيرـةـ الشـيـخـ أـمـدـ مـحـمـودـ وـإـبرـاهـيمـ أـفـنـدـىـ الـوكـيلـ

ثم حفلة أحد بـك أباطحة وحفلة أحد بـك يكن وغيرهم ، وبدل هذه الحفلات دلالة يينة على أن روح الحرية والدستور كانت متقللة في نفوس مثقفي الأمة ، وأن البلاد كانت تنهض فيها حركة قومية حرة لوانها حدثت في بلد غير مصر لم يرزا بالاحتلال لكان لها في سجل الحركات القومية العالمية شأن جليل ، وما يعنينا اليوم ما فعل الاحتلال بتاریخنا القوی ، وقد خطوا خطوات لن يكون بعدها نكوص ...
رأينا الحل الذي عالجت به وزارة البارودي مشكلة الميزانية . ذلك الحل الذي من أجله حققت عليها امنية الدولتين ، وحق عليهم عقابهما ، مع أنه لا يمكن أن يكون هناك تساهل في مثل هذا الأمر وفي مثل هاتيك الظروف أكثر من هذا التساهل الذي جرت عليه الوزارة ...

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر في صالحه ، فكيف يتمنى لهم ذلك إن لم يكونوا قوامين على ماليته وهى أساس كل شيء ودعامة كل إصلاح ؟ وكيف يكون الحكم قائمًا على أساس ديمقراطي إذا حيل بين نواب الأمة وبين النظر في الأموال التي تجيء من أفرادها ؟
إذا كانت مصر ظروف خاصة ناشئة من دبوسها التي لم يكن لأهلها يد فيها ، فـأى شيء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يدركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه ؟

ولكن الدولتين كانتا تختاران المجلس خسب مما بلغ من اعتداله وحكمته ؛ كانتا تختارانه فـتحاربان فيه الوطنية المصرية ، لأنها إن ازدادت قوة ضاعت الفرصة وخرجت مصر سالة مما كان يدبر لها ؟ انظر إلى الاحتجاج الذي كتبه الرأياني الأجنبيان في ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ عندما علما بنية النواب في وزارة شريف قالا (١) « يظهر أن مجلس شورى النواب يجهلا لأن يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول : إن إعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الأدارات والمصالح التي تخصص لإرادتها للدين يفسد الغمامات المعلقة للدائنين ؟

(١) تعریف الأستاذ عبد القادر جزء عن كتاب دی فرسیه « المسألة المصرية »

لأنه سيكون من نتائجه الفرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار إلى
يد مجلس النواب » .

ولا تسل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكاذبين لصر على وزارة البارودى
حيثما حلت المشكلة على التحو التواضع الذى يبناه ، فلقد انطلقت ألسنة الساسة
منهم مع السن السفهاء من مراسلى الصحف بكل فاحشة وجراحة في الوزارة
والنواب جيمعا على نحو خلائق بأن تخجل منه الإنسانية ؟ فهذا نظام موضوع بأسره
تحت سيطرة جيش ثأر كاصوره كافن في تقاريره ؛ وهذه وزارة جامعة تسوق
مصر إلى الحراب ؛ وهؤلاء نواب لا يمرون من معانى الوطنية إلا التمتصب
الأعمى فضلا عن جهلهم وضيق عقولهم ...

كتب مالت يصف النواب قائلا^(١) « إن ما يتظاهرون به من طموح إلى
العدل والحرية قد انتهى بأن حل سلطة الجيش الفاشية محل كل سلطة مشروعة »
وقال كوكسون بصف قانون الانتخاب الذى وضعته الوزارة السامية « إن
الفرض منه في هذا البلد أن تكون كل المزايا الانتخابية لمن رشحهم السلطة
الحاكمة الآن وهي سلطة الجيش »

وليس بمحجوب أن يبلغ حتى هؤلاء على الحركة الوطنية القومية هذا المبلغ ،
ذكر الشیخ محمد عبد العبد في مذكرات متابعة مرقة أنتهیا في ورقة علمه كان يجمع فيها
عناصر فضل يكتبه وأوردها بنصها مترجم الشیخ رشید رضا^(٢) .. قال الأستاذ
الأمام « مجلس النواب قرر تعين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على
مصلحة المساحة وعلى إدارة الجمارك وظهرت وجوده الخلل في أعمال الموظفين
الأوروبيين ، وتحقق ما كان يخشى المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض
سيمو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله »
« وقف المجلس على تقرير قدم للمرأقبين من أحد موظفي الدومني المسمى

(١) المأساة المصرية لروئتين

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشیخ محمد عبد العبد الجزء الأول . ص ٢٤٠

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالاً في أن يصلوا بالطفرة إلى ما يقال من حريةهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقيتهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلفراف إلى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب في الحبس ، وهذا ظاهر من الأهالى بالأحوال الجديدة التي يبنون عليها حريةهم وخلاصهم « وأوزع مالت إلى وكالاته في الأقاليم أن يكتبو تقارير عن مبلغ ما وصلت إليه الحال من سوء في البلاد ، وأرسل هذه التقارير إلى حكومته ، وبلغ من الجرأة على الحق ، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين أن كتب يندد بالغاء الكرباج فقال وما أحب وما أسف ما قال^(١) « إن الحكم الشرقي إذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ؟ إن الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام ، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة إلى ما يسمونه له حرية ، فحين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الأمور إلى طائفه من الخياليين النظريين ، جعل أثرها في السلطة على وجه العموم أثر الماء تصبه على قطعة من السكر » .

هذا ما قاله ذلك الأنجلتراى الذى تفتخر دولته بأنها سبقت الدول إلى الحرية ، والتي ما فتئت منذ عهد كرومر في مصر تفاخر بأن معتمدها هو الذى أبطل الكرباج في هذه البلاد !

إذا لنسأل الذين يقرأون هذه المفتريات وأشباهها ، والذين تتبعوا أساليب إنجلترا وفرنسا في الكيد لمصر ، نسأل هؤلاء السادة الذين يعلمون هذا ، ومع ذلك يعيشون على عربي وزملائه تظرفهم ، أكانوا يفعلون غير ما فعل عربي وأصحابه إذا كانوا يحبون أوطنهم حقاً ، وكانوا يعيشون في مصر في تلك الأيام ؟

أما الذين كانوا يجهلون هذه الدسائس التي تبناها إنجلترا في مصر ، وحملوا

(١) المسألة المصرية لروشتن

لهم به على عربى ما حلو بحارة منهم لما أشيع عنه ، فحسبنا أن نريحهمحقيقة
الأمر ونكل المسألة بعد هذا إلى فطنهم وضمائرهم .

وما ندافع عن عربى إلا لأننا نعتقد أنه ظلم ، وأن الذين ظلموه هم أعداء
البلاد الذين استباحوا ذمارها وأحقوا بها الذل والهوان ..

وما يجدر بعصرى وبلاذه فقيرة فقرها هذا في الأبطال أن يشاعر الدين حاولوا
أن يطمسوا بالباطل تاريخ رجل كانت البطولة في مقدمة صفاتاته ، فيصفون وطنيته
ووطنية أحبابه بأنها زق وفوضى ..

ولقد جعل الــكــانــدــون لــصــرــ الجــيــش هــدــفــهــمــ فــيــهــ رــاحــواــ يــشــيمــونــهــ منــ مــفــتــرــياتــ ؟
انظر إلى قول مالت في تقرير له عن « تزايد اختلال الأمن في البلاد لقلة اكتئاث
الأهالى بأوليات الأمور الملكيين » ، ويعزى ذلك إلى سلوك رجال الحزب العسكري
الذين لا يعاملون زملائهم الملكيين بالاحترام الضروري لإدارة البلاد ، وقد أخذت
الرشوة تعود إلى سابق عهدهما بين الموظفين ، مما يساعد على انتشارها كثرة
التفجير والتبديل في كبار الموظفين » .

ثم يقول في وصف ما زعمه من ضيق وقع فيه الفلاحون في سبيل الحصول
على المال « ويجزو للملك فلة رؤوس الأموال وما هم فيه من الضيق إلى سياسة
الحكومة الحاضرة التي لا تبعث على الثقة بها ، ويجهزون بأنهم إذا عجزوا عن
دفع الرسائب فالتبعة واقمة على الوزارة » .

وابيس بمحجوب أن يسلك كافن ومالت وأشياعها هذا المثلث في الطعن على
الوزارة ، وقد أدرك ما كانت تنويه حكومتها من العمل على تعزيز السبيل للتدخل
السلح بعد هذا التدخل السياسي ...

ولقد كانت تلك المذكرة المشئومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم ،
فكان لا بد أن تتفاقم الحوادث بسببها لتصل بالبلاد إلى كارثة الاحتلال ...
كتاب قفصل فرنسا إلى حكومته يوم ٢٩ يناير يقول « إن الرغبة البدائية على
مجلس النواب من جانب ، في أن يصير برلاناً ، والخطة القوية التي رأت الدولتان

من جانب آخر ، أن تختاراها ، والتي كانت مذكرة ٧ ينابر تعبيراً عنها هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منها بالآخر فأوجدا الموقف الحالى « وكتب كذلك يقول « يمكن أن يقال إن الانقلاب الذى أحدهه مجلس النواب المصرى هو جواب منه على مذكرة ٧ ينابر فقد أعلنا فى هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالى ضد الجميع ؛ فأجاب المجلس على ذلك بأن غير هذا النظام تغيراً جوهرياً وبذلك وضمنا أنفسنا فى موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن تدخل أو نعدل سياستنا »

وهذا الذى ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصويراً صادقاً ، وما كان موقف الدولتين ينبع على أحد من الوطنيين ، وعلى ذلك يقى الأنصاف على الذين يمكنهم على أعمال رجال ذلك المهد وفي مقدمتهم عرابي أن يضعوا فى أذهانهم قبل كل شىء أطلاع هؤلاء الساسة ، وأن يصوروا تلك الأعمال على هذا الأساس ...

* * *

مضت الوزارة في سبيلها غير عابثة بصر اخ أعدائها لا تخاذل من دون غايها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة إلا قامت في سبيلها عقبات ...

ولقد قبم الخديو في زوايا العزلة ، وجعل الخوانون الفدارون يبنه وبين وزرائه حجاباً من الأباطيل التي أحکموا نسجها ...

والواقع أن الخديو لم يكن على شىء مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم في مثل هاتيك الظروف فقد كان مستطار القلب حائز اللب مما يجري حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن يصلح عليها طبعه ؛ وهو مسترب في نيات الحكومة المئانية نحوه و نحو عرشه ؛ وهو فزع مما يشاع من دسائس الأمير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومساعيه في مصر والستانة على

يد أعوانه ؟ ثم هو قضلا عن هذا كله قد بات تحت سيطرة الأجانب وبخاصة الإنجليز منهم فما يقطع أمرا حتى يوافقوا عليه ، بل لا يخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها ...

ومن كان هذا شأنه في موقف كهذا الموقف الدقيق الذي كانت تفقة مصر من أعدانها يومئذ كان مثله مثل الراعي أحاط الضوارى بقطيعه فما يرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعا ...

وكانت الدولتان كاسلف القول تراغ كلتاها الأخرى ، وتفاغلها بغية الظفر بالفريسة وحدها ؛ وهذه هي حقيقة السياسة الخارجية التي لا تفهم تلك السياسة على وجهها الحق دون الالتباء إليها .

وحسينا أن نذكر في هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء جبta عن سياسة الدولتين قال «^(١) إن الرأى العام في إنجلترا قد وقع تحت تأثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقادوا أن خير ما يعمل هو استعمال جهود الطاقة أملأى إيجاد فرصة لدخول وادي النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التي حاول كرومر أن يفندوها ، فلم يستطع أن يأتي بدليل أو شبه دليل على صحة رأيه وما ملأ غير أن ينفي ، وما كان مجرد النفي مما ينهض دليلا يؤخذ به في أمر من الأمور ...

وكان جبta من أشد أعداء مصر بل من أشد أعداء الإسلام قاطبة ؛ وكان هذا اليهودي على صلة برجال المال من الدائنين ، وكان يحيط به في باريس ريفرزولون ونوبار يوحيان إليه بما يريان ؛ وكان بطبيعته من يميلون إلى الالتجاه إلى القوة في كل ما يتعلق بالشرق والشريقيين

وكان هذا الوزير كما يدعا يحاول أن يدفع إنجلترا لتأخذ سياسته ، ولكن جوانفل راج براغه مظهر الله أن خبرها في أن يتفقا ، وفي الوقت نفسه كان يحضره

عاقبة التدخل المسلح في شؤون مصر سواءً كان ذلك من جانب إحدى الدولتين أم من جانبهما معاً لأن ذلك العمل كان من شأنه أن يجرف أعقابه كثيراً من المشاكل ولقد رأينا مبلغاً تشدد في وجوب إرسال المذكرة المشتركة ، نعم إصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعتها بأى وجه من الوجوه ؛ ولقد كانت كل من الدولتين محص على ألا تنفرد فتنكشف ، لذلك كانت تجاري إحداها الأخرى وإنما لستكرهه أشد الاستكراه وأقبحه ... وكانت إنجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى تحيى الفرصة فتفتنصها ...

على أثر جبئاً لم يلبث في الحكم طويلاً فسقطت وزارته في أول فبراير سنة ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودي بخمسة أيام وحل محله في الوزارة دى فرسنيه ؟ وكان هذا من أول الأمورى في المسألة المصرية ما لا يتفق وسياسة جبئاً ...
ولكن الأمور كانت قد تخرجت في مصر بما فعل جبئاً ، وفقدت المناصر الوطنية في البلاد كل ثقة في الدولتين جيماً حتى أصبح من أصعب الأمور القفاص على السياسة العامة ...

لقد ارتكب هؤلاء الساسة من دعاة المدينة الناقين على أهل الشرق ما كانوا فيه من تأخير كل كرامة ابتغاء الوصول إلى أغراضهم ، وانقلبوا عندهم الأوضاع التي تعارف الناس عليها ؛ فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يدللون بعذرائهم ويتطاولون بما فعلوا في سبيل حرية الإنسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقاً إلى الحرية ، ويعملون على الرق بوطفهم جادين غير متوانين ، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعي الخلاف وبطறحون الأثرة ويحرمون على أنفسهم الطيبات ليتم لهم ما أرادوا
وذعر هؤلاء الكاذبون لصرططامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو ،

وقد كانوا يظنونهم أمواتاً أو كالأموات ، وهلهم أن يروا فريقاً من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو شيئاً فشيئاً ، ويحاولون أن يضموا أنفسهم بحيث تكون الأمة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ...

وادر كوا أن هذا البعض الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسداهم ويبدد آمالهم ، فما ونا يوماً كا يتنا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميمهم بكل فاحشة ، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً ذلك الرجل الذى خطأ نحو الحرية الخطوة الأولى وسرخ في وجه الظلم الصرحة الأولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة ؛ ولكن هذه الوزارة كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون ، فشتت إلى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على إنقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكاذبين ، وعلى تمدها بضرورب الأصلاح في شتى مراقبتها حتى تقوى فتمر على كل باع ظلوم من خصومها ...

وما كان في الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الأوروبية ، إلا وزير الخارجية مصطفى فهمي باشا ، وقد ضم إلى الوزارة ليكون لسانها في الصلة بالأوربيين ، ولكنه كان من رجال المهد القديم على حد قول مؤرخي الثورة الفرنسية ، فلم يكن ينظر إلى الوطنيين نظرة الاحترام والتوقير ، وإنما كان يرى فيهم فريقاً من الفلاحين يتطلبون إلى ما ليسوا أهلاً له ، شأنه في ذلك شأن الشراسة وأشباهها من سادات مصر وكبارها في ذلك المهد ... وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل في وزارة الخارجية عبئاً يضاف إلى أعباء الوزارة وذلك أمر لم تفطن إليه إلا بعد فوات الوقت ...

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقاً تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يعلل أسماع رجالها من نباح وعواوء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب في السادس والعشرين من شهر مارس

سنة ١٨٨٢ فقضى بذلك في العمل نحو ثلاثة أشهر ، وهي مدة قصيرة كان يشغل الأعضاء فيها ترتيب أعمالهم ؛ ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم أعضاءه إلى لجان مختلفة أخذت تتصل بالوزارات وتباحث معها ما يهم البلاد من الشؤون العامة ...

جد المجلس في دراسة نصوص المعاہدات والمعاقدات العامة والخاصة البرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية ورعاياها

وأخذت الوزارات تعد مشروعات الاصلاح المختلفة لعرضها على المجلس في دور انعقاده القادم ، فكانت تنظر فيما يتعلمه النهوض بالتعليم ، وتقترن إنشاء مصرف زراعي ينتشل الفلاحين من وحدتهم ، وتعمل على إصلاح المحاكم المختلفة واحتياصاتها ؛ كما تناولت قانون الانتخاب بالدراسة لتمدد قانوناً جديداً يجعل المحكومين الرقابة الفعلية على المحاكمين ... وقد أشارنا إلى ما أبدى عرابي من همة في إصلاح شؤون وزارته وبيت روح النهوض فيها

ولكن الوزارة كانت كلاً تقدمت خطوة في إصلاحاتها ازدادت لهجة الصحف الأوروبية في العيب عليها والطعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة في نقد أعمالها ، ونشطت دسائسهم من حولها وكان على رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن أو على الأصح وجّهها إلى أن مهمّهما في مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهدّاً للتدخل العسكري

* * *

والحقيقة التي لا يعارى فيها إلا المغرضون البطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التي تبرهن على صدقها بالأعمال لا بالأقوال ؛ ولو أنه قرر للوزارة السامية أن تسير على هذا النهج لكن أثرها بعيداً في تاريخ مصر بل وفي تاريخ القرن التاسع عشر كله ، فلقد كانت تمد المسألة المصرية من كبريات المسائل في ذلك القرن ...

وليس أبلغ في الدلالة على وجود الوطنية العاملة في مصر مما نهض به أعضاء مجلس الشورى من جليل الأعمال في تلك المدة القصيرة التي عقد فيها جلساته « فإن أعمالهم في المجلس ومناقشاتهم تدل على مستوى ممتاز في الكفاية والغيرة الوطنية ، وسداد الرأي ، فقد طرقوا في مقترحاتهم ومناقشاتهم كل أبواب الأصلاح الذي تحتاج إليه البلاد في التعليم والقضاء والرى والزراعة والمالية والاقتصاد والإدارة والمواصلات ، وكانت خطبهم ومناقشاتهم وجيزـة واضحة المعنى ، بعيدة عن التعاطفـيل المـلـلـ والـمـبـارـاتـ الجـوـفـاءـ ، وكانت لهم نظارات صادقة في كـثـيرـ منـ الشـؤـونـ وـآرـاءـ صـائـبةـ تـدلـ عـلـىـ سـلـامـةـ النـطـقـ وـالـإـلـامـ بـالـنـظـامـ النـيـابـيـ وـحـسـنـ الإـحـاطـةـ بـالـشـؤـونـ الـحـيـوـيـةـ ؛ـ إـعـتـرـ لهمـ ذـلـكـ فـيـ مـنـاقـشـهـمـ الـخـاصـةـ بـاـنـتـخـابـ الـوـكـيلـيـنـ وـالـأـغـلـبـيـةـ الـمـلـفـةـ وـالـأـغـلـبـيـةـ الـنـسـبـيـةـ ،ـ وـبـحـثـهـمـ فـيـ عـلـاجـ الـخـالـلـ الـذـيـ كـانـ مـوـضـعـ شـكـوـيـ الـجـهـورـ فـيـ مـصـلـحـةـ الـمـسـاحـةـ ،ـ وـمـنـاقـشـهـمـ فـيـ عـلـاجـ غـلـاءـ الـأـسـمـارـ وـتـضـخـمـ الـمـاعـاشـاتـ وـاسـتـعـجـالـ إـصـلاحـ الـقـضـاءـ ،ـ وـمـقـترـحـهـمـ فـيـ نـظـامـ الـرـىـ ؛ـ وـتـأـمـلـ فـيـ الـاقـتراـحـ الـخـاصـ بـمـشـرـوعـ خـزانـ أـسـوانـ وـمـلـاحـظـهـمـ السـدـيـدةـ عـلـىـ مـشـرـوعـ قـانـونـ اـمـتـياـزـاتـ الـمـرـبـ وـمـنـاقـشـهـمـ فـيـ مـشـرـوعـ تـعـيمـ الـتـعـلـيمـ ،ـ تـجـدـهـمـ عـلـىـ قـصـرـ الـسـدـةـ الـتـىـ اـجـتـمـعـ فـيـهـ الـجـلـسـ قـدـ بـذـلـواـ أـقـصـىـ ماـ أـمـكـنـهـمـ مـنـ الجـهـدـ لـأـدـاءـ وـاجـبـهـمـ ،ـ وـبـدـتـهـمـ رـغـبـةـ صـادـقـةـ فـيـ أـنـ يـتـابـعـواـ الـبـحـثـ وـالـدـرـسـ فـيـ فـتـرـةـ عـطـلـةـ الـجـلـسـ ،ـ وـبـرـهـنـوـاـ عـلـىـ أـرـجـيـهـمـ بـمـاـ تـعـاهـدـوـاـ عـلـيـهـ مـنـ أـنـ يـنشـئـ كـلـ نـائـبـ مـدـرـسـةـ فـيـ بـلـدـهـ عـلـىـ نـفـقـتـهـ ،ـ فـبـرـهـنـوـاـ عـلـىـ رـوحـ طـيـبـةـ فـيـ تـقـرـيرـ الـلـمـ وـالـبـذـلـ فـيـ سـيـلـ الصـالـحـ الـعـامـ^(١) .ـ »ـ

وكذلك تستدل على وجود الروح في مصر يوم ثذبها بين المبارتين نوردهما وندعو القاريء أن يتدبر فيهما .

أما أولاهما فهي ما كتبه دى فريسييه في كتابه « المسألة المصرية » حيث يقول معلقاً على مجلس النواب واحتضانه « إن كتاب ذلك المسر اجهدوا في أن

(١) التورة العرائية للأستاذ عبد الرحمن الرافي .

يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليغ涸ل إلى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلفيقاً ، وأن وادى النيل لم يكن يحتوى إلا على فلاحين تخلى المصا ظهورهم . فكل ما زرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا ايماناً للوطنية المصرية في عهدهم ؛ وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يتزدروا في أن يتکلموا في خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك إذاً وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية في سنة ١٨٤٠ ولست في هذا مبالغأ ولا أنا من يحبون المبالغة ، ولكن لا ريب في أنه كانت توجد في قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعي في حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تختتم جدلاً . غير أن الذين كانوا يقبحون على حظ مصر لم يكونوا يرون من المصريين غير قوم مدينين ، فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم إلا مصلحة واحدة : هي مصلحة الدائنين الأوروبيين التي يجب أن تقدم على ماعداها . وبذلك لم ينتبهوا إلى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم في شئونها تدخل أدبي بمحكمتها إلى أن تصير في أيدي الأجانب كانوا قد انتهيا على طول الأيام بأن يحرجاً شعور الشعب المصري الذي هو شعب حتى مما يقل القائلون في تموده الطاعة والخضوع من أجيال» .

وأما ثانية العبارتين فهي ما كتبه من باريس سنت هيلير إلى فنصل فرنسا العام في مصر في السابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ قال «ليس من السهل علينا أن نقرر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن إرضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقة إلى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه إلى أعظم حد أيضاً ، فلا يمكن إهمالها ولا يمكن على الحصوص التفكير في خنقها»^(١).

ليقدر القارئ في هاتين العبارتين ، وليتذرر فيما كذلك من يريد أن يحكم

(١) العبارتان من ترجمة الأستاذ عبد القادر جزء .

على رجال ذلك المهد وفي مقدمتهم عرباب ، وليس فيهم على أنفسهم الذين يرمون عرباباً ورجاله بالفوضى والجهل والأنانية ؟ ليس فيهم هؤلاء على أنفسهم فلن يجد بهم أن يظلو يحملون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الاستخفاف بهم والزراية عليهم ، فليس أدعى إلى الاستخفاف بعقل رجل من أن رأه يجعل أمراً من الأمور ثم إذا هو يدل فيه برأي قاطع في لمحة يتعدد في اتباعها الراسخون في العلم ...

ونضيف إلى هاتين العبارتين قول كرومر : « ليس هناك ريب في أن حركة عرباب كانت من بعض الوجوه حركة قومية . وليس من شك كذلك في أنه لو ترك عرباب وأتباعه في القيام على الشئون من غير مراقبة ، فإن حالة من أشد حالات الاضطراب كانت تنشأ في مصر ، وإن تدخل أجنبياً مسلحاً من نوع ما كان يصبح ضرورة من الفضلات ». .

وغمى عن البيان ما تكشف عنه عبارته الأخيرة مما يريد به أن يمحو أثر اعترافه بقومية حركة عرباب ، فهذا المؤرخ الإنجليزي الذي كان من أكبر أساطير الاحتلال لا يستطيع إلا أن يمحو بشماله ما أثبتته ديمقراطية ...

ما كان عرباب طائشا ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيماً مخلصاً يعمل بوعي من وطنيته ويصيغ ويخطئ كأي صاحب الرعاه غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة .

والخطأ والصواب من خواص البشر ومردتها إلى المقل وسمته أو ضيقه ، أما الصدق والأخلاص وما إليه من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لا يصح أن تكون هذه أموراً يجوز فيها التفاوت إذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل ! وكيف يجوز في عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق وإخلاص ونصف إخلاص ؟ إن هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها في

أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ، وعلى الذين لا يزالون يخالصون عراياها أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو صرورته ، أما الخطأ والصواب فليقولوا فيما ما يشاءون ؛ وليس ما نعني به خطأ عراي أو صوابه فليخططه عراي أو فليصب ، ولكن لو أنه كاذب خصومه كان مدعياً أو مداعجاً ولو في موقف واحد من مواقف حياته السياسية ما استطعمنا أن نكتب عنه كلة واحدة ...

ومع ذلك فييننا وبين حضور هذا الرجل حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما علمنا من أمرها وهي كفيلة بأن تربينا مبلغ ما في مزاعمهم هم من خطأ ...



أمساكى مصباح

لم يكن جهد أحد عربى منحصرًا في الطالبة بالدستور ، بل كانت تتطوى نفسه على كثير من الأمانى التي يتوق إلى أن يراها حقائق مائلة أمامه .

كانت تحالج نفسه منذ صلته بسعيد باشا رغبات في الإصلاح مبعثها تعصبه لقوميته ذلك التعصب المحمود الذى انبعث في نفسه مما كان يراه من حرمان بني قومه في وطنهم من كل ما يشعرهم بالعزوة والكرامة بينما يتمتع بالسيادة أجلاف من الشراكسة ، لم يكن لهم من حق في هذه البلاد إلا أنهم بقية هؤلاء الماليك الذين اشترعوا أول أمرهم كاشتري السلع في الأسواق !

وكان يفطن لهذا الجندي الثائر أو لهذا الوطنى الصادق المقيدة إلى أن الإصلاح المنشود ، ينبغي أن يأنى من الأعماق فيبدأ بهؤلاء الفلاحين الذين هم عصب القومية المصرية ، فتى صلح حال هؤلاء واستشمروا في وطنهم الكرامة والعزوة ، قامت القومية المصرية على أساس وطيد ، ومضت مصر قدمًا في طريق الرق والجد ، وعزت على الطامعين والكافردين ...

وكانت أمانى هذا الرجل تظهر في خطبه التي يلقاها في شتى المناسبات ، فكان كثير الإشارة إلى القضاء على الاستبداد والعنابة بالعلم والمعرفة ؛ ولكن شيئاً أشبه بمحنة موضوعة يتبيان في حديث له مع صديقه الإنجليزى مستر بلنت ، ونحب أن يتذمر من يحبون عراياً ، ومن لا يزالون يكرهونه في هذا الحديث ، ففيه جانب من شخصية هذا الرجل الذى مسخ البهتان والمدعوان شخصية ، وما كان الإنجليز لامر الحق يرضون أن يكون عربى داعية إصلاح وزعيم قومية ، ويكونون هم من قضوا عليه تحقيقاً لآرائهم الاستعمارية ثم يدعون مع ذلك أنهم جاءوا للإصلاح مصر والقضاء فيها على عوامل الفوضى ... لذلك عملوا على إنسكار كل معنى من معانى

الجد والنهوض في تاريخه ، وتمدوا أن ينظروا إليه نظرة الرجل المدل بحكمته وتجربته إلى الطفل الذي يدعى لنفسه ما ليس له ، ومن أدلة ذلك أن الجهل والغور في مقدمة الصفات التي ينعته بها كتاب الاحتلال ، وإنهم ليعلمون بينهم وبين أنفسهم أن همة هذا الرجل وجراه وما كان يتنبئ لقومه من ضرورة الإصلاح جديرة بأن تجعل منه زعيماً أنجبيته مصر ، كما تنجذب الأمم الزعماء ، وأن تلك الصفات في أحد عربى المصرى الفلاح لن تختلف في جوهرها عمما يعزى من صفات إلى أبطال الوطنية والقومية في غير مصر من أم الأرض .

قال بلنت بعد كلام طويل جاء في صدد شرائه حدائق الشيخ عبید بين المرج والمطرية ، ولنعد إلى زيارتى التوديعية لمراى قبل سفرى . ففي هذه المناسبةتناولنا بالحديث جميع المسائل التي كانت تدور فيها المناقشات وقتئذ بين رجال الحركة القومية والتي كانت تتضمن خططهم في سبيل الإصلاح وآمالهم ومخاوفهم في الداخل والخارج .

وإن الأسباب القليلة التي قضتها عربى في منصبه السامى قد أكسبته نضجاً وقوتاً عزيزته ، فتناولت مى الأمور بكل ما يمكن من سداد في الفكر ولغة الحوار .

ولقد أكدى تأكيداً وثيقاً أنه وأصحابه الوزراء يتطلعون أكيداً للتعلم إلى قائم ودى مع الحكومة الإنجليزية على كافة المسائل القائمة بينهم وبين وكلائهم فى القاهرة . على أنه اشتراك فى شدة من مالت وكلفن فإن صنفهمما الأخير والدور الذى أخذاه فى معركة تشويه الحركة الوطنية فى الصحف البريطانية يدلان على عداوتهما ... ثم قال عربى : إنه لن يقوم سلام فى القاهرة طالما أنه ليس لدينا غير هذين نتعامل وإياها لأننا نعلم أنهما يدران لنا السوء فى السر وإن لم يبد ذلك فى المعلن ؟ وسوف ننأى بمحابينا عنهمما كلاهما ؟ ولكن ليس معنى ذلك أننا لهذا نريد أن نخاصم إنجلترا ، فليرسل إلينا مستر جلادستون من يشاء غيرها لنتعامل معه ونحن نلقاه من حبين بأذرع مبوطة .

وتكلم عرابي كلاماً طويلاً عن الإصلاحات التي كان يفكّر فيها محمود سامي والوزراء ، تلك الإصلاحات التي وضع معظمها في ثبت الحسنات التي أسدتها الاحتلال البريطاني على مصر والتي ادعوا المورد كروم لنفسه . ومن أمثلة تلك الإصلاحات إبطال السخرة التي أزهلا الأغنياء من البشاورات الترك بالفالحين وإبطال احتكار هؤلاء الأغنياء مياه الري عند زيادة النيل ، ثم حماية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين الذين وضعوهم بين براثنهم معتمدين على عيوب الحاكم المحتلطة ؛ وتناول التفكير في الإصلاح حتى ذلك العلاج الأخير لهذه النكبة الزراعية ، ذلك العلاج الذي طالما جعله المورد كروم من مفاخره بوجه خاص ، إلا وهو إنشاء مصرف زراعي تحت إشراف الحكومة ...

وتكلم عرابي فيما تكلم فيه من المسائل عن إصلاح العدالة التي تطرق إليها الفساد في صورة محيفة ، وعن تعليم الرجال بل وتعليم النساء كذلك ، وعن طريقة الانتخاب التي تُنتقى للبرلمان الجديـد ، وعن مشكلة الرق ...

وقد تكلم طويلاً عن هذه المشكلة الأخيرة ، وذلك لأن الموظفين الأوروبيين في الإدارة المختصة بالقضاء على الرق ، قد بدأوا كما بدأ غيرهم من الموظفين الأجانب يمدون مخاوفهم من أن النظام الاقتصادي الجديد للحكومة الوطنية سوف يؤدى إلى إنفاس رواتبهم ، ولذلك عمدوا إلى ادعائهم أن همزة الإسلام سوف تقضى إلى انتعاش تجارة الرقيق ؟ وأنظهر لي عرابي مبلغ ما في ذلك الكلام من ضعف الحجة فاعتذر إن الدين لا يزالون يعتقدون الرقيق في مصر أو الذين يريدون امتلاكه الرقيق إنما هم أمراء الأسرة الخديوية وأغنياء البشاورات ، أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركة القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وإن حسب مبادئ الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعاً منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين ، وإن انتعاش تجارة الرقيق هو آخر شيء يمكن أن يتمشى مع هذه المبادئ ...

وتناول آخر الأمر ما يتصل بضرورة الاستعداد الحربي لما يتوقع من حرب ،

ذلك الأمر الذي كان يعنيه بصفة خاصة لأنّه جندي ولأنّه وزير الحرب ، وقد تحدث عن هذا في بساطة ونشاط ...

قال إن الحكومة القومية سوف لا تضع السلاح أو تغفل عما يجب من الحذر حتى توطد دعائم النظام الدستوري وتتعرف به أوربا ، وأعرب عن أمله ألا يتتجاوز المخصصات الحربية التي اتفق عليها مع كافن ، وألا يضطر أن يزيد عدد الجنود عن المائة عشر ألفاً الذين تسمح بهم الفرمانات ؟ فإذا استمر تهديدهم بالتدخل المسلح فإنهم سوف يتبعون الأسلوب البروسى القائم على فكرة قصر مدة الخدمة وبهذا يصلون إلى إيجاد قوة كبيرة هي بمثابة جيش الاحتياطي تحت السلاح .

سألني عربى رأى عن مبلغ إمكان التصادم ، فقلت في جلاء أنه كما يتبيّن لي مما تفاجر به كافن أى من نية العمل على وقوعه ، ومن لمحجة الصحف التي وجهها لتتمشى مع ذلك ، فإن الخطر حقيق ، وأن غرضي من ذهابي إلى إنجلترا هو أن أقصي على جملة الكذب التي بدأت ، بكل ما في وسعي؛ وسيكون ما أدعوه إليه هناك هو السلام وخلوص النيات . ولكنني من جهة أخرى لست أتصح له إلا بأن يظل على ثباته وعزمه ، فإن خير وسائل السلام أن يستعد المرء للدفاع ؛ وإن كبار أعداء مصر ليسوا بين صفوف رجال الحكومات كما هم بين صفوف رجال المال ، وإن هؤلاء سوف يتذدون طويلاً قبل أن يحرضوا على هجوم مسلح إذا عرفوا أن ذلك يعرض مصالحهم في مصر خطراً حرب طويلة الأمد كثيرة النفقات ، وإن أمة مسلحة قد عقدت العزم على الدفاع عن حقوقها لأمة يصعب أن يطعن بها .

وأذكر أنني اقتبست له أبياناً من يرون تبدأ بقوله « لا تثق في طلب الحرية بالفرجحة » وقد وافق على ذلك الكلام موافقة قوية ، وأظن أن ذلك كان آخر ما دار بيننا من كلام ، وقد وعدته أنه إذا وصلت الأمور إلى أسوأ ما تصل إليه فسوف أعود لأخذ بنصيبي بين صفوفهم في المعركة من أجل الاستقلال » .

وبعد فإن نظرة في هاتيك الأمانى التي كانت تمثل في خاطر أحد عربى ترينا بعد ما بين هذا الرجل في صورته الحقيقة وبينه في صورته التي صورها المفترضون .

ثار هذا الرجل ثورته فأثبتت في سجل القومية المصرية يوماً لا يمحى هو يوم عابدين المشهود ، بل لقد أضاف أحمد عرابي بما صنع في ذلك اليوم فصلاً إلى تاريخ الحرية في هذا الوجود ...

وظفر أحمد عرابي بالدستور ؛ ثم التفت بعد الدستور إلى الإصلاح الاجتماعي
فظل لهذا الدستور ؛ ثم رأى الإنجليز يتربصون به وبمصر فأخذ بعد العدة المقاومة ؛
ولسوف يجد الجند فتجتمع فيه آمال أمة وتمثل فيه بطولة شعب يطلب
الكرامة ، ويرى التاريخ لأول مرة مصر يان من صميم قرى مصر يخوضون الحرب
في سبيل مبادئ سامية .

فإذا كان يطلب منه أكثر من ذلك ليعرف له خصوصاته بالزعامة والبطولة؟
أكل ذنبه عندما هزم؟ لا ما أصدق قول القائل «ولأم الحطىء الم belum» .
على أن الخيانة والخنوع من جانب فريق من المصريين كما سترى من الحوادث
هي التي سوف تؤدي به وبمحركته ..

ولو أن عرابياً انتصر يوم التل الكبير ، أو لو أن الخديو كان في صفة
وكان المصريون جيماً من ورائه وواتاه الحظ فظفر برد الإنجليز عن مصر ، أكان
يمجد بنو مصر في تاريخهم رجلاً قبله يستحق أن يقرّنوه به ؟
ألا إن خصوم هذا الرجل إنما يخالصونه لأنهم يجهلونه فليقرّروا تاريخه في
غير تحيز وليطرحوا من نفوسهم ما بثه فيها الاحتلال ، ومن أضلهم عن الحق
الاحتلال ...



هراوغة وتربيص

جدير بنا ألا ننسى ما أسلفنا الإشارة إليه في أكثر من موضع ، ألا وهو موقف الدولتين إحداها من الأخرى موقف المراوغة والمداراة ، ذلك الذي كان طرفاً أول الأمر جبأنا وجراشل .

ولقد تغير هذا الموقف تغيراً أساسياً من جهة فرنسا حينما حل دى فرسنيه في الحكم محل جبأنا ؛ وذلك أن هذا الرجل قد انتبه في المسألة المصرية بهجاً جديداً ما لبث أن يبنه لإنجليزية حين ولد الحكم ...

وقد أقيمت إلى فرسنيه مقاليد الحكم كاذكينا قبل أن يخلف البارودى شريفاً بخمسة أيام ، فكتب إلى الحكومة الإنجليزية أنه لا يميل إلى أى تدخل عسكري في مصر سواء كان هذا التدخل من جانب إنجليزية وفرنسا مجتمعين ، أم من جانب كل منهما على حدة ؛ وأنه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أى تدخل من جانب الباب العالى .

وأمل جراشل قد رأى في سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه ، مع ما قد يبدو لأول وهلة من أنها تؤدى إلى عكس ذلك ؛ وذلك لأنه يستطيع الآن أن يلزم دى فرسنيه بسياسته التي وضعها بنفسه ، بينما يتامس هو الأسباب لتدخل حكومته بمفردها ، وإن بعدم أن يتخذ من الحوادث مبرراً لتدخله فإن لم يوجد فـا أيسرا خلق الحوادث واستغلالها ... حتى إذا سانحت الفرصة أفلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده .

وإذا بدا لتركيا أن تتدخل فلتستتر بإنجليزية خلف فرنسا ، لأن فرنسا هي التي تعلن أنها تمانع في تدخل الباب العالى ، وإن إنجليزية لم تمانع أكثر مما تمانع فرنسا حتى لا تعود مصر إلى حوزة السلطان فتضييع على إنجليزية كل آمالها ولكنها

تلقي هذه المانعة في مهارة على عاتق فرنسا فتردد نياتها خفاء ، وتردد في نفس الوقت قرباً من غايتها .

وكان جبنا يشير أبداً بالاتجاه إلى القوة ضد الوطنيين في مصر ، ومن هنا جاءت المذكورة المشتركة ؛ وكان يرى أن تتدخل الدولتان سريعاً تدخلاً عسكرياً في مصر ؛ ولكن جرانفل تباطأ وراح يبين له ما تنتظري عليه هذه السياسة من أخطار ، وإنه ليخفق في نفسه ما يخفق ؛ ولقد جاء كلام جرانفل هذا إلى جبنا في رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد ؛ وجاء في خاتمة هذه الرسالة قوله « إن حكومة جلالة الملك تؤيد على أن للدولتين مركزاً خاصاً في مصر وذلك بناء على الاتفاقيات الدولية وعلى الظروف القائمة ؛ وإنها كذلك تعتقد أنه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عدة دول في مسألة حكومية كهذه ، ولكن حكومة جلالة الملك تكل إلى الحكومة الفرنسية أن تنظر فيما إذا لم يكن الموقف يتطلب الاتصال بالدول الأخرى كغير وسيلة لتناول حالة من الحالات يتبيّن أنها ذات مساس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية » .

وقد كانت السياسة الإنجليزية تدور منذ حلقة بونابرت على مقاومة نفوذ فرنسا في وادي النيل ، ثم الاستيلاء عليها متى أمكن ذلك وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، دون مراعاة أي شيء في سبيل الوصول إلى هذا الفرض ...

واستفهام فرسنيه الحكومة الإنجليزية ماذا أرادته بذلك الاحتياط الذي أبلغته جبنا بعد موافقتها على المذكورة المشتركة ، فكان الجواب أن الحكومة البريطانية تحفظ نفسها بتعيين نوع العمل إذا لم يكن من العمل بد ، وفي تقرير وجوب العمل أو عدم وجوبه على وجه المموم ...

ثم أراد جرانفل أن يخفف من وقع هذا الكلام في نفس فرسنيه فذكر أنه ليس في مصر ما يدعو إلى القلق فإن الوزارة الجديدة تجهر برغبتها في الحفاظة على تعهدات مصر الدولية ؛ وإذا وقع ما يقتضي التدخل فإن الحكومة الإنجليزية

تجمل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان في كل خطوة وفى كل مقاومة يؤدي إليها هذا التدخل .

وفى تلك الأثناء كان كفناً ومالت يمحكان دسائهما فى البلاد ويياعدان بين الخديو ووزرائه ، لا يتوانيان عن خلق الضرورة التي تقضى بالعمل ! .

وكانت الحكومة الإنجليزية التي تقف من فرنسا ذلك الموقف الذى أشرنا إليه تفكراً في ذلك الوقت في إعداد حملتها على مصر ! ؟ ففي اليوم الخامس عشر من شهر مارس أى بعد استلام البارودى أزمة الحكم بأربعين يوماً ، زار مستر بلنت السير جارنت ولسلى الذى سوف يكون عما قريب قائد الحملة على مصر ، فدار بينهما الكلام عن هذا المشروع يقول مستر بلنت « في اليوم الخامس عشر من شهر مارس ذهبته لمقابلة سير جارنت ولسلى وجرت بيني وبينه محاورة تستحق أن تذكر في اهتمام : فبعد حديث قصير عن قبرص أتجه الكلام إلى مصر وما عسى أن يكون لدى القوميين من مقاومة إذا وقع تدخل ، وسألني رأي في ذلك ، فقلت إنهم بالضرورة سيحاربون ، ولن يقتصر الأمر على الجندي بل سيشاركون الناس جميعاً ، وربما جاءوا بذلك إلى وسائل أخرى ؟ فرفض أن يصدق أن الجيش سوف ينهض لحرب ما ؟ فصممت على عكس ذلك وقلت لهم إنهم إذا أرسلوه لقهر مصر فيجب عليه أن يسير في ستين ألفاً على الأقل ، وبهذا قد بالفت في تصوير المسألة بلا ريب لأن أردت أن أجعلها صعبة ، بحيث أنه يجب على الحكومة أن تفكك مصرتين قبل الإقدام عليها ؛ ثم أخبرني من تلقاء نفسه أنهم شاوروه مرتين أو ثلاثة أيام الشتاء في احتلال عاجل ؛ وأكدى مع ذلك أنه لا يجب التدخل أحد ، وأن احتلال مصر عمل ان يقابل الجيش بالاستحسان ، وأنه هو نفسه سوف يؤسفه جداً أن ينطاط به هذا العمل ؛ وأعرب لي أنه خير لمصر كثيراً أن تسرح جيشها وتعتمد على حماية أوروبا ، ولكننى أخبرته بأنى لا أستطيع أن أنصح للمصريين بذلك ، وأن الأمة التي تنوى الحرب نية صادقة قلماً هاججها عدو فقال : إنه ليس هناك ما يسمى (م - ١٢)

بالشرف في الحرب ، وإنه إذا كانت المسألة مسألة حرب فيجب ألا يثقو بنا أكثر مما يثقو بأية أمة أخرى ... ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق الحريرية المؤدية إلى القاهرة كطريق بونابرت على الضفة اليسرى للنيل ، ثم طريق الصحراه بوجه خاص بين ترعة السويس والدلتا ، ولقد شعرت أنه إذا ما أذلت جنود الإنجليزية في مصر فعلاً فإنها ستسير في الطريق الثاني ؛ ولكنني كنت حريراً لا أدل إلى عما يكون فيه أقل فائدة له من المعلومات ، ولم أبد إلا الضحاح عندما سأله بين الجد والمزاح عما إذا كنت أرافقة لأدله على الطريق إذا ما بلغت الأمور حدّاً ترسل معه جملة ^٢ .

ويكفي هذا الحديث وحده الدلاله على ما كانت تتباهى به الجلطة لمصر وما كانت ترواغ به فرنسا ...

وبينما كانت تدب الدسائس لمصر في الداخل والخارج ، لم يكن لاوزارة المصرية من وسائل الدعاية شيء ما ، فكان أعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم أطاعهم ، حتى لقد صور زعيم الحركة الوطنية في مصر أحد عراقي صوراً بلغت أقصى حدود الفراية ، فهو تارة رئيس عصابة من التمردين الخارجيين على القانون والنظام ، وهو طوراً داعية إسماعيل اشتراه بالمال ليعمل على إعادته إلى مصر ، وهو بالإضافة إلى هذا عند بعض الإنجليز أسباني أو فرنسي في زي مصرى ، إلى غير ذلك من الأقاويل التي لا ندرى أنقاولها بالألم أم بالسخرية ! .

وانطلقت الصحف تذيع في الناس الأراجيف في غير حياء أو فتور وليس لصر لسان يدافع عنها إلا بلنت ، فلقد سافر هذا الرجل الحر كما يقابل كل من لهم صلة بالمسألة المصرية ليرتهم وجه الحق في هذه القضية ، وليصحيح ما جاز على عقول بعض الساسة من خُدع ، وليكشف الذين يدعون أنهم لا يعلمون الحق بما يعلم هو من الحق لعلهم يرجمون إليه .

ولقد قابل جماعة من النواب ومن رجال المال ؛ ثم ما زال يسمى حتى ظفر بعقالة جرانفل وزير الخارجية فتححدث إليه عما لديه من المعلومات ودافع عن قضية زمانه

الحرية في مصر بكل ما في طوقة من وسائل الدفاع؛ ولكن شد ما كانت دهشته وأله عند ما انطلق جرانفل نفسه يخبره أن لديه من المعلومات ما يؤيد عنده أن عرائياً إن هو إلا صنيعة إسماعيل وأن المسألة من أهلاها إلى آخرها ماهي إلا سلسلة من الدسائس لإرجاع الخديو السابق إلى عرشه!

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة جلادستون، وقد كانت شهرته قاعدة على أساس ميله إلى الحرية، والأخذ بيد الشرقيين جميعاً ليهضوا من سبابهم، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتتحدث عن الحركة الوطنية في مصر في حاسة وطلاقة، وظل جلادستون صامتاً ينصت إليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول يقدره حق قدره؛ قال بلنت «ثم سألف عن الجيش المصري وسبب ظهوره في المسائل الوطنية، فإنه خشي عاقبة ذلك؟ فأوضحت له تاريخ الحركة كلها وأكدت له أن ما زعمه البعض عن تدخل الجندي أمر مبالغ فيه، وأن ما أذيع من الأنباء عن الجندي وتوعدهم النواب ليست إلا مفتريات؛ وقلت إنه ليس هناك من سبب لما تبديه مصر من الاستعداد إلا خوفها من الاعتداء والتدخل».

ولكن ماذا كان ينتظر بلنت من جرانفل وجلادستون، ولم تكن المسألة مسألة إقناع وحجة؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل، وإنما كانت متى ينفذ ما انعقدت النية عليه؟

وإن لأحسن فيما قرأه مما كتبه بلنت عن مقابلته لجرانفل وجلادستون أنهاهما كانوا ينظران إليه نظرة مما إلى غير لا يفهم ما يجب أن يتبعه الإنجليزي في معاملة الشعوب الشرقية، أو إلى ناشئه في السياسة لا يدرى أن الكلام شيء والخطط للرسومة شيء آخر ...

ولقد علق كرومر في كتابه مصر الحديثة على مساعي بلنت فقال «ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية رز أرزهم مستر ولفرد بلنت، ولقد عاش مستر بلنت قضية زماننا بين المسلمين، وكانت له لغة شديدة في كل شيء يتصل بهم وبدينهم ويظهر

أَنْ كَانَ يُعْتَقِدُ فِي إِمْكَانِ إِحْيَا الْإِسْلَامِ عَلَى قَوَاعِدِهِ الْأُصْلَى ، وَقَدْ تَصَادَفَ أَنْ كَانَ فِي مُصْرَ فِي شَتَاءِ سَنَةِ ١٨٨١ ، ٨٢ ، فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ بِكُلِّ مَا تَبَعَّثَهُ الطَّبِيعَةُ الشَّاعِرِيَّةُ مِنْ حَاسَّةٍ فِي جَانِبِ الْقُضِيَّةِ الْمَرَايِّيَّةِ وَأَصْبَحَ مُرْشِدَهَا وَفِيلُوسُوفَهَا كَمَا أَصْبَحَ الصَّدِيقُ الْمَرَايِّيُّ وَأَتَبَاعُهُ ؛ وَرَأَى مُسْتَرُ بَلْتَ أَنَّهُ كَانَ يَعْنِي بِحَرْكَةِ هِيَ إِلَى حدِّ مَعْنَى حَرْكَةِ قَوْمِيَّةِ بِلَارْزَاعِ ؛ وَفَشَلَ فِي أَنْ يَفْهُمَ فَهَمَا كَافِيًّا نَّلَكَ الْحَقِيقَةَ : وَهِيَ أَنْ سِيَادَةُ الْحَزْبِ الْمَسْكُرِيِّ كَانَ فِيهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْمُنْصَرِ الْقَوْيِيِّ فِي الْحَرْكَةِ . وَكَانَ فِي وَقْتِ مَا يَعْمَلُ وَسِيطًا بَيْنَ السِّيرِ ادوارِ دَالْتِ وَالْقَوْمِيَّينَ .

وَلَكِنَّ هَذَا الْإِخْتِيَارَ لَمْ يَكُنْ مُوقِّعًا ؛ لَأَنَّهُ يَتَبَيَّنُ بِأَجْلِي وَضُوحِهِ مَا ذَكَرَهُ بَلْتَ فِي كِتَابِهِ عَنْ مَسَاعِيهِ أَنَّهُ فِيمَا عَدَا بَعْضِ الْمَعْرِفَةِ بِالْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الصَّفَاتِ الْلَّازِمَةِ لِتَحْقِيقِ النِّجَاحِ فِي مَسَأَلَةِ لَهَا مَا لَهُذِهِ الْمَسَأَلَةُ مِنْ دَقَّةٍ وَصَعُوبَةٍ، وَلَقَدْ نَصَحَ لِلْقَوْمِيَّينَ أَنْ يَعْنُوا بِالجَنْدِ وَإِلَّا غَالَبُهُمْ أُورُوبَا وَكَانَ يَعْنِي النَّصِيْحَةَ بِلَا رِيبٍ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا كَمَا كَانَتْ خَيْثَةً ، فَلَئِنْ كَانَ ثُمَّةً مِنْ خَطَرِ مِنْ جِهَةِ الْفَزُورِ الْأُورُوبِيِّ فَإِنَّ مَوْطِنَهُ هَذَا الْخَطَرِ كَانَ فِي انْفَهَامِ الْحَزَبِيِّينَ الْوَطَنِيِّيِّينَ وَالْمَسْكُرِيِّينَ أَكْثَرَ مَا كَانَ فِي اِنْفَاصِهِمَا ؛ وَلَقَدْ كَانَ مِنَ السَّهِيلِ عَلَى السِّيَاسِيِّ الْمَجْرِبِ أَنْ يَدْرِكَ هَذَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْتَرِ بَلْتَ تَجْرِيَةً سِيَاسِيَّةً ذَاتَ قِيمَةٍ إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا مَتَحِمِّسًا يَحْلمُ أَحَلَامًا عَنْ يَوْمَيَا عَرَبِيَّةً » .

هَذَا مَا يَرَاهُ كِرُومُرُ فِي بَلْتَ ؟ وَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيُ كِرُومُرِ ، وَهُوَ مِنْ أَسَاطِينِ الْاسْتِعْمَارِ ، فِي رَجُلٍ مِثْلِ بَلْتَ كَانَ بِلَا صَرَاءَ مِنْ كِبَارِ الْأَحْرَارِ ؛ إِنَّمَا نُورِدُ رَأْيَ كِرُومُرِ هَذَا لِأَنَّهُ يَكْشُفُ عَنْ جَانِبِ مِنْ أَساليبِ الْمُسْتَعْمِرِينَ الْإِنْجِلِيزِ فِي مَحاوَلَةِ طَمْسِ الْحَقَائِقِ فِي سَبِيلِ الْوَسْطِ إِلَى مَا يَطْمَعُونَ فِيهِ مِنْ أَغْرَاضٍ ؛ وَهُوَ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى يُشَفِّعُ عَمَّا كَانَ يَعْكُنُ أَنْ يَقْابِلَ بِهِ مُسْعِي رَجُلٍ مِثْلِ بَلْتَ فِي دُونِجِ سُتْرِيَتِ إِلَيْهِ نَلَكَ الْفَلَوْرُوفُ الَّتِي تَحْدَدَتْ عَنْهَا ، ظَرُوفُ مَقاوِمَةِ الْوَزَارَةِ الْوَطَنِيَّةِ فِي مُصْرَ ...

ولم يكن ينتظر أن يصيب بذلك غير الفشل ، وقد كانت وزارة جلاستون تتهم بجل الحوادث لتفلت من فرنسا وتنفرد بوضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذي وضعتها فيه فرسنيه ، فلقد ذهب هذا الوزير في تجنب المدواة على مصر إلى حد أنه كتب إلى قنصل فرنسا في القاهرة يأمره « أن يلزم خطبة التحفظ والحد ، وإن كان ذلك لا يمنعه من أن يحسن صيته بكل حكمة في مصر تحترم الاتفاقيات الدولية وتحافظ على النظام » .

ولقد زاد فرسنيه على هذا أن استدعي الميسو دي بلنيري العضو الفرنسي في المراقبة لما كان يعلم من مسلك نحو الحركة الوطنية في مصر ؛ وباسمه دعاه دي بلنيري خلا الجو لكافن ومالت فرحاً ينفثان سوهماً ويتعمullan الحوادث في غير وناء ولا استحياء .

ومضت إنجلترا تربص بمصر كما يتربص الوحش بالفريسة ، وبعد شهرين من سحب دي بلنيري وقع في القاهرة ما عرف بحادث المؤازرة الشركية .

وسيرى القارئ فيما يلي كيف استغل مالت وكافن هذا الحادث العادي دون أى وازع من ضمير أو قانون أو عرف ، فلننظر ماذا كان من أمرها وأمر الخديو في هذا الحادث الذى لو لامطاع السياسة وتربيص القوى بالضعف ما كان ليثير شيئاً مما أثار من متاعب للوزارة وإحراج ، وما كان ليلد ما ولد من أحداث جسيمة .



اعنات واحرج

كان الأنجليز في مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم كايينا ، حتى إذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فرستهم حائل ؟ ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودي في حل مسألة الميزانية ، ينتظرون أن تواثمهم فرصة فيعملا على تنفيذ ما يبتوا ..

وأخيراً وقع في مصر حادث ما نظن في تاريخ الاستعمار الأوروبي كله أن استغل حادث كاستغل هذا الحادث في قبح ما بعده قبح ، على بعد ما يبتوا وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الشركية المشؤوم نسبى إلى عرابى وزملائه أن فريقاً من الضباط الشراكسة يأنترون به وأصحابه ليقتلوهم ، فكان أن قبضت الحكومة عليهم كما يقضى بذلك واجبها وساقهم إلى المحكمة فقضت فيهم قضاءها .

وليس في هذا الحادث ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الأسباب ؟ وما كانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلا غير ما سلكته وزارة البارودي ولكن الطامعين المفترين ما ليتوا أن عدوا يعلاون الدنيا صياحاً وتنددوا ، ومهديدا ووعيدا ، فقد واتهم فرصة جديدة بعد أن أفلتت من أيديهم أزمة الميزانية ونسى هؤلاء كل شئ إلا تحقيق أطماعهم من وراء هذا الحادث ، فكان من آقوالهم وأفعالهم ما هو حقيق بأن يسمهم بعيسى الخزى والumar ، بل ما هو خلين بأن يساق بين أقوى الأدلة وأقصىها على صحة مبدأ القائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بني الإنسان فزادتهم قربا إلى الحيوانية ، بقدر ما باعدت بينهم وبين ما يرجى للأدمية من سمو .

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الأوروبية على مبلغ ما يمكن أن يصل إليه

غدر الانسان بالانسان في عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى إلى ذوى الأحلام من البشر أن الانسان لا يزال هو الانسان ، وأنه إذا كان ارتقى في شيء ففي وسائل الكيد والبطش ، أما غرائزه الأولى غرائز السيطرة والأنانية فما زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تهذيب على الرغم مما يحمل به الخماليون من حماة الإنسانية ... وإننا لا نجد في بيان مدى ما بلغه هؤلاء الساسة من انحطاط خيراً من أن نعرض المسألة في وضعها كما حدثت مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما يمكن أن يبين كلام ما يقوم في الذهن أو يتعلج في أطواء النفس ، تلقاء هذا العدوان الشنيع ...

أراد المتدمرؤن الشراكسة من سياسة عرابي والمضللون منهم أن يقتلوه هو وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية ، وقد نهى ذلك إلى علم عرابي من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الأول ، وهذا علمه من أحد التآمرين وهو راشد أنور أفندي الذى خالف إخوانه فسارع إلى إفشاء سره

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أبريل سنة ١٨٨٢ قبض على تسعه عشر ضابطاً وسيقوا إلى مجلس عسكري لمحاكمتهم بعد أن عرض الأمر على الوزراء وعلى الخديو ، وقد جعلت رئاسة المجلس للفريق راشد باشا حسنى وهو شركسى ، وقد اختير كاذك عرابى في مذكرة الخطوط (١) لزاهاته وقواه واعتداله وبعد عشرة أيام بلغ عدد القبوض عليهم تمانية وأربعين ، وكان من بينهم عمان باشا رفق نفسه ؛ وقد اعترف أحدهم وهو القائمقام يوسف بك بمحاجى بالمؤامرة ، وأقر بأن راتب باشا هو مدبرها ، وأنه أغوى الضباط الشراكسة بحضور عمان باشا رفق بقتل عرابى ، واعترف بعض الضباط المتهمين بما يؤيد اعتراف بمحاجى بك (٢)

(١) تحت يدى نسخة من هذه المذكرات الخطوط تفضل بعض أبنائه يامدادى بها .

(٢) الثورة العارية لمبد الرحمن الرافعى بك وقد نقل ذلك عن جريدة الوطن عدد ٢٩ أبريل

و قضى المجلس بأدانة أربعين رجلاً منهم رفق ، فحكم بتجزيدم جميعاً من القابهم ونفيهم إلى أعلى النيل الأبيض في ربوع السودان .. وعوقب بهذا العقاب اثنان من المدنيين مع حرمائهما من الحقوق المدنية ، وأحيل خمسة على المحاكمة الأهلية ، وعوقب راتب باشا المدير للمؤامرة كارأى المجلس بالحرمان من الرتب العسكرية والامتيازات والتياشين ومنع من المودة إلى مصر وإذا عاد فينفي من قوره ... وذكر المجلس أن الخديو إسماعيل هو الذي حرث المؤامرة ، واقتصر أن ينظر مجلس الوزراء في مرتبتاه ...

* * *

اختللت الآراء في بواطن هذه المؤامرة الشركية ، ومن هذه الآراء ما ذكره بلنت حيث يعزوها إلى الخديو إسماعيل ، الذي وكل بها رجالاً عرف بعاداته الفاسدة للحركة الوطنية ووجوهاً يدعى راتب باشا ؛ وكان إسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة إلى المودة إلى عرشه ابتغاء القضاء على القلاقل والفتن المزعومة التي عجز توفيق عن القضاء عليها كل المجز ، وكان يعني نفسه بأن توافق الجلطة على ذلك فتتفق معه تركياً أو تخبرها عليه ...

ويؤكد بلنت هذا الرأي قائلاً إنه عرفه من مجلة مصادر منها إبراهيم بك المولى الحنفي سكرتير إسماعيل ؛ ولقد أيد الشيخ محمد عبد هذا الرأي فيما جاء بكتابه إلى بلنت بعد سفره إلى أوروبا عن هذه المؤامرة قال « أما فيما يتصل بالمؤامرة الشركية على حياة عربي باشا فليست بذات خطر حقيقي ، فإن الخديو السابق إسماعيل أكبر عدو رأته مصر والرجل الذي لا يزال يحقد على ما بلغناه من سعادة ، لا يفتئاً منذ مدة طويلة يضع ألغام مؤامراته ليدمّر حكومتنا الحالية ظناً منه أن ذلك يهدى السبيل لعودته ، ولكن الله القادر قد بعثر آماله أدرج الرياح حيث أن كل مصرى يعرف أن عودة إسماعيل معناها خراب مصر » (١)

ولقد بدأت المؤامرة بتدمير الضباط الشراكسة في الجيش مما ألم به ووزر الحرية الجديد أحمد عرابي باشا من إجراءات الترقية، زاعمين أنها إجراءات ظالمة تتطوى على الكيد لهم والانتقام منهم، لا عن جريرة ارتكبواها ولكن لأنهم ليسوا مصريين؛ ومما غاظهم كازعموا إلحاد بعضهم بالمناصب الحالية بالجيش المصري في السودان ...

والذى يقف على أساليب السياسة الإنجليزية الماكنة في تعكير كل جو ترى مصلحتها في تعكيره لا يستبعد أن يكون لن كان يقيم بعصر من الإنجليز يومئذ أثر كبير في الأيمان إلى هؤلاء الشراكسه بهذه الآراء لكي تشيع فيهم الفتنة، ثم تجاوزهم إلى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا خاصة ...

ومما يغيل بنا إلى الاعتقاد في صحة هذا الذي يقول - فضلاً عما أسلفنا بيانه من سوابق السياسة الإنجليزية - مارى به الإنجليز الوزارة الوطنية من التهم على ألسنة صحفهم ومندوبيهم في مصر وبخاصة ما ذكروه من الأفك حول الجيش وسيطرته على كل شيء

والواقع أنه لم يكن فيما فعل عرابي إلا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التي وافقت الحكومة السالفة عليها ، فإن تلك القوانين تنص على وجوب إحالة المرضى والذين بلغوا سنًا معينة على الاستيداع ؛ ولقد دافعت الوزارة بهذا ، ولكن الخراسين المناوئين لم يحملوا هذا العمل إلا على الرغبة في الانتقام ...

ولقد كان من نقلوا إلى السودان ستة وثمانون من المصريين وتسعة من من الشراكسه خسب وستة من الأتراك فأى معنى للسكيك والانتقام في هذا ؟

ونحن إذا جارينا هؤلاء السكان الدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة منهمة فلا تصدق فيما تورده دفاعاً عن عملها ، فإن فيما كتبه الشيخ محمد عبده إلى صديقه مستر بلنت في كتابه المشار إليه أقوى دليل على براءة عرابي والوزارة السامية مما اتهمت به قال « أما عن ترقية الضباط التي لا تزال تلغط بها الصحف

الأوروبية فاسمح لي أن أشرح لك الحقائق ؛ فأول كل شيء إن هذه الترقيات ليست من عمل عراقي باشا وحده ولا كانت رشوة يقصد بها اجتذاب الضباط نحو عراقي ، فإنها كانت نتيجة لقوانين المسكرية الجديدة التي تقضي بأن يحال على المعاش من يبلغون سنًا معينة ومن يصابون بالمرض أو التقاعد أو العجز ؛ وقد بدأ تطبيق هذا القانون من عهد شريف باشا ووضع في قاعدة الاحالة على المعاش مائة وخمسين وسبعين ضابط ثم أرسل ستة وتسعين إلى حدود الحبشة وإلى زيلع وأماكن أخرى ، وأخرج من الجيش نحو مائة ضابط أطلقوا بالوظائف المدنية ، ويبلغ عدد هؤلاء جنباً أربعة وخمسين وسبعين ضابطاً ، فكان من الطبيعي إذاً أن تجري ترقيات ملء المناصب الخالية ، ولا يزال في الجيش خمسون يحتفظ بها خريجي المدرسة العسكرية »

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده ومنه يتبيان الحق في هذه المسألة . على أننا لو فرضنا أن عراقيا قد آثر المصريين بالترقيات وتحمّل بذلك نفراً من الشراكسة ، فلن يكون في رأينا خطئاً حتى في هذا العمل . فحسب هؤلاء الشراكسة ما قالوه من حظوة طوال المهد الساقية وبخاصة في عهد رفقى ، وذلك على ما كانوا يضمرون له وما كانوا يبذلونه من حقد واحتقار لمصر والمصريين ، وحسب المصريين لهم أبناء البلاد الذين تجحبى منهم الضرائب ماذا قوا من هوان ومذلة على أيدي هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم ، وأنخذوا منهم عبيداً وإماء .

وماذا كان ينتظر من عراقي غير أن يطبق القانون ، وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثارها ؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذي ظل طول عمره ناقاً على حرمان المصريين في الجيش واستئثار الشراكسة فيه بالخير ، فلم يكفل عن الشعب على هؤلاء الشراكسة الباغين منذ أن كان جاويشا ليس له من الأمر شيء ولم ين عن مقاومتهم ومصاولتهم في كل خطوة خطتها في سلك الجيش حتى انتهت إليه زمامته ؟

أجل ، ماذَا كان ينتظر من هذا الرجل ، وما كان حقده على هؤلاء في يوم ما صادرًا عن صغار أو أنانية ، وإنما كان بعثته ما يحس في أعماق نفسه من حماسة وطنية وغيره قومية ها في مقدمة ما كان يتصرف به من صفات ؟

ومهما يكن من الأمر فما كان عمل عربي في أية صورة له ، مما يقابل بالقتل ! ولا كان تقديم المتأمرين إلى المجلس العسكري مما يستأهل كل ذلك السباب الذي راحت تنبئ به جوقة الاستعمار ؟ وهل نسى هؤلاء أن عراقياً وصاحبيه قد قبض عليهم في صورة مخزية غادرة تبعث على الإشمئزاز والسخرية ، لمجرد أنهم تقدموا ليرفدوا شكوكاً إلى أولى الأمر مما كانوا يحسونه من إجحاف بحقوقهم دون أن يفكروا في قتل أحد أو العداوان على أحد ؟

وكيف لا يستحيي دعاة الاستعمار من أن يلوموا هذا الرجل بالأمس ويتهموه بالفوضى لمجرد أنه شكا أمره إلى رؤسائه ، حتى إذا قبضت الحكومة عليه عد ذلك منها عين الصواب ، ثم يعودون اليوم فينددون به ويستصرخ بعضهم بعضاً عليه لا لشيء إلا لأنه يقدم إلى المحاكمة فريقاً من يتآمرون على قتله ! ألا ما أشد ما تحسه النفس من ضيق وغليظ تلقاء هذه المقارنة بين الموقفين !

* * *

واتت الفرصة كافئن ومالت وأشياعهما من الشعاليين وبنات آوى ، وهبات أن توائى الأنجلترا فرصة فيضييعوها ؛ لذلك ما كان أسرعهم إلى استغلال الحادث فبدأوا أولاً يذكرون التبعض الأعمى ، ثم انتقلوا إلى ذكر الفوضى الحكومية ، وعدوا ترقية الوطنيين مظهراً من مظاهر الرشوة التي أريد بها التأثير في رجال الجيش كي يكونوا على استعداد عند أول صيحة ؛ ثم رأوا في محاكمة الشراكسة مظهراً من مظاهر الظلم والاستبداد القائم قائلين في منطق عجيب ليس مثله في معنى الصفاقه والتبرّج : إن المؤامرة وهيئه لم توجد إلا في رأس عربي ، وإن الفرض منها لم يكن سوى التخلص من الشراكسة بأى وسيلة ، وإن المحكمة العسكرية التي فصلت

في الأمر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما يشير به عربي ، لذلك جاء حكمها في منتهى القسوة بحيث لا يقل عن الأعدام . ولم يكتفُم ذلك حتى يدعوا في جرأة وفي إمعان في الفحمة أن عرايا كان يذهب إلى السجن فيعذب هؤلاء الشراكسة أيام المحاكمة ويشق غليل نفسه بمنظر ذلهم وخضوعهم ...

ولقد جعل الأفاسنون الخراصون هذه المحاكمة من أكبـر سوءات ذلك العهد ومن كـبـأـر خطـيـئـات عـرـابـيـ، وـهـذـا الـمـؤـرـخـونـ منـ الـأـنـجـيلـيـزـ حـذـوـ السـاسـةـ فـمـوـقـعـهـمـ مـنـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ، وـمـاـ كـانـ يـنـتـظـرـهـمـ أـنـ يـفـعـلـواـ غـيرـ ذـلـكـ، وـمـنـ هـؤـلـاءـ كـرـوسـ، وـهـوـ رـجـلـ كـانـ بـحـكـمـ صـلـتـهـ بـرـجـالـ ذـلـكـ الـمـهـدـ جـمـيعـاـ يـعـلمـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ، وـمـعـ ذـلـكـ طـاوـعـهـ ضـمـيرـهـ عـلـىـ أـنـ يـقـولـ فـيـ كـتـابـهـ «ـلـمـ يـظـهـرـ دـلـيـلـ جـدـيرـ بـالتـصـدـيقـ وـلـاـ ظـارـ دـلـيـلـ عـلـىـ أـنـ تـهـمـةـ الـمـؤـاـصـرـةـ كـانـ تـهـمـةـ حـقـيقـيـةـ، وـكـانـ حـكـمـ الـمـحـكـمـةـ الـعـسـكـرـيـةـ وـثـيـقـةـ وـحـشـيـةـ تـحـمـلـ طـابـ المـظـاهـرـةـ السـيـاسـيـةـ أـكـثـرـ مـاـ تـحـمـلـ طـابـ الـحـكـمـ الـقـضـائـيـ وـكـانـ عـرـابـيـ كـثـيـرـ الـظـفـونـ شـأـنـهـ فـذـلـكـ شـأـنـ كـلـ جـاهـلـ مـنـ الرـجـالـ، وـلـمـ تـعـشـ الـمـؤـاـصـرـةـ عـلـىـ قـتـلـهـ إـلـاـ فـيـ خـيـالـهـ هـوـ خـسـ». .

هـذـاـ الـذـىـ شـاءـ أـدـبـ كـرـوسـ أـوـ عـلـىـ الـأـصـحـ شـاءـتـ سـخـيمـتـهـ أـنـ يـكـتبـهـ مـعـ عـلـهـ باـعـتـرـافـ بـعـضـ الـتـآـمـرـيـنـ بـالـتـهـمـةـ . .

ولقد أخذ بعض المؤرخين من المصريين هذا الكلام المرسل على عواهنه وشایموا الأنجلیز وأسفاه في رأيهم هذا في عرايی کا شایموا هم في غير هذا من الآراء ، الأمر الذي یوّل النفوس أكبـرـ الـأـلـمـ ، فـلـیـسـ یـعـتـنـىـ ماـ یـقـولـ خـصـومـ الـوـطـنـ وـخـصـومـ عـرـابـيـ ، وـلـكـنـاـ نـصـيـقـ كـلـ الضـيـقـ أـنـ تـحـوزـ الـأـبـاطـيـلـ عـلـىـ الـمـصـرـيـنـ فـرـجـلـ مـنـهـ ؟ـ وـمـنـ هـنـاـ ضـاعـ تـارـیـخـ عـرـابـیـ وـأـنـکـرـهـ بـنـوـ قـوـمـهـ وـنـجـحـ الـاحتـلالـ فـمـأـرـبـهـ فـسـاقـ الجـيلـ الذـيـ خـلـفـ جـيلـ عـرـابـيـ کـاـ يـحـبـ ، فـأـضـافـ هـؤـلـاءـ إـلـىـ عـيـبـ خـضـوعـهـ لـلـدـخـيلـ فـضـيـحـةـ مـشـايـعـتـهـ فـيـماـ یـسـبـهـمـ بـهـ فـيـ شـخـصـ بـطـلـ مـنـ أـبـطـلـهـ !ـ...ـ وـيـجـدـرـ بـنـاـ أـنـ نـضـعـ أـمـامـ عـيـنـيـ القـارـيـ، بـعـضـ مـاـ کـتـبـهـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـ تـعـقـيـباـ عـلـىـ

المؤامرة قال في كتابه إلى بلنت « كانت الوزارة يخالجها منذ زمن طويل شبهات عما عسى أن ينجم من شر ، ف幡د أن عاد راتب أول مرة إلى مصر ، طلب البارودي رئيس الوزراء الحالى وكان يومئذ وزير الحرية ، من شريف باشا في حضرة الخديع بإخراج راتب ، فقد دخلته الريبة بسبب أن راتباً ترك الخديع السابق خلأة في نابلي ولكن شريفاً رفض ذلك على الرغم من أن البارودي حمله تبعه ما عسى أن يقع من الحوادث يوماً ما ، وكان ذلك لأن راتباً كان صهر شريف ، وربما كان شريف لذلك رأيه في العمل على إعادة إستعماله » .

ثم قال الشيخ عبده «وقد أحدث هذا الحادث شيئاً من الهياج بين عامة الناس . إن كل أمرىء يعلم أن حياة عراقي معرضة للخطر كل يوم كحياة غيره ؛ كما أنه لا يتفق لرجل مهما يكن من عظمته إلا يكون بين الناس من يريده بالسوء ؛ ولكننا لا نسمعا إلا أن نضحك إذا أُعلن أن الجلترة على وشك الفوضى لأن أحد المجنين من المدنيين أو من العسكريين حاول قتل ملككم ».

وليت هؤلاء المفروضين قد افتصر أمرهم على الكذب والاتهام ، فلم ينطقو تلك الخطوة النكراء التي أكدهت القطيعة بين الخديو والوزراء وجعلت الكارثة للبلاد ؟ وما كانت ادعاءاتهم إلا مقدمة بدأوا بها ما كانوا يبيتون من المكر السيء يقول في ذلك بلنت « وفي تلك الأثناء بلفت الحوادث في مصر مبلغاً عظيماً من الهرج بسبب المؤامرة الشركية التي وصلت أنباءها لنون في الأسبوع الثالث من أبريل ، ولم أغفر لها أول الأمر كثيراً من الاهتمام وأخذتها على أنها إحدى الشائمات التي كانت تذاع يومئذ ، ولكن سرعان ما أصبحت ذات خطر كبير لامن حيث هي في ذاتها ولكن بوجه خاص لأنها أمدت رجالنا السياسيين بالفرصة التي طالما تربواها ، لكي يوقوا الخلاف الصربي بين الخديو ووزرائه ؛ وكان ماليت يومئذ قد خضع تمام الخضوع لـ سكافن ، وصار منذ ذلك الحين يهتمDI في حر كانه حتى النهاية بما يعرض كلفن من آرائه الانجليزية الهندية » .

卷之三

عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط في يده ؛ أبوافق على هذا الحكم فيظهر أمام الأنجلزيز أنه يظاهر وزراءه فيخسر الذين يظاهرون له هو ، أم يرفض التصديق عليه فيرضى الأنجلزيز وبقى على كل أمل في إرضاء عواطف الوطنين ؟

وكان مالت قد أشار عليه برفض هذا الحكم الذي ينطوى على القسوة والظلم على حد قوله ، وللقاريء أن يقدر مبلغ ما في هذا التدخل من تغافل وقحة إذ ما شأن مالت وهذا الحكم مما كان ظالماً كائلاً زعماً ؟ وإنهم ليملون أن جلسات المحاكم العسكرية كانت سرية حتى في عهد المراقبة ، وأن الخديو لا يملك رفض أحكامها وكل ماله من حق في هذا الصدد هو تخفيض تلك الأحكام بعض الشيء بعد التصديق عليها ...

حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الأمر جد خطيراً ، وأى شيء أخطر من أن يتحدى وزراءه في غير حق وفي موقف كهذا تحيط فيه بهم الدسائس من كل جانب ويترصد طريقهم من الصعب ما يتطلب تذليله جهوداً متواصلة .

لذلك وقف الخديو أول الأمر موقفاً مبهمـا ، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من ناحية وعن الوزارة من ناحية أخرى ، وكلاً من يوم ازدادت ريبة الوطنين وتعاظم غيظهم وغضبهم ، ووُجِدَت الدسائس الجو الصالح لنجاحها ، فنشطت نشاطاً كبيراً ؛ ولازم مالت الخديو يوحى إليه ويتوسوس له .

ولم تطل حيرة توفيق فإنه آثر جانب مالت ، وخطأ بذلك خطوة أخرى من خطواته التي كانت تجعل سير الحوادث أبداً نحو الفاجعة التي رسها الإنجلزيز والتي كان يلوغها من جانبهم معناه التهاب مصر وازدراد تلك اللقمة التي طالما منت إنجلترا نفسها بازدادها ...

ولعلنا نذكر من موافق توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث في طريق العنف والثورة دفعـا ، فهو الذي أدى إلى انضمام الحزبين العسكري والوطني وتصافرـهما يوم تذكر للدستور وأخرج شريـفاً من الوزارة ، وهو الذي تقع على عاته

قبل غيره مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذي قبل المذكرة المشتركة فأحيطت أعمال شريف للمرة الثانية وصادم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه .

وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية إلى الاقتراب من الكارثة فهو إنما يعمل بوحى من الإنجليز وقد عين هؤلاء الهدف الذى يقصدون إليه بسياستهم ؛ وكان الخديبو قد دان عبداً خسب أنه جرى في نفسه مجرى المقيدة وذلك أن يؤثر جانب الإنجليز فى كل شيء لأن فى ذلك كا توهم منجاته من الصعاب التي كانت تحيط بعرضه .

رأى الخديبو كا أوحى إليه مالت أن حكم المجلس العسكري على التآمرين من الشراكة حكم لا يسمى الموافقة عليه ، ورأى الوزارة من جانبها أنها سلكت في المسألة منذ بدايتها مسلكاً لا غمiza فيه فهى بذلك تتمسك بالحكم الذى أصدره المجلس ، هذا إلى أن رفض الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينقص من نفوذها ثم إنها إلى ذلك ترى التحييز واضحًا من جانب الخديبو ، ذلك الذى كان يتشدد بالأمس أعظم التشدد يوم سيق عرابى واصحابه إلى السجن لا لشيء سوى أنهم شكوا إلى أولى الأمر حالم ... ومن هنا قامت أمام البلاد مشكلة من أدق المشاكل وأخطرها . وكان الذى يغصب الأمة والوزارة في الواقع أشد الغضب وألمه تدخل الإنجليز في تلك المسألة التي لا صلة لهم بها ولا شبهة صلة ، وأحسنت الوزارة أن غرضهم هو إخراجها خسب ، ومن هنا أخذت المشكلة مظهراً دقيقاً غایة الدقة ، خطيراً كل الخطير ، فلقد وجد الوطنيون البلاد تلقاء موقف تختنق فيه الكرامة الوطنية والعزيمة القومية ، ورأوا الظروف تعود من جديد فتظهر للخديبو أن لا سبيل له إلا سبيل الوطنيين لأنهم بانحرافه عن هذه السبيل إنما يطعن البلاد طعنة نجلاء في صميم قوميتها .

ولقد فرح المسقعمون لا ريب أن تتعقد المشكلة على هذا التحو ، وزاد فرجهم أنها من صنع أيديهم ، لذلك كانوا لا يألون جهداً في العمل على تفاقها

بكل ما وسعهم من مكر وخبث ، وراح تحفه تم تزيد نار الخلاف اشتعالا
لا تتورع ولا تتوانى ، ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصورون مصر في
أشنع حالات القوضى والاضطراب فلقد سيطر رجال العسكرية وسيطر زعيمهم
عرابى على كل شىء حتى ما يقف في طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها
الديون والظروف على مصر .

وكان الخديو في الواقع تلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان
يبيت لها ، ولكنه ألقى نفسه سليم الإرادة أمام إرادة الإنجليز ، بل إنه في الحق
قد فرح أن يلطم وزارة البارودى اطمة يتخلص بها منها ويتخلص من عرابى
الذى بات يغار منه أشد الغيرة ويعتقه أشد المقت حتى ما يطبق أن يسمع اسمه .
وليت توفيقاً تحرك من تلقاء نفسه ، إذاً لحان الخطب وخفت وطأة البلوى
على النفوس ، فقد كان يمكن أن يقال يومئذ إنه ارتى رأياً ، وإنه ينتوى الخير
أو ينتوى الشر حسبما يرى ، ولكنه وأسفاه كان يقوى على الوطنين بضمفه ،
فلم يكن يريد شيئاً وإنما كان يراد له كل ما يأخذ أو يدع من أمر ...

وبدالالت فأوعز إلى الخديو أن يتخلص من المأزق بمرض الأمر على السلطان
وحججته أن عثمان رفقى يحمل لقب الفريق ، فلا يجوز لأحد غير السلطان أن يتزعزع
منه هذا اللقب ؛ وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به مالت فزاد الأمور
ارتباً كاماً وتعقيداً .

ولقد أخطأ مالت خطأً كبيراً فيما أشار به ، فإنه جر بذلك تركياً إلى الدخول
في ذلك النضال ، الأمر الذى كانت تخدره الدولتان أعظم الخدر ، وإن كانت
إحداها تخفيه ، بينما الأخرى لا تتحرج من أن تعلن في كل مناسبة وتبيده ...
أما الوطنيون فقد غضبوا بذلك أشد الغضب ، ورأوا فيه ضرباً جديداً من
لؤم مالت ، فأجمعوا أن يمنعوا تدخل تركياً مهما كلفهم ذلك من وجوه الصعاب
والشاق . وبلغ الغضب برئيس الوزراء أن أعلن في عزم مصمم « أنه إذا أرسل
الباب العالى أمراً بوقف حكم المجلس العسكري على الشراكسة السجناء ، فإنما لن

نطیع هذا الأمر ، وإذا أرسل الباب العالي من قبله مندوبي ، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر ، وسوف زردهم بالقوة إذا لزم الأمر »^(١) .

وهذه لاريب ثورة غضب من البارودي نعدها من أخطائه ؛ فقد أفضى بهذا التصریح إلى مات ، وهذا أرسله إلى حکومته وإنه لشديد الاغتیاط به إذ یسوقه دليلا على أن الأمور قد بلغت غایة الحرج ؛ ثم إنہ یسوقه من جهة أخرى دليلا على صحة ما ذكره صراراً وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة . ولم ینج عربى من حلقات الکاذبين له وحمل مسؤولية هذا التصریح كأنما كان هو قائله ، وأرجف المرجفون أن البارودي إنما یعمل بوحى من عربى الذى یعد الحاکم الحقيقى للبلاد !

الحق أن البارودي قد أساء إلى القضية إساءة كبيرة بهذه التصریح . فهو فضلاً عما ذكرنا ، إنما یتحدى السلطان في ذلك الوقت العصیب فيضییف إلى أعدائه عدواً جديداً ، وإن الذى یحيط به الأعداء من كل جانب لجدیر به أن یحتال لیستول السخاھ من صدورهم ، أو یکسب من الأعوان والأصدقاء من یکونون له في الشدة قوة وسنداً .

وكان النتیجة المباشرة لهذا التصریح استھکام الأزمة بين الوزارة والخدیو ، فقد رأى توفيق أنه أصبح في الواقع وليس له من الأمر شيء ؛ فإذا كان البارودي يقف هذا الموقف في وجه السلطان نفسه فكيف إذا جاءت المعارضة من الخدیو ؟ وهذا هو المعنى الذى لا يفتأ مات وأعوانه یوحونه إلى الخدیو في تلك الأزمة العصیبة . ولو كانت الوزارة أصرت يومئذ على موقفها من المناد والصرامة حللت قسطماً كبيراً من التبعية عن تمدد الأمور وخرجها ، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقاً ، كانت تنتظري على كثير من الكیاسة وبید النظر ، فأئمها تقدمت إلى الخدیو فتقرح أن يخفف هو الحکم من تلقاه نفسه دون الرجوع إلى تركيا أو غيرها . والوزارة ترضى أن ینفي الحکوم عليهم من مصر إلى أي جهة من الجهات دون أن

(١) Modern Egypt — Cromer.

تمس رتبهم أو ألقابهم وإنما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش المصري ...
وهذا المقترح لا ريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها في أن تنتهي
المسألة وتنجو البلاد من كيد الأعداء ، وهي فيما تقدمت به على هذا النحو متساهلة
في الواقع أكبر التساهل ، فا دام المجلس العسكري قد حكم بإدانة هؤلاء فإن
إبعادهم من البلاد يقتضي إبعادهم من سجلات الجيش ؛ ولكن الخديو وأسفاه
قد تتمر وتنكر ، فرفض أن يحيطها حق إلى هذا المقترح ...

وكان مالت من ورائه لا ينفك يوسم له ويزن فعل السوء ؛ وكان جراحته قد أنكر من مالت ما أشار به على الخديو من دعوة تركها إلى التدخل ، فكتب إليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا ، وفي هذا تلميح إلى ما كان في سياسته من خطأ ، وكان ممثل فرنسا يسير بوجي من فرسنه ؟ ولكن عز على مالت أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه من غزل بيده ، فانظر إليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد ممثل لها في سجل السياسة العام فيكتب إلى جراحته قائلا : « اسمحوا لي أنلاحظ أنه عند النظر في الخطأ التي يجح أن يسلكها الخديو بأذاء حكم المجلس العسكري يجح أن نلق نظرة عامة على الحال كلها ، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسمى لتضييق نطاق الحياة الإنجليزية الفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم في النقصان ، وقد يستحبيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى نخضد شوكة الحكم العسكري الذي يرث القطر تحته الآن وفي اعتقادى أنه لا بد من حدوث ارتياكات شديدة قبل الوصول إلى حل مرض المسألة المصرية ، وأن المحكمة تقضى باستعمال هذه الارتياكات لا يتأجيلها »^(١)

وأى كلام يمكن أن تعلق به على هذا الذى يقول مال وبنهاية تلك الحكمة
التي يشير إليها ؟ أهكذا نطفن المطاعم على العقول والقلوب حتى نجعل من الحكمة
استعجال الارتباكات ؟ ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبدا الأساس الذى
يقوم عليه منطق الكلام بين القوى والضعف فى هذا الوجود !

(١) المسألة المصرية تعرب الأستاذون العيادي ويدران

وأى دليل أبلغ من هذا على صحة ما ذكرناه وما يذكوه كل منصف عن «السياسة الإنجليزية بجاه مصر منذ كان لها في هذا الوادي أطامع؟ إلا إننا لنقرر تلقاء هذا في غير تردد أن هذه السياسة اللثيمة كانت خلية بأن تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة، بل إنها سياسة كان يفتقر في مقاومتها يومئذ كل عنف؟ ونحب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها سياسة كان لا يفتقر معها الاعتدال ولا تتعصّح الحكمة، إن كان الاعتدال والحكمة معناها إقرار المذلة ومقابلة الغدر واللؤم بالصفح والمغفرة!

ولكن بعض الناس لا يرون يأخذون على عربى وحزبه تشديدهم وعدم مصانعهم خصومهم ويمدون إيمانهم الوطنى من السينات التى لا تفتقر ولا تنسى؛ وما نظن أن هؤلاء الناس يعلمون ما كانت تبنته السياسة الإنجليزية لوطفهم من غدر وإذلال، فن أصبح الأمور أن يتصور المرء قبولهم الذلة على أوطانهم حتى ينكروا على الوزارة ما فعلت ...

ورأى جرنفل أن يشایع فرسنيه في هذه المسألة، وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهي الأزمة؛ ولكن كيف يدع مالت الفرصة عمر وهي من صنع يديه؟ وكيف يطبق أن تخرج الوزارة من الأزمة ظافرة فيكون ظفرها في الواقع هزيمة له؟ لذلك لم يزل بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفي المتآمرين إلى خارج البلاد لا إلى السودان مع عدم استبام أحد أسمائهم من سجلات الجيش، ومعنى ذلك أن النفي مؤقت ...

وتلقت الوزارة المطمة وتلقها معها البلاد؛ وألم عربياً وضباط الجيش من الوطنيين هذا الترقى بالمتآمرين، وقد كان عربى ومن شابعه على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالأمس أو ينفوا إلى أقصى السودان لأنهم شكوا من سوء ما صنع بهم رفق ...

وأعلنت الوزارة على اسان رئيسها أن لا بد من قرار يلغى هذا القرار حتى تحيى الإهانة التي وجهت إلى الوزارة وإلى البلاد في شخصها؛ ولكن مالت

حضر الخديو أن يجرب وزرائه إلى ما طلبوا ؛ ويستطيع القارئ أن يدرك خطورة هذا الموقف ، فلقد تأكّدت القطيعة بين الخديو ووزرائه ، واندّمت الصلة وفُقِّام البلاء ...

وصل كل من الطرفين إلى الموقف الذي يُفسّر فيه كل عمل حسب ما يجري في أطواء التفوس ، ففي كل حركة ريبة ، وفي كل بادرة إهانة ، وكل نية ان تكرن إلا نية سوء ، وكل جنوح إلى السلم لن يؤخذ إلا على أنه ضرب من المزيعة والتسليم ، وكل كلمة نابية أو شديدة ان تفهم إلا على أنها نوع من التحدي يراد به إعانت القلوب وإخراج الصدور ...

وفي هذا الموقف راح مات يجني ثمار غرسه وإنه ليطفر من الفرح كا يطفر الشيطان . كتب إلى جرانفل في اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، أي بعد قرار الخديو بستة أيام يقول « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف إلى أقصى الخطورة »

ونقدمت الوزارة لترد على الخديو نقطت خطوة جريئة بالغة الجرأة ، فدعت مجلس النواب من عطلته دون الرجوع إلى الخديو لتمرّض عليه الأمر ، فازدادت الأمور حرجاً على حرج ، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بانتباها خروج على الحكم الشرعي لا يقل في مغزاها عن خلمه من عرشه ، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذي دفع الوزارة حتى أوقتها في مأزق ضيق بمحبث لم يبق أمامها إلا أن تقر الخديو على خروجه على الدستور رماسياً أعداء البلاد أو تستقيل ، وفي كلا الأمرين تفرضت منها في حقوق البلاد فضلاً عن كرامة رجالها وانطلقت الشائمات من هنا ومن هناك ، فالبارودي يريد أن يثبت إلى العرش والجيش على أنه لأن يتحرك إلى عابدين ليُرغم توفيقاً على قبول مطالب الوطنين كما أرغمه على مثل ذلك في اليوم التاسع من شهر سبتمبر من العام الماضي ، والخديو بعد العدة للمقاومة ، إلى غير ذلك من الأراجيف التي كان من طبيعة ذلك الموقف أن يخلّقها .

ولو كانت الروح المسيطرة هي المسكينة على الحكم يومئذ كأرجف المرجفون لما وقف دون الجيش حائل إلى القصر ول يكن بعد ذلك الفسر أو الطوفان ، ولكن الوزارة رأت أن تتحكم إلى نواب البلاد ، ولما كانت واقفة أن الخديو ان يدعو المجلس دعته هي ليحصل في الأمر ولا عبرة بالشكل في سبيل تحقيق الجوهر .

وسمى رئيس الوزراء عن وجهة نظره في دعوة المجلس دون الرجوع إلى الخديو ، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزيرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه وبينهم ، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته في هذا ، ثم قال «إن شكوكانا من سموه هي أنه سلك مسلكا يقتضي على استقلال مصر ، وكثيراً ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه»^(١).

والحق أن توفيقاً كان يود التخلص من هذه الوزارة بأى ثمن وكان فيها البارودي الطامع في عرشه ، وعرابي زعيم مصر وقائد حركتها القومية ، الذي يسير بطبيعة حركته في طريق تعدد عند الخديو طريق الضلال والعصيان وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبراً ، وأى شيء هو ألم لنفسه من أن يرى فلاحاً من أبناء هؤلاء الذين ماتلخقو في رأيه إلا للفأس والطاغة يتربع على كرمى الوزارة ويتكلم إذ يتكلم باسم الأمة ، ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الأمة ؟

ولقد عاب كثير من الناس على البارودي وعرابي مسلكهما تجاه الخديو في الأزمة ، وحجتهم أن الواجب كان يقضى على البارودي أن يترك الحكم ما دام الخلاف قد استحكم بينه وبين الخديو ؛ ولقد يبدو هذا الكلام وجهاً لمن ينظرون في النتائج دون تحيص القدرات ، أما الذين لا يصدرون حكماً إلا عن تقصص وفهم لهم لا يذهبون مذهب هؤلاء ، ولا يقيسون قياسهم .

وليست المسألة دقيقة على الأفهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأي ، فحسب هؤلاء العائين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بمحى من الأنجلترا وعلى ذلك فإن إجابته لن تكون إلا تسللها لأعداء البلاد الأمر الذي لن يقبله وطني

ولو أن الأمر كان خلافاً بين الخديو ووزرائه ، وكان الخديو يريد وجه الوطن
فالسييل واضحه أمامه ، وذلك أن يحتمكم إلى الأمة ممثلة في مجلسها النيابي ، ويحمل
للمجلس عن طيب خاطر القول الفصل في الخلاف ...

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم
 وإنها لفي موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدسائسين ومحاربة الطامعين ، وإن
الخلاف بينها وبين الخديو في جوهره خلاف على السلطة لن تكون؟ ... كلا ،
بل إنما لنرى استقالتها في مثل تلك الظروف ضرباً من الفرار ومثلاً من أبلغ أمثلة
الضعف ، وبخاصة إذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على النحو الذي نذكره
والذى لن نجد دليلاً على صحته أبلغ مما ذكره كرومر في كتابه حيث يقول عن
الخديو « إنه بين لسيير إدوارد مالت في يوم ١ مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض
امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود إليها السلطة المنظمة على أن تبقى في مثل تلك
الفوضى » ؛ ومعنى ذلك أنه كان يريد أن تطلق يده في مصر فيحكمها كما يشاء
ولا عبرة في سبيل الوصول إلى هذا الفرض بما تفقد مصر مما حصلت عليه من
امتيازات خطط بها خطوات واسعة نحو الاستقلال ...

لم يكن أمام الوزارة إلا أن تحتمكم إلى نواب الأمة ، وقد بلأت إلى ذلك بدعة
المجلس إلى الاجتماع ما ذام الخديو لم يدعه ...

ووقفت وزارة البارودى لاتتحول ولاتلين ، فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة
فيها ، ثورة قومية كاروع وأجل ما تكون الثورات القومية ، وهو موقف نراه
جديراً بالأعجاب والتقدیر ، وما نحسبه لو كان في بلد غير بلدنا إلا كان يعد من
الواقف الشهودة التي تذكر في مواطن الفخر والمباهة ...

وكانت الوزارة قوية بادىء الأمر لأنها كانت معززة بالنواب وإجماعهم على
الأخذ بنصائحها ولكنها نظرت فإذا بينهم تغافل وفي صفوفهم إسرار وإعلان !
وإذا كبرتهم سلطان يدعوهم إلى الحكمة والروبة ... وكم تحمل على الحكمة والروبة
أعمال ليست منها بسبب من الأسباب !

قال سلطان باشا يومئذ للسير إدوارد مالت « لقد أسقط المجلس شريطاً تحت ضغط عربي ، وإن نفس الأعضاء الذين أتوا في ذلك أكثر من غيرهم يتوقعون اليوم إلى إسقاط الوزارة وقد استبان لهم أنهم خدوا »^(١) ولو اطلع عربي على الغيب يومذاك رأى أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا الذي بدأ ينكر للحركة القومية ، تلك الضربات التي سوف يسددها إلى قلب مصر في ضجيج الجهاد وسكنات الاستشهاد

أناخ سلطان إلى توفيق منذ ذلك الوقت فطلب من النواب الحكمة والروبة وما نلقى هذا القول على عواهنه فهذا كلامه مالت الإنجليزى عدو مصر الألد يبنيه عن ذلك إذ أنه يكشف الوزارة أمام البكائين لها من الإنجليز ويجعلهم يستهينون بما تستند إليه من سلطة الأمة

وكتب مالت إلى حكومته في اليوم الثالث عشر من شهر مايو يصف الحال في مصر ، أو على الأصح يصف مبالغ ما أصابته من نجاح دسائسه مجرامية ، قال « يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون إلى جانب الخديو ولقد سألا سمه أن يأخذ بالعقوبةصالح وزراءه ، ولكن الخديو رفض ذلك ... ويصر سمه على رأيه فلن يصلح وزارة تحدده صراحة وتهدده هو وأسرته ، واعتذر على القانون بدعة المجلس إلى الانعقاد دون الرجوع إليه ، وفي القاهرة قدر غير قليل من القلق ، وكثير من الناس يغادرونها »^(٢)

إذاء موقف السلطان وفريق من النواب الخلل عن رئيس الوزراء عزمه ، وزرائيل إصراره شيئاً فشيئاً ، حتى رأت البلاد البارودي يرفع إلى الخديو استقالته فيترکب بذلك إنما نعيمه عليه أشد العيب فقد كان عليه أن يستطلع رأى النواب صراحة في جلسة يعقدونها ، فإذا ناصروه كان عليه أن يبقى في مكانه حتى يقال فيحظى بشرف الإقالة أو ينتصر فيكون له خفر الانتصار ...

(١) M, Egypt .

(٢) " .

لقد رفض النواب أن يجتمعوا في مجلسهم ، أى أنهم رفضوا أن يشأموا الوزارة في تحدى الخديو ، واجتمعوا في منزل رئيسهم ، ولكن هذا أمر شكلى لا يمس جوهر الموضوع ، فالأمر الذى كانت بهم الوزارة هو معرفة رأى ممثل البلاد ، سواء لديها اجتماعهم في مجلسهم أو في أى مكان ، فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين إلا أن هذا رسمي وذاك غير رسمي ؛ ولم يكن الحال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو في مهامه الذى اختاره على الرغم من إرادة البلاد ؛ وهل كان نواب الشعب الفرنسي الذين التقوا في ملعب التنس في مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لأنهم لم يجتمعوا في قاعة مجلسهم ؟

الحق أن البارودى قد هدم ما فعل جيئاً باستقالته هذه ، ولو أنه نال شرف الأقالة ، لكان منطقة متقدماً والأضاف بذلك إلى نفسه وإلى وزارته معنى من معانى الآباء وحمل الخديو والوحين إليه وزراً جديداً يضاف إلى سابق أو زارهم .

وعجز الخديو عن أن يقيم في مصر وزارة ، فقد أشفق من الحكم الرجال يومئذ وأشفع مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رياستها عملاً باقتراح ممثل إنجilterra وفرنسا اللذين صار لهم الآن حق إسقاط الوزارة إلى من يرضيان عنهم في مصر . وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم أنهم لا يستقيلون إلا إذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب *

هنا يعود عرابى فيثب إلى مكان الصدارة من حوادث قومه بعد أن تتجلى البارودى ، ولقد كان عرابى في الواقع في رأى الناس وفي رأى الأوروبيين في مكان الصدارة دائمًا وإن كانت رئاسة الحكومة للبارودى ...

عاد عرابى فوثب إلى الطليعة ، وقد ضاق البارودى بالأمر ذرعاً ؛ فهو الذى أوحى إلى الوزراء بما فعلوا وقد عز عليه أن يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الأمة ، وتلك خطوة أخرى نصفيفها في غبطة ونفر إلى سالف خطواته ...

ووقف عرابي في مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسمه إذا وقف في
أصر يرى أنه الحق؛ ولقد صور المبطلون وقوته هذه أنها عودة إلى الثورة المسلحة
وأنه يوشك أن يفاجئ البلاد يوم آخر كيوم عابدين، فما حفل كلامهم ولا خشى
تهديدتهم؛ وكتبت الحكومات إلى ممثليها في مصر أن «يرسلوا إلى عرابي
فيبلغوه أنه إذا صاح النظام خلل فسوف يجدد أوروبا وتركيا كما يجدد إنجلترا وفرنسا
ضدكم، وأتمهم بحملونه تبعة ذلك»^(١)

وتفق عرابي هذا الكلام رابط الجأش، وإن كان ليقطن إلى خطورة الموقف
وأصر ذلك الفلاح الذي لو لا ما كان من حيته وأفنته منذ حداته لكان يجيز
الفأس يومئذ في حقل من حقول هرية رزنة ولا يدرى من أمر السياسة والحكم شيئاً
وظل الرجل على عناده يكشف عن كرم عنصره فيفهم من يريد أن يفهم أن
ين أولئك الفلاحين من أمثاله الذين يجيزون فتوسهم في صبر وصمت في حقول
هذا الوادي رجالاً لا ينقصهم إلا العلم والحرية ليهروا العالم بيسارتهم وبيوغهم ...
وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودي وعرابي معاً « أنه ليس من الممكن

تنمير الوزارة ما دامت القوة الحربية مجتمعة في يد عرابي باشا»^(٢)

ولم يكن يدرى سلطان أن وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها مقام غيرها.
لم يكن يدرى سلطان أن هذه القوة الحربية التي يشير إليها كانت قائمة في مصر من
قبل فلم يظهر أثرها وخطرها إلا في يد عرابي دون غيره من الرجال، ولو أن رجال
وطنه جميعاً التفوا حوله ما نالت إنجلترا منهم شيئاً ولوسوف يكون سلطان هذا
وأمثاله من نكبت بهم مصر، من أكبر عوامل المهزيمة يوم التل الكبير

حلت الأزمة بأن أشار مثلاً إنجلترا وفرنسا على الخديو « بأن يطرح المسائل
الشخصية جانبًا، ويعاً أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فأتمهم يطلبون إليه
أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

وبقيت الوزارة في كراسيها ، وانتصرت كلة الأمة من جديد على يد ذلك
الذى خرج من هرمية رزنة ولم يلق إلا قسطاً من العلم فى الأزهر ، والذى درج على
الرغم من ذلك فى مدارج الرق ، فكان نعوه كما تنمو الشجرة الطيبة لا كا ينمو
المليق الذى لا يرتفع إلا على غيره ...

ولولا ذوى الأطماع من التربصين بعصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا
الانتصار أطيب النرات ولعزت بذلك كلة الأمة حتى ما تذل بعدها أبداً ...
ولكن مصر وأسفاه سوف تجني من انتصارها هذا المعلم والخنفل



بني وعدوان

وَكَيْفَ كَانَ تَرْجِي لِصْرِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِنْجِلِيزِ وَرَاءِ الْخَدْيُو يَتَرَبَّصُونَ
وَيَكْيِدُونَ ؟ لَقَدْ آتَى لِمَالَاتِ الْآنَ أَنْ يَدْعُو حَكْوَمَتَهُ إِلَى التَّدْخُلِ الْمُسْلِحِ فَقَدْ حَانَتِ
السَّاعَةُ وَوَاتَّ الْفَرْصَةُ ، وَلَنْ يَهْمِ إِنْجِلِيزَةُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُدْرِبَةُ لِكُلِّ مَا حَدَثَ
فَإِنْ يَكُونُ احْتِيجَاجُ الضَّعْفَاءِ إِلَّا صَرْخَةً ضَائِعَةً ، وَلَنْ يَكُونُ مَنْطَقَهُمْ إِلَّا ثُرْرَةً ،
وَشَكْوَاهُمْ إِلَّا تَبَجِحَّاً .

لَمْ تَكُنْ فِي الْبَلَادِ نُورَةٌ وَلَا خَافَ فِيهَا أَجْنَبَى عَلَى حَيَاَتِهِ أَوْ مَتَاعِهِ ، وَلَكِنْ
أَعْوَانُ السَّوْءِ صُورُوهَا يَوْمَئِذٍ صُورَةً مُنْكَرَةً ازْجَعَتْ مِنْهَا أُورُوبَا أَشَدَّ الْازْعَاجِ ،
مَعَ أَنْ هُؤُلَاءِ كَانُوا يَعْلَمُونَ حَقْيَقَةَ الْأَمْرِ وَيَوْقَنُونَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَمُدُّو أَنْ تَكُونَ
خَلْفَأَ بَيْنَ الْوِزَارَةِ وَالْخَدْيُو مَا كَانَ ليَبْلُغُ مَا بَلَغَهُ مِنَ الشَّدَّةِ لَوْلَا تَدْخُلَهُمْ عَلَى ذَلِكِ
النَّحْوِ الْأَثِيمِ الَّذِي يَبْنَا .

لَمْ تَكُنِ الْبَلَادُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْفَوْضِيِّ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُبَطَّلُونَ ؛ وَحَسْبَنَا
أَنْ نُورِدَ هُنَا بَعْضَ مَا جَاءَ فِي كِتَابَيْنِ أَرْسَلَهُمَا عَرَابِيَّ بَاشَا إِلَى مَسْتَرِ بْلَنْتَ ، وَكَانَ
ذَلِكَ فِي أَوَّلِ شَهْرِ إِبْرِيلِ أَيْ قَبْلِ الْأَزْمَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدِّهَا بَنَحْوِ شَهْرٍ ؟ قَالَ عَرَابِيَّ
« وَفِيهَا يَتَصَلُّ بَنَا فَنَحْنُ نَشَكِّرُكُمْ عَلَى مَا أَسْدَيْتُمْ مِنْ صَنْيِعٍ يَهُمْ مَصْرُ وَإِنْجِلِيزَةُ
مَا وَإِنَا نَأْمَلُ أَنْ تَكُونَ إِنْجِلِيزَةُ أَقْوَى صَدِيقٍ يَعِينُنَا عَلَى وَضْعِ نَظَامِ طَيْبِ مؤْسِسٍ
عَلَى الْحَرِيَةِ وَعَلَى أَنْ نَحْذُو حَذْوَ الْأَمْمَ الْمُتَمَدِّنةِ . »

وَأَمَّا عَنْ نَصِيْحَتِكَ الَّتِي تَعْطِفُتْ فَأَسْدِيْتَهَا إِلَيْنَا ، فَإِنَا نَشَكِّرُكُمْ عَلَيْهَا ، وَنَرْجُو
مِنْكَ أَنْ تَقُولَ عَنَا إِنَّا لَا نَأْلُوا جَهَدًا فِي الْحَفْظَةِ عَلَى الْمَهْدُوِّ وَالنَّظَامِ ، لَأَنَّنَا نَهْدِي
ذَلِكَ وَاجِبًا مِنْ أَهْمَّ وَاجِباتِنَا ؛ وَإِنَا لَنْنَحَاوِلُ أَنْ نَحْظِي بِالْبَنْجَاحِ . وَنَسْتَطِعُ أَنْ
نُؤَكِّدَ لَكَ أَنَّ الْمَهْدُوِّ الْآنَ يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَالسَّلَامُ يَسُودُ الْبَلَادَ كَاهَا ، وَنَحْنُ

نبذل غاية ما في وسعنا وعمنا إخواننا الوطنيون للدفاع عن حقوق من يقيمون في بلادنا ، بصرف النظر عمـا ينتمون إليه من الأـمـم ، وإنـا نـحـترـمـ كـافـةـ المـعـاهـدـاتـ والـانـفـاقـاتـ الدـولـيـةـ كـلـ الـاحـتـرامـ ، وـلـنـ نـسـمـحـ لأـحـدـ بـالـسـاسـ بـهـاـ مـاـ دـامـتـ الدـوـلـ الـأـوـرـيـةـ تـحـافـظـ عـلـىـ عـلـاقـاتـهـاـ الـوـدـيـةـ بـنـاـ ...

أما عـماـ يـهدـدـنـاـ بـكـبـارـ أـصـحـابـ الـمـصـارـفـ وـرـجـالـ الـمـالـ فـأـورـوـبـاـ ، فـإـنـاـ سـنـحـمـلـ ذـلـكـ فـيـ ثـبـاتـ وـحـكـمـةـ ، فـقـيـ رـأـيـنـاـ أـنـ ذـلـكـ الـوعـيدـ لـنـ يـضـرـ إـلـاـ أـنـفـسـهـمـ وـإـنـهـ لـيـؤـذـيـ ذـلـكـ الدـوـلـ الـتـيـ يـضـلـاوـنـهـاـ .

وـإـنـ غـرـضـنـاـ الـأـوـحـدـ هـوـ أـنـ تـخـلـصـ بـلـادـنـاـ مـنـ الـعـبـودـيـةـ وـالـظـلـمـ وـالـجـهـلـ ، وـأـنـ تـرـفـعـ بـنـيـ مـصـرـ إـلـىـ مـسـتـوـيـ يـسـطـعـونـ مـعـهـ أـنـ يـحـولـواـ دـوـنـ أـيـ رـجـعـةـ لـلـاسـتـبـدـادـ ، الـذـيـ كـانـ يـضـعـ مـصـرـ فـيـهـ سـافـرـ مـنـ الـأـزـمـنـةـ فـزـوـيـاـ الـإـهـمـ ...

وـإـنـ هـذـاـ الذـيـ أـكـتـبـهـ إـلـيـكـ هـوـ مـاـ يـفـكـرـ فـيـهـ كـلـ مـصـرـيـ حـرـ الـقـلـ مـحبـ لـبـلـادـهـ ...»

هـذـاـ مـاـ يـقـولـهـ عـرـابـيـ الذـيـ يـصـوـرـهـ مـاـلـتـ زـقـاـ جـاهـلـاـ مـسـتـبـداـ ، وـالـذـيـ ظـلـ فـرـيقـ منـ بـنـيـ قـومـهـ حـتـىـ يـوـمـنـاهـذـاـ لـاـ يـجـدـونـ لـهـ فـيـ خـواـطـرـهـ مـنـ صـورـ إـلـاـ مـصـورـ الـاحـتـلـالـ ، فـإـذـاـ ذـكـرـتـ لـلـرـجـلـ مـنـهـ عـرـابـيـاـ رـاحـ يـتـلوـ عـلـيـكـ مـاـ لـقـنـهـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ وـأـسـفـاـهـ مـنـ أـوـصـافـ هـيـ أـبـعـدـ مـاـ تـكـوـنـ عـنـ حـقـيـقـةـ هـذـاـ الرـجـلـ الـمـظلـومـ ، وـمـنـ أـغـراضـ شـتـانـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـاـ كـانـ يـتـغـيـرـهـ لـقـوـمـهـ هـذـاـ الزـعـيمـ الـفـتـرـىـ عـلـيـهـ أـجـلـ !ـ لـاـ زـلـنـاـ مـعـ بـالـغـ الـأـسـفـ نـسـمـعـ حـتـىـ الـيـوـمـ مـنـ بـعـضـ الـمـصـرـيـنـ وـمـنـهـ مـنـ لـهـ فـيـ النـاسـ مـكـاتـبـهـ ، قـدـحـاـ فـيـ عـرـابـيـ ، فـإـذـاـ جـادـلـنـاـ لـاـ يـجـدـ لـدـيـهـ مـنـ عـلـمـ إـلـاـ أـنـ عـرـابـيـاـ كـانـ طـائـشـاـ جـاهـلـاـ ، لـاـ يـدـرـىـ شـبـشـاـ مـنـ شـئـونـ بـلـادـهـ ، إـلـىـ أـمـثـالـ ذـلـكـ الـعـبـاراتـ الـمـحـفـوظـةـ الـتـيـ لـاـ تـفـتـرـ لـصـبـيـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ ، وـإـذـاـ كـانـ عـذـرـ هـؤـلـاءـ عـنـ قـدـحـهـمـ أـنـهـمـ يـجـهـلـونـ تـارـيخـ هـذـاـ الرـجـلـ ، فـإـنـاـ لـنـ يـجـدـ لـهـمـ عـذـراـ عـنـ هـذـاـ الـجـهـلـ فـذـلـكـ هـوـ الـعـذـرـ الـذـيـ يـوـصـفـ بـأـنـهـ أـقـبـحـ مـنـ الذـنـبـ ...

لـيـنـظـرـ هـؤـلـاءـ فـيـهـاـ بـيـنـاـ مـنـ آـمـالـ هـذـاـ الـمـصـلـحـ وـفـيـهـاـ قـدـمـنـاـ مـنـ أـدـلـةـ بـسـالـتـهـ وـجـيـتـهـ ،

وليتذروا في هذا الذي يكتب أصدقه بلفت ، وليسوا أنفسهم بذلك إلا زالون
يرون في هذا الرجل جندياً طائشاً مغورراً لا يدرى من أمور بلاده شيئاً ؟
إن هذا الذي يقوله عربي لبلفت هو ما كان يرجوه المصريون من إنجلترا
قبل الاحتلال ، وهو الذي ظلوا يرجونه منها بعد الاحتلال حتى يوم الناس هذا ،
وكم تكرر في مصر من أشباء ونظائر لهذا الموقف ؟ وكم جاء مثل هذا الكلام على
أسن غير لسان عربي ، ولكننا نحجز القلم عن الاتجاه إلى غير ما نحن فيه وقصارانا
أن نقول إن السياسة الإنجليزية في مصر هي وإن تغير الزمن ، واختلفت على
موضع الرعامة الرجال ...

وقد أكد عربى نياته في كتابه الثاني وما جاء فيه قوله « إننا نميل أشد
الميل إلى التفاهم على روابط الصداقة والمصالح المشتركة بيننا وبين الدول التي تربطنا
بهم علاقات ، فإنه بالصدقة وحدتها يستطيع من لهم حقوق في بلادنا أن يجنبوا إثار
المعاهدات والعقود التي تجده من واجبنا العمل على احترامها وحمايتها ؛ فإذا وقع
خلاف فإنه لا يؤثر فيينا خسب ، ولا تكون نحن أكثر تأثيراً بها من غيرنا
إنسانا تتأثر به الدول الأخرى جميعاً وبخاصة إنجلترا ؛ ولا يخفى على السياسي
واسع العقل ما يكون من فوائد لإنجلترا من وراء مصادقتنا وموافقتنا
في كفاحنا ؟ ...

وفيما يتعلّق بالمراقبة فكمن على يقين أنه ليس هناك ما يحول بينها وبين أداء
واجبها حسب الحقوق التي قررتها الاتفاques الدولية . ولم يكن في نياتنا قط
ولا في نية أحد في هذه البلاد أن يمس حقوق المراقبين أو يعتقدى على أية معاهدة
دولية ...

ولئن كان مثلو الدول في بلادنا مخلصين حقاً لواجباتهم ولمصالح دولهم فلن
يجدوا خيراً من معاونتنا في جهودنا القومية الحقة ، ولينتبوا بأعمالهم ما يعود علينا
في أقوالهم .

لقد صممّنا أن نبذل كل ما في وسعنا لكي يكون بلادنا موضع بين الأمم

التمدن ، وذلك بنشر المعرفة في البلاد ، والمحافظة على الوحدة والنظام ، والقضاء بالعدل بين الجميع ، ولن يرددنا شيء عن عزمنا قيد أعمله ، ولن يخيفنا وعید ولا تهديد أو يلوينا عن قصدنا ؛ ولن تخضع إلا لشمور الصدقة التي تقبلها ونقرها بكل ما في وسعنا ؟ .

أما عن هدوء البلاد ، فليس هناك أى قلق ، ونحن نحاول الآن أن نقضى على ما خلفته لنا الحكومات السالفة من مساوىء .

فلندع الله أن يهدى المفكرين من رجال السياسة في أوروبا إلى الصواب ، وعسى أن يعنوا بمعرفة أحوال بلادنا وبذلك يؤدون صنيماً إلى بلادهم كما يؤدون إلى بلادنا بتقوية روابط المودة ؛ نسأل الله أن يهدي لنا جميعاً التمتع بنعمت السلام والمودة » ...

وينذكر بذلك تعقيباً على كتاب عراي أن الشيخ محمد عبده كتب إليه كذلك يؤكده في ذلك الوقت قيام النظام والسلام في مصر ...

* * *

لم تكن البلاد إذاً في حالة تدعو إلى القلق إلا إذا كان الخلاف بين الخديرو وزرائه مشكلة تستدعي حينها تدخل الدول الأوروبية حلها ، فما يتمنى علاجها إلا على هذه الصورة .

لم يكن هذا الخلاف إلا الذريعة التي باتت إنجليزية تحينها لخطوة الخطوة التي كانت سياستها طوال القرن التاسع عشر متوجهة في مصر إليها ، وكانت إنجليزية قد صدمت أن تقطع العقد إذ لم يتيسر لها حلها ، فقطعت تلك العقد تصيب في الواقع عرضين : السيطرة على مصر وهذا قصاري آمالها في الشرق ، والتخالص من مشاركة فرنسا إياها فيما هي فيه من شؤون مصر وهذا ما كانت مصلحتها توجب الإسراع في تنفيذه .

والإنجليز قوم يبغوا في أن يأخذوا كل شيء وألا يعطوا شيئاً ، وأن يستطبئوا دخلية كل عدو أو حليف دون أن يكشفوا له عن شيء مما تطاول عليه نفوسهم ،

ولهم في ذلك أساليب يعد نجاحهم فيها من أكبـر أسباب تفوقهم ...
لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا إحدى لعبـاتهم السياسية وقد سهلـت عليهم سياسة
فرسـنيه الأـمر ، فقد رأـي هذا أن تـقدم إنجلـترة وفرـنسـا عن التـدخل المـسلح فـ
شـؤـون مصر ، وفـاتهـ أنهـ إن استـطـاعـ أنـ يـوجهـ سيـاسـةـ بلـادـهـ نحوـ هـذاـ الـهدفـ ثـالـهـ
حـيـلةـ فيـ إنـجـلـترةـ إنـ اـسـتعـصـتـ عـلـيـهـ أوـ غـدـرـتـ بـهـ ..

وتقـدم فـرسـنيـهـ يـعرضـ عـلـيـ إنـجـلـترةـ مـقـترـحـاتـ لـحلـ المشـكـلةـ ، فـطـلبـ عـلـيـ لـسانـ
سـفـيرـهـ فـإنـجـلـترةـ أـنـ تـرـسلـ الدـولـتـانـ سـفـنـاـ مـنـ أـسـطـوـلـيهـاـ إـلـىـ مـيـاهـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ
وـأـنـ تـطـلـ الـحـكـومـتـانـ إـلـىـ تـرـكـياـ أـلـاـ تـدـخـلـ فـيـ شـؤـونـ مـصـرـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ ؟ـ
وـلـكـنـ فـرـنسـاـ لـاـ تـمـارـضـ إـذـاـ حـضـرـتـ بـعـثـةـ عـمـانـيـةـ إـلـىـ مـصـرـ بـدـعـوـةـ مـنـ الدـولـتـيـنـ
عـلـىـ أـنـ يـكـوـنـ عـلـمـاهـ مـعـدـوـاـ وـأـنـ تـكـوـنـ تـحـتـ صـارـبـيـهـاـ .ـ

وـرـأـيـ فـرسـنيـهـ أـنـ تـحـاطـرـ وـسـيـاـ وـلـمـساـ وـلـمـانياـ وـإـيطـالـياـ بـعـاتـخـدـهـ إـنـجـلـترةـ وـفـرـنسـاـ
حـيـالـ الـمـسـأـلـةـ الـمـصـرـيـةـ ، عـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ تـعـلـيمـاتـ تـلـكـ الـدـولـ إـلـىـ سـفـرـاـهـ فـيـ الـآـسـتـانـةـ
عـيـنـ تـعـلـيمـاتـ الدـولـتـيـنـ ...ـ

أـمـاـ عـنـ الـخـدـيـوـ فـقـدـ عـدـلتـ فـرـنسـاـ عـنـ رـأـيـهـاـ فـيـ خـلـمـهـ ، ذـلـكـ الرـأـيـ الذـىـ كـانـ
تـرـىـ قـبـلـ ذـلـكـ أـنـ لـوـ اـتـبعـ كـانـ يـقـضـىـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الصـعـابـ ...ـ
وـكـانـ فـرسـنيـهـ يـرـيدـ مـنـ الـظـاهـرـةـ الـبـحـرـيـةـ أـنـ يـلـقـىـ الرـاءـبـ فـيـ قـلـوبـ الـوزـراءـ
لـيـقـلـمـواـ عـنـ مـقاـوـمـةـ الـخـدـيـوـ فـيـنـتـهـىـ مـاـ كـانـ يـنـهـ وـبـيـنـهـ ، وـلـقـدـ وـافـقـ جـرـانـفـلـ عـلـىـ
مـقـترـحـاتـ فـرسـنيـهـ فـيـ جـلـمـهـاـ وـرـأـيـ أـنـ يـبـلـغـ الـبـابـ الـعـالـىـ وـاحـتـاطـ لـلـمـسـتـقـبـلـ بـقـوـلـهـ إـنـهـ
قـدـ تـعـرـضـ عـلـيـهـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ مـقـترـحـاتـ أـخـرىـ .ـ

وـلـكـنـ فـرسـنيـهـ لـمـ يـرـهـذـاـ الرـأـيـ ، لـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ يـرـغـبـ فـيـ التـقـرـبـ إـلـىـ تـرـكـياـ ،ـ
وـلـذـلـكـ رـفـضـهـ بـادـيـهـ الـأـمـرـ عـلـىـ أـنـهـ عـادـ فـقـبـلـهـ بـعـدـ إـلـحـافـ جـرـانـفـلـ وـكـتـبـ إـلـىـ سـفـيرـهـ
بـالـآـسـتـانـةـ أـنـ يـبـلـغـ السـلـطـانـ أـنـ «ـ لـيـسـ مـنـ الـمـسـتـبـعـدـ أـنـ تـقـدـمـ اـقـرـاحـاتـ أـخـرىـ إـلـىـ
تـرـكـياـ فـيـهـ بـعـدـ »ـ

وـأـرـادـ جـرـانـفـلـ أـنـ يـبـعـدـ عـنـ نـفـسـهـ وـعـنـ حـكـومـتـهـ تـهـمـةـ الرـغـبةـ فـيـ التـدـخلـ فـ

شُؤون مصر ، فاقتصر أن تدعى الدول الأوروبية إلى إرسال سفن إلى الإسكندرية تقف إلى جانب السفن الإنجليزية والفرنسية ؛ وما كان جرafil جاداً فيما يقول فإنه كان على يقين أن اقتراحه هذا سيقابل من فرنسا بالرفض ، ولو كانت لديه شبهة أن ستقبله فرنسا ما تقدم به ، بل لو أن هذا الاقتراح كان من جانب فرنسا لمارضت فيه إنجلترا أشد المارضة ... ولو أن إنجلترا كانت جادة في مقتراحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله ولكنها اكتفت بأن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف لا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول إلى الاشتراك في تلك المظاهرات ، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت في الموافقة على السياسة البريطانية إلى مثل ما ذهبت إليه فإن إنجلترا لا يسعها إلا أن توافق فرنسا على ما ترى ...

وآمن فرسنيه بزيارة السياسة الأنجلizية ، ولو كان غير فرسنيه في موضعه لآمن بها كما آمن هذا ، فلم يكن يدور بخالد أحد يومئذ أن إنجلترا كانت تتربى الفرصة لتفقىض على القرىنة وحدها دون فرنسا ولا ظهر من عملها ما يبعث على الريبة . ولكن الإنجليز خير من انتصاح بنصائح مكياقى في هذا العالم وخير من حذفها ، ولو قد تأخر الزمن بهذا الرجل لأخذ عنهم مبادئه ولوجد في أساليبهم وخططهم أبلغ أمثلة كتابه .

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولى الدهاء والخبرة من الرجال ؟ وما كان ليقطن إلى هذا إلا من يسىء الفتن بإنجلترا فيكون مبعث فتنته سوء الفتن لا حسن الفهم ؟ ونحن إنما نقطن إلى صراي هذه السياسة بعد أن تكشفت عنها حجب الدهاء وتعاقبت عليها السنون ، ولقد فطن إليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه الأريب ، يوم وقعت الواقعه وانفردت إنجلترا بضرر الإسكندرية غير حاسبة لأى شىء من حولها حساباً .

وكانت إنجلترا تبني من سياستها هذه أن تصرف نظر الدول عن مصر ، فإن دعوة تلك الدول إلى مشاركتها في المظاهرات البحرية يظهرها بعاظهر من لا غرض له

إلا الصالح العام في حين أن عملها هي وفرنسا يغضب الدول ويجعلها تميل إلى التدخل لتنال حظاً من الفنيمة في مصر أو في غير مصر يوم يكون الحساب وتوزع الأسلاب .

وفضلاً عن ذلك فقد كانت إنجلترا تحذر أشد الخدر أن تنقض السلطان فينجاز إلى عربى وحزبه ضد توفيق ، فيظهر عربى بظهوره المحافظ على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعى في مصر ، ضد الخديو ومشايعيه من الطامعين ، وعلى ذلك فك كل تهمة بالمعصيـان توجه إلى عربى أمام الشعب المصرى إنما تذهب أدراج الرياح وقد فطن مالت إلى خطورة هذا الأمر وكـتب إلى حـكومته يـنذرها أن إغفال تركيا من شأنه أن يضم التواب إلى العسكريـين فيـقـفـوا جـمـيعـاً صـفـاً واحدـاً ضد أوروبا أو على الأقل إنه يـقوـى جـانـبـ عـربـىـ وأـشـيـاعـهـ .

وكانت إنجلـترةـ في الواقع تتـبعـ سيـاسـةـ حـاذـقةـ أـكـبرـ الحـذـقـ ، فـهـيـ تـشـاعـ فـرـنسـاـ فيـ مـنـمـهـاـ تـدـخـلـ تـرـكـياـ ، وـلـكـنـهاـ فيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ تـحرـصـ عـلـىـ إـلـاـ تـنـقـضـ تـرـكـياـ فـقـدـ تـضـطـرـ إـلـيـهـ يـومـاـ ماـ ، وـقـىـ إـغـضـابـهـ ماـ قـدـ يـشـيرـهـ فـتـتـدـخـلـ . وـتـعـمـلـ إـنـجـلـترـةـ فيـ مـصـرـ عـلـىـ يـدـ مـالـتـ عـمـلـاـ مـتـصـلـاـ لـتـخـوـيـفـ الخـدـيـوـ وـلـإـذـاعـةـ المـقـرـيـاتـ عـنـ سـوـءـ الـحـالـ فيـ مـصـرـ ، وـذـكـرـ لـتـهـدـ السـبـيلـ إـلـىـ غـايـةـ يـفـضـيـ إـلـيـهـ مـنـعـقـ الـحـوـادـثـ كـاـتـرـعـمـهـ وـتـلـكـ الـفـايـةـ هـيـ التـدـخـلـ الـسـلـحـ عـلـىـ أـىـ صـورـةـ مـاـ عـاـفـةـ عـلـىـ أـموـالـ الـأـجـانـبـ وـأـرـواـحـهـمـ فـمـصـرـ ؟ـ وـمـاـ عـلـيـهـ إـلـاـ أـنـ تـحـمـيـنـ الفـرـصـةـ لـتـفـرـدـ بـالـعـمـلـ ، وـهـيـ لـنـ تـحـجـمـ أـنـ تـضـعـ فـرـنسـاـ أـمـاـمـ الـأـمـرـ الـوـاقـعـ كـاـ فـمـلـتـ بـأـزـاءـ مـحـمـدـ عـلـىـ حـينـ صـمـ بـالـمـرـسـتوـنـ عـلـىـ القـضـاءـ عـلـيـهـ ...ـ وـلـكـنـهاـ الـآنـ تـظـاهـرـ بـالـزـاهـةـ وـتـحـرـصـ عـلـىـ الـظـهـورـ بـظـهـورـ دـولـيـ فـمـيـاسـتـهاـ نـحـوـ مـصـرـ ، فـتـقـرـحـ اـشـتـراكـ الدـوـلـ فـالـظـاهـرـةـ الـبـحـرـيـةـ تـارـةـ وـقـرـحـ دـعـوـةـ السـلـطـانـ إـلـىـ حلـ الـأـزـمـةـ تـارـةـ أـخـرىـ ...ـ كـلـ ذـكـ فـمـهـارـةـ وـدـقـةـ وـلـكـنـهاـ معـ الـأـسـفـ مـهـارـةـ مـنـ تـجـرـدـ مـنـ الشـرـفـ فـسـهـلـتـ عـلـيـهـ غـايـةـهـ ، لـاـ لـثـيـءـ إـلـاـ نـهـ يـسـلـكـ إـلـيـهـ كـلـ سـبـيلـ وـلـاـ عـبـرـةـ عـنـهـ أـيـةـ سـبـيلـ يـسـلـكـ ...ـ

ولما وجدت إنجلترا أن فرنسا تصر على استبعاد تركيا والدول جميعاً ، كتبت إلى الدول قراراً ينفي أية نية من جانبها في احتلال مصر ، وأكدت أنها لم ترد بالظاهره البحريه إلا إقرار السلام داخل مصر ، وأنها سوف تترك مصر وشأنها إذا قضى على ما فيها من الفلاقل ؛ وإذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق إنجلترا والدول على ما تراه هي وفرنسا خير سياسة تتبع .

وتحت اللورد دوفرين سفير إنجلترا بالاستانة إلى وزير الخارجية العثماني في لمحجة شديدة قائلاً « إنه إذا لم تعمل تركيا ما من شأنه أن يسهل على إنجلترا خطتها فسوف تزيد إنجلترا عدد القطع في الإسكندرية وتطيل أمد بقائمة جيماماً هناك » .

ولكن السلطان آله وأعضبه أن توجد السفن الإنجليزية والفرنسية أمام الإسكندرية ، فلم يكف عن احتجاجه وإعلان سخطه ، مما زاد الموقف حرجاً وتعقداً

وينما كانت فرنسا وإنجلترا تتبادلان الرأي على النحو الذي ذكر ، كان الحق في مصر على الخديو يزداد يوماً عن يوم ؛ وما زال الناس في قلق وخوف من موقفه ومشاعرته الإنجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن إلى الإسكندرية ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يتعلموا الخديو في ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا لتعين على مصر غيره ؛ والواقع أنها مسألة دقيقة ، فمن الناحية الوطنية كان يرى الوطنيون ضرورة خلمه ، وحجتهم أن السكوت معناه التغريب في جانب الوطن ، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يرون أن عملهم هذا ينقلب وبالاً عليهم في ظروف كتلك الفاروق التي أذاعت فيها أوروبا عنهم المزججات من الشائعات .

وفي هذه الآونة وقع في صفوف النواب ما ينجلل أشد الجدل من ذكره ، فقد انحاز كبارهم سلطان إلى الإنجليز بعد أن تودد إلى الخديو كما أسلفنا ، وشاعر عدد من النواب ؛ ولم يكن للوطنيين من عاصم في هذه الحنة إلا الاتحاد

والثبات ؟ وكأنما تاب الأيام إلا أن تجعل من أبناء مصر بعضهم لبعض عدوأ ، وكان ذلك لكتلة ما يتذكر منهم ، من طبائعهم التي فطروا عليها ؛ ولطالما نكـ هذا الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض ، مع أنهم يرون أبداً أن الظالمين الطامعين فيهم من أهل الغرب في الكيد لهم بعضهم أولياء بعض ... وكان انحصار سلطانـ والمستضعفين من النواب إلى إنجلترا أولى نعـ المظاهرـ البحرية ، فإن سلطاناً حينما علم بها من الخديـ فـكر وتدبر فرأـ أن المستقبل للخديـ ولا إنجلـ ؛ فـلا حضرت السفن اطمـانـ إلى الإنجلـ آثرـ أن يـادر بالانحصارـ إليـمـ لتـكونـ لهـ الحـظـوةـ والمـكانـةـ عندـ أولـ الجـاهـ والـبـاسـ يومـ يـخلصـونـ منـ عـراـبـ علىـ آيـةـ صـورـةـ .

وأمثال سلطـانـ هذاـ إـنـماـ يـعملـونـ لـأشـخاصـهـ خـسـبـ ، وـعلىـ ذـلـكـ فـهـمـ عـبـيدـ القـوـةـ وإنـ تـماـظـمـواـ ، وـهـمـ أـضـعـفـ النـاسـ وإنـ تـطاـولـواـ ، وـهـمـ أحـرـصـ النـاسـ عـلـىـ عـرـضـ الدـنـيـاـ وإنـ تـظـاـهـرـواـ بـالـتـبـلـ وـالـمـفـةـ ، وـهـمـ إـنـماـ يـدـلـونـ بـجـاهـ مـنـ يـرـكـنـونـ إـلـيـهـ منـ الأـقـوـاءـ إـدـلـالـ الخـادـمـ بـسـيفـ سـيـدـهـ ؛ وـسـنـزـيـ يومـ يـكـافـاـ سـلـطـانـ بـالـذـهـبـ لـيـحـصـيـ لـهـ عـدـاـ وـيـنـقـ عـراـبـ منـ الـأـرـضـ وـتـصـادـرـ أـمـلـاـكـ الـقـيـ رـزـقـ اللهـ ، وـلـاـ يـبـقـ لـهـ الإنـجلـزـ فـمـصـرـ صـاحـبـاـ وـلـاـ وـلـدـاـ ...

ونـشـطـ مـالـتـ وـأـغـوـانـهـ مـنـ جـدـيدـ يـذـيـمـونـ أـسـوـاـ الـأـنـبـاءـ عـنـ مـصـرـ وـبـخـاصـةـ عـنـ عـراـبـ وـحـزـبـهـ ، حـتـىـ لـقـدـ وـقـفـ جـرـانـقـلـ فـيـ مـجـلسـ الـلـوـرـدـاتـ فـيـ الـيـومـ الـخـامـسـ عـشـرـ مـنـ شـهـرـ مـاـيـوـ سـنـةـ ١٨٨٢ـ يـتوـعـدـ مـصـرـ وـيـهـدـدـهـ ، وـيـصـرـحـ فـيـ غـيرـ حـيـاءـ مـنـهـ مـاـ يـكـذـبـ بـهـ عـلـىـ الـعـالـمـ أـنـ النـوابـ وـالـأـمـةـ جـيـعـاـ فـيـ جـانـبـ الخـديـوـ ।

وـكـانـ أـكـبرـ دـعـوـيـ يـدـعـيـهـ مـالـتـ أـنـ فـيـ اـزـدـيـادـ نـفوـذـ الـحـزـبـ الـعـسـكـرـيـ أـكـبرـ خـطـرـ عـلـىـ حـيـاةـ الـأـوـرـوـبـيـنـ وـأـنـ نـفوـذـ هـذـاـ حـزـبـ قـدـ بلـغـ أـقـصـىـ مـاـ يـصـلـ إـلـيـهـ مـنـ زـيـادـةـ ؛ وـالـوـاقـعـ أـنـ مـالـتـ لـمـ يـكـنـ يـهـمـ مـاـ قـدـ يـتـعـرضـ لـهـ الـأـوـرـوـبـيـوـنـ مـنـ خـطـرـ حـسـبـ مـزـاعـمـهـ ، وـإـنـماـ كـانـ يـهـمـ الـوـصـولـ إـلـىـ غـرـضـهـ بـأـيـ ثـمـنـ وـلـوـ ذـهـبـتـ فـيـ مـسـيـلـ ذـلـكـ بـعـضـ الـأـرـوـاحـ ؛ تـبـحـدـ الدـلـيـلـ عـلـىـ ذـلـكـ فـيـ رـدـهـ عـلـىـ جـرـانـقـلـ حـيـنـ سـأـلـهـ قـبـلـ إـرـسـالـ

الأسطول هل يكون في ذلك العمل خطر على الإنجليز والفرنسيين في مصر فقد أجابه قائلاً^(١) « يشرفني أن أبلغ نخامتكم أنّي أنا ورميلى الفرنسي رأى أن ما في وصول الأسطول المشترك إلى الأسكندرية من الفائدة السياسية كبيرة جداً، يفوق في أهميته الخطر الذي يمكن أن يصيب بسيبته من في القاهرة من الأوروبيين ». ويعلق روشنين على هذا الرد الذي أخفته الحكومة الإنجليزية بقوله « إن الذى زردد أن قوله هو أن هذه الرسالة أكبر دليل على سياسة السير إدوارد مالت وبره بالإنسانية. ولاريسب أنها لم يكن يقصد إظهارها، وأن الإذن بنشرها فيما بعد لما يؤخذ منه آخرى على مقدرة اللورد جرافل السياسية ، وأن فيها دليلاً واضحًا على أن كل ما كانوا يخافونه من الأخطار التي يتعرض لها الأوروبيون بسبب السيادة العسكرية كان كله زوراً وبهتاناً ولا غایة منه إلا أهمية السبيل للتدخل بالسلح . ومهمما يكن من شئ ، فإن الأمر لا يخرج عن إحدى اثنتين : فإما أن تكون هذه المخاوف كلاماً لأصل لها ، وعندئذ تتبين لنا مقدرة السير إدوارد مالت السياسية ، وإما أن تكون قائمة على أساس ثابت وعندئذ يتبعنا لنا مقدار ربه بالإنسانية . وسواء أ كانت هذه أم تلك فإن ما قاله السير إدوارد مالت كاف للحكم عليه بأنه من أحط طبقات السياسة الداسسين » .

وكان بلنت لا يزال يسمى سعيه في إنجلترا ، فلما أعلن جرافل تصرّمه أرق بلنت إلى عرابي في اليوم السادس عشر من مايو يقول « ذكر لورد جرافل في البرلمان أن سلطاناً باشا والنواب قد احجزوا إلى الخديو صدّق بلنت كان هذا غير صحيح فاطلب إلى سلطان باشا أن يرسل إلى تكذيباً ؛ إذا تضامنت فلا خوف عليكم ... لا يمكنكم إقامة وزارة برأسها سلطان ؟ على أيّة حال عليكم بالثبات ». وأرق إلى سلطان في الوقت نفسه يقول « أعتقد أن كل من يحبون مصر يجب أن يتحدونا ؛ لا تختلف مع عرابي ؛ إن الخطر جسيم » .

وكذلك أرق بلنت إلى كل من بطرس باشا وأبو يوسف و محمود باشا الفاسكي

(١) المسألة المصرية لروشنين .

والشيخ محمد عبده والشيخ المغربي وعبد الله أفندي نديم يقول « هل الحزب الوطني في جانب عربي الآن ؟ الحكومة الإنجليزية تدعى غير ذلك . إذا اختلفتم خيّتم أوروبا » .

ورد سلطان على بنت فقال « زال الخلاف الذي كان بين الخديو والوزارة ولم يبق له أثر . كلنا متفقون على الحافظة على الأمن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة » .

وناق بنت كذلك برقة من الشيخ الإمامي شيخ الجامع الأزهر نصها : « من الشيخ الإمامي شيخ الإسلام ؛ سوى الخلاف بين الوزارة والخديو ؛ والحزب الوطني راض عن عربي ، والجيش والأمة متهددان ». وأُبرق إليه الشيخ محمد عبده بما لا يخرج عما جاء في برقة الشيخ الإمامي ، كما يشير إلى ذلك بنت في كتابه ...

ولكن أمل بنت ما لبث أن خاب ؛ فإن مجيء السفن إلى الإسكندرية قد ألق في روع الخديو أنه اليوم قادر على أن ينزل بالوطنيين والمسكريين ما يشاء من انتقام ، وطالما تمنى توفيق أن تواليه الفرصة فيشق غليل نفسه من هؤلاء الذين كانت يده مكفوفة عنهم فإنه ليسكاد يتميز من الحنق عليهم ...

وأخذ سلطان ومعه فريق من المستضعفين كاذكرا عمالئون الخديو ويتذكرون لأسمائهم على نحو كم تمنينا لو خلا منه تاريخ القومية المصرية .

وأدى انقلاب سلطان ومن أخذ إزده من أشياه الرجال إلى ازدياد حرج الوزارة ، وسهيل على أعداء البلاد ما كانوا مقبلين عليه يومئذ من عدوان وإنم ... وود مستر بنت لو أتخد المصريون في تلك الآونة التي لم يكن لهم فيها من أمل إلا اجتماع كلتهم ، فإنه ليعلم ما كان يدبر لهم من كيد ؛ والواقع أنه إن كان الاتحاد قوة في كل وقت فقد كان ضرورة كذلك في هذا الوقت . ومن هذا يتبين لنا مبلغ ما جره على البلاد سلطان ومن معه من أمثال هؤلاء الذين لم يخل منهم

جيل في تاريخ هذا البلد النكود ، أولئك الذين يكونون عدة الفاصل أبداً ومطريقه إلى مطاعمه ، دون أن يخلج ضمائرهم أى ندم ، أو أن يغيل بهم عن همجهم شعورهم أنهم يقترفون أشنع الآثام ويأتون أقبح ضروب الإجرام .

وضاقت بالوزارة السبيل ، بل لقد أخذت كل سبيل عليها ، وحزبها الأمر فما تفتق فيه حيلة ؟ فها هو ذا الخديو أداة في يد الإنجليز ، وهما هم أولاء بعض النواب يظهرون بعظام الانقسام والتخاذل ...

واضطرب الوطنيون من يشأبون الوزارة ، وأخذ يتسرب الوهن إلى النفوس وتناصرت وساوس اليأس على حجاج المقول ، فزین لبعض الوطنيين أن يتخلصوا من الخديو فأخذوه غيلة سراً أو علانية فما هم فيه مخرج غير هذا .
لم يعمل سلطان بما أشاربه بذلت في برقيته ، فإنه لم يبق يوماً على حب بلاده ، وإنما غاداً من الأمم الطامعة ، ولقد رأى الدنيا مقبلة على الخديو مدبرة عن عرابي ، فآخر أن يكون له على الخديو يد فينال عنده الحظوة في غد كأن أسلفنا ؟ ولكنه ظلل على الرغم من ذلك يتذبذب بين الجانبيين شأنه في ذلك شأن كل إمامة ، في بينما زرائه يمارض الوزارة في موقفها من الخديو إذا به يرسل تلك البرقية التي أمرنا إليها في اليوم السادس عشر من شهر مايو إلى بذلت ردًا على برقيته .

أما الوزارة فقد رضيت أن تخotto في ذلك الموقف المصيب خطوة تحمد لها كل الحمد ، بل إننا لا نجد من عبارات الثناء ما يفي بما فعلت في ظرف كهذا الظرف .
لم تهم الوزارة بما عسى أن يفسر به عملها من ذلة وخوف ، فتوجه الوزارة إلى الخديو ، وأعلنوا لديه ولائهم له وعبروا عن رغبتهم في الوئام ؛ فمصلحة الوطن مقدمة على كل اعتبار ، وإحباط كيد الكاذبين هو الواجب الوطني الذي لا يقدم عليه واجب غيره ؛ ويقال إن سلطاناً توسط في ذلك فأخذ دور الشفيع ايتصل بكل من الجانبيين بسبب ، ولمل هذا يفسر رده على برقيته بذلت ...

آثرت الوزارة مصلحة البلاد فقبلت أن توصف بالذلة من أجل مصر ، وكان موقفها موقف القائد الشجاع الذي يفعل ما يعتقد أنه الصواب دون أن يبالى

بما عسى أن يقول الناس ، فينسحب ليجمع قواه ويعيد النظر في خططه غير مكترث بما قد يفسر به الانسحاب في ذاته .

يقول روتسين في كتابه المسألة المصرية^(١) وكان السخط على الخديو آخذًا في الازدياد ولو لا الخوف من انتقام الدولتين لخلع توفيق ؛ ولكن كثيرًا من التواب قد عارض في ذلك الأمر وانقسم المجلس على نفسه ، فاخذ رئيشه سلطان باشا إلى جانب العدو دفعة واحدة وأخذ يعمل على إسقاط الوزارة ، ورأى غيره من الأعضاء أن يسعوا مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين وتحفييف الأزمة بشيء من التساهل . وبينما هم كذلك إذا بالأسطول الفرنسي قد وصل في ١٥ مايو وإذا باللورد جراشل قد بعث في اليوم نفسه إلى السير إدوارد مالت برقيه مضمونها أنه فضلاً عن المظاهرة البحرية فأنا نحافظ لأنفسنا الحرية في أن نستخدم من الوسائل ما نراه ضروريًا لأقرار النظام والمحافظة على سلطة الخديو . وقد قرر عرابي ورفاقه أن يعملا بمجموعة القائلين بالسي مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين فذهبوا بأجمعهم إلى الخديو وعرضوا عليه خصوصهم الشام ، وذهبوا كذلك إلى مالت وأكدا له أنهم سينذلون غاية جهدهم في حفظ السكينة العامة . يا أسفًا عليهم ! لقد ظهروا في مظاهر مؤلم للنفوس وقد يكون غير مشرف لهم ثم لم يجئوا من ورائهم شيئاً على الأطلاق » على أن موقف الوزارة لم يخل على أية حال من فائدة ، فقد أراد الوزراء بما فعلوا أن يبطلوا حجة القائلين بوجوب التدخل لتفاقم الخلاف بين الخديو ووزرائه ؛ وهم إن لم ينجحوا وأصر الخديو على اختياره إلى أداء البلاد ، أظهروه بعظامه التجنن الذي لا يريد أن يغفر لهم حتى في مثل هذا الموقف مازعم أنه كان من دواعي الخلاف ؟ وهذا أسلوب سياسي جدير بكل إعجاب ...

ولا يصح أن يقول قائل إنه كان أولى بالوزارة إلا تنصب الخديو من أول الأمر . لا يصح أن يقال ذلك بعد الذي يتباهى من مكر السياسة الإنجليزية ، فالنية مبيتة

(١) اسم الكتاب الحقيق . The Ruin of Egypt : تخريب مصر .

من قبل على التهام مصر ؟ ونعود فنكر ما قلناه إنه لو لم يوجد عربي لعمل الأنجلزيز على خلقه ...

وكان الذين ينكرون على الوزارة إغضابها الخديو من أول الأمر يريدون أن يقولوا إنه كان على الوزارة أن ترضى بالحكم المطلق ووأد الدستور، وتسلط الشراكة، وإذلال مصر بالقضاء على حركة القومية الناشئة حتى لا يغضب الخديو ، أعني أنه إذا خير الوطنيون بين التمسك بالدستور وإغضاب الخديو ، وبين وأد الدستور وإغضاب الخديو ، كان عليهم أن يقبلوا الوضع الثاني وإلا كانوا طائشين مفسدين في الأرض . وهذا كلام لا يستحق أن يوضع موضع النقاشة ...

لقد سلكت الوزارة المسالك الوطنية التي يتفق وهذه الحركة الوطنية الدستورية التي بدأت في مصر منذ عهد إسماعيل فكانت حركة طبيعية اقتضتها تطور الأحوال وعملت على وجودها عوامل كاتي عملت في كافة الأمم التي سبقت مصر إلى الدستور والحرية ؛ ولقد بینا آتجاه الوزارة وقدمنا الأدلة على صدق وطنيتها وعلى ما كانت تتوخاه من ضرورة الأصلاح ...

وما كان التجاوزها إلى الخديو تنازلاً منها عن مبادئها فهذا ما لا يتصوره عقل وإلا كانت الحركة من بدايتها إلى نهايتها لمب لاعب ، وإنما أرادت الوزارة الوثام والصـفاء وإزالة ما تركه حادث المؤامرة الشركسيـة في نفس الخديـو من غضـب ، فهو نوع من الاعتـذار والتـوـدـد فـتـضـيـه مـصلـحةـ الـوطـنـ انـقـاءـ خـلـطـرـ مـحـدـقـ بـالـبـلـادـ ... أما الدستور وسلطة الأمة وما يتصل بها من مبادئ الحرية والقومية فدون التنازل عنها ، بل دون التساهل فيها بذل الرقاب ...

وكان توفيق خليقاً لا يميل إلى المعدين من غير دينه ، ولقد كان لهذا الاعتبار الديني شأنه العظيم في النفوس يومئذ ؛ وكان كذلك خليقاً أن يدرك أن عدوائهم على مصر هو في ذاته عدوان على السلطان صاحب الحق الشرعي وصاحب الولاية عليه . ولكن توفيقاً لم يعد يبالى بالسلطان فقد أطأه إلى قوة الدولتين وبخاصة إنجلترا ، وكان إلى جانبه مالت بوحى إليه ما يشاء ويزين له ما يريد ويقوى عزمه

كلا آنس منه تخاذلا عما كان يدفعه إليه ؛ ولا ريب أن موقف الخديو كان يزداد بذلك حرجاً أمام البلاد وأمام السلطان مهما سندته الدولتان .

وأوحى مالت إلى الخديو ألا يشق بما يقول وزراؤه ، وما كان توفيق في حاجة إلى هذا الذي يوحى به مالت ؟ فهو يتطلع إلى الساعة التي يلطم الوزارة فيها اطمة تشفى ما بنفسه من غل ...

ولم يطل ترقبه تلك الساعة ، ففي اليوم التاسع عشر من شهر مايو أو عزت الحكومتان إلى ممثلتها أن يشيرا على الخديو بأن ينضم فرصة وصول السفن إلى الأسكندرية فيطميح بالوزارة ، وبمهد تأليف وزارة جديدة إلى شريف باشا أو إلى سواه من تتوفر فيهم مثل تفهمها في شريف ...

وردمتان بآن المسألة ليست من السهولة بجحث يصنع الخديو ذلك ، فلن تقوم في البلاد وزارة غير الوزارة القائمة مادام للحزب العسكري ماله فيما من نفوذ وسلطة . واقتراح مالت أن يشير على عرابي وثلاثة من أشهر رجاله بمغادرة مصر ؟ وبدأ فعلاً يسمى إلى ذلك فاختار أحد موظفي الفنصلية الفرنسية ليقاوض عرابياً لأن هذا كان يعرف العريبة ، ولكنه رفض أن يلعب هذا الدور ، ففوج سلطان قبلي في غير خجل ، وذهب يشير بذلك على عرابي فمضلت دهشة الوزير ! ورفض أن يسمع بقية الحديث ، وأعلن إصراره على عدم ترك مصر مما يكن من الأمر ، وأكد أنه لن يترك منصبه فضلاً عن موطنه في تلك الظروف .

ووصل هذا الحديث إلى الضباط فقاموا بالاستياء حتى لقد صرخ أحدهم على مسمع من أحد رجال الفنصلية الفرنسية أن الجيش يعز عرابياً إذا هو اعتزلهم ومثل ذلك أخذت الوزارة تتأهب للاقلاقة ما كان ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم الوزراء ألا يقرروا أى تدخل لإنجليزية وفرنسا وأن تكون إجابتهم على أي إنذار رسمي لهم لا يعترفون بسيادة غير سيادة السلطان .

وتزايد انحياز الرأي العام إلى عرابي بقدر ما تزايد سخطه على الخديو والأجانب ، ومن انحياز إليهم من الأمم والمستضعفين ، وعاد بعض الذين أشفقوا من الحزب

الوطني ينضمون إليه في تلك الساعة الرهيبة وشاعت في البلاد دعوى المحافظة على حقوق السلطان أمير المؤمنين وحى المسلمين ...

وهنا نسأل الذين يسترببون في شجاعة عربي وزعامته ، أironون دليل جبنة في إصراره هذا على البقاء في مكانه مخلصاً لواجبه ؟ لقد كان من اليسير عليه أن يسافر إلى القسطنطينية أو إلى أوروبا متخيزاً إلى السلطان أو إلى إنجلترا وكانت إنجلترا ترحب بذلك كل الترحيب وتطرد له أشد الطرب ، ولكن ما هكذا يفعل الرجال .
لقد صمم عربي على البقاء حيث هو كما صمم سعد زغول على البقاء في مكانه مخلصاً لواجبه حين طلب إليه في موقف من موقف جهاده أن يذهب إلى عزبه ليقيم بها تحت مراقبة مدير الأقليم ، وآخر عربي أن يواجه المحننة والبلاد كما آخر سعد أن ينفي من مصر ، ولكن الأمة التي وضعت على رأس سعد من أجل ذلك أكاليل النار ، لا يزال فريق من أبنائها ينسبون إلى عربي البطل أسباب المزعنة والعار ! ...

وصمم عربي على امتشاق الحسام ليجاهد في سبيل مصر أشق الجهاد وأعظمه ول يكن بعد ذلك ما يكون فإمام نصر بعد وإما فنا ؟ أمام مغادرة مصر في مساعة العسرة فذلك هو الهرب الذي لا يفله إلا الجبناء .

ولما فشل مات في طريقته الشخصية اتفق وزميله الفرنسي فارسلا إلى حكومتها يطلبان أن تطلق يديهما كي يتقدما إلى الحكومة المصرية رسميأً بذكرة تنصل على إبعاد عربي من مصر هو وكبار المسكريين على أن تويد المذكرة بعمل إنجابي في حالة ما إذا رفضت ، وما ذكره مات قوله : « إن الموقف الحالى قد سببه الوزراء ، والناس يعتقدون أن إنجلترا وفرنسا ان ترسلان جنوداً ، وأن معارضته فرنسا تحمل بدخل الترك مستحيلاً »^(١)

وأرسل عربي كتاباً إلى بلنت في اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، وماما جاء فيه قوله « إن جميع الأهالى يطوف بهم الحزن لمحى السفن الانجليزية والفرنسية وهم يرون في هذا العمل ما يبيت من سوء للبلاد كما أفهم يرون فيه عدواً لامبراطوره »

ولا ضرورة تدعو إليه . على أن المصريين قد صمموا على ألا يسلموا للدولة التي تريد أن تتدخل في شؤونهم وفي إدارة البلاد الداخلية ، وهم كذلك قد جموا عنهم على الاحتفاظ بالامتيازات التي ثبّتها المعاهدات ، ولن يسمحوا لأحد بانتهاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق ؛ وهم في الوقت نفسه حريصون على الحافظة على مصالح الأوروبيين وحياتهم وممتلكاتهم ماداموا لا يهدون الحدود التي رسّمها لهم القوانين ؟ ونحن جيمماً نبذل ما في وسعنا في أداء واجبنا ، وعلى الله انكالنا في الدفاع عن حقوقنا وبعمونته سنثال غايتنا ؟ وتنحصر غايتنا في إسعاد الوطن ونشر الأمن والسلام بين سكانه ، ولا زلتنا نأمل في عدالة أوربا ألا تتعدى علينا ، بل إننا على خلاف ذلك نرجوا أن يحسنوا سلوكيهم معنا لأن في هذا مصلحتهم وهو يؤدي إلى تحقيق رغباتهم ؟ وجدير بأنجلترة ألا تدق بوكاً لها هنا فأنهم قوم لم يأتُوا خفية شخصية يتغافلون تحقيقها ، ورُزِيَ أن نجاحهم في تحقيق مأربهم يعود بالضرر على بلادهم وعلى حكومتهم ، وفي هذا القدر ما يكفي الآن وسيأتيك الغد بما يجد من الأنباء »^(١)

ولكن ماذا كان عَسِيًّا أن يفعل بـلنت وقد نشط مالت في إذاعة أسوأ الأخبار عن مصر وإحباط كل سعي يؤدي إلى نجاتها ؟

يقول بـلنت في كتابه مشيراً إلى برقياته وما جاءه عنها من ردود « ولكن جاء الصباح فذهبت آمالى أدراج الرياح وانقلب فوزى هزيمة ، فقد كنت قضيت الاليق بمترى بلندن في شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت في طلب الصحف فوجدت فيها جيمماً برقيه لشركة رويدرو وفيها نص البرقية التي أرسلتها إلى أعضاء المجلس في مصر وقت لهم فيها إن أوروبا ستضم مصر ، وفيها أن شيخ الإسلام تبرأ من الرد الذي جاء في باسمه ، ووُجِدَتْ في حقيقة ذى ستاندارد برقيه من مكتبه بالقاهرة مؤدّها أن سلطاناً باشا صرّح له أن يكذب البرقية التي أرسلها والتي نشرت بالتيمس ، وأنه برقيه سلطان هذه إنما كتبت تحت تأثير الإرهاب المسكري »

وعلى أي حال فـما كان يعني عن بـلنت صدقة وحسن مسامعه ، وقد رسّم السياحة

الإنجليزية الخطة التي تنهجها ولقد كانت الحكومة الإنجلizية على علم بكل شيء ولذلك فما كانت بها حاجة إلى دفاع بلنت وأنباء بلنت ...

وهل كانت إنجلترا تتحرى في المسألة وجه الصواب حتى تسير على هدى ما نعلم؟ حسب الإنجليز أن يتحققوا أطماعهم التي طال بهم العمل على تحقيقها في مصر؛ ذلك هو الواقع الذي لا يغيره جدالهما طال؛ وليجر بعد ذلك بلنت في مضماره ما شاء، وليطلق هذا الشاعر الذي يعطف على حرية المصريين وأمامهم العنان لخياله حسبي يريد ، فلن يؤثر ذلك في مجرى المخاوف ، ولن يغير شيئاً مما عقد النية جلاستون وجرايتش عليه

والسياسة على أي حال شيء ، والشهر والأحلام شيء آخر؛ وكثيراً ما سخر الساسة من أمنى دعاء الإنسانية وضحكوا على أفواههم من هؤلاء الذين يحلمون فيتخيلون أحلامهم حقائق راهنة كإتخيل الأطفال !

نلت الحكومة المصرية ، وناق الخديو في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو المذكورة المشتركة الثانية وفيها تطلب الدولتان : « أن يخرج عرابي باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه وراتبه ، وأن يبقى كل من عبد العال باشا وعلى فهمي باشا إلى داخل القطر مع احتفاظهما كذلك بلقبهما وراتبتهما وأن تستقيل الوزارة الحالية من الحكم ». .

ومن أعجب الأمور أن ممثلي الدولتين قد عزيزاً هذا الطلب إلى ما نص به سلطان باشا رئيس الوزارة ، فقد جاء نصه كما يأتي : « إن ممثلي فرنسا وبريطانيا العظمى . المؤمين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأمه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب وكذا رغبته في تأييد سلم مصر ورفاهتها على عرض الشروط الآتية على عطاو فتل محمد سامي باشا رئيس مجلس النظار إذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد حالة الاضطراب في مصر » ... ثم أو ردًا بعد ذلك الشروط أو الإنذار ... ولقد أنكر الوزارة وساطة سلطان باشا كأن سلطاناً تنصل منها ...

قال الشيخ محمد عبده^(١) « حصلت مذكرة في المذكرة التي قدمها وكلاه الدولتين بحضور سلطان باشا والنظرار فوضع سؤال : هل يمكن لنا أن نجتمع المجلس ؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لا يمكن إلا بأمر الخديو فنسمله في ذلك ولا ريب أنه يوافق عليه ؟ فقال له أحد النظار : الخديو الذي كفت تطلب خلمه إن لم يكن قتله قبل أيام ؟

قبل هذا جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قته وأبي عرابي وكان سلطان يقول أقتلوا الشعبان سلاطنة الجناء الناهبين الذين باعونا للأجانب ؟ ... هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا جاملة الخديو ، ذلك الخديو الذي لا يبني إلا بيع البلاد للأجانب^(٢) اجتماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولا بدانا أن نطلب التواب إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافى ما طلب من إبعاده لإرضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالبات مما أدى إليه الخلاف سلطان رجع عن رأيه إلى رأى الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصليين وفيما اضطر إليه من موافقة التأثيرين »

قررت الوزارة في غير تردد رفض هذه المذكرة المشتركة الثانية وأبلغ هذا الرفض إلى ممثلي الدولتين وما جاء فيه قول الوزارة « إن سعادة سلطان باشا صرح أمس أمام الوزراء عند انعقاد مجلسهم بأن أعاد على رئيس مجلس الوزراء ذكر مصادمة جرت بينه وبين فنصل جنرال فرنسا ، وأنه لم يبدأ بذلك مقتراحات أو إشارات لا يعنيه أن يقدمها ولا يبيدها باسمه الشخصي ، ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فإن هذا المجلس غير ملتم الآن ، أما الطلبات المدونة في اللائحة التي قدمها فنصل انكلترا وفرنسا فتتعلق بوسائل داخلية تختص بالأمور الإدارية

(١) تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده صفة ٢٤٢

(٢) يعلق الشيخ رشيد على هذه العبارة بقوله « أى بحسب رأيه « أهى وأى سلطان .

التي اعترفت الدول الكبرى دافعاً بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية ، ولا يمكن لحكومة الجناب الخديوي أن توج في باب الناظرات والباحثات في هذه القضايا بدون التمدد على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدوائية التي حددت مقام مصر الخصوصي وبدون نقض القوانين الشوروية لهذه البلاد التي هي أعظم كفالة تتکفل ببقاء الحال على ما هي عليه » وأصر الوزراء وفي مقدمتهم عرابي على موقفهم ، هذا الموقف الوطني الجليل ، وأيدهم كبار الضباط وأعلنوا أنهم ممتهن ولو أدى الأمر إلى القتال ... ولكن ماذا عسى أن يغنى عن الوزارة جلال موقعها في هذه الأزمة المصيرية ، ولم يغض يوم واحد حتى قبل توفيق مذكرة الدولتين ، وأعلن ذلك في غير تخرج من هذا الفعل على شجاعته البالغة ؟

ولم يجد البارودي بعد ذلك مناصاً من الاستقالة فكتب استقالة الوزارة على التحو الآتي :

« القاهرة في ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢

إن جنابكم العالى قد بلغنا عند وصول الدوئنمتين الانكليزية والفرنساوية بأنكم حررتـم إلى الآستانة بطلب التعليمات ، ولما كنا منتظرين ورود جواب من الباب العالى وإذا بقنصلي فرنسا وبريتانيا الكبرى قدماً لحضرـة رئيس مجلس نظارـكم لأتحـتمـما بتاريخ ٢٥ مايو ، وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعـنا والتـأمـ مجلسـنا وقررـ هذا الجواب المرفـقـ معـ هـذاـ ، وعندـماـ توجهـناـ إـلـىـ جـنـابـكمـ العـالـىـ لـاستـشـارـتـكمـ أـخـبـرـتـونـاـ بـأنـكـمـ قـبـلـمـ لـاتـحـمـةـ وـكـيلـ فـرـنـسـاـ وـبـرـيـتـانـيـاـ الـعـظـمـيـ ؟ـ وـهـذاـ الـقـبـولـ مـبـاـيـنـ لـأـجـمـعـ عـلـيـهـ رـأـيـ كلـ النـظـارـ إـجـمـاعـ كـلـيـاـ ،ـ فـانـ قـبـولـ تـدـخـلـ الدـوـلـ الـأـجـنبـيـةـ فـهـذـهـ قـضـيـةـ يـمـسـ بـحـقـوقـ الـحـضـرـةـ السـلـطـانـيـةـ ،ـ وـبـنـاءـ عـلـىـ ذـلـكـ تـتـشـرـفـ بـأـنـ نـقـدـمـ لـجـنـابـكمـ استـعـفاءـنـاـ جـمـيـعـاـ »

ولم يتـرـددـ الخـديـوـ ،ـ وـكـانـ وـرـاءـ مـالـتـ ،ـ فـقـبـولـ استـقـالـةـ الـوـزـارـةـ قـائـلاـ إـنـهـ يـقـلـهـ لأنـ هـذـهـ هـيـ إـرـادـةـ الـأـمـةـ ،ـ وـفـيـ عـدـاـ ذـلـكـ فـانـهـ أـمـورـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ السـلـطـانـ الـذـيـ



محمد علي

الو
إن

بحترم حقوقه دائمًا . وتنفس الخديو الصداء ، ظاناً أن الأمر انتهى إلى غايته ، ولم يعلم أن صنيعه هذا كان معجلاً بالكارثة ، بل لقد كان هذا الصنيع في ذاته هو الكارثة ، فلولا ما كان من ركوبه على هذه الصورة إلى الأجانب ، ما أقدمت إنجلترا على تنفيذ ما بyticه طويلاً من غدر بالبلاد

ومع ذلك فإن كارثة الاحتلال لا زالت على ألسنة بعض المصريين تنسب إلى عربي ، ذلك الرجل الذي تلفت العلوب إليه وقد اشتدت الأزمة وأزفت الآفة فتأمل على يديه النجاة من الخطر المحدق

إن القضية كلها يمكن تلخيصها وقد قرب دوى العاصفة في كلة قصيرة ، هي أن خلافاً داخلياً وقع في مصر بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعماء الشعب المستمسكين بالحكم الدستوري ، فانهز الأنجليز هذه الفرصة لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل هذا الخلاف ؛ ولم يشا الخديو أن يتنازل عن مبدأ الاستبداد فرُكِنَ إلى الأجانب ليتخلص من الوطنيين ، وعمل هؤلاء الثعالب على زيادة الخلاف وعلى رأسهم مالت كبيرة شياطينهم ؛ حتى كانت المذكرة المشتركة الثانية وهي الفبربة التي تصيب الحركة القومية في مقتل ، فلم يجد عرابي وأعوانه بدا من دفع هذا المدوان الفاجر عن البلاد أنسنة وحافظاً ولو ذهبت أرواحهم في سبيل ذلك فلilit شعرى كيف كان ينتظر منهم أن يفملوا غير ذلك في موقف كهذا الوقف ؟ الا فليحترموا عقولهم أوئلئك الذين يردون سبب الاحتلال إلى عربي ، إن كانوا يرجون لأنفسهم ولوطنهم وقاراً .



عربى بلاد لم يراد

كان لقبول استقالة البارودى أسوأ وقع في البلاد جميعاً ، وأحسن الناس فيها نذر الخوف وبادر العاصفة ؛ وقر في نفس كل وطني أن الخديو اليوم في قبضة الأجانب وبخاصة الإنجليز وأن مالت هو الذي يحركه ويوجه إليه ما يريد ... ولم يعد خافياً على أقل الناس دراية مغزى قبول الخديو المذكورة الثانية ومغزى قبول استقالة الوزارة .

وأظهر توفيق صرامة لم يألفها الناس منه ، فأصر على قبول استقالة الوزارة على الرغم من إحجام شريف ومصطفى فهمي وغيرهما عن تأليف وزارة جديدة . وبادر توفيق بإرسال أمر منه إلى المديرين قال فيه « بما أن هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول استمفارها فليكن معلوماً ذلك لدیكم لتصرفوا جهودكم واقتداركم في المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الوكلاء لأدارتهم والدقة والانتباه لحسن سير الأشغال والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث أن المراكب الحربية الأجنبية التي حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سليم فقط ، ولم يكن هناك شيء آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية الذين صار طلبهم أخيراً بمعرفة الجمادية ، بل إن الموجود منهم تحت الحضور لهذا الطرف يصير إعادة إبلده ، والذي تحت الحضور من البلاد يتنهى بصرف النظر عن حضوره ، وإعلان المراكز والأقسام بالتنبيه على مشاتل وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء جمع عساكر ، وانتباه كل لأشغاله وزراعته بدون اشتغاله في غير ذلك ، هنا وأن الأمور المهمة التي كان قد جرى المرس عنها لنظرارة الداخلية يجب أن يعرض عنها من الآن لعيننا إلى أن تشكل هيئة نظارة جديدة كما هو مطلوبنا » .

وهذه أوامر من الخديو تعد بالغة الخطورة ، فهو يهون من حضور المراكب الأجنبية ، ثم يريد أن يحبط الدفاع الوطني وذلك عنم إرسال الجنود التي كانت وزارة البارود قد استدعهم من الجيش الاحتياطي قبل استقالتها ؛ وهو يبحث الناس على الاشتغال بالزراعة دون غيرها أعني لا يلبوا إذا دعا داعي الجهد وفوق ذلك جميعه فهو يستبد بالأمر كي يلقى في روع الناس أنه السيد الوحيد الذي يحب طاعته في البلاد .

وأى رضاء بالاحتلال والتمهيد له يكون أصرح مما يفعل توفيق بأوامره هذه في وقت كذلك الوقت الذي يحدق فيه الخطر بالبلاد ؟

إنما يريد توفيق أن يمترض طريق ثورة مصر ورعاة في مصر مبعثها تدخل الأجانب في شؤونها الداخلية توطة لاتهامها ، وأن يظهر عرائياً ومن معه بعاظهر العصاة المتمردين ، الذين يعمل ومن يقصده من الأجانب على قمعهم والقضاء عليهم وليس أكثر من هذا الذي يفعل مملاة للمد واندماجاً في سياسته . ولكن ما لبث توفيق وأسناده أن تبينوا أن الأمر ليس من السهولة كما تصوروا ، وأن أمامهم من الصعاب ما ينوه بأقدر الرجال ...

وكان مات قد تصور الأمر هيناً كا تصوره توفيق ، فقد أُبرق إلى جرانفل في اليوم التالي لسقوط الوزارة يقول «رأى الوزراء أنفسهم إذا رفضوا الشروط التي قبلها توفيق فإنهم بذلك يبيتون في ثورة مكشوفة بدلاً من ثورتهم المستترة وهذا موقف أشفقوا منه ، وعلى ذلك فإن سقوط الوزارة يرجع إلى المسلك الحاسم الذي سلكه سموه »^(١) .

واطمأنت كذلك الحكومة الفرنسية وظلت أن مصر قد ماتت فيها روح المقاومة بسقوط الوزارة السامية وكانت إنجلترا قد عادت إلى مراوغتها في اليوم الرابع والعشرين من مايو أي قبل سقوط الوزارة بيومين فاقتربت على فرنسا أن تحاط الدول علمًا بما تراه إنجلترا من علاج للحال وهو أن يكون جيش تركي

على أهمية الاستعداد للذهاب إلى مصر ؟ فكتب ممثل فرنسا في لندن إلى جرانفل قبل سقوط البارودي بيوم يقول « أُبرق إلى مسيو دي فرسنيه أن مجلس الوزراء الذي عرض عليه مقترحك قد أجمع رأيه على أنه ليس في الموقف الحالى ما يبرر الالتجاء إلى قوة تركية ؛ فقد وصلتنا مذكرة من فنصلنا العام بعصر في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر وفيها أن الوزارة في سبيلها إلى الاستقالة وأن عناصر المقاومة في طريقها كا يتضح إلى الانحلال ؛ وعلى ذلك فلدينا كل ما يدعون إلى انتظار ما عسى أن تصير إليه الحوادث »^(١) .

ولكن مالت ما لبث أن أُبرق إلى حكومته أنه قد طلب إلى شريف باشا أن يؤلف وزارة فرفض ذلك مصراً على أنه لا يمكن إقامة حكومة في مصر طالما يقيم بها العسكريون ؛ ثم قال مالت « ولكن الخديو يحاول الآن إقامة وزارة ولو أن أمله ضعيف في أن يوفق إلى وزارة ذات كفاية إن كان ثمة من أمل في إمكان قيام وزارة ما »^(٢) .

وعاد مالت يقترح أن يستعمل بالسلطان ليعيد النظام في مصر وذلك بأن يرسل ضابطاً من لديه في أقرب وقت ، « وكذلك يرى توفيق أن مبعوثاً تركياً يمكنه أن يسمع العسكريين صوته وأن يعيد إلى مصر المدحوه » .

والحق أن سقوط الوزارة السامية قد هز البلاد من أعمقها ، وبات الناس يتوقفون الاعتداء في كل لحظة ؛ ولم تبق في البلاد هيئة أو طبقة إلا أسرطها مسلك الخديو قال عرابي في مذكرة^(٣) « وما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو للاحنة إنجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب في جميع بلاد القطر مبلغاً عظيماً وأخذ القلق من النفوس مأخذًا جسماً ، فكثر اللقط وزادت بواعث الإيجاس والخوف ثم حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمي الحكومة وقدموا لنا مئات من المراهنض بواسطة مديريهم محتاجين فيها على عمل

(١) M. E. Cromer

(٢) من نسخة من مذكرة الخطيولة تحت يدي ص ٢ الجزء الثاني .

الخديو هذا ومتطلبيه أحد أمرىء ، إما رفض اللائحة المشتركة المذكورة وإما عزل الخديو الذى قبل تداخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية » .

ويتبين لنا مبلغ ما اتى توفيق من عسر فى الاجتماعين الذين عقدوها فى الصباح وفي المساء ببراسته بسرى الإسماعيلية فى اليوم التالى لسقوط الوزارة ، ففى اجتماع الصباح حيث شهدته النواب وكبار العلماء والأعيان وكبار الموظفين ، عرض الخديو الوزارة على شريف باشا فاعتذر وأصر على اعتذاره ؟ وحضر أثناء الاجتماع فنصل فرنسا العام بنى الخديو بأن برقة وردت عليه من حكومته تأمل فيها فرنسا أن يقبل شريف باشا الوزارة وستعنى الحكومة الفرنسية بكل جهودها ، ولكن شريفاً ظل على إحجامه وخوفه ... ثم اشترط أن يقبل وزارة الحرية معه عمر باشا لاطق محافظ الإسكندرية فرفض ذلك عمر باشا ؟ وعرض الخديو رئاسة الوزارة على عمر فأشفق منها ...

وفى اجتماع المساء صارخ الخديو المجتمعين بأنه سوف يشكل الوزارة ببراسته وستكون له وزارة الجمادية ثم عاد بين المجتمعين ما حدا به إلى قبول مذكرة الدولتين ؟ وتهدد الخديو وتوعد وقال إنه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو خالفة في المستقبل ؟ ثم أراد أن يخفف من وقع البوارج الحرية فماد يؤكى أنها ما جاءت إلا لأغراض سلمية ...

وكل ذلك يدل على مبلغ ما أحاط بـ توفيق من حيرة كا يشير إلى شدة شعوره بما يجد في نفسه من حرج مما فعل ، وإن تظاهر أنه لا يبالى بشىء .

وتتكلم طيبة باشا عصمت أحد الزعماء المسكريين فقال يرد على تهديد الخديو « إننا مطيمون جيمعاً للجناوب السلطانى الشاهانى وللجناب الخديو ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهي تتعلق بسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيساً للجهازية خلاف رئيسنا أحد عربى باشا » (١) .

(١) مذكرات عرابى المخطوطة : وقد أورد كرومر هذه الحادثة فى كتابه وزاد عليها أن خلبة قال إن السلطان هو السلطة الوطنية التى يقرؤنها .

وفي هذا الكلام تحدى صريح للخديو يدل على مبلغ ما كان في نفوس المرابطين من استثناء منه ، ومن حماسة وطنية أفقد جذورها مسلكه بالنجاة إلى الأجانب .

وزاد الموقف خطورة أن ورد على الخديو برقية من كبار رجال الجيش والشرطة بالأسكندرية يقولون فيها لهم لا يطمئنون لغير عربى ناظرا للجهاد وأنه إذا مضت إثنتا عشرة ساعة ولم يعد عربى إلى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضي إليه الحوادث ...

وكان مات لا ريب فرحا لوقوع توفيق في مأزق كهذا ، فإن ظاهر الأمر يؤيد قوله إن تسلط الجيش هو سبب كل خوف ، وإن كانت حقيقة الأمر تقطع بأنه هو وكافن كا بینا أصل كل المصائب

ويذكر كرومر في كتابه « أن سلطانا باشا وبعض النواب أخبروا الخديو في حضور القنصليين الفرنسي والإنجليزى أنه ما لم يوافق على إعادة عربى وزير للجهاد فإنه حياته يحفل بها الخطر » .

وعلى الرغم من ذلك ، كما ذكر كرومر أيضا ، فإن الخديو أصر على رفضه كما جاء في تقرير مات ...

وفي نفس اليوم الذى عقد فيه الخديو اجتماعه عقد اجتماع شعبي في دار سلطان باشا وقد شهدته كبار العلماء والنواب ؛ كتب عربى يصف هذا الاجتماع فقال « في ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ دعيت إلى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، فذهبت إليه ومى إخوتي على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى ومحمد بك عبيد ، وغيرهم من الأخوان ، فلما وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصا بأعضاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ والشيخ عبدالهادى الأ Biasi إمام المعية ، وحصل الاتفاق على ملازمة الراحة والسكنى وأن الخديو يرفض اللائحة الثانية ويأمر برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية ، أو يعزل عزلا ، وفي أثناء ذلك حضر بمديقة المنزل جماعة من الضباط والنبلاء من الملكية وغيرهم



ظاهر سلطنت

وصاحوا بقولهم : اعززوا الخديو الذى دعا الأجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدا
بأساطيلهم ...

ثم خرجت معن معى من الصباط وتوجهنا إلى منزل محمود باشا سامي فوجدنا
كثيراً من النوات هناك ينتظرون ما عسى أن يحدث من محنات الدهر فقابلنا
عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذأ أو مربيا للخديو فى صغره وقال لنا — أن
قتلتموه ؟ فقلت له من تعنى ؟ فقال أعني الخديو ألم يقتل ؟ فقلت له إننا لا نقتل
أحداً بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام ، ثم توجه كل منا
إلى منزله »

وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أبرق الصدر الأعظم إلى الخديو ينبئه
بأن « مبعوثاً من لدن السلطان يرسل إلى مصر إذا تلقى السلطان طلباً سرياً بذلك »^(١)
وكان ذلك ردًا على مأرسله توفيق إلى الاستانة فى اليوم التالى ليوم استقالة الوزارة
من أبناء مؤداتها أن الجندي غير راضين عن إسقاط الوزارة وأن الوزارة احتجت فى
استقالتها على تدخل الدولتين ... وشرطت تركياً هذا الشرط لأيفاد المبعوث
خوفاً من إنجلترا وفرنسا أن تخضعاً إذا هي تدخلت من تلقاء نفسها ...

وسأل توفيق القنصلين ماذا يصنع فيما جاءه من الصدر الأعظم ؟ وأبرق مالت
إلى حكومته يقول « لقد ذكرت للخديو أنه إذا كانت حياته معرضة للخطر ،
فلاست أستطيع أن أنسح بشىء يخالف الخطة التي يقتربها إذا ظهر أنها هي
فرصة الخلاص الوحيدة ؟ واقتصر مسيو سينكويكس على قوله إنه سيطلب رأى
حكومته ؛ ثم تركنا الخديو بدون أن نفضي إليه بأكثر من هذا ، مع أن الخديو
كان يلح علينا بضرورة إرسال رد عاجل إلى الصدر الأعظم »

ووصف مالت موقف توفيق في ذلك الظرف بقوله « إن موقف الخديو
موقف مؤلم أعظم الألم ، فهو مهدد بالقتل ، ثم إننا صرفناه عن الذهاب إلى
الإسكندرية حيث كان في الوقت متسع لهذا ، وكذلك لم نخل بينه وبين الاتجاه

إلى الجهة التي يأتيه منها تأييد ذو أثر ، ولذلك فهو الحال كاذكر خليق بأن
يشعر شعور المرأة تلقاء ما يبدو له الآن من عواقب اتباعه نصحتنا واعتماده
على تأييدها «

وهكذا زری مالت يضفط ضغطاً شديداً على حكومته لتعجل بالتدخل المسلح
النشود ، وكان من أثر ذلك أن كتب جرافل دون أن ينتظر مشورة الحكومة
الفرنسية إلى اللورد دوفرين في الأستانة يقول « إن حكومة جلالة الملك ترى
الضرورة ملححة بـألا يضيّع السلطان شيئاً من الوقت دون أن يرسل أمراً به يؤيد
النخبو ، ويرفض الاتهام الذي عزّه الوزارة الساقطة إلى سموه ، ويأمر كبار
ال العسكريين الثلاثة ، وكذلك رئيس الوزارة السابق إذا دعا الحال ، بأن يحضروا
ليشرحوا مسلكهم في القسطنطينية »

ويتضح من ذلك أن الحكومة الأنجلizية تحظى خطوة سريعة نحو الانفراط بالعمل وتنفيذ خطتها في التهام مصر ولا يجد في تفسير سياستها خيراً من قول كرومر في هذا الظرف تعليقاً على الموقف «إن النتيجة على أي حال لم تكن بعيدة، فإنه كان يتضح يوماً بعد يوم أن عرائياً لن يخضع إلا بالقوة، فإذا لم تتبع القوة المطلوبة أى جهة أخرى فإن هذا العمل يلقي بالضرورة على عاتق إنجلترا» وهذا هو الذي كانت ترى إليه السياسة الأنجلizية من جميع مراعاتها واقتراحاتها، ولسوف تفرد عما قريب بضرب الأسكندرية، وحياتها في ذلك تأييد سلطة الخديو تجاه عرابي التأثر الذي تحركه الاطماع والمآرب الشخصية! واشتد خوف الأجانب في مصر حين فهموا أن الخديو عاجز عن تأليف وزارة، فذهب وفد من القنصلات إلى عرابي في الثامن والعشرين من مايو، وقد أشار عرابي إلى ذلك في قوله «ولما تمايز الخوف حضر لمنزل جميع قنصلات الدول ما عدا قنصل إنجلترا وفرنسا يطلبون مني التأمين على رعایاهم فأجبتهم بأنني قد استعففت ولا صفة لي تخولني تحمل هذه المسؤولية العظيمة، فقالوا إن الجيش لا يخالف إرادتك، وأنت رئيس الحركة الوطنية فلا نأمن على رعایانا وأنفسنا إلا

بأعطائك لنا كلمة الشرف بحفظ رعايانا ؟ فلا جل طائنيتهم وتسكين روئهم
كتبت تلغرافا إلى جميع مراكز العسكرية بصفة أنى رئيس الحزب الوطنى أرغبه
إليهم فيه أن يلازموا المدوى والسكنينة وأن يحافظوا على راحة العموم ، وخصوصاً
رعايا الدول الأجنبية ، وأن يعاملوا الجميع بحسن المعاملة وكالجاءلة »
وقابل هؤلاء القنائل الخديجو ورجوا منه أن يعيد عرايما إلى الجهادية حفظها
للأمن في مصر وتفادياً للأخطار ...

أما الوطنيون فقد اشتد قلقهم وقد مضى يومان والخديجو عاجز عن إقامة
وزارة ؛ ونشط سلطان باشا ، وأكثر من مقابلة الخديجو ؛ وفي نفس اليوم الذى
قابله فيه القنائل ، ذهب سلطان إلى سرای الأسماعيلية وتحدث مع الخديجو طويلاً ؛
ولكنه وجد منه تصميماً على موقفه ...

واجتمع بمنزل سلطان باشا عدد كبير من النواب والعلماء والأعيان وكمار
ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يذهب وفد منهم إلى الخديجو يرجو منه أن يعيد
 العرايما وزيراً للحرية ، ففي ذلك ضمان الأمن والسلامة

وذهب وفد مؤلف من سلطان باشا وحسن باشا الشريعي وسلمان أبااظة إلى
سرای الأسماعيلية وقابلوا الخديجو وعرضوا عليه ملتمسهم أن يعيد عرايماً إلى
الوزارة ؛ فرفض الخديجو وأصر على رفضه زمناً ، وبعد طول توصلهم وتوسيط
سلطان باشا أجابهم الخديجو إلى طلتهم قائلاً « بما أنكم أتيتم طالبين تقليل نظارة
الجهادية لمساعدة عراي باشا حيث أنكم تظنون أن هذا التعيين يساعد على حفظ
النظام فلا مانع من إجابتكم »

وإن اتفاق هذا العدد الكبير من رجالات الأمة على إعادة عراي باجي يطمئن
الناس ويتحقق المدوى لدليل لا شبهة فيه على أن الرجل فضلاً عما تحقق له من
الزعامة قد اغتنى بحق ملاذ البلاد ؛ أما الخديجو فلم يعد في رأي الناس إلا أدلة
طعيمة في يد مالت يصرفه كيف يشاء
أشار إلى ذلك روئتين في كتابه بعد أن أشار إلى احتجاج ضباط الجيش

ورؤساء الشرطة في الأسكندرية على الخديو بقوله « وسرعان ما وصل نبأ هذا الاحتجاج إلى أهل القاهرة فقام إلى الخديو وقد مؤلف من رؤساء الأديان المختلفة، علماء الإسلام، وبطريق الأقباط، وحاخام اليهود، وطلب إعادة عرابي وزملائه، فكان ذلك مظهراً من مظاهر إرادة الأمة غير متوقعاً بالمرة. وعندما قدم سلطان باشا على الخديو مهرولا يكاد يقتله الخوف، وتوسل إليه أن يرجع النظرار إلى مناصبهم وإلا كانت حياته في خطر، نقول عند ذلك أذعن توفيق وأصحابه البررة، وأعيدت الوزارة، وأرسلت الأوامر إلى الأقاليم بالغاء أوامر التسرع السابقة .. ولم تدم هذه المأساة المزلية أكثر من ثلاثة أيام، ولكنها كانت كافية في إظهار شعور الأمة الحقيق. وإن في السرعة التي أرسلت بها الأوامر إلى الأقاليم لوقف جميع وسائل الدفاع إبينا لسبب كره الدبلوماسيين البريطانيين عرابياً ورفاقه، فقد رأوا أنه ما دام هؤلاء قابضين على أزمة الأمور فلا يحتمل أن تقع مصر غنيمة باردة في أيدي المقددين » .

ولكن مالت لم يكن ليرووه هذا المظهر فـ كان مما افتراء فيما أبرق به إلى حكومته ماجاه في قوله « في هذا المساء توجه رؤساء رجال الدين وفيهم البطريك والحاخام، كما توجه النواب جمِيعاً والمعلماء وغيرهم إلى الخديو وسأله أن يعيده عرابياً وزيراً للجهازية؛ فرفض الخديو، ولكنهم توسلوا إليه قائلين لمن كان الخديو مستعداً ليضحي بحياته فينبغي ألا يضحي بحياتهم هم ، وأن عرابياً يهددهم جميعاً بالموت إن لم يحصلوا له على موافقة الخديو؛ وأن حرس القصر قد ضعيف ، وأن أوامر صدرت إليهم بأن يعنوا مفادرته القصر طلباً لرياسته المتادة ، وأن يطلقوا النار إذا حاول أن يشق طريقه بالقوة ... ولم يجد الخديو أمام هذه الظروف إلا الأذعان لا لينجي نفسه بل لينقذ المدينة من سفك الدماء »

إلى هذا الخديبلم افتراء مالت فيصور توفيقاً سجيننا في قصره ويحمله عرضة لأن يطلق حرسه النار عليه؛ وهذه رواية لم يوردها غير مالت بين جيم من كانت لهم صلة بهذا الموقف من الفنacial ومن المؤرخين . ومن الأمور البدائية أنه لم

يبحّم عن أن ينقل مثل هذه الشائعات المفزع إلى توفيق نفسه ليلًا قلبه رعباً ،
ويوحى إليه أن يطلب النجدة ...

وفي مساء اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أصدر الخديو أمراً إلى
عرابي باشا بإعادته إلى وزارة الجماهيرية والبحرية هذا نصه .. « ولو أنكم استعنتم
ضمن هيئة النظار التي استعفتم ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية استصوبنا
بقاءكم على نظارة الجماهيرية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا
بإجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكافية لحفظ الأمانة العمومية
على الوجه المرغوب كا هو مقتضى إرادتنا »

يقول عرابي في مذكرة « حضر لي رئيس مجلس النواب سلطان باشا
وحسين باشا الشريعي وسلمان باشا أباطة وسلمى أمير الخديو القاضى برجوى
إلى نظارة الجماهيرية والبحرية ، وأخبرونى بأنهم لما وفدو على الخديو وجدوا جميع
القناصل فى حضرته ما عدا قنصل فرنسا وإنجلترا وأنهم طلبوا من الخديو صدور
أمره برجوى إلى نظارة الجماهيرية والبحرية لأجل اطمئنان الموم ؛ فكان
القناصل مع النواب على رأى واحد ، وحينذاك فرح الضباط والجنود وجميع
الوطنيين وسرروا بذلك سروراً عظياً ...

وبعد ذلك توالت اجتماع قنصلي إنجلترا وفرنسا الجنرالين بالخديو ليلًا ونهاراً ،
ثم أصدرت منشوراً إلى قناصل الدول ، وتتكلفت لهم فيه بتأمين الأمن والراحة
لجميع سكان القطر المصرى وطنين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من
الخديو لزوم جمع انساً كثراً لاستكمال الألائيات على مقتضى القدر المقرر في الفرمانات
السلطانية فأجابنى بالموافقة على ذلك ، وصدر أمر الجماهيرية بجمع عساً كثراً للأمدادية
مرة ٢ ، ومرة ٣ استعداداً لما عسى أن يطرأ من الحوادث »

وأخذت الطمأنينة تحمل مخالق في نفوس الناس ، إلا من كانوا يفطنون
إلى حقيقة الموقف ، فليست المسألة مسألة الخلاف بين توفيق وعرابي ، وإنما المسألة
هي نيات السياسة الإنجليزية ! ولذلك ما كانت أية تسوية داخلية لتجدى فتيلاً

والإنجليز متربصون ، ومالت يسمى جهده لتمكير الماء كي يسهل عليه الغدر ...
والواقع أن تعلق الناس بعرابي إلى هذا الخد واطمئنان الوطنيين والأجانب إليه ،
أقوى رد يدفع به باطل مالت وأشياعه ممن خوفوا أوروبا من نفوذ الحزب العسكري
وأنذروها بالويل والثبور ، فهم أولاء الناس من وطنيين وأجانب لا يجدون لهم
ملاذاً غير عرابي ليطمئنوا على حياتهم وأمنهم .

وكان عجز الخديبو كذلك عن إقامة وزارة أبلغ فشل سياسة مالت ؛ فإن طوائف
الأمة تويد الجيش ما عدا سلطاناً ونفراً من النواب ؟ وما تلقف الأمة حول الجيش
ورئيسه عرابي إلا لأنه اليوم في نظر الجميع أكثر مما كان من قبل أمل البلاد في
إنقاذهما من التدخل الأجنبي ؛ وهل يقول أحد إن الأمة كانت في صف توفيق
بعد قبوله المذكورة المشرفة الثانية ؟

إذاً فالقضية تزداد وضوحاً يوماً عن يوم فهذه أمة تتطلب الحرية ، ولكن إنجلترا
وعلى رأسها جلاستون زعيم الحرية تنهيها بالتمرد والغوضى ، كـ تتقى لاتمامها ،
كـ أنهم الذئب الجمل في تلك الخرافات التي يقصونها على الأطفال بأنه يعكر عليه الماء
والذئب في رأس المتحدر والجمل في أسفله !

وما أرذل موقف مالت بعد التفاuf الأمة حول عرابي على هذه الصورة ،
وما أكثر ما يكشفه الموقف من صفاقته ولؤم طبعه ... يقول روئسين «لاشك
أن السير إدوارد مالت قد ساءه الإخفاق الذي لقيه وهو يحاول التخلص من وزارة
سائى ، ولو أنه كان على شيء من الشعور بكرامة النفس لاستعن في وقتئذ من عمله .
ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظة على كرامة نفسه ، وإنما كان يريد إحداث تدخل
مسلح ، فإذا لم تؤده إلى ذلك طريق سياسة سلوكها ، فلا بأس بأن يعيد الكرة
ويسلك طريقاً أخرى تكون أقصد وأهدى إلى وجه النجاح . لذلك لم يكن
الإخفاق الذي لقيه إلا ليزيده إقبالاً على العمل ومضيّاً فيه ، فقد كتب عن رجوع
الوزارة^(١) إلى رئيسه في ٣٠ مايو يقول : إن القوم يعدونه إذاناً بإخراج المسيحيين

(١) يقصد رجوع عرابي إلى الوزارة .

من مصر وارتجاع الأرضين التي يعتلّكها الأوروبيون أو يرتهنونها ، كما يعدونه
إيداناً بالغاء الدين العام » ...

وكيف كان يطيق مالت أن يضمن عربي الأمان في مصر؟ وكيف كان يطيق
أن ينجح عربي فيما تمهد له؟ إن ذلك معناه بطلان كل حجة له ، بل بطلان
حجته الوحيدة التي لا يفتّأ برددها ألا وهي اختلال الأمن في البلاد وقلق الأجانب
على أمرائهم بسبب تسلط العسكريين ...

لذلك يد الماء مالت في وصف ما يدعى من سوء الحال في مصر ولا يكتفى بذلك كره
فيما أورده رؤسائين ، بل إنه يبرق إلى حكومته في نهاية شهر مايو قائلاً « ربما وقع
تصادم في أي وقت بين المسلمين والمسيحيين^(١) ». ولنا عودة إلى هذه البرقية
الخبيثة عند كلامنا على مأساة الإسكندرية ...

ويذكر مالت فيما يذكره حكومته أن البلاد في حالة ذعر ، وأن الأوروبيين
يغادرون القاهرة أفواجاً ، وأن الوزارات جميعاً ماعدا وزارة الجمادية تكاد تكون
معطلة للأعمال ، إلى غير ذلك من المفتريات الفاجرة ...

ويشائع مالت إنجليزى آخر هو كوكسن قنصل إنجلترا في الإسكندرية الذى
رأي أنه يلعب دور الشيطان يوم عابدين ، فقد أُبرق قبل اليوم الأخير من مايو يقول:^(٢)
« إن كل يوم نتأخره يزيد روح العسكريين الخطرة كما يزيد تحدّفهم التوصل للنظام »
ويقول كذلك وما أبعد ما يقول عن الحق « إن ضباط الجيش يحصلون بالقوة
على توقيمات من الناس على عربضه بطلب عزل الجندي ». وأن رئيس مجلس النواب
طلب إلى الأعضاء أن يقرروا في يومهم لكي يخلصهم من إرث الجندي إياهم على التوقيع^(٣)
وللقاريء أن يتذمر في قول كوكسن « إن كل يوم نتأخره » ومعنى ذلك أنه
كان كصاحب مالت يستعمل دولته بالمدوان الفاجر على البلاد ...

بَيْنَ عَرَابِيِّ وَالسُّلْطَانِ

ذكروا أن الحكومة العثمانية أجبت الخديو بأنها مستعدة لإرسال مندوب إلى مصر إذا جاءها من مصر طلب رسمي بذلك ؛ ويقول كرومر في كتابه إن هذا الطلب الرسمي أرسل فعلاً إلى الأستانة ؛ ومهما يكن من الأمر فإن السلطان في اليوم الثاني من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا مندوباً عنانيا ساميا وأمره بالسفر إلى مصر رئيساً لوفد يعالج الحال فيها ؛ ولعلم السلطان كان يرى أن هذا الوفد أو هذه البعثة التي اشتهرت باسم بعثة درويش باشا كانت كفيلة بوضع الأمور موضعها الصحيح ، وإزالة أسباب الشكوى من جميع الجوانب على أساس الاستفادة من الخلاف بين الفريقين ابتعاد تثبيت سلطة الدولة في مصر ... ووصل درويش باشا ووفده إلى الأسكندرية في اليوم السابع من يونيو ، وقد ألق لهم إليها اليخت السلطاني « عز الدين » ، وكان من أهم أعضاء الوفد الشيخ أحمد أسعد أحد ذوي الخطوة والمكانة عند السلطان عبد الحميد ؛ وبلغ عدد أعضاء البعثة ورجال حاشيتها ثمانية وخمسين ...

* * *

وبحדר بنا قبل الكلام على بعثة درويش أن نأتي على تاريخ الصلة بين عرابي والسلطان منذ بدأت بينهما ، لما ذلك التاريخ من أهمية املاقه بما كان من أمر درويش ومسلكه نحو الخديو ونحو عرابي .

كانت أولى خطوات عرابي نحو الاتصال بالأستانة تقابل مصادفة في اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأحمد راتب باشا ، أى بعد يوم عابدين بشهرين وبضعة أيام ، وقد ذكر عرابي بتأهله في مقابلة في موضوعين : الأول في مذكرةه والثانية في حديثه مع مستر بلنت بالشيخ عبيد في اليوم الثاني من شهر

بنابر سنة ١٩٠٤ أى بعد عودته من متفاه بأكثـر من عامين وقد أثبتت بذلك هذا الحديث في آخر كتابه ...

قال عرابي في مذكرةه « وفي ١٦ أكتوبر تقابلت مع أحد راتب باشا أحد رجال الوفد العثماني ، وأحد رجال الملايين المقربين من جلالة السلطان الأعظم في محطة الزقازيق ، وكان قاصداً بندر السويس ليبحر منه إلى الحجاز بأمرورية فوق المادة ، فركبت معه في عربة واحدة وعرفته بنفسه ، ثم أخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر إلى آخره ، وإنما لم نشق عصا الطاعة كايدى الأوربيون بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير بأن لنا سلطاناً شرعاً هو صاحب السيادة المطلعي على البلاد المصرية وأن الخديو هو نائب عن جلالته فقط ، من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكاماً شرعاً غير الخديو . ولما وصلنا إلى رأس الوادى حضر الضباط والصف ضباط ، واصطفوا صفواً واحداً تعظيمياً وإجلالاً للذات المشار إليه ، وهمروا بقولهم يعيش السلطان ، ثم ودعناه والتمنينا منه عرض إخلاصنا وطاعتنا على الحضرة السلطانية حين عودته إلى الاستانة العلية ، وقام به البابور بين أصوات المؤذنين والدعاء له ولذات الشاهانية »

وقال في حديثه مع بنت « ولما جاء على باشا نظائـي إلى القاهرة ومعه أحد راتب باشا من قبل السلطان ، انزعج الخديـو خـافـة أن يـحدثـ تحـقيقـ ، ولـما كان مـحـمـود سـائـيـ قدـ عـادـ إلىـ وزـارـةـ الجـهـادـيةـ فقدـ أـمـرـناـ أنـ نـفـادـرـ القـاهـرةـ ، فـذـهـبـتـ إلىـ رـأـسـ الوـادـىـ وـذـهـبـ عبدـ العـالـىـ دـمـيـاطـ ، وـبـقـىـ عـلـىـ فـهـمـىـ فـيـ القـاهـرـةـ ؛ وـلـمـ أـرـ عـلـىـ نـظـائـىـ وـلـاـ كـانـتـ لـىـ صـلـةـ بـهـ ؛ وـلـكـنـ حدـثـ أـنـ كـنـتـ فـيـ الزـقـازـيقـ ذاتـ يومـ فـيـ زـيـارـةـ صـدـيقـينـ لـهـاـ أـجـدـ أـفـنـىـ الشـمـسـىـ وـسـلـيـمانـ أـبـاظـةـ باـشاـ ، وـبـيـنـماـ كـنـتـ رـاجـماـ بالـقطـارـ إـلـىـ رـأـسـ الوـادـىـ ، تـصادـفـ أـنـ كـانـ أـحـدـ باـشاـ رـاتـبـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ السـوـيسـ ليـبحـرـ مـنـهـاـ فـيـ رـحـلـةـ إـلـىـ مـكـةـ ، وـوـجـدـتـ نـفـسـيـ فـيـ الـمـرـبـةـ الـتـيـ كـانـ يـجـلسـ بـهـ ، وـبـنـادـلـنـاـ التـحـيـةـ كـشـخـصـيـنـ يـجـهـلـ كـلـاـهـاـ الـآـخـرـ وـسـأـلـهـ عـنـ اـسـمـهـ وـسـأـلـهـ عـنـ اـسـمـيـ وـحدـثـنـيـ عـنـ رـحـلـتـهـ وـعـنـ أـشـيـاءـ أـخـرـيـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـشـرـ إـلـىـ بـعـثـتـهـ لـخـدـيـوـ ، وـكـذـكـ

لم أسأله عنها . ولكنني أخبره عن ولائي للسلطان بصفته رئيساً لديتنا وقصصت عليه جميع ماحدث فقال خيراً ما فعلم ، وتركته عند رأس الوادي ، وقد أرسل إلى مصحفاً من جدة وما عاد إلى استنبول كتب إلى يخبرني أنه ذكرني بمخير عند السلطان ، ويعد ذلك تلقيت كتاباً أملاء السلطان على الشيخ محمد ضفر بنبني فيه^(١) بما تعلم » .

* * *

أما عن بعثة على نظاري فإن عرابياً لم يكن له بها صلة لو لا ما كان من لقائه أحد راتب باشا على الصورة التي أوردنها ؛ وكانت بعثة نظاري هذه هي الوفد العثماني الأول وقد وصلت مصر في اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٨٨١ ؛ وسيأتي بعثة درويش بعد ذلك بالوفد العثماني الثاني ...

نزل أعضاء الوفد الأول بقصر النزهة ضيوفاً على الحكومة ؛ واستقبلهم الخديو في اليوم التالي مرحباً بهم في قصر الإمامية ، وأبلغوه تحيات السلطان ، وتناوله على ما يبذل الخديو من همة في تحسين أحوال البلاد ، وأفهموه أن الفرض من مجنيهم هو تأييده وثبتت حكمه في مصر ... وعبر الخديو أمامهم عن عظيم شكره للسلطان ولولاته له ، ورد لهم الزيارة في قصر النزهة ...

وزار على نظاري باشا ديوان الحرية في مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلات الثاني واستقبله البارودي بالحفاوة ؛ وأنق نظاري باشا خطاباً بالتركية على الضباط والجندي حثّهم فيه على طاعة الخديو وعربي لهم البارودي ؛ وأجاب طلبة عصمت بقوله : « إن العساكر المصريون جوعاً وأفراداً على قدم الطاعة والانقياد لولي أمرنا الخديو المظالم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه ، فإن كلامنا يعلم أن أول واجب على الجندي هو إطاعة ولـي الأمر والإذعان لما يأمر به ، وما مننا إلا محـ للجنـابـ الخـدـيـوـ مـيـالـ بـكـلـيـتـهـ إـلـىـ الـامـتـثالـ لإـشارـتـهـ »

وصافح نظاري باشا الضباط جميعاً وأثنى على ما يظهرون من ولاء وحسن نظام .

(١) حرف بلنت هذا الاسم وحقيقة محمد ظافر كما جاء في مذكرات عرابي الخطية .

وزار نظاري باشا شيخ الجامع الأزهر ونقيب الأشرف وبمغض كبار العلماء
فلاي منهم جيمماً ثناه على الجيش وشهدوا بحسن نياته وولاته للسلطان وللخديو؛
وكان زعيم الجندي أحمد عرابي أثناء ذلك في رأس الوادي فلم يره نظاري.

ويبدو عجيباً أن نظامياً لم يحاول أن يتصل بعربي ، ولعل صرد هذا إلى أن
السلطان لم يكن يؤيد يومئذ الحركة الدستورية في مصر ، فقد حارب عبد الحميد
مثلك هذه الحركة في بلاده وذلك بتمليل القانون الأساسي العثماني وإغلاق مجلس
النواب وتشتيت أنصار الدستور والحرية ...

و كانت بعثة نظاري في الواقع مظاهرة سياسية ، أراد بها الباب العالى أن يستعيد نفوذه و يثبت سلطانه في مصر ، وقد قوبلت كأسلفنا بظاهرة سياسية مثلها من قبل الدولتين .

أما خطوة عراقي المانية نحو الصلة بالاستانة فتتخلص فيما جرى من مكتبات بين بعض رجال السلطان وبين عراقي .

وقد أشار بلنت في كتابه إلى هذه المكاتبات بقوله بعد أن ذكر ما كان من لقاء بين راتب وعرابي « وقد أدى ذلك إلى مكاتبات بينهما ، وتحت يدي أصل وثيقتين هامتين وقامت عليهما ضمن إضبارة كبيرة من الأوراق أثناء حملة عرابي وهما كتابان أرسلا إلى عرابي بعد تأليف وزارة سامي بنحو ثلاثة أسابيع أى في فبراير سنة ١٨٨٢ وهي الوزارة التي كان عرابي فيها وزيراً للجهادية ، أما أولها فن أحمد راتب ، وأما الثاني فن الشيخ أحمد ظافر أحد كبار أشياخ الدين بالقدسية والذى كان في ذلك الوقت يقوم على شؤون المكاتبات السورية للسلطان ؛ وقد كتبته هاتان الرسائلتان بأمر السلطان شخصياً ». ثم أورد بلنت بعد هذا نص الرسائلتين ... ويدرك عرابي في مذكراته أن الأصل التركى للرسائلتين ضبط بعد موقعة التل الكبير وترجمتا إلى اللغة الإنجليزية ثم أورد عرابي ترجمتها عن الإنجليزية ... أما عن قصة هاتين الرسائلتين فيقول عرابي « ولما رأينا كثرة تردد السير مال

فنصل إنجلترة الجرال على الخديو ليلاً ونهاراً واستسلام الخديو لما يوحى به إليه علمنا أن إنجلترة طاعنة للاستيلاء على وادي النيل الخصيب عملاً بقاعدة التوازن الدولي لتضارع بملها هذا عمل فرنساً في استيلانها على ولاية تونس الخضراء . فكتبنا بذلك للحضررة السلطانية ، وحيث لم يكن لنا واسطة في الآستانة تبلغ عنها مقاصدنا للسدة الشاهانية أخذنا الشهم المقدام الصادق الأمين على راغب قبودان أحد شبان ضباط البحرية المصرية رسولاً ، وكفناه بإبلاغ عريضتنا إلى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذليه وشيخ الحضررة السلطانية فصعد بالأمر وأوصل الرسالة إلى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ أحد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية إلى دار السمادة .

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف ، وكذلك فعل أحد راتب باشا ، وكان الحامل لهذين الخطابين السيد أحمد أسعد افندي وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذي حضر أخيراً بمعية درويش باشا ، وهكذا ترجمها عن اللغة الإنجليزية من تاريخ المستر برودل وتاريخ المستر بلنت لأن أصلها التركي ضبط بعد واقعة التل الكبير وترجم إلى اللغة الإنجليزية » .

وأشار عربي إلى المكاتب بينه وبين السلطان في موطن آخر ، وذلك أثناء سجنه في مقر الدائرة السنوية قبيل حادنته ، فقد كتب وهو في السجن ملخصاً لقضيته كلها ليستعين به محاميه مستر برودل في الدفاع عنه ، ولقد أتني برودل على حضور ذهنه وترتيبه الحوادث ترتيباً منطقياً حسن السياق على الرغم مما كان يحيط به قال عربي في هذا المخصص^(١) وقد تكلم عن بعضه درويش ما نعرفه كما يأتي : « أشعر الآن أن من واجبي نحو مصر ونحو نفسي أن أذكر في وضوح عند هذه النقطة صلقي بصاحب الجلاله السلطان أثناء الحوادث الأخيرة في هذا البلد . لقد بدأت على هذه الصورة : أرسل طلعت باشا الشركسي في نوفمبر سنة ١٨٨١ في رسالة إلى القسطنطينية من جانب الخديو . وقد كاف أن يصور لوزراء الأزرار

وللسلطان أن مصر في حال ثورة ، وأنه هناك اقتراح لإنشاء إمبراطورية عربية وأن أحمد عرابي والحكومة البريطانية قد اتفقا فيما بينهما على هذا الأمر ... وقد أحدها هذه الأشاعات التي نشرها طلعت أثرها في الاستانة ؟ ولم يكن لنا وكيلاً هناك يدفع هذه الأباطيل ؟ فاضطررت إزاء ذلك إلى الاتصال بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الديني ، ذلك الذي عرفته بشهرته ولم أقابله شخصياً قط . فككتبت إليه وحمل رسالتي إليه على راغب مفندأً جميع المزاعم التي عزرت علينا ، وطلبت إليه أن يشرح للسلطان صادق ولائى ، وشدة تعلق بالمبادئ الأساسية لديننا المقدس ، تلك التي تحمل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين .

ولقد رد علينا هذا الشيخ في مسرور فحمل على راغب السالف ذكره كتاباً باللغة التركية ، قال فيه إنه ألقى بين يدي السلطان ما تضمنه كتابي ؛ وإن السلطان أظهر افتئاعه بولاني ، وإنه يأمرني أن أظل على طاعتي ؛ وأضاف الشيخ أن جلاله السلطان يطلب إلى أن أدفع عن بلدى بكل ثمن ضد الاحتلال ، وإلا كان نصيبه نصيب تونس ، وإنه لا يعنيه إسماعيل أو حليم أو توفيق ، وما يعنيه إلا الرجل الذي ينفذ ما يأمر به ؟ وكتب إلى بيثل هذا أحد راتب باشا الذي قابلته مقابلة شخصية طويلة عندما كان بمصر ، والذي جاء كتابه إلى مع كتاب ظافر »

هذه قصة الرسالتين الخطيرتين بين عرابي وبلاط السلطان ؟ أو تاريخ الصلة بين عرابي والسلطان قبل بعثة درويش ، ولقد راجحت الرسالتين كما أثبتتما عرابي فيما بين يدي من مذكرة المخطوطة على الترجمة الأنجلiazية التي أثبتتها بذلت في كتابه عن الأصل التركي فوجدت التطابق بينهما تماماً ، ولذلك آثرت أن أوردتها للقاريء في عبارة عرابي فيما يلى :

ولنبدأ بكتاب الشـيخ محمد ظافر قال « ناظر الحرية المصرية » ، سعادتو أفندي ... قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم إلى جلاله السلطان وجلالته علم من خواصها جميع عواطفكم الوطنية ونیقظكم وخصوصاً

وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل إخلاص وأمانة ، فإنها وقفت لدى جلالته موقعاً حسناً ، حتى أن جلالته أمرني أن أبين لكم سروره ورضاه وأكتب لكم كالتالي :

حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا ، فيجب على كل مصرى السمعى بعزيز الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر ووقعها في قبضة الأجانب العظامين كما وقفت ولاية تونس في أيدي الفرنسيسين . فنحن وضعنا ثقتنا فيكم يا ولدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما في الامكان لمنع حدوث شئ مثل ذلك . فـكـنـ عـلـىـ حـذـرـ دـائـماًـ وـلـاـ تـغـضـ النـظـرـ طـرـفةـ عـيـنـ عـنـ هـذـهـ النـفـطةـ المـهـمـةـ ، وـلـاـ تـرـكـواـ آـيـةـ طـرـيقـةـ أوـ سـيـلـةـ مـنـ وـسـائـلـ الـاحـتـيـاطـاتـ وـالـطـرـقـ التـخـذـلـةـ فـعـصـرـ نـاـ هـذـاـ ، وـاضـعـمـ نـصـبـ عـيـنـيـكـ دـائـماًـ التـرـضـ الذـىـ تـرـىـ إـلـيـهـ أـلـاـ وـهـوـ الدـفـاعـ عـنـ مـلـتـكـ وـبـلـادـكـ ، وـخـصـوـصـاـ يـجـبـ عـلـيـكـ أـنـ تـبـارـوـاـ عـلـىـ حـفـظـ ثـقـنـاـ بـكـ وـالـرـوابـطـ الـتـىـ تـرـبـطـكـ بـنـاـ .

تلك البلاد هي بلاد مصر التي لها أهمية عظمى لدى إنجلترا وفرنسا وخصوصاً لدى الأولى . ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفقن في الآستانة عمالثون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التي تؤدي إلى الخراب وسوء المصير . ومذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفقن في مصر ، وجهوا عنایتهم إلى ذلك بنشاط وغيره فرغبة جلالته الخصوصية هي أن تخذروا من أولئك اللونة الأشرار ومكائدهم وراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لانتاج ! وبناء على التلفقات والأخبار المرسلة من الخديبو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية الموما إليها رى أنه ضعيف ومتقلب ولا حظنا أيضاً أن كل تلفراف من تلفرافاته لا يؤيد الآخر بل جميعها على طرق تقييض . وأزيدكم معرفة بأن على نظامي باشا وعلى فؤاد باك قد أثنيا عليك ثناء جيلاً لدى الحضرة السلطانية وكذا أحد راتب باشا ، فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذي دار بينكما في عربة السكة الحديدية ما بين محطة الرقازين والمسمة ، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته

في أحد بasha راتب ، فقد كافى بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم وأخبركم بأنه حيث أن جلالته يعتبركم رجالاً ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شيء من وقوع مصر في قبضة الأجانب وألا تتركوا لهم حجة عَكْنَهُمْ من التدخل في شؤون مصر ...

هذا وإن التعليمات التي ستصدر إلى راتب بasha في هذا الشأن ستكتب لكم على حدتها ...

وقد كتب خطابي هذا وخطاب أحد راتب بasha بأمر جلالته بمعرفة أحد كتاب جلالته الأخفاء وبعد أن وقمنا عليهم بأختامنا في حضرته المليئة ختمنا على الظارفين ...

هذا وأعلمكم بصفة خصوصية وسرية أن جلالة السلطان لا يعول على إساعييل ولا حليم ولا توفيق بل يعول على الرجل الذي يفكرون في مستقبل مصر ويثبت الروابط التي تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بتفصي الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطنته المستقلة في الآستانة وخلافها ولا يعطي رشوة لأوثاث الموظفين الخائفين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجبه ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الأوروبيين وأعمالهم التي يقصد منها إيقاع الفتنة والشاغبات ، ويكون واقفاً لهم بالمرصاد ، ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسها سوء فن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا الأعظم ويكون مقبولاً لدى جلالته .

وإن أرجوكم لا تؤاخذوني في عدم كتابة تفصيلات أخرى بخطابي هذا ، حيث أن أحد راتب بasha حضر منذ ثلاثة أيام فقط ؛ ومع ذلك في المدة القصيرة نظراً للاقوال التي صرحت بها عن حسن مقاصدكم الشريفة وعبوديتكم لجلالته أظهر عظيم ثقته فيكم . هذا وقد وصلني بالأمس الخطاب الذي أرسلته لي وأنتم بإمكان إرسال جوابه لكم في يريد الأسبوع الآتي متضمناً تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أي خطاب من الخطابات التي ترسوها

فِي أَيْدِي الْفَيْرِ وَاجْهَدُوا فِي الْحَصُولِ عَلَى مَرَاسِلٍ مُخْصُوصٍ يَبْنُونَا تَقْوَنُ بِهِ ، وَأَمَّا
فِي هَذِهِ الْمَرَةِ فَالْأَوْفَقُ هُوَ تَسْلِيمُ رَدِّ هَذَا الْمُخَطَّابِ لِيدِ حَامِلِهِ ...

٤ رَبِيعُ الْآخِرِ سَنَةِ ١٢٩٩
مُحَمَّدٌ ظَافِرٌ

وَنُورَدُ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابَ أَمْهَدَ رَاتِبَ باشا وَنَصِّهِ كَمَا أَثْبَتَهُ عَرَابِيٌّ كَمَا يَأْتِي :
إِلَى نَاظِرِ الْحُرْبِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ أَمْهَدَ عَرَابِيَّ بَكَ (١) : — قَدْ بَلَغَتْ جَلَالَةُ السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ الْمَحَادِنَةِ الَّتِي حَصَلَتْ يَبْنُونَا بِالسَّكَّةِ الْمَحْدِيدَيَّةِ مَا يَبْنُ مُحَاطِي الزَّقَارِيقِ وَالْمَحْسَمَةِ عِنْدَ
عُودَتِي مِنَ الْأَسْتَانَةِ ، وَقَدْ أَحْدَثَتْ تَلَكَ الْمَحَادِنَةَ سَرْوَرًا عَظِيمًا عِنْدَ جَلَالَتِهِ وَأَمْرِنِي
أَنْ أَبْلُغَكُمْ مَعْظُولَيْتِهِ الْمَلْوَكَانِيَّةِ ، وَأَنْ أَبْلُغَتْ جَلَالَتِهِ الْمَامَلَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي عَوَّلَتْ
بَهَا وَالْإِكْرَامُ الَّذِي رَأَهُ عَيْنَاهُ مَدَةً وَجُودِيَّ الْمَحْرُوسَةِ ؟ وَجَلَالَتِهِ أَظْهَرَ عَظِيمًا
مَعْظُولَيْتِهِ حَتَّى أَنْ الرَّضَا الَّذِي حَصَلَ عِنْدَهُ أَقْنَعَ جَلَالَتِهِ بِالْبَحْسُنِ وَلَائِكِمْ وَعَبْدِيَّتِكُمْ
أَضْعَافًا مَضَاعِفةً ...

هَذَا وَقْدَ سَمِيَّ أَنَّاسٌ فِي جَمِيلِ جَلَالَتِهِ يَفْتَكِرُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَسِيرُونَ عَلَى خَطَّةِ
مَخَالَفَةِ لِلْطَّرِيقِ الْقَوْمِيِّ وَلَا أَدْرِي كَيْفَ ذَلِكُ ، وَنَجْحُوا فِي تَفْيِيرِ فَكْرَةِ جَلَالَتِهِ
نَحْوَكُمْ . وَأَمَّا الآنَ بَعْدَ أَنْ أَوْصَخَتْ جَلَالَتِهِ حَقِيقَةَ الْمَسَأَةِ أَقْسَمَ لَكُمْ أَنْ جَلَالَتِهِ
مَتَأْسِفَ جَدًا لِكَوْنِهِ سَعْيٌ لِلْأَقْوَالِ الْكَاذِبَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي بَلَقْتُهُ عَنْكُمْ ، وَالَّذِي
يَبْتَئِلُكُمْ ذَلِكُ هوَ أَنْ جَلَالَتِهِ أَمْرَ بِأَنْ أَحْرِرَ هَذَا لَكُمْ وَأَوْضَحَ لَكُمْ فِيهِ
الْخَوَاطِرُ الْآتِيَّةُ :

لَا أَهِيَّةٌ فِيمَنْ يَكُونُ خَدِيوَ مَصْرُ ؛ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَفْكَارُ وَالِّيَّ مَصْرُ
وَمَقَاصِدُهُ وَسِيرَتُهُ خَالِصَةٌ مِنَ الشَّوَّافِ بِحِيثُ أَنْ جَمِيعَ حَرَكَاتَهُ تَكُونُ مُتَجَهَّةً
لِصِيَانَةِ مُسْتَقْبَلِ مَصْرُ وَلِتَوْطِيدِ عَرَى الْعَلَاقَاتِ الْوَثِيقَةِ مَعَ عَرْشِ الْخَلَافَةِ ، وَفِي
الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَظْهُرَ الْفِيَرَةُ التَّامَةُ وَالْإِخْلَاصُ فِي تَأْيِيدِ حُقُوقِ الْبَلَادِ
وَيَلْزَمُ أَنْ يَتَصَفَّ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ كُلُّ مَنْ يَتَرَبَّعُ مِنَ الْوَلَاةِ عَلَى الْأَرْيَكِ الْمَحْدِيدَيَّةِ ...
إِسْتَعْمَلْ بَاشَا وَأَسْلَافُهُ أَوْلَئِكَ رِشْوَانِيَّ بَاشَا وَفَرَادَ بَاشَا وَمَدْحَتْ بَاشَا وَنَائِبِهِمْ

(١) كَذَا « أَمْهَدَ عَرَابِيَّ بَكَ » فِي مَذَكَّرَاتِ عَرَابِيِّ وَفِي كِتَابِ بَلَتْ .

اللائتين في الباب العالى ، وبعد أن أغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وضرب الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فإنهم تدابنوا ديبوناً ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت يدي العبودية . واليوم حالتهم في نظر الدنيا تستدعى رأفتنا الخصوصية بهم ، فالمركز بأكمله في غاية من الضعف ويحتاج إلى البحث الدقيق وراء الدواء الشاف الماجل ؟ وعليه يهمكم قبل كل شيء منع معاشه أن يؤدي إلى التداخل الأجنبي والاتحيدوا عن الطريق الحق القوم ولا تصنعوا إلى الاختلافات التي تسبب الخدعة ، بل يجب عليكم في كل الأحوال منع حدوث التدابير الأجنبية التي يقصد منها إثارة الفتن بكل تيقظ وهذا هي غاية جلالة السلطان المظلي .

وعما أنا سنكتب بعضنا في المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات الالزامية لعدم وقوع خطاباتنا في أيدي الغير وأسهل طريقة وأمنها التي يمكنكم اتخاذها الآن وهي أن تعطوا مكتبيتكم إلى الرجل الصادق الأمين الذي يحمل هذا وأخر من الشيخ محمد ظافر ، وأزيد على ذلك أن من الضروري إرسال ضابط سراً يكون على أيدي مصر ويكون بين أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقلكم فيه ليقدم إلى اعتاب جلالة السلطان تقارير مسمبة حقيقة عن أحوال البلاد ؛ هذا وأرجوكم رد هذا بعمرفة الرجل الذي يحمل هذا الخطاب ... في ٤ ربیع الآخر سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ؟ ياور جلالة السلطان . أهد راتب » .

من هذا يتبيّن لنا أن الصلة كانت وثيقة بين عرابي والسلطان قبل مجيء بعثة درويش ، وهو أمر له خطورته البالغة ، فقد كان عرابي في نظر من يعلمون هذه الصلة من شيمته المدافع عن حرية المصريين وعن حقوق السلطان ضد إنجلترا وفرنسا ، في حين ظهر الخديو بمظهر الناقم على المصريين ما يطلبونه من حرية وأمان إسلامية الدولتين المعتمديتين وبخاصة إنجلترا .. ولسوف تكون هذه الصلة

أهم ما يدفع به محاميه عنه تهمة التمرد والمصيانت يوم يساق هذا المجاهد إلى المحاكمة ...

ولقد أشار عرابي إلى أهمية هذه الصلة في تقريره الذي كتبه في السجن قبيل المحاكمة فقال بعد أن أتم تاريخ هذه الصلة إلى ما بعد بعثة درويش «لم يستنكر السلطان أبداً ما فعلنا ، لاف أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا ؟ بل إن السلطان أيد أفعالنا بالقول وبالعمل ، فكيف أكون مع ذلك متورداً ؟ أليس يمد السلطان في نظر الأمة الأنجلزية صاحب السيادة على مصر ؟ !

وانا لا نجد في بيان أهمية هذه الصلة خيراً مما كتبه بلفت في صددها قال : «إن هاتين الرسالتين وثيقتان لها من عظيم الأهمية التاريخية أنه إذا قدر لمذكران أن تطبع يوماً فيجب أن تلصقاً بها بنصها وحروفهما ؛ وإنما لتفسران كثيراً مما سيحدث بعد ذلك في يونيو أثناء بعثة درويش ، وكذلك تقديم الدليل على أنه إذا كان عرابي أخذ على عاته وقى واثناه شهور الحرب مسؤولية حكم مصر حكماً ديككتوريًا فإن ذلك لم يكن بغیر مبرر قوى من وجہ النظر الإسلامية ، وهذا البرر هو أوامر الخليفة إمام دینه في أن يدافع عن القطر في وجه الدول المسيحية . وترى الواضحان كذلك لماذا لم يكن عبد الحميد ميالاً في شهر أغسطس إلى أن يطلق على عرابي لفظ المتعمد ؟ وكيف بلغ من السخف نعته بذلك عند المحاكمة ...

وعلى أي حال فلنعني ألا يؤخذ من ذلك أن عرابياً قد جمل من نفسه أداة للسلطان في أي شيء يتصل بالأدارة الداخلية المستقلة لوطنه ، إن موقفه في هذه المسألة كان ثابتاً لا يتزعزع ، فقد كان يكره الترك وكان على وجه اليقين برد بقوة السلاح أي تدخل حربي من جانب القسطنطينية ؛ وإن كتاب الشيخ محمد عبد الدليل قوى على صحة هذا الذي أقول^(١) ، وهو يشากل جميع ما أفضى به

(١) يقصد الكتاب الذي أرسله إليه الشيخ محمد عبد الدليل بتاريخ ٢٥ مارس يقص عليه فيه حادث المؤامرة الفرنسية ، وفيه أظهر الشيخ مبلغ كراهية المصريين للأمارة .

إلى عرابي نفسه ... لهذا كان موقفه من بلاط الخليفة موقفاً متقليماً عرضة للتغيير ؟ ولقد كان له صديقان هنالك في شخص أحد راتب و محمد ظافر ، ولكن كان له كذلك أعداء أشداء »

* * *

نعود بعد ذلك إلى بعثة درويش لتبين مبلغ ما كان فيها مما نحن بصدده من صلة بين عرابي والسلطان ثم لننظر في الفرض منها وأثرها في مجرى الحوادث بوجه عام ...

لخص عرابي علاقته وعلاقة أشياعه بدرويش في هذه الفقرة التي جاءت ضمن تقريره الذى كتبه في سجنه قال « وكان أن وصل درويش باشا عند ذلك الوقت ، وبعد أن أجرى تحرياته عن مسلك الجيش أعلن أنه يرى أن الجيش كان مطيناً دائماً وأنه حافظ على النظام العام وأنه لا ملامحة توجه إليه وبناء على ذلك فقد طلب من السلطان نحو مائتي وسام للضباط والمدنيين ، وطلب لي الوسام الجيدى من الطبقة الأولى »

وقد أنعم فعلاً على عرابي بهذا الوسام الجليل الشأن . أُبرق مستر كارتويت وكيل قنصل الأسكندرية إلى الاورد جرانفل في اليوم الخامس والعشرين من يونيو يقول ^(١) « سيدى الاورد ... أخبر الخديو السير أو كلند كلفن أن السلطان منح سمه منحة من الجوائز علامة على الرعاية وحسن النظارة إلى مقامه ؛ وأضاف سمه أن السلطان مع الأسف قد أنعم على عرابي بالوسام الجيدى الأكبر ؛ وأنه أنعم على سلطان باشا بوسام روميلى ييلربى

ولتكن الخديو يقرر أن جميع جهود درويش باشا في تسكين ثأرة عرابي باشا باللاينة أو بالقوة قد منيت بالفشل التام ، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهاوا وهزوا ؛ ويتمسك عرابي الآن بأن ما يتضمنه هذا الأنعام الأخير عليه من الرضا

(١) مجموعة الكتب الأزرق الأنجليزى الخاصة بعصر وهي تحت يدى وقد وردت هذه البرقية في P II 1882 Egypt No 17.

والمعفو لا يدع ثمة ضرورة لأن يتتخذ خطوات أخرى يبرر بها سلوكه ؛ ويبدو من درويش باشا أنه يتراجع عن أن يبذل أي محاولات أخرى للتأثير عليه « ويتضـح من هذه البرقية مبلغ ما وصل إليه توفيق من الحقد على عراقي والخوف من نفوذه ، وأنه ينظر إلى المسألة كلها نظرة شخصية

ولا ريب أن توفيقاً على الرغم مما أنم به عليه ، يفطن إلى معنى الأنعام على عراقي ، فهو تأنيب عملي لتوفيق على صلته بالدولتين ، وهو في الوقت نفسه دليل على أن السلطان يريد أن يقول إنه يرى في عراقي المدافع عن حقوقه في مصر ... وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان في اليوم الرابع من يوليو وسلمها الخديو بيده لعرابي ، معبرا له عن رضائه عنه وثنائه عليه لأخلاصه في أداء خدماته واتباعه إلى واجبه ؛ وشكراً عراقي شكرأً حارأً على هذا المطاف ؛ كما أرسل عراقي إلى الآستانة يرفع شكره إلى السلطان ؛ وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثناءه على حسن سلوكه وإخلاصه لواجبه

وقد أظهر عراقي كياسة ولباقة في استلام الوسام ، وذلك أنه أبى أن يتسلمه إلا من الخديو حتى لا يكون في تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدى للخديو (١)

ولم يستشر توفيق في الأنعامات جديماً ، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان (٢)

ظن السلطان أنه يستطيع أن يستعيد نفوذه في مصر بالتفرقـة بين الفريقيـن التنازـعين فيها : توفيق ومن يشاـره ، وعراـقي وأعوانـه ...

لهـذا جـعل رـياـسة الـوـفـد لـدـروـيـش الـمـرـوـف بـالـقـوـة وـبـكـراـهـيـة الـمـناـصـر الـحـرـة ؛ وجـعل فـيهـ أـسـدـ مشـيرـهـ فـيـ شـؤـونـ منـ يـتـكـلـمـ الـعـرـيـةـ مـنـ رـعـاـيـاهـ وـمـرـجـعـهـ فـيـ دـعـوـةـ الـوـحدـةـ إـلـاسـلامـيـةـ ، وـأـتـفـقـ الـمـاـبـ الـعـالـيـ وـأـسـدـ عـلـيـ «ـ شـفـرـةـ »ـ خـاصـةـ لـمـكـاتـبـاتـ

(١) حضر التحقيق مع عراقي أثناء حماكته

Blue Books E No 17 — P 48 (٢)

لا يعرفها درويش ، وأفهم أسعد أن يلابن عرائياً ويلقى في روعه أن السلطان راض عنه وعن حزبه كل الرضا ، فلا يأس عليه مما عسى أن يجد من غلطة من جانب درويش ؟ وطلب كذلك إلى أسعد أن يطلع السلطان على حقيقة شعور المصريين وبخاصة علماء الأزهر ، فكان أسعد في الواقع رقيباً على درويش الذي لا يأمن السلطان أن تصله هدايا توفيق ...

ويذكر جون نيتنيه فيما كتبه عن مذبحة الإسكندرية وقد مهد لها بالكلام عن بعثة درويش أن درويشاً كانت لديه أوصاف مصرية بأن يعمل على خلق توفيق إذا أمكنه ذلك توطئة لتعيين حليم ...

وأرسل الخديبو مندوياً يستقبل الوفد في المينا و هو ذو الفقار باشا ؛ وأرسل عربي رسولاً بصفته المهيمن يومئذ على الحكومة إذ كان وصول الوفد بعد سقوط البارودي بعشرة أيام ، وقد أحسن درويش لقاء المندوبين جهيناً الأمر الذي أسرخ خط الخديبو أشد السخط ...

وخرج درويش من المينا يقصد سراي رأس التين فإذا بالشوارع التي مر بها هو ووفده ملأى بالمصريين وقد جاءوا يحييون الوفد ؛ وترجمت لدرويش بعض المقابلات مثل قول النادين^(١) «اللائحة اللائحة» ورد الباقين «مرفوضة مرفوضة»^(٢) ... ومثل قول المتظاهرين «أبعدوا السفن الأجنبية» ...

ووسمت في نفس درويش ووفده موقعًا مهيباً بهذه المظاهرة القوية ووجدوا أنفسهم أمام دليل قوى باهر على قوة الحركة الوطنية في مصر ...

وكان عبد الله نديم قد سافر إلى الإسكندرية قبيل وصول الوفد خطب في الناس خطبة حماسية ، كانت عظيمة الأثر في إذاك الروح الوطنية وإثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الأجنبية ...

وزار الوفد ضريح السيد البدوى بطنطا وهو في طريقه إلى القاهرة . وقد سافر

(١) يقصدون المذكرة المشتركة .

(٢) S. Histoiy Blunt, P. 306

إليها في اليوم التالي بقطار خاص ، وفي القاهرة نزل الوفد بسرى الجزيرة ...
ومما يذكره جون نينيه عن هذا السفر قوله إن أعيان الخديو أرادوا أن يحملوا
بيان مندوب عربي وبين الركوب حبطة درويش في عربته ، فأخذته درويش بذراعه
وأدخله معه المربة ؛ وكذلك يذكر نينيه أن جماعات من المصريين حيث الوفد في
كل من دمنهور وكفر الزيات وطنطا ...

وتلقاهم الخديو بسرى الإسماعيلية مرحباً مظهراً عظيم الحفاوة بهم ؛ ثم رد
الزيارة لدرويش باشا بسرى الجزيرة وهناك أظهر له استياءه من حسن لقائه
مندوب عربي ، ومن جاءه لهجته في مخاطبته إياه في سرى الإسماعيلية فطبيب
درويش خاطره مظهراً أنه ما جاء إلا لتشييد سلطة الخديو .

وأظهر درويش في القاهرة عظيم دهشهته وشديد نفوره مما رأى من تمس
الناس وجرائمهم وبخاصة علماء الأزهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عربي
ومبادئه ، ولم يستثن منهم إلا الشيخ الأنبا شيخ الجامع الأزهر والشيخ العباسى
والشيخ البحراوى والشيخ السادات (١) الذين آثروا الانحياز إلى الخديو ...
وذهب وفد كبير من العلماء إلى درويش باشا ، يحملون مكتوباً موقعاً عليه منهم
ومن عدد عظيم من الناس يطلبون فيه رفض الأنذار الأجنبى وبخاصة ما جاء فيه
عن إبعاد عربي ...

وأغفل درويش في مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمد خضرير
وانهره ، قائلاً « أمسك لسانك فما جئت هنا لأستمع إلى النصائح من أحد ، وإنما
جئت لأمر أوامرى » ؛ ثم صرفهم في جفاء وخشونة ... وفي الوقت نفسه أعطى
الحنة العثمانية لشيخ الإسلام ولبعض العلماء ...

وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء ، ولكن مالبث أن تبين له خطأه ...
فقد اجتمع طلاب الأزهر في اليوم التالي بسبب ما علموا من إهانة علمائهم ، وتعددت
الجماعات في جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون خوفهم وسخطهم على الوفد

التركي ، وبخاصة أن عدداً كبيراً من الأعيان أرسلاوا إليه يتحجون على مسلكه
نحو رجال الدين ...

ورأى درويش أن عليه أن يصلح ما أفسد ، وأيقن أن هجنة الأمر والنفع
لم تعد تجده في مصر جوأاً ملائماً لها ، وفطن إلى أنه تلقاء أمة جادة ، خلعت منذ
يوم عابدين عن أعناقها أغلال المبودية ومفتت قدمًا في سبيل الكرامة القومية ...
وكان الرجل غافلاً يظن أنه كفيل وهو مندوب السلطان أن يلقى الربع في
قلب كل مصر منها علا مقامه ، وفاته أن مصر اليوم غيرها بالأمس ، لأن فيها
حركة وطنية تغلغلت في أقاليمها وشلت جميع طبقاتها ...

وفي يوم السبت الموافق اليوم العاشر من يونيو ، أرسل درويش في طلب
عرابي ومحمود سامي ، وكان حتى ذلك الوقت يظاهر أنه لا يحب أن يراها ...

وقد أورد جون نينيه حديث هذا اللقاء وأخذته عنه بلنت قائلاً إنه يثق في صحته
كل الثقة ؛ أما نينيه فيذكر أنه أخذه عن عرابي^(١) ، وأنه سمع مثله من البارودي
على أن الشيخ محمد عبده قد ذكر عن هذا اللقاء مالا يختلف في جوهره عن حديث
جون نينيه ونحن نورد الروايتين فيما يأتى :

قال جون نينيه « أظهر درويش الودة لعرابي ولسامي وأجلسهما بجانبه تكريماً
لهمانم قال : نحن هنا جميعاً أشبه باخوة ونحن أبناء السلطان ، وأنا بلحيفتي هذه
اليبيضاء أقوم منكم مقام الأب ، وهدفنا جميعاً واحد وهو مقاومة الدخيل والعمل
على رحيل الأساطيل ، التي هي إهانة للسلطان وتهديد مصر ؟ ثم ذكر أنه يجب
عليهم أن يعمموا جميعاً لهذه الغاية وبخاصة عرابي والوزارة ليظهروا أحاسيسهم نحو مولامهم
وأن خير ما يفعل في ذلك هو اعتزازهم مناصب الجنديه ولو في ظاهر الأمر فقط ،
ولكى يرضى عرابي السلطان ينبغي أن يسافر إلى الآستانة ليقيم هناك بعض الوقت
وأجاب عرابي على ذلك بقوله إنه مستعد لأن يعتزل ولكن الظرف دقيق ولما كان

(١) أهل عرابي الحديث عن بعثة درويش إهلاً ملحوظاً فلم يشر إليها إلا في عبارة
مقتضبة في مذكرة الخطوط.

قد أخذ على عاتقه تبعه عظمى هي حفظ النظام والأمن فإنه لا يرضى بأنصاف الحلول ، وأنه إذا اعتزل فإنما يعتزل حقاً ، ولكنكه ان يفعل ذلك إلا إذا أخلى كتابة من كل تبعه ، لأنه لا يقبل أن يكون مسؤولاً عن أشياء لم تكن له يد فيها ؛ لقد أتتهم باسأة التصرف والاستبداد والإرهاب وغير ذلك ، ولذلك فهو لا يدع منصبه إلا إذا أبرأته ذمته كتابة من جميع هذه التهم ؛ وسوف يذهب إلى القدسية بعد هدوء الحال فرداً عادياً ليقدم ولاء للسلطان ... ولم يكن درويش يتوقع هذه الإيجابية ولذلك فقد كرهها ، وتغير وجهه ، ولكنكه قال : دعنا نمد المسألة منتهية ولاتبرق في الحال إلى محافظة الإسكندرية وقائد حاميتها أثناك اعتزلت ما أنت مكلف به ووضعته في يدي وأثناك وكيلي منذ اليوم ؛ وعند ما يجتمع القنصل والخديو يوم الاثنين في عابدين سأعطيك ما يخليلك من كل تبعه ...

ورفض عرابي رفضاً باتاً أن يحييه إلى ذلك قائلاً إنه مالم يصل إليه هذا الإخلاء فأنه محظوظ بمنصبه وبمسئوليته ...

ولم تقدم في هذا الاجتماع قهوة أو سكاائر ؛ وقد أكدى محمود سامي بعد ذلك هذا الذى أورده عن الاجتماع » ...

وقال الشيخ محمد عبده : « في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش عرابي ومحمود سامي لأول مرة بغرى الحديث على ما سند كره ...

قال درويش نحن جميعاً رجال جند يحترم بعضنا بعضاً وأنت أولادي لسكان من السن ، وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته المصرية العزيزة ، وستشهدون على هذا العمل ، أنا أعلم شكوككم ، ستشكون(١) ، صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدوئناعتين اللتين تضايقاننا جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادها ؛ هذا ما أتكلف به لو عضدتوني فيه ؛ أنا أرى جيداً من أي جهة وقع الخطأ ؛ ليس الخطأ من قبلكم يجب التوصل إلى المطلوب مع الحزم والبصرة ...

(١) أي ستعمل شكوككم كما يفسرها الشيخ رشيد رضا

ثم التفت إلى عرابي وقال له : أنت وحدك الآمر الناهي في مصر ؟ أنت مع كونك لست إلا ناظر الجهادية يديك السلطة العليا بأمرها . هذا ما أغضب الدول المتحدة ؛ يلزم أن يَرَى المساهلة معهن ؛ وما بقي مع هذا عملنا فيه يبنينا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بمحنة حضورى حيث إن مشير المرسل من قبل السلطان ، وكن نائباً عن مأموراً تحت قيادتى ؛ لكن تسهل على المخابرات مع الأجانب . عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من إخوانك إلى الاستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم ...

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعرابي يسمعه ، ثم قال عرابي : مشروعكم هذا في غاية الحسن ، وإننا نختاره مع الشكر ؛ لست حريراً على السلطة التي تريد أن تنسبها إلى . هي سلطة غير مفترضة ، الأمة هي التي أفضت إلى بها ، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر في شكوكها ... اعترف بأن يديك أربع من يدك في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا الآن . سيف ووظيفتي تحت تصرفك . أنا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك إنما أشتريت شرطاً واحداً : أعطني باسم السلطان وأسم الخديو وأسمك كتاباً تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جيمعاً في كل مجرى إلى الآن ، كائناً ما كان ، سواء كان ذلك مني أو من إخوانى ، وحيث أنى تمهدت للاقناع بحفظ الأمن في الديار المصرية وتحملت نقل ذلك على كاهلي فأرجو أن تتفقني من ذلك بطريقة رسمية معروفة ... أطلب ذلك لأن الأحوال إن جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع وإن جرت على العكس من ذلك كنا الجازين .

مالت وكولفني وستدويش عاملونا معاملة الخارجيين على النظام ، وذلك في بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئاً ونحن نحترم لهم كل شيء . فوعده درويش بأناته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد بجلسة بمقرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو . وإنما طلب أن يعلن هذا القول الذي جرى بينهما من قبلهما جيمعاً ، وطلب من عرابي أن يكتب إلى الإسكندرية ذلك (١٧ — ١٧)

التلفراف ، فأبى عرابي أن يعلن شيئاً إلا بعد أن ينال ذلك الأمر المخلص له من كل تبعة ... » .

هذا كلام الشيخ محمد عبده وقد جاء في تلك الوريفات التي كان يسجل فيها ما يحضره من الموضوعات ليرجع إليها عند الاقتضاء ، كما يعتقد مترجمه الشيخ رشيد رضا ؛ وكلامه لا يخرج في جوهره عمما ذكرنا من كلام نينيه ...
تجدر هنا الحديث شواهد جديدة على بسالة عرابي وصرحته في القول ،
وعدم فراره من المسؤولية ، وحضور ذهنه وحسن تخلصه ، وتفطنه إلى ما يدور
حوله ؛ وما أبعد ذلك عما يرميه به الجاهلون والمبطلون من سذاجة وجهل وتهور
وعدم دراية بالأمور ...

ولقد استرب الخديو في نيات درويش وأوجس في نفسه خيفة منه ، ففتح
خمسين ألفاً من الجنبيات فضلاً عن جواهر تساوى نصف هذه القيمة ، وقد أيدت
كثير من المصادر نبأ هذه الرشوة ؛ وما كان أغنى توفيقاً عنها فأن درويشاً لم
يكن في وسعه أن يصنع بالخديو شيئاً ولا هو استطاع أن يرخص عرابياً
عن مكانه ...

وقد أرسل صابونجي^(١) رسالة من القاهرة بتاريخ اليوم الحادى عشر من
يونيو إلى بلنت في إنجلترا ؛ وجاء في هذه الرسالة أنباء لها أهميتها عن الحال يومئذ
بوجه عام ...

فن ذلك الذي ذكره صابونجي ، أن الشيخ عليشاً أحد علماء الأزهر أفتى
بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكماً للمسلمين بعد أن باع مصر للإنجليز باتباعه
ما يشير به الفصلان ، ولذلك وجب عزله ؛ وأن مصر تؤيد عرابياً ، أقباطها
ومسلموها في ذلك سواء ، وليس يخرج على عرابي من المديرن وعددهم أربعة عشر
إلا ثلاثة ؛ وأن الشيخ الأمبابي شيخ الإسلام تعارض كيلاً يخرج في حضور

(١) هوالقس لويس صابونجي كان سكرتيراً وصديقاً لبلنت وكان يعرف الأنجليرية وقد
رافقه إلى إنجلترا ثم أرسلاه إلى مصر فبلغها يوم سفر درويش إلى القاهرة .

درويش بين الخديو والحزب الوطني ... وكذلك ذكر صابونجي أن عرابياً يضم على الجماد والمقاومة إلى آخر رمق من حياته قائلاً : « إننا إذا متنا جميعاً فسوف يدخلون بلداً خربة وسوف يكون لنا بعد الاستشهاد في سبيل وطننا ». .

ويشير صابونجي إلى موقف سلطان فيقول إنه اعتزل عرابياً وأناهز إلى توفيقمنذ مجىء السفن ، وليس مع سلطان من النواب إلا نسمة وأنهم جميعاً ومعهم الخديو يتمهون بالخيانة ويطلق عليهم اسم الخونة ...

والآخر علماؤه وطلابه ما عدا أربعة من الأشياخ في جانب عرابي والحركة القومية ، ويخطب فيهم نديم خطباً حاسمة مستشهدًا بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ ...

والناس جميعاً يستنكرون المذكرة المشتركة حتى إن الصبية في الأزقة والنسوة في نوافذ المنازل يرددون المحتف الذي بات مأولاً وهو « الاليمة الاليمة ... مرفوضة مرفوضة » .

ولندع الكلام الآن عن دروיש ، فسوف تتبين لنا مقاصده ونياته فيما يأتى من الحوادث حتى يرحل هو ووفده عن مصر في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ثمانية أيام من الاعتداء الفاجر على البلاد ...



مساواة الائمة كندرية

بدأت هذه المأساة في يوم الأحد الموافق الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢
في صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين واسمي السيد العجان وبين مالطي من ساكنى
النفر ، هو من رعایا الأنجلترا ...

كان الوطني صاحب حمار ركبه المالطي وقتاً طويلاً متقدلاً من مقهى إلى
مقهى حتى انتهى به المطاف في نحو الساعة الثانية بعد الظهر في حانة قرية من
« قهوة الفراز » على بعد خطوات من مخفر اللبان بأخر شارع « السبع بنات » ؛
وظهر منه أنه لا ينوى دفع أجرة ركوبه ؛ فلما طالبه صاحب الحمار ، لم يدفع له
إلا قرشاً واحداً فتخاصما على الأجر واستدل المالطي سكيناً وطعن به الوطني عدة
طعنات فأرداه قتيلاً ...

وخف رفاق القتيل ليسكنوا بالقاتل ولكنه تولى إلى بيت قريب ؛ وسرعان
مارأى الوطنيون الذين تجمعوا عقب الحادث ، الرصاص يهلك عليهم من بعض
النوافذ والأبواب القرية ، فسقط بعضهم صرعى وجحى ، وعظم الهياج ، وتقدادى
الوطنيون للانتقام ، فأخذوا ما اتفق لهم من المعى والحجارة وأرجل المناضد
وانهالوا على كل من يصادفهم من الأوروبيين ضرباً لا يبالون أين يقع ...

واستمرت المركبة حتى الساعة الخامسة مساء ، وكان الوطنيون يستنفرون
إخوانهم للقتال صالحين « جاي يا مسلمين ! جاي ! يقتلوا إخواننا » ^(١).

ونهبت بعض الدكاكين ، وامتدت الفتنة إلى الشارع الإبراهيمى وإلى
شارع المهاميل وشارع الحمودية وإلى جهة الجمرك والمنشية وشارع القبطية ^(٢)
وسقط في هذه الشوارع جرحى وقتل من الأوروبيين والوطنيين .

(١) أثبتت هذه العبارة جون نيبه في كتابه بطلعها العربي . (٢) رأس الدين .

وقد ذكر جون نينيه ، الذى شهد الفتنة بنفسه ، أن عدد القتلى بلغ
عشرة وثلاثين وأمائتين منهم خمسة وسبعون من الوطنيين وثلاثة وستون وما تألف
من الأوروبيين ...

卷之三

كان لهذه المأساة خطر أى خطر في الظروف القائمة يومذاك ، وقد حاول كل حزب أن يتم لهم الآخر بتدبرها ، فالأنجليز والخديو يعزوونها إلى الوطنيين ، وهؤلاء يعزوونها إلى الأنجلترا وإلى عمر اطفي محافظ المدينة ومن ورائه توفيق .
وظل الحال كذلك حتى قدم عرابي للمحاكمة بعد التل الكبير فما استطاع خصومه أن يثبتوها عليه وفي أيديهم الجاه والنفوذ .

وروى محاميه مستر برودل بالتهمة خصوم عراقي من المصريين وألح في ذلك
وأعلم إإنما أراد به أن يبعد الشهية عن بني جلدته من الأنجليز ...

وفي سنة ١٨٨٣ ، تجددت قضية هذه المأساة في مجلس العموم البريطاني ،
إذ تقدم الlord راندلف تشرشل يحمل حملة عنيفة على وزارة جلاستون ، فاتهم
الخديو ومحافظ الإسكندرية عمر لطفي بأنهما المدرران للمأساة ، وقد جمعت أدلة
اتهامه في كراسة من كراسات الكتاب الأزرق الأنجلوزي هي الكراسة « مصر
رقم ٤ سنة ١٨٨٤ » .

卷之三

ويجدر بنا أن نتبين وجه الحق في هذه المأساة، لـا كان لها من عظيم الخطأ
في مجرى الحوادث؟ فننتظر هل كانت مبيعة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلن يتها
وماذا كان غرضه من هذا الفعل الأثم؟ ...

卷之三

كان إجماع الأنجليز عقب المأساة على أنها مبيتة ، وذلك لأنهم أرادوا أن يلصقونها بالحزب الوطني ؟ فلما عجزوا عن ذلك راح كثابهم ومؤرخوهم ومنهم

كرومر يقولون إن الحادث من الحوادث التي تقع في المدن كل يوم وأنه ابن وقتله
فلا بيت هناك ولا غدر من أحد ...

أما أن هذا الحادث في ذاته ابن وفته فذلك ما يقبله العقل في غير صموبة بل
ما يرجحه على الفرض الثاني ؛ وأما أن الفتنة على الصورة التي ذكرناها كانت
كذلك بنت وقها ، فذلك ما يصعب تصوره ؛ على أن المسألة ليست مسألة تصور،
إنما هي مسألة حقائق ، فلتنظر فيما يحيط بها مما يصح أن يساق مساق الحقائق
أو مساق الأدلة الصحيحة ...

قرر مسـر جوـس المـهندـس الأـنجـليـزـي ، أـنـ أـحـدـ بـاعـةـ الـخـفـرـ قالـ لـهـ صـبـاحـ السـبـتـ اـشـتـرـ وـكـلـ فـانـ النـصـارـىـ سـيـذـبـحـونـ غـدـاـ ، وـيـقـولـ هـذـاـ المـهـنـدـسـ أـنـ مـثـلـ هـذـهـ الـعـمـارـاتـ قـيـلـتـ لـفـرـيقـ غـرـهـ مـنـ الـأـورـوـبيـانـ .

وقال الجلبي آخر يدعى هيوارت «أعتقد كل الاعتقاد بناء على ما لدى من معلومات استقيها من عدة مصادر أن مذبحة ١١ يونيو كانت نتيجة لخطوة مدبرة». وقال ثالث يدعى ألكسندر فيس «بناء على معلومات تلقيتها تباعاً، كونت رأياً قاطعاً» هو أن المسألة قد دررت من قبل وقد بدأت في عدة أماكن في وقت واحد تقريرياً.

وقال مستر چورج بلافاتشی «إن معركة يوم الأحد مع الماляطيين تلك المركبة التي ذكرها من قبل أعون البوليس قد أدت إلى تلك المناظر العنيفة المرعبة مناظر الفتوك والقتل التي كنا نحن نهودها وفرائسها ؛ وإن هذه الحقيقة ألا وهي أسباب الاضطرابات من ثلاثة أمكانية مختلفة للدليل على أنها كانت مدبرة من قبل» ويقول فيلوبوليس «كنت في السوق يوم ٨ يونيو الساعة الثالثة بعد الفجر فشاهدت كثيراً من البدو يحملون بندق . وكانوا يضمونها في مخازن لحفظ فيها كما يبدو ؛ وفي اليوم التالي بينما كنت جالساً في مقهى أقرب من أحد العرب وهو صديق لي وطلب إلى أن آخذ حذري ، لأن العرب كانوا سيفتكلون الأوليين إما في ذلك اليوم أو في اليوم الذي تلاه »

وكتب إليه بعد ذلك يشير إلى هذه الرسالة مضيفاً إليها قوله «لقد ذكر أن رسالة أرسلت إلى كل قنصل من الأجانب كي يحضر إلى بيت الحافظ ، وأنهم بناء على ذلك اخترقوا المدينة في وقت الاضطرابات ؛ وقد تبين من البحث بعد ذلك أن رسالة كهذه لم يرسلها محافظ الأسكندرية »

ويقول دكتور جويس « إن أرى أن هذه المذبحه دبرت من قبل ، وليس
هذا شأنها فحسب ، بل لقد نفذت في مهارة ، وإن الذين خاضوا غمارها كانوا في
الوقت نفسه يبحثون عن أسلاب ، ولقد جمعوا في الواقع بين العملين في
وقت واحد »

نورد بعد ذلك بعض ما قاله جون نينيه ، وهو رجل سويسري أقام بمصر أكثر من أربعين سنة منذ أن قدم في عهد محمد على في عمل يتصدر بزراعة القطن ،

(١) وردت هذه الأقوال جميعاً في كراسات الكتاب الأزرق الأنجلوزي وقد ذكرها الورد تمرشل أثناء اتهامه الحديو وعمر لطفي مستخرجاً إياها من مجموعة الكتب التي يصر على مسحها .

وقد خالط أهل مصر من جميع الطبقات وعرف أحواها معرفة ونوع كأنه من أهلها ؛ وقد شهد مأساة الأسكندرية ، وكان يتنقل في أركان شوارعها أثناء القتال متبعاً حذراً الفيلة ؛ قال بعد أن وصف ما أحدهم بـ « السفن من هياج » لعد نظر الأوروبيون إلى ذلك كأول حمل من أعمال الحرب وأصبح سلوكهم نحو الوطنيين ينطوى على التهديد .. وقد أزعج المياج الأوروبيين وبخاصة الأنجلترا والمالطيين فاتصلوا بقناصلهم يسألونهم عن الوسيلة التي يحمون بها أنفسهم إذا وقع الاختطاب ؛ وقد أخبرهم مستر كوكسن بأن عليهم أن يحموا أنفسهم ؛ وقد علم في أواخر مايو أو في أوائل يونيو أن أسلحة أرسلت من اليونانيين في الأسكندرية ». وقال جون بيبيه يصف القتال : « ولكن على بعد نحو مائة يارد كان الدمام يتحرّك كالبحر ورأيت طلقات نارية تبعث من بعض النوافذ ، واتجه القتال سريعاً إلى حيث كنا نقف ، ولذلك تراجعنا حتى إذا كنا على مقربة من مدرسة لازارست ، رأيت أمام أحد المقاهي عدداً من اليونانيين مسلحين بالغدرارات وقد أخذوا يطلقونها على الناس في غير تمييز عقب صورنا بهم مباشرة ... وعند ذلك رأيت عربة في داخلها أحد رجال المستحفظين جريحاً أو ميتاً ، ولعله هو الذي طاف بالنذير ، ذلك لأنني رأيت في إثره عدداً من المسلمين وبعضهم من السود والبدو قادمين من عدة جهات يحملون عصيهم ... ثم اتسع نطاق القتال وإطلاق النار وأخذت طريقى إلى بيتي »

ويقول أحد رفعت بك ، وهو من كبار الموظفين وقد كان السكرتير العام لمجلس الوزراء في وزارة البارودي « إن هناك شيئاً واحداً يحمل على اليقين وذلك أن هذا الحادث كان مدبراً من قبل ، فقد قام الدليل على أن عدداً من « النبایت » قد وزع على الدمام قبل يوم ١١ يونيو بأيدي بعض المناصر الخفية ، وأن هذه النبایت ظهرت في وقت واحد في عدة أماكن في المدينة في نفس اللحظة التي قتل فيها أحد المطالعين حاراً سبب تأوهه^(١) » ويقول الشيخ محمد عبده

(١) أثبتت لورد تشرشل تقريراً أخذ بك رفعت في اتهامه ، وقد أكد رفعت كلامه في خضر استجواه عند عاكبه

«في هذه الحالة روى مسند كوكسنز نازلا من بيت أحد الماطلين بلباس ملكي ومهلة قواسمه فتبعد المتشاجرون وضرر به ضرباً خفيفاً عندما أراد أن يركب»^(١) يضاف إلى ما سلف برقة مالت في أواخر مايو التي سبق أن أشرنا إليها وهي قوله إن تصادما سوف يقع قريباً بين المسلمين والمسيحيين^(٢)، ولقد أشار الشيخ محمد عبده إلى هذه البرقية في تلك الورقة التي كان بدون بها بعض ملاحظاته بقوله «مسألة تسلح الأوروبيين وإلياه مسيرو كوكسنز أن حوادث ستحدث».

هذه كلها أدلة نقطع معها أن هذه المأساة كانت مبيبة قبل وقوعها، وأنه لو لم يكن حادث السيد المجان والماطلي، لوقعت المأساة عقب أي حادث من نوعه أو من أي نوع آخر ...

* * *

وإذا كانت المأساة مدبرة على هذه الصورة بغير بنا أن ننظر من دربها، وسيلنا في ذلك أيضاً أن نورد الحقائق التي تنهض أدلة على ما نذهب إليه ... ولما كان عمر لطفي باشا هو محافظ المدينة وقت وقوع المأساة تخلص بنا أن بدأ به فنستعرض ما كان من مسلكه أثناء ذلك الحادث، فمن هذا يتبيّن لنا مبلغ ما يقع على كاهله من تبعه، إن كان الأمر فيها يتصل به أمر خطأ أو تقصير، ومبلغ نصيبه من الجريمة إن كان أمر إجرام وتدبير ...

* * *

وإن أول ما نذكره عن عمر لطفي أنه كان بصفته محافظ المدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها كما نذكر أنه منذ استقالة الوزارة لم يكن لأحد عليه من سلطان إلا الخديو، وذلك حسب الأمر الذي أصدره الخديو عقب استقالة الوزارة بمرض ما كان من اختصاص وزارة الداخلية على القصر ...

ونذكر بعد ذلك أن عمر كان من أنصار الحزب الوطني حتى منتصف شهر

(١) ذكر ذلك جون ينبيه كما ذكره بلنت ..

(٢) Blue Book, Egypt, No. 8, P. 60

ما يو شم انحاز إلى الخديو فيمن انحازوا إليه بعد ذلك ؛ والدليل على ذلك أن الخديو عرض عليه منصب وزير الجمادية بعد سقوط وزارة البارودي ... على أنه ظل إلى ما بعد سقوط الوزارة يتظاهر بالولاء للحزب الوطني فيحضر حفلات هذا الحزب بالاسكندرية ويحرص على الصلة بكتاب رجاه ...

ونذكر بعض المصادر الهامة نسباً برؤية من الخديو إلى عمر لطفى على أعظم جانب من الخطورة نعربها فيما يأتي «لقد ضمن عرابي الأمن العام ونشر ذلك في الجرائد ، وقد تحمل مسؤولية ذلك أمام القنصل ، فإذا تبح في ضمانه ، فإن الدول سوف تثق به وسوف تفقد بذلك اعتبارنا ؛ يضاف إلى ذلك إن أساطيل الدول في مياه الأسكندرية وأن عقول الناس في هياج وأن الحرب قربة الواقع بين الأوروبيين وغيرهم ... والآن فاخت لنفسك هل تخدم عرابياً في ضمانه أم هل تخدمنا»^(١).

وكان عرابي فعلاً قد أخذ على عاتقه مسؤولية الأمن بعد إعادته إلى وزارة الجهادية وأعلن ذلك رسميًا في الصحف بعد الانفاق عليه مع الخديو ... ويدرك عرابي باشا في تقرير كتبه لبلانت قوله «قبل كل شيء أرسل الخديو إلى عمر لطفى محافظ الأسكندرية ليحضر إلى القاهرة بقطار خاص يوم ٩ يونيو ؛ وقد تحدث معه الخديو عقب وصوله مدة طويلة ، وأعطاه ما يلزم من التنبيمات لأحداث فتنة في الأسكندرية».

وكان شرطة المدينة تحت رئاسة عمر لطفى ، وقد اشتراك هؤلاء في الجرائم بدل أن يعملوا على القضاء عليها كما يقضى بذلك أول واجب عليهم ؛ واشترك الشرطة في المأساة ثابت من تقارير أشخاص لهم خطتهم ومن هؤلاء مستر جروسيبيان السالف ذكره ، وقد كانت مهمته كما اختاره مالت بأشرارة من جرانفل

(١) أكد أحد رفقاء هذه البرقية وقد ذكرها رنداً تصرشل في اتهامه ، كما أكدتها بلانت في كتابه ، وذكرها الشيخ محمد عبد ويدرك ببرودلي في رد منه على كتاب من تصرشل أن اثنين من المجنوبين السياسيين أثناء المحاكمة ذكراته هذه الصلة وأن أحدهما عرفها من أحد موظفي التلفاف بالقصر نفسه ...

أن يجمع الأدلة على اشتراك عربي في الجريمة ؟ وقد قال جروسجيان إن الشرطة اشتروا قبل الحادث بأيام قليلة عدداً كبيراً من النباتات وإنهم وزعوها على عدد من سفلة البدو ؛ وكان توزيعها من بيت قريب من مقر الضبطية ؛ ولم تتخذ إجراءات ضد موزع تلك النباتات ... كما يذكر جروسجيان أن عشرة من الأطباء الأجانب قرروا أن الجراح جميعاً كانت إما من النباتات وإما من الحراب ، وكانت هذه هي أسلحة الشرطة ...

وذكر مستر هيوات وهو من رجال المال وقد أقام سبعة عشر عاماً في الاسكندرية «أن الشرطة بدل أن يقضوا على الفتنة عملوا على زيتها ، وأن معظم الجراح كانت من أيديهم ، وأنهم كانوا يوزعون النبات على العرب وأن بعض الأوروبيين كانوا يلتحقون إلى الفيسبوكلية فكانوا يذبحون على مقربة منها أو بداخلها! وأنه لو لا حضور الجيش في النهاية لتفاقم الخطب وأن الأوروبيين يذبحون بأرواحهم لرجال الجيش ... ويقول مستر جورج بلافتشي «إن الشرطة قد انحازوا صراحة إلى الوطنيين فأنهم كانوا يقودون كثيراً من الأوروبيين إلى مخافر البوليس حيث ينزلونهم من عرباتهم ويدبحونهم بمحاريبهم » .

و جاء في رسالة لـ كوكس أرسلها إلى مالك بعد الحادث بنحو خمسة أيام يصف فيها ما وقع عليه من اعتداء قوله « وقد أعمت على النهوض والتوجه صوب مخفر الشرطة حيث لم يتحرك أحد منهم لحمايتي على الرغم من أن الدماء كانت تسيل من حسره ومن خلفه، بعض الناجين من العرب يضر ببني العصبي » .

ويقول مستر أمبروزرالي «لكي رأى مبلغاً خياله المسؤولين خسبنا أن نعلم أن الفتنة وقعت في الساعة الثالثة وأن الشرطة تم على أيديهم معظم حوادث القتل وأن ذلك استمر حتى الساعة السابعة حين وصلت أخيراً فرقة من الجنود كانت كفيلة

بأن توقف الفتنة في ربع ساعة من بادئ الأمر لو أن المسؤولين أرادوا ذلك ». وقال مسر إدون باربر « جاء عدد كبير من العرب من جميع الجهات ، وقد أمدوا بمدد من المراوات كان يلقى بها من بيت صرفة من بيوت العرب ملاصق للضبطية . . وبعد أن أغلقت بابي صعدت إلى أعلى منزل فشاهدت بعض الأوروبيين قتلى في الشوارع ورأيت الشرطة يعيثون القتلة »^(١)

ولقد وقف عمر لطفي موقفاً سلبياً من هذه الحوادث يتضح ذلك في قول جون نينيه « تصادف أن قابلت عمر لطفي عند الساعة الثالثة ، وكان يعشى في ملابس عادية ومعه بعض الشرطة فسألته لماذا لم يفعل شيئاً لإيقاف الفتنة فقال إنه كان مع القنصل الأنجلوزي وقد اعتدى عليه ، فقلت لم تذهب بملابسك الرسمية وتستصحب نحو خمسين من الشرطة الفرسان لتتفى على الفتنة ، فأجاب بأنه لم يستمر على قنديل رئيس الشرطة ؛ فسألته ولم لم يفعل الجندي شيئاً ؟ فقال إنهم لم يتلقوا أوامر فلا يستطيعون التحرك ، فسألته وماذا فعل القنصل فقال إنهم عقدوا اجتماعاً ؛ فقلت لم تبرق بما حدث إلى الخديو وإلى عرابي باشا فأجابني في خشونة قائلاً « وما شأنك والمسألة عن هذا؟ » .

ويقول روستين « ابتدأت الفتنة حوالي الساعة الأولى بعد الظهر واستمرت إلى حوالي الساعة الخامسة . . حدث ذلك كله ورجال البوليس كانوا تارة لا يفعلون شيئاً وتارة يشتّركون في الفتنة والتقتل ؛ أما عمر لطفي فكان في أثناء ذلك قد استحوذ على محل التلفراف ليكون على اتصال بالخديو ؛ ولم يخبر سليمان سامي قائد الحامية بشيء عن الفتنة إلا بعد مضي الساعة الرابعة . و حتى في هذه الساعة قد أصر بأن يقود الجنود عزلاً من السلاح . على أن الرجل تولى الأمر بنفسه فبرز في الساعة الخامسة وأحمد ثانية المذبحة »
ويقول عرابي « إن عمر باشا وهو المحافظ لم يرسل إلى أي نباً عن الحادث مع أنه يعلم أنني أخذت على عاتق حفظ الأمن والنظام في البلد كله » .

(١) استخرجنا هذه الأقوال من الكتاب الأزرق ونكتن بهذا القدر إذ أن ما ينقى على كثبه لا يخرج عن هذا المعنى . . .

وفي الوقت نفسه كانت الصلة بين عمر لطفي وتوفيق مستمرة أثناء الحوادث
كما يشهد بذلك أحمد رفت بناء على ما وصل إلى علمه من موظفي التلفراف بالقصر
ولقد كتب وهو في السجن أنه يستطيع أن يثبت ذلك ولكنه بالضرورة لم
يع肯 من شيء ...

وقرر كذلك جون نينيه أن مصلحتي التلفراف في الإسكندرية والقاهرة قد
شغلتا طول الوقت بالاتصال بين الخديو وعمر لطفي .

ويقول الشيخ محمد عبده في تقرير له كتبه في منفاه بسوريا « حقًا إن أكثر
من أهملوا ومن قبض عليهم بعد الحادث يوم كانوا يصيغون بقولهم : « لا لوم
 علينا فإن سعادة المحافظ نفسه هو الذي كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق »^(١)
وجاء كذلك في تلك الورقة المرقة التي كان يثبت بها ملاحظاته قول الأستاذ
« وعلى القرب من زيرينا روى عمر لطفي فساله سائل كيف تكون هنا والمذاجع
على خطوات منك ؟ فقال است بقائد وهذا لا يعنيني . فسألته لم تحضر بلباسك
ال رسمي على حسانك شاهراً سيفك في حسين من عساكر المحافظين وبذلك كان
الأمر ينتهي ؟ فأجابه انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد ؟ »
وجاء فيها أيضًا قوله « لم يصل الخبر عرابي إلا الساعة أربع وربع بعد الظهر
مع أن القليل من موظفي التلفراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت
للعمل إلا في تلفارات المحافظ حتى إن رسالتين مهمتين من أحد الميراليات في
اسكندرية لم تقبلان لاشتغال العدة بتلفارات المحافظ »

وقوله « ذهب نينيه عند فنصل الروسية وحدثه بما رأى من المحافظ فمجب
وقام للمخابرة مع إخوانه القناصل ، وبمد ذلك كمكتب للخدبو ودرويش وعرابي
وكان الساعة ٤ بعد الظهر »

وقوله « سليمان سامي كان مستعداً لإرسال العساكر إذا ورد له الأمر من
ناظرة الجمادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى الناظرة لأن الأمر يهد المحافظ » .

(١) عربنا هذه العبارة من كلام الشيخ عن تقرير ترشيل الذي احتواه الكتاب الأزرق
رقم ٤ سنة ١٨٨٤ مصر .

وقوله « عمر لطفى باشا طلب إزالة عسكر إنجلترا لعجز عربى عن الأمان ». وقال أحد رفعت « ولما كانت فى الأسكندرية بعد الحادث يائى عشر يوماً سمعت الناس يقولون فى صوت واحد بأن المحافظ عمر لطفى هو الذى أدى بتفاقم الأمر إلى هذا الحد لأنه كان حاضراً ولم يصدر أى أمر لإيقافه »

هذا ما يتصل ب موقفه السلبى من حوادث ، ذلك الموقف الذى ينطوى على أشد الريبة ، وإنه ليصعب على المرء أن يتصور أن محافظاً فى مدينة ما يرى القتال بين الناس ثم يقف منه كا وقف عمر لطفى من حوادث الأسكندرية ، ثم لا يتم بأنه إن لم يكن مدبر الجريمة فهو على الأقل راض عنها لأنها جاءت وفق ما يريد .. على أن جون نينييه يذكر نبأ عظيم الخطورة عن هذا المحافظ ويقول إنه سمعه من سكرتير سيمور أدميرال الأسطول ومؤداته أن عمر لطفى ذهب إلى ذلك الأدميرال فى قارب بعد المأساة بأربعة أيام وطلب إليه أن ينزل جنوداً بالأسكندرية لأن عراياً ان يقوى على حفظ الأمن ...

وقد رأينا أن الشيخ محمد عبد يشير إلى شئ مثلك فى مذكرةه ، كما أن أحد رفعت يذكر مثل هذا النبأ فيقول إن الخديو وقت الحادث أبلغ إلى لطفى أن يستعين بجنود من الأسطول لا بفرق من الجيش المصرى كأنما يستعجل توفيق الاحتلال ويخشى أن تفلت الفرصة من يده .

ومن أخطر ما يتصل ب موقف عمر لطفى أنه كان يعلم قبل المأساة أن الأوروبيين يسلحون أنفسهم ، ثم لم يتتخذ أى إجراء احتياطى لما عسى أن يؤدى إليه هذا التسلیح ، ولا هو أخبر عراياً بشئ من هذا أو أخبر الخديو ليحصل بعرابى ؛ وكان علمه بهذا التسلیح حقيقة ثابتة فقد ذكر كوكسون فى رسالة منه إلى مالك فى اليوم السادس من يونيو أنه بعد المدة للتسلیح ثم قال « ويصح أن أذكر أن محافظ المدينة زارنى منذ أيام وكان مى بعض شركائى وأخبرنى أنه علم أن الأوروبيين يسلحون أنفسهم »^(١) .

ولننظر بعد ذلك في موقف الخديو من هذه المأساة ، ولنبين ما عسى أن يكون من صلة بينه وبين عمر لطفي ، وما عسى أن يكون من مغزى لهذه الصلة بينهما ... ذكر اللورد راندلف تشرشل في قرار اتهامه الذي أثاره في مجلس العموم البريطاني في سنة ١٨٨٣ أن الخديو توفيق ، اتصل ببعض البدو في مديرية البحيرة وبخاصة قبيلة أولاد على ، وذلك عن طريق مدير الأقليم إبراهيم توفيق ؛ وكان الخديو يرى إلى غرضين : اتخاذ هؤلاء البدو قوة له يقاوم بها قوة الجيش ثم الاعتماد عليهم في إحداث فتن وفلاقل تظاهر الوزارة بظهور المجاز أمام دول أوروبا ؛ وقد أفق الخديو على ذلك نحو عشرين ألفاً من الجنود ووزع على أشياخ هؤلاء البدو واستقبل توفيق هؤلاء الأشياخ في مقره وأكرم مثواهم واتفق معهم على أن يدخلوا عدداً من أتباعهم القاهرة عن طريق الجيزة ، وكان يريد أن تقع الفتنة في القاهرة ؛ ولكن هؤلاء البدو تخاذلوا عن القاهرة لاراؤها من يقطة الحكومة ؛ على أن عمر لطفي قد استعان ببعض هؤلاء في مأساة الأسكندرية^(١) ...

وذكر بذلك في كتابه هذه المؤامرة وأكدها ؛ وكذلك ذكر أحمد رفت بك في تقرير كتبه في سجنه.

ويقول روستين « في هذا اليوم وقعت بالأسكندرية مذبحة المسيحيين التي دبرها الخديو ومحافظ المدينة عمر باشا لطفي ، وقام بها رجال البوليس وجماعة من الفتاكة المستاجرن ، وهي مثل صحيح لما يقع في زماننا هذا من مذابح اليهود المذرة . لقد كان الخديو يعلم حق العلم أن هيبة صغيرة تقع يصر إنما هي ضالة السياسة البريطانية التي ما برحت تندر بأشد الويل للأوروبيين إذا لم يقض على « الفوضى » التي يؤيدتها حزب سامي وعرابي بنفوذه « العسكري » . وفي ٣١ مايو ، ليس قبل ، أمهى السير إدوارد مالت إلى اللورد جرنفل أن المسلمين والمسحيين قد يصطدم بعضهم البعض وقتاً ما ، وقد رأينا أن ذلك أدى إلى تعزيز الأسطولين .

ومع هذا فإن الخديو باطلاع مستشاريه الأوروبيين ، أو بغير اطلاعهم قد عقد

(١) الكتاب الأزرق . مصر رقم ٤ — ١٨٨٤ ص ٢ ؛ وحامت الأدلة على استعانته

النية على أن يتمجل تلك الفتنة المنشودة بشيء من الكياسة ولطف الحيلة إذا كان سير الحوادث الطبيعي لا يمجل وقوعها . ولكن ترى أن تقع هذه الفتنة ؟ إنها إذا وقعت في القاهرة فلا تؤمن عاقبها على الإطلاق . ففي القاهرة عربي ورفاقه ، وفي القاهرة الجيش الذي يستطيع أن يقطع دابر الفتنة في طرفة عين ؛ أما إذا وقعت في الأسكندرية فإنها يكون لها شأن آخر . فحافظ المدينة هو عمر باشا لطفي الذي كان وطني الميل زمناً ما ، والذى رشحه الخديو انظاره الغربية في فترة اليوم التي أعقبت استقالة وزارة سامي ، فأصبح من مصلحته أن يعمل على سقوط عربي « وقال المؤرخ تشرشل بعد أن أشار إلى برقية توفيق الخطيرة إلى عمر لطفي « إن لدى أدلة على أنه أثناء الأسبوع التالي ، أرسل حيدر باشا ابن عم الخديو مرتين إلى الأسكندرية ؛ وكان يلقاه الخديو عقب عودته تحت ستار الليل ؛ وقد ثبت أن حيدر هذا نفسه كان حاضراً بالأسكندرية يوم الفتنة ومنها سافر إلى القاهرة عقب الحادث مباشرة »

وأورد أحمد رفعت بك مثل هذه الرواية عن حيدر باشا وزاد عليها أنه صحب الخديو بعد ذلك عند سفره إلى الأسكندرية .

ولا يفوتنا ونحن في صدد الكلام عن صلة توفيق بالمسألة أن نشير إلى برقية الخطيرة إلى عمر لطفي ، التي طلب إياه فيها أن يختار لنفسه ، هل يكون معه أم يكون مع عربي ...

كذلك لا يفوتنا أن نشير هنا إلى انحيازه لأنجلترا وقبوله المذكرة المشتركة الثانية وإلى رغبته في التخلص من عربي وحزبه بأى ثمن ...

وقد ذكر أحمد رفعت بك فيما ذكره عن المأساة بعد نفيه من مصر « في يوم الأحد الموافق ١١ يونيو كان المندوب العثماني درويش باشا ، الذي وصل إلى مصر قبل ذلك بثلاثة أيام ، يقطع في عربته الطريق بين قصر الجزيرة وجسر قصر النيل وكان قد لقى في مقره عرائباً باشا والوزراء المستقيلين لقاء طويلاً ، وكان متوجهـاً

إلى قصر الإسماعيلية حيث كان يقيم الخديو ليغنى إليه باتفاق كان يؤدي كافياً إلى صلح بين الخديو والوزراء.

وعلى مقربة من الجسر قابله طلعت باشا سكرتير الخديو، وقد أرسله سيده ليتبئه بأن فتنة وقعت في الأسكندرية وأنها استمرت ثلاثة ساعات وأن الأوروبيين والمسيحيين كانوا يقتلون أبناءاً وجدوا؛ وقد أدى طلعت الرسالة في ظهر المتصحر وظهر عليه سرور مشدّد، وكأنما كان يريد أن يقول إن عرايماً الذي عمل من أجله ما عمل كان سبب ما حصل ...

وأرسل درويش باشا أحد الضباط المرافقين له في العريبة ليعود من فوره إلى عرابى ولما كنت حاضراً فقد أفسحت لرسول درويش مكاناً في عربى وأخذته إلى بيت محمود سماى حيث كان عرابى حاضراً في ذلك الوقت. وشاعت الأنباء سريعاً في المدينة، وقد ازعج لها الناس جميعاً، واستولى الحزن على عرابى وصحابه؛ أما في قصر الخديو وحده فكان الفرح واضح العالم»

وقد جاء في تقريره وهو بالسجن ما لا يخرج عن هذا؛ وقد ذكر في نهايته أنه يستطيع أن يثبت ما يقول بشهادة شهود لا يمكن أن تُنْهَم حولهم شبهة ...

ومما هو جدير بالاعتبار أن الخديو عين عمر لطفي باشا على الرغم من سلوكه أثناء الفتنة رئيساً للجنة التحقيق التي كلفت بالبحث عن المسؤولين؛ وكان أول نهى يحب أن يعمل لو سارت الأمور سيراً بريئاً أن ينبع عمر لطفي لكي يستطاع سؤاله عن أسباب تقصيره، ذلك التقصير الذي لا يستطيع أن يعاري فيه أحد ... وكان الفرض من لجنة التحقيق إلصاق تهمة المذاجع بعرابى وحزبه، فلما لم يُنْسِر ذلك بأى وجه انسحب الأنجليز كاسرى من لجنة التحقيق، ونصح الخديو عمر لطفي أن يطلب إجازة بحججه السفر إلى خارج القطر للراحة

وبق عمر لطفي بمصر حتى أعلنت الحرب؛ ولما عزل عرابى في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عينه الخديو وزيرًا للجريدة مكانه

ومما يذكر في صدد هذا أن حيدر باشا كذلك قد ظفر بمقعد بين الوزراء ...

ننظر بعد ذلك فيما كان من أمر عرابي وحزبه تلقاء هذه الفتنة ؛ ولنبذل بما ذكره روئسين في هذا الصدد قال « وأعجب ما يتصل بهذا الحادث وأغربه أنهم حاولوا فيما بعد أن يجعلوا عرابي يدأ فيه مع أنه قاتل من جراحته مالم يقاشه غيره . فزعموا أنه ناسج برد المؤامرة لختنه وسداء ، والامر بالذبحة ، والنهاى رجال الحامية عن التعرض لها . ولكن التهمة طارت بشكل يرى له عندما أدر كوا أن اللجاج في الأمر قد يزمح الستار عنهم قاموا حقيقة بتلك الفظيعة المنقطعة النظير . ثم ظهرت الحقيقة على الرغم من ذلك كله ، وكان الفضل في ظهورها راجعاً إلى عجودات المستر بلنت . وفي سنة ١٨٨٣ بسط اللورد رينداف تشرشل لأعضاء البرلمان الأمر بأجمعه » .

ونحسب أن المسألة واحدة كل الوضوح في بعد عرابي وحزبه عن هذه المأساة فما لا ريب فيه أنها موجهة ضدهم ، فقد ضمن عراق الأمن ولا يمكن أن يطمئن نفسه بنفسه فيأتي بما يهدم كل ما يدعى ؛ كذلك ما كان من الممكن أن يقف سليمان سامي قائد حامية المدينة مكتوف اليدين من المأساة لو أنه أحبط عالماً بها وقد علم أن تبعة الأمن ملقة على عاتق عرابي ...

وقد أرسل كوكسن برقيه إلى مالت عقب إعادة عرابي إلى الوزارة يصف الأسكندرية فقال « كل شيء هنا هادئ . والسلطات المحلية توكلني أنه لا خوف من وقوع اضطراب . وقد تلقت فرق الجيش ردآ من القاهرة اتفقت بناء عليه أن نظل ساكنة في الوقت الحالى »

ولم يكن لعرابي من سلطان على عمر اطفى إذ كان هذا بعد استقالة البارودى يتلقى الأمر من الخديو مباشرة ؛ وقد ثبت أنه لم يتصل بعرابي عند وقوع المأساة حتى يمكن أن يقال إن عرابياً تراخي في الأشارة عليه بما يجب أن يعمل هذا وقد أعاد الجيش الأمن إلى المدينة بأمر من عرابي بمجرد أن علم بالنبا ؟

ومما هو جدير بالنظر أنه لم يحدث بعد ذلك في المدينة حتى وقعت الحرب أى شعب منذ أن تدخل الجيش وفطن الحزب الوطني إلى الميسسة ولقد كان وقع النباء أليماً في نفس عرابي ونفوس أصحابه؛ حتى إن عرابياً ظل حاماً مكتوباً يضغط بيده على قلبه ويتهجد تهجدات طويلة^(١)

واهم عرابي بالتحقيق اهتماماً كبيراً يتضح ذلك فيما أرسله إلى سليمان سامي إذ يقول «است تحمل أهمية مركزك في الوقت الحالى فيما يتصل بلجنة التحقيق، وذلك لأن أعضاء اللجنة ليسوا كما تعلم مساوين في المدد لأولئك الذين يهمهم شرف الجيش والأمة؛ وهذا يحمل من الضروري أن تخذ كل الحذر أثناء التحقيق وأن تعمل على كشف الدافع الحقيقى إلى هذه الفتنة» والأمر كذلك لا يحتاج إلى كثير من القول ولا إلى قليل لبيان موقف عرابي وحزبه؛ فإذا أراد المرء أن يبحث عنمن ارتكب جريمة ما فلينظر من له مصلحة في اقتراحها؛ ولقد كان في هذه المأساة الفرر كل الفرر على عرابي وعلى قضية الحزب الوطني

* * *

يأتي بعد ذلك الكلام عن موقف الأنجلترا من المأساة، وأول ما نذكره أن ذلك المالطي الذى قتل السيد العجائب كان آخر خادم مستر كوكسن؛ وقد يكون ذلك من قبيل المصادفات، ولكنه لا يعن من القول بأنه تجرأ على الطعن لما كان يعلمه من نية مبناته بينه وبين أشباهه من المالطيين ...

وكذلك نذكر أنه كان بين القتلى رجل يدعى ستراكيت وكان خادماً للسير بوشتب سيمور أدميرال الأسطول وقد أقسم هذا الأدميرال العظيم الذى جاء لضرب الأسكندرية أن يثار من أهل المدينة لصرع خادمه^(٢) على أن هناك من الشبهات والقرائن ما هو أهم وأقوى من هاتين القرینتين ؟

(١) مما كتبه صابونجيلى بانت عقب الحادث . . .

S, H, Blunt, P, 317.

وحسب المرء أن يقلب صفحات الكتاب الأزرق ليرى أنه تلقاء يقين لا يخالطه شك
ولقد أشرنا إلى بعض ما كان يدبره مالت وكوكسن وأشياعهما ؛ ونكرر
هذا الأشاره إلى برقيه كوكسن الخبيثة بأن تصادماً سوف يقع بين المسيحيين
وبين المسلمين ، وكذلك نعيد الأشاره إلى ما أرسله مالت إلى جرانفل في اليوم
السابع من مايو ومؤداه أنه لا بد من حدوث ارتباكات قبل تسويه المسألة المصرية
وأن الأصول استعمال هذه الارتباكات لا تأججها^(١)

ونعود بالقارئ إلى ما سقناه من أدلة على أن المأساة مدبرة وبخاصة تسليم
الأوروبيين أنفسهم ، ولتبسط القول بعض البساط في هذه المسألة ، فنقول إن
كوكسن كان دائم السعي في تسليم الأوروبيين وبخاصة الأنجلوز كما هو ثابت
صراحة في الكتاب الأزرق ، وقد اتصل بالسير سيمور أكثر من مرة كما اتصل
بالسير إدوارد مالت مرات ، وكان يقول مالت كل مرة إنه يحرص على سرية هذا
التسليم خافة أن يحدث ذعرًا إذا عرف ، والواقع أن الغرض منه كان تبييت
الغدر حتى تحين الساعة المقصودة ...

وليس يخفى ما ينطوى عليه هذا التسليم من تحريض على الفتنة بطرق
الأيماء ، ولعل ذلك ما دعا مالت إلى شيء من التحفظ ليفلت من التبعة ويتصفح
هذا التحفظ في برقيه منه إلى اللورد جرانفل يوم الفتنة بالذات إذ يقول « لي
الشرف أن أذكر لفخامتكم أن قنصل السويد العام وصل اليوم من الأسكندرية
وعرض على مشروعه للدفاع العام عن الأوروبيين ورغب في موافقة ممثلي الدول
عليه ، وقد أجمع الممثلون على أن تسليم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف تمييدا لهذا
الدفاع عمل بالغ الخطورة ، وأنه بجانب ذلك عمل في ذاته يفضي إلى التصادم في
أى وقت ؛ وعلى ذلك فقد اتصلوا بقناصلهم كيلا يشاركون في شيء من هذا ؛
وببناء على ذلك أبرقت إلى مستر كوكسن ألا يشارك بعد الآن في شيء منه ، وفي

حال ما إذا خيف الخطر على البريطانيين فعليه أن يعتمد على مساعدة الأدميرال وأن يعمل حسبياً يشير به من نصائح ؛ ولما وجدت الأمر يقفي أن تبقى تعليمات سرية إذ أنها تتصل بالرجوع بخطة باتت معلومة إلى حد ما ، فقد أشرت على مسiter كوكسن بأن يجعل ما سلف من الأمور السرية وفي الوقت نفسه عليه أن يحاول أن يقضي على المخاوف بأن يذيع أنه ليس ثمة من زاع بين الوطنيين والأوروبيين ، وأن المفاوضات في الوقت الحالي في يد درويش باشا المندوب العثماني الذي يعمل باسم السلطات . وطلبت إلى مسiter كوكسن أن يطلع على هذه التوجيهات الأدميرال السير . ب . ميمور »

وأدى من هذا التسلیح إلى إثارة الشّمّة موقف الأنجليز من التّحقيق الذي أذمت وزارة راغب باشا إجراءه عقب تأليفها ...

أراد الأنجلزي أن يعزّوا هذه المأساة إلى عراقي ، ولم يعنوا بالبحث عن الحقيقة في ذاتها ، وقبلت ضمائرهم أن يتوجهوا هذا الاتجاه وهم الذين طالما عادوا على الشرقيين احتطاطهم وتفاخروا عليهم بعذريتهم ؟ أرسل جراحتل إلى مالت يقول له « أطلب إليك أن تتخذ الخطوات التي تؤيد هذا الدليل وبخاصة ما يتصل منه بمسلك نديم ووكلاه عراقي وعلاقة قنديل بعراني »

ثم تلقى كارتريت نائب قنصل الأسكندرية من جرانفل برقية بتاريخ ٢٤ يونيو وفها يقول «لقد ذكر في الصحف العامة أن راغبا باشا أمر بأجراء تحقيق في الاضطرابات التي وقعت بالأسكندرية يوم ١١ الحالي؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالة الملكة ترغب منك أن تقف عبّانى عن هذا التحقيق، وعليك أن تخبر قنصل حلاتها عما تتفق من توجيهات في هذه المسألة»

ونفذ كارتريت ما أمر به وأغرى زميله القنصل الفرنسي بأن يسلك مسلكه
وكان سبب انسحاب هذين من لجنة التحقيق أن اللجنة أرادت أن تقتضي
منازل الأوروبيين والوطنيين على السواء؛ وكان أولى بهما لو أرادا إنصافاً أن يزدادا
طمثاناً إلى عدالة اللجنة بهذا القرار وأن يحملوا سبباً لأنضمهم بما إليها
لا بمعادها عنها ...

وعرض راغب باشا على الأورويين أن يؤلفوا لجنة جديدة يحدد عملها فرفض
كارتريت هذا العرض وأيده جرانفل في رفضه .

وفي الوقت نفسه طلب إلى كارتريت أن يجمع المعلومات لحسابه هو وبخاصة
ما يتصل منها بسلك وزارة الجمادية تجاه الحادث وبما حصل من تأخير في إرسال
الجنود إلى أمكنة الاضطرابات^(١) .

على اللورد رنداف تشرشل على ذلك بقوله «وَهُكْذَا نَرِى أَنَّ الاضطهان التعمق
في نفس اللورد جرانفل على الحزب الوطني ، وأن الاعتقاد القائم على غير أساس
منه ومن السير إدوارد مالت بأن المذاجع كانت من صنع الحزب العسكري ، وبأن
عرايا وأصحابه أرادوا أن يطمسوا الحق بأى ثمن (وقد كانوا في الواقع يعملون
على إبرازه) ... نرى أن ذلك كان سبباً في صد التحقيق عن وجهه ، ذلك التحقيق
الذى أجرى عقب الفتنة مباشرة وكان صنيعاً فذا من عرايا باشا ؛ وفضلاً عن ذلك
فإنه كان من الأهمية بمكان عظيم أن يعقب التحقيق الفتنة مباشرة لا ابتعاء الوصول
إلى معرفة مدبرى الفتنة خسب ولكن لمنع ما قد يعقبها من ظلم ، وكان التحقيق
عقب الحادث هو الوسيلة في ذلك الوقت فقط التي بها يمكن الوصول إلى أدلة يوثق
بها ؛ وليس من ريب في أنه بناء على تعطيل التحقيق على يد اللورد جرانفل قد
عوقب كثير من الأبرياء ومن سبي الحظ بالموت والنفي والسجن » .

ونمة حقيقة أخرى جديرة بكل اعتبار في صدد الكلام عن سياسة الأنجليز في
المأساة وهي خلية بأن تثير أكبر الشبهات ، وذلك أنه ما من برقية أو رسالة بين
الخديو ومالت أو بين مالت وسيمور أو بين عمر اطفى والخديو ، عمما كان يحدث
أثناء الفتنة ، ما من شيء من ذلك أثبتت في مجموعة الكتاب الأزرق ، ولا يعقل
بأى حال أن المخابرات انقطعت بين هذه الجهات أثناء وقوع الاضطرابات .

وحقيقة أخرى جديرة بالنظر ، وقد سلفت الأشارة إليها في معرض آخر وتلك
هي إطلاق النار من النواخذة على الوطنيين بمجرد مقتل السيد المجان على يد ذلك

الماطلي الذى هو شقيق خادم كوكسن ، فكان الأجانب أعدوا هذا الحادث إذانا
يبدء ما سبق به الاتفاق ...

ويتصل بذلك ما ذكره چون نينيه فى قوله « وفي طريق قابلت مسـتر كوكـسن
في عـربـة وأخـبرـنى أحـد الـواقـفـين بـجـانـبـى أـنـه كانـ فىـ بـيـتـ أحـدـ الـماـطـلـيـنـ أـنـاءـ
إـطـلاقـ النـارـ ، وـأـنـهـ اـعـتـدـىـ عـلـيـهـ عـنـدـ خـرـوجـهـ مـنـ ذـلـكـ الـبـيـتـ لـأـنـ الـدـهـاءـ عـدـوـهـ
مـسـؤـولـاـ عـنـ إـطـلاقـ النـارـ ». .

ولا يفوتنا كذلك أن نشير إلى مساعي مالت وكوكسن بوجه عام ضد وزارة
البارودى وضد عراىي منذ قامت هذه الوزارة ؛ ومن امعها عن تسلط الحزب
ال العسكري ، ورغبتها الملحقة في إسقاط تلك الوزارة التي أعلنت الدستور وقضت
على نفوذ الرقيبيين الأجانب ، والتي زادت روح الوطنية تأصلاً في نفوس المصريين
بحيث بات يخشى الأجانب استعمالها على المقاومة لو تركت وشأنها ؛ ولقد ازداد
غضب مالت وكوكسن بصفة خاصة منذ عودة عراىي إلى الوزارة بعد سقوطها
والتجاه الأجانب والوطنيين إليه لحفظ الأمن ، وإعلانه أنه يأخذ ذلك على عاته ؛
رواضح أن نجاحه فيما تمهد به إسقاط لجتها من أساسها ، وقضاء على محاولتها
الشيطانية لتنفيذ السياسة المرسومة ، سياسة الاحتلال مصر ...

* * *

والآن بعد أن أثبتتنا أن المأساة مدبرة ، وبعد الذى عرضناه من مسلك عمر لطفى
ومن ورائه الخديو ، ومسلك الأنجلترا قبل المأساة وبعدها ، يمكننا القول في غير
أدنى شعور بالحرج أن المأساة كانت من تدبير مالت وكوكسن وقبيلها من شياطين
الاستعمار ، وأن عمر لطفى كان شريكها فيما دبرا ، إن لم يكن بالتواتر الصريح
في المواجهة الضمنية ، لكن يعلم سلفا أن نارا سيشعلاها بعض الجنة فيظل يرتفعها لأن
له مصلحة في إشعالها ، حتى إذا اندلعت ألسنتها تركها تأكل كل شيء ؛ ويزيد في
نعمته أنه كان يحكم منصبه المسؤول الأول عن الأمن في المدينة .

والحق عندي أن كوكسن واطقى كانا في الشر سواء ؛ ولا يقل أحددهما تبعه
عن صاحبه في تدبير هذه المأساة ...

ولا يستطيع منصف أن يبرئ عمر اطفي إلا إذا استطاع أن يبرئ كوكسن
وماله ، وإن يبرأ هذان إلا إذا أدين عرابي وأصحابه ، وهو مالم يستطع أعداء عرابي
 بكل ما وسعهم من جهد أن يصلوا إليه ...

قال دى فرسنيه في كتابه المسألة المصرية « وقت حوادث الأسكندرية
المشؤومة إثر زراع بين وطني ومالي ، وكان المتدى هو المالي إذ قتل المصري بيده
فأدلى ذلك إلى اجتماع عدد كبير من الدهاء من عرض الطريق ، فأطلق عليهم
الأجانب النار وهم متخصصون في نوافذ بيوتهم في شارع الفرير وكانت قد وزعت
عليهم الأسلحة من قبل ، فأصابوا الوطنين بكل مهولة وقتلوا منهم عدداً كبيراً
على أن الجنود المصريين لم يتأنروا عن أداء ما يجب عليهم حينها حضروا ؛ وإن
جاء حضورهم متاخراً ، حيث أنهم لم يظهروا في الميدان إلا بعد أن صدرت أوامر
عرابي إليهم ، ولم يصل خبر الفتنة إلى عرابي في حينه إذ كان بالقاهرة ، وكيف
كان يصل إليه بما الفتنة في حينه وكان تلفار الأسكندرية في يد عمر اطفي ؟ »
قال الشيخ محمد عبد العبد « وفي يوم هذه الحادثة توجهت إلى السرای فرأيت
موظفيها في جدل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون في رواية الأخبار ويضخكون من
عهد عرابي بالمحافظة على الأمن العام ؛ ومن المعلوم أن موظفي السرای لا يقولون
إلا ما يسر الخديو ، فإذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكتوا وإلا ظاهروا بالحزن
والكآبة جهدهم ^(١) . »

وبعد اثني عشر يوماً من هذا التاريخ كفت في الأسكندرية فسمعت الناس
أجمع يقولون إن المحافظ عمر اطفي سمح بانتشار الفتنة إلى هذا الحد لأنه كان مقيناً
في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ، ولم يذهب إلى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت ،

(١) ذكر أحد رفعت بك شيئاً كهذا عن موظفي السرای .

ولم يطلب مساعدة المسكر النظائي مع أنهم كانوا على مقربة منه ، وأجمع الناس على أن عمله هذا وعزبه من الخديو ؟ وعلمنا أيضاً أنه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان إلى آخر وإذا بأروربي في شباك وفي يده سمسار قال أحد البدو : أرى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال لهارمه ، فأطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ؛ وكثير من النهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الأسود ...

وقد سمعت أيضاً أنه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وأنه أشار إلى البوليس أن لا يتدخلوا قائلاً دعوا أبناء الكلاب يموتون .
ولم تسأل المجنحة التي تألفت للنظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقاً بل كان الخديو أو عز إليه بأن يستعن بدعوى المرض .

كان عمر لطفي محافظ الأسكندرية زمن الفتنة ، وقد أهل أمر القيام بمحفظ الأمان العام على أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل أنه هو المحرض عليها ، فإذا كان فعل ما فعل إطاعة لأمر عراي كادعى ، مع أن وظيفته تابعة رأساً إلى الخديو — لأن الخديو أصدر أمراً مخصوصاً صرخ فيه أنه بعد استعفافه وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها إلى السrai — فكيف نعمل تعينه وزيراً للحريرية جزاء إطاعة عراي وعصيانه لسيده الخديو ؟ وإذا كان الأمر إهمالاً منه فكيف يصح مع إهماله وعدم كفاءته تعينه وزيراً للحريرية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالاً واحداً عما جرى مع أنه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟
لاريب في أن استقراء سير الحوادث ، يظهر أن الظهور أن الخديو بالاشراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة ، أى مذبحة الأسكندرية . «(١)

وبمقد برودلى اعتقاداً جازماً بأدانة عمر لطفي ، فقد كتب إليه اللورد تشرشل يسأل رأيه عقب عودته من مصر ليقدم هذا الرأى إلى جلاستون ، فكتب برودلى

(١) تعرّيف ما ذكره الشيخ للمست برودللي المحادي أثناء المحاكمة حسب ما أوردته الشيخ رشيد رضا وهو يطابق الأصل الأنجليزى .

إليه ، بأنه سأله في السجن اثنين من كبار السياسيين النابهين لا ترق إليهم شبهة ولا تخفي عنها حادثة^(١) فتوافق روايتها بما يدين عمر لطفي وكان كل في معزل عن صاحبه في السجن بحيث لا يمكن التفاوهما ...

أما كوكس فقد ألب في هذه الفتنة دور الشيطان ، ويقيني أنه لوسائل التحقيق كما أراد عرابي لأخذ بجرينته ، ولكن توفيقاً بأدرا بتعين عمر لطفي رئيساً للجنة التحقيق ، ولم يعارض عرابي في هذا رغبة منه في المحافظة على المودة بينه وبين الخديو ، وقد أقسم كل منهما قبل ذلك بأيام على أن يحمي الآخر كما يحمي نفسه ؛ ثم أحبط الأنجليز عمل اللجنة بانسحاب مندوبيهم منها فنجاً كوكس من الاتهام .

* * *

أما الفرض من تدبير هذه المأساة فيتبين لنا في تتبع سير الحوادث صوب المهد المقصود ؟ وحسبنا أن نذكر الآن أنها كانت من أقوى الضربات التي أزالت بالحركة الوطنية القومية وكانت فاتحة المأساة التي سوف يأتي بعضها في إثر بعض حتى تقع المأساة الكبرى يوم التل الكبير ...



(١) كان يقصد الشيخ عبد وأحمد بك رفعت وقد حذف اللورد اسميهما وتحذ خوفاً عليهما

العدوان الفاجر

هذا هو المدوان الذى لا يجد في تاريخ الحروب أقبح منه أوأشد منه بخورا ، والذى سوف تتطوى المصوّر ويظل في تاريخ الإنسانية من أبلع الأمثلة على ما يفعل الأقوياء بالضعفاء ، وفي تاريخ الاستعمار مثل الرائع على ركوب أية وسيلة إلىغاية في غير مبالغة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة

هذا المدوان الفاجر الشنيع هو إطلاق المدافع من الأسطول الأنجلوـى على مدينة الإسكندرية في اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وإنه بتاريخ خلائق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جمِيعاً أن يذكروه ، كما تحدث متتحدث عن الضمير البريطاني وعن الشرف البريطاني وعن الحضارة الأوروبية بوجه عام في هذا الشرق المسكين ...

وإنه لمدوان خلائق بأن يتجمل منه ساسة الأنجلوـى إذا نسوا أطماءهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من غدر وغدر

وإنه لثار جدير بكل أب وبكل أم في هذا الوادى أن يتتحدثوا به إلى أبنائهم وبناائهم ، إذا أرادوا أن يغرسوا في نفوسهم الغضب لكرامة وطنهم ، والاستهزء والتفور من القاصب الدخيل ...

وما ندرى بأية وسيلة نصف ما نحس به تلقاه هذا البغي الأكبر وليس في مقدورنا أن نعبر بالكلام عمما يعتلج في أطواء الشعور ...

قبل الخديو المذكرة المشتركة كما أسلفنا ، واستقالت وزارة البارودى في اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ؛ وظن المتربيون بعصر أن الحزب الوطنى وأن الحركة القومية قد انتهى أمرها بسقوط الوزارة ولكنهم ما لبثوا كائين أن

تبينوا أن الأمر أكبر مما يظنون ، واضطر الخديو إلى إعادة عربابي بعد يومين
وزيراً للجهازية لحفظ الأمن والنظام

ولكن مالت بدل أن يكفي عن دسائسه أمعن فيها ، وبات همه الشاغل
استعجال الحوادث التي تقضي إلى احتلال مصر ؛ وكان جرائيل بالضرورة وإياه
على اتفاق ، وكان من ورائهم جلاستون أحد دعاة الحرية والشهرين بنصرتها ؟
وكانت السياسة الأنجلوسaxonية قد حددت سياستها نحو مصر وتتلخص هذه
السياسة في الانفراد باحتلال مصر وتحين الفرصة لذلك ، وهي في الواقع سياسة
قد عيّنة ترجع إلى حملة نابليون على هذه البلاد ؛ وقد نشطت نشاطاً عظياً منذ فتحت
قناة السويس ...

وكان أمام إنجلترا في الخارج عقبتان : موقف فرنسا من المسألة المصرية ،
وحق تركيا صاحبة هذه البلاد ؛ وفي الداخل عقبة كثيرة كثيرة هي الحركة القومية
بزعامة عرابي ؛ وكان سببها في الخارج المراوغة والتربع وسوف يكون سببها
في الداخل البغي والمدوان ...

ولم يمض إنجلترا إذا في مراوغتها بعد المذكرة المشتركة ، ولتحرص أشد
الحرص كما حرصت من قبل على أن تظهر لفرنسا والمدول جميعاً أنها لا تنوى
العمل بغيرها ، ولتدع تركيا إلى التدخل ، ولقطع فرنسا في كل ما تدعوه إليه ؛
لتفعل إنجلترا ذلك جميعاً فليس بضرارها شيء منه ، بل إنه لستار يختفي وراءه
حتى حين ؛ ولن تتم دريعته لأنفرادها بالتدخل حين تحين الفرصة ، وإنما تفاصي
من تردد تركيا وترافقها إذ يهيء لها ذلك أن تقول إنها اضطررت آخر الأمر أن
تضطلع بحماية الأجانب ومصالحهم وأموالهم في مصر ..

وكانت إنجلترا منذ إرسال المذكرة المشتركة الثانية إلى وزارة البارودي
تزعزع داعماً في صلتها بالمدول وبخاصة فرنسا خطورة الحال في مصر وتبالغ في
الأذى والتخويف ..

وبعد سقوط البارودي بأربعة أيام أرسل دي فرسنيه إلى السفير الفرنسي

بلندت يقول « لم يعد من أمل في حل سلمي بالضغط الأدبي القائم على وجود الأسطولين الفرنسي والأنجليزي وعلى المساعي الطيبة التي يبذلها عمال الدولة في القاهرة »

واقتراح فرسنيه أن يعقد مؤتمر دولي لحل المسألة المصرية ، وكان غرضه من هذا كا فعل حين اقترح بجيـيـه السفن إلى الإسكندرية أن يحول بين إنجلترا وبين الانفراد بالعمل فقد بات يتوجس خيفة من سياستها ...

وقبلت إنجلترا الاقتراح وأخذت تعمل في نشاط لتنفيذ الفكرة مدعية أن الأحوال الداخلية في مصر تتطلب عملاً عاجلاً حاسماً . ولن تخيب إنجلترا في أن تجعل من المؤخر أداة تتف适用 بها في إفاذ ما تبيـه ...

ومما يدل على حيرة السياسة الفرنسية أن فرسنيه كما أسلفنا كان يرى إبان أزمة وزارة البارودى أن لا داعي إلى التدخل في شؤون مصر وأرسل رأيه هذا إلى جرانفل على لسان سفيره في لندن

على أنه ما ثبت أن رأى جرانفل يخطو خطوة صوب الانفراد بالعمل ، وذلك أنه كتب إلى اللورد دوفرين في الثامن والعشرين من مايو أن يتصح للسلطان عوازرة توفيق وأن يرسل في طلب عرابي وزميله والبارودى إلى القصرينطينية ؛ وكتب في نفس الوقت إلى مالت كي يشير على الخديـو بطلب مندوب عثماني يحافظ على حياته ... ثم إنه بعد ذلك أخبر فرسنيه بما فعل^(١)

وصرح السير إدوار مالت قبل ذلك بيوم أنه لا يعد نفسه مقيداً باتباع الوسائل المنطلقة على الدين والاعتدال والتي تضمنتها المذكورة المشتركة الثانية^(٢)

وبعث أدميرال الأسطول الأنجليـيـ إلى حكومته بعد ذلك بيوم ينـهـاـ أن مصر تبني طابية جديدة تجاه إحدى سفن الأسطول ويطلب إليها زيادة السفن وقد أجـاهـهـ حـكومـتهـ إلى طلـبهـ دونـ أنـ تستـشيرـ فـرنـساـ ..

(١) الكتاب الأزرق مصر رقم ٨ سنة ١٨٨٢ من ٤٢

(٢) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ . رسالة رقم ١٤٥

من أجل ذلك اقترح فرسنيه عقد المؤتمر ظنا منه أن في ذلك عرقلة لسياسة جرانفل؛ ولم يشاً جرانفل أن يرفض المقترن فيكشف سياسته ولذلك رحب به بل وعمل على تفيذه ...

وحرص جرانفل على أن يظهر بعده من لا غرض له إلا المصلحة الدولية العامة، كما فعل حين كتب إلى الدول غداة وصول السفن إلى الأسكندرية يؤكد لها أن لا غرض لأنجليزية من وراء ذلك إلا إقرار السلام في مصر وأنه ليس لها من مطعم ولا هي ترى إلى الانفراد بالعمل و«أن الحكومة البريطانية لم تفكّر قط في أن تنزل إلى البرجنودا ولا أن تختل البلاد احتلالاً عسكرياً». وفي عزم حكومة جلاله الملك ، متى أعيدت السكينة إلى مصر وحال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها وتسحب سفنهما الحربية ، فإذا وقع عكس ما رجوه بأن تذر حل المسألة حلاً سلبياً فانها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته هي والحكومة الفرنسية أبشع الوسائل»^(١)

وكان مظاهر حرص إنجلترا على التجرد من القرض حين قبلت مقترن فرنسا لمقدم مؤتمر أن أبدت رغبتهما في أن تشرذم تركياف المؤتمر ، ثم أنها أرادت بهذه الرغبة أن تعرقل مساعي فرنسا لمقدم المؤتمر إذ كانت تعلم أن تركيا لا تميل إلى هذا الاتجاه.

* * *

وكانت سياسة تركيا تجاه الدولتين في مصر تدعو إلى الدهشة والأسف؛ وصردها فيما نرى إلى أنها كانت في حيرة بين توفيق وبين عرابي ، فهي إن آذرت توفيقاً فكأنما توافق على انحيازه إلى الدولتين وهو في الواقع منحاز إليها منذ أن خلع أبوه؛ وهي إن آذرت عرابياً وافقت على النزعة الدستورية الحرة في مصر وقوت شوكة الفلاحين ضد الأزاك والشراكسة ، وقد كانت هذه اليقظة القومية التي تعد في جوهرها موجهة ضد السيادة التركية تمثل في عرابي زعيم مصر الفلاح ... والواقع أن اضطراب سياسة تركيا نحو مصر يرجع كذلك إلى غفلتها عن كثير من دسائس الأنجلترا وعن السياسة الدولية بوجه عام؛ ثم إلى فساد رجالها

(١) المسألة المصرية لروتين .

وإشارتهم مصالحهم الشخصية على مصالح الدولة ، وإمكان توجيئهم بالرشوة الوجهة الطلوبية ولو كان في ذلك ضياع دولتهم ...

ورفض السلطان أن يشارك في المؤتمر ، ولكن ذلك زاد في خرج موقفه ، إذ كيف يرفض إرسال مندوب إلى المؤتمر وفي الوقت نفسه لا يعمل عملاً ما تجاه سياسة الدولتين في مصر ؟ لذلك أوفد بعثة درويش ورأى في ذلك سبيلاً عملياً يتحقق به على رفضه فكرة المؤتمر ...

وجاءت بعثة درويش وقد رأينا ما كان من سياستها المزدوجة كما رأينا عجز درويش إزاء الرأي الوطني العام وتأثره بهدى الخديو ، وتدبره بسبب ذلك بين حاكم مصر وبين زعيم مصر ...

ورأينا إنعام السلطان على عرابي بالوسام العظيم الأكبر ، وفي ذلك فضلاً عمما ينتاه من معان ، معنى آخر هو أن عرابياً لم يكن بالتمرد ولا بالمتسلط ، بل إنه الرجل الذي لاذ به الجميع لحفظ النظام ، وبذلك فلا وجه لما يزدمه الأنجلزي عن خطر الحزب العسكري في مصر ، ومن ثم فلا حاجة إلى مؤتمر ، ولا إلى تدخل من أي نوع كان ..

ولتكن أين هذا الأسلوب من دهاء السياسة الأنجلزية وخبائها وطول صرائها على اللؤم والذكر السيء ؟ لقد دبر الأنجلزي وشركاؤهم مأساة الاسكندرية لتكون حجة لهم على صحة ما يقولون ... ومن هنا يتبيّن لنا خطر هذا الحادث المشئوم ... ولذلك نمود بأشد اللوم على عرابي لأنه أذعن لتفوييق حين جمل عمر لطف رئيساً للجنة التحقيق ، ولأنه تراخي بعد ما كان من إقدامه أول الأمر على أمر انسحاب الأنجلز من الجنة ؛ وكان عليه أن يتعقب الجنة منها كان شأنهم وأن يواجههم بالأدلة ثم يصرّب على أيديهم ؛ ولو أنه فعل ذلك للعب لعبة بعيدة الأثر في مجرى الحوادث إذ كان يفصح أعداءه ويحيط كيدهم ويردهم خاسرين ...

ولن يشفع لعرابي أنه آثر الحرص على مودة الخديو ، ولا أنه خشي أن يفسر عمله بالتحدي لسلطته فيهيء لأعدائه دليلاً على صحة ما يزعمون من تدخله وتسلطه ...

لن يشفع له شيء من هذا فقد اضطلاع بحفظ الأمن وتعهد بذلك وكان بعد استقالة البارودي الحكم الفعلى بل الحكم الوحيد ، وقد أعيد إلى منصبه في الوزارة لهذا الفرض بالذات .. إلا إنه خطأ من أكبر أخطائه السياسية سوف يمود عليه وعلى مصر بأوخر العواقب ...
ولندع الآن موقف تركيا من المؤتمر لنعود إلى ما كان بين فرسنيه وجرافل .

فأول شهر يونيو أى في اليوم التالي لاقتراح فرسنيه ، أرسل إليه اللورد جرافل يقترح مرة أخرى رجاء الدول المعتمى أن ترسل إلى السلطان تطلب إليه إرسال جنود تركية إلى مصر ؛ ورد فرسنيه أن الأولى أن تنظر الحكومتان هل توافق الدول على عقد المؤتمر أم لا ؛ وأجاب جرافل بأن سؤال السلطان بإرسال جنود إلى مصر ينبغي أن يكون مما يشار به على اللورد درفرين فيما يتصل ببرنامج المؤتمر . وأظهر فرسنيه تحمله من هذا الرد ، لأن أجوبة الدول على الدعوة إلى المؤتمر لم ترد بعد وكان جرافل في الواقع يعاطل ويسوف عليه يستطيع أن يتخالص من عقد المؤتمر وإن تظاهر أمام فرنسا أنه يرحب به ...

ولما وقفت مأساة الأسكندرية عادت إنجلترا إلى تخويفها العالم من سوء الحال في مصر على أنها تجد في ذلك ذريعة لها للتدخل قبل هذا المؤتمر الذي تشير به فرنسا .
أرسل مالت إلى جرافل بعد المذبحه بيومين أى في اليوم الثالث عشر من يونيو يقول إن بعثة درويش قد فشلت فشلاً تاماً في مهمتها ، وأن مندوب السلطان اضطر إلى الخضوع لسلطة عرابي وأنه أدى إلى ممثل الدول بقوله إنه تحت ضغط الظروف الملحة يشارك عرابياً باشا في تنفيذ أوامر الخديو ؛ وأنه وزع الأوسمة على المرابطين وعلى الخديويين ، وأن تأثيره قد ذهب ...

وأراد فرسنيه أن يأخذ الطريق على السياسة البريطانية بفكرة أخرى فأعلن

أنه بعد سيطرة عربي على الموقف « قد تهيأ كل ما يمكن من تسوية المسألة المصرية بالاتفاق مع عربي »

وردت الحكومة البريطانية على ذلك ردًا حاسماً صرحاً قائلة « إنه لا يمكن وضع تسوية ثابتة مقبولة إلا بالقضاء على عربي باشا والحزب العسكري في مصر »^(١) واهم الأنجلزي في مصر أكثر مما قبل بإذاعة الأنباء عنها زعمونه من سوء الحال وذلك كي يردوا على قول درويش وقول السلطان من إن الحال هادئ لا تستدعي شيئاً من القلق ...

وأراد جرانفل أن يستغل حادث الأسكندرية قبل أن تظهر حقيقته فكتب في اليوم الثالث عشر من يونيو دون الرجوع إلى فرسنيه ، إلى القنصل الأنجلزي في الدول المختلفة بأن يعرضوا على هذه الدول اقتراحاً مؤداه أن يطلب إلى السلطان إرسال جنود إلى مصر بشروط معينة منها عدم الاعتداء على الفرمانات المقررة ...

ورأى فرسنيه لا يدع إنجلترا تتصرف وحدها فوافدها مرغماً مشترطاً أن تكون تلك الجنود خاصة لأواس الخديو العليا ؛ وقبل جرانفل هذا الشرط ، وإنه ليحمل من هذا كله ستاراً لنياته ... ثم كتب فرسنيه إلى قناصله لتتميل كما فعل القنصل الأنجلزي ...

واقفت الدولتان على عقد المؤتمر عاجلاً بمشاركة إنجلترا أو بغیر مشاركتها ؛ إذ أن السلطان كان لا يزال على رفضه بحججة أن درويشاً قد نجح في مهمته ، وأن وزارة ألفت في مصر وعادت الأمور إلى مجرها العادي ...

وبعد شهرين من الأخذ والرد اجتمع المؤتمر الآستانة في اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو دون أن يحضر فيه أحد من قبل السلطان ولندن المؤتمر ريثما نظر نظرة في الحال الداخلية في مصر .

في اليوم الثاني عشر من يونيو وهو اليوم التالي ل يوم الفتنة ذهب قناصل

(١) Comer P, 228.

الدول إلى الخديو وطالبو منه تأمين أرواح رعاياهم بعصر وأموالهم ، وكان ذلك يحضور درويش باشا ؛ فأرسل الخديو في طلب عرايى وأخبره بذلك وطلب إليه « نشر التنبهات والتذكيرات على كافة المسارك المصرية وضباطهم وأمرائهم الموجودين بمصر وأسكندرية والأقاليم والبنادر بزيادة الدقة والتحفظ »^(١) .

وبناء على ذلك أرسّل عرايى إلى جميع قادة الجنديين مخبرهم بما طلب الخديو ويدعوهم إلى اليقظة قائلاً « يحق لنا الأمل في همكم التي علمت فيكم ونشاطكم الذي عرفتم به بحثت لا يقع أمر من الأمور صغيراً كان أو كبيراً في أي نقطة من النقط التي أنتم بها إلا كنتم حصننا منيعاً بينه وبين سكان ديارنا على اختلاف طبقاتهم وممتداتهم وتابعاتهم ؛ كما يجب على حضرتكم بذل المهمه ودوم السعي في تسكين كل اضطراب ومنع ما يجب قلقاً أو تشونساً في الأفكار ؛ وفي كل هذا تخذون حسن العاملة مع جميع الأهالى والأجانب شعاراً لوظائفكم مع التمسك بالآداب المدنية والحقوق الوطنية فيسائر الحركات والسكنات كما هو الواجب على كل وطني محظوظه ساع في حفظه ونجاح أهله ؛ ونسأل الله تعالى أن يوفقاً لحفظ هذا النظام العائد ثمرته على الوطن العزيز »^(٢) .

وكانت الشائعات تنتشر في الأسكندرية ولم يمض على الفتنة يوم أن الأوروبيين يستعدون لمجوم جديد فاجتمع رؤساء الجندي وكتباً إلى القنصل ليطلبوا إلى رعاياهم السكينة والنظام ؛ وأصدر القنصل نداء للأوروبيين يخوّفهم فيه على التزام السكينة ...

وبالرخديو القاهرة في اليوم الثالث عشر من يونيو إلى الأسكندرية بججحة الاصطيف حسب عادته كل عام وصحبه درويش باشا ، وقد دفعه عرايى في المخطبة ، وقبل تحرك القطار أوصى الخديو عرايى بالسهر على الأمن وأخذ الحيطنة لمنع وقوع أي حادث .

وقد استرب الناس في سفر الخديو فجأة عقب الفتنة ، وفسروا ذلك بأنه أراد أن يتبعه عن عرايى وحزبه ليكون في حمى الأسطولين بالأسكندرية ؛ وأحسوا في

(١) مذكرات عرايى المخطوطية

هذا السفر المفاجيء شيئاً من الخوف وقالوا إن الخديو على علم بقرب وقوع الحرب . الواقع أن الخديو كان يريد السفر إلى الأسكندرية منذ مجيء السفن الأجنبية ، تجده الدليل على ذلك في برقية قنصل فرنسا إلى فرسنيه في اليوم الثامن عشر من مايو إذ يقول « إن أهم مسألة مستعجلة في الوقت الحاضر هي إقناع الخديو بعدم السفر إلى الأسكندرية ، فإن هذا السفر يشبه أن يكون فراراً وتركه العاصفة في الوقت الحاضر معناه العدول عن العودة إليها »^(١) .

وتجده دليلاً آخر في برقية ملائكت سلفت الأشارة إليها يصف فيها موقف الخديو فيقول عن الأنجلترا إنهم هم الذين صرفوه عن السفر إلى الأسكندرية ومعنى ذلك أنه لولا مساعدتهم لسفر إليها .

وقد علق فرسنيه على سفر الخديو بقوله « كانت رغبة الخديو متوجهة منذ وصول العماره الأنجلزية الفرنسية إلى الاتجاه إلى الأسكندرية ليكون قريباً من مدافعها ، وعيتها أربيد إقناعه بأن مركزه يجب أن يكون على رأس حكومته قريباً من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وعلى الأخض ملاحظتهم ، ولكن مذبحه الأسكندرية كانت له فرصة يتحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد إليها بمحجة تدارك الخطط مع أن النظام كان قد عاد إلى نصبه »^(٢) .

وفي الأسكندرية قوبيل الخديو بفتور وقد أطلقت المدفع تحية له واصطفت الجند على الجنان حتى سراي رئيس التين ؛ وقد وجّل الناس عند سماع المدفع ولم يكونوا يعلمون بمجيء الخديو وظنوا أنها مدفع الحرب .

وزاره القنصل في سرای رئيس التين ما عدا قنصلي فرنسا وإنجلترا إذ كانا بالقاهرة ؟ فأعرب لهم عن أسفه لما حصل يوم الفتنة ، ووعدهم بأن يوجه عنایته حتى لا يحدث شيء من هذا في المستقبل .

ومسرعان ما ذاع في الأسكندرية أن الخديو أسر إلى كافن أنه لا يأمن تجده

(١) الثورة العرابية للراهن قلا عن الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١١٥ .

(٢) المصدر السابق قلا عن كتاب فرسنيه « المسألة المصرية » .

الفن وأن بعثة درويش قد أخفقت وأنه لا بد من بحث جنود عثمانية ، وكان ذلك ردًا على ما أثارني به درويش على رجال الجهادية^(١) .
ويورد عرابي في مذكرة أنه أخذ طلب جنوداً إنجليزية « لأنه لا يصح أن يطلب جنوداً عثمانية من عامل إنجليزي مثل كلفن » .

ووقع ما أسر به الخديو إلى كلفن وقماً مؤلماً في النقوس، وعادت إليها عوامل الخوف ، وزادت هجرة المهاجرين من الأجانب في حالة أشبه بالذعر كثماً تنتظر الحرب بين ساعة وساعة ، أو ترتفع فتنة أشد هولاً من الفتنة السالفة ...

وبتاتمت هجرة الأوروبيين من الأسكندرية والقاهرة ومدن أخرى ، حتى صارت بهم عربات القطارات وازدحمت القوارب والسفن ، ورأى عرابي أن يدعو الناس إلى الاطمئنان فأصدر بلاغاً يقول فيه « ناظر الجهادية أحمد باشا عرابي يعلن كل سكان القطر المصري من المصريين والأوروبيين رسميًّا أن الحضرة الخديوية الفخيمية كفلت الأمن والراحة في جميع جهات القطر المصري أمام حضرات قناصل الدول المتحابة ، وتكفل ناظر الجهادية أيضاً بصيانة الأرواح والأموال وحفظ سكان البلاد على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعهم ، وقد انتقل الجناب الخديو إلى الأسكندرية بعائشه لدفع الأوهام من الأفكار واطمئنان القلوب . وبقي ناظر الجهادية بمصر لراقبة الأحوال وصيانة البلد وكتب لأمراء العسكرية فيسائر الجهات بيت الراحة والسرور على حفظ الأمن وصيانة النقوس . وعلى هذا قد يوان الجهادية يعلن الجميع حفظاً للأفكار من الأراجيف والاشاعات الكاذبة^(٢) » .

وظل عرابي في القاهرة ، وكان بيته حسب العتاد يتلى كل يوم بالناس وفي مقدمتهم زعماء الحركة الوطنية ومن أبرزهم نديم ومحمد عبده والمحترسي والشريبي والسيد حسن العقاد ، وكبار رجال الجيش مثل البارودي وعبد العال وعلى فهمي وكان الحديث هولاً لا ينقطع عن موقف توفيق من الأجانب وبخاصة منذ سفره إلى الأسكندرية ، وعن نيات درويش ، الذي كان يكرهه نديم أشد الكره

(١) مصر للمصريين ، لسلم تقاش .

(٢) مذكرات عرابي المخطوطة

ويوجس منه خيفة ، وطالما أعلن إلى أصحابه أنه لا يأمن الأزرار بوجه عام ولا يدرى هل جا ، درويش للقضاء على عربى أم للقضاء على توفيق ...

وكان عربى يغشى بيت البارودى كثيراً حيث يجتمع أنصاره فيتحدون أحاديثهم السياسية ؟ ويدرك صابونجى في كتاب له أرسله إلى بلن « أن الناس كانوا ينهضون وقوفاً على جانبي الطريق إذا أبصروا عراياً في عربته ويهتفون قائلين « الله ينصرك يا عربى » .

ومما يذكره صابونجى كذلك أنه بينما كان في بيت الشربى باشا حيث كان هو وعربى وساى ونديم والهجرسى وعبد العال وعلى فهمى ضيوفاً على صاحب الدار ، إذ دخل ضابط ومعه كتاب من سيدة أجنبية تطلب حماية عربى وقد نصح الناس لها بالهجرة من القاهرة ؟ فطلب إليه عربى أن يكتب لها مؤكداً حماية عربى إليها كا يحتمى نفسه ...

ويقول صابونجى « إن عراياً قد غدا بطلاً عند كثير من الأوروبيات وقد سمعتُهن يثنين عليه لما يعلمون من استمداده لها يهمن ؛ وإنهن ليه عن إلى الشرفات والنوافذ إذا سارت به عربته في الشارع » ^(١) .

وكان عربى شديد التشكك في نيات توفيق ، فإذا تحدث عما تم بينهما من صلح قال إنه من جانبه لا يخونون عهداً ولكنه إذا وجد الخيانة من غيره نقض عهده وإذا غشه الخديبو « فسيدفع له من جنس عملته » .

وسأله صابونجى رأيه في حلِم فقال إنه يفضله على توفيق ، ولكنه يرى أنه لو تخلص توفيق من تأثير مالت فـ كل شيء يسير سيراً حسناً ، ولقد أضل كافن صاحبه مالت ، ولقد سببا ضرراً بليغاً لدولهما كما سببا ضرراً بليغاً لصر وذلك بتشویههما الحقائق » .

ونحدث عربى عما يتوقع من حرب فقال « إن نكون نحن العتدين ، ولسكننا سنقاوم كل من يعتقدى علينا . نحن أمة مخنصصة نعرف بالجميل لن يأخذ

بأيدينا ويعيننا على إصلاح وطتنا ونحن لا نبني إلا الأصلاح ؛ ولكن الدين يريدون أن يغشونا سوف يجدون منا كل غش » .

ويصف صابو نجح زيارته الشيف الأمباني شيخ الجامع الأزهر ذات يوم صحبة عرايبي ، فيقول إن الشيف كان جالساً على وسادة فهض واقفاً وتقى خطوات يلقى عرايبياً متحفياً به ؛ وقد خلع عرايبي تعليه عند دخول الحجرة إجلالاً للشيخ وقبل يده ؛ وكان مع الشيخ نفر من العلماء فتقدموه وسلموا على عرايبي وحفوا من حوله مرحباً ، وقد طلب عرايبي من الشيخ أن يذيع في الناس نداء يحملهم فيه على المدود والسكنينة ويطلب إليهم وفق تعاليم الدين الإسلامي لا يعتقدوا على أموال اليهود والنصارى ولا على أرواحهم ؛ ووعده الشيخ بإذاعة هذا النداء

* * *

وكان يسر الأنجليز ويهتمم أن تبقى البلاد بغير وزارة ، ففي ذلك ما ينتحلواه لأتيبات مزاعمهم عن الفوضى الداخلية وتسلط عرايبي وعز الخديو وما إلى ذلك من البهتان ...

وكان يرضى الخديو كذلك أن يشهد الدول على أنه طالما توجد السلطة في يد عرايبي فلا أمل في تأليف وزارة ولا رجاء في إصلاح الحال ...

وكذلك كان يرى توفيق أن تأليف وزارة معناه الرجوع إلى حكم الدستور إذ لا يمكن لوزارة ما أن تحكم البلاد حكماً مطلقاً ؛ وهو يتطلع إلى اليوم الذي يقفى فيه على هذا الدستور الذي سلبه مشيتئه وألق بها في يد الأمة ؛ وكان أكبر ما يغليظ توفيقاً أن يصل الحزب الوطني أو حزب الفلاحين في مصر كما كان يسميه الآراك إلى ما وصل إليه ؛ وبلغ به الحنق أن كان لا يطيق سماع اسم عرايبي الذي تتمثل فيه زعامة الأمة كما يتمثل مبدأ الحكم الدستوري ..

فلا وقعت الواقعة في الأسكندرية أشتفق فقصلاً المانيا والنمسا ونصحاً للخديو بأسناد الوزارة إلى رجل يرضى عنه العراييون وقد فطنوا إلى ائم السياسة الأنجلizية وحربة السياسة الفرنسية وعمق السياسة التركية ؛ وكانت دولاتها غير مرتاحتين

إلى استئثار إنجلترا وفرنسا بالمسألة المصرية ، وقد أظهر بسمرك شيئاً من المطاف على عراي في قوله « إن عرانياً قد غدا قوة يحسب لها حساباً » ولعله بهذا كان يرى كذلك إلى مناورة الدولتين

ولم يكن ليقوى توفيق على تبعةبقاء مصر بلا وزارة ، فأقل ما يقال في ذلك إنه عاجز عن إقامة وزارة ؛ لذلك قبل على رغم مشورة الفنصلين الألماني والنسوي ، وعرض الوزارة على راغب باشا فقبلها في اليوم السابع عشر من يونيو وصدرت المراسيم بتائيتها في اليوم العشرين منه ...

ولم يكن راغب باشا من الوالدين لأخديو ولذلك وافق عراي عليه ، فقد أرسل إليه الخديو ينتهيه بأسناد الوزارة إليه ويدعوه إلى معاونته ، وجاء رد عراي بالموافقة وبالثنااء على راغب ؛ وظل عراي في وزارة راغب وزير للجهادية والبحرية ولقد خاف جرائف أشد الخوف من دخول ألمانيا في النزاع ، فلم يكن بسمرك السياسي الذي يؤمن جانبه ، بل إنه وحده بين ساسة أوروبا الذي يلف لف الأنجليز ويدور دوراً منهم ويعكر مكرهم أو أشد من مكرهم

لذلك أرسل جرافيل إلى بسمرك يقول على لسان السفير البريطاني ببرلين « إن حكومة جلاله الملك لم يكن لها يد في النظام الذى وضع بعصر حديثاً ^(١) وإنه إذا كانت الحكومة قد سلت بضرورة هذا النظام لحفظ حياة الأوروبيين ومتكلاتهم من الاعتداء فإنها لا تعده حلاً لمسألة السياسية بحال من الأحوال » ولا يفوتنا أن نلاحظ مفرز إخبار توفيق عرانياً بأسناد الوزارة إلى راغب فكأنما يقول بذلك إنه يستأذنه لأنه هو المتسلط ثم إنه يطلب معاونته قال « فليكن في علمكم إحالة مقام الرئاسة لمهدة البالى المشار إليه ، وكونوا جميعاً بدأ واحدة في السعادة والتعاونة وصرف الاقتدار والامكان لما فيه انتظام الأدارة وحسن السير في الأعمال واستنباب الأمن والراحة بأطراف وأكشاف البلاد »

وكان في رد عراي شيء من التحفظ يتضمن في قوله « وحيث أن أوامر

(١) يقصد تأليف وزارة راغب باشا

الحكومة إنما تصدر لصالح البلاد ورفاهيتها وتحققها بالراحة الكاملة ، فتحن مستعدون لتنفيذ تلك الأوامر ونؤدي واجباتنا في ذلك بكل ما في الوسم والطاقة ونسأل الله حسن التوفيق »^(١)

ووضع راغب باشا في كتابه الذي رفعه إلى الخديو منهاجاً لوزارته يتضمن منه أنه كان ينوى أن يحكم البلاد حكماً دستورياً قومياً ، يكفل للدستور الاستقرار والتقدم ، ويقطع الطريق على دسائس الأنجلترا ؟ فبعد أن أشار راغب باشا إلى احترام الفرمانات الحديدة من كفر مصر واستقلالها ومراعاة الانفاقات الدولية المتصلة بالدين واحترام مبدأ الدستور والسير وفق أحكامه قال « فجميع هذه الأصول الثابتة التي روويت قبل الآن بكل الضبط ستراعي في هيئة النظارة الجديدة بغاية الدقة بل إن هذه الهيئة ستأخذ بجميع الأساليب الموجبة لثبتت هذه الأصول وتنمية جانبها فإنها ترى في ذلك توفيقاً بين المصالح بمودع على البلاد بأجل المنافع . وأما الأصول التي يجب بذل الجهد في ترتيبها على قواعد أساسية موافقة للأصول الثابتة توضع باشراك هيئة النظارة مع مجلس النواب وتصديق عظمتكم فهى الأصول الأساسية التي تعيد حقوق الحكم والحكومين من كل صنف والقوانين الأدارية والقضائية وتنظيم حالة الأدارة والقضاء على وجه يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها الدينية وهذه الأصول ستتأنى بما في الوسم لأصلاحها ومنها ما يختصه بالذكر لضرورة الحوادث التي طرأت على البلاد أخيراً ويتقدىء العمل به من أول يوم يستلم فيه النظار وظائفهم وهو :

أولاً — أن يصدر عفو عمومي ويدرج في الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسية عن كل من عليه مسؤولية أوله اشتراك في الحوادث الأخيرة ؛ وهذا عدا المشترين والمسؤولين في حادثة اسكندرية وفي الموارد الحقوقية ، فلا يشملهم المفروض ثانياً — لا يعامل أحد بجزاء إلا بعد محاسنته في مجلس يقتضي القانون وصدر الحكم عليه

ثالثاً — لا تجري مخابرات في المصالح السياسية من مأمورى الحكومة مع

(١) مذكرات عرابي الخطوط

أحد وكلاء الدول بالقطر المصري إلا من طرف ناظر خارجية حكمتكم فقط ،
وعليه أن يستشير مجلس النظار في الأمور المهمة وإن حصلت مخاورة من أحد
المأمورين فلا تعتبر ولا يعتقد بها ... (١)

رابعاً — الأوامر التي تصدر بالإجراء والمعلم يكون إصدارها على موجب
الذيكريتو العالى المؤرخ في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . (٢)

ومما زرى الاهتمام به واجبا علينا إيجاد الوسائل لتوسيع دائرة المعارف
والصناعات وتحسين أحوال الزراعة والتجارة وكل ما يعود على البلاد بالثروة ؛ فهذه
بامولاي هى المبادىء التي يكون عليها العمل في هيئة نظارتكم الجديدة
ولا ريب في أنها تكون كافية لأهالى الديار المصرية بأتم الفوائد ؛ وإن لي
وثيقا تاماً بأن الدول العظيمة مستعدة هذه الأصول ضامنة للراحة والمدحه الأبدىين ،
وأن جيئها ستساعدنا كل المساعدة على القيام برعايتها خصوصاً دولتنا العلية
العثمانية التي لا يسرها إلا أن ترى أهالى أوطناننا فى أرغد عيش ورفاهية بال . فإن
حسن لدى مولاي (٣) ما أونخته فى هذا البيان فليحسن بالتصديق على التقرير
وإن عظمتكم الخاضع والخادم المتواضع .. »

من ذلك زرى أن وزارة راغب باشا كانت كفيلة ببرنجها هذا أن تعيد
السکينة والمدحه إلى مصر ، وأن ترضى الوطنين وتضمن حقوق الأجانب المالية ؛
ولقد وافق الخديو بكتاب رسمي إلى راغب باشا على هذا البرنامج الوطنى السليم .
وان يضيره أن يوافق بذلك كاه فى نظره من الأمور الواقية

وكان منهاج هذه الوزارة أبلغ رد على السياسة الأنجلزية وادعاءاتها ، ولو أنها
وجدت فى مصر حاكما غير توفيق لنجدت البلاد من الكارثة المحدقة ...

ولكن ماذا كان فى طوق راغب أنت يفعل ، وقد خاصم توفيق الدستور
والوطنين خصاماً لن يجعلى معه تفاصيل ، وأثر الانحياز إلى الأنجلز حتى لقد أحرق
القوارب جميعاً من ورائه كما يقولون .

(١) يرى بذلك إلى من تدخل الفنادق

(٢) يرى بذلك إلى مبدأ مسؤولية الوزارة لهم تدخل الخديو في شؤون الحكم

(٣) أراد أن يقيد الخديو في هذه الوثيقة الرسمية

وهل كان الانجليز يدعون راغباً ينفذ برنامجه؟ وإذاً ففيما كانت دسائسهم الماضية جيئاً؟ وهل هم انصروا عن الاحتلال مصر حتى يدعوا هذه الوزارة وشأنها؟ لقد قابلوها بأشد الجفاء من أول الأمر وأخذت أبواقيم تذيع ما كانت تذيعه عن البارودى ووزارته وأشد منه ، وعادوا إلى نفثتهم القديعة المرذولة وهى أن الوزارة في يد الحزب العسكري . وسوف يبدأون كما رأى على اختلاق الأكاذيب ، ووضع المراقيل في سبيل هذه الوزارة ، وبخاصة ليؤثروا على المؤتمر الذى انعقد فى الاستانة بعد تأليف وزارة راغب ثلاثة أيام ...

وكانت أولى هذه المراقيل امتناع كارتريت بأمر من جرانفل عن تعيين إنجلترا فى لجنة التحقيق التى أقامتها الوزارة للبحث عن مدبرى حادث الأسكندرية ؟ ولم يكتفى كارتريت بذلك حتى راح يثير الشكوك حول الماجنة متهمًا أعضاءها بـ « مهلاة المرابين خوفاً من نفوذ الحزب العسكري ...

وكان توفيق لما علم بعمد الوزارة على تحقيق أسباب هذه الفتنة وتأليف لجنة جديدة بدل الماجنة الأولى التى انحالت بانسحاب الأنجلترا منها ، قد كتب إلى راغب يطلب إليه الاهتمام بهذا الأمر ويستنكر حادث الأسكندرية ، وغرضه من هذا أن يظهر بعاظهر المحايد الذى يريد تحقيق العدالة ...

اجتمع المؤتمر بدار السفاراة الإيطالية بالاستانة ورأسه الكونت كورنى سفير إيطاليا بصفته أقدم السفراء .

وكانت الجلسة الأولى فى اليوم الثالث والعشرين من يونيو كاً أسلفنا القول وفيها قرر المؤتمر بإرسال مذكرة إلى حكومة السلطان ينبئها باجتماعه ويعبر عن أسفه لعدم انعقاده برئاسة وزير خارجية تركيا وعن أمله فى اشتراك تركيا فى الاجتماعات المقبلة . وعقد المؤتمر جلسته الثانية فى الخامس والعشرين من يونيو وفيها وضع ميثاق « البراءة من الفرض » وهذا نصه « تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا أنها فى كل تسوية يقتضيها عملها المشترك لتنظيم شئون مصر لا تسعى إلى امتلاك

شيء من أراضيها ، ولا إلى أي إذن بآى امتياز خاص ولا إلى أي فائدة تجارية
لرعاياها إلا ما كان عاماً يمكن أن تفاله آية أمة أخرى »^(١)

هذا هو الميثاق الذي وقعت عليه إنجلترا على رؤوس الأشهاد ، والذى لم يعنى
عليه ستة عشر يوماً حتى ضربت إنجلترا الاسكندرية بعدهم الضخمة ، كذلك على
رؤوس الأشهاد ؟ ولقد وقعت عليه إنجلترا التي لا تسكت قط عن التغنى بشرف
سياستها ، بعد أن أعدت كل ما استطاعت لاحتلال مصر !

يقول روستين « فالطريقة التي أنفذت بها إنجلترا هذا الاتفاق تعد في تاريخ
القانون الدولى من أشنع المخازى . ولا عجب إذا عن المؤرخون الذين ينتصرون لها
بتحاشى ذكر ذلك الاتفاق القاطع لحججه كلها »

والواقع أن إنجلترا كانت قد فرغت منذ زمن طويل من تحديد ما تعمله في المسألة
الصرية ؛ يقول كرومر في كتابه وقد جاء دور الكلام عن المؤتمر « ليس من
الضروري أن نقف طويلاً عند إجراءات المؤتمر الملمة ، فقد كان من الأمور الجلية
كما قال المؤرخ سالسبى في مجلس اللوردات يوم ٢٤ يونيو أن المجتمع الأوروبي ما هو
إلا وهم ؛ وفي أحد الجانبين كانت الحكومة البريطانية ويعتلها في المؤتمر رجل من
أقدر دبلوماسياً ذلك الوقت ؛ وكان المؤرخ جرانفل واللورد دوفرين يفهمان تمام الفهم
ماذا يريدان ؟ ولقد رغبوا في أن يوطدا النظام في مصر ، وكانا يقتدين إلى تلك
المقىحة التي مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام » .

ومما يدعو إلى الأسف والسخرية أن تركيا ظلت غافلة عما تبيت إنجلترا حتى
ذلك الوقت ، وظلت تأمل أن يفشل المؤتمر ؛ وكانت لا تفتئ تردد قولها على لسان
سفرتها في لندن إن وزارة ألغت في مصر وإن الحال في غاية المدح وإن تقرر
درويش باشا يدل على طاعة الجندي وبعدهم عن أي غرض سيء .

وكان من الممكن أن يكون لكلام تركيا قيمة وخطره لو أنها اشتراك في
المؤتمر واستطاعت أن تقنع به مندوبي الدول أو بعضهم فتأخذ الطريق على إنجلترا

(١) العبارة من تعریب الأستاذین البادی وبدران .

على أن إنجلترا لم تسمى بأقوال تركيا هذه . فعن لا تأمن أن يلقها في المؤتمر مندوب دولة أخرى يكون لها غرض في مناورة إنجلترا ؟ ولذلك حرصت كل الحرص أن تصور الحال في مصر حسبما تريده من السوء لا كما يشهد به الواقع . وقد وصل تقرير درويش إلى الأستانة في اليوم الذي اجتمع فيه المؤتمر ، وأنتم على عربى بالوسام العجيدى الأكبير بعد ذلك بيومين ، وأبلغ موزروس باشا وزير خارجية تركيا جميع وكلاء تركيا لدى الدول الأجنبية مضمون ما جاء فى تقرير دروיש باشا ، وطلب إليهم أن يبلغوا الدول باهتمام تركيا بشؤون مصر بحيث لا يدعوا الحال إلى تدبير خاص ، وكان يقصد بذلك عقد المؤتمر الدولى .

وكانت إيطاليا قبل عقد المؤتمر قد اهتمت بكلام تركيا ، ولم يمر ذلك إلى أنها كانت عميل إلى المانيا والمنسا ضد إنجلترا وفرنسا في السياسة الأوروپية بوجه عام وقد كان بسمرك ي يعمل على إيقاع الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فتدخل في المسألة المصرية تدخلًا ظهر في نصيحة فنصل المنسا للخدبو بتأليف وزارة في مصر ويبين اهتمام إيطاليا فيها أرسله باخت السفير البريطاني روما إلى جرانفل من أن مانشيني وزير خارجية إيطاليا أفضى إليه بأن الكونت كورن السفير الإيطالي بالأستانة تلقى من وزير الخارجية العثماني ما يفيد به دعوه الحال في مصر بتأليف وزارة راغب باشا وأنه لم يبق هناك من داع للمؤتمر الدولى ...

ويقول باخت إنه ما زال يمانشيني حتى صرفة عن ميله إلى الاعتبار في كلام تركيا « وقبل أخيراً أن ينتظر ماتخابر به سائر الدول في هذا الشأن يقف على آرائهم »^(١) وكذلك اهتمت روسيا بمسألة مصر ؟ يقول روئتين « إن مسيوده جير وزیر خارجية هذه الدولة قد اهتم في التعليمات التي أرسلها إلى سفارته بمناسبة انعقاد المؤتمر ببقاء المؤتمر حتى يفصل في أمر مصر ، قائلاً إن كل حل للمسألة يأتي من غير هذا الطريق حل غير مقبول ، وإنه إذا لم يكف التأثير الأدبي في تذليل الصعب فان المؤتمر بأجمعه يقرر ما يراه من الوسائل الأخرى . فإذا اقتضت الضرورة

هذا الأمر فتركتها أحق الدول بأعادة المياه في مصر إلى مجاريها . فإن أبت تركيا ذلك فقد يهدى الأمر إلى إنجلترا وفرنسا على شرط أن يرافق جيوشها مندوبون من قبل الدول الأخرى . فإذا استقر النظام في نصايه أعيد النظر في جميع التزامات مصر الدولية بقصد إلغاء المراقبة الثانية ووضع نظام دولي يحول دون عبث معمدى الدول ويجعل كل تعرض آخر لشؤون مصر الداخلية أمراً مستحيلاً »

لذلك كانت لا تأمن إنجلترا أن تعود إيطاليا أو غيرها إلى مناوئتها ، اعتمدت إلى التهويل في تصوير خطر الحال في مصر وأنها تندرب بأوخر العواقب . فن ذلك ما أذاعوه من أن أربعة عشر ألفاً من المسيحيين قد غادروا مصر ، وأن ستة آلاف غيرهم ينتظرون في لففة وصول السفن التي تقلهم من البلاد ؛ ومن غريب أمر هؤلاء الأنجلزيز أن هذه الهجرة تمت بتحريضهم وإذاعتهم أبناء السوء في الوقت الذي كان فيه عربي يؤمن الأجانب على أرواحهم وأموالهم المرأة بعد المرأة والذى هدأت فيه الحال بعد الفتنة التي كانت من صنع أيديهم ألا وهى مأساة الأسكندرية التكراء !

ومن ذلك ما أندروا به الدنيا بالهول ألا وهو ادعاؤهم أن عشرة من اليونانيين وثلاثة من الهاود قتلوا في بها بأيدي المتعصبين من الوطنيين ، وقد أرسل كارتريت هذا النبأ إلى جرانفل ، ولم يخجل من أن يقول إنه سمعه من مصدر يوثق به^(١) وهذا كل أدلةه على ما يزعم !

ومنه ما أشيع عن عربي أنه عرض على مجلس الوزراء أنه تصادر أملاك كل مصرى يغادر مصر ؛ وما يدعو إلى الضحك قول كرومر معقباً على ذلك بأن عرايا يسلك فى ذلك مسلك المعاقبة فى الثورة الفرنسية على غير وعي منه ؟ ثم يعود فيقول «إنه من الممكن أن يكون عربي قد فعل ذلك بوعي منه ، فقد أخبرت من مصدر يوثق به أنه كان فى ذلك الوقت يوجد اهتماماً كبيراً إلى دراسة تاريخ الثورة الفرنسية» ؛ وهكذا يكون عربي عالماً يقرأ ويتعلم إذا شاء كرومر أن يكون

العلم وسيلة لاتهامه ، وبكون جاهلا طائشا إذا كان رمي الجهل وسيلة لتشويه حركته القومية ؟ وليس وراء ذلك بغر أو لوم ...

ومنه ما أرسله كارتريت إلى جرافيل في اليوم السادس والعشرين من يونيو يقول « نظر لما يلوح من أن فكرة تسود الآن في الآستانة مؤداتها أن وزارة راغب باشا تسير سيراً مرضياً ، وأن نفوذ عربى يتناقض ، وأنه ليس ثمة ما يدعى إلى تدابير لتهذيب الحال ، رأيت من الصواب أن أخبر سفير حكومة جلالة الملك بالآستانة عمما لا يزال نحسه هنا من عدم الاطمئنان الذى ترد كل أسبابه إلى مسلك الحزب العسكرى .

وخير ما يوضح لنا نفوذ عربى الشامل هو تسلط الجيش تساطعاً لا يتوقف وادعاءاته التي لا هواة فيها ولو كمسلك التهديد؛ تلك الأمور التي أدى إلى ازديادها الاعتراف بعربى في الوزارة الجديدة »^(١) .

وأبرق كارتريت في برقيته هذه المنان لراعمه عن لجنة التحقيق ومن ذلك قوله « إن يعقوب باشا المضو العسكري في اللجنة الذي هو وكيل وزارة الحربية قد عارض معارضه شديدة وصم على لا يجرى تحقيق مرضى الأمر الذي أدى إلى انسحاب المضو الأنجليزى ... وأن بطرس باشا وكيل وزارة العدل والمضو المدني في اللجنة قد قرر أكثر من مرة بأنه مامن شخص يجرؤ على تقديم أدلة لا يرضاه فى الحزب العسكري وأنه هو نفسه مضططر إلى تأييد يعقوب باشا ولو أنه يخالفه في آرائه كل الخلافة ... وأنه لا يزال في السجن عدد من الأوروبيين ، احتجزوا هناك منذ ١١ يونيو ، ويرفض يعقوب باشا إطلاقهم لأن ذلك يغضب الجنود وفي مثل تلك الحال لا يسأل عن حفظ النظام » .

وقال عن راغب « إنه لا يستطيع أن يعمل عملاً فيه إغضاب للجيش على أية صورة ، وأذكر تأكيداً لذلك أن لغة سعادته أصبحت مطابقة للغة عربى » . وقال عن عربى « إن إنعام جلالة السلطان على عربى باشا في الوقت الذى كاد يكون فيه شخصه هو الوحيد الذى يبعث على القلق ، قد أدى إلى زيادة

ارتفاع مقامه زيادة عظيمة ، كما أدى إلى ازدياد ثقة الجيش في نفسه وسيادته ، وأينا ظهر عرابي باشا في المجتمع أعدت المظاهرات لاستقباله وأنه هو وحده بين الوزراء الذي يحيط به كوكبة من الفرسان كتلك التي تحيط بسمو الخديو »^(١) .

ثم أخذ يبالغ في وصف تسلط العسكريين في جميع دواوين الحكومة وكيف يشكون المدربون في الأقاليم وسائر الموظفين من تدخل الجندي في كل شيء .

وبعد ذلك بيومين أرق كارتريت مرة ثانية إلى جرانفل « بلق راغب باشا صعوبة شديدة في محاولته السيطرة على المنصر العسكري في وزارةه ؟ وعلمت أن سعاداته يشعر بالقنوط تلقاه ما يلقى من فشل ، ويجد الجندي أكثر اشتغالاً بالبشر وعائهم الحرية وتدايرهم من أن يوجهوا أي انتباه جدي إلى الوسائل المؤدية إلى الطامة لينة أو إلى الحاجة إلى خطوات جديدة يقصد بها إقرار النظام » .

وعقد المؤتمر جلسه الثالثة في اليوم السابع والعشرين من يونيو ؛ وكانت عاودت إيطاليا الشكوك في نية إنجلترا فقد قدم العضو الإيطالي اقتراحًا بهذا نصه : « ينبغي أن يكون معلوماً أنه ليس لآية دولة أن تقوم بمثل انفرادي في مصر مادام لا مؤتمر منعقد »

وأنس اللورد دوفرين أن إيطاليا وقد قبل المؤتمر هذا الاقتراح قد ضربت مطاعم إنجلترا في مقتل ولكن بدهائه تدارك الأمر ، فما زال بالمؤتمر حتى أقنهه بالإضافة تحفظ إلى هذا الاقتراح مؤداه استثناء ما تقتضيه الظروف القاهرة كضرورة حافظة كل دولة على أرواح رعيتها ؛ وقد استعان في دفاعه عن وجوب قبول هذا التحفظ بما قدمه من أدباء عن سوء الحال في مصر ؛ ومن أعجب العجب أن المندوب الفرنسي أيدى في هذا التحفظ بعد التشاور فيما يدينهما !

وكتب دوفرين إلى جرانفل ينفيه بهذا الانتصار قائلاً « إن الفرض من إضافة ذلك التحفظ إطلاق أيدينا في العمل إذا طرأ طارىء ما ... وإننا في الحقيقة لم نعد اقتراح السفير الإيطالي ذات شأن كبير بعد هذا التحفظ الذي رجم إليه عند الحاجة » ولكن جرانفل لم يرض أن تكون الظروف القاهرة مقصورة على حافظة

كل دولة على أرواح رعاياها بذلك مجال ضيق ، وكيف إلى دوفرين ليتدارك الأمر
وما كان دوفرين بالذى تموزه حيلة إذا كان الأمر أمر ختل ومكر .

وعقدت الجلسة الرابعة في اليوم الثالثين من يونيو ؛ فتقدم دوفرين بسؤال .
ماذا يكون الموقف إذا لم يعترف السلطان بالمؤمن وأرسل من تلقاء نفسه جنوداً
إلى مصر ؟ وقال قائل يمنع الأسطولان جنود السلطان من النزول ؛ واعتراض
مندوب فرنسا قائلاً إنه ما دام المؤمن منعقداً فليس للأسطولين أن يتدخلوا بهذه
الصورة . فقال دوفرين « إذا نعد من الظروف القاهرة مثل هذا التدخل من
السلطان ، كذلك لو هددت قناعة السويس أوجد في الحال السياسية تغير يخافىء
أو يخفى يختفى منه على المصالح الخاصة ^(١) »
ومن غريب أمر المندوبيين أنهم قبلوا هذا من دوفرين ، فألفوا بذلك المقترح
الإيطالي !

وفي الجلسة الثالثة للمؤتمر ألقى دوفرين خطبة عن الحال في مصر ، فلا يهاب
بالطاعون على مصر وأهلها وحر كتها القومية ؛ وكان مما ادعاه ، أن الفوضى قد
شاعت في مصر بسبب تمرد الجيش وخروجه على سلطة الخديو ، وقد اختلت
الأدارة وارتبت الحال بوجه عام ، وشلت حركة التجارة ، وعجزت الحكومة عن
الوفاء بتعهدهاتها المالية ، وعجز الأهالى عن سداد الضرائب ...
وعقب على فتنة الإسكندرية واتهام الوطنيين بتدميرها ، وبالغ في الكلام عمما
يتعرض له الأردوبيون من خطر وأشار إلى هجرتهم المتزايدة كل يوم من البلاد ،
ونفى ما ذكرته تركيا من أن الحال هادئة وأن وزارة راغب قد أعادت الأمور إلى
مجراها العادى وسي هذه الوزارة ، الوزارة المهزولة قاتلا إلها أداة في أيدي التمردين ،
وأن الخديو سليم الأراده لا حول له ولا قوة

ثم قال إن إنجلترا وفرنسا لا يسعهما السكت على هذا الوضع في مصر ؛
وكشف النقاب عن وجهه فصرح بوجوب التدخل المسلح في مصر ، وأهاب

(١) مصر رقم ١٧ من ٥٧

بالدول أن تضرب على أيدي التأذين وأن تأخذ الثورة بالشدة وإلا استفحـل نفوذـها واستـعـصـى بعد ذلك قـعـها ..

على أنه يرى أن هذا التدخل يجب أن يكون من جانب السلطـان ؟ ثم قال إنه عـلمـ من مصدرـ يـوـثـقـ بهـ أنـ درـوـيشـ باـشاـ اـعـتـرـفـ بـأـخـفـاقـهـ فـيـ هـمـمـتـهـ ، وـأـنـهـ لـاـ يـسـطـعـ أـنـ يـنـقـذـ الـخـدـيـوـ مـنـ تـسـلـطـ الـجـيـشـ إـلـاـ بـقـوـةـ حـرـيـةـ لـاـ تـقـلـ عـنـ عـشـرـيـنـ طـابـورـاـ ؛ وـأـنـ الـوـزـارـةـ الـمـصـرـيـةـ الـجـدـيـدـةـ مـاـ هـيـ إـلـاـ أـدـاءـ فـيـ يـدـ عـرـابـيـ وـسـيـقـ الـخـدـيـوـ سـلـيـبـاـ مـنـ كـلـ إـرـادـةـ مـاـ لـمـ يـنـفـذـ إـلـيـهـ جـيـشـ يـعـيدـ إـلـيـهـ سـلـطـانـهـ ..

وـكـانـ يـتـلـوـ دـوـفـرـينـ عـلـىـ المـؤـتـرـ الـبـرـقـيـاتـ الـتـىـ أـرـسـلـتـ إـلـىـ جـرـانـفـلـ وـيـسـوـقـهـاـ مـسـاقـ الـأـدـلـةـ ، وـلـنـ يـكـوـنـ عـبـتـ بـالـمـقـولـ أـشـدـ مـنـ هـذـاـ مـدـعـاهـ إـلـىـ السـخـرـيـةـ وـالـاشـتـهـازـ !ـ أـلـمـ تـكـنـ تـلـكـ الـبـرـقـيـاتـ مـنـ صـنـعـ الـأـنجـلـيـزـ ؟ـ وـلـمـ تـكـوـنـ هـيـ الـصـدـقـةـ وـتـكـوـنـ أـقـوـالـ تـرـكـيـاـ الـكـذـبـةـ وـلـاـ فـرـقـ عـلـىـ الـأـقـلـ بـيـنـ هـذـهـ وـتـلـكـ فـيـ قـابـلـيـهـاـ لـلـكـذـبـ أـوـ لـلـصـدـقـ ؟ـ

كـانـ أـعـضـاءـ الـمـؤـتـرـ يـصـفـونـ إـلـىـ دـوـفـرـينـ وـلـدـيـهـمـ مـنـ أـبـيـاءـ مـاـ يـحـمـلـهـمـ عـلـىـ عـدـمـ تـصـدـيقـهـ فـيـ كـثـيرـ مـاـ يـقـوـلـ ، وـقـدـ صـرـحـ بـعـضـهـمـ فـعـلـاـ أـنـهـمـ لـاـ يـسـطـعـيـمـونـ قـبـولـ هـذـهـ الـآـرـاءـ .

وـلـكـنـ الـمـؤـتـرـ رـأـىـ مـاـ تـبـيـتـهـ إـلـجـالـتـرـةـ مـنـ نـيـةـ الـانـفـرـادـ بـالـعـمـلـ فـيـ مـصـرـ فـالـ إـلـىـ تـقـيـيـدـهـ بـآـخـرـ قـيـدـ بـقـيـدـ وـهـوـ أـنـ يـكـوـنـ التـدـخـلـ عـلـىـ يـدـ تـرـكـيـاـ ؛ـ وـلـهـذـاـ قـبـلـ الـأـعـضـاءـ النـظـرـ فـيـ اـقـتـراـحـ دـوـفـرـينـ وـقـرـرـوـاـ مـخـابـرـةـ دـوـلـهـمـ بـشـأنـهـ عـلـىـ أـنـ يـنـظـرـ فـيـهـ بـعـدـ فـيـ تـفـاصـيلـهـ ،ـ إـلـاـ مـعـنـوـ الـفـرـنـسـيـ فـأـهـ جـاـهـرـ بـمـاـ يـشـبـهـ التـحـفـظـ عـلـىـ الـاقـتـراـحـ الـذـكـورـ^(١)ـ وـأـبـرـقـ دـوـفـرـينـ يـزـفـ نـبـأـ اـنـتـصـارـهـ الـجـدـيـدـ إـلـىـ جـرـانـفـلـ فـقـالـ «ـ أـخـبـرـنـكـ فـيـ رسـالـتـيـ السـالـفـةـ عـمـاـ يـنـزعـ إـلـيـهـ الـمـؤـتـرـ فـيـ مـسـيرـ أـعـمـالـهـ .ـ وـأـخـبـرـكـ أـنـ مـاـ أـطـلـمـهـ عـلـيـهـ مـنـ أـبـيـاءـ الـذـبـحـةـ فـبـهـاـ قـدـ كـانـ عـظـيمـ الـوـقـعـ فـيـ نـفـوسـ زـمـلـائـيـ ،ـ وـكـذـلـكـ أـحـدـثـ مـثـلـ هـذـاـ الـأـذـرـ فـنـفـوسـهـمـ مـاـ سـرـدـهـ مـنـ الـأـمـثـلـةـ عـلـىـ طـفـيـانـ الـحـزـبـ الـعـسـكـرـيـ

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٦ .

وعلى مظاهر الخراب المالي الذى جاء تفصيله في برقية مستر كارتر بتل الأمس ؟ وقد كان زميلي الفرنسي اليوم الزعامة إذ أصر في حماسة عظيمة على ضرورة اتخاذ علاج ناجع للفوضى المتزايدة في مصر ، تلك الفوضى التي يخشى كما قال أن تؤدي في وقت ما إلى استحالة الأقاليم الأفريقية على سكني الأوروبيين .

ولما رأيت من الأعضاء الآخرين ما يشعر بتسلیمهم بمحظورة الحال أكثر من زميلهم الفرنسي أو أقل ، بدا لي أن الوقت ملائم لأنقدم باقتراح صفتة ، مؤداته دعوة السلطان لأن يرسل تحت شروط معينة ومن أجل غرض خاص ، جنوداً تركية إلى مصر لها من القوة ما تسيطر به على الموقف وتفضي على استبداد المسكريين .
والاحظ زملائي واحداً بعد الآخر أنهم لا يستطيعون إبداء الرأي في اقتراح هام كهذا دون الرجوع إلى حكوماتهم ولكنهم في الوقت نفسه أعلنوا استعدادهم للدراسته في جميع الحالات ؛ وفي ظني أنه يتحقق لنا أن نرضى بالصورة التي قوبل بها مقترحنا . ولقد وافق كل شخص على أنه لا بد من عمل شيء ، ولم يجرؤ أحد على أن يقترح خلاف ذلك «^(١)» .

ظن المؤتمر كما ذكرنا أن خير وسيلة يقيدهم إنجلترا هو إقراره مبدأ تدخل تركيا بقوة حربية ؛ وكانت إنجلترا على يقين من أن السلطان لن يفعل ذلك لتردداته وارتباط شؤونه المالية والسياسية . وبعد ذلك يسهل عليها وهي لا تكفي عن الأنذار بالويل من سوء الحال في مصر ، أن تضطلع هي ببعض التدخل متظاهرة أنها تفعل هذا لا على أنه ضرب من القرصنة أو الخروج على قرار المؤتمر وإنما على أنه عمل توجيه الإنسانية والشهامة لأنه دفاع عن الرعايا الأجانب في مصر ودفع عن الأوروبيين كافة ؛ وما أمهل عليها وهي التي درت بالأمس مأساة الأسكندرية أن تخلق ما تدعى أنه من « الظروف القاهرة » ! ألا ساء ما يفعل الأقوباء وما أرذل ما يتبعجون به من الشرف والحق في هذا الشرق الذي لأندرى متى يفتقرا أخذ المؤتمر يدرس كيفية التدخل التركي ونظر في ذلك ثلاثة جلسات ؛ وكان

(١) مصر رقم ١٧ ص ٤٧ .

دوفرين يستمجل المؤتمر ليجده عليه أن الحال في مصر لا يقبل معها إبطاء ؛ وإنه ليقظ إلى كل ما عساه أن يحبط سعيه ؛ وإنه ليجده إلى شياطين الاستعمار في مصر أن يحرضوا على هجرة الأوروبيين وأن ينشطوا في نشر المزاعمات من مختلف الأنبياء وفي آخر شهر يونيو أرسل دوفرين إلى حكومته يقول « إن المؤتمر لم يفعل شيئاً حتى ذلك الوقت ، وأنه مالم تتخذ خطوة عاجلة فإن إطالة مدة وجوده تظهر عديمة الجدوى » .

وفي اليوم الثاني من يونيو قرر المؤتمر « أنه إذا رفض السلطان الدعوة الموجهة إليه لارسال جنود إلى مصر فإن المؤتمر يحتفظ بحق التعبير عن رأيه فيما عسى أن يتتخذ في الفرصة المناسبة » .

وقد أُبرق كارتيرت إلى جراشل في التاسع والعشرين من يونيو يقول : « إن هجرة الأوروبيين وإعدادهم العدة للهرب بعد أن خفت زمناً عادت إلى الزيادة في صورة شديدة . وإن الفنادق تغلق أبوابها وعمال السفن قد نقلوا مقرهم إلى مقرية من الشاطئ ، وإن ما ق من المصارف يعد العدة لنقل الموظفين إلى السفن ، ومن المستحيل تصور الإهيار والخراب ، الذي دمّر البلد هكذا بخاء ... إن الوطنية حتى أشياخ الدين منهم ، يرفعون أصواتهم اليوم ضد الحزب العسكري ، ويغادر القطر عدد كبير من ذوي الاحترام من المرء كما يتزايد بصورة شديدة رحيل الأسر التركية » .

وأُبرق إليه أول شهر يونيو بصف سوء الشعور في القاهرة تجاه الأوروبيين ويستاذن أن يسمح لهم بالهجرة .

وأُبرق إليه ثاني أيام الشهر يقول « لى الشرف أن أخبركم أنه في جلسة مجلس الوزراء بالأمس ألحّ عرابي باشا وزير الحرية على زملائه ليقرروا إعلان التجنيد العام توقماً للأعمال العدائية ، وقد عارض بشدة محمود باشا الفلكي وزير الأشغال عبد الرحمن باك وزير المالية ، وعلى ذلك لم يتخذ المجلس هذا القرار وفي نفس الوقت يستدعي الاحتياطي وعساكر الرديف في نشاط » .

وفي اليوم السادس من شهر يوليو أصدر المؤتمر في جلسته السابعة هذا القرار الخطير وذلك بعدأخذ ورد بين دوفرين ودى نواي المعنو الفرنسي « إن الدول الكبرى مقتنعة كل الاقتناع بأنه أثناء وجود الجندي الممكى بمصر سيحتفظ بمحال البلاد العتادة ولا يتعرض للأمور التي أعفيت منها مصر ، ولا لما خصت به من الامتيازات بموجب الفرمانات السابقة ، ولا لعمل الأدارة العتادة ، ولا لانظام والاتفاقات الداخلية البنية عليه . وأن تكون مدة بقاء الجنود الشاهانية التي سيجعل ضباطها بالاتفاق مع الخديو ثلاثة أشهر ما لم يسأل الخديو مد هذا الأجل ؛ فإذا فعل ،حدد الأجل الجديد بالاتفاق مع تركيا والدول الكبرى . وأن تتحمل مصر نفقات الاحتلال ... وأنه إذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فإن إيفاد المواد والشروط الآتية الذي يكون موضوع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا » .

وأرسل المندوبون هذا القرار إلى حكوماتهم ولبئروا ينتظرون ما ترد به .
وظنوا أنهم قيدوا إنجلترا ، وحالوا بينها وبين الانفراد بالتدخل في مصر ، كما
ظنوا أنهم حالوا بينها وبين الانفراد بتركيا والضغط عليها ؛ وفاتهم أن إنجلترا قد
أعدت عدتها لجميع الاحتمالات ...

كان على إنجلترا أن تخلق هذا الظرف القاهر قبل أن تعتمد الدول هذا القرار
المشترك وتقدمه إلى الباب العالى وأن تضرب الأسكندرية فتضيق المؤتمر أمام الأمر الواقع ، وتدبر قرار المؤتمر قصاصة من الورق لا قيمة لها ؛ فليتذرر في ذلك الذين
يسخطون ويتكلمون كما تتكلم البيغاوات كلاما ذكر عراي في بدون سبب الاحتلال
إليه ... ليتذرر هؤلاء في مسلك إنجلترا فهما هي ذى على الرغم من كل شيء تصمم
على احتلال مصر تنفيذا لسياساتها المرسومة سواء وجد عراي أم لم يوجد ، فلو لم
 يكن عراي لكان أى رجل غيره من الناس أو أى حادث ذريعة لها ...
وكانت إنجلترا قد فكرت في الظرف القاهر فعلا قبل ذلك وأعدت له كثيراً
من الصور فإن لم تفلح هذه بجأت إلى تلك ...

ولم يتوان الأنجليلز في مصر عن إذاعة أنباءهم المختلفة. ومن ذلك ما أبرق به كارتريت في اليوم الخامس من يوليو قائلاً «في مجلس الوزراء الذي عقد بالأمس تكلم عربى باشا كلاماً عظيم العنف ضد السلطان ، وفوق ذلك فأنه أمر ضباط الجيش المصرى أن يقطعوا كل صلة بدورىش باشا الذى يجب أن يغنى إليه بأن بعثته في مصر انتهت» .

وبعد خمسة أيام خسب من قرار المؤتمر فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو ذلك التاريخ الأسود وقع من الأنجليلز عدوائهم الفاجر على مصر ، وأنف الدول جميعاً في الرغام ، والمؤتمر قائم في الاستانة لا يدرى ماذا يفعل ، وتركيا لم تبت في الأمر بعد .

وستبلغ مهزلة المؤتمر تمامها حين يعقد جلسته بعد ضرب الأسكندرية بأربعة أيام لينظر في الأمر !

فكرا المؤتمر طوبلا في التدخل المسلح في مصر وقد أخذ قراره كيف يكون هذا التدخل ، ولكنه ما فكر لحظة أنه يتدخل لقتل حركة قومية صادقة في مصر قوامها الحرية والحكم الدستوري ؟ وإذا كانت إنجلترا موطن الحكم الثنائى والديمقراطية قد أذهلتها عن مبادئها أطاعتها الاستعمار به فعلتها كما دامتها في كل مواقف الاستعمار ذات سياستين : صراحتها وزراحتها في حكم نفسها ، ونفاقها وبغرها في معاملة الأمم وبخاصة أهل الشرق ؟ وإذا كانت الروسيا والنمسا وألمانيا قد انصرفت بمحكم أو توقيطها عن نداء الدستور والحرية ، فكيف غفلت عن ذلك فرنسا موطن الثورة الكبرى ومبعث الحرية والأخاء والمساوة ؟ وكيف ذهلت عنده إيطاليا المجاهدة ، بلد مازيني وجاريلدى وكافور ؟ ولكن الإنسان هو الإنسان مما اهتمى إليه عقله من مبادىء ، ولن زوال الأذرة هي أساس كل تعامل بين أفراد هذا النوع من الحيوان مما تتحقق بعلمه وسموه ، ولن زوال هي الرابطة التي تقرنها على رغمه بدوا بآرض من العجائب ...

كانت إنجلترا قد أعدت بالفعل تدبير «الظرف القاهرة» قبل أن يقرره دوفرين فاقرأ خرافة الذئب والحمل في صورة جديدة هي قصة النزاع بين بوارج الأسطول الأنجلو-أمريكي وقلاع الشواطئ بالأسكندرية.

في اليوم التاسع والعشرين من مايو، أى قبل تحفظ دوفرين بنحو شهر، أخبر السير بوشامب سيمور أدميرال الأسطول البريطاني بالأسكندرية اللورد جرانفل، كاسبق أن ذكرنا، أن المصريين يقيمون تحصينات في شواطئ الأسكندرية وأن هذا بعد عملاً عدائياً موجهاً إلى الأسطول، وطلب زيادة السفن وقد أجابه حكومته إلى ما طلب دون استشارة فرنسا.

واستفهمت إنجلترا الباب المالي بما يراد بهذا الأجراء، فردت تركيا بأنه لا تحصين هناك ولا استعداد وإنما هو إصلاح في بعض الحصون المتهمة، ومع ذلك فقد أمرت تركيا بوقفه؛ وأعربت تركيا عن أملها في أن يتتجنب قائد الأسطولين ما عسى أن يثير أدنى نزع ... ووقفت المسألة عند هذا الحد.

ولكن الأدميرال سيمور عاد في أول يوليو فأبرق إلى سكرتارية الأدميرالية أن عرايياً يستعد بجمع السلاح والرجال وأنه يملن أن النبي يوحى إليه كل ليلة، وأنه سوف يضع الأسطولين في فخ وذلك بسد البوغاز بالأحجار^(١).

وفي اليوم الثاني من يوليو أبرق كارتيرت إلى جرانفل بأنه سمع أن مجلس الوزراء المصرى قرر استئذان السلطان في المودة إلى أعمال التحصين بشواطئ الأسكندرية. وأبرق جرانفل إلى سيمور في نفس اليوم ينبهه بذلك ويطلب إليه أن يأخذ حذر^(٢).

وتلقى سيمور في اليوم الثالث هذه البرقية الخطيرة «امنع كل محاولة لسد البوغاز إلى الميناء، وإذا استؤنف العمل في التحصينات أو إذا وضعت مدفع جديدة، فاخبر القائد الحربى بأن لديك أوامر بمنع ذلك فإذا لم يوقف ذلك فوراً

(١) مصر رقم ١٧ ص ٦٢

(٢) المصدر عينه ص ٦١

فطم التحصينات وأسكت البطاريات إذا أطلقت نيرانها »^(١).
وتلقى كارتريت في الوقت نفسه نبأ ما أرسل إلى سيمور ، مشفوعاً بالتنبيه
عليه أنه في حالة ما إذا أقدم سيمور على عمله فيجب أن يخطر الرعايا البريطانيون في
القاهرة وغيرها لينادروها مصر قبل فوات الوقت^(٢).

وأرسلت برقية أخرى إلى سيمور نصها « قبل أن تأتى عملاً عدائياً أدع
الأدميرال الفرنسي إلى التعاون معك ولكن لا تؤجل العمل كما طلب إليك لأن
الفرنسي رفض الانضمام »^(٣).

وفي اليوم الرابع من يوليو أرق كارتريت إلى جرانفل أنه توجه وبصحبته
القنصل الفرنسي إلى راغب باشا ، فأجاههما إجابة شبيهة بما اعتقاد أن يجib بها في
مسائل أخرى ومؤداته أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف وذكر كارتريت أنه انذر
الرعايا البريطانيين ليكونوا على أهبة للسفر^(٤).

وفي اليوم الخامس أرق كارتريت إلى جرانفل « أنه رغبة في أن يهوي ، زمناً
للرعايا البريطانيين كي ينسحبوا من القاهرة فقد اقترحت على الأدميرال السير
بوشامب سيمور أن يؤجل إلى يوم الخميس اتصاله بقائد حامية المدينة بشأن مسألة وضع
البطاريات في الحصون ؛ ذلك أنني أخاف أن يؤدي الاتصال السريع إلى تعجيل
سير الحوادث وبذلك يجعل من الصعب انسحاب البريطانيين من القاهرة^(٥).

وفي نفس اليوم أرق كارتريت يقول « لي الشرف أن أخبركم أن وكيل وزارة
البحرية قابل الأدميرال السير بوشامب سيمور أمس بعد الظهر وذكر له تأكيدات
بشأن عمل إصلاحات في مدخل الأسكندرية وبعد ذلك بقليل تلقى الأدميرال من
قائد الحامية إجابة مكتوبة صيفت في عبارة شبيهة بعبارات صاحبه ؛ وتلقى الخديجو
 صباح اليوم برقية من السلطان يتبئه أنه سيعده هو وزراؤه مسؤولين إذا لم توقف

(١) مصر رقم ١٧ من ٦٩

(٢) من ٧٤

(٣) من ٨٠

أعمال التحصينات . لأن هذه الأعمال إذا استمرت سوف تؤدي إلى غرب الأسكندرية بمدفع الأسطول البريطاني ، وسيجتمع مجلس الوزراء اليوم للنظر فيما جاء من السلطان^(١) ».

وفي اليوم السادس ، وهو اليوم الذي أخذ المؤتمر فيه قراره النهائي أبلغ كارترت إلى جرانفل يقول « لى الشرف كذلك أن أخبركم أن الأدميرال^(٢) السير بوشامت سيمور قد أرسل لتوه إلى قائد الحامية يطلب إليه إيقاف التحصينات والمباني الشاطئية ؛ وقد أرسلت تباعاً لذلك تحذيراً رسمياً آخرأ إلى الرعايا البريطانيين ليغادروا القاهرة، وسوف أخبار في الحال الفنادق الأجنبية بما اتبع من الخطوات»^(٣) وأرسل سيمور للمرة الثانية إلى طلبة باشا قائد حامية الأسكندرية في اليوم السادس من يونيو يقول « البارحة إنفنسبل في ٦ يونيو سنة ١٨٨٢ : سيدى : لى الشرف أن أحبط سعادتكم علماً بأنى علمت من مصدر رسمي أن مدفني أو أكثر أضيقاً بالآمن إلى خطوط الدفاع البحرية ، وأن استعدادات حربية يجري عملها في الواجهة الشمالية للأسكندرية ضد الأسطول الذى تحت قيادتى ؛ وأرى زاماً على والحاله هذه أن أنبئه سعادتكم إلى أنه إذا لم توقف هذه الأعمال أو إذا أوقفت ثم استؤنفت فإن واجبي يقتضى بأن أطلق مدافعي على الأعمال الجارى بناؤها» ورد طلبة باشا بقوله « عن يدى الأدميرال الأنجلزى « لى الشرف أن أبلغكم أنى ناقمت كتابكم المؤرخ ٦ يونيو الذى تخبروننى فيه أنكم علمتم من مصدر رسمي وضع مدفني وأن أعمالاً أخرى جارية على شاطئ البحر ، فرداً على ذلك أو كذا لكم أنه لا أساس لهذه الأخبار ، وأنها من قبيل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققكم من كذبه ...

وإنى لعتمد على مشاعركم الإنسانية الصادقة وأرجو أن تتقبلوا احترامى»^(٤).

(١) مصر رقم ١٧ من ٨١

(٢) ص ٩٢

(٣) ص ٩٢

(٤) ص ١٠٣

وأبرق جرانفل في اليوم السابع إلى سفير حكومته بفرنسا يقول « أرسل إلى لوردات الأدميرالية صورة برقية وردت من السير بوشامب سيمور بتاريخ أمس يقرر فيها أن قائد الحامية أَكَدَ له أنه لم توضع حديثاً مدافعاً أو تجري عمليات حرية ، وقد أَكَدَ هذا درويش باشا أيضاً . وقد قرر الأدميرال أنه لم يلاحظ عمليات منذ يوم ٥ بعد الظهر ، ولكنه ان يتوازن عن العمل إذا استئنفت العمليات ، وقد ألقى إلى الأدميرال الفرنسي أن ينسحب في حالة الاعتداء »^(١) .

وقد جاء في برقية سيمور إلى الأدميرالية قوله إن وقف العمليات منذ التاريخ الذي أشار إليه رعايا كان إطاعة لأمر السلطان^(٢) وفي هذا دليل بل اعتراف من سيمور بأن العمليات أوقفت .

واليوم السابع كتب القناصل بالأسكندرية إلى سيمور يسألونه عما إذا كان مقتنعاً برد الحكومة المصرية بشأن أعمال التحصين ، ويخبرونه بأنهم على استعداد لأن يأتوا له بما يقنعه ؛ ويرجون منه أن يخبرهم بماذا يقتضي لديهم من وقت لحماية رعاياهم ، ثم يشيرون إلى أن ضرب الأسكندرية على أية حال يفضي إلى ضرر جسيم بالسيجينا بالمدينة وبالوطنيين كذلك ، كما أنه يحطم كثيراً من الممتلكات الأوروپية .

ورد الأدميرال ردأً رسمياً حاسماً قائلاً « إنه إذا كان لهم من النفوذ ما يحمل قائد حامية الأسكندرية على الأخلاص فلا يستمر في أعمال التحصين ، فإنه مستعد لأجابة طلبيهم ، أما أنا كيادات الكتابية مما كانت عبارتها فإنها قليلة الجدوى لديه فيما هو بصدده وإنه لا يقصد ضرب المدينة وإن عمله إذا لزم الحال سيكون ضد الحصون ، وإنه سوف يخبر حكومته بكتاب القناصل ، بيد أنه لا يزال عند غيره حسماً أخيراً قائد الحامية إذا لاحظ استثناف أدنى عمل دفاعي . وعلى أية حال فسوف تكون هناك مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة »^(٣) .

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧

(٢) ص ٩٨

(٣) ص ١٠٠

وأبرق كارتريت إلى جرانفل في اليوم التاسع يقول «لى الشرف أن أحبطكم علمًا بأن الأدميرال السير بوشامب سيمور تلقى نبأ بأن مدفعين أضيفا إلى قلعة السلسلة بجاه الميناء الجديد ، ولأن يستطيع الأدميرال أن يتغاضى عن هذا العمل العدائي ، ولذلك حتم على أن يفتح أفواه نيرانه في مطلع شمس الثلاثاء ١١ الحالى ، وأأخير هذا المساء الفنصل العام والخدبو ودرويش باشا وساعد ما يلزم لينزل جميع الرعايا البريطانيين إلى السفن الليلية أو صباح الغد » .

وأبرق سيمور في اليوم التاسع إلى سكرتيرية الأدميرالية البريطانية يقول : «إنما إلى برقيتي المؤرخة ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ أقول إنه ليس لدى أى شك في حدوث الاستعدادات الحربية ، وقد وضعت مدافع جديدة في حصن السلسلة ، وأخطر قنصل الدول الأجنبية صباح غد وأبدأ بالضرب بعد أربع وعشرين ساعة مالم تسلم إلى الحصون القائمة في شبه جزيرة رأس التين والمحصون المشرفة على مدخل الميناء » ^(١)

وجاء في برقية إلى سيمور من سكرتارية الأدميرالية طلب إليه فيها أن يستبدل بكلمة «تسليم» الواردة في برقيته عبارة «تسليم مؤقتاً بقصد تجريدها من السلاح» ^(٢) وفي صباح اليوم العاشر من يوليو تلقى طلبة باشا إنذاراً نهائياً هذا نصه «لى الشرف أن أخطر سعادتك أنه لما كانت أعمال الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الأسطول الذى أتولى قيادته آخذة في الإزدياد طول نهار أمس في حصون صالح وقايتساى والسلسلة ، فقد عقدت العزم أن أنفذ غداً ١١ الحالى عند شروق الشمس ما أعرّبت لكم عنه من عمل فى كتابي المؤرخ يوم ٦ الحالى وذلك إن لم تسلموا إلى في الحال قبل هذه الساعة البطاريات الموضوعة في شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطئ ميناء الأسكندرية الجنوبي بقصد تجريدتها من السلاح» ^(٣) .

(١) مصر رقم ١٧ من ١٠٥ .

(٢) من ١١٦ .

(٣) مصر رقم ١٦ من ٤ .

هذه هي قصة النزاع بين بوارج الأسطول الأنجلو-إيرلندي وقلاع الشواطئ
بالأسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل في صورتها الجديدة ...
وما ندرى بأى كلام نعقب عليها وأى عبارات اللغة تقى بوصف ساجة السير
بوشامب سيمور ذئب هذه الأقصوصة؟

لقد قرر دى فرسينيه رئيس الوزارة الفرنسية في كتابه المسألة المصرية أن
العلومات التي لديه «لم تكن بالخطورة التي تبدو من رسائل الأدميرال سيمور
بحيث أن ضرب الأسكندرية في الظروف التي وقع فيها إنما كان عملا هجومياً
لادفاعياً» وقرر كذلك أن «سد البوغاز لم يشرع فيه في وقت من الأوقات»^(١).
وقد أرسل الأدميرال الفرنسي كوزاد إلى حكومته يصف تحرش سيمور
ويذكر أنه لم يشاهد أى عملية في الحصون^(٢).

ويقول نينيه وقد حضر ضرب الأسكندرية «إنى أؤكد بشرف ما تحققته إذ
كنت أزور الحصون يومياً مصحوباً بكلار الضباط أنه منذ يوم جمعي، أوامر
السلطان بالكف عن الترميمات لم يطرأ أى تغير على آية بطارية من جهة المينا
أو على البحر، ولم يحصل أى ترميم في الحصون ولم ينصب فيها أى مدفع جديد»^(٣)
ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف يمكن تحصين أمة شواطئها تلقاء سفن
 الأجنببية تهددها عملاً عدائياً يسوغ الشر والاعتداء! إن مثل ذلك كمثل
لص أراد أن يقتضم داراً وسلامه في يده والشر في معارف وجهه ، فإذا تناول
صاحب الدار شيئاً يدفع به عن نفسه هذا العدوان عد ذلك منه حقاللص يسوغ له
أن يقتله ويأخذ متعاه وداره ؛ وليس في تاريخ العداون كما ذكرنا أقبح من هذا
ولا أشد منه بغوراً ...

وكيف يجوز في عقل أن تكون قلاع الأسكندرية هي المقيدة على بوارج

(١) المسألة المصرية ص ٢٨١

(٢) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٠ وثيقة رقم ١٦٢

(٣) الرافعى : نقل عن كتاب جون نينيه — عرابى باشا ص ١٤١

الأسطول والقلاع لم تنتقل إليها لتضررها وإنما جاءت السفن تهدد المدينة والمؤثر الدولي قائم في الآستانة ينظر في المسألة المصرية؟!

إن من حق كل دولة بل من واجبها أن تندو سائل الدفاع عن كيانها في كل وقت وفي غير مناسبة معينة، وتكون أكثر التزاماً بأداء هذا الواجب إذا تهددها عدو؛ ذلك ما لا يستطيع أن يماري فيه أحد.

ولكن الأدميرال العظيم السير بوشامب سيمور أو قل ولكن جلادستون زعيم الأحرار وجرايفل السياسي القدير رأيا في هذا الواجب الذي ثبت أن مصر لم تؤده فيما يتصل بخصوص الشواطئ، مسوغاً لأطلاق نيران المدفعية على مدينة واحدة مسلمة كمدينة الإسكندرية ... ألا ما أنسى هذا الشرق السكين！

ويزيد في سماحة هذا التحرش السخيف من جانب الأدميرال العظيم أنه اعترف بأن أعمال الرم أوقفت؛ والحق أنه كان يظهر المدحوه ربما ينقل الرعایا البريطانيون، فلما تم ذلك عاد إلى إنذاره ثم لم يكتف بما تقدم به أولى الأمر حتى طلب تسلیم بعض الحصون！

ولقد طلب تسلیم بعض الحصون لأنه من المستطاع إقامة الدليل المادي على أنه ليست هناك تحصينات وبذلك تسقط حججه إن كانت هذه حجة، وإن دافع الأقصوصة هذا ليعلم أن هذا التسلیم لن يكون؛ وبذلك تواثيته التزيمة السمعجة الفتححكة لضرب الإسكندرية؛ ولقد ضربها سيمور وكوف على ذلك بأن أصبح اللورد السستر！

يقول روشنين في كتابه المسألة المصرية يصف عمل إنجلترا «إن عملها هذا كان يخفي منه عليها، ولكنه أفلح كما يفلح كل عمل وقع تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان».

وقال أيضاً «والحق أنه لاشيء أحاط قيمة ولا أصرح نفافاً من الحجة التي شرع بها الأنجلوز في ضرب الإسكندرية».

وقال «وهذه حجة أجاد تسخيفها المستر ريشردز في البرلمان إذ قال: أجد

رجالاً يحوم حول يتي وعلام الأجرام بادية عليه . فتأادر إلى إحضار الأطفال والمدارس وأحكام سد نوافذى فيقول إن هذا إهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابي ، ويعلم أنه إنما فعل ما فعل دفاعاً عن نفسه ليس غير » .

ولقد خطر لنا هذا الذى يذكره المستر ريشردز قبل أن نقع عليه ولا ريب أنه يخطر على بال كل من يقرأ قصة هذا المدوان الفاجر ...
ومما يزيد الأمر غرابة ويزيد موقف إنجلترا سخفاً أنها تحمل مما ادعنته من أعمال التحصين « ظرفاً قاهراً » لتدخلها في الوقت الذى كانت قد فرغت فيه من نقل رعاياها من البلاد !

بعد أن أرسل سيمور إنذاره النهائي إلى طيبة عصمت ، أرسل كارتريت إلى رئيس الوزارة المصرية يقول « سيدى الوزير: بناء على البلاغ الذى أرسله الأدميرال السير يوشامب سيمور صباح اليوم إلى قائد حامية الأسكندرية ، أرانى مضطراً إلى أن أخلق فنصلية صاحبة الجلالة ، وأن أقطع فى الوقت الحاضر العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل القنصل العام عن جلالتها فى مصر ». الواقع أن العلاقات تعد مقطوعة بين الأنجلترا ووزارة راغب باشا منذ قيامها؛ فقد قابلوها كما ذكرنا بالجفاء الشديد ، يتبع ذلك من ردّهم على إخطار الحكومة المصرية بإيام بقىام هذه الوزارة إذ لم يزيدوا على قولهم إنهم علموا بما أخترعوا به ، دون أي عبارة من عبارات الجاملة العتادة ...

وقد غادر مالت القنصل العام الأسكندرية منذ اليوم السابع والعشرين من يونيو وأناب عنه كارتريت وغادرها أيضاً كوكسن إيليس مذبحمة الأسكندرية وشيطان يوم عابدين ، وأوَّلت الحكومة الأنجلزية إلى أوكلاند كأفن الرقيب المالى الأنجلزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ...

ويذكر بلنت فى كتابه أن رحيل مالت كان بمساعيه إذ كتب إليه صابونجى وكيله بالقاهرة يقول بضرورة إخراج مالت من مصر فكل الناس لاعنه وكلهم

قاتله إذا بقى ، فذهب بلنت إلى وزارة الخارجية والتمس نقل مالت إلى إحدى السفن وأجيب إلى طلبه .

ومهما يكن من الأمر فإن الأنجلزيز منذ مجئه سففهم إلى الأسكندرية كانوا يترقبون اليوم الذي يطلقون فيه مدافعهم على المدينة ...

أما الخديو فهو في كنف الأنجلزيز وحمايتهم منذ قبوله المذكورة المشتركة الثانية بتاريخ اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو ، وذلك في ظل السفن الأجنبية ، بل إنه في كنفهم منذ يوم عابدين ، أو في الواقع منذ عملا على تعينه بعد خلع أبيه لهذا كان يجاري وزارة راغب انتظاراً لتدخل الأنجلزيز ؛ وكان في الوقت نفسه يتعمجل هذا التدخل وقد رأينا ما كان منه ومن عمر لطفي في فتنة الأسكندرية ولم يكن يضيره أى اتفاق مع راغب ، وهو يوقن أن العاقبة لا تنجليز ؛ بل لقد كانت مداراته راغباً ستراً لنياهه أمام درويش حتى ينفض يده من كل ذلك مما قريب ويركز إلى الفالبين ...

ولسننا نرسل هذا الكلام الخطير على عواهنه ؛ ولسننا كذلك نكتفي بما سلف من موقف الخديو وهي في ذاتها براهين ثبتت ما نقول وبخاصة قبولة المذكرين المشتركتين واحدة بعد الأخرى ، وقد جاء في أولاهما إشارة الحكومتين إلى بقاءه على العرش و «أن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج إليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلاده وشعبه»^(١) ، وقد كانت الثانية تدخلان فعلياً في شؤون البلاد الداخلية ، ولا تقصر على الأشارة إلى موقفه من الحركة القومية الدستورية بوجه عام وشدة كراحته عراياً بوجه خاص لا نكتفي بذلك كله وإنما نعرض على القارئ نص البرقيتين الآتيتين .

كانت البرقية الأولى من كارتيلت إلى جرافل في اليوم السابع من يونيو وفيها يقول «أتشرف بأخبار خامتكم أن الخديو استدعى السير أوكلاند كلفن هذا الصباح ليدللي إليه بالطريق الذي يقترح سموه اتباعه في موقف معينة تتصل بحركاته

(١) راجع ص ١١٦ من هنا الكتاب .

الشخصية . إن سمه يعزم البقاء في مصر إذا وقع الفرب ، فإنه لا يستطيع كما ذكر أن يعتزل الدين وقفوا بخلاص إلى جانبه أثناء الحنة ، كلام لا يستطيع أن يفادر مصر إذ هاجمها دولة أجنبية مجردة - كما يصح أن يقال - أنه يريد أن يضمن سلامته الشخصية ؛ وإذا حاولت تركيا الفزو ولقيت جيوشها مقاومة فإن سمه ودرويش باشا سوف يملئان الجيش أنهما كرجلين من رعايا السلطان الموالين بعدان نفسهما مقصرين في أداء واجبها إذا أقر المقاومة وعلى ذلك فأنهما ياوبان بأحسن وسيلة ممكنة إلى يخت درويش باشا ؟ وفي حالة ضرب الأسكندرية بمدفع الأسطول البريطاني سيأوى سمه إلى قصر ترعة الحمودية حيث يرافقه درويش باشا . وكلما كان الفراغ من الأمر كله أسرع قل الخطر الذي يتعرض له شخصياً . وقد كانت لهجة سمه أثناء المقابلة كلها هادئة وكان يضبط نفسه واحتدم حديثه بأن رجا من السير أوكلند كافن أن يطلع خاملكم على ما اعتزمه ...

وإذا اقترح في حالة الفرب أن أخبر درويش باشا قبل إقلاعي أن حكومة جلالة الملك تلقى على عاتقه تبة سلامه سمه الشخصية »^(١) .

أما البرقية الثانية فهي من جراحتي إلى كارتريت في اليوم التالي وهذا نصها : « توافق حكومة جلالة الملك على ما ذكرته في برقيتك بالأمس وهو أنك ترى أن تخبر درويش باشا في حالة ما إذا أدت الفرودة إلى ضرب الأسكندرية بأنك تلقى على عاتقه سلامه الخديو الشخصية »^(٢) .

ولست بمحاجة إلى التعقيب بكلمة واحدة على كلام الخديو ، فما يأتى كلام أصرح من كلامه في موقف بهذا الوقف وبخاصة قوله « إنه كلما كان الفراغ من الأمر كله أسرع قل الخطر الذي يتعرض له شخصياً »

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٠٢

ولسوف يزداد شأن توفيق وضوحاً فيما يأتي من الحوادث إن كان شأنه يحتاج إلى وضوح ...

* * *

لم يكن هذا التحرش السخيف من جانب سيمور ليطرأ على بال أحد ، وبخاصة لانقاد مؤتمر الآستانة والتخاذله قراره بدعوة السلطان إلى إرسال جيش إلى مصر ؟ لذلك لم تأخذ وزارة راغب باشا أهابتها لتفويمية مدفمية الأسكندرية وإعدادها للقتال كاذع الأنجلزي من مزاعم اخذهوها ذريعة لعدوانهم ...

وأراد راغب باشا أن يتلاطف الخطب بكل ما في وسعه فاستمع عقب تلقى الإنذار يقنصل إيطاليا العام ليدعو زملاءه القنائل اجتماعه السعي لدى سيمور عسى أن يرجعوه عن عزمه ؛ واجتمع القنائل ولكنهم لم يستطعوا عمل شيء لأنهم كانوا على يقين أن ضرب الأسكندرية غداً أمراً مقرراً ...

وأشار القنائل على راغب أن يذهب بنفسه لمقابلة الأدميرال ، فتوجه يصاحبه عبد الرحمن رشدي باك وزير المالية وبحران باك سكرتير مجلس الوزراء ، وقابلوا سيمور على ظهر البارجة إنفسقبل فوجدوا منه إصراره على إنذاره فأعلنه لهم سيرسلون ردتهم في المساء ؛ وتوجه راغب باشا لمقابلة الخديو ...

وعقد الخديو مجلساً من الوزراء وكبار رجال الدولة شهدته درويش باشا ، لينظروا ماذا يكون جواب الحكومة على إنذار سيمور .

وبعد أن تداول المجلس طويلاً انتهت أغلبيته إلى رفض ما طلب الأدميرال ؟ وكانت المادولة في أمرتين : هل قبل مطالب الأنجلزي بمحبباً للمدوان ، أم هل رفض إبقاء على الكرامة القومية وتفاديها للمذلة ؟

وكانت حجة الفائلين باختيار الرأي الأول أن المحسون ضعيفة لا تجدى مقاومتها ، وأن الحكومة أخذت على غرة فلم تأخذ للأمر أهابته ؛ وكان أصحاب الرأي الثاني يقولون إن المدوان واقع لا محالة سواء قبلت مطالب الأنجلزي لم تقبل ، فلن يعجز الأنجلزي عن تحرش من نوع آخر ...

ورجح وأى الفريق الثاني ؟ ييد أن الوزارة رأت أن تسلك سبيل المحكمة حتى آخر لحظة ؛ يقول عراي في مذكرة « تقرير بالجلس المذكور بأنه لا يمكن إجابة طلب الأميرال المذكور لما في ذلك من الخزي والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد حيث أن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما أنشئت إلا لحفظ التهور والمساكر ما وجدت إلا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياده ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم ثم رد طلب المدو الطامع في بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الخرية إلى آخر رمق من حياتهم دفاعاً عن شرف الوطن . ولكن قفلا لباب الشر وقطعاً لاحتتجاجات الأميرال سيمور رئيس الدونمية الأنجلزية روى أن يرسل له وفد مركب من عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وقام بasha وكيل البحريه السابق ومحمد كامل بasha وكيل البحريه حينذاك وبحران بك باشكتاب مجلس النظار ويتطلقو معه في المقال ويوضحوا بأن المصريين ليسوا أعداء للأنجليز وأنه لا يمكن سد البوغاز بالأحجار كاقيل وأنه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالأحجار عند شروعها في العمل إن وجدت ... وأما إزال المدافع فهو أمر لا يمكن قوله لما فيه من مخالفة قوانين البحريه ولما يتبع ذلك من الآهانه والذلة . وإنما يمكن إجابة لطلبه وفضلاً للأشكال تنزيل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى أحددها طابية المكس والثانية طابية صالح والثالثة طابية برج السلسلة وأن يكتفى بذلك رداً لشرف الدونمية كما يزعم ... فذهب الوفد وبلغ الرسالة ثم رجع وأخبر بأن الأميرال المذكور لم يقبل ما عرضه عليه وصم على وجوب إزالة جميع المدافع كما طلب ، وإنما تذكر بأن عاصي عساكره البحريه من معاناة مشقة إزالة المدفع ومخرب الطوابى وسمح لعصاكره المصريه بأن يمانوا هذه الأعمال ويخربوا معاقلهم بأيديهم وزاد على ذلك أنه يطلب من الحكومة أمراً صريحاً بأعطائه طابية المكس وما وراءها من الأراضي وطابية المعجمي وطابية باب العرب لأخذها ممسكاً

للسـاـكـرـ الـأـنـجـيلـيـزـيـةـ وـأـنـهـ إـذـ لمـ يـجـبـ إـلـىـ طـلـبـاتـهـ المـذـكـورـةـ باـشـرـ القـتـالـ عـنـدـ طـلـوـعـ الشـمـسـ فـيـ يـوـمـ غـدـ».

ويؤيد ما ذكره عرابي ما أوردته اللورد تشرشل في اتهامه عن هذا الموقف فقد أثبتت نص برقيه لراسل المانشستر جارديان يذكر فيها أن الخديو عقد مجلس الوزراء برياسته في اليوم العاشر من يوليو ، وكان عرابي غائباً عن هذا المجلس وقد قرر المجلس أن يرسل رئيس الوزراء إلى سيمور يعرض عليه إزالة ثلاثة مدافن إما من حصن واحد وإما من ثلاثة حصون ، وإبقاء على علاقات المودة بين الحكومة المصرية والأمبراطورية البريطانية ؛ وكلف الخديو رئيس الوزراء بأن يكتب بهذا إلى الأدميرال فإذا رفض وأصر على ضرب المدينة فإن الحصون لن تخيب إلا بعد الطلقة الخامسة من البوارج ، وبعد ذلك يحكم الله ينتا وينهم وهو خير الحاكمين «^(١)».

وأرسل الوزراء في المساء الرد الآتي على الأنذار النهائي «لم تأت مصر شيئاً يقضى برسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تتمل السلطة المدينة ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأمير إلا إلا بعض إصلاحات اضطرارية في أبنية قديمة ، والطوابق الآن على الحالة التي كانت عليها عند وصول الأساطيل ؛ ونحن هنا في وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتيخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الأنجلizية أنها باقية ينتا ، ومصر الحريصة على حقوقها الساحرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدحع ولا أية طامية دون أن تذكره على ذلك يحكم السلاح ، فهي لذلك تحتاج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التي تنتجم إما من هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدفع على الأمة التي تندف في وسط السلام القنبلة الأولى على الأسكندرية المدينة المادئة مخالفة بذلك لا حكام حقوق الإنسان واقوانين الحرب».

وتذهب الأدميرال المظيم لضرب المدينة ، ويجدر بنا قبل أن نصف هذه المأساة الشنيعة أن ننظر ماذا كان موقف فرنسا وقد كان لها أسطول بالاسكندرية ، ثم ماذا كان موقف تركيا وكان لها الحق في مصر ...

فاليوم الرابع من شهر يوليو أبلغ اللورد لا يورز سفير إنجلترا في باريس المليون دى فرسنيه ببا التعليمات التي أرسلت إلى سيمور قبل ذلك بيوم باستعمال القوة ضد قلاع الأسكندرية ؟ وسأل السفير المليون فرسنيه عما إذا كانت فرنسا سترسل مثل هذه التعليمات إلى الأدميرال كوزراد .

وكان كوزراد قد أبلغ حكومته مارأى وما علم ، وقد قرر كما أسلفنا أنه لم يكن هناك أعمال في الحصون كما ادعت إنجلترا .

وعقد فرسنيه مجلس الوزراء ، ولم تكن فرنسا رسمت لنفسها خطة بشأن هذا التحدي المفاجيء ، ولم يدر بخلد فرسنيه أن تجبر إنجلترا على هذا العمل مهما بلغ من تطلعها إلى الانفراد بضرب مصر ، وذلك لأن المؤخر قائم في الآستانة يدرس كيف يكون التدخل في شؤون مصر ؟ وكانت تظن فرنسا أنها بهذا المؤخر الذي اقترحته قد أخذت السبيل على إنجلترا بجعل المسألة المصرية مسألة دولية .

وكذلك كانت فرنسا مطمئنة إلى أن الطرف القاهرة الذي أضافه دوفرين إلى مقترح السفير الإيطالي لم يظهر بعد ، وليس في شؤون مصر ما يدعو إلى القلق ، وقد كان فرسنيه يقظاً إلى أن الأنجلترا يبالغون في تصوير ما يزعمون من سوء الحال في مصر ...

وقرر مجلس الوزراء الفرنسي لسوء حظ مصر الامتناع عن مشاركة إنجلترا فيما هي مقدمة عليه ، وذلك لأن هذا العمل بعد خروجاً على مؤتمر الآستانة ، وهو يجر إلى اعتداء لا موجب له على مصر ولا يمكن عده عملاً دفاعياً ؛ هذا إلى أن الحكومة لم تعرض الأمر على مجلس النواب الفرنسي ، ولا يمكنها أن تدخل في حرب بدون إقرار هذا المجلس .

وكتب دى فرسنيه إلى السفير الفرنسي بلندن ليخبر الحكومة الأنجلزية

بقرار مجلس الوزراء الفرنسي وبأنه أرسل التعليمات للأدميرال كنراد أنه إذا أمر القائد الأنجليزي على ضرب الأسكندرية فعليه أن يغادر الأسكندرية بالأساطول الفرنسي ويرسو قرب بور سعيد .

وهكذا تخلت فرنسا السبيل لأنجليز لتنفرد بضرب مصر ؛ وكم لحقت مصر النكبات من جراء ضعف السياسة الفرنسية ؛ وما نهى مصر أن فرنسا بعد أن شدت أزر محمد علي وأغرته زماماً بالوقوف في وجه إنجلترا تخلت عنه أمام تهديد بالمرستون وتركته ينهار وحده ...

الحق أن فرنسا كانت تقطن إلى أن إنجلز ترید أن تنفرد باحتلال مصر ، ولم تأنس فرنسا في نفسها القوة لتناوىء إنجلز متأواة فعلية مخافة أن يدب الخلاف بينهما وألمانيا التي ضربتها تلك الضربة القاصمة منذ اثنى عشر سنة في حرب السبعين لم تزل لها بالمرصاد ؛ ولم يزل بسمارك يرمي إلى إضعاف فرنسا حتى لا تنهض من كبوتها فتثار لما لحقها من هوان .

لهذا تناقلت فرنسا على كره منها وأفسحت السبيل لأنجليز لاحتلال مصر فأضاعت بذلك جهودها الدبلوماسية الماضية جميعها في عرقلة السياسة الأنجلزية ...

أما تركيا فقد تراخت وتهاوت في الأمر وأظهرت ضعفاً وترددًا وحيرة هي خلية بدولة مثلها قامت على القوة والدشائس وعدم الوسائل الدبلوماسية الصحيحة في اليوم الثامن من يونيو أبرق دوغرن إلى جرانفل يقول «أشرف بأخباركم أن وزير خارجية تركيا قد خرج لتوه من عندي ، وجاء يتوصى لاعتبارات إنسانية أن تطلبوا إلى الأدميرال سيمور ألا يفعل شيئاً ي明珠 الأزمة في الأسكندرية ؟ وأجبته أن الأمر كله بيد السلطات المصرية هناك ، وما عليهم إلا أن يعملا حسب ما طلب إليهم وبذلك فلن تطلق قذيفة واحدة ؛ ولاحظ سعادته أنه ربما كان فيهم بعض ذوي النزق والحق ؛ فقلت لهم لم يذهب السلطان بجنوده إلى هناك ليجبرهم على النظام ؟ ثم ذكرت له أنه إذا استطاع أن يدع لدى من الضمانات ما يؤكّد لي أن السلطان سي فعل كما أردنا ، فإن ما أدى به إلى تفاقمكم بشأن مقترحاته سوف

يلقى منكم الاعتبار الودي ؟ فحين أن مجرد طلبه الذى أراد أن أبلغه إليكم لا يكون له الآخر المطلوب طالما أنه لا يقوم على شيء ؟ فقال إنه لا يملك أن يعطينى أى تأكيد فأن المسألة تدرس الآن وأمله أن يستطيع يوم الاثنين أن يفضى إلى بشيء ... ولم يقل أكثر من ذلك ... ولما لمحت على سعادته قال إن عرائياً أخذنى سبيل العناد والواضح أنه لا بد من عمل شيء »^(١).

ومن هذه البرقية يتبعنا مبلغ ما في السياسة التركية من حيرة وتردد
وما فيها من ضعف يتجلّى في هذا التوسل باسم الإنسانية ؛ وترىنا هذه البرقية
الهامة كذلك مبلغ ما في السياسة الأنجلو-أمريكية من لوم وكذب ؛ فإن استعداد
الأنجليز للرجوع عن ضرب الأسكندرية إذا عمل السلطان كما يحبون فيه أبلغ
دليل على أن خوفهم من أعمال التحصينات الزعومة وعدم ذلك ظرفاً قاهراً
للتدخل كان من أخف الأكاذيب وأحطها ؛ وأن ضرب الأسكندرية كان نية
مفروغة منها ...

وفي اليوم العاشر من يوليو أبلغ دوفرن حكومة تركيا ما يأتى « تنشرف سفارة حكومة جلاله الملك بان تخبر حكومة الباب العالى بأنه بناء على استمرار السلطات الخيرية في مصر في تسليح الحصون بالاسكندرية ، فإن الأدميرال الانجليزى سوف يعلن هذا الصباح أنه ما لم تسلم الحصون مؤقتاً بقصد تجريدها من السلاح فإنه سيطلق مدافعه بعد أربع وعشرين ساعة »⁽²⁾ .

وأبرق في نفس اليوم إلى حكومته يقول «أنشرف بأن أخبركم أنى ناشدت
السلطان للمرة الأخيرة بكرة هذا الصباح ، وأخبرته أن ما تلقت به حكومة جلالة
الملك تأكيداته من اقتناع قد قضى عليه قضاء تاماً بسبب مسلكه بعد ذلك .
وأجاب السلطان أنه سوف يرسل إلى في الساعة الخامسة من صباح الغد إجابة
مبوبة على رسالتي ؛ وفي نفس الوقت طلب أن يؤجل ضرب السكندرية فأجبت

(١) مصر رقم ١٧ ص ٤٠

(۲) ص ۱۲۱

جلالته ردًّا على ذلك أني سأبلغ خامتك رسالته ؛ ولكن إذا رفضت الشروط التي طلبها الأدميرال سيمور — تلك الشروط التي بلغتها الوزير صباح اليوم بناءً على توجيهكم — فإنه لا يبق لدى أمل في تعديل آتجاه ما اعتُزم عمله^(١) . وفي نفس اليوم العاشر أبرق جرانشل في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر إلى سفارته في باريس وبرلين وفيينا وروما وبطرسبرج والآستانة ، ليبلغ كل منهم الدولة التي يوجد بها أن «المسلك الذي سلكه أدميرالنا لم يكن إلا عملاً مشروعًا لا أقل ولا أكثر للدفاع عن النفس ، وأن عمله ، إذا أدى سوء الحظ إلى العمل ان يكون رائده غير هذا دون أن يكون لنا أي مأرب خفي ؛ ولقد تبين من تقريره أن السلطات في الأسكندرية مستمرة في تدبيراتها العدائية على الرغم من أوامر السلطان ومن رغبة الخديو ، ومما ذكروه لنا صراراً من تأكيدات».

وأضيف إلى هذه البرقية عبارة لدوفرن خاصة وهي : « وإننا نعتقد أننا نعمل وفق مصالح السلطان المفهومة حق الفهم ، وقد أغفلت سلطنته في مصر»^(٢) . وللقاريء أن ينظر فيها في هذه البرقية من حججة الدفاع عن النفس ومراعاة مصلحة السلطان ، واستمرار السلطات في الأسكندرية في تدبيراتها العدائية ، ليرى مثلاً رائعاً للسياسة الأنجلو-إيزدية كيف تلجمـاً إلى الكذب الصريح في سبيل تحقيق أطماعها الاستعمارية ! ...

وفي اليوم الحادى عشر ، وهو اليوم الذى حدث فيه الضرب ، أبرق دوفرين إلى جرانشل في الساعة الرابعة صباحاً يقول : « حضر إلىَّ الآن سعيد باشا وزير الخارجية ليسعني ذكره المرسلة مع هذا ... وليخبرنى أنه فى المساء يستطيع أن يقترح علىَّ حالاً معقولاً للمسألة المصرية ؛ وقد طلبت إليه إيضاحاً ؛ فقال : إن كل ما عنده الآن أن الحل سيكون معقولاً ؛ فقلت إنه لا مجرد دخول عضو تركى في المؤتمر ولا مجرد الموعد إلى دعوة عرابى باشا إلى هنا يكون حالاً معقولاً ، فعاد

(١) ص ١٢١

(٢) ص ١١٤

يكرر قوله إن الحل سيكون معقولاً . ورجاني أن أرسل إليكم وإلى الأدميرال سيمور ما سلف في الحال ومشفوعاً بتوصية بقصد تأجيل الأنذار لكي يدع ذلك متسعًا من الوقت يسمح بأن تصل رسالة أخرى من الباب العالى إلى خامتكم ؛ فقلت إنى لم أمنج سلطة التدخل في عمل الأدميرال سيمور ، وأن عبارة الحل المقصود من المفهوم بحيث لا تدع لي أكثر من أن أعيد لفخامتكم ما قال بنصه ؛ وأضفت إلى ذلك قولي إنى على أى حال سوف أرسل إلى السير بوشامب سيمور صورة برقية لمذكرة الباب العالى ولما طلبها مني أخيراً ، مقترحاً أنه في حالة ما إذا كانت التعليمات المرسلة إلى الأدميرال تسمح له بالتأجيل ، أن يؤجل سعادته الضرب ثلاث ساعات أو أربع ابتداءً بإساح الوقت لتصل إليكم رسالة الحكومة الهمانية إذا كنتم ترغبون أن ترقيوا عليها عملاً ... وقد جرئت على أن أين لسعيد باشا مبلغ ما كان في التراخي الدبلوماسى من حق وبين أيدينا مسائل عظيمة كهذه حتى أصبح من المستحيل مادياً أن تتدخل في مجرى الحوادث »^(١)

أما مذكرة الباب العالى فهذا نصها وكانت بتاريخ اليوم العاشر « ردًا على المذكرة الشفوية لسفارة صاحبة الجلالة البريطانية بتاريخ ١٠ الحال والتي تلقاها الباب العالى بعد ظهر اليوم نفسه ، تشرف وزارة الخارجية بأخبار السفاره أنه وفقاً لتفاوض أرسل اليوم من الخديو والماريشال درويش باشا ، قد أعلن سموه والحكومة المصرية أدميرال الأسطول البريطاني بالاسكندرية أن السلطات المحلية سوف لا تتعرض بمقاومة في حالة ما إذا أقدم الأدميرال على الضرب »^(٢)

ومن الجلى أن عملاً كهذا إذا وقع يؤدي إلى افتیات خطير على الحقوق الملكية لصاحب الجلالة الشاهانة السلطان وعلى مصالح الأقباط . وإن الحكومة الشاهانة لواقة من أن مجلس وزراء سان جيمس إذ ينظر إلى ما ذكر نظرة

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٢٢

(٢) يشير إلى أن الرد على الأنذار النهائي يكنى بالفاء تبعه الضرب على الأنجلز دون أن يذكر عدواً بعده

الاعتبار الجدي يتخذ الخطوات التي تؤدى إلى أن ينصرف الأدميرال سيمور عن أي عمل من طبعه أن يفضي إلى مثل هذا الوضع النهائي وأن يرسل إليه التعليمات بهذا المعنى . وإن الحكومة الشاهانية على أي حال سوف تترسخ بأخبار سفارة صاحبة الجلالة البريطانية عن القرار الذي ربما وصلت إليه غداً الثلاثاء في الليل بشأن رسالة السفارة السالف الأشارة إليها بأعلاه هذا ؛ وبشأن البرقية الواردة من الخديو والmarshal .

وإن الباب العالى ليرجوا من مجلس وزراء سان جيمس أن يتكرم بسرعة بإرسال التعليمات بما طلبنا أعلاه إلى الأدميرال ^(١) هذا كل ما فعلته تركيا ولا نجد في المكاتب الدبلوماسية أسوأ من هذه البرقيات التي تنطق بالخيزة والضعف والتسويف والارتباك ...

* * *

كت مصر وحدها تتلقى ضربات الاحتلال الأولى ممثلة في الاعتداء الآم على الإسكندرية ؟ وسوف يبذل الوطنيون ما في وسعهم تلقاء هذا الاعتداء وإن كانوا ليوقنون أن قوتهم المادية أضعف كثيراً من قوة أعدائهم ؛ ولكن الحر إذا وجد نفسه في موطن يؤمن فيه أنه هالك لا محالة كان عليه أن يبذل ما في وسعه من مقاومة أفقها منه وحفظها ...

ولكننا والأسف يعلا نقوتنا سنجد أول خطوة من خطى التخاذل في مسلك الخديو توفيق منذ يبدأ الفوضى وسوف يكون لسلكه بعد هذا أبعد الاثر في بث روح التردد والانقسام حتى يفضي الأمر إلى المزعنة ؛ وعلى الذين يعنون بتاريخ مصر أن يذكروا أن وجود توفيق باشا على رأس حكومة مصر يومئذ كان العامل الجوهرى في نجاح مدبرى الاحتلال ...

ثم انتقل الخديو في عصر اليوم العاشر من يوليو من سرائى رئيس الدين فى موكيه الرسمى إلى سرائى الرمل ، وسيبقى بها حتى يقع الفوضى وينتسب عاقبته ثم

يعود إلى رأس التين حيث يتلقاه سيمور وبعد له ترجمانًا يلزمه ويضم البوارج
على مقربة من القصر لحاليته .

وكان كارتريت قد أشار عليه قبل ذلك الحديث الذي أفضى به إلى كافن ، بأن
يأوي إلى إحدى سفن الأسطول ولكن رأى أن الوقت لم يحن بعد لهذه الخطوة
الجريدة ، كأنه كان في شك من العاقبة ...

يقول الشيخ محمد عبده « ١١ يوليه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو
قال له : ما مصير الأسكندرية لو ضربها الأنجلترا ؟
فأجاب الخديو : ستين سنة ... وهز كتفه .

فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الأمير ال ،
والوقت لم يزل يسمح بذلك ؛ استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده
من الرجال الكفاية ...

فأجاب : فلتتحرق المدينة جيئها ولا يرق فيها طوبة ؛ حرب بحرب ؛
كل ذلك يقع على رأس عربي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق
الأروبيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب ...
الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا
واختفوا » (١) .

ويقول بلنت في كتابه بعد أن ذكر ما أفضى به توفيق إلى كافن « كان هذا
هو البرنامج الذي سار على وفقه الخديو ولم يخرج عنه إلا في أنه لم يذهب إلى
قصر محمودية وإنما ذهب إلى سراي الرمل على ثانية أميال من الأسكندرية وهو
مكان أكثر أمنًا في حالة إطلاق النار من مدفع سيمور .

وبعد الحرب بزمن قصير وقفت بطريقة غريبة على سبب تردد توفيق وذلك من
مصدر له معرفته الوثيقة ، ولم يكن هذا المصدر غير اللورد شارلس برسفورد نفسه
الذي قاد السفينة كندور من سفن الدفعية بالأسطول وقت الضرب والذي صار

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

ماريشال الأسكندرية بعد ذلك ؛ فقد ذكر لي أن الخديو في لحظة من لحظات الصراحة غير عادية شرح له سبب بقائه في المدينة أثناء الفرب . ولم يكن ذلك سوى أنه كان في حيرة شديدة أى المغاربة سيثبت أكثراً من خصمته قوله ؟ فقد كان الرأي السائد في مصر أن السفن سوف تفرق ، ولقد ظل الخديو في حالة من الشك الباعث على الذعر طول نهاره في الرمل حتى لقد كان يهرب إلى مسطح القصر كل نصف ساعة ليرى ماذا كان من أمرها ؛ ولما أن تبين في المساء أنها ظلت سليمة وأن الحصون قد أُسكتت ، عقد العزم عند ذلك فقط على أن يضع نفسه تحت حماية سيمور ... وقد أدت تجارب برسفورد في الأسابيع التي قضتها بالأسكندرية إلى أن ينظر نظرة الاحتقار إلى توفيق ، وأن يشعر بشيء من المطاف على عربى والفالحين الذين هم ضوا بأعباء الحرب على الرغم من انشقاق أميرهم ^(١)

* * *

في الساعة السابعة من صباح اليوم المشؤوم ، الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ؛ أطلق الأدميرال العظيم السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على مدينة الأسكندرية ، باسم الدفاع العادل المشروع عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغي الأكبر ، وليس فيها دولة يتّقى تضليلها مما تسببه إنجلترا على الحركة القومية القائمة على السلام والدستور في مصر !

كانت حصون الشاطئ معدة من ناحية المجمع في الغرب إلى أبو قير في الشرق وكان عددها نحو عشرين حصناً أو طابية كما كانت تسمى ويدخل في ذلك اثنان في داخل المدينة هما كوم الناضورة وكوم الدكة ...

وإذا استثنينا الحصين الأخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباى وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر كانت بقيمة الحصون من منشآت محمد على ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت إلا بعض إصلاحات أدخلها عليها إسماعيل ، وكانت مدافعتها وتبلغ تسعه وعشرين ومائتين ، قدية الطراز ضعيفة ، قريبة المرمى ،

(١) S. H' Blunt, P. 380.

ولو لا أن إسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفأً من المدفع القوية من طراز
أرمسترينج ما صلح فيها للدفاع من شيء ...

وكان الأسطول البريطاني مكوناً من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس مدففيات
وسفينة للطوربيد وأخرى لأعمال الكشف؛ وكانت مدفع الأسطول ويبلغ عددها
سبعين من النوع الضخم القوى من طراز أرمسترينج ...

والمروف في الحرب البحرية أن من أكبر الأخطار تعرض السفن للقلاع ذات
المدفع القوية، فشتان بين ما يستند إلى الماء وبين ما يستند إلى الصخر؛ هذا إلى ارتفاع
القلاع وتمكنها وصلتها بما تطلب من العتاد والرجال ...

ولكن للسفن ميزة عظيمة على القلاع الضعيفة المدفع، فإن السفن تستطيع
أن تجتمع فقد كلها بعد قلعة، في حين أن القلاع لا تستطيع أن يدفع بعضها عن
بعض ... وكذلك كان الحال مع شديد الأسف في قلاع الإسكندرية ...

وكان آلاي طوبجية السواحل يتالف حسب الاحصاء الرسمي من اثنين وستين
وسبعين ألف رجل مابين ضابط وصف ضابط وجندى، وكان يقودهم الأمير الآلى
إسماعيل بك صبرى ... ولكنهم يوم الغرب كانوا دون ذلك كثيراً فقد ذكر
عرابى في مذكرة أنه كانوا لا يزيدون عن سبعين

وكان بالمدينة من قوات الجيش أربعة آلات، يكون اثنان منها اللواء الثالث
ويرأسه خورشيد باشا طاهر تحت قيادة الفريق إسماعيل باشا كامل؛ ويكون الباقيان
اللواء الثاني بقيادة طلبة باشا عصمت قائد حامية الإسكندرية؛ وكان مجموع هذه
الآلات اثنتي عشر ألفاً من المشاة ...

أصدر عرابى باشا تعليمات إلى صبرى في الليلة السابقة للصباح المشؤوم وأعلمته
أن مجلس النظار قرر لا يحجب الحصون إلا بعد الضربة الخامسة من الأسطول؛
وزع صبرى ضباطه على الحصون استعداداً للمعركة؛ وكان يعاونه وكيله محمد بك
نسم الذى وكل إليه سرى الدفاع عن الحصون الغربية ...

وكان عرابي ليتند بالترسانة يصحبه محمود فهمي باشا وطلبة عصمت باشا
ومحمد كامل باشا وكيل نظارة البحريه ...

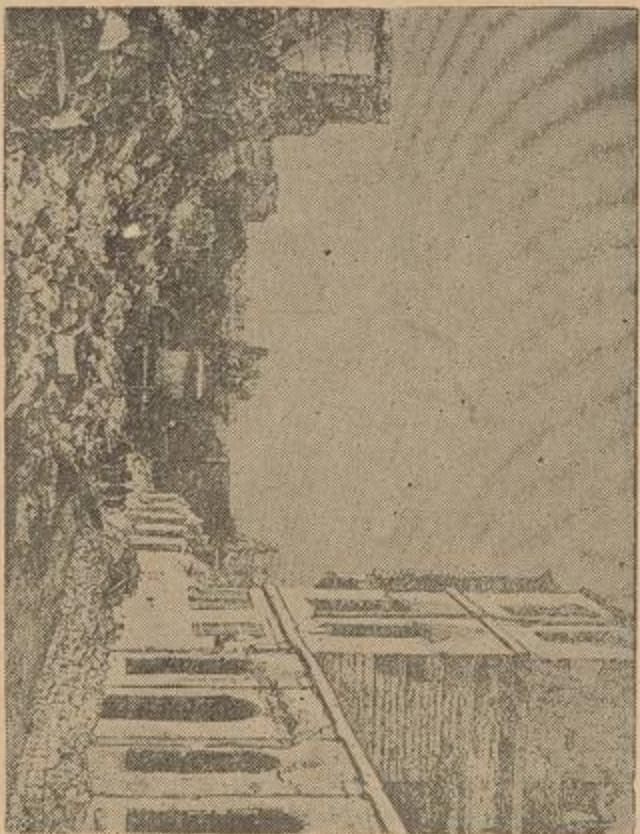
وزرع عرابي حامية المدينة وراء الحصون من قلعة المعجمى إلى برج السلسلة
وعهد إلى أورطين من الفرسان بالراسلة بين الحصون ...

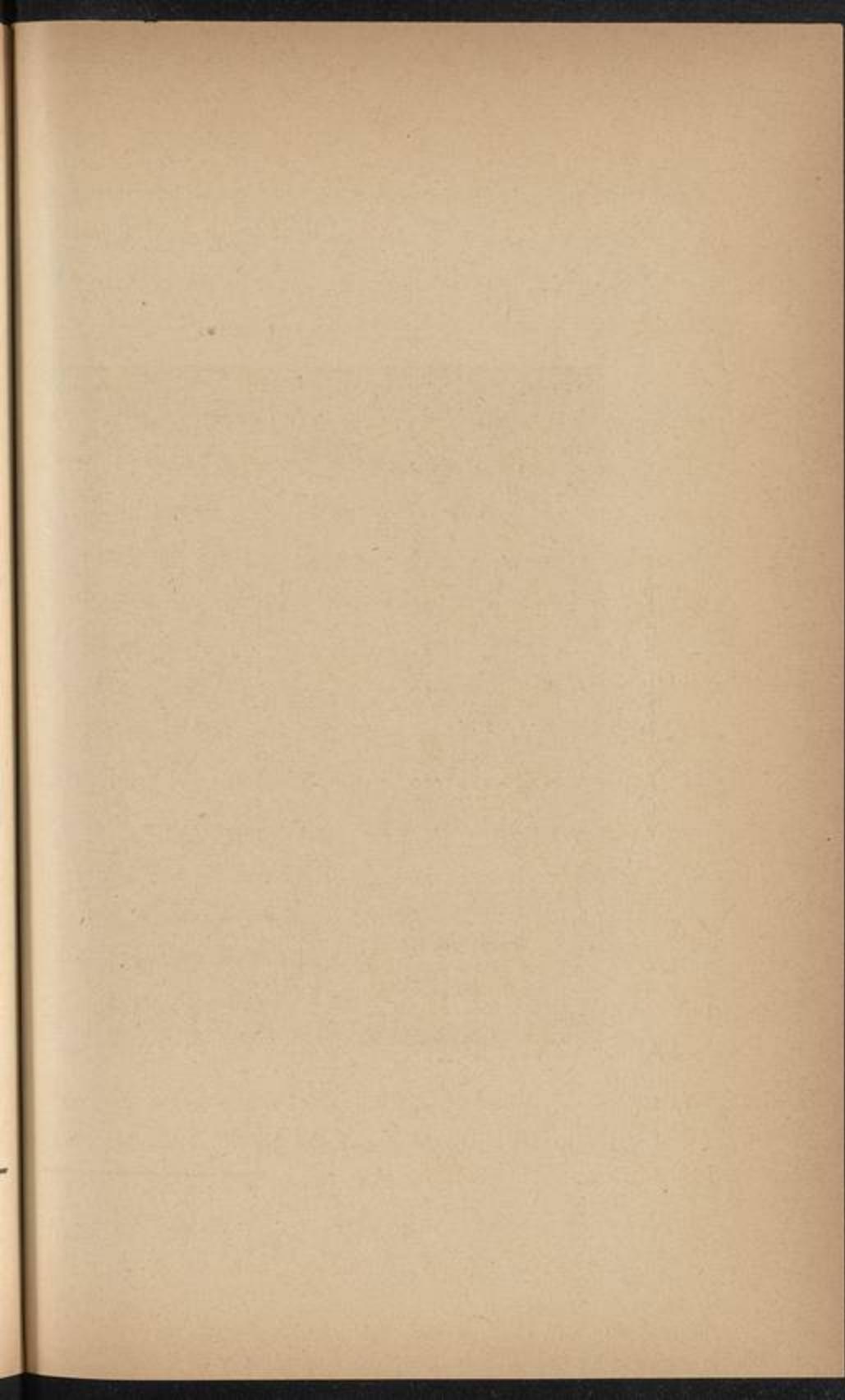
أجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ؛ وأمامات آلاى السواحل
في الدفاع وأبدى همة ونشاطاً وحاسة وطنية شهد بها كثير من الأجانب ، وذلك
على الرغم من عنف المدفع الأنجليزية وشدة فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن
الأنجليزية في الابتعاد والاقتراء والاعتصام بدخان كثيف يغطيها أثناء الضرب ،
ومشباث قوية من الفولاذ كانت ترد عنها قذائف الحصون ...

واستمر الضرب من الجانبين حتى الساعة السادسة عشرة ، وكانت قذائف
الأنجليز تلقى النار الدمار على المدينة في شدة صروعة ؛ وسكتت السفن قليلاً ثم
استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر ...

قال صابونجي في رسالة إلى بنت يصف هذا الضرب وقد كان في سفينة على
مقرية من الأسطول « في صباح اليوم الثلاثاء عند الساعة السابعة تماماً انبعثت أول
طلقة على الحصون ، وقد كنت على ظهر السفينة سميد على مقرية من الأسطول
الأنجليزى ... غادر درويش الأسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر إلى حيث
لا يدرى أحد مكانه . ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا مع هذا الصباح وشهدوا
الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابي وأنصاره .
وعندما انبعثت أول طلقة تموجت في الهواء القبعات والمناديل والأيدي ، مشفوعة
بالهتفاف وعلامات الرضا . وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف
درجاتهم مهملين جذلين يتباون بسقوط الحصون في ساعتين ؛ ولكن شعورهم
بالخيبة ما لبث أن ظهر . الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران
من الجانبين ؛ وإن الدفاع يعد حتى الآن فائضاً . ولا يمكن لأحد أن يقول الآن ما عسى
أن تكون النتيجة ... أكتب إليك من ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب وأثبت

(الأسكندرية : مدينة النوبة)





كل ما أستطيع أن أراه؛ ولكن ماذا عسى أن يرى المرء خلال سحب كثيفة من الدخان إلا الرعد والبرق من الدافع ... لم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القنابل واقفين من عزم الجلالة على الحرب . ولم أكن أنا واثقاً من ذلك»^(١)
 واستأنف الأسطول الضرب بعد الساعة الثانية واستمر يرسل قذائفه المأهولة في شدة حتى منتصف الساعة السادسة ، أي قبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ثم نزل الليل وقد سكتت الحصون فلن تجib بعد ، إذ قد دمرتها مدافع الأسطول تدميراً ... وتهدمت في المدينة أبنية كثيرة ومساكن واحتراق بعضها ، وقد جرها كثير من أهلها منذ بدأ الضرب في هرولة ورعب ...
 وهكذا وقف المصريون وإن حاقت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة ، وليس يعارى أحد في أنهم فعلوا فعل القلة تجاهب من تکاروا عليهم حتى هلك أو ينثم سلاحها ..

وإنه لما يذكر في مواطن الفخر ما أظهروه نفر من أهالي المدينة من الجية والبسالة وبخاصة النساء ؛ وأشار إلى ذلك عرابي باشا في مذكراته فقال «وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدةهم في تقديم الذخائر الحرارية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضمين جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات» وقال الشيخ محمد عبده «تحت مطر السكل ونيران المدفع كان الرجال والنساء من أهالي الأسكندرية هم الذين يقلعون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنوون بلعن الأميرال ومن أرسله»^(٢)

وقال محمود فهمي باشا «ورأيت في ذلك الوقت بعئني ما حصل من غيره الأهالي بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابي باب العرب ، وتهتم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلهم المهمات والذخائر وخراطيش المارود والمقدوفات هم ونسائهم وأولادهم وبنائهم والبعض من الأهالي صار يعم المدفع ويضربها على الأسطول»^(٣)

(١) Blint, P, 556'

(٢) تاريخ الأستاذ الأمام ص ٢٥٠

(٣) البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر ص ٢٢٠

وقد وصف عراقي المركة في مذكرةه فقال « أطلقت ألسندرة مدفوعاً الأول في الساعة السابعة والدقيقة أربعة وكان مركزها في الطرف الشرقي من خط القتال موجهة نحو استحكامات رأس التين ... »

وبعد ذلك بخمسة دقائق بدت من جانب الانفسيبل علامة الحمل العام على استحكامات الأسكندرية فأخذت السفن مونارك وينلوب وألسندرة وسلطان وسورب تطلق مدافعها على بطاريات رأس التين وطامية الفنار ، فأجابتها القلاع بنار شديدة حامية ، وقد أصاب السفينة مونارك من أسباب الانقطاع عن إطلاق النار أكثر مما أصاب غيرها ...

وكانت السفن الثلاث ألسندرة وسلطان وسورب تنتقل على التماسك من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتطلق مدافعها على الاستحكامات إطلاقاً متواياً وتقدمت المدفعية سينت إلى جهة رأس التين وأخذت ترميها بالنار .

وكانت السفينة إنفلكسيل تطلق مدفعاً أحد برجهما على رأس التين والآخر على حصن المكس وحذت حذوها الدارعة يبنلوب وكذلك الدارعة تيرر . ولقد أصاب طامية المكس ناراً لا ينفي ولا تذر فتمطلت مدافعها ما عدا أربعة منها من الميار الأعظم فقد ثارت على روى سفينة الاميرال « انفسيل » وقد أحكمت مقدوفاتها إلى هذه السفينة جيداً . وفي الساعة العاشرة ونصف وقت قنبلة على مخزن البارود الكائن في طامية المكس فأشعلته وكان لدى التهاب صوت هائل .

ولما وصلت حال القتال إلى هذه الدرجة عمد حصن مارابوت^(١) إلى الاشتراك في الدفاع فوجه ناره على السفن الثلاثة التي كانت مستقرة فيما داخل المضايق فانسلخت المدفعية كوندور عن الدارعة تيرر لعدم احتياجها إليها وأندفعت نحو ذلك الحصن ترمي بهنارها فاشتبك بينهما القتال شديداً؛ وفي الساعة العاشرة ونصف قدم لنجدتها السفن يترن وي يكن ودكوي وسينت واستمرت على القتال حتى

(١) هو اسم آخر لقلعة المجمع

تعطلت مدافع الحصن المذكور ولم يبق منها غير مدفع واحد صالح للعمل ...
ثم اتجهت السفن الأربع المذكورة إلى ناحية الحصن واشتركت مع الدوارع
في تدميره فتركته أرضاً بعد عين ، وكذلك تقدمت السفن الكستندة وسلطان
وسورب على مسافة ٧٠٠ متر من حصن فاروس طاية أطه وأخذت في إطلاق
مدافعها عليها غير غافلة عن رؤى بطاريات رأس التين ببعض القنابل ...
وكان إسماعيل بك صبرى في الطاية أطه يدير حركة القتال في الحصين
المذكورين فصب على السفن السابق ذكرها من لهيب ناره ما اضطرها إلى طلب
النجدة من الدارعين إنفلكسبيل وتغريب وأبل في قتالها بلاه حسناً .

وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر اندفعت قبالة من السفينة إنفلكسبيل
نسفت مخزن البارود الكائن في حصن طاية أطه . وعند الساعة الرابعة خدت
نار الحصين المذكورين إثر تخريبهما وتعطيل أسلحتهما واستشهاد رجالها .
وفي الساعة الخامسة استألفت الدارعون مونارك وينلوب إطلاق الدافع على
حصن نابليون والاستحكامات الواقعة في داخل الميناء . وفي الساعة الخامسة ونصف
انقطعت النار عن خط القتال بناء على أمر الأميرال » ...

وقال يصف الدافع المصرية « ومن الأسف أن مقدوفات الدافع القديمة كانت
لا تصل إلى المراكب الأنجلزية ومدفع الأرمسترجيم لم يكن لها مساطر التي بها
تعرف المسافات وتحكم الأصابة بواسطتها الهم إلا مسطرة واحدة كانت في محل
التعليم بالعباسية (بالبوايجون) استحضرت ليلاً وسلمت إلى الشهيم القدام
سيف النصر يركب قومندان طاية الفتار فكان يطلق الدافع بنفسه وينتقل من محل
إلى آخر ويحكم الأصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظم الدوارع التي
تعطلت ، من جراء المقدوفات التي أحكم إطلاقها . ولو كانت مدفع الأرمسترجيم
كما ذات مساطر لا يمكنها تعطيل الدوارع الأنجلزية بما تقدّمه من المقدوفات
الصادمة » .

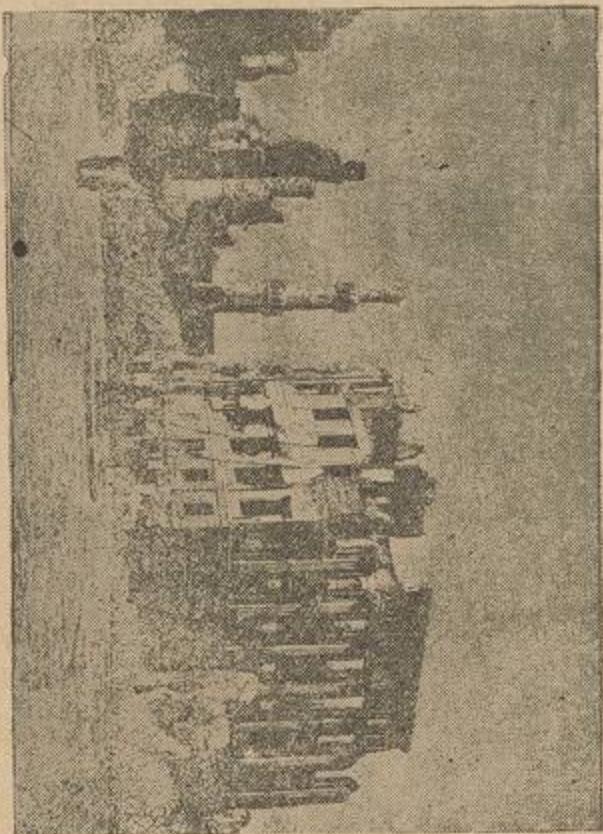
ووصف چون نينيه ماقوله الأدميرال المظيم في قوله « وكان رجال المدفعية
(م — ٢٢)

المصرية يطلقون قذائفها في إحكام وحاسة أدهشنا خصوصهم الذين ظل عملهم الجهنمي متصلة عشر ساعات ونصف ساعة ، دون أن يستطيعوا المباهاة بالنصر الحاسم ؛ وكانت تقطع المدينة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الآذان ... وكنا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدفع المصرية تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول ؛ وقد أدى رماة مدفع أرسنال محظوظ عليهم على خير ما يرجى وذلك على الرغم من أن مدافعتهم كانت أقل عياراً من مثيلاتها من المدفع الأنجلو-أمريكية وقد أصابوا سبع مدرعات إصابات بعضها خطير وبعضها ضئيل ...

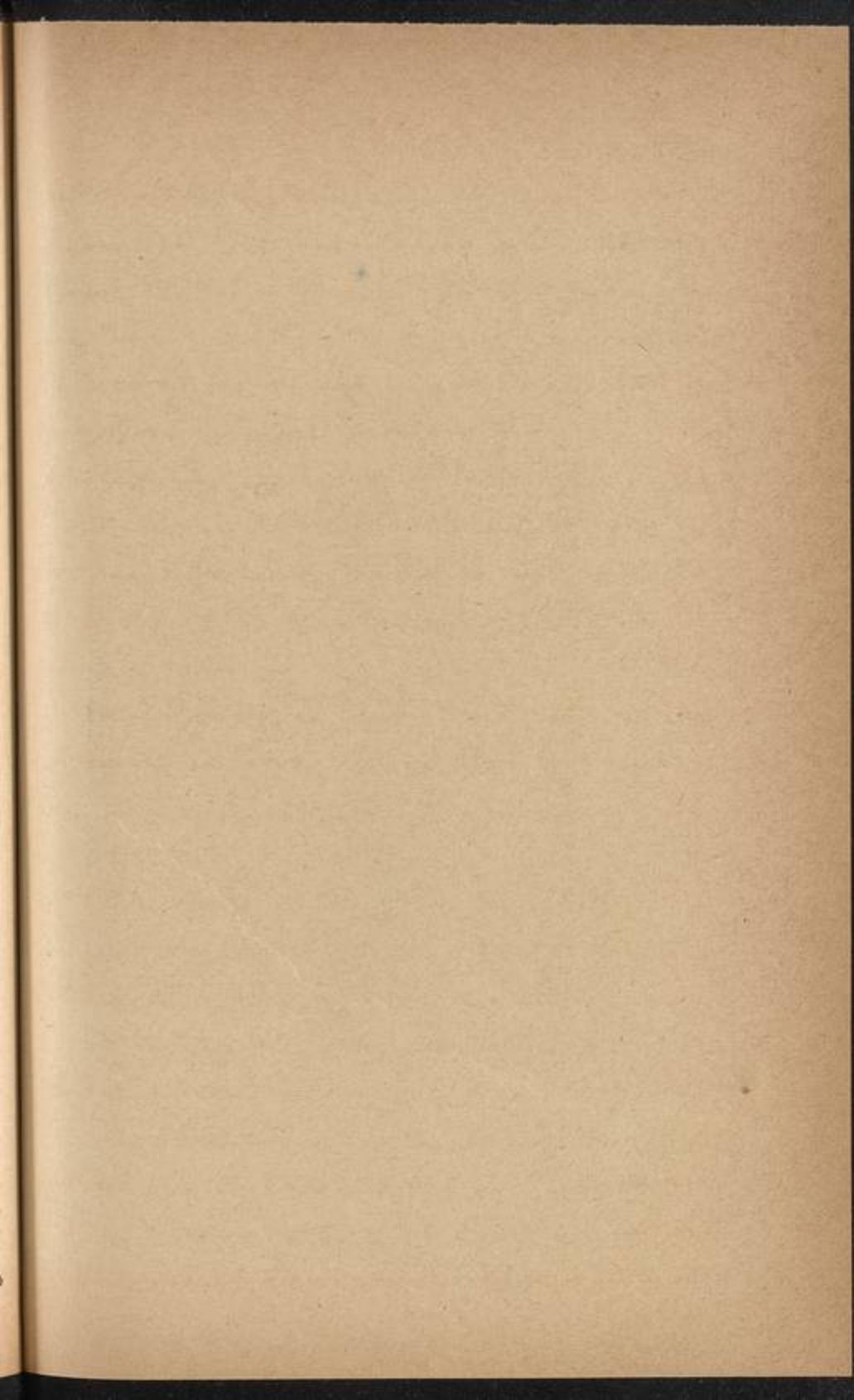
وكانت سفن الأسطول تجري هنا وهناك ترمي قذائفها وهي على مسافة بعيدة فتصيب الشاطئ ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولاً وتنزل ٤٨٠ رطلاً وتحتوى على ٣٧٠ رطلاً من البارود ، وكان ثمن كل واحدة منها سبعين جنيهاً ؛ وسقطت أولى هذه القذائف الضخمة في قلعة رأس التين دون أن تنفجر فظار إليها الجندي والضباط ، وقال أحد الضباط مشيراً إليها: هلم إليها الأخوان لتشهدوا مثلًا من إنسانية إنجلترا ؛ وقد أدى عبارته بلهجته تم عن الذكرة والساخرية ، وضحك إخوانه جميعاً ، وواجهوا ما يلقى عليهم باسمين .

وكانت السفن الأنجلو-أمريكية تسير متى شئ في تؤدة وروعه تجاه كل طالية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكاً ، وبعد ذلك تقترب منها شيئاً فشيئاً، وتنسف ما انقلب عن موضعه من المدفع بفعل قذائف الأسطول ، ثم تفتكت بالرجال فتسكان ذريعاً بنار الترليوزات المركبة في ساريات البوارج ...

ولا يسعنا إلا أن نعرف بأنها كانت مجرزة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة إلى الدماء . وكنت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين كانوا يضربون ويطلقون ترليوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون إلى بلادهم ويتحلقون حول موائد الشاي في يومهم أن يتخدلوا إلى ذويهم عمما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخرير ؟ إنى لقي شك من



(الأسكندرية الجديدة . شارع جمال عبد الناصر)



هذا ؟ فآية إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثار من مصر على هذه الصورة الفظيعة ؟
ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعيهم
الكسوة ، كأعماهم في استعراض حرب لا يخافون الموت الذي يحيط بهم ؛ وكانت
معظم الحصون بلا حواجز تقىها ولا مباريس ؛ ومع هذا فقد كنا نسمع هؤلاء
البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الأبطال الذين
سقطوا في حومة الموت ، قد بعنوا لينا ضلوا العدو وواجهوا نيران مدافعيه ؛ وكان
القادة يزورون الحصون ويستجحون الرجال ، وقد أدى الجميع واجبهم رجالاً ونساء
كباراً وصغاراً ؛ ولم تكن نعمة أوسمة أو مكافآت تستحق أولئك الفلاحين على
أداء واجبهم ، وإنما كانت تثير الحماسة في نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على
ما استهدفوا له من فظائع ، وهم في مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحد
فيما تحملوا من آلام ...

وقد بدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحاً ، وظللت عربات النقل
حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة إلى شارع محطة الرمل
حيث المستشفى العسكري ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغیر احتفال في القبار
المجاورة للمستشفى ...

وكان الجرحى ينقلون إلى المستشفى على عربات النقل . وكان مما يؤلم النفوس
حقاً منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرین أو ثلاثة قتيلاً من الأهالي أو الجندي
وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات ، والدماء تقطر من أجسادهم
وكان بعض الأمهات يختضن أبناءهن وهم يلطفون أنفاسهم وكان النسوة يجربن
جوعاً خلف العربات نادبات صائمات ، يلمن من كانوا سبب هذه المجازر ...

وكنت واقفاً عند منعطف «الأجيسيان بار» فرت أمامي عربتان تحملان
جثت القتلى ، ولتحنى النسوة هناك فصحن مولولات واستنزلن على المعنات ، إذ
كن يلعن كل إنجليزي وكل أوروبي ، وصرخن في وجهي قائلات أقتلن أبناءنا
وتغدرن على جثثهم ؟ أقتلوا هذا ، أقتلواه » ... وكاد يحيط بي لولا أن رأني

أحد رجال الأمن فأنقذني وعاد بي إلى داري ؟ وقد قل رجال الحفظ ولم أعد أدرى
أوروباً واحداً في الشوارع والخارات ، فقد خيم السكون الرهيب على هذه
الشوارع التي كانت من قبل عاصمة بالناس زاخرة بالحياة حتى غدت كأنما هي
شوارع مدينة أودي بأهلها الوباء ...

وكانت الدكاكين والتوافذ والأبواب مغلقة في المدينة كلها ، وخيّل إلى أنني
في بلدة محاصراً انفراط الأبدى ؛ وكانت قذائف الأسطول الضخمة تنصب على المدينة
وتخترق أحياها في كل جهة ، وكانت تدور فوق رؤوسنا وهي تدوى في صورة
مفزعه ، وكانت تدمي المنازل هنا ، وتشمل النار هناك وترسل الموت إلى كل مكان
وقد حشرت من فوق سطح المنزل الذى كنت أقيم به مجاهد حمامات كارنوبي
بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الإنسانية الغربية » على حد
تعبير أحد الضباط ؛ وأصابت إحداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض
قصور الأغنياء على مقربة من شارع باب شرق فهدمتها ، وقتل الخامسة
أحد عشر شخصاً وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يقابل هذه القذائف
الفتاكه شيء من جانب المصريين ، فقد رأى عرابي منها لآخر باب الاشتراك
قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة في الضرب لوجودها وسط المدينة ...

ترابط غربي القلعة وتقذف نيرانها من جديد على هذا البناء الذي هوت معظم مدافعته وانقلبت على الأرض ...

ولكن الأنجليز الذين خربوا قلعة برج السلسلة وقلعة كوم الدكة ولم تشتراك في الدفاع ، قد أرادوا كما يبدو لي هدم هذا المسجد الجليل .

ولم يسكت المصريون تلقاء هذه الوحشية فأطلقوا بعض القذائف من مدفعين كانوا لا يزالان قائمين في الجهة الغربية الشمالية من القلعة ... ولكن قذائفهم لم تجدهم شيئاً إذ قد أنصبت عليهم القذائف المائلة من السفن ؟ وقد أحصيت بنفسى اثنتين وثلاثين من هذه القذائف تصوب إلى هذا البناء الأعزل الجليل وقد طاش نصفها فلم يصب المدف عاماً ؛ وكانت معظم القذائف تصيب الصخور فتنفسها وتذريماً في الهواء ، ثم إذا بها تنصب في الماء وتبعد ثانية في دوى هائل فتبعد في الهواء عموداً من الماء كأنه إعصار بحري لا يقل ارتفاعه عن ستين قدمًا ... إلا ما أشد روعة هذا المنظر ...

وهو المسجد الصغير المسكين في منتصف الساعة السادسة مساء وقد تهدم كله ووسمت أنقاضه على اثنى عشر جريحاً كانوا يأوون إليه فدفنتوا تحته ... ولقد شاهدت عينضاري أولئك الجرحى التمساء وهم يأوون إلى المسجد حيث ماتوا . ولم يكن في الأمكان نقلهم إلى المستشفى العسكري بجاه برج السلسلة إذ كانت قذائف الترليوزات المدة للإجهاز على الجرحى تنصب منذ الصباح متصلة كالطار فتمنعن الصلة بين القلعة والأرض اليابسة على الرصيف الضيق الذي يصلها بالمدينة . وانفجر مخزن البارود في قلعة الأطنة بعد الظهر بوقت قصير فسكتت مدفع

هذه القلعة التي امتازت بقوتها في الدفاع ...

ووقف الضرب من جانب الأسطول في نحو الساعة السادسة مساء ، وقد بث الأدميرال سيمور الموت والدمار في أنحاء المدينة وهو الذي تعهد لا يضرب إلا القلاع ، ورأيت النيران تندلع ألسنتها في جهات كثيرة دون أن يقوى أحد على إخادها »

هذا ما ذكره جون نينيه السويسري المعايد الذى شهد الحوادث بنفسه ، وأهم ما جاء في كلامه شهادته ببسالة المدافعين وقوة روحهم المنوية على الرغم من تفوق عدوهم عليهم في عتاده ، ثم تقريره أن القذائف كانت تنصب على المدينة ذاتها وأنها أحدثت بعض الحرائق ؛ ولهذا القول أهميته ، لأن الأنجلترا الذين دبروا من قبل مذبحه الأسكندرية وأصقوها بمرابي وحزبه قد أحرقت قذائفهم المدينة اليوم فمادوا يتهمون بالحريق كذلك عرابياً ورجاله !

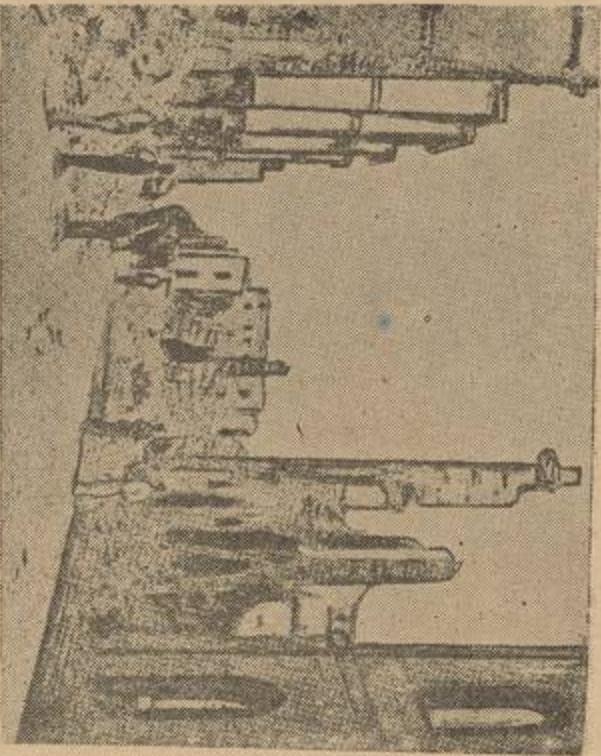
* * *

اشتد ذعر الناس حين سمعوا الدافع الراعدة ترسل صواعقها المدمرة على المدينة ولم يكن لهم عهد بعثل ذلك من قبل وتماظم الفزع حين مشت الشائعات بين الناس بما حدث من دمار وفتاك وحين رأوا العربات تحمل جثث القتلى والجرحى ، ورأوا سحب الدخان من المنازل والأبنية المحترقة تدفعها الرياح في سماء المدينة ، وزاد الأمر هو لا ما يصحب الأبناء من مبالغات في مثل هاتهك الأحوال ؛ على أن الهول في ذاته كان يغنى عن التهويل ، فحسب الناس أن تتتساقط القذائف عليهم من السماء فتصدر بيوتهم تدميراً ...

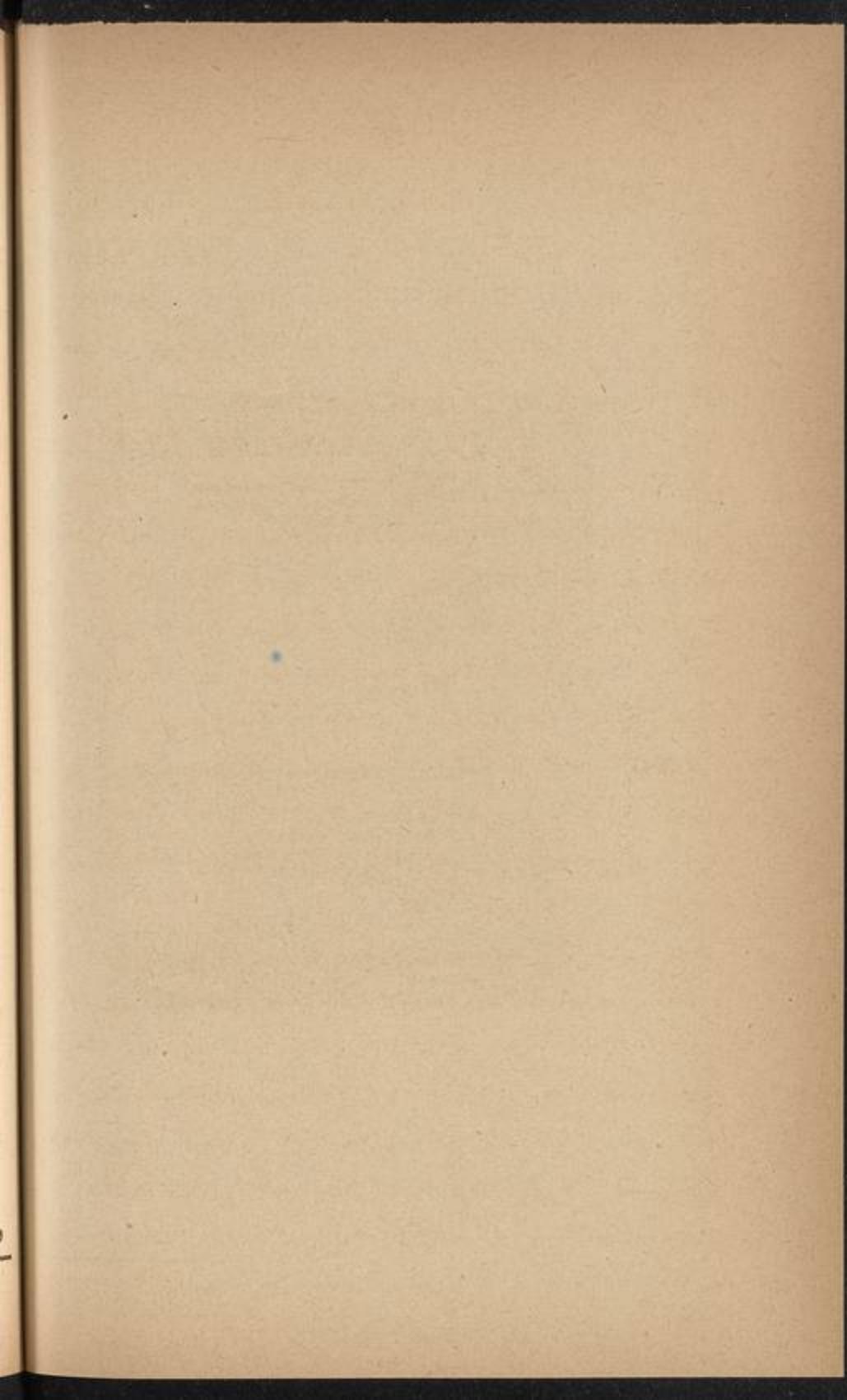
لذلك لاذ الناس بالهجرة فهربوا جوحاً إلى المحطة وتراجعوا على القطارات التي أعدت لنقلهم بالجان ؛ ولم يطق كثيرون منهم الزحام على القطارات بخروجوا من أبواب المدينة إلى حيث يتقدون عنها خسب لا يدركون أين يذهبون ولا يقدر بهم التعب من المشي عن طلب النجاة من الهول حتى نزلوا بالقرى والبنادر ، وبللت أفواج منهم القاهرة في حالة تبعث على الرثاء وتطلق عصى الدم ...

وقد وصف الشيخ محمد عبد هذه الهجرة وكان مع عرابي بالمدينة يوم الضرب فقال « نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان مجردین من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لأوى ؛ الموت والفزع ملء نفوسهم على شطوط محمودية إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة .

كانت المهاجرة تكون خطوطاً سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة



(الإسكندرية المعاصرة . شارع شريف)



في كل جهة ، أشبه بسلسلة إنسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يعشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرق تصاد مع سماء صافية وأرض خضراء نسرا . أما الهاريون فكانوا كالأعاصير أو كالماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم البعض مزدحدين متراكبين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، أناث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها .

في هذه الحالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديداً ، وغم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشارحن بعضهن مع بعض ، يتضاربن في أخلاق لا يمكن التعبير عنه ؛ عربات بلا محمل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط في محمودية ، بعضها مقلوبي ، بعضها يختيل ، بعضها بغير خيل ؛ روانع شى اللحم ؛ صباح على المارة : الخبز ! الخبز ! ^(١) على أن بني مصر قد أحسنوا إيواء المهاجرين وجادوا بالتربيات أيها نزل فريق منهم ، وظهرت في أجمل مظاهر عواطف الوطنية المصرية في القاهرة وفي القرى ؛ وعنيدت الحكومة بأسم المهاجرين فأسكنتهم في القاهرة مدرسة المتدربان بالناصرية وأمدتهم بما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ...

* * *

في اليوم التالي عادت الأدميرال العظيم رغبة في الضرب ، وقد أسركته لذة النصر على تلك الحصون البالية كأنما هدمت مدافعته قلاعاً اشتقد خطورها عليه فأحس ما يحسه الأبطال من نشوة بعد خوض الشدائـ ...
وعادت مدافعته تضرب المدينة في الساعة العاشرة وأرسلت قذائفها على طيبة قايتباي وطيبة الاستبالية ...

وكان مجلس الوزراء قد اجتمع في اليوم السابق للنظر في الأمر برئاسة الخديـ وحضره عرابي باشا ؛ وبعد أن تداول الوزراء والخديـ وقرر المجلس الاتصال بالأدميرال

(١) تاريخ الأئمـ الأـمـ الشـيخ رـشـيد رـضا سـ ٢٥٢

وإبلاغه أن ما كان يطلبه قد تحقق له بضرب المحسون فلا داعي بعد ذلك للضرب وإنفصال المجلس على أن ترفع في ذلك الراية البيضاء وهي راية طلب المددنة للفقاوسة . ورفعت الراية البيضاء على بعض المحسون وعلى وزارة البحريّة ، فوقف الضرب وذهب طلبة باشا يصحبهم ترجان فصعد إلى ظهر اليخت الخديوي « المروسة » وهناك التقى عندوب من قبل سيمور . ساله هذا عما يريد من رفع الراية البيضاء فأبلغه طلبة قرار مجلس الوزراء ، فأجاب عذوب في صلف وسماحة بأن الأدميرال يطلب الترخيص له بإزالة جند من بحارة السفن لاحتلال ثلاث قلاع هي العجمي والدخيلة والمكسن ، فإن لم يأته الرد في الساعة الثانية بعد الظهر استأنف الضرب . وهكذا يأبى الأدميرال العظيم أن يتكلم إلا بلسان مدافعه ، فليس الأمر أمر تفاهم وإنما هو أمر قوى يعلى إرادته على ضعيف لا يملك له دفماً ...

وطلب عصمت باشا أن يطيل الأدميرال ما نفضل به من مهلة ليستطيع أن يبلغ الخديوي رده ويتمود إليه ولكن سيمور رفض حتى هذا الطلب .. وذهب طلبة باشا فرض الأمر على الخديوي ، واجتمع لدى الخديوي مجلس احتوى الوزراء والكتابات من تصادف حضورهم واتفق رأى الحاضرين على أنه لا يجوز لصر أن تسمح بنزول جنود أجنبية إلى البر ؛ وذهب وفد برئاسة طلبة باشا يبلغ سيمور هذا القرار ...

ولتكن الوفد لم يجد أحداً يتصل به ، إذ عاد مندوب سيمور إلى السفن ، وأمر سيمور في نحو الساعة الرابعة باستئناف الضرب فأرسلت إنفنسيل قذيفة واحدة على قلمة المكسن ، فلم تجأب القذيفة ؛ ثم رفعت الراية البيضاء ثانية على بعض الطوابي ، فوق الضرب ؛ وظلت السفن في موقف القتال حتى الساعة السادسة مساء وأرسل سيمور سفينتين إلى الميناء وبها مندوب من قبله فلم يجد المندوب أحداً يتفاوض معه ، فعاد يبني الأدميرال بأن المدينة تبدو وكأن ليس بها أحد .

* * *

بلغ عدد الضحايا من المصريين في الإسكندرية نحو ألفين غير من جرحوا

أما الأنجلترا فلم يزد قتلام عن خمسة وجرحهم عن تسمة عشر ، وقد ذكر عربان أنه استشهد من رجال الطوابي وحدهم مائة رجل ، وقتل هناك أمرأتان من المتطوعات كانتا تعنيان بالحرجي ...

أما السفن الأنجلزية فقد أصيبت انفصال ثلاث عشرة إصابة عطلت ست الأجزاء غير المدرعة منها وجرحت واحدة ست رجال ، وأصيبت سلطان بشلالات وعشرين ضربة وأنفلت سوارها ومدخنها ، واخترق قديفتان جدرانها غير المدرعة وتمطلت الزوارق الملحقة بأنفلكسيل ، واخترق قديفتان درع سوبرب ومدخنها وقد أصيبت عشر مرات وعطل في بنلوب أحد مدافتها ؛ ولحق ضرر خفيف بالكسندرة على الرغم من أنها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفمان من مدافتها

* * *

وأما المدينة التي كانت راوحها نسائم البحر الندية وتغاديها فقد اندلعت فيها ألسنة النيران في صورة صروعة كأن الجحيم تزفر عليها بثارها ، وقد لبست النار بها بضعة أيام ، وظلت سحب الدخان تتراءك وتتعقد فوق شوارعها الموحشة المهدمة وخيمت الكآبة على التغر الذي ماتت بسمته أيام طولية نتيجة لمدوان سيمور ... ولقد ذهبت الآراء عدة مذاهب بشأن هذا الحريق ، وقد حاول الأنجلز أن يعزوه إلى عربى كما عزوا إليه من قبل مذبحمة الإسكندرية التي اقتربوها ، على أن التحقيق فيما بعد قد برأ منها كابرأه من مذبحمة الإسكندرية كاسياتي بيانه في موضعه وذهب حون نينيه إلى أن النيران كانت من فعل قذائف الأسطول ؟ قال عن اليوم الأول « رأيت في ذلك الصباح عدداً كبيراً من القذائف يمر فوق دارى ، وسقطت بعض القذائف من ذات الحجم الأكبر تحمل اسم « الإسكندرية » في الدار المجاورة للدارى ، وقد قتلت القذيفة الثالثة من القذائف التي مرت فوق دارى أحد عشر رجلاً وجادين عند باب حرم بك ؛ وهدمت وحرقت بيوت كثيرة ومبان في كل ناحية بفعل قذائف السفن ». ١

وقال عن اليوم الثاني « كان عدد من قبيلة أولاد على يهبون دكا كين المدينة

وقد دخلوا إليها من ناحية القبارى أو باب محمود عبى ، وقد رأيت كثيرين منهم قد قبض عليهم وصودر ما يحملون بأمر من سليمان بك سائى أئناء حماواتهم العرب من المدينة ينهوباتهم ؛ وكان عرابى باشا قد أمر قبل مغادرته المدينة بغلق هذا الباب لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ النظام فيها كما أنه ترك فرقتين من الاحتياطى وكان طلبة باشا في الرمل بعد الظهر يفرون الخديو ؛ وكانت طول ذلك الوقت في حجرة ميس الضباط قرب باب رشيد ! وكان هناك كثير من الباشوات منهم محمود سائى البارودى و محمود فهمى باشا ؛ وقد غادرت المدينة معهم وعدد من الأطباء والضباط عند الساعة السادسة لالحق بالجيش ... وبعد أن غادرت المدينة حلت الريح الدخان إلى حيث كنا وكانت المدينة تحرق في عدة جهات ، ولم يكن في المدينة نار حين غادرناها ، ولم يشعل الجندي ناراً بالمدينة ، بل لقد بذلوا كل ما في وسعهم لمنع امتداد النيران التي سببها الضرب ... ومن الممكن أن يكون بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا بالمدينة قد شاركوا البدو في النهب ، وكان هذا مخالفًا بالضرورة لأوامر عرابى باشا والضباط ... وأستطيع أن أؤكد أنه لم يخطر ببال عرابى باشا أو أحد من الضباط بأى حال أن مدينة الإسكندرية ستتحرق بأيدي البدو أو غيرهم ، وإن أعلم أن عرابياً ومن كان معه من الضباط أظهروا أسفهم ودهشتهم عند رؤية المدينة تحرق عقب مغادرتهم إليها وعبروا عن أملهم في أن يبذل ذو الفقار باشا حمافظ المدينة ومن أكبر أصدقاء الخديو ما في وسمه لإخراج النار وإعادة النظام «^(١)

ويقول نينيه في موطن آخر من كتابه « عرابى باشا » إن عدة عناصر اشتراك في هذا الحريق ، منها بعض الأوروبيين الذين بقوا في المدينة بقصد النهب ، ومنها بعض الأروام والمالطيين من أصحاب الدكا كين كي يطلبوا بعد ذلك تعويضاً كبيراً ومنها بعض البدو من قبيلة أولاد على وبعض عساكر الرديف ، وبعض الأشقياء الذين أخرجوا من سجن الترسانة ...

ويقول الشيخ محمد عبده « بين من حرقوا الإسكندرية أروام بلباس عرب

روى جثثهم بتلك التياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد على من كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهال الإسكندرية ، ومنهم أوروبيون بقصد المبالغة في التمويضات وذلك بعد ما أخلت الإسكندرية من يخشى عليهم »^(١) وهناك من يذهب إلى أن سليمان - إى داود قائد الآلـى السادس هو الذى أمر جنوده بإضرام النار في المدينة كعمل يقتضيه الدفاع إذ أراد به أن يمرق زرول الأنجلـيز إلى المدينة . أو لعله فعل ذلك بداع الحق والفيظ من عزم الأنجلـيز على دخول المدينة ، ولقد شهد عليه كثيرون أثناء المحاكمة ، وكانت أقواله هو دليلا عليه فيها ما يشبه الاعتراف وبخاصة اتهامه عراياـما بأنه هو الآخر بحرق المدينة ليتنصل هو من التبعـه يتـبين ذلك في مثل قوله :

س . هل كان عراياـما أعطاك أمرـاً بالكتابة بحرق المدينة ؟

ج . أمرـى شفاهـاً

س . هل يجوز في قانون الجـهادـية حـرقـ مـديـنةـ بـناـءـ علىـ أمرـ شـفـاهـيـ ؟

ج . لا يجوز وأنا لم أفعل سوى إبلاغـ ماـ نـبـهـ بهـ (ثم قال إنه ليس متحققاً إن كان القانون يحيـزـ ذلكـ أـمـ لاـ^(٢))

على أن عراياـما في مذـكرـاتهـ يـقـبـ علىـ أـقوـالـ سـليمـانـ سـائـىـ فـيـ التـحـقـيقـ بـقولـهـ «ـ الحـقـيقـةـ أـنـ سـليمـانـ بـأـكـ سـائـىـ لـاـ شـاهـدـ هـوـلـ تـأـيـيرـ مـقـدـنـوـفـاتـ مـرـاـكـ الإـنـجـلـيزـ حـصـلـ لـهـ هـلـعـ وـطـيـشـ أـنـ عـلـىـ مـخـيـلـتـهـ فـصـارـ يـتـحـفـزـ وـعـيـلـ لـمـعـمـلـ غـيرـ المـقـلـاهـ فـبـدـرـتـ مـنـهـ كـلـاتـ تـدـلـ عـلـىـ جـنـوـنـهـ كـقـوـلـهـ اـحـرـقـ وـاـفـرـبـ يـاـوـلـدـ فـيـ حـالـةـ هـيـجـانـهـ ،ـ وـقـوـلـهـ إـنـ أـمـرـهـ بـكـلـ مـاـ يـتـخيـلـهـ فـيـ مـخـيـلـتـهـ .ـ وـلـكـنـ أـجـمـعـ الشـهـوـدـ عـلـىـ أـنـ لـمـ يـفـعـلـ مـنـ ذـلـكـ شـيـئـاـ وـأـنـ خـرـجـ بـأـلـاـيـهـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ قـبـلـ الـفـرـوبـ وـأـنـ رـكـ المـنـشـيـةـ وـخـرـجـ إـلـىـ بـابـ شـرـقـ السـاعـةـ ١١ـ عـرـبـيـ وـلـمـ يـعـدـ إـلـىـهـاـ وـأـنـ الـحـرـيقـ لـمـ يـتـدـىـءـ إـلـاـ بـعـدـ الـفـرـوبـ وـبـعـدـ خـرـوجـ الـمـسـاـكـرـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ كـشـهـادـةـ سـعـدـ بـكـ أـبـوـ جـيلـ وـعـلـىـ بـكـ دـاـودـ وـغـيـرـهـ وـأـنـ الـحـرـيقـ لـمـ يـكـنـ إـلـاـ مـنـ أـوـبـاشـ اـلـخـدـمـ وـالـأـعـرـابـ وـغـيـرـهـ مـنـ الـأـوـرـوـبـيـنـ وـالـفـقـرـاءـ

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٢٥٢ (٢) محضر استجواب سليمان ساي

الذين تختلفوا في مدينة اسكندرية ليتحصلوا على شيء من الصيد والفنية وذلك لم يقل أحد بأنه رأى سليمان سامي يفعل الحرق بنفسه ولا بغيره ، وعلى ذلك يكون سليمان سامي ذهب شهيد طيشه وهيجانه والحساب على الله

ومنه رأى على أعظم جان من الخطورة ، وذلك أن سليمان سامي كان مواطناً وأنه أحرق المدينة بأمره ؛ وقد صرخ بهذا الرأي في مجلس الموم الأنجليزي اللورد تشرشل في حنته على وزارة جلادستون سنة ١٨٨٣ بعد إعدام سليمان سامي قال صابونجي فيما أورده من كلام تشرشل أن هذا ذكر مجلس قوله « إن الخديو الذي كان يرغب في النهاية إلى الأسكندرية نهار الأحد ما استطيق الدخول إليها قبل موت سليمان سامي لأن لا يرى بعينيه شنق الرجل الذي أحرق اسكندرية بأمره وطاعته (فلما قال اللورد تشرشل هذا الكلام قامت في البرلمان ضجة أعقبتها دهشة) ثم قال لورد تشرشل « إن الأمر الصادر بحرق اسكندرية كان مختوماً عليه من الخديو نفسه وأنا أطلب للميدان كل وزراء الحكومة الفладستونية إذا كان فيهم من يتجرأ على أن ينكر هذه الحقيقة ، وإنني أقول علناً إن مستر غلادستون وزراؤه وأحزابه قد ارتكبوا جنائية من أقبح الجنائيات في قتل سليمان داود ، وإن دم هذا الرجل على رأس مستر غلادستون وشركاه إلى الأبد وهم المطالبون به » (١)

ومما ذكره تشرشل فيما أورده صابونجي أن الحكومة الأنجليزية عملت بشنق سليمان سامي قبل أن يبوح بأسرار خطيرة تدين الخديو ، وذلك لأن حاميه طلب بهذه التحقيق من جديد ومواجهته بمن شهدوا عليه ...

ومهما يكن من الأمر ، فمن الخطأ أن يرد الحريق إلى سبب واحد من الأسباب التي ذكرت ، والمقبول أن تسببه هذه العناصر جميعاً ، وبخاصة قذائف الأسطول وطيش سليمان سامي .

(١) مذكرات عراقي المخطوط وقد أورد عراقي كلام صابونجي تحت عنوان : الفصل السادس في أعمال البرلمان الأنجليزي في المسألة المصرية بقلم القس لويس صابونجي .

غادر عربى الأسكندرية على رأس حاميتها ، فلندعه الآن وانتظر ماذا كان من أمر توفيق منذ أن أوى إلى قصر الرمل ...
كان مما تحرص عليه الحكومة الأنجلوسaxonية أن يظل الخديو منحازاً إليها لتمكى عند الحرب بالتفرقة بين الأمة ، لأن من أكبر المخاطر عليها أن تكون الأمة صفاً واحداً حتى ولو غلت على أمرها ؛ لأن إنجلترا في مثل ذلك الوضع لا تستطيع أن تضرب فريقاً بفريق كما تفعل في الأمم التي تستطيع أن تحمل منها معسكرين أو أكثر ...

ويدلنا على اهتمام الأنجلوز بهذا الأمر هذه البرقية التي وصلت من جرانفل إلى كارتريت في اليوم الثاني عشر من يوليو أي في ثاني يوم الاعتداء قال جرانفل : «رأيت أن أرسل إليك هذا لتعمل مع الأدميرال السير ب . سيمور على بذل ما يمكن من المحاولات لاستحضار أبناء بشأن الخديو فإن حكومة جلالة الملك تنس كثيراً من القلق من جراء الاهتمام بسلامته ويشاركها أهل هذه البلاد ». وكان الخديو قد ذكر نينيه بهزول إلى سطح القصر بين حين وحين في اليوم الأول يستطلع أبناء القتال ، وكان يخشى جانب الجيش أشد الخوف لما يعرف عنه بينهم من أنه في جانب الأنجلوز ؟ وقد نمى إلى علمه أن عدداً من عرب البحيرة بلغ نحو خمسة جاءوا في اليوم الثاني للضرب إلى مكان قريب من قصره ، فلما سئلوا عن سبب مجدهم قالوا إنهم جاءوا لنجدة الخديو فهم عبيده وخدمه ، ثم لم يقف لهم أحد على آخر بعد ذلك .

على أن هناك رواية مؤداها أن سليمان سامي قد أرسل إلى القصر نفس اليوم نحو أربعين من الفرسان بقيادة البكباشى محمود منيب وكتيبة من المشاة وأحاط هؤلاء بالسراي ؟ فأوجس الخديو خيفة وأرسل يسأل القائد عن سبب وجود هؤلاء الجنود ، فأجاب بأنهم جاءوا لحماية الخديو والمحافظة على السrai .

وذهب بعض رجال السrai يذيمون في أحاجتها أنهم سمعوا من البكباشى منيب أن هؤلاء الجنود جاءوا للقبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة .

وذكر طلبة باشا في محضر استجوابه أثناء المحاكمة أن وفداً جاء من قبل الخديو لمقابلة عرابي ، وأخبرهم عرابي أنه لا يعلم بما حدث وأرسل طلبة باشا لرفع هذا الحصار فرفعه ؛ ويقول طلبة إنه قابل الخديو فقال له الخديو « لماذا أحضرت هؤلاء العساكر وحاصرتم السرای بهم هل أنت خائفون أن أهرب ؟ » .

ويقول إنه بعد عودته من السرای قابل عرابياً وسألته عن أسر بهذا العمل فأجابه بأن سليمان ساي هو الذي أصدر هذا الأمر^(١) ...

ويقول عرابي في مذكرةه « وفي صباح يوم ١٢ يوليو جاءنا رسول من قبل الخديو يدعونا إليه فتوجهنا مع راغب باشا تلبية لدعوة الخديو وكان في الرمل فأخبرنا بأنه قد حضر قسم من العسکر إلى السرای وسألنا عن سبب حضورهم فأجبته بأن لا علم لي بذلك ولم لهم حضروا لتفوية الحرس فقال لا زرم لذلك فإن فرقة الفرسان الوجودة هنا كافية فرهم بالرجوع إلى مكانهم فتوجهت إلى القشلاق ووجدت أربع بлокات من آلات سليمان بك ساي ومعهم الصاع على أفتدي أبو غنيمة (أو هشيمة) فسألته عن سبب حضوره بالعساكر إلى سرای الخديو فقال إن حكمدار الآلات سليمان بك ساي أمره بذلك فحضر لتفوية الحرس الخديوي فأصرّه بالعودة إلى آلياته مع عساكره لعدم زرم تلك القوة » .

وسواء كانت رواية طلبة أو رواية عرابي هي الصحيحة وقد تكونا صحيحتين معاً ، فإن ما يستخلص منها أن سليمان هو الذي فعل هذا ؛ ولقد كان سليمان من أكبر التحمسين الساخطين على الخديو وعلى الأنجلترا ...

وفي اليوم الثالث عشر شاور الخديو من كان معه من الأمراء والكبار ماذا يفعل إزاء احتلال الأنجلترا مدينة الإسكندرية ، فلم يرض أحد أن يبق بها وأشار عليه درويش باشا بالسفر إلى بنها ثم إلى السويس ، وأشار غيره بالذهاب إلى العاصمة فـ يليق بحاكم البلاد أن يظل مقيناً في بلد وقفت في يد أعدائه ..

ولكن هؤلاء كانوا يشيرون بذلك ، على أساس أن الخديو لا ينتوى شيئاً ؛

(١) محضر استجواب طلبة باشا : مذكرات عرابي المخطولة

ولكن الخديو فاجأهم بقوله « إن أهم الأمور أن نحمل الأميرال سيمور على علم بأمرنا إذا أمكن لنا ذلك ^(١) »

ويبدو أن الخديو ذهب بنفسه إلى الميناء على ظهر يخت درويش باشا في اليوم الثالث عشر من يوليو فقاد أرسل سيمور في هذا التاريخ برقة قصيرة نصها : « علّت أن الخديو ودرويش باشا سالمان على ظهر سفينة في الميناء ^(٢) »

والذى نلاحظه أن الكتاب الأزرق حربص كل الحرص على أن يقتصر ما يمكن في ذكر حركات الخديو وبخاصة ما يظهر نياته الحقيقية نحو الاحتلال ... وفي اليوم الرابع عشر أُبرق سيمور برقة جاء فيها « لقد احتلت رأس التين ووضعنا فيها بمحارة ومدفعية كاوضعنا ست بطاريات تواجهها ، لا تزال الأسكندرية تحرق ، ولكن أرفع الأنفاس من الشوارع ، والخديو سالم في قصره يحرسه من البحارة » ^(٣) ٧٠٠

والواقع أن الخديو آثر أن يخطو الخطوة الأخيرة ، وقد اطمأن إلى قوة الأنجلiz فانضم إليهم صراحة ، ونأى بمحابيه عن السلطان ومندوب السلطان ؛ أما المصريون وقادة الحركة الوطنية فما كان يعترف بهم في يوم ما ...

أرسل الخديو إلى سيمور رسولاً يخبره أنه اعتزم الحضور إلى سراي رأس التين ومعنى ذلك أنه اعتزم أن يكون في رعاية الأنجلiz وحبابهم وأنه اختار لنفسه ما يخلو قال بلنت يتحدث عن حصار قصر الرمل « كان ذلك في الواقع لكن يبق توفيق تحت المراقبة وبقصد أن يرسل إليه عرابي أنه نظراً لأن سيمور يهدد بأعادة الضرب فإنه يرى أن يسحب الحامية ، ويبدوا الخديو إلى أن يعتمد عليهم عن صرعي مدفع الأنجلiz ومن ثم يذهب إلى القاهرة ... وكان يجب على عرابي بغير شك أن يذهب بنفسه مرة ثانية ليرى أن هذه الدعوة لم تهمل لأى عنذر من الأعداء ، وأن يحمل معه توفيقاً بالقوة أسيراً إذا لزم الأمر ، فإن مشئل باى تونس كان أمامه ، وكان لديه مما جربه بنفسه من أساليب الخديو ما يكفى لأن يجعل من المستحيل أن

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢٦

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٤١، ١٤٢

يكل شيئاً إلى شرفه ... ولقد كان إهمال عرابي لهذا الأمر من الأخطاء الجسيمة ؟ على أن عرانياً كان مشغولاً في الصباح بمحرك إخلاء المدينة من الجندي ، بحيث لم يكن لديه وقت ليذهب ثانية إلى الرمل ؛ وعُكِن الخديو بعد الظهر بما بذل من « بقشيش » — كاً أخير بذلك أصدقائه الأنجلتراز — أن يفلت من حرسه إلى الأسكندرية في نفس القطار الذي أرسل ليحمله إلى القاهرة وهناك وضع نفسه صراحة تحت حماية سيمور ! وقد أخذ معه جميع من كانوا في القطار بما في ذلك درويش والوزراء ، وبذلك أظهر لهم إلى حد ما شركاه له في حياته »

ويؤيد كلام بنت برقية من كارتيرت في اليوم الثالث عشر من يوليو جاء فيها « عاد الخديو من الرمل إلى الأسكندرية في الساعة ٤ بعد ظهر اليوم بعد أن ضمن ولاه الحرس والجند والفرسان الذين تركهم عرابي لراقبته »^(١)

وأرى أن إشارة بنت إلى أول « بقشيش » وإشارة كارتيرت إلى ضمان ولاه الحرس تلاق ضوءاً على الرواية القائلة بأن البكباشي متيب انشق ومه نحو خسين ومائتين من الجندي الذين أرسلهم سليمان سامي ، وأعلن ولاه للخديو وأقسم أنه وجنوده يعوّون بين يديه إذا دعت الضرورة^(٢) وأنّ سمعت هذه الرواية ،رأينا في هذا العمل أولى بواحد الانقسام وأولى خطوات المزعنة في الجيش المصري .

وبلغ الخديو السرای في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الثالث عشر من يوليو فإذا الحرس يبابها من جنود البحر البريطانيين وإذا بالأدميرال سيمور يتلقاه في ساحتها يحيط به عدد من كبار رجاله ؛ ولقد هنأوا الخديو بسلامته ، ودخل توفيق القصر ومن هناك سوف يعود إلى عاصمة بلاده في حماية جيش الاحتلال ، فيتقاوه في قصره الثاني قواد الاحتلال مهنتين بسلامة الوصول كالتقاء في الأسكندرية سيمور . وهكذا نرى الأمة من أول الأسر فريقين ، أولياء الاحتلال وعلى رأسهم الخديو ونفر ضئيل من المصريين ، والمجاهدين الأحرار يقودهم عرابي ومن ورائهم الأمة المصرية كبراؤها وعلماؤها وفلاحوها ... ونعود فنكرر القول إن موقف الخديو هذا سوف يكون أقوى عامل في نجاح الأنجلتراز .

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

وبعد فهذه قصة المدوان الفاجر على مصر ، قصة البنى الأكابر على بلاد كل ذنبها أنها تطلب الحرية ، والحكم الدستورى أسوة بأوروبا المتمدنة ؟ ومن أعظم الأمور إثارة للفوس وأدعها إلى الكفران بعذنية الغرب ومبادئه الغرب أن يأتى هذا المدوان على يد رجل مثل جلادستون ... ييد أن الطامع الاستعمارى وإقامة صرح الامبراطورية شئ ، ومبادئه القومية والحرية شئ آخر ! ولكن متى يفهم ذلك المفترون بضلال أوروبا ؟

على أن الحرية لا تendum أنصاراً حتى في أحلال الساعات وإن لم يستطعوها أن يفعلوا شيئاً ، فقد استقال مستكراً الضرب المسترجون برأيت أحد أعضاء وزارة جلادستون لأن ضميره وذمته لم يتسموا لهذا المدوان الذى وصفه بأنه « انتهاء صارخ للقانون الدولى ومبادئه الأخلاق »

ولقد احتاج أحد نواب الأحرار على المدوان فى الثاني عشر من يوليو بمجلس العموم قائلاً « إنه شناعة دولية وعمل ينطوى على القسوة والجبن والإجرام » ويقول روئستان فى كتابه المسألة المصرية « ياله من تدهور فى عالم الشهرة والبدا مؤلم للنفس وقد يكون أشد مما شاهدناه فى أيامنا مدة حرب البوير » وقال كذلك « إن إنجلترا قد خرقت حرمة القانون الدولى وأنت أمرأ هجيناً لم يسبق له مثيل ، أمرأً لو صدر من دولة أضعف منها لحوسيت عليه حساباً سيراً »

* * *

وإنه ليحلو لمغض الكتاب والمؤرخين أن يبيروا على عربى وأنصاره أنهم تركوا حصون الأسكندرية ضعيفة فلم تستطع مقاومة السفن الأنجلزية بسبب ذلك ؟ ولا ندرى كيف يلقون هذا القول ولا يتذكرون أنه طالما كان الخديو فى صف الأنجلز والفرنسين منذ حضرت سفن الدولتين ، لم يكن فى وسع الوطنيين عمل شئ ؛ ولقد قبل الخديو المذكرة المشتركة وقبل استقالة الوزارة الوطنية بمجرد أن واتاه شئ من القوة . . .

ألا فليعلم هؤلاء المائيون أن الخلاف الداخلي الذي فصلنا قضيته كان سبب كل ضعف ؟ وماذا عسى أن يصنع حزب وطني في البلاد بخاصمه الخديو من أجل عسكـ بالحكم المطلق ورغبتـه في القضاء على الدستور ؟
هل كانت تستطيع وزارة البارودى أن تعد العدة لحرب إنجـلـترة والخـديـو الذى يملك حق إبعادـها عن كراسـها فى صـفـ الأنجـلـيز ؟

على أن عـرايـا قد بـذـلـ فى وزارـتـه جـهـداً مـحـمـودـاً فى إصلاحـ الحـصـونـ ولو لا إسـقـاطـ وزارـةـ الـبارـودـىـ لـكـانـ يـرجـىـ أنـ يـسـيرـ فىـ هـذـهـ السـبـيلـ حتىـ يتمـ ماـ بـدـأـ(١)
لـقـدـ قـامـتـ الـقيـامـةـ وأـنـذـرـ الأـنجـلـيزـ الـدـنـيـاـ بـالـوـيلـ لـنـبـأـ مـفـتـرـاتـهمـ هـمـ أـلـاـ وـهـوـ
ماـ زـعـمـوهـ مـنـ تـحـصـينـ فـلـاعـ الـأـسـكـنـدـرـيـةـ وـاتـخـذـوـ مـنـ ذـلـكـ وـسـيـلـةـ لـإـنـذـارـهـمـ مصرـ
ثـمـ الـاعـتـدـاءـ عـلـيـهـاـ ،ـ فـكـيـفـ يـجـوزـ فـعـلـ عـاقـلـ أـنـ يـقـالـ إـنـ الـوـزـارـةـ مـلـوـمـةـ لـأـنـهـاـ
لـمـ تـقوـ الـحـصـونـ ؟ـ

فـإـذـاـ أـضـفـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ عـمـلـ إـنجـلـتـرـةـ كـانـ مـفـاجـئـاـ لـمـصـرـ وـحـدهـاـ وـلـكـنـ
لـمـؤـتـرـ الدـولـىـ الـقـائـمـ فـإـسـتـانـةـ تـبـيـنـ لـنـاـ مـبـلـغـ مـاـ فـيـ هـذـاـ اللـومـ مـنـ ضـعـفـ وـسـخـفـ
عـلـىـ أـنـ الـوـطـنـيـنـ قـدـ جـاهـدـواـ فـيـ الـوـطـنـ حـقـ جـهـادـ وـأـبـواـ أـنـ يـسـلـمـوـ بـاـ طـلـبـ
إـنجـلـتـرـةـ إـلـاـ مـكـرـ هـيـنـ ،ـ وـلـمـ يـفـرـواـ أـوـ يـتـخـادـلـوـ مـنـ ضـعـفـ أـوـ مـبـاغـتـةـ ...ـ
وـالـآنـ بـعـدـ أـنـ أـقـدـمـتـ إـنجـلـتـرـةـ عـلـىـ عـمـلـهـاـ الـإـجـرـاـيـ المـدـوـمـ النـظـيرـ ،ـ وـبـعـدـ أـنـ
أـلـقـ الخـديـوـ بـنـفـسـهـ فـيـ أحـضـانـهـ ،ـ سـتـجـاهـدـ الـأـمـةـ الـمـصـرـيـةـ أـصـدـقـ الجـهـادـ ؟ـ وـسـتـعـدـ
مـاـ اـسـتـطـاعـتـ مـنـ قـوـةـ وـمـنـ رـبـاطـ الخـيـلـ ،ـ وـسـتـبـدوـ وـطـنـيـتـهاـ وـجـيـتـهاـ قـوـيـةـ رـائـةـ عـلـىـ
الـرـغـمـ مـنـ قـمـودـ نـفـرـ مـنـ بـنـيـهـاـ مـنـ الـأـمـمـ وـالـمـسـتـضـعـفـينـ وـالـطـامـعـينـ ...ـ

(١) راجـعـ مـنـ ١٣٤ـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ .

عربى بطل الحجارة

رأى عرّابى نية الخديو قبل عودته إلى رأس التين ، وإنّه ليمم ما يمكنه توفيق
فنفسه للحركة القومية منذ يوم عايدبن ...

لذلك أيفن عرّابى وأصحابه أن الحرب غدت أمراً محتملاً بين الأمة المصرية
وبين إنجلترا ؛ ورأوا أن الأسكندرية لا تصلح ميداناً لقتال ، وأن الدفاع عنها يهد
خطيم حصون الشواطئ مستحيل ، وهو أكثر استحالة بعد انضمام توفيق
إلى الإنجليز ...

وكان الخديو يأمل أن يدافع عرّابى زمناً عن قلمة المعجمي ، وبذلك يستطيع
الإنجلizer أن ينزلوا جنداً يقطعون عليه الطريق ويأسرون في الأسكندرية ؛ يقول
بلنت في ذلك « لقد كان جيشه جيشاً مكسوراً ؛ ولو أنه لم يفقد روحه المعنوية إلا أنه
كان من السهل أن يصل إلى ذلك لو أن قوة سفيرة زلت من السفن واستولت
على سكة الحديد وقطعت طريق ارتادده ؛ ولقد كان من المؤكد في خطة الإنجلizer
أنهم كانوا يريدون تطويق عرّابى إذا أمكن ؛ وربما كانت تلك الحمية التي بدأ
في الدفاع على غير ما كان متوقراً ، أو كانت خدعة الرأبة البيضاء هي التي حالت بين
سيمور وبين إنزال جنده »^(١).

ولذلك حنق توفيق على عرّابى لانسحابه ، ولم يكن مبعث حنقه أنه ترك
المدينة بغير دفاع كاسىز عم عند الضرورة . قال عرّابى في تقريره الذي كتبه إلى
حامييه المستر برودى في السجن « أصدر الخديو أمره في مجلس الوزراء إلى جنودنا
ليحتجلوا قلمة المعجمي وينعموا نزول الجنود البريطانية ، فأفهمت سموه أن المشاة

لا يستطيعون ذلك لأنهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيراً ويكونون عرضة كذلك لأن يقطع عليهم الطريق إلى الأسكندرية ، فظاهر على الخديو الغضب وقال : لماذا تسمون أنفسكم جنوداً إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عدواً من أن ينزل جنوده في بلادنا؟^(١)

لذلك انسحبت الحامية لتتخذ مكاناً حصيناً يصلح لإقامة خطوط الدفاع عن داخل البلاد ؛ وقد أخذت جهة كفر الدوار موطنها لهذا الدفاع .

وهكذا ينتقل تاريخ الثورة القومية إلى فصل جديد هو الحرب بين مصر الناهضة بالأمس القريب مما رزحت تحته زمناً طويلاً من الحكم الفردي المطلق ؛ والتي لم تستوف أسباب القوة المادية بعد أن حطمت الدول قوى محمد علي ، وبين إنجلترا ذات الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس !

ولم يكن أمام مصر إلا أن تخترق إحدى سبيلين : التسلیم بالاحتلال وما يفضي به على نهضتها القومية الحرة وقبول هذه الذلة طائمة مختارة ، أو الحرب التي تبذل فيها الأموال والأنفس والتي تنتهي إما إلى نصر يتحقق به كل شيء ، وإما إلى هزيمة تذهب بكل شيء إلا الشرف والكرامة .

واختارت مصر السبيل الثانية تحت راية عربي ؛ وترك للخديو ومن شايعه السبيل الأولى ، وما كان لعربي وأصحابه أن يفعلوا غير ما فعلوا وإلا كانت حركتهم القومية ونهضتهم الاصلاحية هزوأ ولعباً من أول الأمر ، وما كانت لعمر الحق إلا الجد كأعظم وأجل ما يمكن الجد ...

يقول بلنت في هذا الصدد « إن خير صفات عربي كما اعتقاد هي إصراره على إلا ينصرف عن وضع كان هو الأصل في إعلانه وذلك أنه وإن كان على استعداد لأن يسلم الدنيا كلها ، إلا أنه كان يرى من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير . وبهذا قد أدى لبني وطنه في تلك الأسابيع خدمة لا تقدر ؛ خدمة أرى أن من الحق أن يذكروا بها ؛ فلي sis هناك شيء أكثر يقيناً من أنه لو كان عربي أفل

(١) How we Defended arabi P. 127

عناداً ما كان في رفضه التهديد أو الرشوة^(١) عند ما طلب إليه مقادرة مصر ولم تتشب الحرب تبعاً لذلك ، لبق الفلاحون كما كانوا سنة ١٨٨٠ عبيداً لسادتهم الأتراك وعبيداً للأوروبيين ؛ وماذا يرى أى وطني ما كان عسياً أن ينتج من إذعان عربي ؟ فهو حرية من أى نوع ؟ فهو استمرار حكم الشعب نفسه ؟ فهو حكم أجنبى أخف وطأة مما هو عليه الآن ؟^(٢) لا شيء من ذلك يقيناً . إن ما كان يلتقطه يتضح في النظام الذى أقيم فى القاهرة عقب الحرب ، إنه كان لا يخرج عن نوع من استبداد الشرطة والقدر والمقوبات الخفية ، دون أن ينخفض من ذلك أى اهتمام بعد بالقومية المصرية كاينتظر إليها بالمعنى المفهوم فى أوروبا ؛ ومن الممكن من الوجهة الشكلية أنه كان يسمح لمجلس من الأعيان أن يظل يعقد بعض جلسات ، من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ، ولكن له لن يكون ذا قوة كا أنه لن تكون له قط روح وطنية . وكان يعاد الحكم الشركى أشد مما كان ، وكانت تحرص الرقابة المالية — وقد قويت شوكتها بسلطة ميساسة جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح ، أوروبية بختة — على ألا تتحرر الفلاحين من سادتهم الأتراك وقد غدا هؤلاء الأتراك عبيداً لأوروبا ؛ وكانت تذهب أسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء فى صورة مشينة ، لأن الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار ... وكانت المطبوعات القومية تهوى إلى مثل ما هوت إليه فى تونس ؛ وكان لا يجد المرء أثراً للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ولا لأى اعتبار للحقوق القومية ؛ وكانت مصر فى الواقع ترى كارثة سنة ١٨٨٣ أرضناً لا يستطيع المرء فيها أن يزيد على الممس ولا يأمن جاره أن يشى به ...

وقد خلص عربي بني وطنه على أقل تقدير من هذا كله ... ولكن لم يتفق لهم أن يروا فيه جندىاً ككارأوا فيه وطنياً ، فإنه أنقذهم من وصمة شنية ، وتلك أنهم

(١) قيل إن بيت روتشلد تعهد أن يدفع له معاشاً ضخماً إذا هوجادر مصر حسب المذكرة المشتركة .

(٢) يقصد الحكم الأجنبى بعد الاحتلال فقد صدر كتابه سنة ١٩٠٧ .

يماربوا فقط في المرة الوحيدة التي أتيحت لهم في مدى تاريخهم حين واتتهم الفرصة
ليدافعوا عن حرريهم »^(١).

وإن عبارة بلنت هذه لتلخص القضية كأنها أبلغ تلخيص وأجمله وما نجد خيراً
منها نسوقه للذين ينمون على عراقي أنه حارب ، ويقولون في سذاجة مثيرة إنه
حارب خلب البلاء على مصر ؟ كأنما كانت هذه الحرب لعبة طرأة على خياله فلمها ...
أوهكذا يفكر هؤلاء كا يفكّر الصبيان ...

وقفت مصر إذن تدافع عن حرريها وعن شرفها ، وتخوض حرباً لأول مرة
في تاريخها تحت قيادة فلاح من بنها يعاونه في القيادة فلاحون مثله فأماماً إلى النصر
وإماماً إلى القبر ... وهي في أقل ما توصف به مظاهره لشرف والكرامة .

* * *

أعلنت الأحكام العرفية في مصر ابتداء من اليوم الحادى عشر من يوليو فقد
أرسل راغب باشا إلى جميع المديرين برقية هذا نصها « حيث ابتدأت الحرب بيننا
 وبين الأنجليز فبمقتضى القانون تكون الأدارة تحت أحكام العسكرية ، والمخيلو
 والبغال الموجودة جميعها بالمدierيات والمحافظات ترسل لديوان الجهادية بأثمان موافقة
 على الجهادية فليس بغير ملحة في أن يكون لها بأدنى من الخديو »^(٢).

وهذه البرقية صريحة في أن الحرب ابتدأت بين مصر و بين الأنجليز ، وصدورها
 من رئيس مجلس الوزراء لن يكون إلا بأدنى من الخديو ...

ومنذ أن قرر الخديو ومجلس وزرائه رفض الانذار النهائي تعتبر البلاد في حال
 حرب مع إنجلترا ؛ وقد أصدر الخديو أمره إلى عراقي باشا بدعة خمسة وعشرين ألفاً
 من الاحتياطي بالأقاليم ، هذا وإن القرار الذي اتخذ مجلس الوزراء في اليوم العاشر
 من يوليو ، ذلك المجلس الذي كان عراقي غائباً عنه ، والذي أشار إليه اللورد راندلف
 تشرشل في مجلس العموم متوججاً من أن الكتاب الأزرق أغفل نشره ومبيناً أن

(١) S. H. Blunt P. 283—84.

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢

مرد ذلك إلى أنه صريح في أن توفيقاً أعلن الحرب على إنجلترا ، نقول إن ذلك القرار كان ينبع نصاً صريحاً على أن المخصوص سترد على ضرب الأدميرال بعد القذيفة الخامسة من جانب السفن^(١) ..

ولينظر القارئ بعد هذا فيما كان من راغب وتوفيق في هذا الجهد القوى الذي لم يكن لعبة لاعب وإنما كان حياة أو موتاً لأمة ...

أرسل راغب باشا في اليوم الخامس عشر من يوليو إلى وكيل وزارة الجمادية بالقاهرة يطلب إليه إعادة المهاجرين إلى الأسكندرية لأن الحال قد تحسنت وأن « جميع من خرجوا من البلد جار رجوعهم إليها وإن أبوا العودة أرسلاهم ولو جرأا »^(٢) .

وكان راغباً باشا يريد أن يقول إن البلد ليست في حرب مع الإنجليز مع أن الإنجليز قد احتلوا الأسكندرية فعلاً منذ غادرتها الحامية وانخذلوها قاعدة يزحفون منها إلى داخل البلد ...

وهكذا ينقلب راغب فإذا هو من الأمم ، وإذا هذا الشيخ الذي نيف على السبعين يختار أن يختتم حياته أسوأ خاتمة .

ولم يقف راغب عند هذا بل كتب في اليوم السابع عشر من يوليو إلى الأدميرال سيمور يقول وما أسف وأشفع ما قال « لي حظ الشرف أن أعلن لحضرتكم أن عراقي يشقق الآن بأعداد وسائل الدفاع ، وذلك خالفة لأوامر الجناب الخديوي ، وقد صدر له الأمر بالكشف عن هذه التجهيزات ، فلكونوا إذن على علم بأن الجناب الخديوي عزم على عزله من وظيفته ، فهو لذلك وحده المسئول عمما يحدث ، فأرجوكم أن تعلموا مآل هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملك »^(٣) .

(١) أورد برودل كذلك هذا القرار في ذيل ص ١٢٤ في كتابه كيف دافعنا عن عراقي.

(٢) الوقائع المصرية ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢

(٣) مصر لل المصريين ج ٥ من ١٢٧ . وقد أشار كارتريت إلى هذا الكتاب كذلك

وإن المرء ليتمكنك العجب والأسف معاً بل الحزن العميق ، أن رسول رئيس
وزارة مسئول كهذا إلى أدميرال دولة أجنبية معقدية لا تزال أرض الوطن
محضبة بدماء من فتكت بهم قذائفها في غير مسوغ !

وهل غدا سيمور حاكم البلاد الشرعى حتى يكتب له راغب هذا الكلام ؟
كلا فلن يزال توفيق حاكها الشرعى من قبل السلطان الذى عينه ؛ ولكن سيمور
قد غدا صاحب النفوذ الفعلى فى الأسكندرية على الخديو الذى لاذ به وعلى الوزراء
الذين أصبحوا منذ أن صحبو توفيقاً إلى رأس التين أشبه بسجناه فى المدينة ...
وليس أدل على ما بات سيمور من سلطة من ذلك النشور الذى أصدره باسم
الخديو فى اليوم السابع عشر من يوليو يحث فيه الناس على الهدوء والنظام ويعان
إليهم أنه مكان بذلك من جانب الخديو ...

وهكذا أخذ الأنجلز يخطون خطواتهم نحو احتلال البلاد والسيطرة عليها
باسم الخديو والدفاع عن الخديو الحاكم الشرعى أمام العصاة التائرين من بنى شعبه ،
تلك الدعوى التى ادعوها منذ حضور سفهم ، والتى ألقواها فى روع الخديو منذ
يوم عابدين ...

ولن يفسر عمل راغب إلا بأنه تم بعد اتفاق بينه وبين سيمور وتوفيق ،
وهذه بديهيّة لا تحتاج إلى دليل ...

وأدلى وأمر من فعلة راغب وأدلى إلى الأسف والألم والدهشة جميعاً برؤيه الخديو
الآنى نصها والمرسلة فى اليوم السابع عشر من يوليو إلى عرابى بكفر الدوار
حيث أخذ يبني خطوط الدفاع عن الوطن فى نشاط وبسالة ؛ قال توفيق وما أعظم
ما تحس النفس من ألم ونورة تلقاء ما قال « اعلموا أن ما حصل من ضرب المدفع
من الدوننة الأنجلزية على طوابى اسكندرية وتخريبيها ، إنما كان السبب فيه
استمرار الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدفع الذى كلاماً يصير الاستفهام
عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الأدميرال ، فأفاد
أنه ليس للدولة الأنجلزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة ، وأن

ما حصل إنما هو في مقابلة ما كان من التهديد والتحذير للدونمة ، وأنه إذا كان يهدى الحكومة الخديوية جيش منظم ومنتظم ومؤمن فهو مستعد لتسليم مدينة الأسكندرية إليها ، ولذلك إذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الأنجلizية تحيط بهم وتسلم إليهم المدينة ، فقد تحقق من هذا أن الدولة الأنجلizية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وأنه تقرر من كافة الدول المظومة بالقونفرانس ^(١) بأنه لا يصير من امتيازات الحكومة المصرية ولا حريتها . ولا من حقوق الدولة العلية ، بل هي تبق ثابتة لها كما كانت ، وأن يصير إرسال عساكر شاهانية لأجل استئباب الراحة بمصر ، فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جم العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التي تجرونها بوصول أمرنا هذا ، وتحضروا حالا إلى سرائِ رأسِ التين لأجل إعطاء التنبهات المقتضية الشفافية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأي مجلس النظار ^(٢)

وفي هذه البرقية المجيبة الذي لا يتعذر عجبنا منها يحمل توفيق عرابياً تبعة خرب الأسكندرية ويعلن حسن مقاصد الأنجلiz وأنهم لا يتغرون إلا الخير لمصر . ويقول إن سبب الضرب « يرجع إلى الأعمال التي كانت جارية بالطوابي وتركيب الدافع التي كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها » وتناسي الخديو أنه أرسل برقية إلى السلطان في اليوم السادس من يوليو ينفي فيها حدوث هذه الأعمال التي يشير إليها ، ويقول إن التأكيدات أرسلت إلى الأدميرال بنفيها ^(٣)

وكانت دعوة عرابي إلى الأسكندرية خدعة مكشوفة لا تجوز على أبسط الناس عقلا ، بفتحية القبض عليه بمحجة أنه ثائر متمرد خارج على إرادة الخديو داع إلى الفوضى ، ولسنا بحاجة إلى نفس الدليل على صحة ما نقول فحسبنا أن نورد نص البرقية الآتية التي أرسلها كارتريت إلى جرافيل في اليوم الخامس عشر من يوليو قال

(١) المؤتمر

(٢) الواقع المصري ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

(٣) مصر رقم ١٧ من يوليو

« قات النار قلة محسوسة . يعود الأوروبيون إلى المدينة .. أنتي ، شرطة وطنيون
ليمولوا مع البحارة الأميركيان ؟ أبرق عرابي باشا هذا الصباح من كفر الدوار إلى
الخديو يقول إنه سوف يسر سموه أن يعمل أن الرديفقادمون ليعينوه في محاربة
الأنجليز وأجب الخديو بدعوه إلى هنا . إذا حضر فسيقتبس عليه ؛ وإذا رفض
فسيعلن عصيانه وخروجه على القانون . القاهرة هادنة كما نعتقد . الشعور القوى
إلى أقصى ما نستطيع أن نراه في جانب الخديو . مع عرابي نحو ٤٠٠ جندي »^(١)

والواقع أن الخديو كان قد فرغ من عرابي وقضى فيه قضاءه بعزله من وزارة
الجهادية قبل أن يستدعيه إلى الأسكندرية يوم تجدد ذلك صريحًا في رقية
لكارترت بتاريخ اليوم السادس عشر من يوليو جاء فيها « أشرف بأن أخبركم
أن الخديو عزل عرابي باشا من منصب وزير الجهادية ، وأصدر أمره بنعم جميع
المصريين من مساعدته ، وسيذاع هذا الأمر بكلفة الوسائل التي في متناول سموه ؛
وبناء على اقتراح الخديو أنفذ الأدميرال السير بوشامت سميمور سفينتين من سفن
جلالها إلى أبو قير مخافة أن يقطع عرابي الساحل ويبدع ماء البحر يطعنى »^(٢)

وهكذا يعزل توفيق عرابياً قبل أن يستدعيه ولم يعلن قرار العزل رسميًا إلا
في اليوم الثاني والعشرين من يوليو
واندغ لعرابي الرد على توفيق فقد أبرق إليه ردًا على برقيته يقول « مولاى ..
في شريف علم مولاى المعلم أن المحاربة التي وقعت بيننا وبين الأنجليز وبلغت
سامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رئاسة سموكم بحضور كثير
من ذوات البلاد المنتخبين ودولتهم درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ، وما
تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد
قررأهم على معارضه طلب الأميرال ولو أدى ذلك إلى الحرب ؛ وبناء على ذلك
قرر المجلس المذكور لزوم زيادة خمسة وعشرين ألف عسكري وصدرت الأوامر
إلى المديريات بطلهم ؛ وقرر المجلس أيضًا أنه لا تطلق المدفع من جهتنا إلا بعد

(١) مصروف ١٤٧ ص ١٤٧

(٢) ص ١٤٧

إطلاق خمسة مدافع من السفن الأنجلizية ؟ ولما ابتدأت السفن بضرب التيران على مدينة الأسكندرية لم تقابلها إلا بعد عشرين طلقة ، ولم يكن عندنا قبل وقت الفرب أدنى استعداد ، لاستمرار الأوامر بعدم الاستعداد ، ثم بعد ذلك أعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم إلى جميع جهات الأدارة بصيورة البلاد حربا مع الأنجلز وأتها صارت تحت الأحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب ... ف بهذه الأسباب يامولاي تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الأنجلز بوجه الحق والشرع ، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقيرو لا ازدراه بالدوننة كما هو معلوم لدى عظمتكم ، وإنما كانت الحرب عدواً من الأنجلز على الحكومة التي لم يهد منها أى شئ يسْتوجب الحرب ، فإن كان الأميرال في مخابره مع سوكم أظهر أنه عدل عن المحاربة إلى المسالمة فذلك بعد وقوع الحرب بعد طلباً للصلح وسعياً في تجديد العلاقات ، ولا يجوز أن يكون إنكاراً للحرب بالمرة وتبرأ من المدون بعد وقوعهما ، ولا شك في أن أطابق أفكار سوكم في الميل إلى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة ؟ وإن كان الأميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخرّبت ب الدفاع السفن الأنجلزية هدمًا وحرقاً فها هو جيشها المنظم الذي لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه ، مستعد لأن يستلمها بعد براج المراكب عن مياه الأسكندرية ، وللحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري كما وافق رأى سوكم أولا حتى تفارق المراكب السواحل المصرية خوفاً مما عسى أن يحدث من قبيل ما سبق ، فقد صارت الحادثة الماينة برهاناً جلياً على أن الوعد بالمسالمة من الأنجلز لا يمكن كمال الثقة به ، وإنما هو لأجل شفتنا عن الاستعداد واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد ؛ وإنني كنت أتعذر أن أتمثل بين يدي عظمتكم لأبداء هذه الملاحظات ، لكن من الأسف أنه تحقق عندي من الاكتشافات الحقيقة أن مدينة اسكندرية مشغولة الآن بمساكر الأنجلز ، فمن العلوم عند مولاي أنه لا يمكنني الحضور بتلك المدينة لهذا السبب ، فإذا حسن

لدى مولاي فليصدر أمره السائى بحضور حضرات النظار أو سعادة رئيس مجلس
النظار إلى مركز الجيش للدواولة في هذا الأمر لنكون على يقنة من الحقيقة حتى
يمكنا بعد ذلك صرف المساكير وترك التجهيزات الحربية والحضور إلى المدينة ،
والأمر لم ن له الأمر » (١)

* * *

وقف عرابي في خطوط دفاعه ، لا لينتظر شيئاً من الخديو بعد ذلك ، ولكن
لينتظر كلة الأمة المصرية تحكم بها بينه وبين الخديو وأعوانه من الأنجلترا والخواج
من المصريين ؟ وعما قليل ستأتيه الآباء من أعمق مصر بأن الأمة الذى مجده
بالأمس زعيماً قومياً مناضلاً في سيل حريتها ودستورها ، ستتضوى اليوم تحت
لوائه قائدًا مجاهداً مدافعاً عن الحرية التى استخلصها لها وعن الدستور الذى حرس
مهده ، وعن شرفها الذى يتحنته ببنائه الاحتلال
وحسبه بعداً ونفراً وجزاء بما جاهد وصار أن ترى فيه أمته رمز الخلاص
وبطل الجهاد ...



نصرك يا عربى

ما ذاعت في القاهرة والأقاليم أبناء ما فعل الأنجلترا في الأسكندرية وما كان من موقف الخديو بعد ذلك ، وما ذاع رد عربى على استدعاء توفيق إيهامى أمثلات القلوب عطفاً على عربى وإجلالاً له ، وازدادت محبة الناس له أضماماً مضاعفة ، وصار من الكلمات الشعبية التي يسمعها المرء في المدن أينما سار في شوارعها ودروبها وأينما حل في مقاهيها ومنتزهاتها ، وفي القرى أينما وجدت ثمالاً أو جنوباً تلك السکامة التي غدت شعار الشعب وهي « الله ينصرك يا عربى »^(١)

ولم تقتصر الأمة على المحتف والدعاء ، فلسوف رى أنها بذلت من أبنائها ومن أقواتها وأموالها ما هو خليل أن يسجل لها في تاريخ الحركات القومية مثلما سجل للأمم الأبية الكريمة من دواعي الفخار ...

* * *

فطن عربى منذ أن جاءته برقية الخديو إلى أن الأنجلترا من أول الأمر سيتخذون من الخديو أداة لتحقيق أغراضهم ، وكان أول اتجاه نحو هذا أن يصدر قرارات ضد عربى تذيم الانقسام في البلاد ...

لذلك رأى أن الظروف تحتم عليه أن يقضى على هذا السلاح ، فبادر بإرسال برقية إلى جميع المديريات والمحافظات يعلن للناس فيها انضمام الخديو إلى الإنجليز وبخدرهم من اتباع أوامره ويدعوهم إلى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال^(٢)

وأرسل عربى برقية أخرى يعلن فيها للمديرين أن الوزراء أسرى عند الخديو

(١) أتب محامية مستر برودل هذه الكلمة بالعربية مذهبة على غلاف كتابه الأنجلترا « كيف دافعنا عن عربى » وأتبتها في الصفحة الأولى منه بالعربية كذلك وكتب تحتها « هتاف الشعب في القاهرة يوليو سنة ١٨٨٢ ».

(٢) الواقع المصرية ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ومصر رقم ١٧ من ١٨٤

وأنه يردد أن يتخدن منهم أداة لتنفيذ أغراضه في شل حرمة الدفاع عن الوطن وعلى ذلك فليعلم الحكام والمديرون أن ما يأتي من رئيس الوزراء من البرقيات بطلب إلغاف عن الاستعداد أعلاه هو عجزه عليه فلا طاعة له ؛ وأن الذين يخونون وطنهم لا يكونون جزءاً من العقاب وفق قوانين الحرب خمس ، بل سيلعنون في الآخرة ^(١)

وأرسل كتاباً خطيراً في اليوم السابع عشر من يوليو إلى يعقوب سامي باشا وكيل وزارة الجمادية بالقاهرة يعلن إليه فيه خيانة الخديو للبلاد وأنه سبب ما نزل بها من الكوارث ويدعوه إلى عقد جمعية من الكبار والعلماء للنظر في الأمر وإصدار قرار بشأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمة وتقدير مدى «صلاحية هذا الوالي عليها » ^(٢)

وقد أهتم الأنجلزيز بأنباء هذه الاتصالات وغاظهم أن يسبّهم عرابي إلى السلاح الذي أرادوا أن يمحاربوه به ، وأبرق كارتريت إلى جراشل في اليوم الحادي والعشرين من يوليو يقص عليه أمرها ، فرد عليه جرافل ببرقية في نفس اليوم هذا نصها «بالنظر إلى لمحة عرابي باشا في بلاغاته التي ذكرتها لي في برقيتك اليوم ، رأيت أن أوجهك بشدة إلى أن تؤثر على الخديو بضرورة إصدار بلاغات مضادة من جانبه إلى الشعب المصري ، وأن تخبر بيته بأن حكومة جلالة الملك تعد المدة لإرسال قوة كبيرة إلى البحر الأبيض المتوسط »

ومعنى ذلك أن إنجلترا كانت تعد حلتها لاحتلال مصر وأنها خافت من نشاط عرابي وقطمه الطريق على أساليبه

وكان الخديو قد أعلن أمره فعلاً بعزل عرابي في اليوم الثاني والعشرين من يوليو وبنى قرار العزل على أمور نسبها إليه سوف نذكرها ، ولكن الأنجلزيز لم يكتفوا بذلك وأرادوا أن يستمر الخديو في إصدار القرارات ضد عرابي ...

(١) مصر رقم ١٧ من ١٨٤ (٢) الوقائع المصرية عدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ وند

أورد ترجمة كلام عرابي في مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ من ٢٧٥

وكان يعقوب سامي باشا من المخلصين للثورة الوطنية وكان يكره أشد الكره من الخديو انضمامه إلى الأنجلترا ، ويرى أن ذلك خيانة منه للبلاد ؛ وكان يعقوب باشا كذلك من أكبر أنصار عرابي المتجمسين له ...

فلما جاءته برقيمة عرابي اجتمع في نفس اليوم في مقر وزارة الحربية بقصر النيل مع عدد من صفة أنصاره وتشاوروا في الأمر ؛ واستقر رأيهم على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبمغض كبار الضباط وكبار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفي ، وسيبقى يدير شؤون الحرب والأدارة طول مدة القتال .

وقرر المجلس العرفي في نفس اليوم دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الأديان والعلماء ووجوه الأمة من يوجدون بالقاهرة وكبار موظفي الدولة ، للنظر في هذه الأمور الخطيرة وأتخاذ القرارات التي يراها صالحة للبلاد ...

وانعقدت الجمعية العامة أو مجلس العموم كما سميت في مساء الإثنين السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ الموافق غرة رمضان سنة ١٢٩٩ في وزارة الداخلية ، وشهد هذا الاجتماع الخطير نحو أربعمائة عضو ، كان بينهم الأمراء الموجودون بالعاصمة ورؤساء الأديان وفي مقدمتهم الشيخ الإمبابي شيخ الإسلام ، ثم كبار العلماء وقاضي قضاة مصر ومفتى الديار المصرية والنواب وكلاء الوزارات والقضاء وكبار الأعيان والتجار ..

وعرضت على أعضاء الجمعية البرقيتان المتباينتان بين الخديو وعرابي ، والبرقية التي أرسلها عرابي إلى يعقوب سامي وبعد أن تشاوروا طويلا في الأمر ، اتخذوا قراراً خطيراً يدل على قوة روح الأمة ومناصرتها المجاهدين من أبنائها ، وذلك أن الجمعية رأت الاستمرار في إعداد المدة للقتال مادامت سفن الأنجلترا في الشواطئ المصرية وجنودهم في الأسكندرية ، كما رأت استدعاء الوزراء من الأسكندرية لسؤالهم عن حقيقة الأمر ؛ وأوفدت لجنة من ستة مندوبي من أعضائها لسفر إلى الأسكندرية لإبلاغ الوزراء قرار الجمعية ...

وكان الخديو في قصر رأس التين بالأسكندرية يحيط به أعوانه من الأنجليز وتحتاط بحرسه بحارة الأسطول البريطاني وإنه لينتظر بصبر فارغ ذلك اليوم الذي يتوئ إليه فيه برأس عرابي حياً أو ميتاً.

أرق كارتريت في التاسع عشر من يوليو يقول « أرسل الخديو في طلب السير أو كلند كافن صباح اليوم وطلب إليه أن يستفتح حكومة جلالة الملك اتخطا خطوة جديدة بلا إبطاء . ويقول سمه إنه من ناحيته يرى أن هذا العمل ضروري جداً ، وأنه يسر سمه إذا أحاط عالماً بالخطوات التي ينظر فيها . وقد وصف سمه قوة عرابي با أنها الآن بلفت من العظمة جداً ينشر الرعب وبشه في عقول الوطنين جديماً ، وأن سيطرته على البلاد وبخاصة القاهرة يجعل عائلات جميع الوالدين للخديو وأملاكه تحت رحمته ، أو الذين يسترب في أمرهم أنهم مواطنون . ومن ناحية أخرى فإن هناك إشاعة مستفicense بأن إنجلترا سوف يحال بينها وبين خططها بسبب الخلاف بينها وبين الدول . وستكون عاقبة هذين الاعتبارين أن يصبح من الصعب على سمه أن يحتفظ بمن يشايعونه متهددين »^(١)

وهذه البرقية صريحة في أن الخديو لا ينضم إلى الأنجليز خسب ، بل أنه يستعد لهم على مصر ويستحثهم في صورة من القول لا تحتاج إلى تعقيب ...

وجاء إلى الأسكندرية من بور سعيد عمر باشا لطفي بطل مأساتها ؛ يقص على الخديو والأنجليز من يحاها من الأباطيل ليس فيه من الحق إلا ما كان من صالح الخديو إعلانه ، وحتى هذا القدر من الأنباء قد جاء به على صورة ممسوحة أملتها شفائه ومن ذلك ما ذكره عن حوادث اغتيال بعض الأوربيين داخل البلاد ومن ذلك وصفه المجلس المركزي بأنه مجلس عدائي حضره نحو مائة من العلماء والباشوات والتجار ، ومنه ما ذكره عن الشيخ حسن العدوى أنه قال إنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديو بعد اليوم وإن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد وافقه الشيخ عليش على ذلك ؛ ومنه أن أحد الباشوات اعترض على الشقيقين

(١) مصر رقم ١٧ من ١٦٥

وتشكك في صحة ما أرسله عرابي من الأنباء وطالب بالدليل عليها فوَّت إليه بعض الضباط وأرادوا قتلها ؛ ولما أعيد النظام أبدى بعض الحاضرين أنه إذا كان للامة أن تشكو شيئاً من الخديو فإن السلطان هو الذي ينظر في شكوكها وليس للمجلس هذا الحق ؛ وقال بطريق الأقباط إننا سمعنا من جانب واحد هو جانب عرابي ولم نسمع شيئاً من الخديو ... إلى آخر هذا الخلط المرذول ...

ومما أورده بطل مذبحة الأسكندرية كذلك مشوهاً ممسوخاً قوله ، إنه شاهد من القطار وهو مسافر إلى القاهرة عقب ضرب الأسكندرية حيث كثير من الأوروبيين ملقاء على الطريق وقد اغتالهم الجندي وقطع الطريق ، وأنه شهد في محطة طوخ مقتل ألماني وزوجته ، وأن طنطا ودمياط والحلة هبّت تهباً تماماً وقتل جميع من كانوا فيها من الأوروبيين .

وأنه بأمر عرابي باشا قد سجن من كبار الموظفين إبراهيم باشا أدهم مدير الفريبة وحسن بك مدير المنوفية وكامل بك مدير القليوبية .

وأن الضباط يعقدون اجتماعات كثيرة برئاسة محمود سامي باشا في قصر النيل ؛ وأن عرايماً باشا قد طلب إلى المديريات إرسال مسدسي عدد المذكور في كل منها إلى كفر الدوار مسلحين بالنهاية ؛ كما أنه طلب للخدمة جميع الجنود القدامى من كل سن ومنهم من بلغ أرذل العمر إذ كانوا في جيش محمد على نفسه .

وأن الخليل والأقواء تحمل قسراً من داخل المديريات ، وأن المديريات جميعاً في حال عامة من الفوضى التامة ؛ ويسود القاهرة ذعر عظيم وإن لم يقع فيها حتى الآن ما يحمل بالنظام ... (١)

وقد أرق كارتيرت بأقوال عمر لطفى هذه ألى حكومته لتنتفع بها في الجهة على عرابي في كل فرصة دولية تسنح لها ...

وليس أدل على تشويه عمر لطفى الحقائق وبعدها بعداً كبيراً عن الأمانة من إراده نسباً حبس الموظفين في صورة تشعر المرء بطفيان عرابي ، مع أنه حبس هؤلاء

الموظفين رهن المحاكمة لأنهم تهاونوا فوسمت حوادث اغتيال في أقلّتهم استاء لها عربابي أعظم الاستثناء ، وكان في مقدمة المتهاونين إبراهيم أدهم باشا مدير الغريبة فقد تعارض وترك الفوغاء يعيشون في الأرض فساداً حتى لقد شاركوه بعض خفراً المدبرية ، وكانت من جراء ذلك أن قتل في طنطا نحو مائتين من الأجانب وفي الحلة نحو تسعين ..

وقد أرسل عربابي فرقاً من الجيش على الفور إلى طنطا والملحة وشبين الكوم ، وأرسل قطارات تنقل من يشاء السفر من الأجانب بالجانب إلى الإسماعيلية وبور سعيد ومن كان لهم همة مشكورة في تسكين هذه الفتنة أهدى باشا المنشاوي فقد آوى في بيته نحو ثلاثة مائة من الأوروبيين والسيحيين وظلوا في حياته ورعايته حتى انتهت الحرب ...

ما بلغ الخديوقرار الجمعية العامة حتى أعلن قراره في اليوم الثاني والعشرين من يوليو عزل عربابي من نظارة الجهادية والبحرية ، ذلك القرار الذي صدر منذ اليوم السادس عشر كما جاء في برقية كارتريت إلى جرانفل ، وكان الخديو في هذه الأيام الستة بين إصدار القرار وإعلانه يحاول استدراج عربابي إلى الإسكندرية كما يبينا للقبض عليه غداً وعدواناً ...

وقد أعلن الخديو أن هذا الأمر بالعزل كان بناء على قرار من مجلس الوزراء وعين الخديو عمر باشا لطلق مكان عربابي ناظراً للجهادية .

أما قرار العزل فهذا نصه « إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحباً المسارك وإخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخارات التلفافية عنا ومنع ورود البوستة إليينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم باسكندرية واستمراركم في التجهيزات الحربية وارتكابكم عدم الحضور بطرقنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عززناكم من نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوماً »^(١)

(١) الواقع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

وأذاع الخديو عملاً بنصيحة كارتريت وتنفيذها تعلمت جرائيل منشوراً على
على الجُدد بشوارع الأسكندرية في اليوم الثاني والعشرين من يوليو وفيه يبرر
الخديو عزمه عرائياً، وما احتواه هذا المنشور قول الخديو : - ليعلم كل من يقرأ
هذا الأمر سبب عزل أحد عربى باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب
الشواطئ ، حطمت قلاعنا وحطمت أربعة مدفع من مدافتنا وقتل القسم الأكبر من
رجال مدفونينا أو عطلوا ، بينما لم يفقد الأسطول الأنجلترا إلا خمسة رجال ولم
تصب سفننا إصابات ذات بال ؟ وجاءنا حينذاك أحد باشا عربى يعلن إلينا النبأ
ال المؤلم عن تحطم حصوننا . وقد طلب الأدميرال الأنجلترا منا إخلاء قلاع المعجمى
والدخيلة والمسك لاحتلالها جنوده ، ولما كان مجلس الوزراء منتقداً بحضور
درويش باشا فقد تقرر أنه لا يمكن إخلاء القلاع إلا بأمر من صاحب الجلالة
الشاهنية السلطان ، وأنه على عكس ذلك صار من الضروري العمل على تدبير
وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة تمنع نزول الجنود الأجنبية ؛ وفي
نفس الوقت أرسلنا برقية بذلك إلى الباب العالى ؛ ولكن عرائياً باشا توجه إلى
جهة باب رشيد بالأسكندرية دون أن يتخذ أى إجراء حربى ، فأرسلت إليه أحد
باورى ليذكره بأنه يجب عليه إرسال إمدادات إلى القلاع المذكورة ، فأجاب بأنه
لا يستطيع أن يرسل جندياً واحداً ، وأمر الجناد ، بأن ينسحبوا معه وعسكر في
كفر الدوار تاركاً المدينة بغیر دفاع «^(١) ».

وإن المرء ليعجب حتى ما يفرغ عجبه من هذا الكلام ! ويتساءل بحق هل كان
الخديو يقرأ هذا قبل إذاعته ؟ إذ كيف يجمع الخديو بين هذا القول وبين ما جاء في
برقته إلى عربى بكفر الدوار إذ حمله تبعه الفرس بنظرآ لاستمرار الأعمال التي كانت
جاربة بالطوابى وتركيب المدافع التي كلها يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها
 وإنكارها » وإذ دعاه إلى أن « يصرف النظر عن جمع العساكر وعن كافة
التجهيزات الحربية » ..

(١) مصر رقم ١٧ من ٢٢٢

ومن المفاجئ المؤلم مماً أن يقول توفيق في نفس الوقت « ولو لم يتحقق لدينا أن نية الأنجلترا والفرنسيين ليست نية استيلاء بل نية إصلاح أو كان عندنا أدلة شبهة في ذلك لسkenا أول من يقوم بالمدافعة بأرواحنا وأموالنا إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً »^(١).

ولكن ماذا عسى أن يقول توفيق غير هذا وهو لا يستطيع أن يجعل من من الباطل حقاً ، ولا يستطيع في الوقت نفسه أن يسكن ومن ورائه كارتريت وفي دخلية نفسه شديد مقته لعرابي وعظيم سخطه على الثورة ؟

وأرسل كارتريت في اليوم الثاني والعشرين كتاباً إلى جرانفل يقول « إنما إلى رسالته بتاريخ الأمس بشأن ما حصل في قصر الرمل أثناء الضرب وبعده ، أفيدكم أنني تلقيت من المصدر نفسه زيادة على ما سلف أن عرابياً باشا حينها سله الخديو ماذا ينوي عمله في المستقبل أجاب بأنه سوف يلتجأ إلى تدابير غير نظامية حيث أنه لا قبل له بمقاومة الأنجلترا . وكان عرابياً بهذا يهدى كان من إحراق المدينة وتخريبها وحبس الماء عنها^(٢) ، ولقد لمح عرابي باشا قبل ذلك في حديث له مع رجل إنجلزي إلى ما سوف يتبعه من وسائل المقاومة .

ومن الجلي أن قوة عرابي الرئيسية كانت في وسائله البربرية التي لا وازع يصرفه عنها ؛ وإن ليسود بين موظفي القصر الآن خوف شديد مما عسى أن يصنه عرابي بأملاكه في القاهرة وفي غيرها ، حتى إن ذلك ليشن عمل الخديو ؛ وإن سموه ليحجم عن إعلان عصيان عرابي بسبب ما يفضي إليه ذلك من مكاييلته بكيله وفي مقابلة لي مع سمو الخديو بالأمس حاولت أن أصور له ما يحدهه مثل هذا الأعلان من أثر أدبي ، وما يدنه من الشجاعة في قلوب من لا يزالون موالين لسموه في القاهرة وغيرها ؛ فأجاب الخديو بأنه ليس ما يدعوه في الأسكندرية إلى القول بأن قوة عرابي قد ذهبت ؛ أما عن القاهرة فأنا أترى إليها الآن بعزل عرابي ، من

(١) الواقع المصرية ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨١

(٢) يقصد ما ذكره في برقة سالفة من أن عرابياً أخذ يسد ترعة الحمودية

بور سعيد ، وليس لديه وسيلة لأذاعة بلاغ ضد هناك . وأضاف سمه أن المديرين في الأقاليم لا يحرقون في الظروف الحالية إطاعة أوامره ، ولكنه يتخذ الخطوات لأذاعة منشور فيهم بأيدي بعض البدو ...

وإنه ليؤسفني أن أقرر ، أنه على تقدير ما يذكر الخديو بشأن الأسكندرية ، لا يزال يغادرها كثير من العرب لينضموا إلى عربى ؟ وربما كان سر ذلك إلى خوفهم مما تهدد به من عقاب في بلاغاته الأخيرة وإن كان يمكن القول إلى حد ما بأن ذلك يرد إلى الذعر الذى استولى عليهم من نقصان الماء نقصاناً واحداً^(١) . ومن عجيب ما يذكر في هذا الصدد ، أن كارتير قد اقترح على حكومته الاعتراف بوزارة راغب باشا بعد طرد عربى منها وتجديد العلاقات معها على أساس الودة ، مع أن راغباً بعد مسئولاً عن كل شيء يسأل عنه عربى ، بل هو يحكم كونه رئيس مجلس الوزراء أكثر مسؤولية منه إذا سلمنا جدلاً بأن في الأمر مسؤولية ، وما يزيد الأمر غرابة أن عرايضاً كان نائباً عن المجلس الذى انعقد في اليوم العاشر من يوليو بقصر رأس التين برئاسة الخديو ، ذلك المجلس الذى قرر أن الحصون سترد على الأسطول بعد القذيفة الخامسة ... فكيف تجدد الحكومة الأنجلizية علاقتها بوزارة راغب التى أصدرت هذا القرار وتعمن في معاداتها عرايضاً الذى لم يشهد هذا المجلس ؟

وللقارئ أن يمعن النظر في هذه البرقية التي أرسلها كارتير إلى جرانفل في اليوم الثاني والعشرين من يوليو قال « بما أن الوزراء قد تجنبوا الآن كل فكرة عدائية وبما أنهم يظهرون صراحة ولاهم للخديو ، فقد طلب إلى سير أ . كلفن أن أعرض على خاتمكم ما يذهب إليه من أنه مما ينصح به تجديد العلاقات الدبلوماسية معهم مع استثناء عربى باشا بالضرورة من بينهم ؛ وإن مثل هذه الخطوة كفيلة بأن تساعد الوزارة المصرية في محاولتها كسب الشعب ثانية إلى جانب توفيق باشا كما أنها تثبت الثقة في نفوسهم بشأن ما تنويه الحكومة الأنجلizية ؛ وقد شرح

السير أو كلند كافن في مقابلة شخصية بينه وبين وزير المالية سبب المعارضه التي كانت توجهها المراقبة إلى الوزارتين اللتين اشتراك فيما عرabi ، فذكر أن ذلك يرجع إلى أن هاتين الوزارتين كان قياعها خطراً على قانون التصفية ، ولم يكن في الأمر أي اعتبارات سياسية أو دولية ، ولما كان الخديو قد أسقط عرabi باشا ، فقد أصبح من الأمور الحامة أن نستعيد نفقة البلاد ، وأن ثبت للملأ أن المعارضه التي كان يوجهها من قبل ممثل حكومة جلالة الملك لم يقصد بها إلا العصابة العسكريه الذين كانوا يؤدون بسياساتهم إلى القضاء على الوضم المقرر والإخلال بعاليه الدولة ! ولا يمكن أن تقصد بها وزارة تؤيد بولائهم الخديو ، وتحبس في كراسها بارادته ! ويقول السير أو كلند كافن إن شرحه هذا قد صادف تجاحياً كبيراً ، ويرى أنه إذا لقيت الوزارة الحاليه اعترافاً من حكومة جلالة الملك (دون أن يؤثر ذلك بالضروره في حرية الخديو في العمل بشأن استمرارها أو تغييرها في المستقبل) أدى ذلك إلى تأثير حسن بوجه عام ، وفي حالة ما إذا صادف هذا الرأي قبولاً لديكم فإنه يقترح أن يسمح للرقبيين ثانية بحضور اجتماعات مجلس الوزراء » (١)

وفي هذه البرقية الخبيثه أبلغ الأدلة على أن الحكومة الانكليزية لم ترم إلا إلى القضاء على الحركة الوطنيه القوميه التي يعتلهما عرabi ، إن كان الأمر لا يزال يحتاج إلى دليل ...

لم تحفل الأمة بأمر الخديو القاضي بعزل عرabi ، بل لقد زادها ذلك استحساناً كاملاً والتتفافاً حوله ، وكان الناس يتوجهون بوجوههم إلى السماء ويرفعون أكفهم كما ذكر عرabi قائلاً « الله ينصرك يا عرabi »

وكره الناس انضمام الخديو إلى الأنجلترا أعظم الكره ، ونظرروا إلى عرabi نظرة المدافع عن كيان البلاد في وجه الفاصل المتبدى الذي لم يرع حرمة لقانون والذى أطلق مدافعته على الأسكندرية في غير وازع من ضمير أو شرف

ولذلك أضاف الناس إلى ألقاب عرابي رئيس الحزب الوطني وقائد الجيش الوطني ، لقباً جديداً هو « حارى حمى الديار المصرية ». وهذا ما خاطبته به الجمعية العامة وفي هذا الذي فعلته الأمة المصرية دليل على أن الثورة القومية قد تغلقت إلى أعمقها لا كما يقول بعض المؤرخين عن جهل مشايخن في ذلك كتاب الاحتلال . وأما عرابي فلم يعبأ بقرار عنده وقد وطد نفسه على الدفاع عن مصر ووقف في خطوط كفر الدوار معتقداً على تأييد الأمة وعلى عدالة قضيته وشرف جهاده في سبيل الحق والحرية ...

وأرسل عرابي إلى يعقوب سامي باشا ليدعوه الجمعية العامة ثانية لانظر في الأمر واجتمع المجلس العرف وقرر دعوة الجمعية إلى الانعقاد .

وفي يوم السبت الموافق الثاني والعشرين من يوليو اجتمعت الجمعية بوزارة الداخلية ، وكان اجتماعاً قومياً خطيراً أعظم وأشنع من الاجتماع السابق ؛ فهو مؤتمر وطني عام شهد له نحو خمسة من وجوه الأمة المصرية وفي مقدمتهم ثلاثة من الأمراء هم الأمير إبراهيم باشا ابن الأمير أحمد باشا ، والأمير كامل باشا فاضل ابن الأمير مصطفى فاضل وهو ابن عم الخديبو توفيق ، والأمير أحمد باشا كمال ابن الأمير أحمد باشا ...

وشهده كبار علماء الأزهر وفي مقدمتهم شيخ الإسـلام الأمبابي وقاضى فضـاة مصر والمفتى ونقيب الأشراف وكان من أبرز الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبدـه والشيخ حسن المدوى والشيخ محمد عـليـش والشيخ محمد أبوالملـاـ الخـلفـاوـى وـشـهـدـهـ كذلك بـطـرـيقـ الـأـقـبـاطـ وـوـكـلـاءـ الـبـطـرـيـكـخـانـاتـ وـحـاخـامـ الـيهـودـ ... وـشـهـدـهـ وكـلـاءـ الـوزـارـاتـ وـالـنـوـابـ وـعـدـدـ كـبـيرـ منـ الـباـشوـاتـ وـكـبـارـ الـضـبـاطـ وـكـبـارـ موـظـفـ الـدـوـلـةـ الـإـدـارـيـنـ وـالـقـضـاةـ وـمـدـرـوـ الـأـقـالـيمـ ،

وـمـنـ الـأـهـالـىـ شـهـدـهـ كـبـارـ التـجـارـ وـالـأـعـيـانـ وـرـؤـسـاءـ الـمـشـائـرـ منـ الـأـقـالـيمـ ... وـعـنـدـىـ أـنـ أـمـ مـاـ اـمـتـازـ بـهـ هـذـاـ الـاجـتـمـاعـ التـارـيـخـيـ الـعـظـيمـ هوـ غـثـيلـ الـأـسـرـ الـصـرـيـهـ الـكـبـرـيـ فـيـهـ مـنـ مـعـظـمـ مـدـرـيـاتـ مـصـرـ صـعـيـدـهـاـ وـرـيفـهـاـ ،^(١)

(١) لم يختلف إلا جرباً وقتاً وأسوان بعدها واصنعوا المواصلات بعد أسابيع .

فقد شهد من كل إقليم عدد من كبار العمد كانوا هم في الوقت نفسه عمداء أسرهم وكبار الجهات التي ينتمون إليها ، وبذلك كانت مصر كأنها ممثلة في هذا المؤتمر الوطني العظيم .

وفي ذلك أبلغ رد على الذين يزعمون أن الحركة القومية في مصر كانت فتنة عسكرية لم تؤيدها الأمة المصرية فها هي ذى الأمة بجمعها طوائفها تقول قول قولها الفصل في موقف من أعظم مواقف الثورة ، موقف الجihad والذود عن كيان البلاد تحت راية زعيم الثورة أحمد عرابى باشا

وكان الاجتماع برئاسة حسين باشا الدرملى وكيل الداخلية ، وتولى قراءة المكابيات الشيخ محمد عبده ؛ وقد تلية في الاجتماع فتوى شرعية من الشاعر حسن العدوى و محمد عليش و محمد أبو العلا الخلفاوي مؤداتها أن الخديو بانحيازه إلى العدو المارب لبلاده يعد مارقاً عن الدين ...

ثم تداول المجتمعون في الوقف الحربى وانتهوا إلى قرار خطير أجمعوا عليه وذلك هو عدم الاعتراف بقرار الخديو الصادر بعزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ؛ ... وهكذا تأكيدت امرأى زعامة الأمة .

وهذا القرار الخطير في الواقع مضافاً إلى فتوى مروق الخديو من الدين هو بثابة خلع توفيق من منصبه ...

وسائل يعقوب سائى باشا أعضاء المجلس قائلًا « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه في الوظيفة فأرجو من المجلس أن يرى رأيه في أوامر الخديو التي تصدر إلى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات نظاره المقيمين معه هل يلزمني قبولها وتنفيذها أم لا؟ » وتدالوت الجماعة في هذا وأصدرت القرار الآتى : « بعد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديو أولاً وآخرأ وفيها الأمر الصادر بعزل أحد عرابى باشا وتلاوة منشورات عرابى باشا ، وبعد معاينة ما عرضه وكيل الجهادية (بصفة هذه الوظيفة) وكونه رئيس المجلس الشكل لإدارة أشغال الحكومة) على المجلس وهو هل وجود

الخديو في الأسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الأنجليز يقتضى عدم تنفيذ أوامره ألم لا ، وإذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها ألم لا ، رأينا أن وجود المساكير في الأسكندرية والراكب الأنجليزية في السواحل المصرية ، ووقف عربى باشا بمدفعه المعد يقتضى وجوببقاء الباسا المشار إليه في نظارة الجهادية والبحرية مداوماً على قيادة المساكير ومتبعاً في أوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله من تلك الوظيفة ، ورأينا وجوب توقف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج عن قواعد الترجم الشريف والقانون النيف ، ويلزم عرض قرارنا هذا على الاعتراض العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات «(١)

أما المجلس العرف ببرئاسة يعقوب سامي باشا فكان هو الذى يتولى شؤون الإدارة العامة في البلاد وكان أشبه بمجلس الوزراء وقد أدى المجلس واجبه على خير ما يرجى من المهمة الوطنية ؛ ومن أهم قراراته ، وضع الرقابة على الصحف والتلفراف ، ومنع السفر إلى الخارج ما دامت الحرب قائمة .

وكان الفيصلان عالياً في تلك السنة فبذل المجلس همة عالية في حراسة ضفاف النيل حتى لا يدهم البلاد خطر الفرق في وقت الحرب ...

هذا إلى ما أمد به الجيش في خطوط الدفاع بالنخبة والرجال والعتاد في نشاط وحمة وإخلاص ، وما أظهره من كفاية في حفظ الأمن والنظام داخل البلاد .

* * *

وكان نفوذ الخديو لا يمدو الأسكندرية ، بل إنه في الواقع لم يكن له ثنى من النفوذ هناك ، فقد كان الأمر كله للأنجليز ، ولم يهد الخديو إلا أسماء يستترون خلفه ويصدرون قراراتهم وأوامره منسوبة إليه .

ونشط السير بوشامب سيمور كاذع في المحافظة على النظام والقضاء على الفوضى حتى لقد عاقب ثلاثة من الوطنيين وواحداً من اليونانيين بالقتل رمياً

بالرصاص بتهمة إثارة الفوضى ، ولكن فاته أن يُؤدب جنوده الأنجليز الذين يستعين بهم على إقرار النظام والذين جاءوا مصر للقضاء على عربى وأصحابه من العصابة ، فقد سرق هؤلاء الأنجليز قصر الخديو بالرمل وانطبق عليهم بذلك المثل السائِر « حاميها حراميها »

أولى كارتريت إلى جرانفل في السادس والستين من يوليو يقول « تلقى الخديو كتاباً من الرمل بالأمس فيه أن جنداء بريطانيين اقتحموا قصر سمه وعانيا في أحشاء للسرقة ؛ وقد توجه إلى هناك فوراً الميجور جنرال سير ا. أليسون الذي أخبر بهذا الحادث ل لتحقيق المسألة ... وقد أخبرني صباح اليوم الميجور أردع الذى رافق الجنرال أنه يعتقد أن القصة لا أساس لها ؛ وظهر أن مدخلاً فتح خلال شباك في الطابق الأسفل وقد أفرغت محتويات الصناديق والصوادر جميعاً ، ولكن ليس هناك من ريب فى أن هذا عمل بضم ساعات وأنه وقع قبل وصول فرقنا ^(١) وانظر إلى هؤلاء الأنجليز كيف يهونون الأمر هنا وينفونه عن جنودهم بنفس الأسلوب الذى يتبعونه حين يهولون ويصرخون في محاولة إلصاق تهمة لا دليل عليها بالمصريين وبعربى بوجه خاص ...

وتولى رئاسة البواليس في الأسكندرية شارلز برسفورد ، وقد أذن للتجار فتح دكاكينهم ليلاً ، كما حتم على كل شخص يسير بالليل أن يحمل مصباحاً وإلا قبض عليه ، وذلك ربما تعود شركه الفاز إلى عملها ... وأخذت الحياة تعود إلى المدينة شيئاً فشيئاً ، وبذل البواليس جهداً كبيراً في إزالة الأنقاض ودفن جثث القتلى ؛ ولم ينته شهر يوليو حتى أضيئت المدينة بالغاز كاً كانت وفتحت القنصليات أبوابها .

على أن أشد ما خوف الأنجليز والأجانب عموماً هو تناقص الماء الآتى من ترعة محمودية ، فقد سدها الجيش بالقرب من جهة كنوج عثمان ، ولذلك أصدر البواليس بطاقات لتوزيع الماء من الصهاريج حسب الحاجة ، ويتبيّن مبلغ خوف

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢١

الأنجليز من سد الترعة في برقة أرسلها كارتريت بهذا الشأن في العشرين من يوليو ، يقول فيها إن ذلك سوف يؤدي إلى هجرة الوطنيين إلى داخل البلاد وإلى التجاه الأوروبيين لسفن ليشرروا من ماء الأسطول ... وكذلك أرق سيمور يهدى تحذفه من هذا العمل ، ولعلهما بذلك كانوا يستحقان حكومتهما لأعداد الجملة على مصر ...

واما تركيا فقد ظلت على حالها من الثلث والتعدد ، ولم تصدر شيئاً بشأن توفيق ولا بشأن عرابي ؛ على أن درويش باشا الذي غادر مصر خفية في اليوم التاسع عشر من يوليو ، قد أعرب عن استيائه من موقف الخديو حتى من قبل أن ينضم صراحة إلى الأنجلتراز ، وذلك فيما أرسله إلى كارتريت في اليوم العاشر من يوليو رداً على تحويله تبعة سلامه الخديو فقد قال درويش بعد أن استعرض قضية الغرب كاتها في صرامة وقوه وأظهر تمسكهم وتنكفهم طريق الصواب « أما عن دعوتك إياي أن أعمل بكل ما في قوتي على ضمان سلامه سمو الخديو فيجب على أن لا أحظ أنه ليس من سلامه المنطق أن يفرق بين الذات الفخمة ، ذات سمو توفيق باشا ، وبين حكومته ؛ وأنه من الأمور الطبيعية أن يشغل الخديو نفسه بضمان أمن البلاد التي يحكمها وسلامتها أكثر مما يشتعل بها بهم شخصه »^(١) .

وبعد أن نحمد هذا الفصل نشير إلى خدعة ثانية أراد بها الخديو أن يتصدى بها عرابياً أو يبيث في صفوفه التردد والانقسام ، وذلك أنه أرسل إليه على إسان على مبارك باشا أحد أعضاء الوفد الذي أرسله الجمعية العمومية إلى الأسكندرية عقب اجتماعها الأول يقترح تأليف لجنة للاصلاح من ينتدبهم عرابي من رؤوساء الجناد لتنضم إليهم لجنة أخرى من الأعيان ... وكانت خطوة على مبارك باشا خدعة لا ريب فيها ، وإن ذهب بعض المؤرخين

إلى أنها كانت رغبة منه في إصلاح ذات البين ، بل إنما القول في غير إسراف إن عمله بالنسبة إلى عربي وأصحابه من قادة الثورة القومية بعد ضرباً من الخيانة ؛ وإنما لنشعر بعظيم الأسف إذ ثبتت هذا عن رجل له جلال أعماله وله مكانته في نهضة مصر الحديثة ، ولكن الحق فوق كل اعتبار ، وحسبنا أن نورد ما يأتى من الأدلة على سوء ما فعل .

أبرق كارتريت إلى جرانفل في الرابع والعشرين من يوليو يقول « أتشرف بأخبارك أن على مبارك باشا وزير الأشغال السابق في وزارة رياض نجح في الوصول إلى الإسكندرية من القاهرة ؟ كان يسود المدح في القاهرة وقت مغادرته إليها ، ولكن هناك قدرًا من القلق بين الناس . وعند كفر الدوار رأى عرايماً باشا وهو يصف وصفاً حياً مارأى هناك من الأمور . أعلنت الحرب المقدسة ، بتأثير الأشياخ . ويأتي إليه أعداد كبيرة من المتطوعين القرويين ؛ ويوزع السلاح على القادمين ويلف المجموع الكلى للقوات الآن ٣٠٠٠ رجل . وتتوافر لديه الأقوات والذخيل ؛ ويقول ضباط عربي إن رغبة إنجلترا هي طرد عربي باشا نفسه وتسريح الجيش ، وتكون فرق أجنبية أو تركية تحمل حمله ولكن هذا إن يكون ... ويقول على باشا مبارك إن العلاقات بين عربي والبدو ليست متينة ؛ وقد علمت من مصدر آخر أن البدو اعززوا معسكره كلياً » .

وأبرق كارتريت بعد ذلك بيوم يقول « إيماء إلى رسالتي بالأمس بشأن التقارير التي تلقيناها من القاهرة وكفر الدوار ، أخبركم أن على مبارك باشا الذي جاء بها زار سير ١ . كافن صباح اليوم ، وأفهمه أن عرايماً باشا وطلبة باشا يتربdan في الواقع في السير في الطريق التي يسلكها الآت ... بل لقد استحقاه بصفة شخصية أن يحس بعض الأنجلز بشأن شروط لاصلاح . وقد أحب سير ١ . كافن بأنه لا يملك عمل شيء ، وأنه يصح أن يذهب على باشا مبارك إلى الأدميرال السير بوشامب سيمور ؛ ولكن الأمر على كل حال بيد المؤتمر ولا يستطيع الأدميرال أن يعمل إلا عملاً الوسيط ؛ وبعد سماع هذه التحفظات استمر على باشا مبارك في

كلامه فقرر ما يأنى : — إنه يظن أنه بعد أن يزال في الحال السد من ترعة الحمودية كدليل على الأخلاص سوف يقترح العصاة على السير بوشامب سيمور أن يسرح الجيش وأن يعود الجميع إلى مواطنهم ويكتفى بنفي القادة المحرضين . فقال السير أ . كلفن إن كان ثمة من شروط ما تقترح فيجب لا يُضيّع شيئاً ما من الوقت لأن قوات عظيمة تهدى الآن ، ولما كان كل خرج ممكناً من البلاد حاصراً فإن خاتمة المحرضين قد فرغ منها ... وأضاف إلى ذلك أنه إذا ابتدأ القتال فأئمهم سيسلكون الطريق التي رسموها ...

ورد على باشا مبارك فأفصح عمما في نفسه بالتحديد قائلاً إن معظم الضباط وفيهم طلبة يتلقون إلى ضمان سلامتهم ، وأنهم إذا نجحوا في الحصول على شروط لأنفسهم بانسحابهم عن عربي ، فإنه وأشباعه الأقربين مما يجدون من إصرارهم سوف يضطرون في عزائمهم إلى طلب الصلح ؛ ويعتقد أنه بهذا يمكن بعثة الجيش وبذلك تنتهي المقاومة ... وأكد له سير أ . كلفن ثانية أن كل مقاومة سوف لا تجدي ، وأنه لا يترتب على أعمال التحطيم إلا خراب مصر لأنه لابد من فرض غرامة عليها ، وانصرف على باشا مبارك مصمماً أن يتصل بطلبه باشا ؛ ولكن السير أ . كلفن كان حريصاً فلم يذكر أى اقتراحات عما تكون عليه الشروط ولا عمما عسى أن يتوقع إذا قبلت شروط من أى نوع ما ... وقد علم السير بوشامب سيمور بما حدث ، ومن الخير أن ترسل إليه بعض التعليمات ليهتم بها في حالة الضرورة» ورد جرانفل في نفس اليوم فقال «تؤيد حكومة جلالة الملك بقوّة لغة السير أ . كلفن في هذا الأمر ، ولكنها ترى لا يشار إلى شيء من هذا في المؤتمر في الرحلة الحالية . وحكومة جلالة الملك على استعداد أن تنظر في أي مقتراحات من جانب عربي على شرط أن يكون أساسها الأخلاص ، ولكن يجب أن يكون منهوماً بأنها لا تقبل إلا الخضوع التام ... على أنه إذا فتحت ترعة الحمودية فسوف تعد هذه الخطوة من جانبها علامه على حسن مقاصده ؛ ولما كانت حكومة جلالة الملك واثقة من ثبات السير أ . كلفن فإنها تكلّ كثيراً من الأمور إلى حكمته .

وفي الوقت نفسه فإن حكومة جلالة الملكة ان تترافق في تدبيراتها الحربية . اتصل
بالأدميرال بشأن موضوع هذه الرسالة «^(١)» .

هذا ما صنعته على باشا مبارك الذى يوسعنا أشد الأسف أن يكون مثله من
دعاة التردد والمزغعة وأن يكون طليعة هؤلاء الذين سوف يكونون أشد على عربى
خطراً من أعداء الأنجلترا ...

وعظمت دهشة عربى أن يكون اقتراح الصلح على أساس قبول عربى ما جاء
في المذكرة المشتركة الثانية التى استقالت بسببها وزارة البارودى ، ولذلك بادر
برفض هذا الاقتراح السخيف معلنًا أنه لا يجوز تأليف لجان بعد قرار الجمعية الموموية
وأذاع عربى من فوره بلاغاً إلى داخل البلاد حتى لا تتمر هذه الخدعة غرماً
من الانقسام والتخاذل وذلك إذ يعلم الجيش وتعلم البلاد أن عربياً يطلب الصلح
وقد جاء في هذا البلاغ أن الخديو انضم إلى الأنجلترا فلا طاعة له على الناس واختتم
بلاغه بقوله « وها نحن بجيشنا الظفر النصوص فى ساكنى الحرب قد بعثنا أنفسنا
في حياة بلادنا وحفظها من الأعداء ولا يرددنا عن ذلك إلا الظفر والنصر أو ارتحال
المعد من مياه اسكندرية بأساطيله ورجاله وإلا فإننا نقابل القوة بعنفها ولا نسلم
البلاد لأحد وفيها ذو روح يتنفس والله يؤيد بنصره من يشاء »^(٢) .

وكان يقرأ الناس هذا البلاغ فيرددون كلنهم الذى ألقواها والتي صارت شعار
البلد كله « الله ينصرك يا عربى » .

(١) مصر رقم ١٧ من ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤

(٢) الواقائع المصرية ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كفر الدوار

رابط عراقي عند كفر الدوار ، وهذا المكان هو ما يعرف في الثورة باسم الميدان «الغربي» ، ولقد اختاره عراقي عند انسحاب الخامسة من الأسكندرية ، كما ذكر محمود فهمي باشا في محضر استجوابه ، وكما ذكر عراقي في التقرير الذي كتبه لخامي وهو في سجنها ؛ قال محمود فهمي باشا « توجهنا إلى كفر الدوار .. وطلعنا إلى الخطة ومنها إلى كنج عثمان وكان تقابل معنا حسن بك ابن كنج عثمان فوجدنا هناك ثلاثة قديعاً فسأل عراقي عن اسم هذا القل قفال له حسن بك اسمه قل الناصر فالتفت إلى عراقي وقال إن ابتداء استحكاماتنا يكون هنا . وأصرني بإنشاء استحكامات وحرر بطلب العساكر وطلب الأنفار للمعملية »

وقال عراقي « وجرت مناقشة فيما عسى أن نفعل إذا أعاد الأدميرال الضرب ، وإلى أي مكان ينسحب الجيش إذا اضطربنا لأخلاص المدينة ؟ وسمحت لمحمود باشا فهمي وخليل بك كامل أن يذهبا إلى محمودية ويفحصا الجهة ابتداء من حجر النواية إلى كفر الدوار وبضمارها للموضع الذي يرونه أليق من غيره » (١) وقال في مكان آخر « أمرت قوادهم أن يتوجهوا بفرقهم صوب ترعة محمودية ... وعند الفروب بلغت جسر السكة الحديد الذي يعبر الترعة وهناك وراء الجسر مباشرة اخترت مكان المعسكر ، وتواجد الجندي من الأسكندرية والرمل أثناء الليل : وكانت الساعة الثانية صباحاً حيث وصل الجندي الذين تركتهم بالأسكندرية فقد تأخروا بسبب الزحام الشديد من الناس والدواب والعربات في الطريق ... وفي الصباح وجدنا أن معسكراً معرض للضرب من السفن فاتقى لنا

مبتدئين بجنودنا إلى مكان يسمى عزبة خورشيد على بعد نحو خمسة آلاف متر من محطة الملاحة^(١)

ويعرو بلغت اختيار هذا الوضع إلى محمود فهمي باشا ونصف المكان في قوله « وكان الفضل في اختيار هذا المكان المنبع الواقع على الخط الحديدى إلى القاهرة والذى تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض الناقع راجعاً فيها أعتقد إلى مهارة محمود فهمي الهندسية ، ولم يكن في وسع عرابى أن يصنع خيراً من اختياره هذا المكان مستقراً لمسكره الجديد ؛ لقد كان بعيداً البعد الكاف عن مدفع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق الضيق الذى مهده خط سكة الحديد . وبهذا لم يكن يمكن اقتحامه من جهة الأسكندرية في حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بأمداداتها التي لا تُتكل ، وكان الجيش حر الانصال بالقاهرة . وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الأنجلترا بنجاح نحو خمسة أيام ، يصد كل الهجمات بل يدفع العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الأسكندرية ؛ ولم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح^(٢)

وقال عرابى في مذكرة المخطوطة « إن الاستحكامات في كفر الدوار كانت تند من عزبة خورشيد إلى كفر الدوار وأنشأوا في كفر الدوار واستحكاما من ترعة محمودية إلى الملاحة وحفروا خندقاً عرضه أربعة أمتار ، وجعل خط الدفاع في المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من محمودية إلى الملاحة ، وجعل ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك التلال السائنة بين محمودية وسد أبو قير .. وقد تم إجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعونة المهندس الحربي المظيم محمود باشا فهمي ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الأهالى من مديريات البحيرة والغربيه والمنوفية » وعمن كان لهم عظيم فضل في بناء هذه الاستحكامات المير الائى محمد بك شكري

(١) المرجع السابق ص ١٢٩

(٢) S, H, Blunt P, 389

أحد الضباط المصريين النابحين في أركان حرب الجيش المصري
وكان خطوط الدفاع في هذا الميدان ثلاثة يبعد كل واحد عن الذي يليه
بأربعة آلاف أو خمسة آلاف متر وكان بين كل خطين خندق عميقه خمسة عشر
قدمًا ، وبنيت على جميع المرتفعات الصالحة قلاع وضع فيها نحو خمسين مدفأً

* * *

وأقام عرابي خيمته عند كنج عمان ، وكان يهدى إليه فيها غير ضباطه وأركان
حربه ، الأعيان والعلماء وكبار التجار وغيرهم من ذوى المكانة والجاه ؛ وكانت
خيمة خيمة هائلة وحسبك أنها خيمة سعيد باشا نفسه ، تفضلت أرملته فقدمتها
إلى عرابي هدية قومية مشفوعة بأصدق أمانها أن يؤيده الله بنصره (١)
 وكانت مصر كلها يومذاك في قبضة عرابي ، تدين له طوعا لا كرها ،
شعاراتها « الله ينصرك يا عرابي ». لأن انتصار عرابي كان في نظر الأمة خلاصها
من جشع الأجانب ومن استبداد الترك والشراكسة
واستجابت الأمة لا بالدعاء فحسب ، لهذا الفلاح من بينها الذي يقف موقف
الشرف والكرامة ، وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال
وقل أن نجد في تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التي لم ينفق فيها قرش
واحد من خزانة الدولة ، والتي قامت على ما بذل الشعب طائما من أقواته
وأمواله ودمه

وإن المرء ليتملكه شعور الاعجاب والفتخار تلقاه هذه الصفحة المشرقة التي
هي بحق أنسع صفحة في تاريخ هذه الحرب ، والتي نسوقها دليلا جديدا على قوة
روح هذه الأمة وكرم عنصرها ، وعلى أن نورتها القومية كانت منبعثة من أعماق
القرى ، وأنها كانت تهز مشاعر بينها هزاً ، وتنقض عنهم سبات القرون الطويلة .
هؤلاء فلاحون يعملون في خطوط الدفاع ، إلى جانب جند فلاحيت من
إخوانهم ، يقودهم مثلهم فلاحون ، وجميعهم تحت إمرة فلاح نجم مثلهم من قرية

صغيرة ، ولم يكن أبوه من الباشوات ولا كان يفتخر بنسب شركى أو تركى ، وإنما كان هو محمد عرابى شيخ بلدة هربة رزنة ...

وكان هؤلاء الفلاحون يدافعون عن مبدأ استشعرته أنفسهم وإن لم يدرك أكثراً كنهه كما يدرك المتعلمون منهم المثقفون ؛ وكانوا في حلتهم أشبه حالاً بأبناء فرنسا أيام ثورتها الكبرى فالبذل والتطوع كان قوام الحركتين ، ولكن ثوار فرنسا كان وراءهم تاريخ طويل من المعرفة والثقافة ، في حين لم يكن وراء ثوار مصر إلا ما عانوه وما عاناه آباؤهم وأجدادهم زمناً طويلاً من الجهل والمذلة .. على أن ذلك لن يضر المصريين شيئاً ، بل إنه ليحسب لهم لا عليهم ، فحسبيهم أن يقفوا وقفتهم هذه وهم ضحية بنت الأمس ...

وقال الشيخ محمد عبده في تقريره الذى كتبه لستر برودى وهو بالسجين ؛ « هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آذنوه رجال من جميع الأجناس والأديان ؟ فكان يتائب المسلمين والأقباط والأسرائيليون لنجدته بمحاس غريب ، وبكل ما أوتوه من حول وقوفة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنكليز ... إنني لم أعلم أنه قبل إن الخدوjo كان بمحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره ؛ وقد رسمخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقل عرائى من منصبه لأنه لم يتعتّل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اثناء نزول غزة من البحر ...

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين ، ويدعون بالنصر لمساًكر عرابى والمزعنة للإنكليز ؛ وكان إمام الخدوjo الشيخ الصالح العالم الأبيارى فى طليعة المذهبين غيره ووطنية فنشر قصيدة إبراهيم دريد . فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم ، وهى عبارة عن دعاء وابهال ، وقد أضاف إليها أبياتاً من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخارى ...

وقد تبع الأئم والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخدوjية ، حتى

النساء ، بالخيل والخيول والنقوص والميرة الازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظرون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيره وحية في جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية ...

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهن واحتياطهم متشوقين لمقاتلة الأنجلتراز وقد شمل هذا الحماس الأقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يحرثون في المدينة ليلاً يتغذون بعد صبح عرابي وفي أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوبشنا^(١) وقال نينيه « كانت ترد كل يوم إلى كفر الدوار إعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والحضر والفاكهه والخيل والماشية ؛ وقد أبدى أعيان الوجهين البحري والقبلي شهامة عظيمة في إمداد الجيش ، وفي مقدمتهم أحمد باشا المشاوى زعم طنطا الوطنى ، الذى أنقذ من الموت فى حادث ١٣ ، ١٢ يوليو عدداً من المسيحيين واليهود ؛ وقد بدأ من الأهلين ما يدل على شديد تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا بعظهر الشرف »^(٢)

وقال عرابى في مذكرة المخطوطة تحت عنوان « كرم المصريين وسخاؤهم ». قامت هذه الحرب الشعواء وليس في خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الأنجلتراز المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية وأزرها في الدوننة الأنجلترازية قبل إعلان الحرب أيام ، وكذلك الأموال الموجودة في صندوق الدين العمومى وقد جملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها ...

وبناء على ذلك تحرر من مجلس العام إلى المديريات بتحصيل الأموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ؛ ومن شاء أن يتبرع بشئ ، إعانة لأخوانهم المجاهدين في سبيل المدفعية عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر ...

(١) ورد هنا التعریف لکلام الأستاذ في كتاب الشیخ رشید رضا وقد راجعناه على الأصل الأنجلترازى (٢) « عرابى باشا » من ٢١٦

ولما أعلن ذلك للمعوم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها وتحلها بالمال والغلال والخيول والجمال والأبقار والجوايميس والأغنام والفاكهه والخضروات ، حتى خطب الحريق ...

ومنهم موسى باك مزار الرجل الوطنى البحث فقد تبرع بألف وثمانمائة ثوب بفترة وثلاثين مجل بقر عن طيب خاطر ، ومنهم والدة الخديو اسماعيل فقد تبرعت بجميع خيول عرباتها وجاراتها في هذا المضمار باق أفراد العائلة الخديوية ؟ وكذلك حرم خيري باشا رئيس الديوان الخديوى وحرم رياض باشا وكثير غيرهم من النوات رجالاً ونساء ، كل ذلك فضلاً عما مدوا به الجيش من الأقشة والأربطة الالازمة لتضميد جراح المساكر وغيرهم . ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يتقاضه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكراً أبها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والفيرة مالم يسبق له عهد في القرون الخالية ؟ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » (١)

وجاء في كتاب أرسله عرابى من منفاه إلى صابونجي في يوليو سنة ١٨٨٣ ، قوله « أرجو أن تذكر صديقنا المستر بلنت ، فضلاً عما كتبناه إليه بتاريخ ١٥ الحالى أن جميع النفقات التي لزمه لائحة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلهما تبرعات من الأمة المصرية بغير تميز بين المقادير . فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائتي حالة عسكرية في المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الجنود . ولكن عند نهاية الحرب كان لدينا في مستودعات الجيش وفي المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون من

(١) فرغ المرحوم عرابى باشا من كتابة هذه المذكريات سنة ١٩١٠ أى قبل وفاته سنة ، جعل الله الجنة متواه .

الجهنمات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والقنم والآمنة، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها ... ولم ينفق على الجيش أبناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » (١)

وتحللت حماسة الأمة للثورة وللحرب فيما ألقاه نفر من أبنائهما من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بنضج هؤلاء وحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية ؟ وإن الذي يقرأ ذلك ليوقن أنه حيال حركة صادقة قوية جديرة بكل ثناء وإعجاب ، ولو اتسع المجال لأوردنا طائفتها منها ؟ فلنكتف بذلك كرأسماء نفر من أصحابها ؛ وقد كان في مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكانتها الأشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد عبد الله أحد أخذذ الحركة الأعلام والأستاذ الشاعر الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر والشيخ على الملاجى والشيخ محمود ابراهيم خطيباً أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسجد الحنفى ، والشيخ حميدة الدهبورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله والملازم على أفندي غال والشيخ أحمد سيف البارى وغيرهم من الخطباء ورجال القلم ...

* * *

وكان جيش مصر العامل تحت السلاح عند بدء الحرب لا يزيد عن عشرة آلاف كما ذكر عرابى ولعل عرايماً يقصد القوات التي كانت في كفر الدوار ؛ فقد ذكر الشيخ محمد عبد الله في مذكرةه إحصاء عدد الجيش فقال « كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفأة من كروب . وكان يوجد في أبي قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة في رشيد وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً ؛ أما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلاً » (٢) وإحصاء الشيخ محمد عبد الله قريب من إحصاء عرابى لأنّه كان يقصد بالثمانية

(١) S; H, Blunt P, 541

(٢) تاريخ الأستاذ الأمام من ٤٥٥

آلاف التي ذكرها أولاً الجيش القائم في كفر الدوار ، فإذا أضيفت هذه إلى تلك الآلاف الأحد عشرة الموزعة على النحو الذي ذكر كان الجيش في مجموعة نحو تسعة عشر ألفاً

ويقول بذلك إن الجيش المصري لم يكن يزيد عن ثلاثة عشر ألفاً من الجنود النظامية كان منهم ثمانية آلاف في كفر الدوار ...

وذكر بيته أن الجيش النظامي لم يكن يزيد عن تسعة عشر ألفاً ، كان منهم ثمانية آلاف في كفر الدوار ، وثلاثة آلاف وخمسين في أبي قير وألفان وخمسين في رشيد وخمسة آلاف في دمياط ، ويتفق هذا الإحصاء مع ما ذكره الشيخ محمد عبده

أما الصحف الأنجلizية فقد بالغت في عدد الجيش المصري حتى كانت ترتفع بهذا المدد أحياناً إلى ما يقرب من مائتين ألفاً ...
وانضمت إلى الجيش النظامي أعداد من التطوعين لم يتوصل إلى حصرهم ، ولعل هذا هو السبب في اختلاف الآراء في إحصاء عدد الجيش المصري وقت القتال ؛ والواقع أن التطوعين كانوا أضعاف النظاميين وقد وزعوا على أعمال مختلفة تتصل بالجهاد ...

وقد عين عرابي باشا محمود فهمي باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش المصري عقب ضرب الأسكندرية وكان محمود باشا فهمي من أكفاء رجال الهندسة الحربية في مصر ، وقد تخرج في مدرسة الهندسخانة ببولاق ونبغ في الفنون الهندسية أثناء التحاقه بالجيش المصري ، ثم عين أستاذًا لعلم بناء الاستحكامات والفنون العسكرية في المدارس الحربية في عهدى سعيد وإسماعيل باشا وقد عهد إليه بتحصين الشوطى المصرية الشهالية فأكسبه ذلك خبرة عملية ، كما أنه اشتراك في حرب البلقان التي نشب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٦ فاكتسب صراناً وخبرة ...

وقد وضع محمود فهمي باشا خطة حكيمة للدفاع عن مصر كانت كفيلة بأن تصد الأنجلز وتنقض مصر من تدبيرهم وسوء مكرهم ؛ وسرى مبلغ ما دخل على



أ
ف
ال
ن
ع
و
ه
:

هذه الخلطة من عوامل أضعفتها وأحبطتها في النهاية . . .

عين محمود باشا خمسة مواقع رئيسية للدفاع ، أولها في كفر الدوار ، وثانية في رشيد وثالثها بين رشيد وبحيرة البراس ، ورابعها في دمياط ، وخامسها في الصالحية والتل الكبير ، وكان الفرض من هذا الأخير صد هجوم الأنجليز من ناحية قناة السويس

وقد سد محمود باشا ترعة محمودية بالقرب من كفع عمان ووضع المدفع على السد لحاجته ؛ كما أشار بسد ترعة الأسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الأسماعيلية والسويس وبور سعيد ؛ وبسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للأنجليز . . .

أما القيادة فقد عين طلبة عصمت باشا قائداً لفرقة كفر الدوار تحت إمرة عرابي ؛ وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبو قير ، وعلى باشا الروبي على مريوط وبعد العال باشا حلمى على دمياط ومحمود باشا سامي البارودى على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسنى لخبطوت الدفاع في الميدان الشرق .

وبعد فهذة أمة ممثلة في مؤتمر وطني وقد نهضت بهضبها بالأمس القريب ، وهذا جيش أمة يقوم على تطوع بنها ، وهذا قائد أمة يذود عنها في وجه إنجلترا ساحبة الإمبراطورية المظلمى ، وملائكة الأساطيل الضخمة ، وذات النفوذ السياسي العظيم . . .

وقد واتت إنجلترا الفرصة لتحقيق حلمها الذى سلورها منذ إخراج جملة نابليون من مصر ، والذى بدده محمد على سنة ١٨٠٧ حين أجبر فرizer على الانسحاب بعد أن أحبط كيده وقد كان يعنى نفسه أن ينضم إليه بعض زعماء الماليك كا ينضم الخديو إلى سيمور اليوم . . . والذى عاد يغازل خيالها حين فتحت قناة السويس وصار فيها النفوذ لفرنسا ، والذى بات منه اليوم على قيد خطوات بعد ضرب الأسكندرية واحتلالها . . .

ونحب من الذين لا يزالون ينكرون الحرب على عرابي أن ينظروا في هذا الذى

تقول ، وأن يذكروا ما قدمناه في صفحات هذا الكتاب من الأدلة على أن نية إنجلترا في الاستيلاء على مصر كانت سابقة لعهد عربي ، وأن يستعيدوا ما قلنا في أكثر من موضع إنه لو لم يوجد عربي لعمل الأنجلزيز على خلقه ...
وليد ذكر هؤلاء حقيقة أخرى لا يخلق بعمرى أن يجهلها ، وهى أن الأنجلزيز حاربوا الحركة القومية الدستورية في مصر لأنها قاتلت في أواخر عهد اسماعيل لتنفذ مصر من دسائسهم ومن شباباً كثما المالية ولأنهم أيقنوا أنهم لو تركوها وشأنها استعصى عليهم بعد ذلك قمعها وضاعت فرصة اصطياد مصر من أيديهم !
ونظن أنه لم يدفع مصر من يمارى في هذه الحقائق ، وعلى ذلك فن لغو القول ومن تفاهة التفكير وسخفه أن يردد إنسان في مثل نغمة الصبيحة قول الجاهلين بحقيقة هذه الثورة القومية وحقيقة أطیاع الأنجلزيز في مصر ، إنه لو لا عربي ونورته ما دخل الأنجلزيز مصر ...

ما سمي عربي إلى هذه الحرب ، ولكنه لما رأى أن إنجلترا قد ساقت البلاد إليها بسياستها ، وأيقن أن الأمر بات أمر كرامة وشرف ودفاع عن حرية يراد بها أن تخنق ، لم يجد بدأ من خوض غمارها كاذبنا فاما نصر يتحقق به كل شيء وإما هزيمة تذهب بكل شيء إلا الشرف والكرامة ؛ ولم يكن يتنتظر من وراء التسليم بلا قتال كاذب بلنت شيء يخالف ما حدث فعلاً بعد الحرب ، وعلى هذا فضلت مصر أن تقف موقف الكرامة ، وما حلها عربي على هذا الموقف كرها وإنما كان ممثلاً لإرادتها وقادها ثورتها ...

وقد حاول عربي ورجال الحزب الوطني أكثر من مرة أن يقنعوا جلادستون بعدلة قضيائهم وبأن العدوان عليهم ليس طريق الصواب ، وكان سفيرهم في هذا السعي صديقهم مستر بلنت ؛ ولكن المسألة كاذبنا في أكثر من موطن في هذا التاريخ لم تكن مسألة إقناع وإنما هي نية مبيضة ، والأنجلزيز في سبيل إمبراطوريتهم ومطامعهم الاستعمارية لا يبالون بشيء ...

وكانت آخر محاولة من عربي في هذا السبيل ما أملأه على صابونجي ليرسله



عبدالسلام حلبي

ف
م
ل
أ
و
إ
أ
ب
ا
ه
و

إلى بذلت كي يحمله هذا إلى جلاستون وكان ذلك في اليوم الثاني من يوليو أى قبل المدوان الفاجر على البلاد بتسعة أيام ... قال عرابى بعد أن أذر بسوء ما يترتب على نية إنجلترا في الشرق الإسلامي كله « لقد سمحت الحكومة الأنجلو-برطانية نفسها أن يخدعها وكلؤها فكلاهما ذلك مكانها في مصر . وستجد إنجلترا نفسها أنها عملت بتصح أسوأ إذا حاولت أن تستعيد ما فقدته بالقوة الوحشية ، قوة المدافع والحراب ... ومن الناحية الأخرى فإن هناك وسائل إنسانية ودية إلى هذا الفرض ؛ إن مصر على استعداد بل إتها للرغبة في أن تصل إلى تفاهم مع إنجلترا على أساس أن تكون صديقها وأن تحمي مصالحها في مصر كما تحمي طريقها إلى الهند ، وتكون حليقها ؛ ولكن يجب على إنجلترا أن تظل في حدود ما تحوله لها القوانين ؛ فإذا آثرت إنجلترا أن تظل على اتخاذها وأن تباها علينا وتهددنا بأساطيلها وفرقها الهندية فلها أن تختار ما تشاء ، ولكن على لا تقدر وطنية الشعب المصرى قدرًا يتزل بها عن حقيقتها ؛ إن ممثلها لم يطلعوها على التغير الذى طرأ علينا منذ أيام طغيان إسماعيل .

وإن الأمم في عصرنا هذا تخطوا خطوات مفاجئة هائلة في طريق التقدم ؛ ورحلة القول إنه ينبغي أن تكون إنجلترا على يقين من أنها عقدنا العزم على أن نحارب ، وأن نموت شهداء أوطاناً كما يقضى بذلك ما جاء به رسولنا أو ننتصر فعيش سعداء مستقلين ؛ وإن السعادة في الحالين هي ما نوعده به ، وإن أممًا تؤمن بهذا لن يعرف لشجاعتها حد »^(١) .

واختارات إنجلترا سبيل القوة وضرب أسطولها الأسكندرية واعتادت عدوانها الفاجر على مصر والمؤغر الدولى الذى انعقد فى الآستانة والذى قرر أن يكون السلطان وحده حق التدخل فى مصر لا يزال قائماً لم ينفع ...

* * *

اختلت إنجلترا الظرف القاهرة الذى أخذته ذريعة لضرب الأسكندرية ، ثم

(١) S. H. Blunt P. 372

فملت ذلك في غير تخرج من شناعة ما تفعل؛ والآن بعد أن خطفت الخطوة الأولى وأزالت جنودها بالأسكندرية، أتجهت سياستها إلى إعماق ما بدأت وتحقيق حلمها القديم باحتلال مصر.

وانحصر همها الآن في أن تصل بسياستها إلى أحد أمرين : إما أن تظفر من المؤتمر بتفويضها بدخول مصر وبذلك يلغى قراراته جائياً ، وإما أن تفعل ذلك دون مبالغة بالمؤتمر كما فعلت حين ضربت الأسكندرية .

وكان الخطر الذي زعمت أنه محقق بالأجنب هو الذي خوفت به المؤتمر بالأمس : فيما إذا تخوف المؤتمر اليوم وقد رحل الأجانب عن داخل البلاد وبقي منهم من يقظة بالأسكندرية؟ ولكن هل يعد الأنجليز حيلة؟ لقد راحوا يخوفون المؤتمر ويندرؤون بوبيل جديده هو الخطر المحقق بفتاة السوبس ...

وأحست إنجلترا أن أمامها صخوراً يجب أن تتجنبها في حدق ويقظة ، فهي لا تأمن أن تراجع فرنسا نفسها فيما فعلت فتضطرح حيادها ، وهي لا تأمن جان الدول الأخرى كالروسيا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا ؟ وهي لا تستبعد أن توافق تركيا على الانضمام إلى المؤتمر وقبول قراره الذي أصدره في اليوم السادس من يوليو وإرسال قوة تركية إلى مصر بناء على هذا القرار ...

لذلك عادت إنجلترا إلى مراوغاتها ، وقد أعدت ل بكل أمر حسابه ؛ وسوف تعمد هنا كذلك على سياسة الأمر الواقع تلك السياسة التي نبغت في اتباعها والتي تسбегها بعفاوشن ومراسلات تقصد بها إلى التعميمية ، ثم تباغت بالخطورة البيتية ، كما تفعل سفنها إذ تثير الدخان من حولها ثم تضرب ضربتها ...

ما كاد يفرغ سيمور من ضرب الأسكندرية حتى أرسل جرانفل إلى دوفرين بياناً مطولاً ليقضي به إلى زملائه ، وفيه تفصيل للحوادث التي أدت إلى ضرب الأسكندرية ، واختتمه بقوله « إن حكومة جلالة الملك لا ترى الآن غير اتباع القوة للقضاء على حال لن تطبق بعد صبراً عليها ... وإنها ترى أن أصلاح وضع وأقربه إلى مبادئ القانون الدولي والعرف أن يكون الجيش الذي يؤودي هذا الفرض

هو جيش الدولة صاحبة السيادة ؟ فإذا لم يقتصر ذلك لتردد السلطان صار من الضروري النظر في طرق أخرى ... ولا تزال حكومة جلالة الملك عند رأيها الذي أبدته في منشورها بتاريخ ١١ فبراير مؤداه أن كل تدخل في مصر يجب أن يكون مظهراً لأرادة أوروبا وتضامنها^(١).

إذن ترى إنجلترا الاستمرار في الحرب ولكن ماذا تقصد «بالطرق الأخرى» ؟ ذلك ما سوف تكشف عنه سياستها ؛ وهل تكون الطرق الأخرى غير انفرادها بدخول مصر كافية بضرب الأسكندرية ؟

وفي اليوم الخامس عشر من يونيو أي بعد ضرب الأسكندرية بأربعة أيام اجتمع المؤتمر لاستئناف أعماله فبلغت المهلة في تاريخه أقصى ما تبلغه ؛ ففي ذلك اليوم تلقى أعضاء المؤتمر اعتماد حكوماتهم للمذكرة المشتركة وأرسلت إلى تركيا الدعوة للاشتراك في المؤتمر وإرسال جيش عثماني إلى مصر تنفيذاً لقراره ...

وبطأاً السلطان وتراكاً وصار يقدم رجالاً ويؤخر أخرى ، حتى بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد ، وببدو أن إنجلترا كانت واثقة من أن السلطان لن يقبل ما طلبت الدول ، فقد أبرق جرانفل إلى دوفرين في اليوم التاسع عشر يطلب إليه إما أن يمهل السلطان أثنتي عشرة ساعة أو يشرع في البحث عن وسائل أخرى^(٢) وأخيراً فاجأ السلطان المؤتمرين في اليوم التاسع عشر نفسه بأنه قبل الاشتراك في المؤتمر للمباحثة في إقرار الوسائل الكفيلة بإعادة الأمور إلى وضعها السليم ...

ولعل تركياً كانت تتوقع أن تؤيدها ألمانيا فتضعن العرّاقيل في سبيل إنجلترا ، إذ كانت ألمانيا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ تميل إلى ملايين تركياً واستقدارها إلى جانبها تحقيقاً لأطماعها في البلقان والشرق ؛ ولكن بسمرك كان يرى من جهة أخرى إلى الواقع بين إنجلترا وفرنسا وذلك بأطلاق يد إنجلترا لتنفرد بالدخول في مصر فتشير بذلك فرنسا ؛ كما أنه في الوقت نفسه كان يريد أن يوقع إنجلترا

(١) مصر رقم ١٠ سنة ١٨٨٢ من ١٧٣

(٢) مصر رقم ١٧ من ١٧٥

وَهُدَهَا فِي سُوْهِ عَمَلَهَا لِيَحْسِبَهَا عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ الْفَرْسُورَةِ؛ وَلِهَذَا رَأَى بِسْمِرُكَ أَنْ يَرْكَعَ إِنْجِلْتَرَةً وَشَأْنَهَا فَلِمَ يَعْنِيهَا تَفْوِيضاً كَمَا فَاعْلَمَهُ وَسَاوِمَهُ وَلَمْ يَضْعِفْ فِي وَجْهِهَا العَرَاقِيلَ اَنْ تَوَقَّعَ تَرْكِيَا أَنْ يَفْعُلَ؛ فَفِي الْيَوْمِ الْعَشَرِينَ مِنْ يُولِيُو أَبْرَقَ دُوْفَرِينَ إِلَى جُرَانْقَلَ وَخَلَاصَةً حَدِيثَ جَرِيَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَائِمَ بِأَعْمَالِ السَّفَارَةِ الْأَلَانِيَّةِ فَقَالَ «إِنَّهُ بَعْدَ اِنْفَضَاضِ الْاجْمَاعِ أَعْدَ عَلَى وَعْلَى السَّفِيرِ الْفَرَنْسِيِّ، الْقَائِمَ بِأَعْمَالِ السَّفَارَةِ الْأَلَانِيَّةِ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرَهُ فِي الْيَوْمِ السَّالِفِ وَمُؤَدِّاهُ أَنْ دُولَ الشَّمَالِ أَنْ تَرْضَى بِتَفْوِيضاً مَا وَأَنَّهُ خَيْرُ لَنَا أَنْ نَتَقْدِمَ وَهُدُنَا مِنْ غَيْرِ إِبْطَاءِ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَقْرَأَ أَنَّ التَّحْفِظَ الَّذِي أَتَيْنَاهُ بِاسْمِ الظَّرُوفِ الْقَاهِرَةِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا نَضْطَرَ إِلَى عَمَلِهِ فِي مَصْرَ؛ وَقَدْ حَدَّدَ حَذْوَهُ السَّفِيرُ الْمَسْوِيُّ فِي الْاجْمَاعِ الْآخِيرِ»^(١).

وَلَقَدْ كَانَ سَفِيرُ النَّسَاءِ أَكْثَرَ صَرَاحَةً مِنَ الْقَائِمَ بِأَعْمَالِ السَّفَارَةِ الْأَلَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ «إِنَّهُ لَا يَعْرِضُ فِي أَنْ تَعْمَلَ إِنْجِلْتَرَةً أَوْ فَرَنْسَا عَلَى شَرْطٍ أَلَا يَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا تَعْمَلُ بِتَفْوِيضاً مِنْ أُورُوباً»^(٢).

وَيَدُوْدُ أَنَّهُ لَمَّا يَئُسَّ تَرْكِيَا مِنَ الْأَلَانِيَا وَأَحْسَتْ مَا كَانَ بَيْنَ مَنْدُوبَهَا وَبَيْنَ دُوْفَرِينَ مَالَتْ أَخِيرًا إِلَى الْاشْتِراكِ فِي الْمُؤْتَمِرِ.

وَكَانَ عَمَلُ تَرْكِيَا هَذَا خَلِيقًا أَنْ يَسْبِبَ ارْتِبَاكًا شَدِيدًا لِلْسِّيَاسَةِ الْأَنْجِلِيزِيَّةِ، وَلَكِنَّ إِنْجِلْتَرَةً سُوفَ لَا تَبَالِيْ بِهِ وَلَنْ تَعْدِمَ أَنْ تَخْلُقَ شَرْوَطًا وَمِبَاحَثَاتَ مَعْ تَرْكِيَا حَتَّى تَبَاغِّهَا بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ ...

وَلَمْ تَنْتَظِ إِنْجِلْتَرَةً مَا عَسَى أَنْ يَفْعُلَ الْمُؤْتَمِرُ وَلَا مَا عَسَى أَنْ يَفْعُلَ تَرْكِيَا ، وَقَدْ رَأَتْ فِي مَوْقِفِ الْأَلَانِيَا وَالنَّسَاءِ مَا يَسْهُلُ لَهُمَا عَمَلَهَا تَسْهِيلًا كَبِيرًا .

فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالْعَشَرِ مِنْ يُولِيُو شَرَحَ جَلَادِسْتُونَ سِيَاسَةَ الْحُكُومَةِ الْأَنْجِلِيزِيَّةِ فِي مَجْلِسِ الْعُومَومِ حِيَالِ الْمَسَأَلَةِ الْمَصْرِيَّةِ فَفَاهُ بِتَصْرِيفِ جَلِيٍّ وَصَلَّى بِهِ إِلَى وَضْعِ الْمُؤْتَمِرِ تَلْقَاءَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ؛ وَوَاضَعَ أَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ بِهِ إِلَى الرَّدِّ عَلَى قَبْوُلِ تَرْكِيَا

(١) مَصْرُ رقم ١٧ من ٢١٦

(٢) من ٢٠٢

دخول المؤتمر وتنفيذ قراره قال «إننا نشعر أننا لم نؤد واجبنا إذا لم نحاول أن نغير الحال الداخلية القائمة في مصر الآن من الفوضى والاقتتال إلى السلام والنظام؛ وسوف ننظر فيما تبقى لدينا من وقت في تعاون دول أوروبا المتعددة وإلينا إذا كان سبيل ذلك التعاون مفتوحاً أمامنا» ثم أضاف إلى ذلك بين هتاف النواب واستحسانهم قوله «فإذا أعينتنا جميع الوسائل المؤدية إلى التعاون فإن هذا العمل سوف تضطلع به إنجلترا وحدها»^(١).

ولتكن الجملة لم تكن تزيد أن تذهب في معارضته تركيا إلى حد إغضابها وذلك لأنها كانت تدخرها لأمر خطير ذلك هو أن يعلن السلطان عصيان عربي فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة في نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين ... لذلك سوف تعمد الجملة إلى المراوغة والمصانعة حتى تظفر بهذا التصرّح الخطير ثم تدير ظهرها لتركيا آخر الأمر في غير مبالاة وفي غير هواة ... وهل يعني الجملة قبول تركيا تنفيذ قرار المؤتمر والاشتراك فيه عن إعداد جلتها على مصر والسير فيها إلى نهاية الشوط؟ كلا بل إن ذلك كان حافزاً لها على سرعة البت لتضم تركيا وغيرها حيال الأمر الواقع ...

وَمَا كَانَتْ مُعَارِضَةً لِرَكْيَا سِيَاسَةً إِنْجِلِيزَةٍ لِتَغْنِي عَنْهَا شَيْئًا ، وَإِنْ إِنْجِلِيزَةً اتَّفَقَتْ مَا بَيْنَ الدُّولَ مِنْ تِيَارَاتٍ خَفِيفَةٍ يَصْبَعُ مَعَهَا إِجْمَاعٌ كُلُّهَا عَلَى مَنَاهِضَتِهَا ، وَتَدْرِكَ مَبْلَغَ أَسْتَعْدَادِ كُلِّ مِنْهَا لِلتَّدْخُلِ الْفَعْلِيِّ فِي شَؤُونِ مَصْرَ .

ومضت إنجلترا في ميادتها ، ففي اليوم السابع والعشرين من يونيو وافق
البرلمان على المبلغ اللازم للحملة وقدره ٣٠٠٠٠٠ رُولنٌجنيهًـ بأغلبية ٢٧٥ عضواً
لنقاء ١٩ من المعارضين ...

وأعد خمسة عشر ألفاً من الرجال للسفر إلى مالطة وقبرص ، وأمر بإرسال خمسة آلاف من المجنود إلى مصر وعين السير جارنت واسلي قائداً عاماً للحملة الأنجليزية على مصر « ليقضى على نورة عسكرية في تلك البلاد ورغبة في تأييد

(v) M_t E_t Cromer P_t 234

سلطة سمو الخديو كأقرانها الفرمانات السلطانية وال العلاقات الدولية القائمة ». وكانت إنجلترا قد أخذت تعمل على وضع الصعب في وجه ركيماً منذ أن ثبت لديها أنها قبلت قرار المؤتمر فأرسل جرافيل إلى دوفرين في الحادي والعشرين من الشهر يطلب إلى السلطان « في عبارات مناسبة أنه بعد المراسلات التي جرت والتباوط الذي حدث ، لم يبق له منأمل به يستعيد نفقة حكومة جلالة الملك إلا أن يعلن في الحال بلا غاية صالح الخديو وفيه قرار بأن عراياً يعهد من المصاہة »^(١) وكانت ركيماً ترى بذلك إلى المراوغة كاذبة كرنا زيمياً تعد العدة لحملتها وتبين سياسة الدول الأخرى ولعلها كذلك تظفر بهذا البلاغ الذي سوف تعيد السكرة للظفر به مما كلفها ذلك من جهد ...

أما عن موقف فرنسا ، فكان يتحكم في سياستها نحو المسألة المصرية عامل قوى ، وذلك أنها كانت لا تستطيع إغضاب إنجلترا ، لأن سياسة بسمارك كانت موجهة في نشاط إلى وضعها في عزلة سياسة ، وكانت تدرك فرنسا بعد أن انضمت إيطاليا في مايو سنة ١٨٨٢ إلى التحالف بين ألمانيا والنمسا ، أن سياسة بسمارك في طريقها إلى النجاح ، وأنه خير لفرنسا أن تحرص على موافقة إنجلترا وروسيا ؛ وهي لا تأمن إن شاركت إنجلترا في حملتها على مصر أن يؤدي ذلك إلى الخلاف بينهما ، كما أنها بالضرورة لا تستطيع أن تتفق منها موقف المعارض لهذا الاعتبار .

وكان بسمارك لا يفتئ بلابن إنجلترا في المسألة المصرية ليثير بذلك فرنسا عليها تدخل فيصيب بذلك غرضين : أن يجعل فرنسا في وضع لا يمهد فيه أن ينشب الخلاف بينها وبين إنجلترا ثم توزيع جزء من قواتها في مصر وقد وزع جزء منها في تونس منذ احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ ...

لهذا انقسم الرأي العام في فرنسا قسمين ، ففريق يريد التدخل في شؤون مصر وفريق يدعو إلى عدم إثارة ما يمس التحالف بين إنجلترا وفرنسا ... على أن كل الفريقين اتفقا على وجوب اتخاذ الوسائل الفعلية للدفاع عن قناعة السويس بقطع النظر عن دخول مصر .

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٨٧ .

وكان رئيس الوزارة المسيو فرسنيه يرى أن أسلم حل هو أن تقولى تركيا التدخل وفقاً لقرار المؤتمر ، وبذلك لا تفرد إنجلترا باحتلال مصر ولا يكون هناك مجال للخلاف بينها وبين فرنسا ولكن أنى له أن يظفر بهذا الحل ؟

وفي الثاني والعشرين من يوليو أرسل جرانفل إلى السفير الأنجليزى في باريس يقول له « قدم هذه المقترنات إلى الحكومة الفرنسية : أولاً . مالم يرد من الباب المالى موافقة من نوع يمكن أن نحول عليه فى الحال ، ففي هذه الحال ترسل تعليمات إلى المسؤولين الأنجليزى والفرانسى ليقولا لبقية السفراء إن إنجلترا وفرنسا لم تمودا تعتمدان على التدخل التركى ، ولما كانتا تريان ضرورة العمل السريع لمنع أى خسارة جديدة في الأرواح ولمنع استمرار الفوضى ، فأنهما تعمزان - إذا لم يكن لدى المؤتمر خطة أخرى - أن تبحثا مع دولة ثالثة الوسائل المؤدية إلى حل .

ثانياً - أن يطلب إلى إيطاليا أن تكون هي الدولة الثالثة .

ثالثاً - أن تشاور في الحال في تقسيم العمل .

رابعاً - أن تكون قناة السويس ضمن المشروع العام لهذا العمل الائتلافى^(١) وفي الرابع والعشرين رد القائم بأعمال السفارة الفرنسية في لندن على هذه المقترنات « بأن الحكومة الفرنسية قد صحمت على أن تفصل مسألة حماية قناة السويس عن المسألة التي عرفت بالتدخل في مصر ... وأتها ستبعد عن أي عمل في داخل مصر إلا إذا كان لرد عدوان مباشر ، وإذا كان الجيش الأنجليزى يرى من الملائم أن يضطلع بهذا العمل فليس له أن يعتمد على مشاركة فرنسا ; وفي الوقت نفسه فإن مسيو فرسنيه يرغب أن يكون مفهوماً أن الحكومة الفرنسية لاتعارض في إقدام إنجلترا على هذا إذا عزمت على الإقدام^(٢) .

وبعد ذلك بيوم أرسل السفير الأنجليزى بباريس إلى جرانفل يقول إنه قابل

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٩٤

(٢) ص ٢١١

فرنسينيه فقال إن رد الحكومة الفرنسية « هو أنها في الوقت الحالى لازم الذهاب إلى ما هو أبعد من التعاون المحدود على حماية قناة السويس ، ذلك الذى تم الاتفاق عليه » وأضاف السفير الأنجلوزى أن فرسينيه لم يبد اعتراضًا على اعتزام الحكومة الأنجلوزية دعوة إيطاليا^(١) .

وكان غرض إنجلترا من دعوة إيطاليا في الواقع أن تبادى في إدعائهما أنها لا تريد الانفراد بالعمل وأنها لم تجد عوناً من فرنسا التمسه عند إيطاليا ، وأنها تبذل ما في وسعها في سبيل التعاون الدولى الذى زعمه جلادستون في تصريحه بمحلس العموم لكيلا يكون لأوروبا بعد ذلك حججة على إنجلترا ...
واشتدت الممارضة في وجه فرسينيه في المجلس التشريعى资料 على آخر اتصال يenne وبين السفير الأنلاني في باريس ذكر فيه ذلك السفير أن المانيا ترى أن خير وسيلة حل المسألة المصرية هو التدخل التركى ...

ورأى الفرنسيون أن بسمركيريد بذلك أن يسند وزارة فرسينيه ، وعدوا ذلك تدخل فى شؤونهم الداخلية ففضبوا على وزارتهم أى غضب .
وفى الوقت نفسه أرسلت إنجلترا إلى فرنسا تقول في اليوم السابع والعشرين من يوليو « إن حكومة جلالة الملك وإن كانت قبل اشتراك تركيا فيما يتصل بالتدخل فى مصر إلا أنها ستمضى فيما شرعت فيه من الوسائل »^(٢) .

لذلك حينما استمرت النقاشة في المجلس التشريعى الفرنسى في التاسع والعشرين من الشهر ، خذلت الوزارة بأغلبية ٤٦٦ عضواً حيال ٧٥ ، فاضطرت إلى الاستقالة وخلفتها وزارة سوف تنقض يدها عمما قريب من المسألة المصرية .

ففى اليوم التالى ردت الحكومة الأيطالية على اقتراح اشتراكها فى التدخل برفضها هذا التدخل من جانبها تاركًا إنجلترا تتحمل تبعه التدخل وحدها .
ومما يحمل على العجب أن إيطاليا كانت قد ثارت تأثيرها أول الأمر لرغبة

(١) مصر رقم ١٧ من ٢٠٩

(٢) مصر رقم ١٧ من ٢٣٤

إنجلترا في الانفراد بالعمل وحملات الصحف الإيطالية على سياسة إنجلترا حملة شديدة وحملتها تبعة ما وقع في مصر من ارتباك ونددت بعظامها الاستهارية ؟ وكانت إيطاليا الطامحة في شمال أفريقيا حانقة على فرنسا التي استولت على تونس وزاد حنقها على إنجلترا التي همت بالتهم مصر . وكان من أسباب دعوة إنجلترا إليها لشاركتها في مصر هذا الحنق ؛ ووجه الموجب أن تنقض يدها بعد ذلك من المسألة بهذه السهولة .

وأشارت روسيا على مندوبيها بعدم حضور المؤتمر في نهاية يوليو وذلك «لأنها اشتربت فيه على أن تكون قراراته ذات قيمة لا على أن يكون مسجلاً لحقائق واقمة خسب»^(١) .

وبذلك أخلت جميع الدول سبيل إنجلترا للعمل بغير دها ، وهي إن لم تظفر بتفويض من المؤتمر بتدخلها لن يضرها ذلك ما دامت قد أطلقت يدها ، وما كانت إنجلترا تهمّ يوماً بالشكل دون الجوهر .

ولم تتمد إنجلترا تحفلي بركيما ، وإنما استمرت في خططها التي راحت بها توهجها أنها جادة في دعوتها إليها للعمل على حل المسألة ، حتى تظفر منها بأعلان قرار العصياني الذي رأى عرايضاً به فقصيميه ، وتنال به منه أكثر مما تناول بجنودها وأسلحتها ...

ولندن المؤتمر عند هذا الوضع من مهزاته لنعود إلى خطوط الدفاع عند كفر الدوار ، ولنا بعد ذلك عودة لنبلغ بهزيمة المؤتمر نهايتها ولنتتبع سياسة إنجلترا حتى نهاية الشوط ...

كان أول عمل من جانب المصريين هو سد ترعة محمودية كما سلفت الأشارة إليه لمنع الملاحة العذبة عن الإسكندرية ، ولقد ازرع الأنجلزيز من هذا العمل وأخذتهم منه حيرة ...

(١) مصر رقم ١٧ من ٢٥٩

وفي اليوم السادس عشر من يوليو أُبرق كارتريت إلى حكومته أنه يخشى من هجوم ليلي على الأسكندرية ، وأن الأدميرال أرسل سفينتين إلى أبو قير خافة أن يقطع عرابي الشاطئ ويدع ماء البحر ينساب ؛ وقد سلفت إشارة منها إلى ذلك .
بقي الحال على ذلك بقية شهر يوليو وإنجلترا تعد العدة لحملتها السكري وتبدل نشاطها السياسي في المؤتمر وفي المواسم الاوروبية حتى أطلقت بدها في نهاية الشهر
كما يلينا ...

ففي اليوم الخامس من أغسطس بدأ الأنجلوين هجومهم ببعض ما لديهم من الجنادل قبل أن يأتيهم المدد ، فزحفوا من الرمل في نحو ألفي مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ؟ فلما صاروا على بعد ألف وخمسمائة متر من الخطوط المصرية ، تصدى لهم المصريون في أورطتين في مثل عددهم تحت قيادة البكباشين أحد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم ... ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكتات من الفرسان ، وحمل المصريون على الأنجلوين حملة قوية ، وبعد ثلاث ساعات ونصف ساعة اضطرب الأنجلوين إلى التقهقر وفروا إلى الرمل مهزومين ^(١) .

ويقول عرابي في مذكرةه الخطوطية تمهياً على هذه المعركة التي سماها واقعة أبو قير « ولم يستشهد أحد من عساكرنا الأبطال ، وكان ابتداء المماربة الساعة الأولى من النهار وانتهاؤها في آخر الساعة الرابعة فندة القتال ثلاثة ساعات ونصف أبلت في خلالها رجالنا بلاء حسناً ، ييد أنه لم يعرف خسائر العدو لرفعه إليها من من الميدان أولاً فأولاً » ^(٢) .

عاد الأنجلوين إلى الهجوم في اليوم التالي وقد أعدوا له عدة قوية هذه المرة ، فتقدمت ميمتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، ويسيرتهم على صفة الترعة محمودية من الرمل ، وتحرك القلب من طريق الجسر الذي يعبر محمودية ،
وكان يقودهم أليسون

(١) الواقع المصري ١٠، ٨، ١٨٨٢، أغسطس ١٨٨٢.

(٢) الواقع ٨، ٨، ١٨٨٢، ١٨٨٢ . وقد اعتدنا في تاريخ المعركتين على ما جاء في مذكرات عرابي الخطوط

وأليل البابكاشي محروس بلاه حسناً في صد ميسرة الأنجلترا ولم يعنمه جرحة
الشديد من أن يشد عليهم برجاله وكذلك أظهر البابكاشي محمد فوده بسالة وجلاً
عظيمين في المجموع على قلب الأنجلترا وميسرتهم؛ وجاءه المدد صرات بقيادة أحمد
عفت وتميلب وحجازى، ثم جاء طلبة باشا ومهـ فرقـ الفـ رسانـ بـ قـيـادـةـ أـحمدـ
عبد القفار؛ وبعد ست ساعات من القتال الشديد، ارتد الأنجلترا منهزمـين ولحقـ
بـ المـ صـرىـيونـ حتـ حـجـبـهـمـ الـ ظـلامـ عـنـهـمـ ...

وقد عقب عربى على هذه المعركة بقوله «فلا قربوا مسافة ٨٠٠ متر اشتباكاً
في القتال مع أورطة محروس أفندي البكباتي وأورطة المستحفظان حكمدارية
محمد أفندي فودة الذى أظهر من الشجاعة ما يقصى اليراع عن وصفه؛ ولما اشتد
القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد باك عفت حكمدار المقدمة ومعه
أورطة سليمان أفندي تعيلب وأورطة رزق الله حجازى البكباتي ، وأصلوا المدو
ناراً حامية ، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه
الآلائى برئاسى سوارى حكمدارية أحمد باك عبد الغفار وحرك الأورطة جهة المقدمة
فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلا بالسلاح الأبيض وجهًا لوجه؛ ولما
أظلم الليل وضفت قوة المدو قفل راجحاً وعساً كرنا فى إثره تأخذ عليه الطريق
وتضيق عليه السبيل وتضر به حتى حال الظلام بين الفريقين ... وعند تفقد عساً كرنا
ووجد من المستشهدين ٤٩ من الأنفار والصف ضباط واللازم الشجاع أحمد أفندي على
والجرحى البكباتي محروس أفندي الذى توفى بسبب جراحه وائنان من الملزمين
و ٦٥ من الصف ضباط والأنفار ...

ولقد أبدى كل من الضباط والمساكن من الشهامة والثبات في هذه الموقعة

ما يستحقون من أجله الثناء الجميل في الدنيا وعظمت الأجر في الآخرة ...
وخسائر العدو كانت عظيمة وقد ترك عساكر الأنجلترا بميدان القتال ١٧ جثة منها
الملازم ديز وصار دفنه في جسر المحمدية ، وقد شوهد الكثير من عساكر
الأنجلترا يحملون قتلاهم وجرحهم ، وفي اليوم الثاني كانت ساحة القتال مشوهة
بالدماء وآثار جر الموى ظاهرة في نقط عديدة »

* * *

ولما استيقن الأنجلترا أنهم عاجزون عن زحزحة المصريين عن خطوطهم القوية
انكفاوا راجعين إلى الإسكندرية لينتظروا هناك ما يأتيهم من المدد ...
أما عربي وأصحابه فما زالت تسمع إليهم الوفود في خيمته عند كنج عمان ،
حاملة للجيش ما جادت به البلاد من مال وغمار وماشية للدفاع عن الوطن وكرامته
وأما الخديو فقد بادر بتهنئة الأنجلترا على ما أصابوا من انتصار في المعركتين !
كأنما يستحيل على توفيق أن يتصور الأنجلترا إلا غالبين ولو كانت هزيمتهم أمرًا حقيقةً
وفي الوقت نفسه أصدر توفيق بلاغاً في اليوم السابع من أغسطس يحذر فيه
المصريين من مشاهدة عربي ، ورمي فيه بالعصيان والثورة وتوعده كل من يشاهده
بمقاب شديد من لدنه (١)

واستمر عجي المدد إلى الأنجلترا ، فأصبح لديهم في الإسكندرية حوالي اليوم
العاشر من أغسطس نحو أربعة عشر ألفاً من المشاة وثلاثة فرق من الفرسان ونحو
ألف من رجال المدفعية ونصف وخمسة من المهندسين ، وعدد آخر من المختصين
بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية ...

وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل إلى الإسكندرية السير جارنوت ولسلى
القائد العام للحملة الأنجلطيرية ...

* * *

لendum بعد ذلك إلى مهزلة المؤتر أو إلى صراوة السياسة الأنجلطيرية وانتصارها

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢

تحت سمع المؤتمر وبصره وسلوكها وأنوف أعضائه في الرقام سبيلاً غير التي أرادوها
من أول الأمر ...

انطلقت تركياً من جمودها آخر الأمر كما بینا وانضمت إلى المؤتمر وقبلت
إرسال جند عثمانية إلى مصر ، أى أنها قبلت أن ت العمل بما كانت تلح به إنجلترا
عليها من قبل ؛ ولكن إنجلترا لن تسمح لها اليوم بشيء من هذا ...

في اليوم السادس والعشرين من يوليو أفضى سعيد باشا وزير الخارجية
وعضو المؤتمر إلى الأعضاء بأن الجنود العثمانية على أهبة السفر إلى مصر ؛ وفي
الوقت نفسه أفصحت للمؤتمر عن أمل حكومته في « أن التدخل الحربي بجنود
أجنبية في مصر لم تعد له مقدمة ضرورة » .

ولو أن المؤتمر كان يريد الإنصاف لكان فيما يتقدم به سعيد باشا أقرب وضع
إلى الحل المنشود الذي وضع المؤتمر قراره في اليوم السادس من يوليو ...

ولكن الدول كا بینا تراجعت في صورة مضحكه محجلة عن قرارها للأسباب
التي بیناها وجنح إلى ترك إنجلترا تعميل على مسؤوليتها مكتفية بأنها لم تعطها
تفويضاً بهذا . وهل كانت إنجلترا تطمع في أكثر من أن تعمل على مسؤوليتها ؟
وليتذر القارئ في رد إنجلترا على كلام سعيد باشا ولينظر مبلغ ما فيه من
مناقضة لسياساتها يعد من أكبر دواعي الخجل لوأن السياسة الأنجلزية كانت
تعرف الخجل يوماً ما ؛ قالت إنجلترا في برقية إلى دوفرين في التاسع والعشرين
من يوليو « إن حكومة جلالة الملكة قبل وصول قوات عثمانية إلى مصر
وتقبل التعاون معها على شرط أن تكون الصفة التي تأتي بها محددة تحديداً
مقنعاً ، وأن تكون خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين بسبب تصريحات
السلطان السابقة »^(١)

وكانت ترى إنجلترا بهذه العبارة « خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين »
أن يصدر السلطان قراراً ضد عربى ورجاله وذلك أن الصدر الأعظم كأنه قد أخبر

دوفرين قبيل ذلك «أنه ليس من الحكمة إصدار هذا القرار قبل بلوغ الجنود العثمانية مصر» وقد رد عليه دوفرين بقوله «إذا كان السلطان يرغب في التعاون مع حكومة جلالة الملكة ، فإن من الضروري أن يحدد في وضوح ما يعنـم اتباعه نحو عراقي وعصابة الثوار»^(١)

وفي نفس هذه البرقية قالت إنجلترا «ترغب حكومة جلالة الملكة أن تخبر سعيداً باشا والمؤتمـر بأنـها لا يمكنـها مسـحب جنودـها من مصر ولا التـراخي في إعداد العـدة» ...

وقالت كذلك «إن قـمودـ السـلطـان عنـ المـعـملـ ذلكـ القـمودـ الذـى طـالـ أـمـرـهـ حـيـالـ وـضـعـ كـهـذـاـ الذـىـ مـثـلـهـ الـحـالـ فـيـ مـصـرـ قـدـ أـلـقـ عـلـيـ عـانـقـ إـنـجـلـتـرـةـ عـبـثـاـ تـضـطـلـعـ بـهـ الـآنـ فـيـ سـبـيلـ الصـالـحـ الـعـامـ وـفـيـ سـبـيلـ صـالـحـهـ كـذـلـكـ ؟ـ وإنـ حـكـوـمـةـ جـلـالـةـ الـمـلـكـ تـرـغـبـ فـيـ أـنـ يـكـوـنـ مـعـلـومـاـ لـدـيـ الـمـؤـمـرـ أـنـ حـالـاـ يـنـتـهـيـ الـعـمـلـ الـحـرـبـيـ الـرـادـ فـيـهـ سـتـسـتـمـيـنـ الدـوـلـ فـيـ وـضـعـ نـظـامـ قـوـمـ حـكـمـ مـصـرـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ»

إذن فيما أن يعلنـ السـلطـانـ ذـلـكـ قـرـارـ الـخـطـيرـ الذـىـ تـرـيدـهـ إـنـجـلـتـرـةـ فـتـقـبـلـ تـماـونـهـ مـعـهـاـ فـيـ بـلـادـهـ وـإـمـاـ أـنـ يـحـجـمـ عـنـ ذـلـكـ فـتـمـضـيـ إـنـجـلـتـرـةـ إـلـىـ غـايـهـاـ ؟ـ وـهـكـذـاـ تـسـتـدـرـجـ إـنـجـلـتـرـةـ السـلطـانـ خـطـوـةـ خـطـوـةـ،ـ وـلـاسـوـفـ يـضـطـرـ إـلـىـ قـبـولـ هـذـاـ شـرـطـ لـيـظـفـرـ بـتـفـضـلـ إـنـجـلـتـرـةـ عـلـيـهـ بـقـبـولـ مـعـونـتـهـ إـلـيـاهـاـ فـيـ بـلـادـهـ وـصـاحـبـهـ الشـرـعـيـ ؟ـ وـلـكـنـ هـلـ يـحـوـدـ إـنـجـلـتـرـةـ عـلـيـهـ بـهـذـاـ فـضـلـ حـتـىـ بـعـدـ قـبـولـهـ مـاـ تـشـرـطـ ؟ـ ذـلـكـ مـاـزـىـ الجـوابـ عـلـيـهـ فـيـاـ يـلـىـ :

فـيـ الـيـوـمـ الثـانـيـ مـنـ آـغـسـطـسـ تـعـهـدـ سـعـيـدـ باـشاـ أـنـ يـعـرضـ عـلـيـ الـمـؤـمـرـ صـيـغـةـ قـرـارـ يـعـلنـ فـيـ السـلطـانـ أـنـ عـرـاـيـاـ مـنـ الـمـصـاـهـ^(٢)ـ وـهـكـذـاـ تـخـطـوـ تـرـكـياـ عـلـيـ رـغـمـهـاـ خـطـوـةـ أـخـرىـ فـيـ صـالـحـ السـيـاسـةـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ،ـ وـذـلـكـ كـيـ يـسـمـحـ لـهـاـ بـالـتـدـخـلـ فـيـ بـلـادـهـ صـاحـبـهـاـ !ـ أـلـاـ مـاـ أـشـدـ وـمـاـ أـقـسـىـ مـاـ يـجـلـبـهـ الضـمـفـ مـنـ مـذـلـةـ،ـ وـهـذـاـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ هـوـ عـبـدـ الـحـمـيدـ الذـىـ لـاـ يـقـنـفـسـ النـاسـ فـيـ بـلـادـهـ إـلـاـ بـأـذـنهـ !ـ ...

(١) M' E. Cromen p. 241

(٢) « « « » »

وردت إنجلترا على ذلك بأنها فضلاً عن إعلان قرار المصيان الذي تعدد ضمانته للأغراض السلطانية، ترى من الأمور الضرورية أن يعقد مؤتمر حربي بين الدولتين للنظر في التعاون كيف يكون بينهما

وأبلغ دوفرين حكومة الباب العالي في الخامس من أغسطس « أنه مالم يعد السلطان قراراً ذات صفة صرافية ولم تؤتفح الحكومة التركية على الدخول في مؤتمر حربي مع حكومة جلالة الملكة ، لن يسمح لجنود العثمانية بالنزول في مصر »^(١) ومن ذلك ترى أن إنجلترا حين رأت السلطان يقبل إعلان المصيان المنشود ذلك الفرار الذي تصل به إلى ضالتها ، ابتدعت المؤتمر الحربي لتوجّل تدخل تركيا حتى تفرغ هي من دخول مصر فلا يكون ثمة داع إلى جنود عثمانية ... ولا يمكن أن يكون في الصلات الدبلوماسية أكثر من هذا استهتاراً من أمة قوية بأمة ضعيفة ؛ كما لا يمكن أن يبلغ الضعف بأمة أكثر مما يبلغ بتركيا التي يشبه موقفها هذا الاستجداء الذليل ...

وأبلغ دليل على ذلك هذه البرقية التي أرسلها جرافيل إلى دوفرين في الرابع من أغسطس أي قبل الانصال بالباب العالي ينبئه فيها أنه أرسل تعليمات إلى سيمور، قال « أرسلت تعليمات إلى الأدميرال سيمور أنه إذا قدمت أي سفينة تحمل جنود تركية إلى بور سعيد أو إلى الأسكندرية أو إلى أي جهة أخرى فعليه أن يخبر قائدتها في أكثر الصيف موعد ورقةً أنه يتلقى تعليمات من حكومته بشأن مؤتمر حربي بين تركيا وإنجلترا الفرض منه معاونة الأولى لنا في القضاء على العصابة ، ولكن لم يتلق أنباء بأن هذا المؤتمر قد عقد وبناء على ذلك فإن ارسال جنود تركية لابد أن يكون عملاً سابقاً لأوانه أو بني على سوء فهم ، وأن الأوامر التي لديه هي أن يطلب إلى القائد أن يواصل السير إلى كريت أو أي جهة أخرى وأن يخاطب الحكومة التركية لأرسال تعليمات أخرى نظراً لأن الأدميرال سيمور لا يستطيع أن يدعيه

(١) مصر رقم ١٧ من ٢٩١

إلى النزول في مصر ... وقد سمحنا لسيمور أن يمنع نزول الجنود إذا لم ينتصروا
بنصيحة » (١)

لقاء هذا اضطرت تركيا إلى أن تعلن في المؤتمر في السابع من أغسطس
أن الباب العالى يقبل الدعوة إلى التدخل الحربى فى مصر على أساس المذكرة
المشتركة بتاريخ ١٥ يوليو بما تحتوى عليه من بنود وشروط »

ومعنى ذلك أن تركيا تقيد بالشروط التي وضعها المؤتمر فى السادس من يوليو
والتي وافقت عليها الحكومات فى الخامس عشر منه والتي كانت تركيا تعارض
فيها أشد المعارضة (٢)؛ وهى إذ تقيد بهذه الشروط تلزم فى الوقت نفسه بأساس
التعاون مع إنجلترا ، أى أن التدخل الآن ليس لتركيا وحدها وإنما هو بصفتها
شريكه لأنجلترا ... ولكن إنجلترا سوف لا تمسكها حتى من هذا الوضع الذى
هو دون ما رفضته من قبل براхيل ...

وفي التاسع من أغسطس أرسل قرار عصياني عربى إلى دوفرين يطلع عليه
وفي العاشر منه قبلت صيغة القرار بعد إدخال بعض التعديل عليه
وأخذت إنجلترا تتصل بتركيا بشأن المؤتمر الثنائى الذى يحدد طريقة العمل
بينهما مع أنه يتعارض مع قرار المؤتمر العام الذى جاء فيه أنه إذا وافق السلطان
كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فإن إنفاذ الموارد
والشروط الآتية الذكر يمكنه موضع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا «
وكانت إنجلترا ترى من وراء المؤتمر الثنائى ، إلى الأخذ والرد بينها وبين تركيا
حتى ينتهي الأمر كما ذكرنا وذلك ما سوف تؤديه الحوادث

أما المؤتمر العام فقد بلغت مهزنته منتهى سخفها ، حين قرر فى اجتماع عقده
في اليوم الرابع عشر من أغسطس تأجيل انعقاد جلساته إلى أجل غير مسمى ،
وبذلك أسدل الستار على أسفخ مهزلة فى تاريخ المؤتمرات السياسة ...

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٨٧

(٢) راجع من ٢٩٠ من هذا الكتاب

ولنعد إلى مصر ؟ فنجد عراياً في خطوط دفاعه تهدى الأمة بما يجود به ويؤديه أبناؤها جيماً كبراؤها وفلاحوها وتتطلع إليه القلوب في موقفه الجيد وقد ازداد الناس أملاً في النصر بعد ما كان بين الجيش المصري وبين الأنجلترا من تلاحم أثبت فيه المصريون أنهم جادون وأنهم إذ يحاربون إنجلترا ذات الامبراطورية الكبرى لا تخليع أفشلهم فرقاً كما يظن بهم أعداؤهم من فاجر الظنون .

وكان عرابي قد أرسل إلى السلطان برقيه أورد بها دوافرين فيما أرسله إلى جرانفل في السادس والعشرين من يوليو إذ قال « علمت أن عرانياً باشا أرسل مباشرة إلى السلطان يعبر عن ولائه للخلافة ، ويقول إنه وقد حمل حلا على الحرب يعتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير ؛ وإنه لا يصدق ما يقول كنه أعداء وطنه ودينه من أنه سيجدد فرقاً عثمانية في طريقه فإن ذلك سيضعه أمام الفسورة القاسية التي تحمله يعامل إخوانه في الدين معاملة الأعداء » (١)

وفي اليوم الخامس من أغسطس أرسل جرانفل إلى دوافرين يقول « نشرت جريدة الطائف في تأييد عرابي باشا تقول إن الباب العالى أرسل برقيه بهـى بهـى الجندوـن المصرـيـة على ما أبدوه من شجاعة أثناء ضرب الأسكندرـيـة ، كما ورد إلى تركـياـ في برـقـيةـ كان قد أرسـاهـاـ درـويـشـ باـشاـ » (٢)

أما توفيق فأنـيدـ السلطـانـ مـكـفـوفـةـ عنـهـ منـذـ قـبـولـهـ المـذـكـرـةـ المـشـترـكةـ الثـانـيـةـ فيـ الخـامـسـ والـعشـرـينـ منـ ماـيوـ ، وـقـدـ بلـفـتـ بـهـ الجـرأـةـ أـنـ أـفـضـىـ إـلـىـ كـلـفـنـ فـالـحـادـيـ وـالـثـلـاثـيـنـ منـ يولـيوـ « أـنـ شـدـيدـ الخـوفـ منـ دـسـائـسـ التـرـكـ وـأـنـ يـشقـ منـ أـنـ التـرـكـ سـوـفـ يـرـاقـبـونـ مـرـاقـبـةـ دـقـيقـةـ » (٣)

ولقد كان السلطان يريد عزله وتمييز حليم مكانه ، وتقديم بهذا الاقتراح إلى

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢٢

(٢) رقم ١٧ ص ٢٩٠

M, E, Cromer P 241 (٣)

إنجلترا عقب ضرب الأسكندرية مباشرةً ممتدحًا حليماً قائلاً « إنه يكون حاكماً ممتازاً » وأن تعينه « يحقن الدماء ويرضى كل إنسان »؛ وقد رفضت الحكومة الأنجلizية هذا المقترن رفضاً بانا عاجلاً؛ وأبلغت السلطان أنه « يضيع الوقت فحسب بعرضه مثل هذه الاقتراحات »^(١)

في التاسع عشر من أغسطس أذاع الجنرال ولسي البلاغ الآتي: « بأمر الحضرة الخديوية . إعلان المصريين : يعلن الجنرال قائد الجيوش الأنجلizية بأن مقاصد الدولة البريطانية في إرسالها تجربة عسكرية إلى القطر المصري ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية ، وعساً كرنا يحاربون فقط الحاملى للسلاح ضد شعوه ، فعموم الأهالى الذين في سلم وسكنى تصير معاملتهم بكل تودد وإنسانية ولا يحصل لهم أدنى ضرر ، بل يحترم دينهم وجواهم وعائلاتهم ، والأشياء التي تلزم الجيش تصير دفع ثمنها ، وعليه ندعو الأهالى لتقديم ذلك ؛ وأن الجنرال قائد الجيوش يسر جداً من زيارة مشائخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع المصيانت الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية »^(٢)

وفي نفس اليوم أعاد الأنجلiz وقد جاءهم المدد هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات كبيرة نقلتها القطارات المساحة من جهة القبارى وأعانتها قوات أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة شديدة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس ؛ وكانت قيادة المصريين لطلبة عصمت وكان معه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيid بك محمد وأحمد بك عبد الفقار والقائم أحدهم بك عفت والقائم سليمان سعى داود وحكمدار المدفعية بدوى بك.

(١) المرجع السابق من ٤٤٠

(٢) الواقع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . ومصر رقم ١٨ سنة ١٨٨٢ من ٣ . ومذكرات عرابى الخطوط من ١٢٥ .

وارتد الأنجلترا إلى الأسكندرية بعد أن خسروا خسائر جمة وأعاد الأنجلترا الكرة عقب ذلك أيام ثلاثة متواصلة ، كانت تتشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى الغروب ، والمصريون يردونهم كل يوم إلى الأسكندرية بعد دفاع قوى بجيد

وهكذا كانت وقائع كفر الدوار أو الميدان الغربي سجلاً عجيناً لحرب الثورة ، وحسب هؤلاء الفلاحين نفراً أن يخوضوا غمار المارك لأول مرة في تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أجل المبادئ الإنسانية إلا وهو مبدأ الحرية الزهراء ، وحسب قائلهم أن يكون أول فلاح في مصر نادي بالحرية في قومه ثم وقف يذود عنها في ميدان من ميادين القتال ، وإنه لأمر وأيم الحق جليل

ولكن توفيقاً رد على هذه الجهود الوطنية الرائعة بهذا البلاغ الذي جمل عنوانه « إلى جميع أهالي وسكان القطر المصري » والذى قال فيه « ليس خافياً ما أقدم عليه أحد عرابي وشيعته الضالة من الأفعال المغيرة والتسبيات الفوضوية التي أخلت بنظام القطر وأضعفته الثقة به ، بل أورنته الخسائر والأضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى إليه واتحادهم معه فى البغي والمجاهرة بالعصيان لحكومة الخديوية حتى ارتبت الأحوال وخافت المواقف فبادرت الدول إلى عقد المؤتمر الدولى بالاستانة للنظر فى المسألة وتقرير مابه حلها ، وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على أخذان الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين ل تستتب الراحة وتزول أسباب الفاسد حرصاً على عمارية القطر واحترازًا مما عسى أن يلم به من الدمار

ولما كانت الدولة البريطانية الأنجلترا لها فيه النافع الكبير ولا سيما بالنظر إلى ترعة السويس التى هي طريقها الوحيد للخططة الهندية المهمة ، فقد أخذت على عهدها وتحت إمرتها التداخل الفعلى لعمق هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقوق السلطة ولا الامتيازات المصرية ، وتحققتنا أن نيتها سليمة

فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ لَيْسَ إِلَّا الْأَسْلَاحُ وَلَا غَايَةَ لَهَا فِي الْاسْتِيلَادِ وَلَا
الْفَتْكِ بِأَهْلِهَا لِمَدَاوَةِ دِينِيَّةٍ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مَا يَذِيهُ الْمُصَاصَةَ تَنْفِيرًا مِنْهُمْ لِلْعَامَةِ وَتَغْيِيبًا
لَهُمْ فِي الْأُمَّةِ الْأَجْلِيزِيَّةِ عَلَى حَسْنِ مَقَاصِدِهَا الْمُذَكُورَةِ؛ وَلَا يَزَالُ الْمُعَاصِونَ عَلَى
حَالِهِمْ مِنَ الْمُقاوْمَةِ وَتَجْسِيمِ الْحَالِ الْمُؤْدِي إِلَى زِيَادَةِ الْخَرَابِ حَتَّى اعْتَرَفُوهُمُ الْسُّلْطَانَةَ
السُّنْنِيَّةَ عَصَمَتْ مُخَالِفِيهِنَّ لِلْحُكُومِ الْشُّرُعِيَّةِ فَاسْتَدَرَا كَالْأَمْرِ وَمَرَاعَا الْمُصْلِحَةَ
الْعُوْمَوْمِيَّةَ قَدْ رَخَصَنَا لِحُضُورِ الْقَانْدِ الْعُمُوْمِيِّ لِلْجَيْشِ الْأَجْلِيزِيِّ بِالْتَّجَولِ نَحْوَ جَمِيعِ
الْمُصَاصَةِ وَاسْتِهْمَالِ الْوَسَائِطِ الْقَاهِرَةِ لِتَبْدِيدِ شَلَّهُمْ وَسَرْعَةِ الْقَبْضِ عَلَى رُؤُسِهِمْ
لِحَاكِمَهُمْ بِمَا يَسْتَحْقُونَ مِنْ أَشَدِ الْعَقَابِ ...

وَعَلَى أَنَّ الْمَسَاكِرَ الْأَجْلِيزِيَّةَ يَمْدُونَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نَاثِئِينَ عَنَا فِي قَطْعِ دَارِ
الْمُفْسِدِينَ وَتَطْهِيرِ الْبَلَادِ مِنْهُمْ «لِيَعُودَ» (١) الْأَمْنُ وَالرَّاحَةُ وَبِزُولِ الشَّقَاءِ عَنِ
الْمُبَادِ وَمِنْ كَانَتْ هَذِهِ صَفَّهُمْ فَأَنْهُمْ جَدِيرُونَ بِالْمَأْوَنَةِ وَالْمَسَاعِدَةِ وَلَا رَبِّ مِنْ
مِنْ جَهَنَّمِ بِوْجَهِهِ مِنَ الْوَجْهِ، فَيَبْيَنُ أَنَّ لَا يَرْهُبُهُمْ أَحَدٌ وَلَا يَظْنُ فِيهِمْ سُوءًا
أَوْ مَكْرُوهًا وَأَنَّ لَا يَمْأَلُوا بِمَا يَسْتَوْجِبُ النَّافَرَةُ، بَلْ عَلَى كُلِّ مَصْرِيِّ يَحْبُّ وَطَنَهُ
وَيَخْشَى خَرَابَهُ أَنْ يَمْأَلَهُمْ لِقاءُ حَسَنِ نِيَاهُمْ بِالْأَكْرَامِ الْلَّاثِقِ بِهِمْ وَلَا يَتَأْخِرُ أَحَدٌ
عَنْ مَسَاعِيهِمْ فِي تَقْدِيمِ مَا رِبِّعَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْوِنَةِ بِأَعْمَانِهَا السَّاُرَةُ الَّتِي هُنْ
مُسْتَعِدُونَ لِأَدَائِهَا فَوْرًا فَنَفْعُ ذَلِكَ قَدْ وَفِي بِمَا يَحْبُّ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ الْوَطَنِيَّةِ الصَّادِقَةِ
وَاسْتَوْجِبُ رِضَاءَ اللَّهِ، وَرِضَاَنَا عَنْهُ فَضْلًا عَمَّا يَرَاهُمْ مِنَ الْمُكْرَمَةِ، وَمِنْ أَبِي
وَخَالِفِ وَقَابِلِهِمْ بِالْمُكَبَّرَةِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي لَا تَجْدِيهِ نَفْعًا فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ لِلْمُهْلَكَةِ
الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا. وَنَحْقِيقُنَا أَنَّهُ مِنَ الْعَصَبَةِ الْبَاغِيَّةِ فَأَمْرَهُ كَأَمْرِهِ.

هَذَا إِنَّمَا نُخَذِّرُ النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ سَكَانِ الْبَنَادِرِ وَالْبَلَادَنِ وَبِالْأَخْصِ الْمُحْرُوسَةِ
عَنِ الْمَهَاجِرَةِ مِنْ بِلَادِهِمْ وَإِنْجِيَازِهِمْ إِلَى الْمُصَاصَةِ طَوْعًا وَكَرْهًا مِنْهُمْ فَيَدِهِمُونَهُمْ بِمَا
دَهْمُوا بِهِ أَهْلَ الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ عَنِّدَمَا خَدَعُوهُمْ عَلَى إِخْلَانِهِنَّ فِي أَقْلَى بَرَهَةٍ، وَبِخَرْوِجِهِمْ

(١) لَيْسَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِالْأَصْلِ فَوْضَعَنَاها لِيَسْتَقِيمَ الْمَعْنَى وَلِمُلْهَا سَقْطَتْ سَهْوًا

تكن الباغون النافقون من هب المدينة وإحرق أحـم جـزءـ فيها بـقـةـ فـليـعـتـبرـ
الـماـقـلـ بـغـيرـهـ .

فعـلـ عـلـمـاءـ وـذـوـاتـ وـعـمـدـ وـمـشـاـيخـ الـبـلـادـ وـجـهـاـنـهاـ وـجـارـهاـ الـذـينـ تـوـمـ فـيـهمـ
الـخـشـيـةـ وـالـسـكـيـنـةـ وـالـأـخـلـاـصـ الـحـقـيقـ لـجـانـبـ الـحـكـوـمـةـ وـيـعـزـ عـلـيـهـمـ وـطـهـمـ وـلـهـمـ
الـخـبـرـةـ بـالـمـوـاـقـبـ أـنـ يـذـعـنـواـ وـيـعـتـلـواـ الـأـوـاصـنـاـ هـذـهـ وـيـنـظـارـوـهـاـ بـعـنـ النـصـيـحـةـ الـخـضـةـ
لـصـاحـبـهـمـ وـمـصـلـحـةـ الـقـطـرـ وـيـلـزـمـواـ الـعـامـةـ بـاتـبـاعـهـاـ كـيـلاـ يـتـرـعـزـعـواـ وـيـكـوـنـواـ آـمـدـيـنـ
مـطـمـثـيـنـ عـلـىـ أـنـفـهـمـ وـأـعـرـاضـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ مـنـ قـبـلـ الـمـسـاـكـرـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ فـلـاـ يـمـهـمـ
خـرـرـ وـلـاـ يـلـحـقـهـمـ كـدـرـ مـاـ دـامـواـ بـحـتـبـيـنـ الـمـصـاـةـ وـهـذـاـ مـاـ اـقـتـضـهـ إـرـادـتـنـاـ » (١)

وـأـصـدـرـ تـوـفـيقـ كـذـلـكـ مـنـشـوـرـاـ إـلـىـ ضـبـاطـ الـجـيـشـ وـعـسـاـكـرـ ،ـ يـدـعـوـهـمـ فـيـهـ إـلـىـ
طـاعـةـ وـلـسـلـيـ وـأـوـاصـهـ كـاـلـوـ كـانـ صـادـرـةـ مـنـ تـوـفـيقـ «ـ فـنـ يـخـضـعـ لـهـ فـكـاـنـهـ خـضـعـ
لـنـاـ شـخـصـيـاـ وـمـنـ خـالـفـهـ كـانـ عـاصـيـاـ لـنـاـ وـيـمـاـمـلـ مـعـاـمـلـ الـمـصـاـةـ » (٢)

وـفـ العـشـرـينـ مـنـ أـغـسـطـسـ أـشـيرـ عـلـىـ وـزـارـةـ رـاغـبـ بـالـاستـقالـةـ ،ـ وـأـسـنـدـتـ
الـوـزـارـةـ إـلـىـ شـرـيفـ باـشاـ ،ـ وـكـانـ مـنـ أـهـمـ أـعـصـائـهـ رـيـاضـ وـقـدـ استـدـعـاهـ الـخـدـيـوـ مـنـ
أـورـوباـ وـأـسـنـدـتـ إـلـيـهـ الـدـاخـلـيـةـ ،ـ وـعـمـرـاطـقـ بـطـلـ مـأـسـةـ الـأـسـكـنـدـرـيـةـ وـأـسـنـدـتـ إـلـيـهـ
الـجـهـادـيـةـ وـالـبـحـرـيـةـ ،ـ وـعـلـىـ مـيـارـكـ وـأـسـنـدـتـ إـلـيـهـ الـأـشـغالـ ،ـ وـحـيـدرـ أـحـدـ الـتـأـصـرـيـنـ
فـيـ فـتـنـةـ الـأـسـكـنـدـرـيـةـ وـقـدـ أـسـنـدـتـ إـلـيـهـ الـمـالـيـةـ ...

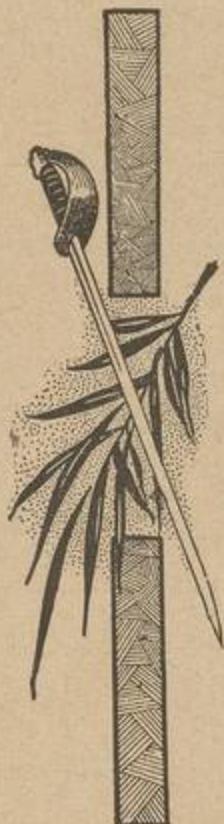
وـبـلـاحـظـ أـنـ الـخـدـيـوـ وـقـدـ شـدـ الـأـنجـلـيـزـ أـزـرـهـ ،ـ لـمـ يـعـدـ يـطـاوـعـ شـرـيفـاـ إـلـىـ مـبـادـيـهـ
الـحـرـيـةـ التـيـ يـعـيـلـ شـرـيفـ بـفـطـرـتـهـ إـلـيـهـ ،ـ فـقـدـ ذـكـرـ شـرـيفـ فـيـ كـتـابـ تـأـلـيـفـ وـزـارـتـهـ
«ـ وـكـاـنـهـ لـاـ يـلـزـمـ أـنـ تـجـاـوزـ حـدـودـ لـوـائـ دـيـسـمـبـرـ كـذـلـكـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـحـذـفـ مـنـهـاـ
شـيـئـاـ»ـ ؛ـ وـيـقـصـدـ شـرـيفـ الدـسـتوـرـ الـذـيـ وـضـعـهـ فـيـ شـهـرـ دـيـسـمـبـرـ مـنـتـهـيـةـ ١٨٨١ـ ...

وـجـاءـ فـرـدـ الـخـدـيـوـ قـوـلـهـ «ـ وـرـىـ أـيـضاـ أـنـ لـاـ بـدـ فـيـ زـمـنـ الـاضـطـرـابـ مـنـ
انتـشـارـ سـلـطـتـنـاـ عـلـىـ الشـعـبـ وـإـدـارـةـ الـأـعـمـالـ اـنـتـشـارـاـ أـكـثـرـ قـوـةـ وـوـضـوـحـاـ»ـ ؛ـ وـلـذـلـكـ

(١) مـذـكـرـاتـ عـرـابـيـ المـخطـوـطـةـ مـنـ ١٢٣

(٢) مـصـرـ رقمـ ١٨ـ مـنـ ٤١

فأننا نستدعي عند الاقتضاء الثمام مجلس النظار برئاستنا للبحث في المسائل المهمة
خارجية كانت أم داخلية ، وبما أن لنا السيادة العليا على القوات البرية والبحرية
فتتنفيذ أوامرنا يجب أن يتم بدون أن تمس اختصاصات ناظر جهاديتنا »
وهكذا زرى دليلاً جديداً على ما سبق أن يبناء من أن توفيقاً كان يميل بطبيعة
إلى الاستبداد وأنه لذلك خاصم الحركة الدستورية الحرة التي تمثل في عربى الفلاح
الزعيم والتى كان قوامها أن يكون الفلاحون مصدر السلطات ، لا أن يكونوا
السيف والسلطان للشراكسة وليس عليهم واجب ما ، وللفالحين الفأس وحدها
وعليهم الطاعة والأذعان .



ابن لكتيم

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقي في جهاد الثورة كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربي ؟ ولقد دارت في هذا الميدان انتصارات معارك في مجال أوسع وفي أعداد أكبر مما كان في كفر الدوار ؛ وكانت في هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة يطرب لها قلب كل مصرى وتهلل أسار وجهه وصفحات مظلمة يندى لها جبين كل مصرى وتتلون صفحات حميات . كانت فيها البطولة الباهرة إلى جانب الخيانة السافرة الفاجرة ؛ وكانت فيها الإخلاص المتين للوطن المستنصر خ أحاط به العدو من كل ناحية إلى جانب الأثرة الخفيرة على حساب هذا البلد المسكين نكب بفريق من الخائنين كانوا أشد عليه من أعدائه ؛ والحق أنه قلما نجد في تاريخ الحروب معركة جمعت بين التقىضيين بهذه المعركة التي لم ير فيها العدو طريقاً توصله إلى غرضه إلا سلكها مهما كان فيها من عدوان على الفضيلة والحق ، ولم يتورع فيها الخوانون المستضعفون عن اقتراف كل ما ينزل بالأنسان عن مرتبة الإنسانية ... في هذه المعركة استشهدت الحركة القومية ، ووضعت الأغلال في عنق الحرية وفيها اختتم أسوأ خاتمة جهاد زعيم أحاط به من الخيانة ما لم يحيط بزعم من قبله ولا من بعده ؛ أجل ... ولكن ترك فيها الأحرار من دمائهم ومن أشلاءهم ما قدموه مهراً غالياً للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم وان غلبوها في صف الحركات التي طبعتها بطایع الخلود والمجد ، والتضحية والفاء ...

* * *

كان أكبر أخطاء عربي وأركان حربه فيما أعتقد إهمالهم هذا المنفذ الشرقي إلى مصر إهمالاً أقل أن نجد تطيراً له ، وصرف همهم كله إلى كفر الدوار ، ولم يمل مرد ذلك فيما أفهم من حوادث هذه الحرب إلى خطأ آخر لا يقل خطوره عن هذا

الخطأ الأول ألا وهو اطمئنان عربي وأصحابه إلى حيدة قناة السويس وحرصهم على إرضاء الدول بالمحافظة عليها ... ولنأت بالحديث على سرده حتى يتبعنا لنا في هذه القضية وجه الحق ...

ما كاد الإنجليز يفرغون من ضرب الإسكندرية حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من خطر معدن بقناة السويس وتأهباً ليلعبوا نفس الدور الذي لعبوه في ضرب الإسكندرية ...

وكأنوا يريدون من إثارة المخاوف كما أسلفنا أن يزعموا أمام دول المؤتمر أن الطرف القاهر الذي يستلزم التدخل الحربي في شئون مصر لا يزال قائماً على الرغم من رحيل الأوروبيين

وهم من جهة أخرى يتخدون من إذاعة هذه المخاوف المزعومة ذريعة لخطوات يخططونها في الناحية الشرقية تصل بخطتهم الحربية العامة ، دون أن يظهروا تلك الخطوة ، إذ أنهم كانوا لا يزالون يعوهون على الدول أهلهم لا ينتفعون تدخلاً بمفردتهم وأنهم ينتظرون رد تركياً على قرار المؤتمر الذي زعموا أنهم يحترمونه كل الاحترام ... وهكذا توصل الإنجليز إلى السير في خطتهم الحربية المرسومة عقب ضرب الإسكندرية في غير إبطاء ، إذ كانت سياسة الأسر الواقع هي مَسْوِلُم الذي حرصوا عليه ليواجهوا بها الدول والوطنيين على حد سواء ...

والواقع أن إنجلترا بدأت تظهر ما تزعمه من مخاوف عن القناة منذ أواخر شهر يونيو كما يتبعنا فيما أرسله جرانفل إلى سفير إنجلترا في باريس في الرابع والعشرين من يونيو ليخبر فرسنيه بأن « حكومة جلالة الملك تلقت أنباء مزعجة لديها من الأسباب ما يحملها على تصديقها ، مؤداتها أن خططاً وضعت ضد القناة نفسها » (١) وزادت إنجلترا في إثارة المخاوف عقب ضرب الإسكندرية مباشرة ، فقد أرسل جرانفل في الثاني عشر من يونيو إلى سفارة إنجلترا في كل من باريس وبرلين وروما وفيينا وبطربسبرج والقدسية ليخبر كل الدولة المقيم فيها بما

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩

يخشى من خطر على القناة ، ويسألهما ماذا رأاه من « علاج حالة قد تفضى إلى كارثة بالتجارة الدولية »^(١) .

ودارت بعد ذلك الاتصالات بين فرنسا وإنجلترا للنظر في اتحاد الدولتين على ما ي العمل لحماية القناة ، حتى استقالت وزارة فرسنيه على نحو ما ذكرنا من قبل ، بعد أن أظهرت من التردد حيال هذه المسألة مثل ما أظهرت حيال ضرب الأسكندرية وكذلك اتصلت إنجلترا بـإيطاليا ، وطلبت معونتها في هذا الأمر حتى نفحت إيطاليا يدها من المسألة المصرية كلها .

ومهدت إنجلترا بهذه التعميمية المقصودة لانفرادها بالعمل هنا كذلك على نحو ما فعلت في ضرب الأسكندرية ، وفي الثاني والعشرين من يوليو عادت إنجلترا إلى نفخها السمية في الشكوى من تحصينات تقام على الساحل الغربي بور سعيد ، في طيبة الجميل على مدخل بحيرة المنزلة ؛ ومن ثم أصدرت الحكومة الأنجلizية أمرها إلى الأدميرال العظيم بوشامب سيمور فاتح الأسكندرية باحتلال بور سعيد والأسماعيلية .

وفي السادس والعشرين من يوليو اخترق الأنجليز قناة السويس غير مبالين بشئ ولا حاسبين لقانون حساباً ؛ أو ليسوا يدافعون عن القناة مما يصدق بها من خطر لينفذوا التجارة الدولية من كارثة محققة ؟

افتجمت القناة في هذا اليوم من الشمال السفينة الحرية أوريون بقيادة فتزورى ، وفي اليوم التالي وقفت في بحيرة التساح على عماماتة متر من الأسماعيلية . وفي التاسم والعشرين منه ، وصل إلى السويس على مقربة من مدخل القناة من الجنوب الأدميرال هوت يقود أربع سفن حرية ووصل إلى بور سعيد على مقربة من مدخل القناة من الشمال الأدميرال هوسكن ، وكان فتزورى كما رأينا في بحيرة التساح على صرائى من الأسماعيلية ...

وفي اليوم الثاني من أغسطس أُنزل الأنجليز عساكرهم في السويس واحتلوا

ثُكَنَاهَا الْتِي أَخْلَاهَا الْجَيْشُ الْمُصْرِي بِغَيْرِ مَقْوِمةٍ ...
وَلَا رَبِّ أَنْ إِخْلَاءُ السُّوِسِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْعِيُوبِ فِي
هَذَا الْمَيْدَانِ ، عَلَى أَنَّهُ جَزءٌ مِنَ الْعِيْب الشَّامِلِ أَلَا وَهُوَ إِهْمَالٌ لِتَحْصِينِ الدَّخْلِ الْشَّرْقِ
إِلَى مَصْرٍ ، كَاهِ ...

وَأُرْسَلَ جَرَانِفُلَ إِلَى دُوْفِرِنَ فِي السَّابِعِ مِنَ الشَّهْرِ يَقُولُ « فِي حَالَةِ مَا إِذَا
سُئِلَتْ عَنْ شَرْحِ لِاِحْتِلَالِ السُّوِسِ يَعْكُنُكَ القَوْلُ إِنْ حَكْمَةُ جَلَالَةِ الْمَلَكَةِ لَمْ تُرْسَلْ
تَعْلِيمَاتٍ بِهَذَا الشَّأنِ ؛ وَلَكِنْ الرِّيرِ أَدْمِيرَالِ سِيرِ وَهِيَوْتُ كَانَتْ لِدِيْهِ السُّلْطَةُ
أَنْ يَنْزَلَ جَنُودًا حِينَما وَجَدَ الضرُورَةَ تَدْعُ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَلَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى
مَا تَعْرَضَتْ لَهُ الْمَدِينَةِ مِنْ خَطَرٍ وَوَاقْتَهُ حَكْمَةُ جَلَالَتِهَا عَلَى مَا فَعَلَ ؛ وَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ
لِصَالِحِ الْخَدِيوِ الَّذِي أَعْطَى قَائِدَ الْقَوْاتِ الْبَرْيَاطَانِيَّةَ السُّلْطَةَ لِيَتَخَذَ مِنْ
الْخُطُوطَ مَا يَرَاهُ ضَرُورِيًّا لِحَمَاءِ الْقَنَاءِ بِاسْمِ سَوْهٍ »^(١)

وَلِيَنْظُرُ الْقَارِئُ مَبْلُغَ مَا فِي هَذِهِ الْبَرْقِيَّةِ مَا يُشَبِّهُ حَالَ الْلَّاصِقِ إِذْ تَمُوزُهُ الْحَجَةُ
وَمَبْلُغُ مَا فِيهَا مِنْ اسْتِغْلَالِ اسْمِ الْخَدِيوِ وَالْأَخْتَادِ الْأَجْمَلِيَّزِ اِنْضَامَهُ إِلَيْهِمْ وَسِيلَةُ اِتْحَافِيقِ
خَطَّاهُمْ فِي النَّهَامِ مَصْرٍ ...

وَمَا يَعْجِبُ لَهُ الرَّءُوفُ أَنَّ الْأَجْمَلِيَّزَ كَانُوا بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَلَغُوهُ مِنْ سِيَطَرَةِ عَلَى
الْقَنَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَدُوا عَلَيْهَا بَشِيءٍ ، وَلَهُنَّ لِنِيْقَبْضَتِهِمُ الْآنَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ
وَإِنْ لَمْ يَعْنِمُوا دُخُولَ السُّفُنِ فِيهَا بَعْدَ كَمَا سَيَقُولُونَ ؛ تَجَدُّدُ هَذَا الزَّعْمُ فِي قَوْلِ جَرَانِفُلَ
فِي آخِرِ هَذِهِ الْبَرْقِيَّةِ « وَاحْبَ أَنْ أُشِيرَ إِلَى أَنَّ مَدِينَةَ السُّوِسِ تَعْدُ خَارِجَةً
عَنِ الْقَنَاءِ » ...

* * *

يَفْسُرُ مَوْقُوفُ عَرَبِيًّا مِنْ قَنَاءِ السُّوِسِ إِهْمَالَهُ وَأَرْكَانَ حَرْبِهِ تَحْصِينِ الْمَيْدَانِ
الْشَّرْقِ ؛ وَنَقْصَدُ مَوْقُوفُ عَرَبِيًّا مِنْ الْقَنَاءِ مَسَأَلَةَ حِيَادِهَا ؛ وَلَقَدْ رَأَى كَثِيرُونَ
مِنْ كَتَبِيَا عَنْ عَرَبِيٍّ أَنَّهُ ارْتَكَبَ خَطَّأً مِنْ أَكْبَرِ أَخْطَائِهِ بِأَحْجَامِهِ عَنْ رَدِمٍ

القناة حتى ضاعت الفرصة واحتلتها الأنجلترا ، ونحن ننافقهم كل الموافقة على رأيهم هذا في غير تردد فما كان غرضنا من كتابة هذه السيرة إلا وجه الحق بجردا من كل مخابأة ، ولكننا نخالفهم كل الخلافة في أمور أهاطوا بها هذا الخطأ فأسرفوا فيها إسراها شديدا وبخاصة كتاب الأنجلترا من دافعوا عن الاحتلال
مخالفتهم في أن دى لسبس كان يخادع عراياها وأن عراياها جازت عليه الخدعة
ومخالفتهم في أن عراياها لم يفطن بسبب جهله إلى أهمية ردم القناة كوسيلة من
وسائل الدفاع ؟ ومخالفتهم في أن عدم ردم القناة كان السبب الأساسي للهزيمة ؟
ومخالفتهم في أن عراياها أحجم بسبب جبنه عن ردم القناة ؟ ومخالفتهم في أن العمل
كان من السهولة كما يصفون . أجل مخالفتهم في ذلك كله مستندين إلى ما نقدم من
أدلة ثبت بها ما نقول ...

ومن الصعب على المرء أن يعجو من الأذهان فكرة استقررت فيها بفعل السنين
منذ أن أذاعها خصوم عرايا مهولين في الأمر قبل يوم الناس هذا بنيف وستين
عاما ، ولم تجد ردًا عليها طول هذه المدة كأنها من الحقائق المقررة التي لا تحتاج إلى
نظر ؟ وإنك لتتحدث إلى الناس في سيرة عرايا فتسمع فيها تسمم قوله لقد كان
 العرايا ساذجا خادعه دى لسبس وغدر به فصدقه أو على حد تعبيرهم العابي « سخاك
عليه » دى لسبس فلم يرمي ردم القناة ...

ولكن الخطاب يسير إذا نظر المرء في هذا الأمر نظرة مجردة من المزاعم السالفة
جاعلاً غايته الوصول إلى الحق في غير مخابأة لعرابي ولا ت benign عليه ...

في التاسع عشر من يوليو ذكر كارتريت فيما أبرق به إلى جرافيل قوله
« أشرف بأخباركم بوصول المسيو دى لسبس إلى الأسكندرية ؛ ويهدر أنه في
مقابلته لا خديو لم يتحدث كثيرا عن الموقف السياسي ؛ ولكن مجبيه إلى مصر
الآن بعد من سوء الحظ »^(١)

وفي الثلاثاء من الشهر أبرق جرافيل إلى سفير إنجلترا بباريس يقول « إيماء

(١) مصر رقم ١٧ من ١٦٥

إلى الطريق الذى يسلكه المسيو دى لسبس فيما يتصل بمحاباة قناة السويس أرغبه أن تبسط للمسيو دى فرسنيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من الضرورى أن المسيو دى لسبس لم يعط سلطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية ؛ وعليك أن تطالب برد سريع بحقيقة الأمر ويسر حكومة جلالة الملكة أن تلقى الضمان قبل أن ينفخن بيده كلاماً من مقاييس الحكم «^(١)

وفي الرابع من شهر أغسطس أرسل جرانفل البرقية الخطيرة الآتية إلى نفس السفير يقول «أرغب أن تبسط للحكومة الفرنسية أن حكومة جلالة الملكة وصل إلى عالمها أن المسيو دى لسبس يعارض معارضه قوية أعمال حكومة جلالة الملكة في مصر ، وذلك بهدفه بتعطيل القناة إذا أزالت جنود بريطانية في أي مكان في القناة أو على مقرها منها ؛ وحكومة جلالة الملكة لا ترغب الآن أن تتخذ شيئاً تلقاء ما حصل منه نظراً لأنه من رجال فرنسا ذوي المكانة ولأنه رئيس مجلس إدارة الشركة ، إلا إذا أجذتها الضرورة المطلقة إلى ذلك . وإن الحكومة تتأمل أن تتجنب هذه الضرورة وذلك بما تبسطه الحكومة الفرنسية للمسيو دى لسبس مما يصرفه عن مسلكه ، وإن حكومة جلالة الملكة لواتقة من أن لها أن تتوقع هذا من الحكومة الفرنسية نظراً لما بين الدولتين من علاقات الصداقة ولا تفاق مصالحهما في القناة وفي شؤون مصر بوجه عام» «^(٢)

وفي الخامس من أغسطس عقد مجلس إدارة الشركة اجتماعاً غير عادى وكان مما أعلنه فيه تمسك بمحاباة القناة وانضمامه تبعاً لذلك إلى رئيسه فيما يدافع به عن حقوق الشركة المهددة ووجه الثناء إلى هذا الرئيس ؛ وقد خالف هذا القرارعضو الأنجليزى مستر ستاندن «^(٣)

من هذا يتبين أن دى لسبس كان جاداً في المحافظة على حيدة القناة ، وأنه كان

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٤

(٢) ص ١٥٤

(٣) ص ٢٨٥

يخشى من سياسة الأنجلترا أن تؤدي إلى سدها أو تحطيمها بأيدي الوطنية ، ولذلك كان شفهه الشاغل أن يحمل بمعارضة الأنجلترا حكومته على التدخل لحماية القناة وإذا رجعنا إلى سياسة فرسنيه وجدنا أن دى اسبس كان على حق في انتظار تأييد حكومته ، ولذلك وقف من الأنجلترا موقف الجد والصرامة ، فإن فرسنيه وإن لم يوافق على التدخل في مصر إلا أنه كان لا يمانع في مشاركة إنجلترا في حماية قناة السويس كما يبينا إذ أنه فصل المسألتين إحداهما عن الأخرى وقد خطأ فسلا خطوات في هذا السبيل واعتمد له المجلس التشريعي المال اللازم ، وأرسلت التعليمات إلى الأدميرال الفرنسي ببور سعيد ليتفق معه وسكن على ما يصح عمله^(١)

لكن سقوط وزارة فرسنيه في آخر يوليو ذهب بهذه السياسة إذ كان برنامج خلفه الابتعاد عن المسألة المصرية كلهما ومن ثم ضعف دى اسبس ، وتنمرت الحكومة الأنجليزية وأبلغت فرنسا التهديد الذى أشرنا إليه ولا يمكن مع هذا الذى أوردناه من الحقائق أن يكون دى اسبس مخادعاً لعرابي ، فليس في الأمر خديعة وإنما غلب دى اسبس على أمره بسياسة الأمر الواقع والحق أن عرابياً لم يحجم عن رد المقابلة منخدعاً بأقوال دى اسبس وإنما كان هناك اعتبار على قدر عظيم جداً من الأهمية يشغل ذهن عرابي ، وذلك هو ما كان يحيط به من ظروف ...

كانت إنجلترا تصور عرابياً وأنصاره أنهم عصاة مجرمون ، وإن لم يتمملوا شيئاً ما يبرر هذه التهمة التكرا ، فكيف يكون الحال لو أن عرابياً أقدم على رد المقابلة والمؤمن منعقد بالاستانة ، ومجلس إدارة الشركه خائف يتربّى ؟ ولقد رأينا كيف خوفت إنجلترا الدنيا مما زعمته من خطر محقق بالقناة قبل أن يحدث أي شيء للقارئ أن يصور لنفسه مبلغ ما كان يصيب الحركة القومية في مصر من سوء السمعة ، الأمر الذي كان ينفر عرابي منه أشد النفور لأنه كان شديد الحرص على أن يظهر للملا أن حركته عادلة سليمة وأنه لا يبدأ بالعدوان أحداً وإن كان لا يحجم عن رد ما يوجه إليه من عدوان ...

(١) M. E. Cromer P. 235,

وليت الأمر كان يقتصر على سوء السمعة ، بل إن الدنيا كلها كانت تصبيع
عدوة لعربى وحركته ، وحسبه ما كان يلاقيه من إنجلترة التى لم تدع وسيلة
لتشويه حركته إلا أذاعتها ...

وليس لأحد أن يقول وماذا صنع المؤمر بإنجلترة وقد خرجت على قراره
وحضرت الأسكندرية ، لأن هذا قياس مع فوارق بينة ، فإن إنجلترة فعلت فعلتها الآئمة
بحججة الدفاع عن مصالح الأوروبيين في مصر وأرواحهم ، وإنجلترة تستند إلى قوتها
وأسطولها ونفوذها السياسي ، وإنجلترة تزعم أنها تعمل عملاً مشروعاً لتأديب قوم
تمدحه من العصاة ؛ وأين هذا كله من عربى الذى لم يجد أحداً يعطف عليه وهو
المظلوم فكيف إذا ظهر بمحظوظ الطاغية الذى يردم القناة ويمطل بمغاربة الدنيا ؟ .
ولستنا نريد بذلك أن نبرر عدم ردم القناة وإلا فما كان هناك مجال لأن نطالب
بالملوم ، وإنما قصدنا أن نبين سبب تردد ولاحتجامه وأن ننفي أنه كان في ذلك ساذجاً
جازت عليه خدعة دى لسبس التي زعمها المبطلون أو الجاهلون ..

وقد أحسن جون نينينه تلخيص هذه القضية في كتابه «عربى باشا» في قوله «فاما
حل موعد المرتكب لم تركن إنجلترة إلى قوانين القتال وقواعد الحرب ، ولم تأبه بمحمدية
القناة التي تضمها الدول بل أسرجت خيول سان جورج ^(١) ، وأطلقتها في ميدان
السبق لتحرز نصرًا قاتلها على الفساد والخيانة ومستندًا إلى الدسيسه والرشوة ...
وقد وقع زراع خطير في فرنسا حول الدفاع عن قناة السويس وذلك لكي يبر
دى لسبس بما وعد به عربى ، فإنه تمهد لزعيم الثورة المصرية وقائد الجيش المصرى
بأن تقاوم قوة حرية إلى جانبه إذا أزالت إنجلترة جنودها في الأسماعيلية أو اعتدت
على حياد القناة الدولية ... ولم يكن دى لسبس كاذباً ، ولكن السياسة عرضة
للكذب فقد تقدم مسيو دى فرسنيه إلى المجلس التشريعى بفتح اعتداء لإعداد الجملة
الحربيه للدفاع عن القناة فلم يحبه المجلس إلى طلبه فاستقال في أول أغسطس
سنة ١٨٨٢ » ^(٢)

(١) عبارة مجازية معناها الجنيهات الأنجلزية الذهبية .

(٢) الواقع أن المجلس وافق على الاعتماد وكانت الاستقالة لسبب آخر كما ذكرنا

وقال عن عرابي بعد أن أشار إلى نصحه إياه بردم القناة « وكان حوله رجال أفادوا أولو باس وشجاعة وذوو عقول مدبرة وعلى جانب عظيم من فنون الحرب والهندسة ولكن عرابياً باشا لم يسمع لنصحهم ، فكان يخشى بالوهم ما يسميه الرأى العام الأوروبي ، وإنما أفهمته أن هذا الرأى العام حدث خرافه ، وأن أوروبا طامنة في الشرق كله » ...

ونحب أن نورد ما كتبه الشيخ محمد عبده في هذا الصدد وما ذكره بلنت في تعقيبه على رسالة من رسائل عرابي إلى دي لسبس ، قال الأستاذ الأمام « عرابي اعتمد على دي لسبس في حماية القناة ، وكان يظن أن مس القناة يهيج عليه جميع الأمم لهذا ترك هذه الناحية عوراء ، وهندياً أحسن دي لسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القناة كتب تلغرافاً لعرابي يقول له من المستحيل أن عساكر الأنكلizi تمر من القناة . . . وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين سرّكباً توجهت إلى القناة فورد تلغراف من دي لسبس يقول : لا تشرع في شيء ، يمس القناة . لا يغير عسكري إنجلزي إلا وعممه فرنساوى . أنا مسؤل عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرب إرسال جيش . ثم أرسل الجواب ببطء ، وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القناة ، وكان الجيش الأنكلizi قد احتله وذلك لتأخر الجيش دي لسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حلوا الأخبار وأخطلوا في الخبرة »^(١)

وأوجه نظر القارئ إلى قول الأستاذ الأمام : « وكان يظن أن مس القناة يهيج عليه جميع الأمم لهذا ترك هذه الناحية عوراء » وإلى قوله « فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرب إرسال جيش » ففي هاتين العبارتين ما يلخص المسألة كلها ويقطع بأن الأمر أمر تردد له سببه الوجيه لا أمر خدعة طال فيها كلام المائبين . . . أما بلنت فقد أورد في كتابه أحد ردود عرابي على دي لسبس وهذا نصه : « لما كنت أحترم حيدة القناة احتراماً كلياً وبخاصة لاعتبار أنها عمل من الأعمال

(١) تاريخ الأئمة الأئمة من

العظيمة ، ولأن اسم سعادتكم سوف يقتربن بها في التاريخ ، فاني أشرف بإخباركم أن الحكومة المصرية سوف لا تعتدى على هذه الحية إلا عند الضرورة القصوى وفي حالة ما إذا ارتكب الأنجلزيز بعض الأعمال العدائية في الإماماعالية وبورسعيد أو في أي جزء آخر من القناة »

ويعقب بذلك على ذلك بقوله « هنا تجد المبدأ قد وضع وضعاً طيباً في وضوح ولكن موضع الضيف فيه يرى في أنه يدع للمعدو أن يقترف أول خطوة عدائية بدل أن يحول بينه وبين ذلك من قبل وعنده »

وأين الانخداع في كلام عرابي مع هذا التحفظ الذي يبديه في كلامه؟
الآن العجيب كله ينحصر في التردد الذي أضاع الفرصة وهو ما استحق عليه عرابي اللوم بلا ضراء ، لا في الففلة التي حاول زوراً أن يلصقها به المرضون ...

أما قصته مع دى لسبس فأصرها هين وإن ألق عليها المرضون شبهات من الأهمية والخطر ... يقول عرابي في مذكرةه « في ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلفراڤ من السيد لسبس مدير شركة القناه المذكورة يستعمل عن رأينا في القناه بالنسبة للحركات الحرية فأجبته في التاريخ المذكور بالتلفراف أيضاً أنا نعتبر القناه حرّاً لامناف العمومية الدوائية ولذلك فإننا لا نترى له بضرر إذا أمكنه منع المراكب الحرية الأنجلزيزية من خرق حرمة الحياد واحترامها لقانون الشركه وإلا فنكون أحراراً في مقابلتهم بالمثل ...

فورد تلفراڤ في اليوم المذكور يفيد أنه صامن ومتکفل بمنع الأنجلزيز عن اختراق القناه ما دام فيه عرق ينبعض وظفتنا أن فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية القناه ولا تلدغ من جحر مرتين »

واستمرت المراسلة بين عرابي ودى لسبس ، ونكتفي منها بما أرسله عرابي بتاريخ السابع والعشرين من يوليو والرابع من أغسطس والخامس عشر والعشرين منه وتلاته أخرى بغير تاريخ وكما تبين لدى لسبس ما يقف عليه عرابي من حركات الأنجلزيز المدوائية في منطقة القناه ، وقد تسائل عرابي في بعضها أهذا ما يريد

دى لسبس بمحاد القناة ... ومعنى ذلك أن عراياها كان على يينة من ضعف دى لسبس أمام الأنجلترا وأنه لم ينخدع بأنه قادر على منعهم من دخول القناة ، وأنه إنما تردد لذلك الاعتبار الدولى الذى يبناه .

وقد حصل بذلك على هذه المكاببات من دى لسبس أثناء المحاكمة وأثنىها في آخر كتابه ، وقد أرسلها إليه دى لسبس مع كتاب منه جاء فيه « إننى أرسل إليك الترجمة الفرنسية لتلك المكاببات التى من شأنها أن تشرف متهمًا يحملك كرمك على الدفاع عنه »^(١)

وأخيرًا لم يجد عرايى بدأ من العمل خرج من تردد واصدر أمره بردم القناة ولكن بعد أن فاتت الفرصة وهو ما عددهما من أكبر أخطائه بلا جدال . ولم يكن عرايى يجهل أهمية هذا العمل في الدفاع عن مصر كازعم خصومه ، فقد نصح به محمود باشا فهمى في خطته التي ذكرناها ، ونصح به چون يينيه إلى عرايى أكثر من مرة كما ذكر في كتابه إذ قال « فأحیجم عرايى عن سد القناة في حينه وتغىك برأيه على الرغم مما كانت تقضى به الخطة الخربية الفنية ، وعلى الرغم مما ذهب إليه زملاؤه وما ذهبت إليه أنا وكررت له عشر مرات تارة بشدید الكلم وتارة بالكتابة .. على الرغم من ذلك كله ظلل عرايى على رأيه فهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف في تاريخ الحروب »^(٢) وإذ قال في موضع آخر « لن يجد الأنجلترا صعوبة في احتلال القناة فهم لا يبالون بالمحاولات والقوانين ولا يعنهم إلا مصالحهم ، وإذا بلغوا الأسماعيلية فمعنى ذلك أن الحملة بذلك النهاية »^(٣) وما زيدنا ثقة في أن عراياً كان يدرك أهمية هذا العمل أنه صرخ به لراس أحدى الصحف في الإسكندرية قبل ضربها قائلاً « سوف نحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلالنا ، ولكن إذا نشب الحرب فإننا سنهدم القناة مؤقتاً عند أول طلقة من مدفع ، وسأفضل ذلك آسفًا لأن القناة من طرق التجارة الحميدة »^(٤) وكذلك نجد دليلاً على هذا في ذلك الكتاب الذى أملأه عرايى على صابونجي

(١) S. H. Blunt p. 571
(٢) ٤، ٣، ٢) چون يينيه ص ١٠٥

يرسله إلى بلنت كي يحمله بلنت إلى جلاستون والذى أوردنا طرقاً منه في الفصل السابق ، فقد ذكر فيه عرابى أن الحرب تحمل مصر في حل من الالتزام بالمهود والمعادات وأنها سوف تحطم جميع القنوات وتمطل كل المواصلات «(١)» وأما قول القائلين إن عدم ردم القناة كان السبب الأساسى للهزيمة ، فينفيه ما حدث في مركز القصاصين الثانية إذ كان المصريون على قاب قوسين من النصر ولو لا الخيانة كما سنبينه في حينه لغير وجه الحرب كلاماً ... ولكاناليوم لعربى تمايل في كبريات عواصمها ... وكل ما يمكن أن يقال هو إن دخول الأنجلترا من القناة قد مهل عليهم إلى مدى عظيم النجاح في خطتهم بوجه عام ... وأما أن عرابياً أحجم عن ردم القناة لجبنه فرأى سخيف لأن تردده لذلك الاعتبار السياسي الذى فصلناه فسر بالجبن وفرق بين أن يجبن الإنسان عن تحمل تبعية فعل من الأفعال وبين أن يقارن بين فعله وتركه فيما حيناً أن تركه أجدى عليه وعلى قضيته من فعله فيقف زمناً موقف الحيرة بين الرأيين ...

وأما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابى في نعيهم عليه أنه لم يفعله في الحال ، فذلك ما ينفيه الواقع ؛ وذلك أن الأنجلترا ما كادوا يفرغون من ضرب الأسكندرية حتى أتجهوا إلى حمایة القناة ؛ وكان على عرابى أن ينشئ خطوط كفر الدوار ليصد الأنجلترا الذين دخلوا الأسكندرية فعلاً ؛ فإذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الأسكندرية في اليوم الثاني عشر من يوليو وأنهم سيطروا على مدخل القناة قبل نهاية الشهر ، واحتلو السويس في ثاني يوم من الشهر التالي وأن جانباً من أسطولهم كان يستطع الانتقال فوراً إلى بور سعيد ، فإذا ذكرنا ذلك كله أدركنا مقدار ما كان يواجه عرابياً ورجاله من صعوبة إذا هم أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس

وليس معنى ذلك أنه كان يستحيل عليهم هذا العمل وإلا سقط عنهم اللوم وذلك ما لم نقله ، وإنما كان الأمر صعباً وقساً عليهم أنهم كانوا يستطيعون أن

يوزعوا جهودهم بين كفر الدوار وقناة السويس ، ولا يخفى ما يكون في ذلك من خطر على الميدان الغربي

والواقع أن سرعة الأنجلترا وسمهم خطة محكمة من زمن بعيد هو الذي أوقع المصريين في الحيرة ، ولا يصح أن يقال إن عراياها ملوم على كل حال لأنه كان عليه أن يبادر بالعمل من قبل ذلك ؛ وقد ردتنا على مثل هذا في الكلام مما وجه إليه من لوم بشأن حصول الأسكندرية

والقضية كلها تتلخص في كلمة ، فطالما كان عربي وزيرا في وزارة عمال الخديو إسقاطها في أي وقت ، وطالما كان الخديو في صف الأنجلترا ، فلن يستطع عراي أن يقاوم للحرب فضلا عن إقدامه على عمل كردم قناة السويس ، وما كان يستطع عراي أن يفعل شيئا إلا بعد سقوط الوزارة وبعد عجز توفيق عن إقامة وزارة غيرها واضطراره إلى إبقاء عراي في وزارة الجهادية ، والمدة بين عودة عراي إلى الوزارة وبين ضرب الأسكندرية هي شهر ونصف انشغل فيها عراي بالأمن وقضيته ومسألة الأسكندرية وما جرته في أعقابها ، ودرويش وبمثنه ودسايشه مما لم يدع له مجالا لاستعداد ولو سرا ، هذا إلى أن عملا كردم القناة لا يكون إلا في موقف له مبرراته ، أعني لا يكون إلا عند نشوب الحرب أو توقيع نشوتها بين حين وحين وهو ما لم يخطر ببال أحد في مصر على هذه الصورة من السرعة وبخاصة بعد انعقاد مؤتمر الآستانة ...

* * *

ولم يقتصر نشاط الأنجلترا في المنطقة الشرقية من مصر على ما فعلوه بشأن قناة السويس ؛ وإنما جاؤا كذلك إلى أسلوب فيه أقوى الأدلة على مبلغ مال الشرف البريطاني عندهم من رعاية واحترام ، ويتبين هذا فيما فعله الأستاذ بالمر وشريكه الكابتن جل ... وفيما استعمت به الأنجلترا بعد ذلك من رشوة خسيسة ودس دفيه ...

كانت إنجلترا تدرس خطة الاحتلال مصر منذ أوائل سنة ١٨٨٢ أي قبل

إنفاذها فعلاً بنحو ستة أشهر ، وقد أشرنا إلى حديث جري يان مستر بلنت والجزرال ولسلي في الخامس عشر من شهر مارس تحدث فيه ولسلي عن أسهل الطرق إلى القاهرة وأيدياهما بالصورة المنشورة (١)

وفي منتصف شهر يونيو أى عقب مذبحة الأسكندرية قررت وزارة الحرب
بالاتفاق مع الأدميرالية تمهيد السبيل للحملة وذلك بالاعتماد على رشوة واسعة النطاق
وبخاصة بين البدو في المناطق الشرقية^(٢)

وأستدعت إدارة الأدميرالية البريطانية إدوارد بالمر أستاذ اللغات الشرقية في
كبردج ، وقد رأت في هذا الرجل خيرا من يصلح لأداء العمل المراد لمركته
اللغة العربية ونخبرته بالمنطقة القصودة إذ تصادف أنه كان من قبل عضوا في جمعية
كشف فلسطين

وتحدد إليه اللورد نور ثبروك وعرض عليه أن ينهض بهذا العمل الوطني الشرف كما قال ألا وهو ضمان انضمام البدو شرق القناة إلى الجيش الأنجليزي وذلك بالأفاده من قابليتهم للرسوه؛ وقدم له نور ثبروك خمسهأه جنيه غير نفقات الرحلة ووعده بعكافه عظيمه إذا اتفق له النجاح ...

وكان الأستاذ بالمر معسراً فقبل الانقطاع بهذا العمل الوطني المشرف؛ وتهياً للسفر وهو يرجو لعمله هذا النجاح . ويقول بلنت إنه قبل سفره وتناظر أنَّه عين مراسلاً لجريدة استاندارد ، وطلب منه أنْ يزكيه لأصحابه من رجال الحزب الوطني في مصر؛ وكان ذلك ليخفى كاً يذكر بلنت ، العمل الذي كلف ماداه ...

أما التعليمات التي أقيمت إليها فهي أن يذهب إلى الأسكندرية حيث يتشاور في خطته مع سيمور؛ وبعد ذلك عليه أن يذهب في غير إبطاء إلى ياقا حيث يتذكر في

(١) راجم ص ١٦٣ من كتابنا هذا.

S, h, Blunt p. 400 (x)

رَبِّ عَرَبِيٍّ وَيَزُورُ الصَّحْرَاءَ جَنُوبِ غَرْبَهُ وَغَرْبِهَا ، وَيَتَصَلُّ بِقَبِيلَتِ الْطِيَاحَةِ
وَالْطَّرَائِينِ ...

وَقَدْ أَطْلَعَ بَلْتَنْتَ عَلَى يَوْمِيَاتِ بَالْمَرِّ وَأَوْرَدَ مِنْهَا بَعْضَ فَقَرَاتَ كَفُولِ الأَسْتَاذِ
«أَعْطَانِي الْأَدْمِيرَالِ مَسْدِسَاً وَبِنَدْقِيَّةً وَكَثِيرًا مِنَ الْطَّلَقَاتِ» وَقَوْلَهُ عَنِ الْأَدْمِيرَالِ
إِنَّهُ قَالَ «يَهُنَا الْوَطَنُ بِوْجُودِهِ رَجُلًا قَدِيرًا مِثْلِي يَضْطَلُّ بِعَثْلِ هَذَا الْمَعْلُومِ الصَّعْبِ»
وَانْطَلَقَ بَالْمَرِّ إِلَى يَاقَا عَلَى ظَهُورِ قَارِبٍ بِخَارِي فَوْقَهُ الْعَلَمُ الْبِرْيَاطَانِيِّ وَكَانَ مَعَهُ
فِي الْقَارِبِ بَخَارَانٌ ؛ وَهُنَّاكَ اتَّصَلَ بِالْقَنْصُلِ الْأَنْجِلِيزِيِّ ، وَأَرْسَلَ الْقَنْصُلَ ابْنَهُ إِلَى
غَزَّةَ لِمَهْدِ السَّبِيلِ لِلرَّحْلَةِ ؛ وَاشْتَرَى بَالْمَرِّ الْمَلَابِسَ الْعَرَبِيَّةَ الْمَطْلُوَةَ وَبَدَأَ بَعْدَ ذَلِكَ
رَحْلَتَهُ الصَّحْرَاوِيَّةَ مَتَظَاهِرًا أَنَّهُ مِنْ تَجَارِ الْأَبْلِ ...

وَاسْتَمْرَرَ بَالْمَرِّ فِي رَحْلَتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ فِي يَوْمِيَاتِهِ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِعَصْبَنِيَّةِ الْطَّرَائِينِ
وَأَنَّهُ تَعَاقدَ مَعَ الْطِيَاحَةِ ، وَأَنَّهُ قَطَمَ شَوْطًا كَبِيرًا صَوبَ النَّجَاحِ ، وَأَنَّ الْبَدْوَ كَانُوا
يَحْبُونَهُ وَيَقْبِلُونَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَفْنَدِي ؛ وَكَانَ يَسْمَعُهُمُ الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ
غَيْطَرَبُونَ لَهُ وَقَدْ أَكَلَ مَعَهُمُ الْخَبِزَ وَاللَّاحِمَ كَمَهْدِ بَيْنَهُمْ وَيَسِّنَهُ أَنْ يَحْمِيَ كُلَّ مِنْهُمْ
الْآخَرَ حَتَّى الْمَوْتِ ...

وَفِي أُولَى أَغْسَطْسِ بَلْغَ بَالْمَرِّ السُّوَيْسِ وَاشْتَرَكَ مَعَ الْجَنْدِ الَّذِينَ احْتَلُوهَا ثُمَّ خَرَجَ
إِلَى الصَّحْرَاءِ ثَانِيَةً لِيَعْمَلَ عَلَى قَطْعِ أَسْلَالِكَ التَّلَفَّافِ وَإِحْرَاقِ الْأَعْمَدَةِ لِتَنْقِطُ
الْمَوَاصِلَاتِ بَيْنِ عَرَابِيٍّ وَتَرْكِيَا ...

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَوْمِيَفَ التَّقِيَّةِ بِالْكَابِنْ جَلَ وَقَدْ أَعْطَاهُ هَذَا عَشْرِينَ أَلْفَ جِنِيَّهِ
الْتَّوْزِيَّمِهَا عَلَى الْبَدْوَ وَلَقِيَ بَالْمَرِّ حَتْفَةً فِي السَّابِعِ مِنْ أَغْسَطْسِ هُوَ وَجَلُ وَالْأَنْجِلِيزِيُّ آخِرُ
مَاذَ صَادَفَهُمْ فِي صَحَرَاءِ سِيَّنَا عَدْدُ مِنَ الْبَدْوَ مِنْ قَبِيلَتِ الْحَوَابِيَّاتِ وَالْحَوَيْبَاتِ ، فَمَرَفَوْا
أَنَّ مَعَهُمْ مَالًا كَانَ يَحْمِلُهُ بَالْمَرِّ إِلَى الْطِيَاحَةِ ؛ فَأَوْتَقَهُمُ الْبَدْوُ وَأَخْذُوا الْمَالَ وَقَتَلُوهُمْ رَمِيًّا
بِالرَّصَاصِ فِي وَادِي صَدَرِ

وَلَمْ يَقُلْ نَشَاطُ جَلِ غَرْبِ الْقَنَاءِ عَنِ نَشَاطِ بَالْمَرِّ شَرِقِهَا فَقَدْ اتَّصَلَ بِاثْنَيْنِ مِنْ أَكْبَرِ
مَشَائِخِ الْبَدْوِ هُمَا سَعْوَدُ الطَّحَّاوِيُّ فِي جَهَةِ الصَّالِحِيَّةِ وَمُحَمَّدُ الْبَقْلِيُّ فِي وَادِي الْطَّمِيَّاتِ

كما جاء في يومياته ويدرك جل في هذه اليوميات أنه تلقى هذين الاسميين من الخديو نفسه وقد كتبهما الخديو بخط يده؛ وكان آخر ما كتبه جل في اليوم السادس من أغسطس أي قبل مصرعه يوم قال «يسرى أني تخلصت من العشرين ألف جنيه إذ أنى أعطيت هذا المبلغ لبالم ليوزعه على البدو» ...

وزرى قبل أن نتكلم عن وقائع الحرب في الميدان الشرقي أن نذكر ما كان من سعي الخديو واتصالاته في هذه الجهة، وذلك لما كان لفعله هذا من عظيم الأثر في نتيجة الحرب ...

كان من أكبر أعداء الخديو في هذا الميدان أولاً الكابتن جل، فقد أرسله توفيق إلى الشيوخين البدويين الطحاوى والبقلى وكان الإنجليز يعينون رسلاً للخديو من المصريين كذلك ويعدوهم بما يطلبون من سلاح ومال ...
وبالـ الكابتن جل في هذا المضمار محمد سلطان باشا الذى كان رئيس الحزب الوطنى قبل رئاسة عرابى إيه والذى لقب يوماً ما أبو المصريين، والذى زاره اليوم يسعى سعياً جندياً متخفياً للخدىو وللانجليز ...

قال الشيخ محمد عبده في مذكرة «مركز الدسائس والمخابرات» كان في اسكندرية في مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الإنجليز من موظفي الحكومة المصرية ومن القائمين بعضه؛ وكان روح الجميع سلطان باشا. عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الإنجليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الأرواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان واختار لبث الأفكار الطحاوى الطحاوى أحد ثقة عرابى»

وقال أيضاً «في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسيين خرجا من الأسكندرية وتوجهوا من الناحية الشرقية من البحيرة وها بدويان من قبيلة أولاد على من عائلة مشهورة بالفيوم فقبض عليهم عند صرورها على قرب من مصر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه إلى رؤساء القبائل وبعض

الضباط يدعوهم إلى ترك عربى والالتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لاحتضان المصايف ... استنبطوا فاعترفوا بكل شئ ، وذكروا أن جندية بحرياً انكلزيًا يسمى جيل حل ثلاثة ألف جنيه من سيمور ليتحقق بالأستاذ بالمر يستميل معه عربان غزة وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان فى الشرقية ، وأن مبلغًا لا يقل عن المبلغ السابق يمصحب القائد الانكليزى إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لقابلة بالمر وقد قطع سلك التلفراف الذى يصل بين مصر والآستانة » .

وقال بلنت « ولم يكن ذلك الشخص غير زعيم حركة الفلاحين القديم ذلك الذى لم يساوره الخجل وقد ألق بنفسه في أحضان الأنكلزيز كلاية ، أن يبذر بذور الانشقاق بين أولئك الذين لا يزالون يتمسكون بوطنيتهم ؛ ولقد يبدو من الصعب على الجيل الحديث في مصر أن يفهم كيف يهوى رجل اتصف بصفة عالية هي صفة الوطنية إلى ذلك السبيل الوضيع .. وقد أرسل كتاباً إلى عدد من أصدقائه السابقين في القاهرة يشرح لهم فيها أن التحالف بين الخديو والأنجليز إنما هو ضرورة مؤقتة ، ويقول إن الجنود الأنجلتراز لن تبقى بمصر بعد إعادة سلطة الخديو ، وإن عرانياً قد فقد ثقة السلطان ، وإن المقاومة المستمرة في القاهرة أمر يتقم عليه المسلمون ... وقد أحدثت أثرها هذه الكتب التي أحكم توزيعها ، ولعب المال مرحلة ثانية دوره القوى ... » .

وقال في موضع آخر « لقد وجدت هذا مكتوبًا في يوميات عن سنة ١٨٨٧^(١) ١٣ فبراير . زراني عبد السلام الويلحي من مؤسى الدستور وعضو مجلس سنة ١٨٨٢ ، وأخبرني أنه كان صديقاً جيناً سلطان باشا ومن أعاوه وأنه كان أحد الذين انضموا إليه في خصومته لمurai ، ولكن الأسف يتمثل ك THEM جميعاً الآن أن لم يتحدوا ؛ وهو لا يقر مسلك سلطان أثناء الحرب . فقد خدع مات سلطاناً الذي غدر به ليفعل ما فعل واعداً إياه وعداً وانحجاً أن حقوق البرلمان المصرى سوف

(١) يلاحظ أن بلنت نشر كتابه سنة ١٩٠٧ .

تحترم ؛ وقد وعد مالت هذا الوعد شفويًا وطلب سلطان أن يكتب له هذا ولكن الخديو صرفه عن الإلحاح في هذا الطلب فاثلا إن كلة الوكيل الأنجلزي لها قيمة الصك . ولما رأى الرجل الشيخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حزن حزناً شديداً ومات وهو يأمل أن يسامحه عرباً وألا ينتقل اسمه في الأعقاب موسوماً بالخيانة لوطنه » .

وقال نينيه في كتابه « وكان بجانب الأمانة في جيشنا بالشرقية فريق من المؤونة يسوقهم الأنجلزي ويعدونهم بالمال ويحرضهم توفيق باشا ويعدهم ؛ وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يعتقدون على جنس الفلاحين المصريين ، ومن هؤلاء على يوسف الشهير بخنفس ، وقد زعم البعض أنه من سميم المصريين والحق أنه من حثالة الأزرار ، وكان مع الأسف الشديد قائد قلب الجيش المصري وهو الذي اشتري سلطان باشا ذمته للأنجلزي فانسحب بفرقته فأفسح الطريق للجيش ولسلى » .

وكان سلطان باشا أثناء القتال يرافق الجيش الأنجلزي نائباً عن الخديو ، فقد أصدر الخديو أمره بتعيينه نائباً عنه لمرافقته الجنرال ولأسلي في زحفه على العاصمة^(١) من هذا الذي ذكرناه عن سلطان يتبين لنا مبلغ ما بذل من نشاط في صفوف المدنيين والمسكريين ، ومبلغ ما أدى من خدمة لجيش الاحتلال على حساب وطنه ولقد كوفء بعد الحرب بلقب السير من الأنجلزي وبمشرة آلاف جنيه قبضها من الخديو ... ألا يئس ما باع به نفسه ووطنه ...

أما من اشتراهم سلطان بالمال فمن أشهرهم سعود الطحاوى من البدو ، وعلى يوسف خنفس وعبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى وداعب ناشد وهو قاعقام في المقدمة ، وسيأتي مع عظيم الأسف والخجل الكلام على خيانة كل من هؤلاء في موضعها .

ومن عمل غير سلطان من المصريين مثل عمله عثمان بك رفت ياور الخديو الذى وصفه بلشت بالمهارة والذكاء وقال إنه أحدث تأثيراً كبيراً في نفوس عدد

كبير من الضباط وبخاصة من كانوا من أصل شركسى إذ راح يرجمم إلا قائلة من القاومة وأن الخير للشخص منهم أن يتتجنب سوء العاقبة قبل فوات الوقت وسبيل ذلك هو الولاء للخديو؛ وكان عنان بك يعرف فريقاً من الضباط فاستطاع أن يتصل بهم سراً ويغيرهم ...

ومما يبعث على الأسف أن بعض الضباط المصريين من الموالين للخديو غير من اشتراهم سلطان من الذين أخروا خيانتهم في أفقهم حتى يحين الوقت، قد رافقوا الجيش الأنجلزى وأرشدوه وأعانوه بالاستطلاع والتتجسس بأمر الخديو وهم الأمير الائى زهراب بك والقاغقام يوسف ضيا بك واليوزباشى توفيق أفندي (١) وسوف روى أن السبب الأساسى للهزيمة كان صرده إلى هذا السمى الأئم الذى قل أن يوجد نظير له في تاريخ بلد من بلاد الأرض.

كانت الخطة الأساسية للحملة الأنجلزية غزو مصر من الشرق كما ذكرنا؛ وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس وأخذ الأسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة وقد رأينا ما كان من نشاط الأنجلز في هذه المنطقة حتى أوائل شهر أغسطس وما كان من إهال المصريين إليها حتى ذلك التاريخ؛ وفي اليوم التاسع عشر من أغسطس أبحرت الحملة الأنجلزية من الأسكندرية إلى بور سعيد تحت قيادة سيمور وكان الأنجلز قد حصنوا مدخل الأسكندرية تحصيناً قوياً مخافة أن يدخلها الجيش المصري من كفر الدوار وربطوا بينها وبين بور سعيد من البحر بأسلاك التلفراف وفي الأسبوع الأول من أغسطس كان عرابى قد أرسل محمود فهمى باشا لبناء ما يمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية . وبعض الموضع الآخر؛ كما أرسل بعض القوات فرابطت على مقربة من الأسماعيلية ... وفي العشرين من أغسطس بلفت السفن الأنجلزية المقلة للحملة بور سعيد وكان عدد رجال الحملة نحو ثلاثة ألفاً؛ وفي هذا اليوم احتل الأنجلز بور سعيد واقتصرت السفن الحربية قناة السويس وأنف القانون في الرخام وعلى حيادها ألف

سلام ؟ ومنت السفن التجارية من دخول القناة من الشمال ومن الجنوب إذ كان
لذى هوت في السويس تفاصيل الخطة المرسومة .

واحتلت جنودهم الأسماعيلية كذلك في هذا اليوم ، وشرعوا في إزالة عتادهم بها
ليستخدموها قاعدة لزحفهم على القاهرة ؟ وتحقق لهم بذلك خطوة هامة من خطوات
حملتهم ، فبين الأسماعيلية والقاهرة ما لا يزيد عن تسعه وخمسين ومائتين كيلو متر في
حين أن بين الأسكندرية والقاهرة نيفاً ومائتي متر ... هذا وإن الطريق في الصحراء
أسهل منه في الدلتا حيث الترعرع التي تعمق سير الجيش وحيث يختفي قطع الجسور
وتهديد مؤخرة الجيش الزاحف ، من القرى والمدن .

وأرسل عرابي إلى دى اسبس في هذا التاريخ يقول « بما أن الأنجلترا اعتدوا
على حياد القناة ، فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتطليها لنزع عدوائهم عليها »
وهم الجيش بتنفيذ هذا العمل فلم يستطع إلا حرس الأنجلترا بسفتهم ومدفعياتهم
شواطئ القناة فكان كلا قرب الفملة من مكان أبلغت طلائع الأنجلترا عليهم فأقبلت
القوارب بعدها تصليهم نار قد اهلكها فيرون مبتعدين ؟ ولم يتثن لالمصريين إلا اللدغة
المرعنة المذهبة فنموا وصول الماء إلى السويس والأسماعيلية ...

وكانت السفن الأنجلترا منذ وصولها لا تفك تضرب نفيشه أول معسكر
للمصريين بقابها لتشغلهم عن العمل في ردم القناة واتلاق الربع في نفوسيهم ؛
ولا تبعد نفيشه عن الأسماعيلية إلى الغرب إلا بنحو ثلاثة كيلومترات ...
بلغ ولسي الأسماعيلية في الحادي والعشرين من أغسطس ، وبدأ يمد العدة
للزحف على الصحراء ؟ وفي هذا اليوم وصلت القوات الهندية إلى السويس ...

يقول عرابي في مذكراته « في ٢١ أغسطس توجه الفريق راشد باشا حسني
إلى الخط الشرقي ومعه فرق من البيادة والطوبجية والسواري تحت إمرة خالد باشا
نديم و محمد بك عبيد الميرالاي وعبد القادر بك عبد الصمد الميرالاي ، ثم صار وضم
أورطة في محطة فايد وأخرى في نفيشه وجعلوا المركز العمومي في المسخوطة بواسطة
الأهالى المتطوعين وسد الترعة الحلوة »

وفي الثالث والعشرين من الشهر التح� الأنجلزيز والمصريون أول التحام في الميدان الشرقي ، وبعد قتال شديد ارتد المصريون عن نفيشة فاحتلها الأنجلزيز ... وفي اليوم التالي هاجم الأنجلزيز موضع سد الترعة الأسماعيلية وكان يسمى الجفر واحتلته جنودهم .

ودارت معركة عنيفة بين الجيشين في المخطوطة في الخامس والعشرين من أغسطس ، وقد أتى راشد باشا بلاء حسناً في هذه المعركة ، ولكن تكاثر العدو عليه اضطره إلى الانسحاب فسقطت المخطوطة

وفي هذه المعركة أصيب الدفاع الوطني بضرر من أشد الضربات وخسر خسارة كبرى وذلك بأسر رئيس أركان حرب الجيش وكبير مهندسيه محمود فهمي باشا ... كما أتى قدر على الجيش المصري أن يصادفه النحس في أول خطواته

وي بيان ذلك أنه خرج في المساء وكان يلبس ملابس مدنية ومعه ياوره فترك الياور في قرية هناك وسار وجده حتى بلغ قمة تل غير منتفع على الجانب الآخر من وادي الطعميلات ليلقى نظرة على الصحراء في اتجاه الأسماعيلية ، وتصادف أن كانت ثلاثة إنجلزيز صغيرة بهذا المكان فأحاطت به وظنته يتجسس ، ولكننه أوهم هؤلاء أنه مالك من أصحاب الأرض في القرية القربيه وكادوا يصدقونه ويطلقونه ، ولكن رئيس هذه الثالثة رأى أن يأخذه إلى معسكر الأنجلزيز فربما كان في الأمر شيء ، وبقى الياور في القرية لا يدرك ماذا وقع لرئيس أركان حرب الجيش ... وهكذا تحقق الجيش المصري هذه الخسارة الفادحة في أيسر صورة

ولهذا ظن عراقي الظافن بمحمود فهمي باشا وحسب أنه فعل هذا ليأسه الأنجلزيز ، فقد قال في مذكرةه « وأما محمود باشا فهمي فإنه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآخر الواقع في الأسر على البقاء في الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا ^(١) وطمعاً منه في قبولة لدى الخديو بسبب استسلامه إلى

(١) لعل عراقياً يقصد موافقة تركياً على طلب إنجلترا بشأن هنا المشور وذريع هذا النسباً وذلك لأنّه لم يصدر إلا في ٦ سبتمبر .

الأنكليز، ولذلك خالف خالد باشا وثبت على موقفه مع خادمه حتى قبض عليه
الأنكليز بصفة كونه نفر بسيط »

واستولى الأنجلiz على المجموعة في نفس اليوم الذى استولوا فيه على المسخوطة
وهي على اثنين وعشرين كيلو من نفيسة ونحو أربعة وعشرين كيلومتر من التل الكبير،
وكانت خسائر المصريين في المجموعة سبعة مدافع كروب وكية كبيرة من البنادق
وقطار محمل بالذخيرة ...

ودخل الأنجلiz القصاصين بعد مناوشة صغيرة فأصبحوا على خمسة عشر كيلو
من التل الكبير وعند ذلك رأى عرابي أن ينتقل إلى الميدان الشرقي فسافر إلى
هناك من كفر الدوار بالقطار يصحبه عدد من الضباط وقوة من الحرس ، وكان
معه عبد الله نديم خطيب الثورة وكتابها وقد جاء يستنهض الهم بأحاديثه وخطبه
بين فرق الجيش

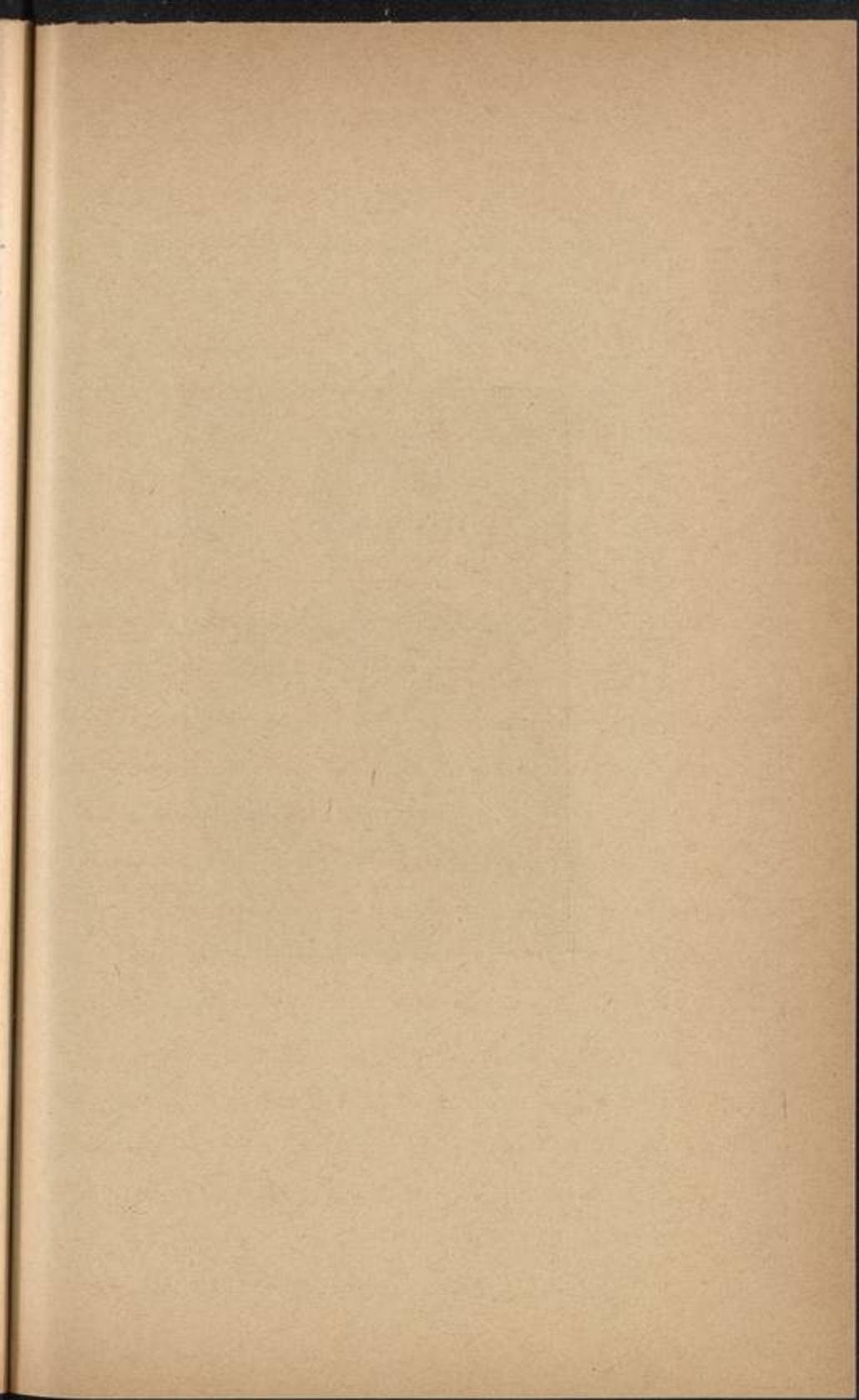
واستقبل عرابي في الزقازيق استقبلا عظيمًا فقد خف لقاءه الأعين والعمد
والموظفون وأرباب الطرق الصوفية وحياته الجموع التراجمة لرؤيه بالدعاء المعروف
« الله ينصرك يا عرابي » وكان النساء والصبية على خط سكة الحديد يرددون أغنية
أولها « يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز » ثم يهتف أحد الشباب قائلاً الله
ينصرك » فتردد جموع الشباب قائلة « يا عرابي » ... وتألف من هذا مظاهرة
شعبية جميلة فيها الدعاء وفيها الرجاء ...

وأقيمت لعرابي بالتل الكبير خيمة سعيد باشا التي كان يقيم بها في كفر الدوار
وأحيطت بالحرس خوفاً من كيد الكاذبين

وتشاور عرابي وكبار رجاله في الموقف الحرج فقرر اتخاذ خطوة المجموع في
الحال ، وقد وصل إلى الميدان الشرقي من القاهرة على باشا فهمي يقود الآلات
الأول من المشاة؛ ثم وصل بعد ذلك عيد بك محمد بالايه من كفر الدوار وكذلك
أحمد بك عبد الففار وعبد الرحمن بك حسن ومهمهم الفرمان ، ووصل من دمياط
حضر بك حضر ومهه أورطنان من السودانيين



(عبد الله نديم)



على أن مجموع هذه القوات لم يكن يزيد في الميدان الشرقي عن ثلاثة عشر ألفاً من الجنود النظامية ، أما المتطوعة والأنصار والفعلة فكان عددهم يزيد كثيراً عن ذلك

وفي الثامن والعشرين من أغسطس تهـ المصريون للهجوم وقد استقرت الحاسة في نفوسهم على الرغم مما أبى فيها من أسف على أسر محمود فهمي باشا ... يقول عراقي في مذكراته « ثم عقد مجلس حربي تحت رياستنا وقررنا فيه هيئة الهجوم على العدو وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره وأعطي لكل واحد منهم رسم الشكل الحربي مبينا فيه الدقيقة التي يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو حيث كان معسراً في القصاصين ؛ وكان الترتيب على هيئة شكل م-curvy يكتفى العدو من كل جهة وكانت أورطة محمد أفندي الرملاوي في الجناح الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة من السواري ومدفعان وجاذب من العربان ، وفي هذا الجناح من يسار الترعة أحى الای بيادة حكمدارية أحمد بك فرج وخلفه مدفعان ، وفي القلب ثلاث أورط يتقدمها ثمانية مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البيادة وستة مدافع والجميع تحت حكمدارية على باشا فهمي والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رافت ، وفي الجناح الأيسر ست أورط من السواري تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وأورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك ، وقمندان هذا الجيش هو راشد باشا حسني ؛ وكذلك محمود باشا سامي حكمدار الجيش المسكر في الصالحة وهو مركب من اثنى عشر ألف عسكري يقوم بجيشه ليلاً بحيث يصل إلى يسار جيش رأس الوادي عند مطلع الفجر ، ويحيط بهيمة العدو والقوة التي على يمين الترعة تحيط بعيساته والعربان يقتربون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجمة ، وبذلك لا يتمكن العدو من الفرار ، وقد كان مع العدو الدوق أوث كنوت ثالت أنجفال ملكة الأنجلوز ؛ وانقض المجلس على ذلك »

وهي خطة محكمة كما زرى ، وقد نفذت كذلك بأحكام ؛ فهجم المصريون

على موقع الأنجلترا في القصاصين في الثامن والعشرين من أغسطس بقيادة راشد باشا حسني الشهير بأبي شنب فضة ، ودار قتال شديد جداً وتحمّس المصريون وقويت روحهم المعنوية وكانت كروا المبادىء التي يحاربون في سبيلها فشدوا على الأنجلترا مستبسلين وعزمت قوة هجومهم فأجلوا الأنجلترا عن مواقعهم الأمامية واستولوا عليها

واستعاد الأنجلترا قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وقد هبط الليل وال Herb مجال بين الجانبين ؛ وقتل من الأنجلترا في المعركة عائنة منهم ضابط وجراح واحد وستون منهم عشرة من الضباط ... وهذا هو إحصاء الأنجلترا أنفسهم (١) وتعرف هذه المعركة بمعركة القصاصين الأولى

أما التقرير الرسمي الذي أعلنه وكيل الجماعة بناء على ما ورد إليه من ميدان القتال ، فيقول إن المصريين أسرعوا سبعين إنجليزياً وإن جثث الأنجلترا في ساحة المعركة بلغت عائنة « وجدوهم مجندلين بأسلحتهم وأسلفهم وذخیرتهم وهم غير الذين سيمطر عليهم فيما بعد وغير الذين أمكن للعدو حملهم إلى مراكزهم أو إحرارهم فقد ورد إلينا من على باشا فهمي أنه رأى حريقاً في جهة الكجرى فأرسل إلى تلك الجهة من يستكشف خبر هذا الحريق فأخبر المرسلون بعد الاستكشاف أنه حريق قتل المئود من جيش الأنجلترا ... وقد استشهد من عساكرنا في هذه الواقعة ٦٠ شهيداً وجرح ٨٥ »

أورد عراقي في مذكرة تقرير عن الأنجلترا عن هذه المعركة وما جاء في أولها . « وكان المرابطون بعد عظيم لم تقو عليه الفرق الأنجلطيرية فوردت إليها نجدة من الحسمة ثم اشتد القتال واستمر إلى أول الليل فتشتت شمل المرابطين وتکبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الأنجلترا . أما خسارة الأنجلترا فكانت قتيلوا واحداً و ٦ جرحى من الضباط و ١٩ قتيلاً و ٥٢ جريحاً من الجندي »

(١) الحملات الأنجلطيرية في أفريقيا للكيدل سبتان من ٣٠٩

وما جاء في التقرير الثاني وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة « ففي الظاهر أطلق العصابة علينا ناراً شديداً من مدافع المياد الأول فلم يلحق بنا أقل ضرر وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أمرت رجالى بالرجوع إلى مراكزهم فعادت فرقة الخيالة إلى المحسنة وكانت قد وفدت على إمدادات ونجدات وفي الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة من الأعداء وحاولت التغلب على ميمنة جيشى وإكراهه على التسلّم » ... ولم يشر هذا التقرير بشيء إلى القتلى والجرحى ..

والذى يستخلص من هذه الروايات على أى حال هو تكافؤ الجانبين في المعركة ، ولا نجد أحسن من هذا ترد به على الذين يتحدثون عما ليس لهم به علم ، أو الذين أضلهم الاحتلال فقالوا إن المصريين لم يحاربوا ثما هو إلا أن رأوا الأنجلiz حتى فروا هاربين ؟ وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء بتزديد تلك الأباطيل عن جيش أمتهم ؟ كذلك كله لكي ينكروا الجهد على عربى ؟ ألا ما أشد ماقى هذا الرجل من نكران !

ويجدر بنا أن نلاحظ أمراً على جانب عظيم من الأهمية وهو أن الأنجلiz الذين كانوا يواليون الرزحف إلى الأيام قد توافقوا بعدهذه المعركة أيام ، ولم يستأنف القتال إلا بعد أن هجم المصريون عليهم مرة ثانية في التاسع من سبتمبر ؛ وما ذلك إلا لأن دسائس سلطان وأقرانه لم تكن قد أفرخت بعد ، خشى الأنجلiz التقدم دون أن يستمعينوا بهذا السلاح الدنس سلاح الرشوة والخيانة والقدر ، ثم إنهم كانوا يعدون لعربى الضربة القاصمة وهى إعلان قرار عصيانه ؟ وحسبنا هذا دليلاً على تهيب الأنجلiz من خطوط المصريين وعلى أنهم وقد خبروا ثبات المصريين واستبسالهم في هذه المعركة قد تبين لهم أن الأمر جدلاً

والحق أن المصريين منذ معارك كفر الدوار حتى نهاية معركة القصاصين الأولى ، قد خلا جهادهم الشرف من كل شائبة ، وهو حتى هذا الطور خلائق بكل ثناء واحجاج ، خسب الرء أن يبذل كل ما في وسعه في سبيل النجاح وفي سبيل الشرف ، أما إدراك النجاح فعلاً فقد يفلت من أعظم القواد كفاية ومن أقوى

الجيوش بأساً لأمور لم تجر لاحد في حساب ...

* * *

لا بد لنا قبل أن تتبع أذوار الحرب ، من أن ننظر فيها كان من أمر تركيا والمؤتمر الحربي بينها وبين إنجلترا ، ومساعي الأنجلوين كي يصدر السلطان قراره بعصيان عراقي ...

أرادت تركيا أن يظل المؤتمر العام منعقداً أملاً في أنه ربما جد خلاف بين الدول ، ولذلك لم توافق على التأجيل وأعلنت احتفاظها بمحفظتها في دعوة المؤتمر في أي وقت ، ولكن مساعيها ذهبت هباء ، وذهب كذلك المؤتمر إلى غير رحمة ووجهت تركيا إليها إلى المؤتمر الحربي الثاني بينها وبين إنجلترا ، وكان السلطان يتحرق شوقاً إلى اليوم الذي تنجح فيه مساعيه للاشتراك مع إنجلترا في الحملة على مصر وذلك بالسماح له بأرسال جنود إلى مصر التي هي جزء من سلطنته !

واستغلت إنجلترا هذا الاهتمام الشديد لتظفر ببنيتها ألا وهي قرار المصيان وراح دوفرين يتهدد تارة ويصانع تارة أثناء المناقشة في الشروط المقترحة للعمل المشترك وهو في حالته إنما يهوش على الحكومة التركية ويعاملها معاملة الشيخ الخبيث الماكر ، حدثاً لا يحيط بما حوله بشيء ، بغية اكتساب الوقت والظفر بقرار المصيان فحسب ...

وكان السلطان راغباً عن هذا القرار لما يكون من سوء أثره في العالم الإسلامي ولأنه يؤمن أن عرايا إنما يدافع عن حقوقه في مصر ؛ وأراد السلطان أن يظهر شيئاً من الغضب فنعم بإرسال عدد من البغال اشتراه إنجلترا لجيشها في مصر ؛ ولكن ما كاد دوفرين يتحقق على ذلك في عنف حتى تراجع السلطان وأرسل إليه رسولاً خاصاً يتبئه أنه أمر بأرسال البغال المطلوبة ...

واغتنم دوفرين الفرصة فأخبر رسول السلطان بأن الحال في مصر تستدعي عملها فيما هو يشير بذلك إلى القرار المطلوب ؛ وفي الثالث والعشرين من أغسطس

زار دوفرين سعيدا باشا ، وبمد مناقشة في أحد بنود المؤتمر المطلوب عقده ، إذ كان السلطان يريد أن تنزل جنوده بالأسكندرية بينما كانت إنجلترا إطاله منها لوقت تقترب غير جادة أن يكون ذلك في أبي قير ورشيد ودمياط ، أشار دوفرين إلى قرار المصيّان ؛ وأجاب سعيد باشا بأن حكومته ترى أنها خطوة ليس من الميسور خطوها لأول وهلة وترى أن تستبدل بها قرارا آخر يقوم على النصح لمراقب ومناشدة ولا أنه مناشدة أخيرة ، وإذا ذاك نهض دوفرين غاضبا معلنا أنه من المستحيل أن يعود ثانية إلى التحدث مع تركيا بشأن المؤتمر أو في أي أمر آخر^(١)

وأحدثت هذه الفضيحة أثراها إذا رافقه سعيد باشا وقام باشا إلى أسفل الدار ثم إلى الشارع متقدرين وقالا إنها قدموا بهذا الاقتراح على غير مشيئهما ؛ ورد دوفرين في صلف أنه لن يوقع على قرار عقد المؤتمر إلا إذا وصله قرار المصيّان باللغتين العربية والفرنسية .

وفي اليوم الخامس والعشرين من أغسطس أرسل دوفرين إلى حكومته يقول إن السلطان عاد يضع العقبات في سبيل ما يUDGE التجار لإمداد الأنجلترا بما يريدون إرساله إلى جيشهم في مصر وأنه يهدد بالسجن أي ترك يرافق الحيوانات المزمع إرسالها بقصد الحفاظة على حيائنا ...

وفي اليوم نفسه أُبرق مالت إلى جرانفل يشكّو من أن عمل السلطان من شأنه لا يجعل المعاشرة يصدقون أنه سوف يساعد الحلفاء ، لذلك فإن الحلفاء لن تحصل منه على التأييد الأدبي المطلوب ، ويقول إن شريفا وريضا يعارضان في عجيّه جنود تركية إلى مصر ومخشيان مما ينجم من المتابعة بسبب ذلك فيما بعد^(٢)

وفي السابع والعشرين من أغسطس عاد سعيد باشا يلح وقد أفضى إلى دوفرين بأن تركيا مستعدة لقبول الشروط التي رأها إنجلترا لعقد المؤتمر وأن قرار المصيّان عراقي يصدر عقب التوقيع على الاتفاق الأخير ...

ووافقت إنجلترا على شرط أن يعلن قرار المصيّان حالا وهو في الواقع ما كانت تتبعيه إنجلترا بهذه الاتصالات وعلم ذلك في مصر في الحادي والثلاثين من

(٢) ٢٤٥ المصدر نفسه من

M, E, Cromer P, 244

أغسطس على أثر برقيته إلى مالك ؛ وعاد السلطان بيدل آخر محاولة لأن تنزل
جنوده بالإسكندرية وذلك في خراعة وتوصل بدلان على مبلغ ما انحدر إليه هذا
الطاغية المستبد في قومه أمام الأنجلز من هوان ، فقد أرسل دوفرين يقول
« إن السلطان جات على ركبتيه وإن لأجرؤ على أن أنقدم إلى حكومة جلالة
الملكة في إخلاص أن تقبل تصرّعاته »^(١) ! وزاد دوفرين على ذلك « أن السلطان
يعد في نظير ذلك أن يعمل كل شيء تريده إنجلترا بشأن القرار ضد عرابي وأن
يأمر الصحف بتغيير لهجتها »

وعلى الرغم من هذه المذلة في الرجاء لم تقبل الحكومة الإنجليزية تزول
الأزرار بالإسكندرية التي هي من أملاك السلطان ! وفي اليوم السادس من سبتمبر
أعد السلطان القرار ونشر في الصحف قبل أن يرسل إلى دوفرين
ولما أن ظفرت إنجلترا بتوقيع السلطان على القرار ، راحت في لوم ليس مثله
لوم تنتصل من وعدها بقبول المؤتمر بموجة أن قرار المصيّان لم يكن في الصيغة
التي أرادتها إنجلترا عاماً ! ...

وامتنعت بعد ذلك الاتصالات بين ال دولتين في صورة مملة حسبنا منها هذا
القدر لنعود إلى الحرب في مصر ...

فاليوم التاسع من سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكانت آخر معركة
أنبت فيها المصريون شجاعتهم وكاد جيش مصر على فلتة يظفر بالجيش الإنجليزي
على كثره ، ولكن وأسفاه كانت الدسائس قد أفرخت خيل بين المصريين وبين
الظفر وهم منه على خطوة ، ولذلك كانت هذه في الوقت نفسه أول معركة سجل فيها
نفر من المصريين على أنفسهم عار الخيانة في أقبح صورها وأشنعها ، وبسبب هذه
الخيانة الفاجرة حلّ المزعنة السوداء حين التمعت بوارق النصر ...

كانت لا تخرج خطة هذه المعركة في جوهرها عن خطة المعركة الأولى ، وكان

(١) المصدر السابق صفحة ٢٤٦ وفي الأصل الإنجليزى « صلوانه »

المصريون هنا كذلك البادئين بالمذوم على الأنجلترا ، وهي ظاهرة تسجل لهم بالحمد إذ كان عمل المصريين في كفر الدوار فاقداً على الدفاع ... وقد وصف بلفت هذه المعركة بقوله « إنها كانت أفضل فرصة أتيحت للمصريين لتصد تقدم الأنجلترا وآخرها ، ولم تكن بعيدة جداً من النجاح » .. ويقول بلفت « ولو أنها نجحت فليس يعرف ما كانوا لا يحصلون عليه من الاعتراف بهم ومصالحهم ، وذلك لأن الرأي العام في إنجلترا كان قد تغير فعلاً في هذا الوقت بالذات وأخذ الناس يشعرون بالخجل من حرب تشن على الفلاحين الذين يحاربون ليخلصوا حريتهم من استبداد قديم »

وكان قد وصل في الحادي والثلاثين من أغسطس كما ذكرنا إلى مصر بما موافقة السلطان على إصدار قراره بعصيان عراقي ونشرت صحف الآستانة هذا النباءً وتناقلته الصحف الأنجلزية والصحف الموالية للخديو؛ وقد طرب لهذا النباء توفيق باشا وأعوانه أيضاً طرب ، وهرول سلطان باشا إلى الأسماعيلية ليعمل على الاتصال ببعض ضباط الجيش المصري بعد معركة القصاصين الأولى ، ورأى أن الفرصة سانحة ليوم بعض المستضعفين أن نجاتهم فيما بعد تتوقف على ما يفعلون الآن قال عراقي في مذكرة ، « ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعة أرسل وفداً إلى الأسماعيلية مؤلفاً من محمد سلطان باشا وعمرو لطفي باشا وفريد باشا وزكي بك ابن أخت يعقوب باشا سامي وعثمان بك رأفت ومعهم مقادر عظيمة من نسخ الجوابات النذرية فيها منشور السلطان بعصيانتنا ومنشور الخديو القاضي بمساعدة الأنجلترا وأنه لا مطمع لهم في بلادنا ، وقد انضموا إلى زهراب بك المدين مع الجيش الأنجلزى من قبل ليثوا العيون والجوايس على جيشنا وليتخابروا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت عقائدهم وضفت عزائمهم ويوزعوا عليهم تلك النشورات ... وقد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل في البلاد الريفية ليدعوا العمد والأعيان لطاعة الأنجلزى ومساعدتهم اتباعاً لمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم إليهم في هذه الجناية السيد أفندي الفقى من مديرية المنوفية

وأحمد افندى عبد الففار عمدة تلا وغيرهم من المصريين الذين انخلعت قلوبهم من
منشور السلطان المندرج بالجواب المشار إليها «

أحكام عربية ورجاله وضع خطتهم للهجوم على الانجليز وقد ذكر عربى
لصديقه مسٹر بلنت أن السير شارلز ولسن أحضر لى خطة المركبة حين كفت
بسجني في القاهرة وسألنى عما إذا كانت من رسم يدى فأجبته : نعم ، فأخبرنى
كيف حصلوا عليها ، ثم قال إنها خطة جيدة وربما كفتم بها تنتصرون علينا «
ولكن ما جدوى إحكام الخطة مع الخيانة فى أشنع صورها وقد أحدثت
دسائس سلطان أثرها فى بعض صغار النفوس فهووا إلى موضع يتندى وأيم الله
جيئتنا خجلا إذ ذكره ! وأى شىء يخجل منه مصرى يتحدث عن تاريخ وطنه
هوأشد وأقمع من أن يقول إن مصر يا من بني وطنه أرسل وأسفاه خطة المركبة
بحذايرها إلى العدو بل لقد سرق النسخة الأصلية التي رسمها عربى يمده فأضاف
إلى جريمة الخيانة فضيحة السرقة فكانت خيانة على خيانة ؟ وكان هذا المصرى
الخائن هو على يوسف خنفس الذى وقف بالآية فى ميسرة خط القتال ؟ وأى
فضيحة فى تاريخ الحروب أفهم من هذه الفضيحة الفاحشة ؟

قال عرابي فيما تحدث به إلى بنته «إن الخطة أفشلت للمدعو على يد علي يوسف خنفس الذي أرسل الرسم الأصلي الذي رسمته يمدي إلى الجنرال ولسلی؛ وكان هو وغيره من رجال الجيش قد أفسدهم أبو سلطان الذي كان يعمل لصالح الخديو» وقال الشيخ محمد عبده «في واقعة التصاصين كان الرسم كائناً يبنيه وكانت المسارك المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الأنكليزي، وما رأى القواد المصريين إلا وجود الفرق الأنكليزية زاحفة وأخذة جميع الطرق في الساعة واحدة... وكانت الخيانة وصلت والتفود قد وصلت إلى قلب الجيش وإلى كثير من الضباط بسمى سلطان باشا ومراسلة العربان»

وليس فيما يذكره المتحدثون عن فنون القتال من شيء هو أشد خطراً على جيش محارب من أن تكون خطته معروفة لعدوه ، ذلك لأنّه بني هذه الخططة على

أساس مبالغة المدو وأخذه من حيث لا يدرى ، فإذا عرف المدو الخلطة انقلب الوضع وفوت على عدوه قصده وكان هو المبالغ ، هذا فضلاً عما يحدهه اكتشاف الخلطة في النفوس من ذعر وقت القتال ...

قاد الجيش المصري في المعركة الفريق راشد باشا حسني، وقد بدأ المجنوم في الثالث الأخير من الليل ، والتوجه الجيشان والمعد على علم بالمجنوم فلم يباغت وإن كان قد فوجيء بابتداء المعركة ، لأن علمه بخطتها ساعد على تنبأه حتى ينجلji النهار؛ وأسفر الصبح والمعركة حامية بين الجيشين ، والمدفعية من الجانبين ترسّل قذائفها في سرعة وقوفه ، وتـكـافـأـ الفـريـقـانـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ تـفـوـقـ الـأـنـجـليـزـ فـيـ المـدـدـ ..

وتلقت قواد المصريين يتوقعون دخول محمود باشا البارودي الميدان قادماً
بجيشه من الصالحية ليذكر على ميمونة المدو ، ولكنها تأخر عن موعده فلم يدخل
في غيش الفجر كما كانت تقضى به الخطة ، ولما كان الأنجليز على علم بقدمه فقد
رصدوا له قوة من المدفعية حالت بينه وبين الوصول إلى موضعه من المعركة ،
ومما يذكر مع عظيم الأسف أن رجال سعود الطحاوى هم الذين أضلوه عن وجهه
في الصحراء فتأخر وصوله ...

ومتع النهار ونار الحرب مستمرة ، وقد توالي الجزر والمد بين الجيشين ، وأثبتت كل من البطلين المصريين على باشا فهمي وراشد باشا حسني بطولة فذة طول النهار ومن حولهم الجيش المصرى لا يترجح ولا يلين ...

ولكن المركبة قد انقلبت من أولها بسبب الخيانة إلى معركة دفاعية بعد أن كانت خطتها هجومية ؛ قال مسؤول بلنت : « بناء على أقوال الجانب المصري عن المعركة قد فوجى العدو بالهجوم ، وظللت المركبة زمناً طويلاً غير معروفة الماقبة ، وأوشك دوق كنوت في وقت ما أن يقع أسيراً ». ثم أشار بلنت إلى تأخر البارودي وسيبه بما لا يخرج عما ذكرناه إلى أن قال : « ومن المؤكد أن أحد القواد المصريين وهو على بيك يوسف قد خان رفقاءه عن قصد » .

وظل القتال على أشده طول النهار ، ولكن القدر أدى إلا أن يصيب المقربين

بعصيبة لا تقل شأنًا عن أسر محمود فهمي باشا كأن لم يكفه ما أحاط بهم من خيانة ، وذلك أن كلام من بطلي المعركة على فهمي وراشد حسني قد تلق رصاصة في جسمه أقدمه ، الأول في ساقه والثاني في قدمه ، نفرجا من المعركة ، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين وانقضىاليوم ولم يظفر بالنصر هؤلاء ولا هؤلاء .

قال عرابي في مذكرةه « وأما راشد باشا حسني وعلى باشا فهمي ومن معهما من الجيش ، فقد ثبتوا ثبات الأبطال إلى آخر النهار ، حتى إذا جرح راشد باشا حسني في قدمه برصاصة ، وعلى باشا فهمي برصاصة أيضًا في ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التي كانت مقدوفاتهما كالملطري الصيف في الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشت بيننا وبين الأنجلترا ، إذ كانت قوة الجيشين عظيمة ، وتباهي نادر الشيل ، راجع الجيشان بانتظام » . قال الأستاذ محمد رفعت بك في كتابه تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة : « وقد أبلى المصريون بقيادة الفريق راشد حسني باشا المعروف بأبي شنب فضلة في هذه الموقعة بلاء حسناً ، فأوقموا خسائر جمة بصفوف الأنجلترا وزحزحوه عن مواقعهم ، وكادوا يظفرون بالنصر إلى أن جرح راشد حسني جرحًا بليراً ، فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقدّمون » .

وإن وقفة المصريين على هذه الصورة الرائعة في معركة القصاصين الثانية على قلة عددهم بالنسبة لمدد الأنجلترا ، إذ كان هؤلاء يقتربون فيها من ضعفهم ، اتّجح علينا نعتقد في غير تردد أنه لو لا الخيانة لأحاط المصريون بجيشه ولسلى فهزمه في محارتهم وهم القادرون على نسها وحرها في شهر سبتمبر ، ولو لد في هذا المكان عصر جديد في تاريخ مصر ، ولا زدات ميادين عواصمنا بما تأليل عرابي منتقد مصر ...

* * *

أرسل البطلان الكبيران على فهمي وراشد حسني إلى القاهرة مع جرجى المعركة في القلدر الخاصة التي أفلتت ، وهكذا خلا الميدان الشرقي من ثلاثة رجال هم من أعظم قواد عرابي خبرة وبسالة .

وأخذ ذلك يحدث أثره في نفوس المصريين ، فليس بالأمر الممتنع غياب رجال من المركبة تعقد عليهم الآمال في النصر ، وليس يخفى ما يكون لشهرة القواد والأساطير من وقع في نفوس الجندي به تشتد عزائمهم وتنتعش آمالهم .

على أن أعظم ما أثر في النفوس وبث فيها التردد الذي هو مقدمة المهزيمة ، إنما هو ما سمي به سلطان وأعوانه من تخويف الجندي والضباط من عاقبة بقائهم على الولاء لمráب ، وقد جاءوا في ساعة الفصل يوهمونهم أن النصر للأنجليز ، وإن يشفع لأحد بعد ذلك شفيع ، وسبيل الخلاص من العقاب الشديد هو ترك جانب عرابي على الفور قبل أن يحصى العصاة التائرون على الخديبو ، وإن حسابهم في غد لغسير ...

ومن أكبر ما كفل النجاح لسلطان هو إذاعة قرار الخليفة بمصيانت عرابي ، ذلك القرار الذي بذلت إنجيلية ما بذلت من جهد للحصول عليه من عبد الحميد الذي يبعد بفعلته هذه شريكًا فيما وقع من خيانة ، فقد طعن بهذا القرار عرايباً من وراء ظهره بعد الذي أبداه من عطف عليه وعلى حركته ، ولكن كان بالأمس قد أنعم عليه بالوسام الحميدى الأكابر ، فها هو ذا اليوم يتثبت في ظهره الختير ... ولقد نشط سلطان ومن أخذ إخذه من أعون الخديبو في نشر أنباء القرار بمجرد أن وافق عبد الحميد على إصداره ، وراحوا يوزعون على الجندي والضباط كابيتاً أعداداً من الصحف التي نشرت هذا النباء منذ نهاية أغسطس ، بل لقد أرجعوا به قبل ذلك ، وما زالوا يرجفون حتى أصبح إرجافهم حقيقة ، فلما نشر القرار في اليوم السادس من سبتمبر ، وأذاعت نصه جريدة الجواب ، استحضر الأنجلترا لافاً من نسخ هذه الجريدة ، ونشر سلطان وفريقه فوزعوا هذه النسخ على الجيش قبيل معركة التل الكبير ...

ومن السهل أن ندرك مبلغ ما كان لهذا القرار من أثر في نفوس الجندي الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنياً دينياً في وقت واحد ، فهم جند مصر وجد سلطان خليفة المسلمين الذي يعتدى الأنجلترا الكفرة على حقوقه .

وكان نص هذا القرار ما يأْتِي : « إن الدولة العلية السلطانية تعلم أنَّ كيالها الشرعى يعصر هو حضرة خاتمتو دوتلو محمد توفيق باشا ، وأنَّ أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لأَرادة الدولة العلية ، ثمَّ أَتَى من جناب الخديو المفو فعفا عنه ، ونال أيضًا من الحضرة السلطانية المفو العام ؛ وإنَّ الشرف الذى ناله أخيراً من الحضرة العلية السلطانية ، إنما كان من تصرُّيحه بالطاعة لأَوامر مولانا السلطان العظيم الخليفة الأعظم .

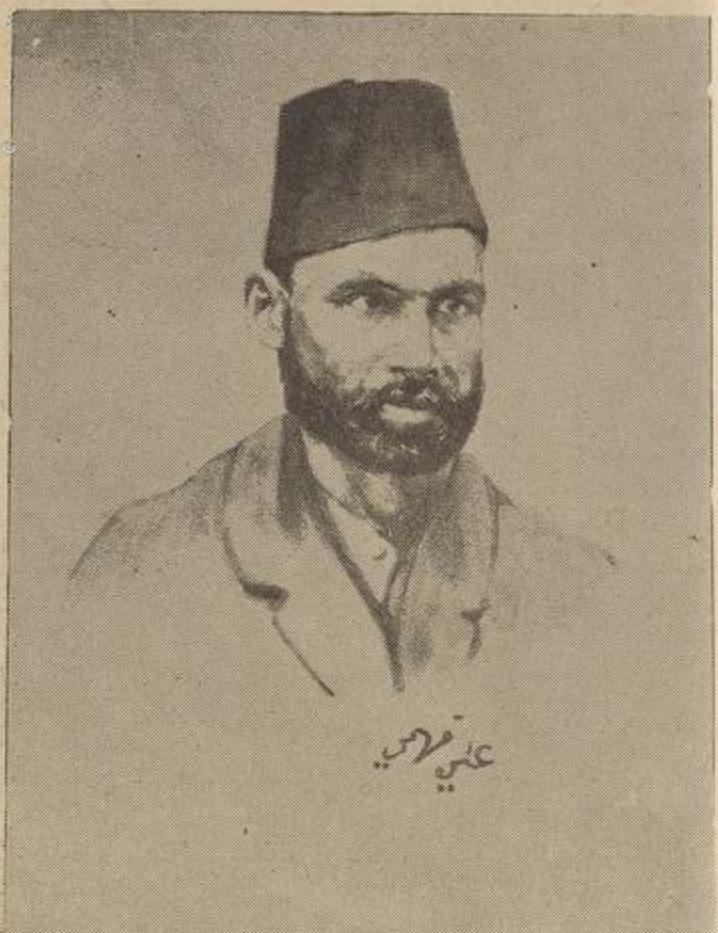
وقد تحقق الآن رسميًّا أنَّ عرابى باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد برئاسة المسارك بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسؤولية عظيمة لا سيما أنه تهدى أساطير دولة حليفه للدولة العلية السلطانية ...
وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

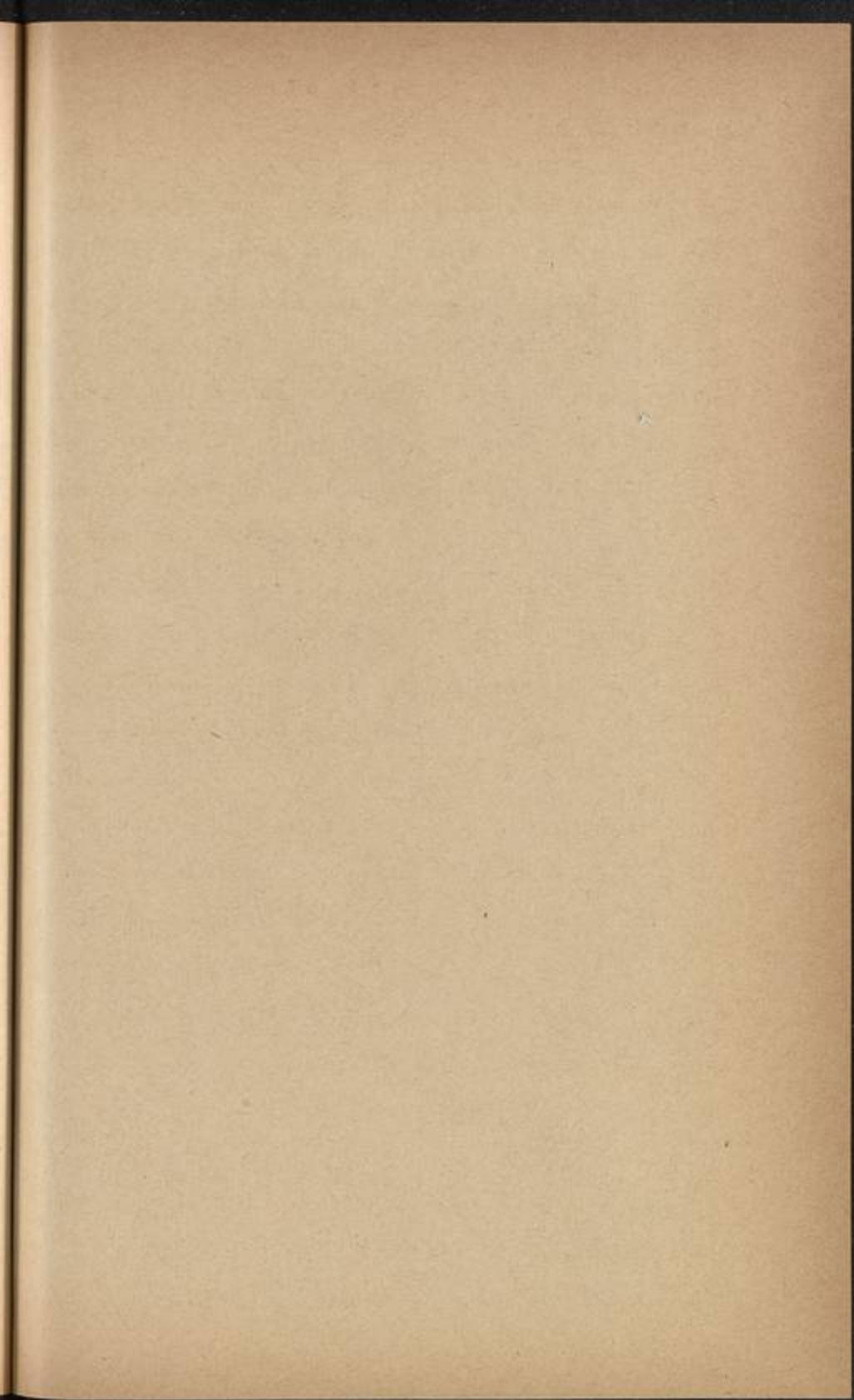
وأنَّ تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر إلى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أئمهم عصاة ، ويتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو العظيم الذى هو في مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسؤولية عظيمة ؟ وإن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشرعية الإسلامية الفراء ومغادرة لها بالكلية (١)

والواقع أنَّ هذا النشور كان ضربة شديدة لمurai ، بل إننا لا نسرف إذا قلنا إنه قد فعل وحده بجيشه عرابى مالم تفعله الجنود الإنجليزية مجتمعة ...

قال عرابى « ولما نشر منشور السلطان بعصيائنا ومن معنا بحرنال الجوائب إرضاء للإنجليز أرسل منه مئات الآلوف إلى الهند والأفغان والمحجاز والمرادق والترك ومصر والمغرب الأقصى وجميع بلاد الإسلام بواسطة أبو سلطان باشا ومن معه من الجنوديين كما أسلفنا ... وتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا إننا إذن

(١) من مذكرات عرابى الخطوطحة





عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه إبراهيم باشا ومن مات منا مات عاصيًا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين في قتال الدولة العلية ؟ فنصحناهم بأن هذا النشور مخالف لأحكام الدين الإسلامي لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الإسلامية وأن الجهاد في سبيل حياة الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وأن سلطان المسلمين لا يسمح بعشل هذا النشور وإنما هو ديسسة إنجليزية تمكنا من إنفاذها بواسطة الرشوة ؟ ولو فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلمه لمخالفته لأحكام الدين ...

إلا أن تلك النصائح لم تؤثر في الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الفقار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جي آلاى سوارى وعلى بك يوسف ميرالاى ٣ جي بيادة ، ولكنهم أظهروا قبول ما أونحنناه لهم وأمسروا القدر والخيالية ، والحساب على الله »

* * *

واشتدت حيرة عربي بعد إصابة على فهمى وراشد حسنى ، من يختلفها على القيادة ، وكان عبد العال حلى خير من يصلح لهذا ولكنكه كان بدبياط مع الآلاى السودانى للدفاع عن هذا الموضع الهام خاصة أن ينزل الانجليز به فرقا بقصد تطويق التل الكبير ...

واستدعي عربي على باشا الروبي من صريوط ، فكان حضوره قبل معركة التل الكبير يوم واحد ، ولذلك لم يستطع أن يدرك حقيقة الحال في الميدان إدراكا تاما ، ولم يكن له في الواقع مثل منزلة على فهمى أو راشد حسنى في القيادة ولكنه كان من أكبر المخلصين لعربى ..

لم تكن خطوط الدفاع في التل الكبير متينة كخطوط كفر الدوار لأنها أنشئت على عجل ، وقد عمل في إنشائها آلاف الفلاحين بأشراف محمود باشا فهمى قبل أسره ، وكانت عبارة عن خنادق جافة تتحدى نحو ستة كيلو مترات من الجحوب

إلى الشمال وتدوّاح أعماقها بين متر ومترين واتساعها بين مترين وثلاثة أمتار .
وكان مركز الجيش المصري على هضبة وراء هذه الخطوط يبلغ ارتفاع قتها
نحو ثلاثة مترًا وتحدر انحداراً بطيئاً نحو الشرق والشمال ، وعلى المنحدر الشرقي
للهضبة وراء مركز الجيش أقيمت خيمة عرابي على بعد أربعة آلاف متر من
الخطوط الأمامية .

وكان لا يزيد جيش عرابي عن اثني عشر ألف جندي من الجنود النظامية^(١)
وكانت بقية الفرق النظامية في كفر الدوار بقيادة طلبة عصمت وفي دمياط بقيادة
عبد المالك حلى ... على أن عرابياً استحضر أورطين من الآلات السودانية بدミاط
فانضمتا إلى جيش التلل الكبير ... وكانت مدفعية هذا الجيش تتألف من نحو
سبعين مدفناً ...

أما جيش ولسي فكان يتألف من ثلاثة عشر ألف حسب ما جاء في تقريره
الذى أرسله إلى حكومته عن الواقعه وكان معه نحو ستين مدفناً .

وكان سعيد الطحاوى لا يفتّأ يلقى في روع عرابي أن الأنجلترا لم يعدوا العدة
للحرب بعد ، وكان كلما سأله عرابي عن حركات الجيش الأنجلترا أملت عليه
خيانته أن يهون أمرها ويوجى إلى عرابي أن بين الأنجلترا وبين الزحف أيام
ويقبض ثمن هذا الكلام ، ثم يذهب إلى المعسكر الأنجلترا فيطلع ولسي على
كل ما يهمه معرفته ويُبسط يده لذهب الأنجلترا ولا ينسى نصيبه كذلك
من سلطان ...

وقى اليوم الثاني عشر من سبتمبر أرسل على يوسف من القدمة إلى عرابي
يقول إن الأنجلترا لن يتجرّأوا اليوم فرّك الجيش إلى الراحة بأمر قواه ..
 وإن بعض المؤرخين ليعبّرون على عرابي أنه لم يضم في مقاومة الجيش طلائع
ترشده عن حركات العدو ، وإنّه يحق للمرء أن يعجب من إنسكار الحقائق على

(١) حسب إحصاء بلنت وقد استقاوه من عدة روايات مصرية .

هذه الصورة فهل كان هؤلاء يريدون أن ينسبوا الخطأ إلى عربي ، أم كانوا يريدون أن يخفوا خيانة على يوسف ؟

وفي مساء ذلك اليوم نفسه الثاني عشر من سبتمبر تأهب ولسرى للزحف ، واختار الليل كي يتقى حر النهار وكى يتخذ من الليل ستاراً لخطته القائمة على المbagته التي هيأها بسعيده الطحاوى وعلى خنفس !

وزحف الجيش في سكون بعد منتصف الليل بساعتين ، وقد شدد ولسرى التحذير وأمر بالآلا يرتفع صوت أو توقد نار ، إلا نار المعسكر الأنجلينزى الذى تركوها وراءهم إيماناً للجيش المصرى بأنهم لا زالون قائمين في خطوطهم لا يتحررون . وكان يرشد الجيش الأنجلينزى في الصحراء ضباط من بمحارة الأسطول من يعلمون الاهتداء بالنجوم ، ولكن علمهم لم يغفهم شيئاً فـ كان اعتماد ولسرى على نفر من الضباط المصريين الموالين للخديو تقدم ذكرهم ، وعلى فريق من عرب المندادى اشتري ذممهم الأنجلينز بالمال إن كان لهم ثمة من ذمم .

وتقىدم جيش ولسرى مطمئناً لا يتهيب طلائع الجيش المصرى ، ولكن فيم التهيب وقد كان في مقدمة الطلائع عبد الرحمن حسن قائد فرقه الاستطلاع السوارى ثم يليه من ورائه خنفس ؟ وكان عبد الرحمن قد انضم إلى الإنجليز والخديو كأنفس خنفس ، وقبل الرشوة كما قبلها خنفس ، ولم يعرف مقدار ما أخذ عبد الرحمن ، أما خنفس فإنه بعد الحرب لم يخرج من أن يشكوا لأنهم لم يقتل سوى الف جنيه ولأنه لم يمنع ما وعد به وهو عشرة آلاف جنيه^(١) ، كأنما كان يريد أن يكون نصيه مثل نصيب سلطان نفسه كبيراً كي يعلمهم الذي علمهم الخيانة !

وكان عبد الرحمن يحرس الطريق الآلى إلى الصحراء من الشرق ، فاتجه بفرقته إلى الشمال ، وترك الجيش الأنجلينزى يمر في سلام وأمن وليت شعرى كيف تبلغ خيانة هذا الآدى مبلغها هذا ، وفي أي معارك الدنيا نقع على مثل لها ؟ ومر الجيش الأنجلينزى حتى كان على مقربة من موضع خنفس ، فكان هذا أعظم

خيانة من سالفه فأنه لم يكتفى بترك الجيش الأنجلبيزى يمر بل وضع له الفوانيس على المسالك التي يخترقها في يسر ، وإنما لمحثفر مافعل خنفس أن نعيب عليه بكلمة وكان المصريون ناعين في خطوطهم فاراعهم الا أصوات البنادق والمدافع وإلا الرصاص يقصدهم في صورة وحشية مروعة ، وكان ذلك في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً ...

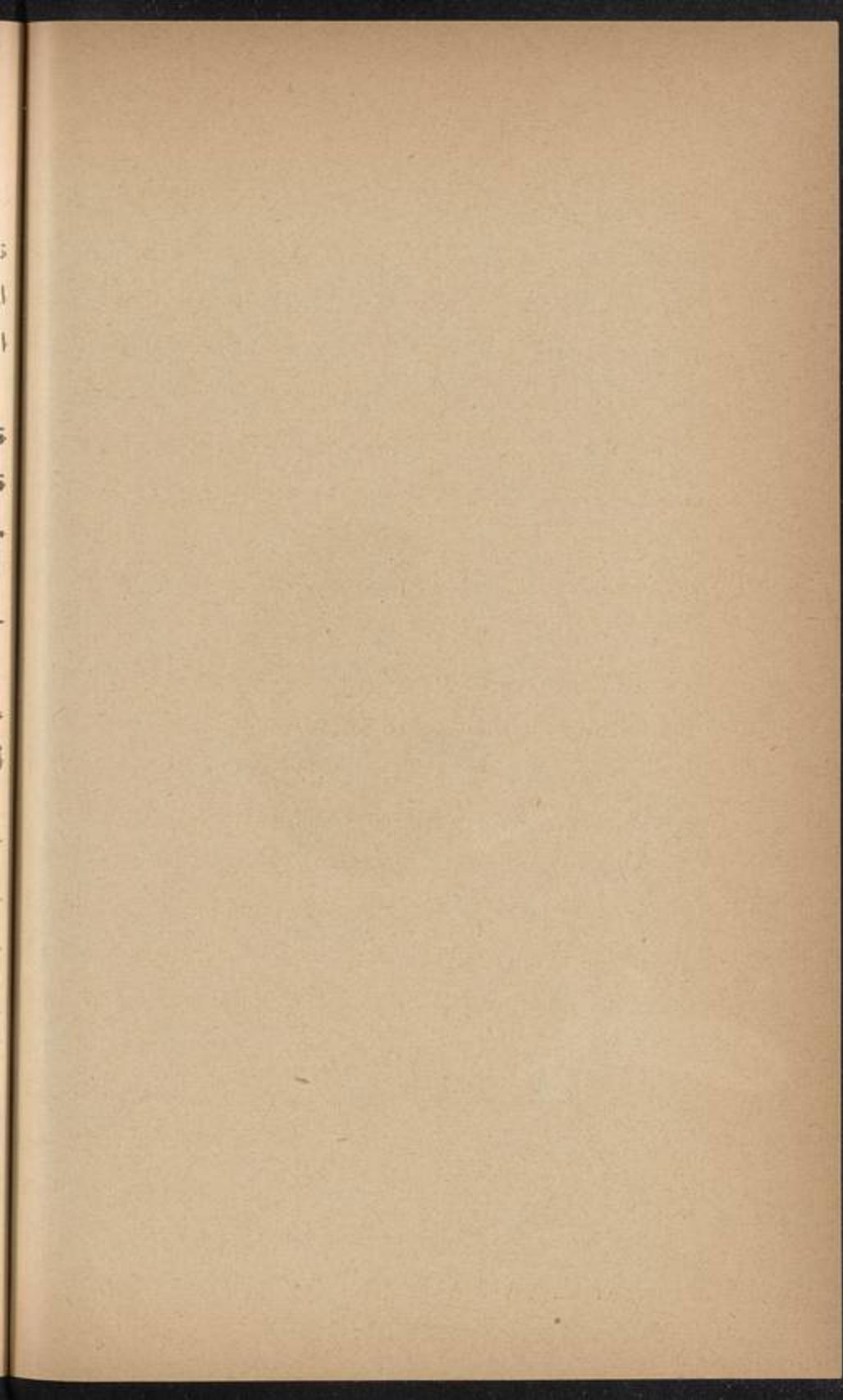
وكان هجوم الأنجلبيز على نصف دائرة فأحاطوا عيمنة المصريين ويسر لهم وتقدمت فرقه من الدفعية حتى صارت وراء خطوطهم وفتك ببنادق الأنجلبيز ومدافعمهم بالمصريين فتكا ذريعاً ، ولم تكن هذه في الواقع معركة ولكنها كانت قرصنة في الصحراء لا ندرى كيف يجعلها الأنجلبيز من مقاشر ولسلى فينعمون عليه من أجلها بلقب اللورد وكان خليقاً بهم أن يدر كوا أنها من مخازبهم ومخازيه فهذا السطوة القائم على الخيانة والغدر أقرب إلى عمل المتصووص منه إلى عمل الجندي وإن تبعجع العسكريون بأن الحرب تبرد كل شيء ...

وفر أكثر الجيش المصري مذعورين ، ولكن الميدان في هذه المحنـة وفي هذه المbagحة التي تطيش فيها الأحلام لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم من الانهيار ، فأثبتوا في مستنقع الموت أرجلهم والهول محيط بهم والموت يأتيهم من كل مكان ؟ وإن جلال عملهم هذا ليجروا من النفوس شيئاً كثيراً مما تركته فيها خيانة خنفس ومن حذوه من الخزي والألم ، وهؤلاء الأبطال الميامين البواسل هم الشهيد البطل الميرلاني محمد عبيد وأحمد بك فرج وعبدالقادر بك عبد الصمد وحسن أفندي رضوان

وقف هؤلاء الأربعـة بفرقـهم مستبسـلين وكان مجموعـها لا يزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرـهم بـسـالة وإقداماً على محمد عـبيد بـطل الهجـوم على قـصر النـيل يومـ أنـ أخرـج عـرايـماً وصـاحـبيـه منـ سـجـنهـ ، فقدـ صـمدـ هـنـا لـلـأـنـجـلـيـزـ بـرـجـالـهـ السـوـدـانـيـنـ وأـوـقـفـ زـحفـهـمـ وـقـاتـلـهـمـ قـتـالـاً شـدـيـداًـ فـنـىـ فـيـهـ مـعـظـمـ رـجـالـهـ فـقـدـمـ وـاستـقـبـلـ الـمـوـتـ رـاضـيـاًـ مـرـضـيـاًـ وـذـهـبـ شـهـيدـ وـفـائـهـ وـبـطـولـهـ



(الشهيد البطل محمد عبيد)



ويلي محمد عبيد في المسالة حسن رضوان قومدان الطوبجية الذي أصل الأنجلترا
ناراً حامية بعدهم وأوقع بهم على تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحاً في
اليدان ، ولما حل أسيراً إلى ولسي وأقبل يقدم له سيفه لم يشاً أن يأخذه منه
احتراماً له وأنهى على بساطته ...

واستمرت المعركة بين هؤلاء البواسل وبين الأنجلترا نحو أربعين دقيقة ، وكان
قتلى المصريين نحو ألفين ، أما الجرحى فلم يحص عددهم لفراهم ؛ وأما الأنجلترا فقد
قتل منهم سبعة وخمسون منهم تسعة ضباط وجرح اثنان وأربعمائة منهم سبعة وعشرون
من الضباط .

وأما غنائم الأنجلترا فكانت مدافعاً الجيش المصري ومهماته وذخائره ومؤوتته
جيناً ...

وأما عربي في كان يؤدي صلاة الفجر فاتبه على صوت المدافع وكانت خيمته
على نحو ألف متر من المعركة ، وأرسل إليه على الروبي لينتقل إلى موضع آخر حيث
أن الأنجلترا أوشكوا أن يحيطوا بالجيش ...

وأدى عربي الصلاة وأليس ملابسه العسكرية دركب جواده واتجه إلى حيث
كان يوجد نحو ألفين من الرجال على مقربة من خيمته فدعاهم ليذهبوا معه صوب
المعركة ولكن كان أكثرهم من الاحتياطي فولوا الأدبار خائفين ؟ فاتجه صوب
المعركة إلى حيث كان يقف محمد عبيد فرأى القارئين قادمين في ذعر ، وعيتاً حاول أن
يحملهم على الوقوف ، وكانوا يلقون أسلحتهم وما هم إلا من يهدو على ساق نعامة !
 واقترب الأنجلترا حتى صاروا على نحو سبعين متراً من خيمته وأطلقوا عليها
قذيفة اقتلعتها وأطارتها في الهواء ، وألح على عربي خادمه محمد سيد أحمد^(١) أن
ينجو بنفسه إذ لا فائدة بعد ذلك من القتال ولو عنان فرسه بالقوة وما زال
يتوجه إليه حتى أطاعه .

ويدركون نينيه في كتابه أن الذي جعل عربياً على طلب النجاة هو طبيبه

لا خادمه قال « ونجا كل الخونة لأنهم دروا فرارهم قبل خوض غمار المعركة الصورية المزيفة ليعلنها الأنجلوين نصراً مؤزداً ، وهم يعلمون أنها كانت تكون لهم هزيمة منكرة لو لم يلتجأوا إلى الخيانة والرشوة ... و كنت بجانب عربي وبيدي بندقية ، ولما أوشك الأنجلوين أن يطبقوا على عربي رجوفه في الشبات فاستمد للموت والاستشهاد ولكن طبيبه الدكتور مصطفى بك نصح له بالفرار على صهوة جواده »^(١) .

وفي قول چون نينيه أبلغ رد على الذين يقولون إن عراياً ما كاد يعلم بها ما حصل في المعركة حتى ركب جواده ولاذ بالفرار ...
أما بعض من لا تعتلي قلوبهم سخيمة على عربي فيقولون إنه كان خيراً له لو أنه استشهد في معركة التل الكبير ؛ ونحن نميل إلى رأيهم هذا فلو أنه قتل في المعركة لتخلص من السجن ومن النفي إلى سيلان وما تقول عليه المبطلون من الفرار والجبن وما إليهما ، كما كان خيراً لنا بليون لو أنه قتل في ورلو ولم يذهب إلى سنت هيلين ...

ولكنا ننجب أشد العجب من جرأة الذين يجترؤون على الحق بقولهم إنه فر من خوف و Yas ، فإن من الحقائق الثابتة بالأدلة كما سندين ذلك في موضعه أنه عجل بالذهاب إلى القاهرة ليدافع عنها قبل فوات الوقت وقبل أن توفر في نفوس من أعضاء المجلس العرف أنباء المزعنة .

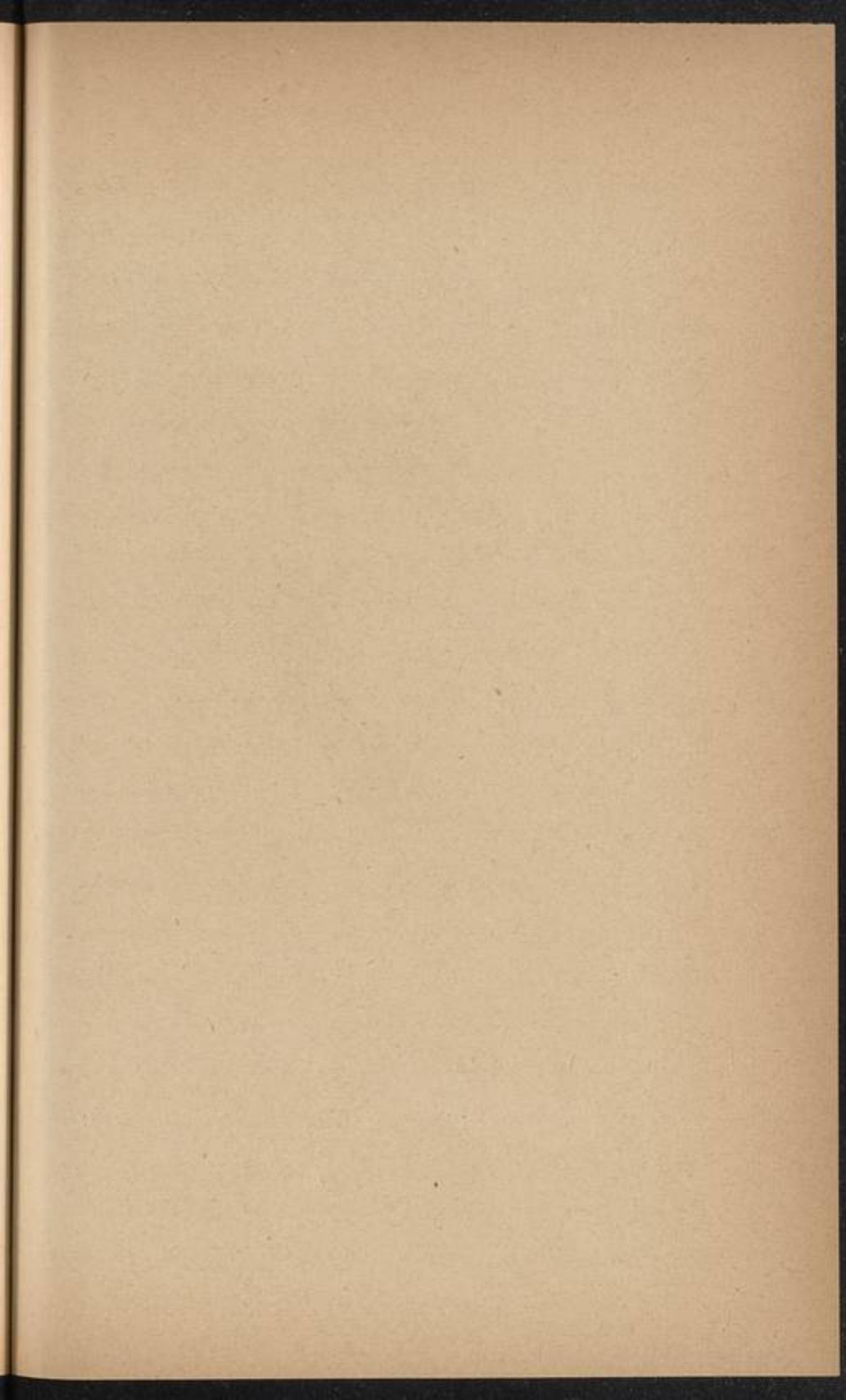
وأدعى من هذه الجرأة إلى العجب إنكار الذين ينكرون عليه محاواته الدفاع عن القاهرة ؟ وإن هؤلاء من الذين يكتبون التاريخ كما تشاء أهواؤهم لا كما حدثت حوالده ، وذلك لأنهم يريدون بالكتابة غرضًا في أنفسهم .

يقول عربي عن معركة التل الكبير ما يأتي : — « وطلبنا على باشا الروى قومندان من يوط ليتول قيادة جيش رأس الوادي فحضر في عصر يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ — ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه تواً إلى المقدمة

(١) العبارة من ترجمة الأستاذ محمد لطفي جمعة .



(حسن رضوان)

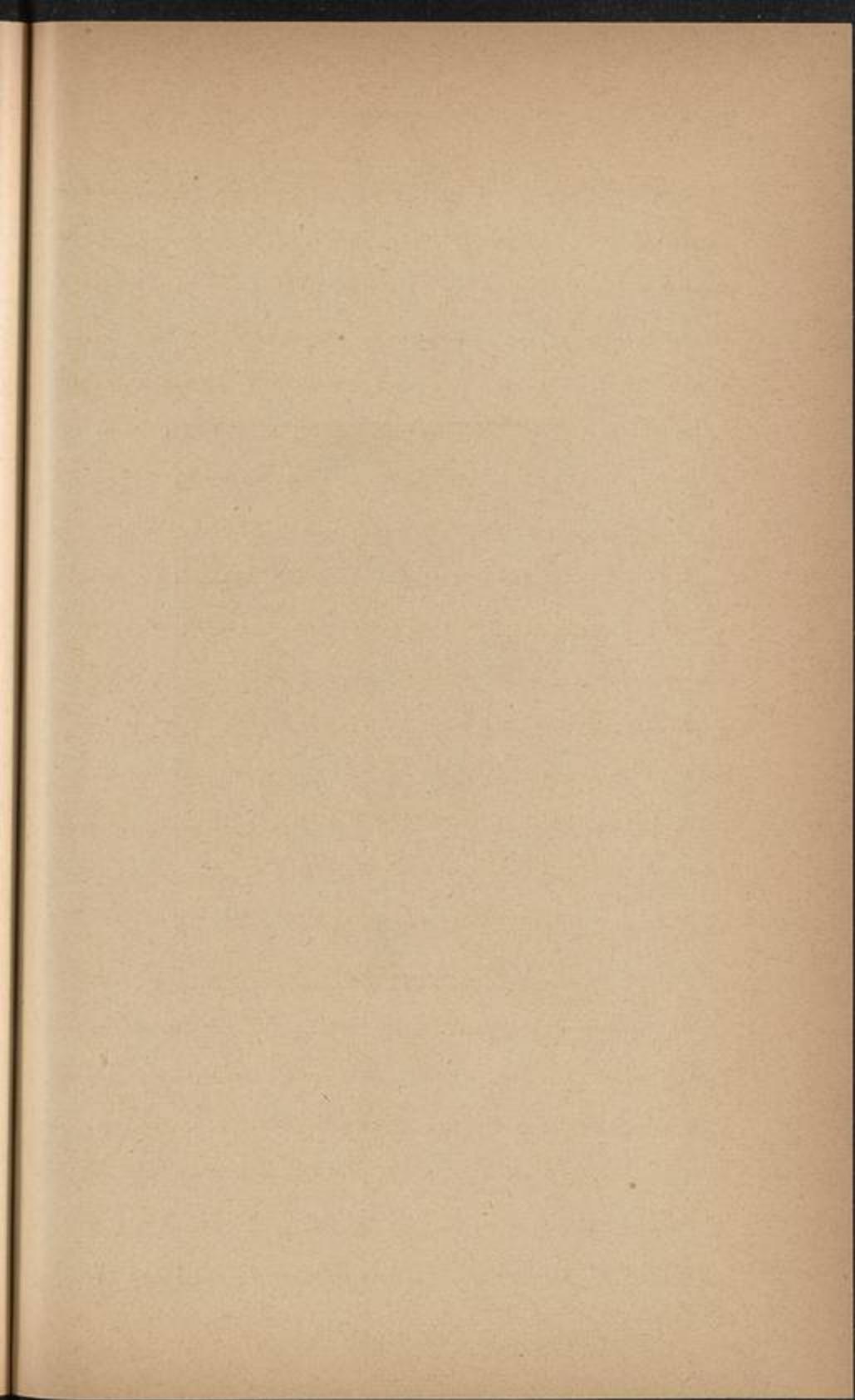


فأصر بانتقال آلاي على بك يوسف (خنفس) وعبد القادر بك عبد الصمد من
 الجناح الأيسر الذى كان مائلا إلى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى المسرك
 من هجوم العدو ، ووضعهما على استقامة الخط المستحكم المتدى من الترعة الخلوة
 إلى الجهة الشرقية ، وأمرها بالأخذ دروة خفيفة من التراب في أثناء الليل ، فعمل
 عبد القادر بك عبد الصمد خط استحكام خفيف بمساكره حيث كان في نهاية
 الجناح الأيسر ، وأما على بك يوسف فإنه جمع عساكر آلايه في هيئة القول ، ولم
 يجر عمل شىء يقيهم مقدونفات العدو إذا هجم على الجيش ؛ وتقدم أحمد بك عبد الفقار
 وعبد الرحمن بك حسن بمساكر السوارى إلى الأمام على بعد ألفي متر لينعوا تقدم
 العدو إذا أراد الهجوم على معسركنا ولكن واصيباته خاب الأمل فيما ؛ وفي
 يوم الأربعاء ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ - ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت في صلاة
 الفجر إذ سمعت ضرب الدافع والبنادق بشدة ، تخرجت ونظرت فوجدت ضرب
 النار على طول خط الاستحكام ، ورأيت بطارية طوبجية سوارى على صرتفع من
 الأرض تبعد عن الخيمة التي كنت فيها بنحو ستمائة متر صبت مقدونفاتها على
 مركزنا العموى ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر
 ولم يكن هناك إلا الأهالى المقطوعون مع الشيخ محمد عبد الجود وأخيه الشيخ
 أحمد عبد الجود ، وجابر بك من بندر ببا بمدرية بني سويف كانوا نحو ألف نفر
 فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ، ودهشوا ، فذكرناهم بمحاجة
 الدين والمرض والشرف والوطن ، ولم يجد ذلك نفعاً بل تفرقوا فراراً ، فجاء صابط
 من طرف على باشا الروبي القومدان الجديد يخبرنى بالأخذ مركز آخر ؛ ثم
 نظرت فوجدت الميدان مزدحاماً بانليل والجال والعساكر متشتتين ومولين ظهورهم
 للعدو ، فذهبت إلى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر عن الفرار ،
 وصرت أنا دفهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، وأذ كرمهم
 بالشرف الإسلامي والمرض والوطن فما كان من سميم ولا بصير ؛ فألقوا بأنفسهم
 في الترعة وسبحوا إلى البر الغربي ، فذهبت إلى بلبيس لجمع المهزمين هناك وأخذت

مركز آخر لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة ، وكان مع أخي السيد صالح عرابي وخادم محمد إبراهيم وجاويش بروجي يدعى عطية محمد ، فقط ، وكانت مقدوفات الطوبجية السوارى تتسلط علينا من كل جهة حتى ترتكنا حدود التل الكبير ، فلما وصلت إلى بلبيس وجدت على باشا الروبي سبقنى إليها ، فسألته عما دهائهم ، فلم يزد على قوله إنه خذلان ، وكان على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهمجوا علينا ، فأرجحينا للاختيار أعنثها حتى وصلنا إلى محطة أنساص ، فوجدنا هناك قطاراً فركبناه وذهبنا إلى القاهرة لأخذ الوسائل الالزمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم إليها ، وأسباب هذا الخذلان هو أنه في خلال تلك الأيام كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو إلى كبار الضباط بالوعيد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الأنجلتراى لم يحضر إلى مصر إلا بأمر من السلطان خدمة للخديو وتأييده لسلطته ، وكانت توزع تلك الرسائل بواسطة محمد باشا أبي سلطان رئيس مجلس التواب ومن معه الذين هم مع الأنجلترا ، في الاستماعية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد عبد الفقار عمدة تلا والسيد الفقق العضوين في مجلس التواب عن مديرية المنوفية ، وأثروا على قلوب على بك يوسف قومدان الألائى الثالث وأحمد بك عبد الفقار قومدان السوارى لشدة ضغط ابن عمهم عليه ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدار آلائى السوارى الثانى وحسن بك رأفت قومدان الطوبجية ، واستقر ذلك إلى أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فأشار على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الأنجلترا لا يخرجون في هذه الليلة من مصر كرم ، ولذلك لم يفعل ما أمر به على باشا الروبي من عمل خط استحكام من التراب ، وجمع عساكره في نقطة واحدة في شكل قول وكانت المساكن الأنجلتراية قد سارت من أول الليل وفي مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا إلى الخديو بطرف الأنجلترا ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدوكهم إلى الطريق واستمراوا ساعتين إلى أن بلغوا المقدمة في آخر الليل ؛ وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الفقار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تناوش العدو القتال وتوقف



(الفريق راشد حمدي باشا)



سيرة رجمت أمامه كأنها تقوده إلى أن بلغوا محل الآى على بك يوسف الذى كان
حالياً من عساكره فروا بين العساكر بلا مانع يعنهم ، وأطلقوا النار على
الاستحكامات من الخلف والأمام ، وأوقعوا بالجندي على حين كان راقداً ، فدهشت
العساكر وتولاها الانذهال حيث رأوا ضرب النار عليهم من خلفهم وأمامهم ،
فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لأنفسهم إلا آلائى المشاة الأول حكمدارية
أحمد بك فرج آلائى محمد بك عبيد آلائى عبد القادر بك عبد الصمد فأنهم
نبتوا في مراكزهم وقاتلو أعداءهم حتى النهاية ، فاستشهد منهم من استشهد وجروح
من جرح ، وصار الميدان ظلاماً من دخان البارود ، واختلط الجندي الن哉م
بالحيوانات المنتشرة في تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة
المحديد التي بها الذخيرة الحربية وماجاورها من عربات المؤونة من مقدوفات
الطوبجية السوارى التي عممت إلى ضرب المركز المموى وهكذا تم استيلاء
الأنجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره ، وبه كانت نهاية الحرب
والخسارة عظيمة بسم الخديو ومن أخاه إليه من المصريين الذين نشأوا تحت ضغط
الاستبداد ، واستمر أواعيش الاستعباد ومساعدة المنافقين من عمدوأعيان المنوفية
وعرب المنداد بالشرقية الذين كفأهم الخديو خصوصاً الشيخ أحد أبو سلطان
وإخوه من عرب المنداد القاطنين بالشرقية ، فإن الخديو أقطعهم خمسة آلاف
قдан في رأس الوادى مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فيه » .

وقال في حديثه الذى أفضى به إلى صديقه بلنت بعد عودته من المنفى « أديت
الصلة وأمرت بجوابى إلى حيث كان يوجد الاحتياطي ، وناديهم ليذهبوا
معى ، ولكنهم كانوا جماعة من الفلاحين حسب ، وكانت القذائف تتتساقط بينهم
فولوا هاربين ؟ فانجهرت وحدى بجوابى إلى الأمام ولم يكن معى إلا خادى محمد ،
فيهنا رأى وحيداً وأدرك أنى ذاهب إلى الموت الحقق أمسك بمحضانى وتوسل إلى
أن أرجع ؛ ولما رأيت أننا خسرنا المعركة وأن الجميع كانوا يفرون ، رجمت ومعى

محمد وعبرنا الوادي عند التل الكبير وسرنا في محاذة ترعة الأستاد عيلية حتى بلغنا بلبيس ؛ وهناك كونت مسكنراً جديداً ورأيت على الروبي قد سبقني إلى هناك فاتفقنا على الوقوف في بلبيس ؛ ولكن ما إن وصل فرسان دروري لوحى هم الجبار بالفار ولم يرض أحد أن يقف فتركنا كل شيء وركبنا قطاراً إلى القاهرة »

* * *

من مهازل السياسة حقاً أن تركياً كانت حتى ذلك اليوم ، يوم التل الكبير لا تزال تفاوض إنجلترا في شروط إرسال جيش عثماني إلى مصر ، وكان السلطان في نفس هذا اليوم قد دعا إليه دوفرين في قصره فكث عنده احدى عشرة ساعة فيأخذ ورد ...

ولما بلغت أوروبا هزيمة التل الكبير كانت فرنسا أول من أشار على إنجلترا بأنه لم تعد لها حاجة إلى ذلك المؤمر الثنائي المزعزع عقده ، وكانت فرنسا لا تعييل إلى وجود جند عثماني بمصر وذلك جرياً وراء ميلها من أول الأمر ...

وأفضى الخديو إلى مات « أنه إن كان ثمة شيء من شأنه أن يزيد قيمة النصر ، فذلك أنه قد قضى على كل حجية للتوقيع على مؤتمر مع تركيا ؛ وإنه لينظر إلى الماضي والحزن مثل نفسه إذ يفك فهـا كان عسياً أن يتحقق بمصر من خطر لو أن السلطان استطاع بجهوده أن يتدخل في شؤون مصر » (١)

لذلك أبرق جرانفل عصر ذلك اليوم الشؤوم إلى دوفرين يقول « إن حكومة جلالة الملك ترى وقد قضى الأمر أن صاحب الجلالة السلطان لم يعد يجد هناك حاجة لإرسال جند إلى مصر ». وانقطعت بذلك المفاوضة بين الدولتين وأسدل الستار هنا كذلك على مهرزة من أسفخ مهازل السياسة

وبادر السيو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى مقابلة جرانفل وهناء باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار . ولم يدر فرنسا أن هذا الانتصار هو خيبة كبرى

سياساتها في مصر، أو لعلها كانت تتبع مثل أسلوب النعامة؟ ورد جرائف بقوله «إن واقعة التل الكبير إنما هي انتصار لأوروبا فلو أن الجيش الأنجلوبيزي قد هزم فيها لكان ذلك كارثة على جميع الدول التي يقلقها التمصب الإسلامي»^(١) وهنا مسيو دوكارك رئيس وزراء فرنسا السفير الأنجلوبيزي بباريس قالا: «إن انتصار الأنجلوبيز على المرب في مصر أمر طيب النتائج لفرنسا في كل من تونس والجزائر»^(٢)

والمسألة كلها من جهة فرنسا مسألة جشع استعماري لا أقل ولا أكثر، والحق إن المرء قلما يقع على ما هو أقبح وأرذل من جشع فرنسا في الاستعمار، تلك الدولة التي تزعم أنها موطن الحرية وبلد الديموقراطية، إلا أنها أوهام انخدع بها الشرق زمناً فسهل التهame ثم أخذت يتعلم المدنية والحرية على أيدي آكليه! عقب روستين في كتابه المسألة المصرية على انتصار إنجلترة بقوله «وهكذا صدق الأحلام . إننا إذا جرينا على رأى أنصار الاحتلال قلنا إن مصر إنما صارت إلى الأنجلوبيز مصادفة واتفاقاً . ولكن الذين يكتبون قد قرأوا هذه القصة بشيء من التنبه والانتفاف يقولون معنا إن السياسة البريطانية والجمهور البريطاني لم يهملا قط الانتفاع بكل حادث من شأنه إسلام مصر إلى إنجلترة ، وأنهم كانوا إذا ما أعزتهم الحوادث خلقوها بالكيد والاحتيال ، وأن إنجلترة في جميع علاقتها بمصر لم تخفي عنها الوطأة لحظة واحدة ، بل كانت على العكس تجتهد في شد الوطأة عليها ما استطاعت وفي إحلال نفسها محل فرنسا التي كانت تنافسها وتباريها ، وأنه لم يكن من سبب تجحيم عدائها لأسماعيل باشا ثم لعربي من بعده غير خوفها بحق أن مصر إذا كانت دستورية مهمل عليها الأفلات من قبضها ، وأنها لم يعنها أن تفاظ على مصر ويضطرها إلى استعانتها الباب العالى

(١) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ — ٨٢ وثيقة رقم ٦٤

(٢) الكتاب الأزرق رقم ١٨ وثيقة رقم ١٣٣

غير ظنها أن كل محاولة منها لضم مصر توقها في حرب مع أوروبا أو على الأقل في مشاكل لا يسألهان بها وأنها عندما رأت أن هذه الخواوف لا أساس لها اغتبطت بذلك المفاجأة اللزبدة . ولا يفوتنا أن نذكر أنها هي نفسها إلى هذا كله كانت عاملًا فعالاً في الأمر ، فقد سمعت إلى تلك « المفاجأة » عندما بُرِزَتْ إلى حومة الولي وتحدت بضربيها الأسكندرية دون أوروبا كلها ^(١) .



^(١) المبارزة من تعریب الأستاذین العبادی وبدران .

أَوْرَثَتِ الْخِيَانَةِ بُعْرَابِي

« الوَسْ كَسْر عَرَابِي » ... هَذِهِ هِيَ الْكَلْمَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي حَلَتْ فِي أَفْوَاهِ الْمُصْرِيِّينَ وَالْأَسْفَاهِ مُحَلِّ الْكَلْمَةِ السَّالِفَةِ « اللَّهُ يَنْصُرُكَ يَا عَرَابِي » وَلَا يَرَى النَّاسُ فِي الْقُرَى حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا كَلَّا اسْتَفْطَعُ أَحَدُ النَّفَشِ أَوِ الْخِيَانَةِ وَأَرَادَ أَنْ يَعْبُرَ عَنْ سُوءِ عَوَاقِبِهِمَا قَالَ فِي جَدِّ وَلَمْ « الوَسْ كَسْر عَرَابِي » ...
وَهَا نَحْنُ أَوْلَاءِ نَرِى بَعْدِ مَعْرِكَتِ الْفَصَاصِينَ الثَّانِيَةِ وَالْتَّلِ الْكَبِيرِ مَبْلُغُ مَا فِي هَذِهِ الْعَبَارَةِ مِنْ صَدَقَةٍ

وَلَسْنَا بِرِيدٍ بِذَلِكَ أَنِ الْخِيَانَةَ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي أَدَتْ إِلَى الْمَزِعَةِ فَقَدْ كَانَ لِلْمَزِعَةِ عَامِلَانِ آخَرَانِ عَلَى قَدْرِ كَبِيرٍ مِنِ الْأَهمِيَّةِ أَلَا وَهَا إِهْمَالُ الْمَيْدَانِ الشَّرْقِ وَانْفَضَامُ الْخَدِيُو إِلَى الْأَنجَلِيزِ مِنْ أَوْلِ الْأَسْرِ ، وَإِنَّا بِرِيدٍ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْعَامِلَ الْجَوَهِرِيَّ فِي الْمَزِعَةِ كَانَ الْخِيَانَةُ ، بِعْنَى أَنَّهُ لَوْمَ يَنْسَكُ بِهَا الْجَيْشُ اسْكَانُ مِنْ الْمَرْجِحِ بِنَاحِيَهُ فِي رَدِ الْغَزوَ عَنِ الْبَلَادِ ، وَبِعَبَارَةِ أَخْرَى لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْمُصْرِيِّينَ كَانُوا حَصَنُوا حَدَّوْدُهُمُ الْشَّرْقِيَّةَ كَمَا حَصَنُوا خَطْوَطَ كَفَرِ الدَّوَارِ ، وَرَدَمُوا الْقَنَةَ ، ثُمَّ وَقَعَتِ الْخِيَانَةُ عَلَى الصُّورَةِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا هَا لِأَمْلَأِتِ الْمَزِاعِمِ وَوَقَعَتِ الْمَزِعَةُ وَلَوْ بَعْدِ حَيْنٍ .. إِذَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنِ الضرُورِيِّ أَنْ تَقْعُلَ الْخِيَانَةُ فَعُلِّمَهَا أَنْتَهَيَ الْقِتَالِ فَحْسِبُ ، ثُمَّ الْمَيْسُورُ إِحْدَاثُ فَتْنَةِ دَاخِلِيَّةٍ أَنْتَهَيَ الْحَصَارُ تَؤْدِي إِلَى اِنْهِيَارِ الدِّفاعِ كَلَّا ، وَكَنَا بِرِيدٍ وَالْخُوفُ وَقْطَعُ الْمَدِّ عَنِ الْجَيْشِ فِي الْخَطْوَطِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ عَوَامِلِ الْفَشَلِ . وَمَا كَانَ سُلْطَانُ وَمَنْ مَعَهُ يَنْقُلُونَ عَنِ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الَّتِي بَدَأُوا بِعِصْنِ خطْوَاتِهِمُ الْأَتْنِيَّةِ نَحْوَهَا فَمَلَّا ، وَالَّتِي أَغْنَاهُمْ عَنْهَا مَا حَدَثَ فِي صَفَوفِ الْجَيْشِ ... وَلَقَدْ رَأَيْنَا مَبْلُغَ اِهْتَمَامِ الْأَنجَلِيزِ وَالْخَدِيُو بِهَذَا السَّلاحِ ، بِخَيَاطَ الْخِيَانَةِ عَلَى عَدَةِ

صور قبائل البدو في الصحراء قد أفسدها بالمروجل وسلطان ، وبعض ضباط الجيش أصبحوا في جانب العدو إلى درجة لم يعرف لها نظير في تاريخ الحروب والسلطان نفسه يعلن عصيان عراي في الساعة الفاصلة ؟ وليت شعرى ماذا كان يصنع بونابرت نفسه لو أنه أحبط بما أحبط به عراي ؟

ومنه صورة أخرى من صور الخيانة أحاطت بعرابي ، الا وهي حقد بعض رجاله عليه إذ رأوه وقد كان دونهم يغدو رجل الأمة ومناط رجاهما ، ولمل ذلك هو ما أحفظ سلطاناً عليه وحمله يسعى سعيه ضده ...

ولتكن خطر هذا الحقد كان في صفوف الجيش وقد أشار بذلك إلى ذلك في قوله « ولو أن طبقات الجيش الدنيا قد اتبعت عرايياً في ولاه وحاسة شديدين ، إلا أنه أثار حقداً ليس بالقليل بين رجال طبقته العليا من الضباط وذلك لأنهم كانوا يعدون أنفسهم كجند أكفاً كثيراً منه » (١)

وذكر بذلك في موضع آخر فيما أورده في يومية من يومياته لسنة ١٨٨٤ أن الأمير كامل (٢) قال له « إن عرايياً قد خانه كل من كانوا حوله ، وقد خانه بعضهم ابتغاء الحصول على الذهب وبعضاً منهم بداع الحقد ، وقد كان محمود سامي يحقد على عرايى ولذلك أفسد معركة القصاصين الثانية فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحة ولكنه لم يصل في الموعد الذي اتفق مع على فهمي عليه » (٣)

ولقد شك بذلك في يعقوب سامي نفسه رئيس المجلس العرف وقال عنه إنه تأثر كذلك بمعنى الخديو آخر الأمر ولو أن الخديو نفاه مع من نفوا إلى سيلان « وإن الأوراق لناظفة بالأدلة القوية على حقده على عرايى ، ومن الممكن أنه بعد أن عجز على فهمي بسبب إصابته ، أن يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليضع عرايياً في عزلة ك يجعل أنهياره في التل الكبير ، فإنه بدل أن تعطى القيادة لمبد العمال

S, H, B, P. 431 (١)

(٢) الأمير كامل باشا فاضل ابن الأمير مصطفى فاضل

S, H, B, P. 452 (٣)

أعطيت لرجل موالي ولكنه غير كفء لها وذلك هو على بابنا الروبي «(١)»
ومن السهل على المرء أن يرى المزاعنة مائلة في حيش هذا حاله ، وأن يدرك
استحالة النصر على قائد تحيط به مثل هذه المهمات التي تكفي واحدة منها
للقضاء عليه ...

نقول من السهل أن يدرك المرء ذلك حتى ولو لم يعلم بما حدث من خيانة
سافرة فاجرة أثناء القتال ؛ وحسب المرء أن يذكر من هذا إرسال الخطة إلى
المدوف في معركة القصاصين الثانية على يد على يوسف خنفس ؛ وقد زاد الأمير
كامل على ذلك فيما تحدث به إلى بلنت في ذلك الذي أتبته في تلك اليومية المشار
إليها « أنه حدث أثناء هذه المعركة أن كان نحو ثمانية عشر ألفاً من المصريين على
مقربة من نحو ألفين وخمسمائة من الأنجليز فيهم دوق كينوت ، ولو أن على يوسف
الذى كان يقود القلب تقدم لسحق الأنجليز والأمر الدوق ، ولكنه تأخر برجاته
ورث المدوف يحيط بالجنادين »

ولقد رأينا كيف كانت خطة هذه المعركة حكمة الوضع ورأينا كيف أتى
عليها أحد قواد الأنجليز أنفسهم قائلاً إنه كان يمكن بها أن يتحقق
للمصريين النصر ...

ولولا خيانة على يوسف وتأخر البارودي بسبب خيانة الطحاوى لكان من
أقرب الظنون إلى اليقين أن يولد في القصاصين عصر جديد في تاريخ مصر
قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى في كتابه « الثورة العرابية » عن الجنرال
والسلى « لم يكن الجنرال ولسى من القواد الذين اشتهروا بالكافية العالية في
فقيادة ولا من امتازوا في معارك سابقة بالنبوغ في الفنون الحربية ، بل كل
ما عرف عنه أنه اشتراك من قبل في حرب الفرم وفي بعض الحملات الاستعمارية
الأنجليزية ، وكان لم يزل برتبة قائمقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر

(١) المرجع نفسه من ٤١٩

سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين في التل الكبير واحتلال العاصمة أنهالت عليه ألقاب الشرف والتكرير ، فنال لقب لورد (فيكونت) ولسلى أوف كابرو ، ورتبة جنرال وغير ذلك من علامات التقدير ؛ على أنه تولى فيما بعد سنة ١٨٨٢ قيادة الجملة على قوات المهدى في دنقلا ؟ فانهت بأخفاقةها ومقتل غوردن باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الأنجليزى في حرب البوير بالترنسفال فباء بالهزيمة والخسران ، وعدته حكومته مسؤولاً عن السكبة التي حلت بالجيش الأنجليزى ، فأُخْتِتَه عن قيادته وعيّنت بدله الجنرال اللورد روبرتس ؛ من هذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الأنجليزى وذات الجيش الأنجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين لاظفر بها واحتلالها ، لو لا الانقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها» والواقع أن ما يخرج به المرء من أنباء معركة القصاصين الثانية ، هو شعوره بأن المصريين لم يكن بينهم وبين الظفر بالأنجليز إلا خطوة فكيف لوم نعم الخيانة ؟

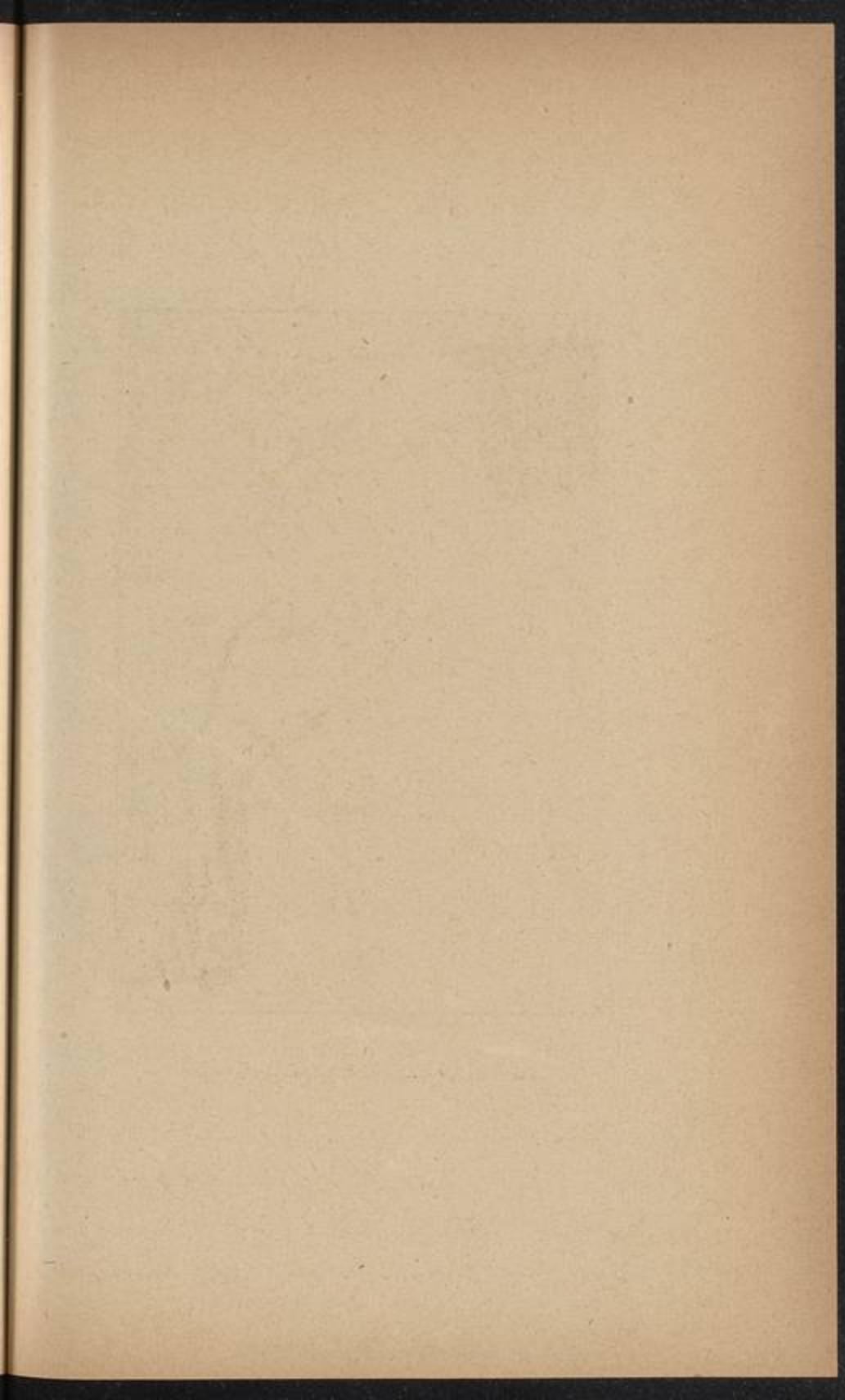
أما في التل الكبير فكان مثل المصريين كمثل قوم ناموا في دارهم ووضعوا على باطنهم حارساً يوقظهم إن قرب منها العدو ، ولكن الحارس سار مع العدو جنباً إلى جنب حتى وقف به على رؤوس النائمين وقال له اضرب من تشاء في غير خوف ...

لقد أحبط بجيشه نابليون في وترلو ولم يكن ذلك على حين غفلة كما أحبط بجيشه عربي في التل الكبير ، ففر الفرنسيون البواسل ، وطلب نابليون الموت ففاته حتى الموت ففر نابغة الحروب ونادرة المصوّر مع الفارين عسى أن يملك الدفّاع عن باريس وكذلك الحال في كل جيش يحاط به فإما الفرار أو التسلّم أو الموت . . .

ولمل معركة التل الكبير التي كانت في الحقيقة مذبحه هي أروع مثل في تاريخ الحروب للخيانة كيف تؤدي بجيشه من الجيوش ؟ وماذا بعد أن يؤخذ القوم وهم نائمون ؟



الخيانة كما رمزت إليها صحيفة فرنسيّة في ذلك الوقت



هكذا كسبت الجلالة المركبة بالذهب ، وليته كان ذهبًا خالصًا ، فقد كان رصاصاً يغطيه الذهب كما ذكر الأمير كامل للمستر بلنت ؟ وقد ظهر في القاهرة بعد الحرب فأسرعت الحكومة إلى شرائه من السوق وكان الجندي يباع بخمسة فرنكات أو عشر وقد كسر الأمير بعض هذه القطع ورأى ما فيها من رصاص فكانوا تأبى الجلالة إلا أن تخون حتى في أداة الحياة !

تبقى بعد ذلك مسألة يوردها خصوم عرابي ساخرين منه بها جاعلين منها سبباً من أكبر أسباب هزيمته وذلك لكي يقللوا من شأن الخيانة أو لكي يصرروا عنها الأنذار ويحصروها فيما زعموه من أخطاء عرابي إلا وهي أنه سهر طول ليلة المركبة في حلقه ذكر مع جيشه وفي قراءة الأدعية مع رجال الطرق الصوفية ، فلم يتم العساكر وبذلك لم يستطيعوا الحرب في الصباح ولسنا ندرى أبلغ الاستخفاف بمعقول الناس هذا الحد فجعل هؤلاء الخرامسين ينتظرون أن يجوز كلامهم هذا على الناس ، أم أنهم كانوا هم الباهاء فصدقوا ما يذيعونه في الناس ..

وبعد فليتهم صدقوا ! وليت العساكر قد قاموا الليل يذكرون الله إذن لما استطاع العدو أن يدهشهم وهم نائم ؟ وكيف يجتمع مثل هذا العدد في حلقه ذكر مع قائد الجيش وقد كان بين خيمته وبين خطوط الدفاع الأولى نحو أربعة آلاف متر ؟ وإذا صاح أن عرابياً قد استدعى عدداً من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين قدموا عليه ، فارسلهم إلى الفرق في مراكزها يستحقونهم ويستنهضونهم ويثيرون حماسهم في الله والوطن وهذا ما نعتقد أنه هو ما حدث ، فما عيب هذا ؟ وأى عيب في أن يقرأ عرابي القرآن في خيمته ويدعوا الله مع نفر من رجال الدين ؟ هل جعل ذلك كل عدته للجهاد فدعا الله أن يعده بالملائكة مسومين ليضربوا له العدو ثم نام ؟ ألا خسأ الخرامصون الأفاكون ...

وأى فرق في جوهر الأمرين بين أن ينشد رجال الدين بين الفرق أناشيدهم الدينية يقصدون استنهاض هممهم وإثارة حماسهم ، وبين الآنانشيد التي يهتف بها الجند

في كافة الجيوش الحديثة؟ وما الغرض من الموسيقى الحرية والخطب والنشرات؟ أليست كلها وسائل تبعث الروح المعنوية في الجندي وتهز عواطفهم النبيلة للفداء والانضال؟ وإذا جلأ عراقي إلى الوسائل التي كانت تتفق مع البيئة ومع المعرق الذي كان يعيش فيه وهي لا تخرج في جوهرها وفي الغرض منها عن وسائل الجيوش الحديثة فكيف يمد ذلك مما يسخر به منه ولا يمد مما يسجّل له الالتفات إلى كل معنى يراد به بث الحمية في قلوب الجندي؟

إن مرد المسألة كما قلنا إلى الرغبة في صرف الأنظار عن الخيانة وإلى الرغبة في قلب محاسن عراقي كلها متساوية بطريقة مدبرة حكمة جاز أكثر مفترياتها زماناً على البسطاء.

ومن أحسن ما يذكر في هذا الصدد أن هذه الحملة الأنجلوأمريكية بالذات قد أقيمت لها الصلوات عند خروجها من إنجلترا وبالأمر أنها كبيرة الأساقة مع عدد من رجال الدين، وقد أورد ذلك هربرت سبنسر في كتابة «أصول علم الاجتماع» أثناء كلامه على الدين وأثره في حياة المجتمعات؛ ومن أجمل ما علق به على ذلك قوله إن «هذه الحملة كانت موجهة إلى قوم محاربون في سبيل الحرية والاستقلال».

الآن الخيانة الفاجرة السافرة هي التي أودت بعراقي، وكانت كفيلة بأن تؤدي بأى قائد غيره في مكانه، وفي التاريخ شواهد كثيرة على أنّ الخيانة في إنهايار الجيوش واعلنا لم ننس الأمس القريب حين كان الجنرال وبفل في حرب إثيوبيا الغربية يجمع بقلته المتميزة جموع الطليان جمماً فيأسرهم بلا قتال لأنّهم كانوا فريقين: أحدهما في صف الملك والثاني في صف الزعيم، كما كان المصريون فريقين أحدهما في صف الخديو والثاني في صف عراقي.

والخيانة مسألة تكمن في النفوس، ولن يستطع أن يعرف الخونة إيرادهم عن وجهتهم الآئمة قائد، وما لم يكن لهم وازع من ضعافتهم فإن خطرهم في الساعة الفاصلة شديد، وعلى ذلك فعل يلام عراقي على وجود الخيانة في جيشه وقد رأينا كيف يمكن اثنان أو ثلاثة من هؤلاء المنافقين من القضاة على ذلك الجيش وهم يظهرون لهم الولاء والفاء، وماحيلته أو حيلة غيره في نفوس تشتري بالمال كا يشتري الواقع؟

بعد ورلو

ما أشبه حال عربى بعد التل الكبير بحال نابليون بعد ورلو ، كلادها هرول إلى عاصمة بلاده بعد أن حلت المهزيمة بجيشه على غير انتظار ، وكلادها دعا قومه إلى مواصلة الجهاد ولكنهم خذلوه ، وخانوا طاعته في غير خوف وقد زال عنه سلطانه بزوال النصر أو على الأصح بخالق المهزيمة ، وهو موقفان تمثل في كل منهما مأساة من مآسى التاريخ سوف تعيقان في فرنسا وفي مصر بقاء الزمن ...

مضى عربى إلى القاهرة فبلغها قبل الظهر وبصحته على الروبي وقصد من فوره إلى قصر النيل ، وكان المجلس العرف منعقداً منذ الصباح ينتظر أبناء من التل الكبير ، ولكنه لم يتلق شيئاً فساور الأعضاء كثير من القلق ، وكان يعقوب باشا قد تلق وهو في مكتب التلفراف كثيراً من الأنباء ، ولكنه لم يفطن بشيء منها إلى أحد حتى فاجأ الحاضرين بقوله إن عربياً باشا قادم بعد حين إلى القاهرة ، فوجئت الوجوه وعرف الأعضاء ما حدث وإن لم يزد يعقوب باشا شيئاً على هذه الكلمة .
وبلغ عربى مقر المجلس العرف فتلقاء الأعضاء واجبهن ، وكان الأسف الشديد بادياً على حياء ، ولبث لحظة لا يدرى ماذا يقول ؛ ثم أظهر المجلس على كل شيء وشكراً كثيراً من الخيانة ومن تفرق كلة الجندي وفرارهم لا يلوون على شيء وهو يدعوه فلا يستجيبون له ...

وانضم إلى المجلس العرف بعض الأمراء والكتبة ، وتشاوروا فيما يعملون :
يسلمون القاهرة للأنجليز أم يدافعون عنها ؟ ...

وكان عربى يستحثهم على الدفاع ذاكراً لهم أنه من الوجهة الحربية لم يزل الأمل قائماً فهناك حامية القاهرة في القلعة بعدهم فيها وهناك حامية دمياط بقيادة عبد المالك وفي إمكانها التحرك أثناء الدفاع عن القاهرة لرفع الحصار عنها وكذلك

هناك حامية كفر الدوار وفي استطاعة طيبة أن يرسل المدد المطلوب فبالثبات والصبر يمكن معالجة الأمر ، فليس طريق الأنجلترا سهلاً كما ظن البعض . ونهض الأمير ابراهيم باشا أحد ابن عم الخديو وأهاب بالحاضرين أن يتبعوا وأن يقاوموا وقال « إن مصر غاسة بالجند والخازن ملائى بالمؤن والذخائر ، والأسلحة ومعدات الدفاع متوفرة فالواجب علينا إذن الدفاع ما دام فيما بقيه فأجاب الجميع بالاستحسان » (١) ...

وأخذ شبح اليأس يتعمد عن عرabi ونهض من فوره ليعد العدة للدفاع ، وكان قد ترك في بلبيس عدداً من التلغرافات في مكتب التلغراف يستنهض بها البلاد لترسل المدد لمقاومة زحف الأنجلترا ؛ ومضى عرابي إلى العباسية ومهما بعض الفنانين لأنشاء خط استحكامات هناك للدفاع عن القاهرة ...

وفي هذا الذي فعله عرابي ما يثبت الكذب الوضيع على الدين عابوا عليه فراره من التل الكبير قائلين إنه فعل ذلك ليتجوّه بنفسه لا ليستأنف الجهاد الذي كان ممكناً لو أنه أراده ؛ وما يغلاً النفس أسى وآلآ أن يعمد هؤلاء إلى إنكار الحقائق وهم يعلمونها ؛ وأمرهم في ذلك عجب ، فأننا نفهم أن يختفي المرء فهم حقيقة أو أن يؤولها بدافع الغرض والهوى تأويلاً يساير هواه ، ولكننا لا نفهم كيف يعمد إنسان إلى قلب الوضع قلباً تاماً فيقول في موقف كهذا شهدت به أكثراً المصادر إن عرابياً هرب لا ليقاوم ولا ليدافع عن القاهرة ولكن ليتجوّه بنفسه خسب ! ...

ولم يكن الاستيلاء على القاهرة بالأمر الهين لو وجدت من يدافع عنها ؛ قال المسيو بيوفيس « ولم يكن الجنرال دروري لويسير في زحفه في طريق آمنة إذ لم يكن معه سوى عدة مئين من الجنود ، وكان أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية قوية كبيرة العدد ترابط في العباسية والقلعة وفي العاشر التي بنيت أخيراً فوق جبل القطم ، وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التي سببت المتاعب والخسائر

(١) مذكرات عرابي المخطوطة من ١٨٧٤ ج ٢

الكبيرة لبابليون وكثير خلال الحملة الفرنسية ، ولكن جبن الرؤساء العربين قد أخرجه من المأزق » (١) ...

قال عرابي « ثم استقر الرأى على إنشاء خط دفاعى في ضواحي المurosse ، وبناء على ذلك ذهبت إلى العباسية وهي محمود باشا المرعشلى باشئتمد الاستحكامات ومحمود باشا رضا لواء الخيالة وحسن باشا مظاهر لواء مأمور تشهيل إرسال الدخانى الحرية إلى مركز الجيش ، وتقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطربة شرق عين شمس يستند عينه على الجبل ويعتد شمالا إلى ترعة الستاعيمية ، ثم ينبعطف غرباً على الترعة المذكورة إلى النيل عند فم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا ... ثم ذهبنا جميعاً إلى مركز الطوبجية وأردنا استعراض المسارك الموجودة هناك فلم يجد إلا نحو ألف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو أربعين نفراً من السوارى في مركز عساكر الخيالة مع الأمير الائى أمد بك نير ، فقال الأمير الائى المذكور إنه يقف في وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم » ...

أين الجندي وأين الضباط ؟ .. هنا أدرك عرابي مرة ثانية ما فعلته الخيانة وما فعله قرار السلطان بأعلان عصيانه فقد انحلت العزائم وهرب الرجال وأصبح هم كل امرء الدفاع عن نفسه ؛ وعاد اليأس فأحاط به عرابي من كل ناحية ووقف وحده لا يجد من يمد يد المعاونة إليه والأنجليز زاحفون على القاهرة في غير إبطاء ، ولندع عرابياً يقص علينا نبأ هذه المخنة قال « فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غواصي الخراب والدمار كما حصل في الأسكندرية ما دامت القاومة لا تجدى نفعاً ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية السيئة الخط ، فرجعنا إلى المجلس الآنف الذكر وأخبرناه بما عن لنا ، ثم قلنا حيث أن الأنجلترا يحاربوننا الآن باسم الخديو لأنها يجازيه إليهم في إمكانه توقيف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ويصنع بنا بعد ذلك ما هو أهل ...

فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة باستئناف الخديو نتعرف

(١) الرافى ص ٤٦٠ عن يوفيس — الفرنسيون والأنجليز في مصر ص ٢٩١ .

فيها بإيقاف الحرب وتلتئم منه الوساطة لدى الأنجليز بعدم دخولهم القاهرة حفظاً لها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع ، ففرروا المريضة وأرسلوها إليه بعد أن ذيلتها بامضائى ، مع بطرس باشا غالى ورروف باشا وعلى باشا الروبي ويمقوب باشا سماى رئيس المجلس العسكري في قطار خاص ، وكان ذلك في يوم الخميس الموافق غرة القعدة سنة ١٢٩٩ و١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فلم يجدوه ذلك نفعاً فإن مساعدتهم أخفقت وأمامهم خابت بأن أبي الخديو قبول المريضة وإجابة الالتماس وأمر بالقاء يعقوب باشا سماى وعلى باشا الروبي في السجن فسجنا في الأسكندرية » ...

ودخل الأنجليز بلبيس والرقازيق في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة التل الكبير ، وفي اليوم التالي الخميس الرابع عشر من سبتمبر بلغ الجنود الأنجليز العباسية في نحو الساعة الرابعة مساء ... وتلقى عرابي بما ذلك في الساعة السادسة وكان في بيته على باشا فهمى ولم يكن على باشا قد برىء من جرحه بعد ، فأرسل عرابي إلى قائد ثكنات العباسية يأمره بالتسليم ...

ونصح چون نينيه وكان في بيته على باشا فهمى ، امرابى وطلبة عصمت وكان هذا قد جاء إلى القاهرة ، ول محمود سماى يتسلّم أنفسهم أمرى حرب للجيش البريطانى خوفاً عليهم مما يحمل بهم على يد توفيق ، واستتصوب رأيه عرابى وطلبة ورفضه البارودى قائلاً « إنى ذاهب إلى منزلى فإن أرادوني فأتهم يعرفون أين يجدوننى » وذهب عرابى إلى بيته فلبس رداءه العسكري وتقلّد سيفه وتأهب ومعه طلبة للتسليم قال يصف ذلك « وفي عصر يوم الجمعة الموافق ٢ القعدة سنة ١٢٩٩ ، ١٨٨٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من الجنرال لو خيالة الأنجليز بالعباسية إلى إبراهيم بك فوزى مأمور ضبطية القاهرة بأنه يريد مقابلتى بالعباسية ومقابلة طلبة عصمت باشا ... فتووجهنا إلى العباسية واجتمعنا بالجنرال المذكور فابتدرنا بقوله هل تقبلون أن تكونوا أسرى حرب لجلالة الملك ؟ فقلنا له نعم يريد ذلك حقناً للدماء فلو أن عندنا من القوى الحرية ما يمكننا بها إطالة زمن القتال والمدافعة عن البلاد لما

قبلنا ذلك ولكننا قاتلنا حتى يقضى الله بيتنا ، ولكن حيث علم لنا أن الأنجلترا لا مطعم لهم في الاستيلاء على بلادنا وما كان مجئهم إلى مصر إلا ليؤيدوا السلطة الخديوية ويسلموها البلاد إلى الخديو ثم يعودوا إلى بلادهم ففتحن كفينا عن القتال ورضينا بأن نسلم سيفانا إلى قائد الجيش الأنجلزي واتفقنا بعدالة الأمة الأنجلزية أن تعاملنا كأمرى حرب ؛ وسلمتنا سيفانا وقضينا تلك الليلة داخل غرفة من غرف قشلاق الطوبجية لا فراش فيها ولا غطاء وكان الجنرال في غرفة أخرى مثلها .

وفي عصر يوم السبت قتنا من العباسية بكوكة من خيالة المندوب وضابط إنجلزي إلى قشلاق عابدين فوجدناه محتملاً بالآى حرس ملكة الأنجلز حكمدارية الميرالى تين من بيت شريف في أحراج الأنجلز ، فقابلنا الميرالى المذكور وقال لنا أنها أسميراً حرب عند جلاله ملكة الأنجلز فلا بأس عليكما ... وأقنا في غرفة مقابلة للغرفة التي هو فيها وكان أميراً كريماً سجاباً يأتي إلينا كل يوم ويوزينا على ما أصابنا ويعرف بظلم الأنجلز لنا وأن الاستبداد لا زال كما نحن في قلوب الأنجلز أكثر من كل الأمم ... وبعد ذلك وصلت جيوش الأنجلز إلى القاهرة أتواها أفواجاً ، وكانت نساء رجال حكام المصريين المستبددين يحيين عساكر الأنجلز عند صورهم في الشوارع بلباسهم الأحمر وأسلحتهم السوداء على عواتفهم ، بالزغاريد تقرباً إليهم وشكراً لهم على إطفاء شعلة الحرية المصرية » ...

وعصف الفوضى برؤوس بعض الدنیان من سكان القاهرة وثارت النخوة في نفوسهم ولم تكن الرشوة قد فقلت بهم ما فعلته بالجيش فتجمعوا من باب الشعرية والحسينية وهمياً للثورة ، وكانت القاهرة ترى مارأه أيام نابليون وكثير ولكن محافظ المدينة بذل أقصى جهده للقضاء على الفتنة في مدها مبيناً للثائرين أن عملهم لا يجدى نفعاً وليس وراءه إلا سفك الدماء ...

وفي نفس هذا اليوم الجمعة ١٥ سبتمبر دخل الجنرال ولسي القاهرة وكان يصحبه سلطان باشا نائباً عن الخديو ؛ ونزل ولسي في سرائى عابدين وقد أعدت له بأمر الخديو .

وكان الأنجليز قد استولوا على القلعة من طريق الجبل في اليوم الذي يلغوا فيه القاهرة وقد سلم لهم مفاتيحها مقتبساً على خنفس منتظرًا ما وعد به من الذهب قبل معركة التل الكبير، ولكن الأنجليز أداروا له ظهرهم فلم تعد بهم حاجة إليه وأحتل الأنجليز قصر النيل كما احتلوا القلعة والعباسية وهكذا أخذوا القاهرة من أطرافها، وصح حلمهم الذي ساورهم منذ عهد محمد على ...

وبعد فهذه قصة تسلیم عرابي ، لا نرى فيها شيئاً مما افتراه المفترون من مذلة وهو أن ، فالقانون العسكري يقضي بأن يسلم القائد المغلوب سيفه ، وإن قد سلم عرابي سيفه للجناح لو قاتلا إله يفعل ذلك على رغبته فلو أنه استطاع مواصلة القتال ما سلم وماذا كان في وسع عرابي غير هذا ، ولم يكن أمامه إلا الفرار والهرب إلى بلد آخر أو التسلیم للجيش المتصر ، ولو أنه هرب ثم قبض عليه وجيء به إلى مصر أو لم يقبض عليه وظل طريراً شريداً كان ذلك يمحى خصوصه ؟
لست أفهم لماذا كان هؤلاء يريدون؟ هل سلم سيفه والجيش من حوله يستطيع المقاومة والدفاع أم أنه فعل ذلك حين هرب الرجال فلم يجد حوله إلا أربعين رجلاً في خطوط الاستحكامات ؟

غلب نابليون على أمره بعد أن وضع إحدى رجليه في مدربيه والأخرى في موسكو ، فـكـتـ إلى الأمـير الوصـى على عـرش إنـجـلـنـتـرـة يقول : « يا صاحـبـ السـموـ الملكـيـ : رأـيـتـ أـنـ أـخـمـ حـيـاتـيـ السـيـاسـيـةـ إذـ رـأـيـتـنـيـ مـعـرـضاـ لـلـخـلـافـ الذـيـ يـفـرقـ بـنـيـ وـطـيـ شـيـعاـ ، وـلـمـدـاءـ الذـيـ تـنـاصـبـيـ إـيـاهـ دـوـلـ أـورـوـبـاـ الـكـبـرـىـ فـجـئـتـ كـثـمـوـسـكـلـيـلـانـقـ بـنـفـسـيـ فـجـوارـ الشـهـبـ الـأـنـجـلـيـزـ ؟ـ وـإـنـ أـضـعـ نـفـسـيـ فـحـاجـةـ قـوـانـينـهـ وـأـرجـوـ منـ سـمـوـكـ الـلـكـيـ أـنـ تـنـحـوـنـيـ هـذـهـ الـحـمـاـيـةـ حـيـثـ أـنـكـمـ أـتـوـيـ أـعـدـائـيـ وـأـطـوـلـهـ مـصـارـةـ وـأـعـظـمـهـ كـرـماـ » (١) .

وصد نابليون إلى ظهر إحدى السفن التي كانت ترافق الشاطئ فيما ضابط هذه السفينة رفع قبمته الأسى الذي لم يكن يفعله كثيراً من قبل لقاء الملك

(١) لميل لدوخ : نابليون . ص ٥٣٧ .

والقياصرة ؟ فهل يعاب على نابليون ويتم بالجبن والمذلة من أجل كتابه هذا ومن أجل تسليمه نفسه على هذه الصورة ؟

ولكن الذين كتبوا سيرة عربي عقب الاحتلال من أعدائه لم يدعوا ناحية من هذه السيرة إلا شوهوها لكي تُبَثَّ في أذهان الجيل القادم الصورة التي وضعها الاحتلال لعربي فحمله رجالاً جاهلاً طائشاً لم يحارب من أجل مبدأ من المبادىء وإنما كانت تحركه أطعاء الشخصية ، وما زال يخبط في حماقته وجهله حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يسلم سيفه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الأنجليزي .

وأما أن يكون عربي ضحية مبادىء سامية حارب في سبيلها حتى لم يبق في قوسه متزع ، وأما أن يكون أول فلاح في مصر نادى بالحرية والدستور وأول زعيم وطني وضع جهاد وطنه على أساس قوى فافتتح بذلك فصلاً جديداً في تاريخ هذا الوطن ، فذلك ما لا يطيق أن يسمعه الاحتلال أو يسمح حتى أن يُهمس به .



توفيق يدخل العاصمة

انتظر توفيق بضعة أيام دينما تسلم بقية العاقل كي يدخل القاهرة دخول الظافر ، ولسوف يدخلها في حمامة الأنجلوzi كا دخل البريوني لويس الثامن عشر باريس في حمامة الخلفاء بعد هزيمة نابليون مما جعل الفرنسيين يقولون إن جلالاته جاء بين الحقائب في عربة البضاعة .

توقف حاميات أبو قير ومرسيوط ورشيد بعض الوقت عن التسليم ، وعمل ذلك لأنهم لم يصدقوا نبأ المزعومة ، وتوقف عبد العال باشا عن تسليم دمياط مدة أسبوع ثم لم يجد بدأ من التسليم فسلم وقبض عليه وأرسل إلى القاهرة ؟ أما معاقل كفر الدوار فقد تركها الضباط والجنود منذ أن رحل طلبة باشا إلى العاصمة واستولى الأنجلوzi عليها ونسفوا ما فيها من الحصون ...

وفي اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر أى بعد اثني عشر يوماً من معركة التل الكبير سافر الخديو بقطاره الخاص من الإسكندرية إلى القاهرة وفي معيته كبير وزرائه شريف باشا والوزراء إلا رياضاً الذي كان في القاهرة بعد العدة لاستقباله ...

زيارت العاصمة بالأعلام على جانبي الشوارع وفي الشرفات والمنافذ ، ولكن الناس كانت تردد أبصارهم خاسئة إذ يرون بين الرأيدين المصرية هنا وهناك رأية جديدة هي رأية الجيش المحتل .

ولم ير المصريون وأسفاؤه على جانبي الشوارع أولئك الجنود المصريين والسودانيين الذين ألقوا رؤيتهم في مثل هذه المناسبة فقد ألقى الخديو الجيش المصري بحربة قلم ، وإنما رأوا نعطاً عجيباً من الجنود حمر الوجوه طوال الأجسام يضمون فوق رؤسهم القبعات ويعيث منظارهم في قلوب المصريين الرهبة ، ويشعر

المصريون حيالهم بالاشتئاز والكره الشديدين ولكنه شعور خفي مكبوت لا يجرؤ أن يظهره أحد.

وقد بلغ عدد هؤلاء الحر القبعين نحو خمسة آلاف اصطفوا من الحطة إلى سرای الأسماعيلية ، ليبر من بين صفיהם الطوبلين خديبو مصر القادر إلى مقر حكمه . وبلغ القطار القاهرة في منتصف الساعة العاشرة صباحاً ، ونزل توفيق فتقدم لتحيته الأمراء ثم ولسي قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملك فكتوريا وإدوارد مالت المعمد البريطاني ... ثم محمد سلطان باشا ورياض باشا وكراء المصرين من العلماء ورجال الدولة والأعيان .

ونقدم الشيخ عبدالهادى نجاح الأبيارى بين يدي الخديبو ودعاه بالتأييد والنصر وكان يردد الحاضرون دعاه .

وكانت الحطة مفروشة بالبسط مزينة بالزيارات والزيادات ، وقد حشد فيها رياض ما أمكنه حشده من أعيان البلاد وهتف رياض باشا عند صور الخديبو من بينهم « يعيش الجناب العالى مؤيداً بالنصر والأجلال » وردد الحاضرون هتافه ويم الله لكم كان فيهم من أبى ث هتافه من قلبه وكم كان فيهم من أيفن مع ما كان يرى حوله أن هذا نصر وأن هذا إجلال .

وكانت مدافن الحطة ترسل طلقانها مدوية احتفاء بالخديبو الظافر ، وكانت تجاوبها مدافع القلعة ، كما كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديبو . وجلس عن يسار الخديبو في مركبته دون كنوت وجلس أمامه ولسي ومالت وأحاطت بهذه المركبة كوكبة من الفرمان الأنجليز ، ومن ورائهم مركبات الأمراء والوزراء ورجال الدولة .

ونظر أهل القاهرة ساخطين إلى فاكحة عهد الاحتلال ، ولوسوف يبق هذا السخط كامناً في نفوسهم الجريحة حتى ياذن الله يبعث من يثور على الاحتلال ... وظن توفيق أنه استعاد سلطانه ولكنه ان يلبت حتى يجد نفسه مجرداً من كل سلطان ، وحسب أن له السيادة اليوم ولكنه ان يلبت حتى يرى أن هذه

السيادة تتمثل في مظاهر كاذبة ... في حرس يحيط به وفي موسيقى تصدح ألمام
قصوره وفي ألقاب التمجيد تضاف إلى اسمه ؟ أما فيما عدا ذلك فالسيادة لا تخلص ؟
ولقد بدأ كبار المصريين يلون وجوههم قبل من أصبح لهم السلطان الحق
في البلاد ...

ففي الثامن والعشرين من سبتمبر ذهب سلطان إلى رياض ومعه وفد من محمد
البلاد وأعيانها، فأبلغ الوزير أن هؤلاء الأعيان يريدون تقديم هدايا من السلاح
الفاخر إلى سيمور ولولسلي ولو شكر ألم «على إنقاذ البلاد من غواصي الفتنة العاصية»
وأعدت الهدايا بعد سفر هولا، الثلثاء وأرسلت إليهم في إنجلترا، إلى سيمور
مخرب الإسكندرية ولولسلي بطل مذبحمة القل الكبير ولو أول من دخل القاهرة
من الأنجلز وأسر عراني ...

وأرسل هؤلاء كتب الشكر إلى سلطان باشا ومن انضم إليه من الأعمات وطلائع
أعوان الاحتلال . قال عرابي في مذكرةه « وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ورد على
ناظارة الداخلية محمد سلطان باشا وأحد بات السيفي وغيرها من المخدوعين ، وأبلغوا
رباض باشا بأنهم على عزم أن يقدموا نوعاً من الأسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر
المينة هدية منهم للأدميرال سيمور قائد الدونئمة الأنكلiziية والجنرال ولسلي قائد
الجيش الأنجلزي والجنرال لو الذي كان أول قادم إلى القاهرة بعد سقوط
التل الكبير فاستحسن رباض باشا منهم تلك الأريحية ورخص لهم في تقديم
الأسلحة الفاخرة المذكورة للقواعد الموما إليهم ؛ وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن
يؤلفوا لجاناً من كل جهة ينشئون فيها أكتمتاً يجمع نقود كافية لأنفاذ هذا القصد
ولكنهم فشلوا في ذلك واكتفوا بشراء المهدية من مالهم الخاص فأعطوا الجنرال
ولسلي سيفاً مجوهاً وكذلك الجنرال لو سيفاً وأما الأمير الـ سيمور فأهدوه طبنجة
مجوهرة بالساس مكافأة لهم على احترامهم للأمة المصرية وإذلامها » ...

وفي الثلاثاء من سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصطف الجيش الأنجلو-إيرلندي في ميدان عابدين ، في المكان نفسه حيث وقف عراني قبل ذلك بسنة وقفته المشهودة ومعه

الجيش المصرى في التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ يسمع الخديو مطالب الأمة
ويعلن إليه مشيئتها ...

ولاتقع علينا توفيق الآن على جنود يتحدونه بل تقع على جنود يحيونه ويحيطونهم
رافعاً يده بالسلام العسكري ، ولكن أنتائج فتواده أن يرى هذه القوة التي ظن أنها
تسند عرشه ؟ ولو أنه فكر قليلاً لفطن إلى أنها كانت تحمل ذلك العرش !
وكان الخديو في المقصورة التي أعدت له برتدى ملابسه الرسمية ، وكان يحيط
به الوزراء والكبار كذلك بأردديتهم الرسمية وأوستتهم ...

وكان الجنرال ولسي والدوق كنوت على ظهر حواديهما إلى جانب مقصورة
الخديو ؛ وسار特 فرق الجيش الأنجلتراوى أمامه حتى انتهى عرضها في ساعة ونصف
نحو أولى الخديو سروره وإمبابه وأنهى على الجيش ورؤسائه .

وقد جاء في عدد الوقائع الصادر في أول أكتوبر سنة ١٨٨٢ أنه قد «انشرت
صدر الحاضرين وأعجب الجناب الخديوى معظم عارأه من مهارة رؤسائهم
وضباطهم وحسن انتظام المساكر وكامل نظامهم ، وشكر الكل لهم ما قاموا به
من إنجاد فتنة العصابة وإطفاء نورتهم » .

وما يدعو إلى أعظم الأسف ما نشر عن احتلال العاصمة في هذه الجريدة في
الحادي والثلاثين من سبتمبر أى في اليوم التالي للعرض وقد جاء فيه «حضرت
المساكر الأنجلتراوى إلى العباسية في غروب يوم الخميس غرة ذى العقدة فسلمت
المساكر التي كانت مجتمعة فيها أسلحتها وتوجهوا إلى بلادهم من غير أن يحس أحد
منهم بسوء ، ثم دخلوا مصر ليملأ الجمدة واحتلوا الأماكن العسكرية كالقلعة
وقصر النيل وقلائق عابدين وغيرها فسلمت المساكر التي فيها أيضاً أسلحتها
وتوجهوا إلى بلادهم آمنين ؛ وبعد هذا قبض على الشقى أحمد عرابى ، ومشت
المساكر الأنجلتراوى في شوارع المurosة بالهدوء والسكينة ولم يظهر واحد منهم
أدنى شيء ينفر منه طبع محمد المصريين خلافاً لما كان يزعمه ويشيعه أحمد عرابى
(م - ٣٢)

العاصى وأتباعه الأشقياء ، ولماذا لم تر شيئاً تعطل من المصالح ولا من الأعمال
لا في المروسة ولا في ضواحيها .

وفي ليلة الثلاثاء الثالث من أكتوبر أقام الخديو مأدبة كبيرة وحفلة سهر باهرة
ساهرة في مسرى الجزيرة تكريماً للقواد والضباط الأنجلترا ، وكان في مقدمة من
شهدتها سيمور ولوسلى ودوق كنوت ومايل ولو ؛ وفي هذه الحفلة الكبيرة أنعم
الخديو على ستين من هؤلاء الأنجلترا بالأوسمة المختلفة .

يقول عراibi في مذكرةه « وكانت تلك التি�اشين التي حضرت من الآستانة
بتطلب درويش باشا المندوب السلطان لأجل إعطائهم للضباط المصريين » .



ثواب وعقاب

بالقضاء على الثورة الوطنية ودخول توفيق العاصمة في حمایة جيش الاحتلال بدأ في تاريخ مصر عهد من أسوأ العهود التي يعنى بها تاريخ أمة من الأمم ؟ فهو العهد الذي ينطوى فيه الأباء على ما في أنفسهم خوف النكال والهلاك ، والذى يعلىء المستضعفون فيه الأقواء إما جلباً لمقومة أو دفعاً لضرر ، والذى ينتقم فيه من خصومه من واته الفرصة للانتقام ، والذى يرزق فيه حالة الناس بوشاعة بضمهم بعض ، والذى يتسلط فيه المستبدون فإذاخذون بالظنة رغبة في إظهار جاههم وسلطانهم خسب ، والذى يضيّع فيه الحق في ضجيج الباطل فلا سماع ولا شفيع ... هذا هو العهد الذي اختفت فيه روح الوطنية وتوارت شعلة الحرية ، والذى ورد فيه الدستور وهو في مده ، وقتلت القومية المصرية وهي لا تزال تحبو ؛ والذى نفق فيه عن مصر أبا الرجال ، وتسلط فيها الاحتلال ...

وهذا هو العهد الذي بدأ فيه الأنجلترا يبتلون في النفوس هيبة الاحتلال وهيبة جيش الاحتلال ، وأخذوا يعلمون الوزراء وكبار الموظفين من المصريين وعلى رأسهم الخديو إن كانوا في حاجة إلى تعلم أن السلطة لا تنجليز والطاعة لا تنجليز وأن نصائح المعتمد البريطاني في مصر واجبة الاتباع .

وقد افتحت هذا العهد بما يشا كل من الثواب والعقاب ، أما الثواب فللذين عدم الخديو من الوالدين له والذين ساهم المصريون في الخائن ، وأما العقاب فللذين كانوا في رأى الخديو عصاة ثائرين وإن عرفتهم بنو مصر مجاهدين في الله والوطن صادقين ...

وكان أول من حظى بالثواب محمد سلطان باشا الرئيس الأول للحزب الوطني والذى سماه الناس من قبل كاذكينا أبا المصريين وقد أنعم عليه توفيق بالوسام

الجيدى من الدرجة الأولى جزء له على بث روح الخيانة في الجيش المصرى ، ثم منحه فوق ذلك عشرة آلاف من الجنبيات ذهبًا لا زيف فيه وذلك كما قال الخديع « لما أظهره من الصدقة لحكومة الخديوية وعارضته للعصابة في جميع أمورهم وعزائهم بالخاطرة على حياته وما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتدمى منهم على شخصه وأقاربه وإتلاف موجوداته ومقدار جسم من ضررو عاته » ...

أما الأنجلين فقد حملوه السير محمد سلطان فأنعمت عليه ملكة إنجلترا بوسام سان ميشيل وسان چورچ مكافأة له على ما بذل في سبيل نجاح معركة التل الكبير ...

وظهر التواب بعد ذلك في المناصب بصورة واسعة ومن أمثلة ذلك إعادة إبراهيم أدهم باشا مديرًا للغريبة وإعادة الشيخ محمد العبامي المهدى شيخاً للجامع الأزهر بعد إقالة الشيخ الأمبابى وذلك علاوة على منصب الأفتاء الذى كان يشغله وقد تحملت هذه الروح فى تأليف وزارة شريف فرأينا فيها عمر لطفي ورياضاً ومبراكاً ومدحت ...

وأما المقاب فقد بدأ الخديع بالذاء الجيش المصرى جملة بموجبة أنه انضم إلى العصابة ، وكان هذا توطئة لحكمة قواهه وضباطه إلا من انحصار أئمه الحرب إلى الخديو ...

وكان سلطان باشا يأمر بالقبض على من يشاء وإلقائه في السجن ، ولذلك تم الكثير من الاعتقالات بأمره قال عراني في مذكراته أنه « أمر بسجين جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيان إلا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو فسجنتوا جميعاً إلا على بك يوسف وأحمد بك عبد الففار عبد الرحمن بك حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم في التل الكبير .. وكذلك صار سجن جميع الذين بالmdirيات والمحافظات من المستخدمين والموظفين والعمد والأعيان والقضاة والمفتيين وغيرهم

من عامة الناس حتى غصت بهم السجون بما يربو على ثلاثة ألاف من المصريين^(١) . وللمزيد أن يتصور مبلغ ما كان يرتكب من المظالم في حال كهذه يقع فيها القبض على الناس بغير حساب ولا رقابة من قانون أو عرف ؛ وما أشبه هذا الموقف بمهد الأرهاب الأكبر في فرنسا أيام ثورتها : يقول عرابي « وانهز حكم المديريات من رجال الاستبداد فرصة القبض على وجوه البلاد وأعيانها وانتزفوا مادة روتهم حتى أثروا وامتلكوا الأراضي الواسعة ومن ضن عليهم عاله كان جزاؤه الأعدام يدعوى أنه من العصاة وأتهم مصرؤون على الانتقام » ...

وقد اعتقل كبار رجال الجيش من الثوار وجميع زعماء الثورة من المدنيين إلا عبد الله نديم فقد اختفى ولم يعرف له مقر ، وعدد كبير من العلماء في مقدمتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن المدوى والشيخ محمد الخلفاوى والشيخ محمد عليش ، وعدد من كبار الموظفين كان بينهم أحمد رفعت باك مدير المطبوعات وأحمد باك ناشد مدير الشرقية وبعقوب باك صبرى مدير الفيوم وعدد من النواب وعدد من الأعيان والتجار ...

(١) ذكر محمود فهمي باشا أن عدد هؤلاء بلغ تسعة وعشرين ألفاً.

وأصدر الخديو أمره بتأليف لجنة للتحقيق بالقاهرة وذلك في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكانت تسمى القوميون أو المجنحة المخصوصة وقد تكونت من عشرة أعضاء برئاسة استعمايل أيوب باشا وكفت باستجواب كل من أتهم بجريدة المصيبيان أو التعدي على سلطة الخديو أو إثبات أي عمل فيه إهانة للجناح العالى ، سواء كان المتهم فاعلاً أصلياً أو ثريكاً لغيره ؛ وكان من سلطة هذه المجنحة القبض على أي شخص بمجرد أن تبلغ ذلك إلى وزير الداخلية ؛ ولها أن تقدم من ترى أنه مدین إلى المحكمة العسكرية التي تؤلف للحكم في هذه التهم وإيفاد مندوب من قبلها لأقامة الدعوة أمام هذه المحكمة .

وتتألفت من هذه المجنحة لجنة فرعية لتحقيق التهم المسوبة لأهل الأقاليم والمدن ...

وصدر أمر من الخديو في نفس الوقت بتأليف محكمة عسكرية لتحاكم من ترى المجنحة قد يهم إليها ، وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وهو من الموالين للخديو وكان أعضاء المحكمة إلا واحداً من أصل زكي أو ثريكتي كانوا جميعاً من النافعين على عرابي وحركته القومية ومن يدركون حق الأدراك ماذا يريد الخديو ؟ لأنهم اخترتهم على هذا الأساس .

* * *

وألفت محكمة عسكرية بالأسكندرية تعاونها لجنتان لتحقيق حوادث الأسكندرية وطنطا على نحو ما يحدث في القاهرة وأختير أعضاء المجنحة جميعاً بالضرورة لا من المحايدين الذين يريدون وجه الحق ولكن من أنصار الخديو الملوءة قلوبهم غيظاً وحدقاً على عرابي وعلى الثورة ...

وكان رياض باشا من أشد النافعين على عرابي وزعماء الثورة ، يتطلع في صبر فارغ إلى اليوم الذي يرى فيه وهو وزير الداخلية جسد عرابي متداياً في حبل المشنقة أو مهزقاً برصاص الجند ...

وكان شريف باشا كذلك ساخطاً على هؤلاء جميعاً منذ أن أخرجوه من الوزارة بسبب أزمة الميزانية ولأن ظل حريصاً على الدستور كبداً للحكم إلا أنه قد امتلاً قسوة وغيطاً على الثوار ، وقد كان بطبعه يكره التطرف ، ولذلك نظر بانتظاره إلى عربى وأنصاره فكانوا عنده من أشد المتطرفين وإن لم ينكروا يبنه وبين نفسه أنهم طلاب دستور وحرية وأنهم من حيث المبدأ كانوا في الواقع يتوجهون أحواجه القائم على محاربة الاستبداد والنفور منه ...



البطل سجين

ظل عرابي معتلاً في قشلاق عابدين حتى اليوم الخامس من أكتوبر، ثم أسلم إلى الحكومة المصرية، فألفت به مع زعماء الثورة وعدد كبير من المعتقلين في بناء الدائرة السننية الذي أحالته إلى معتقل عام، وجعلت فيه حجرة للجنة التحقيق.

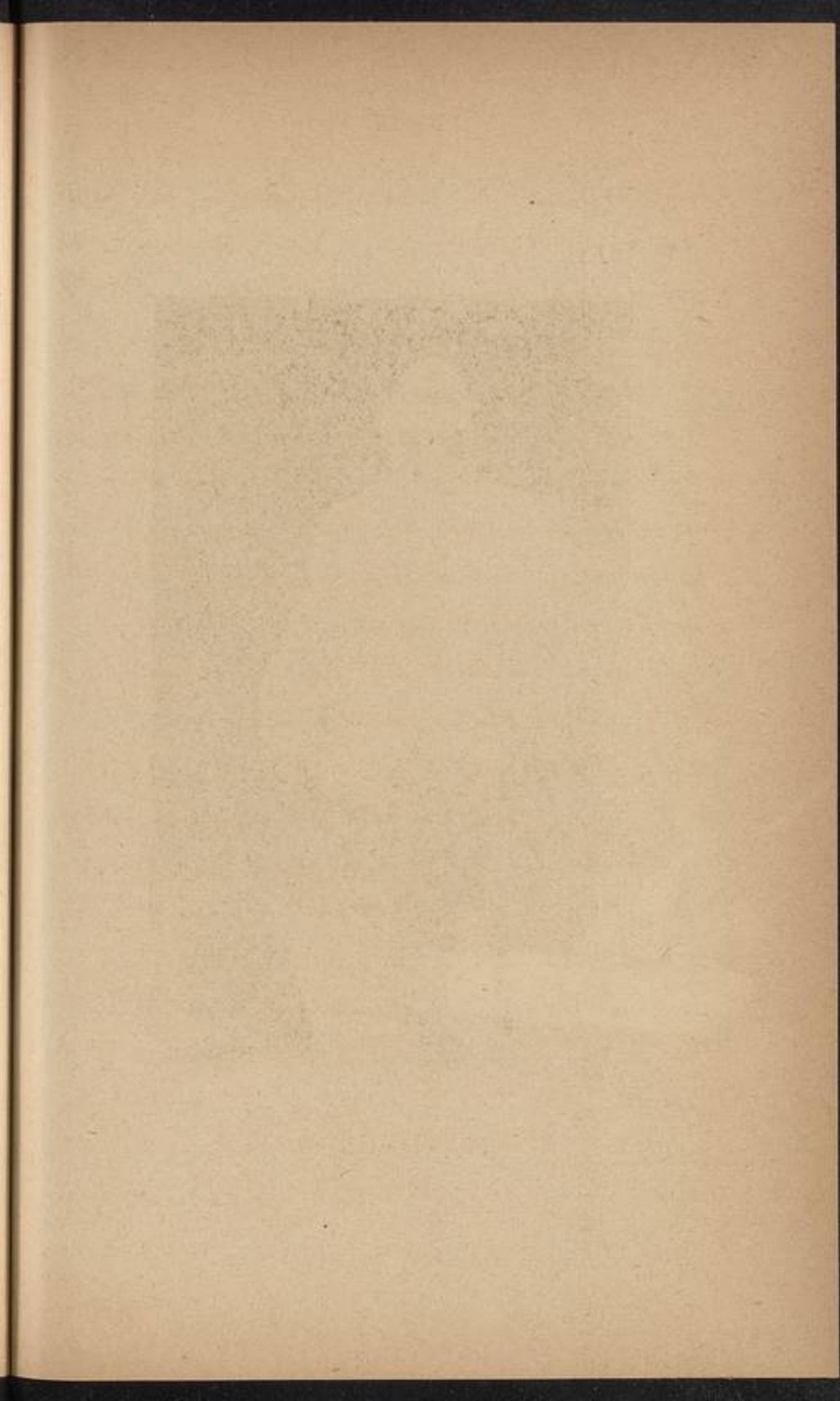
وبانتقال عرابي إلى سجنه هذا بدأ عهد إهانته على صورة لولا أنها تزيد أن ينوف هذا التاريخ حقه ما ذكرناها لفريط ما نحس من مجرد ذكرها من خزي وألم.

قال عرابي في مذكرة المخطوطة «وصلنا من قشلاق عابدين إلى سجن الدائرة السننية المذكورة لأجل المحاكمة وهي طلبة باشاعصمت، وسجين كل منا في غرفة منفرداً أسوة بمن فيها من المسجونين، ثم أغلقوا المنفذ ومنعوا عن السراج ليلاً بعد أن فتشونا وأخذوا ما معنا وأهانوا البعض منا خصوصاً عبد العال باشا حلى» وقال فيما كتبه وهو في سجنه لحاميه المستر برودل «بعد ذلك أسلمنا إلى السلطات المصرية ووضمنا في السجن المصري يوم الثلاثاء الخامس من أكتوبر؛ وكان ذلك من أيام الحرثنة التي لا تنسى فقد فصل بيني وبين صديق طلبة باشا، وألق بي في حجرة ليس فيها شئ حتى الكرم وأغلقوها على ، وجاء خادمي إلى ولكن الحراس لم يسمحوا بأدخال شيء إلى إلا بساطاً وملحفة ...

وعقب ذلك أقبل فريق من أرسلوا لأهانة السجناء وتهديدتهم كما تبين من أصرهم، وفتشوني وأخذوا كل ما لدى من الأوراق الخاصة التي طلبتها لجنة التحقيق؛ وبعد هذا جاء فريق ثان وهم ظالمون من موظفي الخديو وكان بينهم عثمان بك القائم على شؤون خيله وحسين أفندي فوزي وله صلة بشؤون الخديو



(عراقي في معقله بعادين)



المزلية الخاصة ومعهمما أغاثى هؤلئك الذى يركب أمام سمه حيث أنه أحد رجال حرسه الخاص ، وقد أعاد هؤلاء تفتيشى حتى أنهم زعوا قميصى ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً إلا تغيمة كنت ألبسها فانزعها أحدهم بقوة ، ولما قلت إنني أخلعها بنفسى صاح أحدهم قائلاً : كلا لقد أمرت أن أفعل ذلك وأن أخلع حتى حذاءك لأفتشه ...

وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تكلا محير جريدة الأهرام وظننت أنه قدم ليعزينى وليبدى عواطفه نحوى ، وقد كان من يدينون بمبدئنا قبل الحرب وقد أقسم بيدينه وشرفه أنه واحد منا وأمه يعمل لحربي وطننا ، وقد عدناه في الحق من الوطنيين ؛ ولكننه لما دخل على توقيع أشد التوقع ثم قال : أى عراى ماذا صنعت وماذا حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ؛ ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف .

وما هي إلا دقيقة ثم جاء فريق ثالث معظمهم من خدم الخديو وأتباعه وفيهم أرثاك وجند من حرسه ، وفتشوا بساطي وملحقتي وقلبوهما ظهراً لوجه ثم انصرفوا ، وأقاموا طول الليل على باب غرفتي حراساً على وعلى السجناء » (١)

هذا ما عومنا به عراى أول يوم أدخل فيه السجن ؛ ولكن خصومه لم يروا في ذلك ما يشقى ما في نفوسهم من غل ، فأوفدوا إليه بعد أربعة أيام من الحق به ، وهو السجين الذى لا يملك الدفاع عن نفسه ، إهانة يؤسفنا ويخجلنا أن نذكرها ولنبع عراياً يصف ما حدث ...

قال « في ليلة التاسع من أكتوبر سمعت الباب يفتح حوالي الساعة التاسعة والنصف وقد خللت ملابسى واضطجعت لأنام ودخل على جماعة تتألف من عشرة أو اثنى عشر شخصاً ؛ ولما كان الظلام حالكالم أستطع أن أتبين منهم أحداً ، وصال أحدهم بخاتة .. إاه .. عراى ؟ ألا تعرفنى ؟ وحسبت أنه قادم ليقتلنى فهمضت قائلاً . كلا است أعرفك ... فصال بـ أنا إبراهيم أغاثم أخذ يقسم الأعيان متوعداً وقال لي أيها السكلاب .. أيها المخزير وبصق على ثلاث مرات . فوقفت

ساكتاً في هدوء ثم تبيّن شيئاً فشيئاً أنه إبراهيم أغا حقاً توتونجي الخديو «^(١) وقد أعاد عربي ذكر هذا الكلام لخامييه يصف به الحادث الشنيع وذلك فيما كتب له من تقرير عام وكان قد شافهه به حين زاره لأول مرة ، وسلمه ورقة جاء فيها ما يأنى « لقد سلمت سيفي وشخصي إلى الجنرال لو ممثل القائد العام للجنود البريطانية ، وكان ذلك من ركونا إلى شرف إنجلترا .. وفي الخامس من أكتوبر ألق به في سجن مصرى حيث ألحقت بي إهانة على صورة نظل صارخة في وجه الشرف البريطاني ووجه كل إنجليزى » ثم أورد عربي الحادث بما لم يخرج عما سلف وأختتم ورقته بقوله « إن مسلكاً كهذا لا يمكن أن يرضى شرف إنجلترا وسمتها وبخاصة نحوى أنا الذى أسلمت نفسى مصدقاً بشرف الشعب الأنجلزى » ولم يكن عربي وحده مصدر هذه الرواية حتى يمكن أن يقال إنه اختلفاً أو أسرف فيها ؛ فقد عرفها بلنت بين ما عرف من صدق له لا يمكن أن يتطرق الشك إلى معلوماته إلا وهو الستر ببيان ترجمان مالت والذى اختاره مالت ليحضر التحقيق نائباً عنه وكان بيان يجيد اللغة العربية وكان قائماً بأعمال مالت، القنصل العام فى الأساقفة التى سبقت ضرب الأسكندرية وقد أرسل هذه المعلومات فى السادس من نوفمبر؛ ويقول بلنت إن المعلومات التى أخذها عن بيان على أعظم جانب من الأهمية التاريخية؛ قال بيان عن حادث إبراهيم أغا : أحسب أن حادث إبراهيم أغا وحده كاف ليظهر الخديو على حقيقته ، ولقد سمعت القصة كلها من القصر مباشرة وكيف أن توتونجي حامل غليون الخديو قد ألم بيد الخديو ورجا منه أن يسمح له بأن يبصق في وجوه السجناء؛ وكان ذلك هو ما استقصى عنه السير شارلز ولسن^(٢) ووجده صحيحًا؛ وعلى الرغم من تبيّنه صحة الحادث ، فقد أغفله وذلك لأنه كان للخديو قطمة قذرة جداً من القهاش يعجب أن تخسل في هذا الموضوع ؛^(٣) وقد اقترحت إذ رأيت الشهود

(١) نفس المصدر

(٢) هو الذى انتدبه الأنجلزى لحضور جلسات لجنة التحقيق

(٣) كناية عن فضيحة له فيه

جميعها يختنون في أحجامهم أن يخلفوا عين الطلاق الثلاث ، وكان السير شارلز ولسن يعيل إلى ذلك ولكن مقترباً ما لبث أن أُسكت ، وإن أسرة سموه لا تستطيع الآن أن تنكر فيما بينهما وقوع هذا الحادث ؟ وبعد فهذا هو الرجل الذي من أجله ^(١) جئنا إلى مصر »

ويقول بلنت « إن حادث إرسال توفيق أغواه لأهانة زعماء الحركة القومية في السجن قد ذكره الشيخ محمد عبده الذي كان من أوائل المقبوض عليهم والذي كان من ضحايا الحادث ، وقد ذكر ما تلقى في السجن في تصريح قدمه إلى السير شارلز ولسن في التاسع والعشرين من أكتوبر ولكن له برد في الكتاب الأزرق » ^(٢)

وقد ذكر مستر برودل في كتابه « كيف دافعنا عن عربي » أنه زار كلا من على فهمي وعبد العال حلى والشيخ محمد عبده في حجراتهم وأن عبد العال ذكر له « أن إبراهيم أغاثونجي الخديو دخل حجرتى ومه ثلاثة أشخاص وقال لي يا عبد العال أتعرف من أنا ؟ فقلت كلام است أعرفك ، فقال : أنا إبراهيم أغاثونجي الخديو ثم دنامي وبصق على وجهي وضربني بقلم كان في يده على وجهي صرتين وقال انتظروا لقد وقتم يا أولاد السكاك سأريك »

وقال الشيخ محمد عبده « إنني أعلن مع عظيم احترامي لسمو الخديو حفظه الله أن إبراهيم أغاثونجي حضر إلى في الخامس من هذا الشهر وأهاننى ، وكان معه بعض أتباع الخديو ، وقد فتشوني وأخذوا مني ثلاثة مجلدات ، اثنان منها كتاب المقد الفريد والثالث هو الجزء الأول من تاريخ المصوّر الوسطى وهو معرب عن الفرنسيه ... وما سألهما لماذا يأخذون الكتب ، الذي يعيدها إلى بيتي ؟ قال لي ألك بيت ؟ فرأيت أن أُسكت »

وأحسب أن هذه الفضيحة لا تحتاج إلى تعقيب سوى الأشارة إلى ما نحشه من الحسرة والخجل من أن ينزل الناس في الخصومة إلى مثل هذا الحد ، وأن

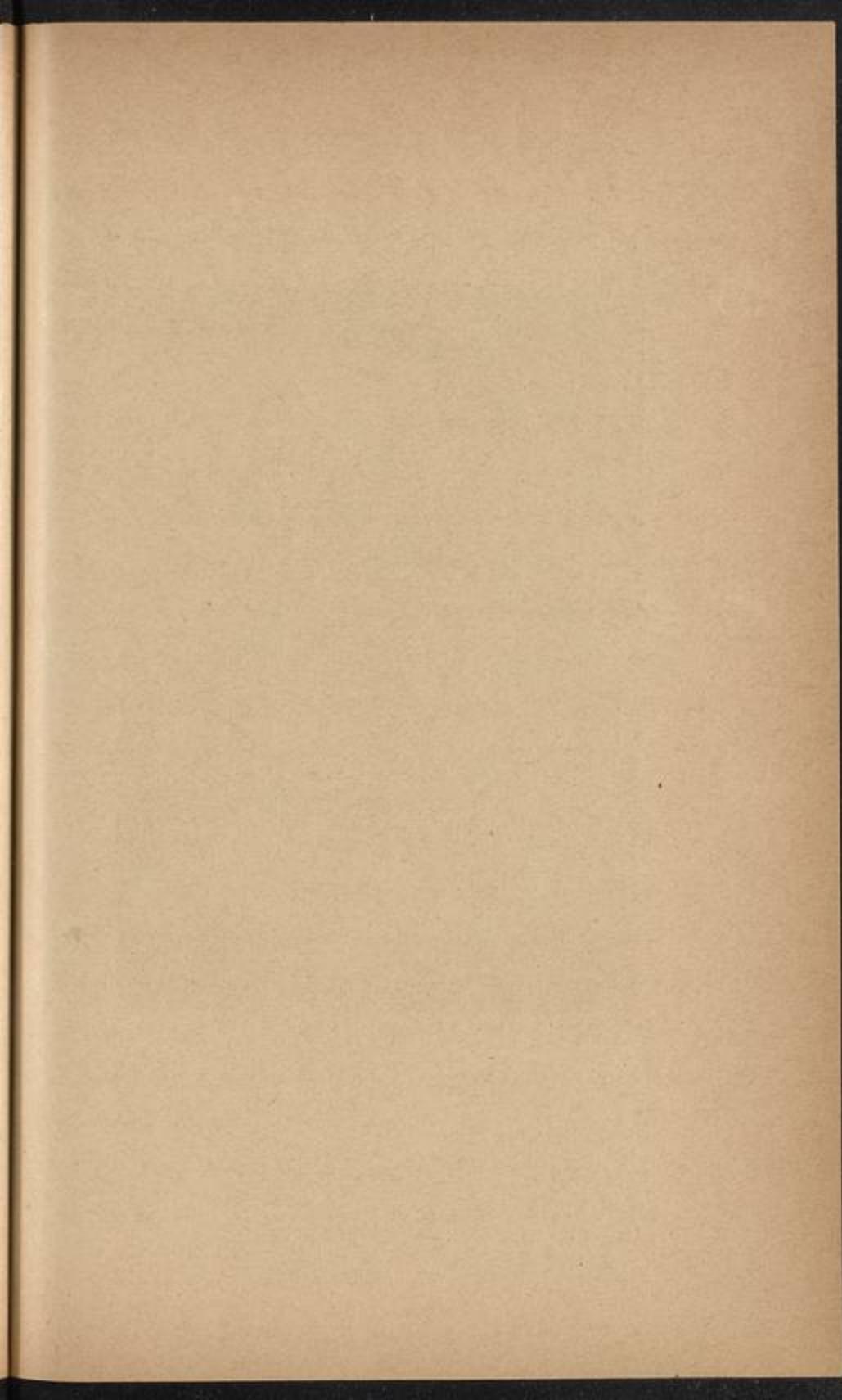
يعامل رجال كهؤلاء هم بنفوسهم وجهادهم سادة أعزه وف مقدمتهم زعيم ثورة وقائد
جيش وزير دولة ، معاملة لا تليق بأصغر الناس وأحقهم شأنًا
وكان عرابي يقضى أيامه في سجنه على هذه الحال من سوء المعاملة وليس في
حجرته كرسى واحد كاذب هو وكما شهد محاميه ولم يجد فيها محاميه
مستر برودل وزميله مستر نايفير عندما سمح لهم بزيارته إلا البساط واللافحة وحشية
ووساداتين ومصحفًا وبعض الآنية من الخزف والنحاس
وكان يلبس عرابي سروالا حربياً وقصيحاً أبيض وسترة كان يستبدل بها
أحياناً استامبولية سوداء أو معطفاً تركياً ، وكانت في يده مسبحة صغيرة لاتفاقها
إلا نادرًا كاذب مستر برودل
ويقول محاميه إنه بناء على طلب السير شارل ولسن قد أحضر له وزميليه
منضدة وبعض السكريني.

وكان لا يزيد اتساع الحجرة عن أربعة عشرة قدمًا في مثلها وكانت صرفعة
السقف ، وكان ينفذ إليها بعض النور من نافذتين صغيرتين تطلان على الشارع ؛
أما بالليل فكانت حائلة الظلمة حيث لم يسمح بمصايريح أو شموع لأحد من السجناء
ولهذه الظلمة قصة فقد طلب عرابي على إسان محاميه أن يسمح له بالنور ليلاً
فرفضت إدارة السجن لأنها علمت أن الخادم أراد أن يدخل له النفط ليحرق
السجن ، ومن أجل ذلك منع الخدم من أن يدخلوا الطعام إلى السجناء ، وقد غضب
عرابي لهذه التهمة التي أشارت إليها التيمس غضباً شديداً ، وكتب إلى مراسل
التيمس بالقاهرة تكتذيباً لها قائلاً إنه لم يسمح له بروبة خادمه منذ اليوم الخامس
من أكتوبر وأنه ليس ما يدعوه إلى أن يحرق نفسه ويعود ضد القانون فهو لم
يتأس يوماً من براته مما نسب إليه »

وكان مما يؤلم نفس عرابي في سجنه أسلوب سجانه في تقديم الطعام له وحق
له أن يتالم وأن يأسى قال يصف هذه المعاملة «منذ أن أتي بي إلى السلطات المصرية
يأخذ أحد الحراس وهو ترك الطعام من خادى متى حضر ويفتح الباب دقيقة



(برودل)



ويلاق بالطعام أمائى ثم يغلق الباب في غلظة كاً لو كنت وحشًا في قفص ». وقد شكا عبد العال إلى برودل مخاوفه وقص عليه قصة محاولة قتله بالسم منذ بضعة أشهر مما دعا برودل إلى تصديقها ولذلك طلب من السير شارلز ألا يكون مقدم الطعام للسجيناء آرالك أو شراكسة .

ولندع عرائسًا في سجنه لنتظر كيف أتيح له أن يدافع عنه برودل وزميله فإن لهذا قصة هي قصة الوفاة والنجدة والمرودة ...

لم يكن يجرؤ أحد من المصريين بالضرورة في مثل هاتيك الأيام أن يفكر في الدفاع عن عرابي وإلا عد من المصابة والجنحة وبعض عليه وأودع السجن ، وربما كان نصيبه الموت ، وحسب كل مصرى أن ينجو بنفسه من هذا الإرهاب الذى يكاد يمحى على الناس أنفاسهم ...

وكان توفيق يريد رأس عرابي بأية صورة ، وقد عقد العزم على ذلك وإنه ليتطلع منذ أشهر إلى هذا اليوم الذى يظفر فيه برأس خصمه وكان رياض يذهب مذهب توفيق ولا يقل عنه حنقاً وتطلماً ..

وكان الأنجلزيز يريدون التخلص من عرابي بالموت ، ويقرر مستر بلنت أنهم كانوا لا يتزدرون في رميته بالرصاص في مووضعه لو أنهم أمروه في التل الكبير ؟ ويقول إن هذا ما عقد ولسلى عليه العزم ولم يرده عن رأيه إلا السير جون أدى وهو قائد أكبر سناً وأكثر تجربة من ولسلى وقد بين له ما يكون في مثل هذا العمل من عار ، إذ كيف لا يظفر قائد جيش نظامى استدعى محى ، ثالثين ألفاً من الأنجلزيز لمحاربته ، بما يظفر به كل قائد في مثل ظروفه حسب قوانين العالم من من معاملة شريفة عادلة ؟ (١)

وسوى فيها وقف عليه بلنت من معلومات أثناء مسعاه لاوصول إلى تحقيق عادل والنجاح لخاتم إنجليزى بالدفاع عن عرابى ، أن الحكومة الأنجلزية نفسها

(١) S. I. B' P. 327

(م - ٣٣)

كانت ترى إلى التخلص من عرابي بالموت على أن يأني ذلك على يد توفيق ، وما أسلم عرابي إلى السلطات المصرية إلا لهذا الفرض ، ولنأت بهذه القصة ، قصة محاولات بذلت على سردها ...

يقول بذلت إن أخو福 ما كان يخافه بعد هزيمة عرابي أن يعمد جلاستون إلى تعطيلية مذبحه التل الكبير وذلك بأن يجعل عرابياً كبيش الفداء عن هذه الخطيئة فيقتله ويجد ما يعتذر به عن ذلك فيما يزعمه من أنه قصاص عادل من ناشر عاص لا يمكن أن يعامل معاملة زعيم وطني أو قائد جيوش نظامية ...

وبعد أن أورد بذلت ما علمه عن اعتزام ولسيلى الذى أشرنا إليه وعن موقف السير چون أداى قال « وكان جلاستون مصمماً على هذا الاتجاه تصميم جرانفل أو أى شخص آخر من لوردات الهوى في مجلس الوزراء ». ثم ذكر بذلت أن برایت الوزير الذى استقال محتجًا على ضرب الأسكندرية قد أسمى جلاستون احتجاجه على هذه النية التي تنبئها الحكومة وأن الضغط الشديد من جانب الرأى العام البريطانى هو الذى صرف الحكومة الأنجلزية عن أن تجعل عرابياً يؤدى بحياته الفداء عن جريمتها السياسية ...

واستعمل بذلت صديقاً له من رجال الصحافة هو مستر بتن مراسل جريدة التيمس وبحسن مسامي هذا الصديق نشرت التيمس أنه لن يعمد عرابي أو أحد من رفقاء إلا بعد موافقة الحكومة الأنجلزية وأنه سوف يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم على يد محامٍ كفء .

وتوصل بذلت بهذا إلى أن يضع الحكومة الأنجلزية ، كما قال ، في نظر الرأى العام فوضع كريم بحيث يصعب عليها أن تتراجع عن عمل إنساني نسب إليها ... ثم زار بذلت مستر برودل في بيته في التاسع عشر من سبتمبر أى بعد التل الكبير بسبعة أيام وكان لايزال عرابي في معقله بعابدين ، واتفق معه على أن يكون هو محامي القضية وجعل له أجراً على ذلك ثمانمائة جنيه غير ما يلزم من مصاريف ... وكتب بذلت في نفس اليوم عملاً بمشورة برودل كتاباً مطولاً إلى جلاستون

وكان مما ذكره فيه أنه يخشى من عدة أمور في التحقيق مع عربى فأعضاء المحكمة العسكرية لابد أن ينحازوا إلى الخديو، وإذا فرض أنهم لن يفعلوا ذلك فإن الشهود من الوطنيين سيؤدون أقوالهم تحت تأثير الخوف، وسيتمد الكثيرون إلى التزوير أما الشهود من الأوروبيين فسيتكمرون عن صفن وحقيقة، وسيكون المندوب الأنجلizi نفسه في لجنة التحقيق تحت تأثير الاتجاه السياسى الذى يتسلط الآن على الموقف فى القاهرة؛ وإذا أضيف إلى المحكمة العسكرية ضباط من الأنجلizi كما نأمل أن يحصل، فإن جهلهم باللغة العربية سيحول بينهم وبين تتبع أقوال الشهود وسيكون اعتمادهم على الترجمة الذين لا يؤمنون بجانبهم ... وبناء على ذلك فإنه لن تتحقق العدالة ما لم تتبع خطوات خاصة نحو هذا الفرض ...

ثم ذكر بذلك أن العلاج الذى يراه هو أن يسمح بأن يدافع عن التهمين عام إنجلizi كفء ، وأن يصبح به بذلك إلى مصر ليجمع له المعلومات ، وأن يرافقهما صابونجى الذى يجيد عدة لغات منها العربية والإنجليزية ، والذى يمرف الكثير عن أحوال التهمين وأشخاصهم ... واختتم كتابه بوعده منه لا يتدخل فى السياسية أثناء ذلك وأفصح عن عظيم رجائه أن ينال مفترحه قبولًا لدى جلادستون وأن يأتيه منه رد سريع على كتابه ...

وتنقى بذلك رداً من دوننج ستريت فى الثانى والعشرين من سبتمبر مؤداته أن جلادستونقرأ كتابه ، وكل ما يستطيع قوله فى الوقت الحاضر أنه سوف يعرض هذا الكتاب على اللورد جرانفل ليرى فيه رأيه كى يشاوره فيه ، ولكنه لا يمكنه أن يؤكّد أنه سوف ينتهي به الأمر إلى القبول ...

وكتب بذلك إلى عربى كتاباً فى الثانى والعشرين من سبتمبر يقول له فيه أنه خليل أن يدرك وهو الجندي الوطنى لماذا لم يكتب له أثناء الحرب ، ثم ذكر له أنه وقد انقضت الحرب سوف يرى أن صداقته له أعظم من أن تكون كلاماً فحسب ، وينبئه بما أخذ من خطوات فى سبيل الدفاع عنه ويطلب إليه أن يرسل تقوياً بذلك إلى محاميه الذى أكتب عدد من العملية الأحرار فى دفع أجوره ،

ويؤكده أنه سوف يمني بأمرته أثناء اعتقاله ، ويدعوه الله أن يهب الشجاعة
ويكون في عونه ...

وأرسل بنته كتابه هذا إلى صديقه عن طريق السير إدوارد مال ، ولكن
ما كان أشد أسفه وألمه ، إذ رد مال إليه ذلك الكتاب مشفوعاً بكلمة قصيرة
جافة مؤادها أنه يفعل ذلك بأمر الحكومة الأنجلizية ؟ ويقول بنته إنه ليس
أدلة على ما كانت تنوى الحكومة أن تفعل بعرابي وأصحابه من هذا الذي صنعه مال
وسافر برودل إلى تونس وقد طال انتظاره البت في الأمر ، ورأى بنته أن
يبقى في إنجلترا حتى يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه في مصر لن يظفر بشيء مما يريد
ما لم يكن لديه ما يشق به طريقه من سلطة يحصل عليها من الحكومة الأنجلizية ...
وزاد لفط الصحف بتوقع الحكم على عرابي بالموت ولم يرتفع بالاحتجاج على
ذلك إلا أصوات خافتة ضئيلة ؛ وتلقى بنته من صدق إنجلزى من ذوى المكانة
بالمقاهرة كتاباً يقول فيه « إن أشك أكب الشك في أنه سوف يسمح بشيء من
قبيل التحقيق العادل فإنهم يعلمون حق العلم أنهم إن فعلوا ذلك أدى إلى إدانتهم
هم ، وإن رجال السياسة أشد مكرًا من أن يدفعهم أحد إلى شيء من هذا القبيل ،
وعلى أيه حال فأنا على حق في محاولتك الوصول إلى تحقيق عادل » .

ولم يجد بنته مناصًا من أن يكتب ثانية في السابع والعشرين من سبتمبر
إلى جلاستون يسأله عن مصير كتابه الأول وعن رأيه ورأى جرانفل في الأمر
بعد تشاورها ، ويشكوا إليه مما فعل مال من رد كتابه إلى عرابي إليه وينبهه أنه
انفق فعلاً مع أحد المحامين النابحين لهذا الفرض ؟ وأنهقرأ في جريدة التيمس برقية
من القاهرة مؤادها أن المحكمة العسكرية سوف تعقد غداً وأن الخديو وشريفاً
ورياتا يصررون بشدة على أن الفرورة القصوى تقضي بالحكم بالموت على زعماء
ال مجرمين ، ويقول شريف باشا وهو من أشهر بسماحة خلقه إنه يرى ذلك لأنه
يحمل أي ضئن لهم ولكن لأنه أمر حتى كي يضمن الأمن لـ كل من يريد أن

يعيش في هذه البلاد ؟ واختتم بذلت كتابه الثاني بقوله إن إلحاح الضرورة هو
ما يجعله يرجو رداً عاجلاً ...

ولكن هذا الكتاب الثاني لم يصل جلادستون في موعده وذلك لسفره إلى
خارج لندن ، وقد أحاله الوظيف القائم على شؤون رسائله إلى وزارة الخارجية ،
وكتب إلى بذلت يخبره أنه سوف يتلقى ردًا رسميًا من جرانفلل بما قرأت وفهم
بذلت من ذلك أن جلادستون خرج عن لا ونم بأحواله الأمر إلى جرانفلل ؛ ولم
يتلق من جرانفلل شيئاً إذ كان هذا كذلك خارج لندن ؟ ولكن ما لبث أن أبلغه
أحد الموظفين أن اللورد جرانفلل اطلع على كتابيه وأنه يأسف لا يستطيع الدخول
معه في مراسلات بشأن هذا الموضوع ...

وهكذا ذهبت محاولات بذلت عبثاً ، ولكن اليأس لم يذل منه ، فقد ظل
ما نشرته التيمس يلزم الحكومة أدبياً ، ولذلك عاد بذلت يستعين صديقه بن
ووedo بن وقد كانت له مكانة ممتازة لدى شعرى رئيس تحرير التيمس ، بأن ينشر
ثانية ما يفيد قضية بذلت وأن يلح حتى يحمل اللورد جرانفلل على الاتجاه صوب
تحقيق عادل مع عربي وأصحابه .

وعول بذلت على أن يبرق إلى رودلى في تونس ليكون على أهبة للسفر إلى
الفاخرة ، وطفق يبحث عن حمام آخر يسبق بذلت إلى مصر ليعمل باسمه حتى
يحضر فوج على رجل هو خير من يهض بهذا الأمر وذلك هو مارك نايبير ، فقد
كان نايبير لباقاً ذا همة وعزز بهم الأعيب السياسة كما كان ضليعاً في القانون يجيد
اللغة الفرنسية ومحسن المجادلة والمحاصرة ...

وسافر نايبير ليطلب إلى مالت السماح له بالاتصال بعرابي بصفته محامييه ؛ وقد
طلّ إليه بذلت أن يحتاج ما وسعه الاحتجاج إذا رفض مالت طلبه وألا يدع وسيلة
لأنباء هذا الرفض إلا سلكها ؟ وكان نايبير خفيفاً إلى غايتها ليس في يده
إلا حقيقة صغيرة كانت كل متاعه ...

أما بذلت فقد صمم أن يستألف المركبة في وزارة الخارجية وفي الصحف ، وقد

نفي إليه أن خطة الخديو وحكومته هي أن يقدم المتهمون إلى محكمة مصرية تنظر في أمرهم في مدى يومين ثم تقضي بأعدامهم وقد تبين لها أنهم عصاة ، وألا يسمح لهم من الأنجليز بالدفاع عنهم لأن هذا يعد تدخلاً من الأجانب لا يُسمح به في الوضع التشربي للبلاد .

وما زال أحد اللوردات من أصدقائه بذلك وهو اللورد دي لاورر حتى حصل من جرائف على تصريح يؤكد به أن الخديو سوف يتيح كل فرصة معقولة للدفاع عن المتهمين ؛ وهو تصريح مهم لا يفيد المرء منه شيئاً ، ولكن بين لمب دور الصحف اللبق فنشر في التيمس ما يأتي : « كتب اللورد جرافل بأن يمنع انسجناه في مصر وأصدقاؤهم كل ما من شأنه أن ييسر لهم الوصول إلى محامين يدافعون عنهم » وغضب جرافل مما كتبته التيمس ولكنه لم يستطع أن يتراجع فيكشف سياسة وسياسة حكومته ، فاضطر إلى السكت الذي هو نوع من الرضا ... وقد رأى بذلك أنه كسب المعركة على هذه الصورة بوسيلة هينة ...

وأبرق بذلك إلى برودل ليسفر إلى القاهرة في الحال ؛ وأنجها نية الحكومة الأنجلizية إلى إنجاز المحاكمة في سرعة لتم قبل أن يصل برودل إلى القاهرة ، ولم يكن لديها علم بنايير واشتراكه في الدفاع ...

وأسدرت الأوامر بنقل عرابي من معتقل الجيش البريطاني إلى السلطات المصرية ، حيث تحول بينه حكومة الخديو وبين آية صلة بالعالم خارج السجن وتكون الحكومة الأنجلizية بعيدة بذلك عن اللوم ، ثم أوعز إلى الحكومة المصرية أن تعلن أنه لن يسمح لأحد بالمرافقة إلا باللغة العربية ...

واختارت الحكومة الأنجلizية رجلين ليثلاهما في التحقيق هما السير شارلر ولسن والستر بيان ، وكانا كلاهما صديقين بذلك وبشهاد بذلك أنهما من ذوى الضمائر الحية والقلوب الرقيقة وأن اختيارهما كان من المصادرات الطيبة .

ولم يغفل نامير من مالت بأكثـر من اعترافه بشرعية موقفه كمحام عن عرابي وأصحابه ؟ وظل يطلب منه السماح له بمقابلة عرابي في غير جدوـي إذ كان يحيـله

على رياض باشا ، وكان رياض يعاتل ويراجع حتى أدرك ناپير أنه يبعث به ، ثم رأى الحكومة المصرية تستجح التحقيق كي يتم قبل أن يبت في مسألة قبول الحامين الأنجليز ...

وكتب بلهت كتاباً إلى جلاستون يحمل فيه على جرانشل وسياسة ويدرك
جلاستون بعطفه ذات يوم على زعيم الحركة القومية في مصر ، ويشير إلى تبعه
الحكومة البريطانية فيما ينوي الخدو عمله في المحاكمة ...

وطلعت النيمس صباح الجمعة ومقامها الافتتاحي يدور حول هذه المسألة
وذكرت أن المحاكمة سوف تكون يوم السبت وأن الحكم سوف يصدر يوم
الاثنين وأن إعدام عرابي سيعقب الحكم مباشرة ، فأيقظت الرأي العام ونبهت
شموره في صورة أهمها جلادستون وحكومته أشد الاهتمام ...

وذهب الوزير المستقيل الحر مستر برايت وأفضى شخصياً إلى جلاستونبرأيه وصارحه بأنه سوف يقرن اسمه بالعار في صفحات التاريخ لأنحرافه عن مبادئه الإنسانية بأفواره مثل هذه الحريمة الكبيرة ...

وكلت مسامي بلفت بالنجاح إذ لم يجد جرانفل بدأً من أن يرق إلى مالت بقرار الحكومة الأنجلزية القاضي بالسماح ب الدفاع إنجلزى عن المتهمن ...

وقد عقب بذلت على قصة سعيه بقوله «لقد وجدت الضرورة تقتضي أن أفصل قصة محاكمة عرابي ، وذلك لأنّه بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن أقفى على تلك الأسطورة السخيفية الكاذبة التي نجحت في مصر ومؤداتها أنه كان هناك من أول الأمر شيء من التفاهم السرى بين جلاستان وعرابى على حفظ حياته ؟ وإن لاستطاع

أن أؤكد أن جلادستون قد بلغ من بعده عن الرثاء الحال «كبير المصا» أو تفاصيل وإيه على أي صورة ما أنه قد احمد مع جرانفل في العمل على موته وذلك بأيدي أعون الخديو المتأهبين لهذا العمل ، بعد محاكمة صورية ، من شأنها لا تثير أسئلة ؟ وبهذا يتحقق لها أضمن وسيلة وأسرعها لوصول إلى السكون ولتبرير اختلطهما الأدبية الهائلة أتفاء الأشهر الستة الأخيرة في مصر . ولم يكن تأثر جلادستون هو الذي منعه عن السير في خطته إلى النهاية ؛ ولكن الذي منعه عن ذلك هو صوت الرأي العام للمفاجيء الذي أخافه وأنذرته أن في ذلك خطراً على ما ذهب له من الصيت وهذه هي حقيقة المسألة في بساطتها ، مهما بلغ ما يضيقه إليها الداقعون عن جلادستون وعن سمعته الإنسانية ، ومهما يكن من خيال كتاب فرنسا السياسيين الذين أرادوا أن يجعلوا سبباً لتسامح مستر جلادستون حيال عرابي بعد الحرب فلم يجد للمسألة عندهم وجه مفهوم إلا أن يكون هناك تفاصيل سرى سابق بين رئيس الوزارة البريطانية وزعيم الثورة المصرية »^(١) .

بلغ ناپير القاهرة في السابع من آكتوبر أى بعد نقل عرابي إلى سجن الدائرة السنوية يومين ؛ وفي القاهرة أشرك ناپير معه أحد رجال القانون من أصدقائه المشتغلين بالاستشارات القضائية ويدعى المستر ريتشارد إيف ، وظل ناپير يسمى سعيه لدى مالت كاذكينا عدة أيام دون أن يظفر بشيء سوى أنه كان يحيله على رياض باشا ...

وحاول ناپير أن يظفر بشيء من السير شارل ولسن ولكن هذا كان يحيله كذلك على رياض باشا ؛ وتخلاص منه رياض باشا بقوله إنه سوف يتصل بالسير إدوارد مالت .

وقدم ناپير مذكرة كتبها صديقه إيف ، إلى رياض باشا يطلب فيها إيف بصفته مستشار عرابي باشا أن يسمح له بالاتصال به في سجنه ليتحقق معه على أوجه

الدفاع عنه في التهم المنسوبة إليه؛ ولكن رياض لم يرد على هذه المذكرة؛ وذكر لها السير إدوارد مالت أن رياضًا لن يقبل إلا محامين وطنين وأنه سيحصل بوزارة الخارجية يسألها عما إذا كان لديها تعلمات أخرى ...

وكتب نايبير احتجاجاً على منعه من الاتصال بعرابي وعلى موقف رياض باشا منه على الرغم من أنه أعلنه صراراً أنه قدم للدفاع عن عرابي ، وعلى عدم إخبار عرابي حتى ذلك الوقت بمحض حمam للدفاع عنه ...

وفي الرابع عشر من أكتوبر جاءها السير شارلز ولسن بالنبأ السار ألا وهو السماح لها بالدفاع عن عرابي وقرب مقابلتهما إياه وكتباً من فورها طلباً قدماء إلى رياض باشا ليدخلان على عرابي ، ولكن ولسن ما لبث أن جاءها مرة ثانية يخبرها بأن الحكومة المصرية عدت عن موافقتها

وفي اليوم التالي علماً أن مجلس الوزراء المصري انعقد بضع ساعات وأنه يؤثر الاستقالة على السماح لها بالدفاع عن عرابي وأصحابه ...

وذهبوا إلى مالت واليأس ملء نفسهما فأخبرها بأن التحقيق لن يبدأ إلا بعد أن يريا عربياً والمهمن وأنه سوف يسمح لها بالوقت الكاف لأعداد دفاعها عنه . وفي الثامن عشر من أكتوبر بلغ برودل القاهرة وسمع من نايبير هذه الأنباء وأعجب بنشاطه ونشاط صاحبه وأثنى على حسن معاملتها ...

وفي الحادي والعشرين من أكتوبر أرسل السير شارلز ولسن رقمية صغيرة إلى برودل جاء فيها هذه العبارة « اسْمَحْ لِي أَقْدُمْ إِلَيْكَ بِمَحْلِ عَرَابِيِّ بَاشَا » وشكراً محمد بن عرابي باشا إلى مستر برودل ما تلقاه أسرته وزوجته من سوء المعاملة والأهانة وبخاصة منذ أن نقل عرابي باشا إلى سجنه الحالى بالدائرة السنية ، ولكن محمد ما لبث أن طلب نفساً حين علم أن برودل وصاحبيه ذاهبون من فورهم إلى لقاء أبيه في سجنه توطيئة للدفاع عنه ، ولم يستطع الفتى أن يحبس دممه من الفرح ...

ودخل المحمون على عرابي يصحح لهم السير شارل ولسن ، يقول برودل « ولما
أن ظهر الكيرنل ولسن نهض رجل طويل قوى البنية من فوق سجادة كان
يجلس عليها في ركن إلى جوار النافذة وأقبل يحييه ... وقدمنا إلى عرابي وطلب
السير ولسن منضدة وبعض الكرامى ... وبعد أن انصرف السير شارل ولسن
قدمت إليه كتاباً من المستر بلنت أحضره معه المستر نايير واستأذنا في قراءته ..
وينما كان يفعل ذلك أتيحت لي فرصة نادرة لأدرس وجه رجل هو ملء أنساع
أوروبا كلها ؛ ورأيت أنه في حال سكونه ترسم على حياه تقطيعية ثابتة ويخاطلها
عبوس فيليقين في روع المرء الشعور بما لصاحبه من جهامة ؛ ولكن لم ألبث
أن وجدت أن ذلك يرد إلى التفكير الطويل العميق أكثر مما يرد إلى الجفاه أو
عنف المزاج ؛ ولقد جعل اعتقاد عرابي التفكير الدائم عدداً كبيراً من الناس أعداء
له وهو لا يحكمون على الأمور بظواهرها .. فإذا انهل حياه كان التغير الذى
يطرأ على وجهه من العجب بحيث يصعب عليك أن تتبعه أنه الرجل نفسه ؛ وإن
عينيه لحققتان بالذكاء ، وإن في ابتسامته لكثيراً من الجاذبية ؛ ويرى حياه أرق
من حياء ابنه ولكن أنفه الأفطس الذى يبلع في ذلك حدّاً كبيراً وشفتيه البالغتين
الفاظ يحولان دون أن أصفه بالملاحة ... ويزيد طوله عن ستة أقدام ويتناسب
عرضه مع هذا الطول ؛ وقد تغير منظره مادياً أثناء وجوده في السجن وذلك
بطلاق حياته الشهباء ؛ ويدور حول ممسمه وشم أزرق على عادة الفلاحين ، ولا
يدع من يده مسبحته السوداء الصغيرة إلا نادراً ويدبر حباتها بين أصابعه أثناء
الحديث ؛ وقد انقسمت شيئاً فشيئاً سحب القلق الذى أحاطت به وكاد يعود إلى
 بشاشته قبل أن تنتهي مدة سجنه
وكان عرابي يلتسم غالباً أثناء قراءته كتاب المستر بلنت وكان يرفع يده إلى
جيئنه علامة الشكران وعرفان الجليل وكانت هذه العادة التى تظهر من عرابي في
تناول رسائله تروعنى دائمًا بما تم عليه بصورة خاصة من كرم السجية ؛ وكانت
وداعته على الصورة الخاصة به توثر دائمًا فيمن لهم به صلة .

وبعد أن فرغ عرابي من قراءة الكتاب استأذنني أن يستعمل المداد والأقلام التي أحضرناها معنا ليكتب كلمة شكر للMASTER بلنت وزوجته ؛ ولما فرغ من ذلك أشار عليه المستر إيف أن يكتب توكيلاً للMASTER نايمير ولن تكون محامييه ؛ وقد أجاب هذا الطلب في الحال و ختم على التوكيل بخاتمه .. ثم سألت عرابي أن يشق علينا كل الثقة وأن يتكلم في غير تحفظ عما يدافع به عن نفسه ، فكان أول ما ذكره - وذلك كما فعل من قبله كثير من القواد غيره من فاتهم التجاج - أنه وضع سيفه وشرفه بين يدي الجنرال لو وقد فعل ذلك واتفقاً كل الثقة أن أعداءه في الميدان لا خصومه السياسيين هم الذين سوف يكونون قصاته .. وقال إنه حفظ النظام ، وراعى أصول الحرب عند الأمم المتقدمة وعامل سجناء بالرفق والانسانية . وحق له في الواقع أن يطلب أن يعامل معاملة خيراً مما لقى على أيدينا ؛ أو ليس في جميئنا اليوم إليه على الرغم من أعدائه ما يدل على أنه لم يكن مخطئاً من جميع أقطاره ؟ لقد قاد المصريين في جهادهم من أجل الحرية ، وقطع شوطاً في طريق التجاج قبل أن توقف جنودنا تقدمه ثم تحطمت مطاحنه التي كان يظهرها للملائكة الأمة كلهما وذلك بهزيعته في التل الكبير ثم سحقها سحقاً لا أمل معه ما أعقبها من قسوة الأتراك والشراكسة ..

وقال عرابي « إنكم إذا بحثتم فسوف تجدون أن مصر كلها كانت إلى جانبى وسوف يمكنكم إقامة الدليل على ذلك فكانت تؤيدنى عائلة الخديو ورجالها القدامى الباقون من عهد محمد على ، كما كان يؤيدنى العلماء والجيش وال فلاجحون ؛ ولكن في حالتنا الراهنة من القبض والسبعين والأرهاب من يعترف بي الآن ؟ إنى لن أُعجب إذا أنكرتني أولادى أنفسهم تلقوا وجهى إذا مثلوا أمام لجنة التحقيق » ...

وذكر عرابي مالحظه في سجنه قائلاً إنه إذا كان يعامل هذه المعاملة فذا عسى أن يبق لأتباعه وبخاصة الطبقة المقواضمة من أمل ؟ ثم ذكر أن أتباعه في طول البلاد وعرضها قد ألقى بهم في السجون ، وأن كل من يعرف هذه البلاد يدرك ما يمكن لهذا من تأثير في عقول الناس ؛ ولقد استجوبته المجندة ولكن

لم يكن له حيلة إزاء ما سمعته أدلة ذكرتها ؛ وإنه ليخاف مما رأى أن يجبن أقوى
أتباعه جناناً من أمثال محمود سامي ويعقوب سامي وذلك لما يرون من تعذيب أدي
وبدنى ولما يحسونه من عجز في وضعهم الحالى ..

وفما يتصل بسلوكه هو فأنه يحسب أن لديه دفاعاً جيداً عنه ، وقال «إن أفسمه
السمين ، ما حدث قبل ١١ يوليو وما حدث بعده ؛ ولن أعد عاصيًّا في هذا ولا ذاك .
فلقد وافق الخديو على رأينا في وجوب الرد على نيران الأنجلتراز وعبر السلطان مرات
عن رضائه عن أعمالى . وبعده ذلك أصبح الخديو أسيراً عندكم ، وبقيت أنا أنفذ
أوامر مجلس الوزراء التي أيدتها الأمة كلها وأكسبتها مشروعيتها والتي ظل
السلطان يقرها ؛ وإذا كان الخديو والسلطان رئيسى فإنى أكون عدوألكم ولكنى
لن أكون عاصيًّا لهم . وإنى آمل أن أستطيع إقامة المحجة على ما أقول ولست
أخاف شيئاً طالما أنه لم تكن لي صلة بفتنة الأسكندرية في يوليو ولا بما أعقب ضربها
من تخريب ونهب »

ووعد عرابى أنه حالياً يستطيع مقابلة ابنه سوف يمدنا بما يفيد قضيته من
أوراق ؛ وقال إنه يتوق إلى أن يضم بين أيدينا تعليمات تتصل بالدفاع عنه ولا ينقصه
إلا أن يسمح له ببعض أدوات الكتابة ..

وأوضح عرابى عن أمره إلا ننسى إخوانه السجناء حتى ولو وجدناهم أجبروا
على أن يرمون بالتهم أو يشركون بهم فيما يتهمون به وكل ما طلبه فيما يتصل
بالسجن هو أن يسمح له بالنور ليعمل ليلاً ، وأن يسمح لخادمه بأحضار الطعام
إليه حتى مكانه ؟ ثم شرح لنا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى ما يتعرض له الطعام
من خطر بمروده بين أيدي الحراس الشراكسة ، وقص علينا كيف أوشك صديقه
عبد العال أن يموت مسموماً في مرحلة مبكرة من مراحل الحرارة القومية ؛ ولهذا
ليس مما يدعو إلى العجب في مثل هذه الظروف أن يطلب إلينا عرابى أن يوضع
حراس من الأنجلتراز داخل السجن كاً يوضئون خارجه .

وغادرنا السجن وفي نفوسنا شعور طيب جداً ركز فيها حديث موكانا

ذى الصيت الذائع وما رأيناه من ثباته وتجمله . »^(١)

هذا ما ذكره برودل عن عربابي في سجنه والحق إنه لما يدعو إلى الأعجاب بزعيم الحركة القومية ، ولكن يروقنا هذا الوفاء الذي يتجلّى في توصيته بأخوانه حتى ولو آذوه وذلك مع ما هو فيه من محنة ، وهكذا شأن عظاء النفوس وأحرار الشمايل ...

ولقد أثني بلنت على شجاعته وقوّة روحه وحرصه على كرامته قائلاً إنه كان يمتاز إلى درجة عالية بالشجاعة الأدبية وأن الفرق كان عظياً بينه في تجمله وثباته وبين أكثر الذين سجنوا مثله ، ولم تخيب قط شجاعته في أن تحمل على الأعجاب به كل من رآه ؛ وذكر بلنت من أدلة شجاعته ما كتبه بلا تردد في سجنه من تقرير أثبت فيه تاريخ الحركة القومية في صراحة وأسلوب أخذ

ولقد جاء في هذا التقرير ما يدل حقيقةً على إباء نفسه وشجاعته روحه وعلى أنه فطر على الشم والقوة ، ومن أمثله ذلك قوله « دخل الخديو الأسكندرية وأسلم نفسه وقد أخلت المدينة من الجيش ومن الناس ، ولم يكن تبعاً لقوانيننا مما يليق بحاكم أمة ولا مما يُسمح به أن يفعل ذلك فينحاز إلى أمة تختار بنا ، أمة عقد هو نفسه المزم في مجلس موقر على مقاومتها ؛ وإن قانون الإنسان وإن كلمة الله ليهيان عن هذه الأعمال المادمة للشرف . ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلماً ولا أن يحكم فريقاً من المسلمين »

وقوله عن الحرب إنه يدهش كيف أن دولة عظيمة الصيت كأنجلترا تقول إنها صديقة الإنسانية وأنها تحرر العبيد وتحترم القوانين التي تبين الحق من الباطل ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة أمة كل جرائمها أنها قاتلت حاكها حين رأته لا يحترم قانون شعبه ولا حقوق هذا الشعب »

ومن أدلة شجاعته كذلك في هذا التقرير ذكره ما لقاه من إهانة في سجنه

وتفقيبه على ذلك بما أشرنا إليه من قوله إن هذا يصرخ في وجه الشرف البريطاني
وفي وجه كل إنجليزي ...

وهذا التقرير تلخيص أمين حسن السياق للحركة القومية وأطوارها وال الحرب
وأدوارها ، وقد كتبه عرابي في سجنه مع ما كان يحيط به من آلام وبغير أن
يرجم إلى كتاب أو مذكرة وفي ذلك برهان قوى على خصوبة ذهنه وحسن إمامته
بما يجري حوله ...

وبعد فهذه قصة الدفاع عن عرابي بسطها صفحات مشرفة ونقد بها على
باطل الذين يكتبون التاريخ بلا علم والذين يكتبون عن هوى فيقولون كيف
يليق بزعم وطنى أن يدافع عنه محاميان إنجليزيان . فهل غاب عن هؤلاء صفة
الحكمة العسكرية التي أفت لما كتبه وهل غاب عنهم ما كان يريد توفيق ورياض
به في غير وازع من ضمير أو رادع من قانون ؟ أم أنهم يعلمون ذلك ومع علمهم
هذا يطلبون من الرجل أن يسلم نفسه إلى من يريد قتله بأى ثمن فلا يدافع عن
نفسه دفاعاً ينفرد به شرفه حتى ولو لم ينفرد به حياته ؟ وإذا قيس الله له هذا الدفاع
على يد صديق مد له يد الموتة في حنته ، أكانوا يريدون منه أن يرفضه ؟ وأن
كان يجد عرابي الدفاع الوطنى عنه ؟ أكان يجرؤ أحد من المصريين حتى على أداء
الشهادة الحق عنه وسيف الطفيان مسلط على الأعناق ؟ وأين هم المصريون ومنهم
ثلاثون ألفاً في السجون ؟

الحق أنتا في حيرة مما يقول هؤلاء الجاهلون والمفترضون وفي عجب كيف لم
يدعوا ناحية من حياة عرابي إلا شوهوها بالباطل ، وحاولوا طمس حقائقها باللغو ،
ولكن الباطل لا يعيش واللغو لا يجدى شيئاً ولن يموت الحق ولا مناص من
أن يظهر وإن طال احتجابه .

ومن أسف أنواع البتتان وأدلة على جهل هؤلاء الذين كتبوا عن
عرابى كتابة هوى وحدق ، قوله إن الأنجلiz كانوا يعطون عليه

وأن جلاستون كان يهم حياته؛ وأنه كتب في السجن يعلق الحكومة الأنجليزية وأن ذلك من أشد ما يعاب على زعيم وطني؛ ولن يترى هؤلاء له بالزعامة الوطنية إلا حين يتذمرون أن ينالوا منه بأفكارهم وما ينالون إلا من أنفسهم ولكن لا يشترون! ولقد بينا مبلغ ما بين أقوالهم هذه وبين الحق من بعد وفصلنا كيف آن للتاريخ أن ينصف عرائياً على الرغم من باطل هؤلاء البطلين وجهل هؤلاء الجاهلين ...

ويؤلمنا قبل أن ندع الكلام عن البطل السجين أن نشير إلى ما حل بيته وأهله، وهو من أشد الأدلة على ما بلغ بالطاغيين من روح الطغيان وعلى مبلغ ما هموا إليه من احتطاط في المخصوصة بل من بعد عن الإنسانية ...

كان أول ما شكا منه محمد أحمد عرابي إلى برودل ما يتعرض له هو وأمه وأسرته من إهانات متصلة على أيدي بعض خدم الخديو وأتباعه، وقد أشار إلى ذلك برودل كـ «أسلفنا عند كلامه على لقائه بجل عرابي

وذكر بذلك في صدد الكلام عن أوراق عرابي أن زوجته وأهله لم يسمحوا لحاميه ومن معه بالبحث عنها إلا بعد لائى وذلك لأنهم فيها كان يحيط بهم من إرهاب قد سبق لهم كذلك بعض «الزيارات» من جانب خدم الخديو وأعوانه. ويدرك برودل في كتابه ما يأتى: «عند دخولنا القاهرة كان قد تحطم آثار عرابي كله أثناء البحث عن أوراق ثبتت إداته وخياناته، وقد تمزقت الفرش والوسائل... وكانت قد طلبت اليدي سترانجفورد أن تأخذ المنزل وأعطتها الخديو إياه، ولست أدرى كيف استولى عليه؛ وكانت حجراته الفسيحة الرقيقة التي كانت قبل ذلك بثلاثة أشهر تزدحم بالمعجبين ملائمة كل الملامة لما استعملت فيه الآن» وكانت هذه السيدة قد أحالت بيت عرابي إلى مستشفى وقد امتلأ حجراته بالجرحى من ضباط الأنجليز وعساكرهم وما يدركه برودل أن بعض خصوم عرابي قد خوفوا هذه السيدة من قطة سوداء كبيرة ذات ذنب أبيض كانت لا تزال تنشى البيت كأنما تبحث عن سكانه السالفين؛ وكانوا يحدّثونها عما به

عرابي في المنزل من الأرواح الشريرة ، ولكن عرابياً وقد علم بذلك من برودل
أرسل إليها صورته وشكرها على عملها الإنساني قائلاً إنه ليس أحب إليه من أن
يستعمل بيته فيما استعمل فيه ...

وقالت أخت الخديو ذات مرة لصديقة من صديقات الليدى سترانجفورد : ليت
عرابياً يصبهه المرض فينقل إلى هذا المستشفى لمعطيه فجاناً من القهوة على
الطريقة الشرقية ...

وامتدت قسوة خصوم عرابي إلى المرضى والأطفال من المرضى ، فقد أصاب
المرض طفل له ، فلم يجرؤ طبيب وطفي على التقدم لعلاجه ؛ ونحب أن ينظر في هذا
الذين أنكروا منه أن يستعين بـحامين من الأنجلز ...

ولما صافت السبل بنجله محمد ، ذهب إلى مستر برودل وشكى إليه هذا
الامتناع ، وأرسل برودل إلى طبيب إنجلزي صديق كما أرسل ناير إلى طبيب
الليدى سترانجفورد ، فذهبا من فورهما لمعالجة الطفل وأدوا هذا العمل الإنساني
الذى أحجم عنه الأطباء المصريون فكان إيجازاً مثاراً للفط جديد من جانب
القصر إذ قال شيعة الخديو إن في ذلك دليلاً على أن عرابياً ليس بمحبه أحد .

أما الذين يشaimون عرابياً فقد رأوا كما يذكر برودل في هذا العمل دليلاً على
قسوة خصومه ... وتجادل الطيبان على صفحات الجريدة الطبية الأنجلزية فيمين
كان له مهماً شرف معالجة ابن عرابي وتحاصلها في ماهية المرض الذى ألم به .

واهتمت جريدة التيمس نفسها بالأمر فنشرت كملة بعنوان « طفل عرابي »
قالت فيها « ترى الصحفية الطبية الأنجلزية أن طفل عرابي الذى أصيب بمرض
قيل إنه خطير والذى أحجم الأطباء المصريون لأسباب سياسية عن معالجته مصاب
بهيج في الجلد وقد تبين ذلك بعد عرضه للعلاج على أطباء بريطانيين » .

ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف تصل القسوة ببعض بني الإنسان إلى حد
أن يجعلوا إمساف طفل مريضاً عملاً يجلب القصب على صاحبه ، ولو لا أن رأى

الأطباء المصريون ذلك ما أحجموا عن معالجة هذا الطفل السكين ؛ وفي هذه المسألة وحدها ما يكفي لبيان مبلغ ما كان يحيط بعرابي وأهل عرابي من اضطهاد ومبلغ ما كان يشيع في مصر كاما من إرهاب .

وهكذا يتذكر الناس أمران إلا الفلاحين والعاممة فقد كانت قلوبهم معه وإن لم يلكلوا له عوناً ، وكثيراً ما كانت تطوف جماعات منهم بسجنه ، يتطلعون ولا يتكلمون ولا يرون شيئاً إلا الحراس من الأنجلز ، فينصرفون وهم يدعون الله أن ينقذه من الموت ...

زاره ذات صباح مستر برودل فوجده في شغل بكتابه مذكرةه التي كان يكتبها في ثبات ويقين ونشاط : يقول مستر برودل « ثم وجه عرابي الحديث إلى خلاة قائلاً : أتحب أن أريك برهاناً على أن شعب مصر كان معى ؟ أنظر هنا . وأخذ بذراعي وقادني إلى نافذة فرأيت خلال نقوتها عدداً من النساء والصبية يسكون على الجانب الآخر من الشارع وكان زداد الازدحام شيئاً فشيئاً كل يوم حتى ليضطر الحراس إلى تشتيتهم ، ولم أر عرايا أكثر ضيقاً مما رأيته عند ذلك » ويقول برودل إن كثيراً من الأوروبيين كانوا يمطرون على عرابي في سجنه ، وقد أرسل محاميان ، أحدهما إنجلزي والثاني فرنسي إلى برودل يقرحان بعض أوجه الدفاع عنه ، وكانت سيدات أمريكيات يتنافسن ببنية الحصول على صورته وكن يرسلن إليه تحياتهن راجيات له الخلاص من أعدائه .

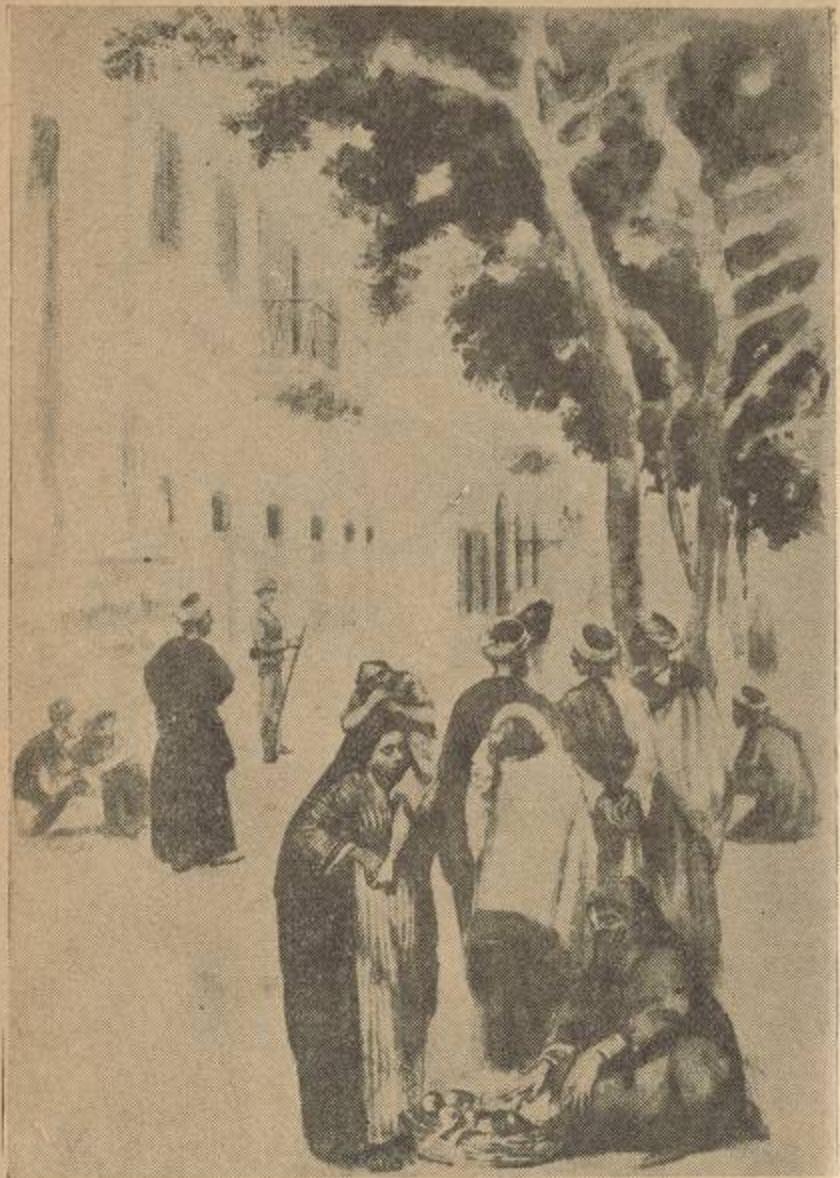
محضر المحبة

عقدت لجنة التحقيق أو القومسيون المخصوص كا كانت تسمى أولى جلساتها في اليوم العاشر من أكتوبر برئاسة إسماعيل أيوب باشا وبدأت أعمالها باستجواب أحد عراقي باشا ، وقد استغرق استجوابه ثمان جلسات وامتد بضعة أيام ؛ وكان مما ترید اللجنة أن تلصقه بعربي من التهم تدبيره مذبحة الأسكندرية ثم إحراقها بعد إطلاق مدفع الأسطول قذائفها على الطوابي ، وعدم صراعة القانون الحربي الخاص برفع الرأي البيضاء ، وعصيان الخديو ...

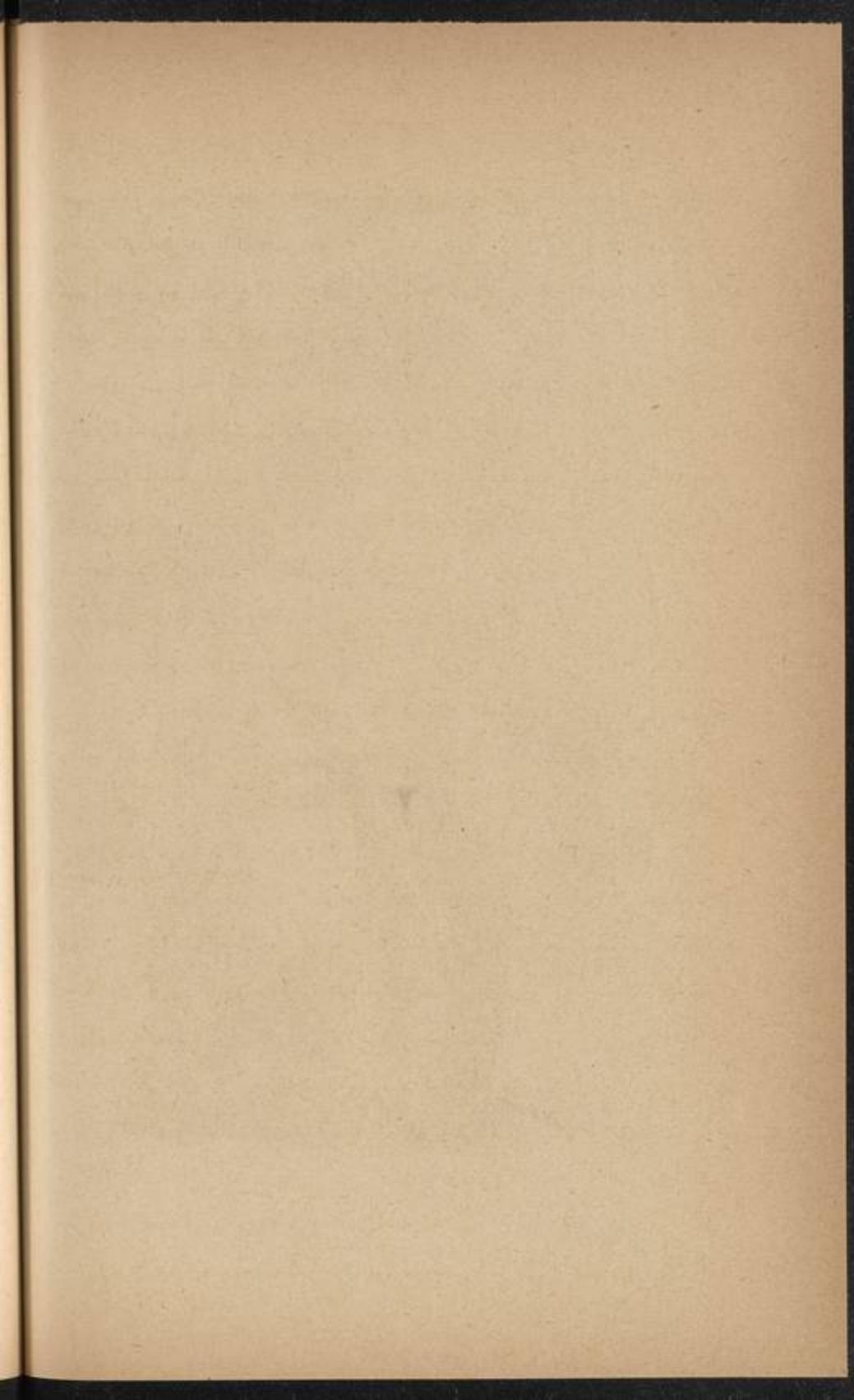
واستجوبته اللجنة أيام فلم تستطع أن تفهمه في مسألة واحدة ، وإن من يطلع على حاضر استجوابه ليزداد إعجاباً به وإدراكاً لحقيقة شخصيته ، فلم يتصل عراقي من حدث ، وترفع أن يكذب أو يداجي أو قل إنه بطبيعته لم يستطع أن يكذب هذا إلى حضور ذهنه وقوته بدمته ومتانة حجته وشجاعة قوله ، ولو لا أن هذه الحاضر تقع في قرابة مائة صفحة ما ترکنا منها كلة واحدة إلا أوردنها ، وقصارنا أن نلم بأهم ما جاء فيها ...

ناقشته اللجنة في الجلسة الأولى في مظلنته إلى رياض باشا بشأن عمان رفق فأجاب بالعلم يخرج عن كلامه وقت تقديم هذه المظلمة ، وكذلك كان الحال في إجابتة عن حادث قصر النيل وقال إن الخديو أصدر عفوه عما وقع فكان لم يكن ...

وسئل عن ذهابه بالجندي إلى قصر الخديو « ولماذا تجاسر على هذا الفعل المضاد للنظام العسكري » يوم عابدين ؟ فأجاب بقوله « إن الأسباب التي دعت لذلك هي عدم الأخذ بالعدل والمساواة في المعاملات شأن البلاد التي لم يكن فيها قوانين أوفتها ولم يراع فيها الأجراء على مقتضاه فلذلك اعتمد أعيان البلاد على أبنائهم رؤسائهم العسكرية ونافت أنفسهم إلى تشكيل مجلس نيابي بالبلاد يحفظ لهم حقوقهم ويدفع



(بعض المصريين حول سجن عرابي)



عنهما ما ألم بهم من المظالم ... فأجتمعوا أمرهم على ذلك وتحرر منهم بذلك عز الحالات
وختم عليها من نحو ألف نفس من عمد وأعيان وتجار وغيرهم ونحوهم من البطش
بهم أنايوبى مع إخوان الضباط فى عرض طلبائهم لكوننا إخوانهم وأبناءهم وهم
أهلوانا يضرنا ما يضرهم وينفعنا ما ينفعهم »

ووجهت إليه اللجنة سؤالاً في غاية السخف هذا نصه : « لو فرض أن
الحضرمة الخديوية لم تسلم بهذه الطلبات فإذا كان يحصل ؟ وما أحب وأغرب
أن يسأل المرء عن شيء لم يحدث ! وإن هذا في سخفه ليذكرنا بقصة الحجول
الذى سأل عروسه أحب إخوها التفاح ؟ فلما ذكره أن ليس لها من أخي عاد فسألها
« أقصد إذا كان لك أخي كان يحب التفاح ؟ »

ودر عرابى على لغو اللجنة بقوله : « لا زوم للفرض والتقدير لأننا واتفقون
بكرم الخديوى ووفاته بوعده » ..

وأتهمته اللجنة بأنه نادى مع المنادين بخلع الخديوى في اليوم التالي لسقوط
وزارة البارودى ، فانظر إلى إجابة هذا الرجل الذى رماه خصومه بالجنين قال « مما
توضّح يعلم أنه لشدة تأثير اللائحة المذكورة التي قبلها الجناب الخديوى ، ما كان يمكن
قبولها ولو أدى ذلك إلى خلع الخديوى وكانت أنا وكل الناس على هذا الرأى » ...
وسائل لماذا لم يغادر مصر مع علمه بقبول الخديوى اللائحة ، فأجاب في شجاعة
بقوله : « إن أفكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الأمة متعنتى من ذلك ،
وأما ما ذكر من لزوم موافقة النظار للحضرمة الخديوية لما لها من الامتيازات
الخصوصية فذلك لا يكون أمراً لازماً في الحكومات الشورية خصوصاً وأن
جنابه الكريم أوجب على نفسه جعل الحكومة شورية وأن يشتراك مع نظاره
ونواب البلاد في الرأى ؛ ولحرص النظار على تلك الامتيازات وما رأوا في قبول
تلك اللائحة من التدخل في الأمور الإدارية ومن الامتيازات المصرية لم يصر
قبولها كتقدم الإيضاح بالأجوبة السابقة » .

وسائل عن رفضه ما أشار به عليه درويش باشا من الذهاب إلى الآستانة

فقال : « قلت له إن أود ذلك بل هو أعظم شيء أمنناه ولكن لتعلق الناس بي
وازدحامهم على في كل وقت بحثت أنهم لا يمكنونني من تناول غذائي الذي هو
من ألزم لزومياً في المعيشة إلا بعشرة ، أخشى أن يحولوا بيني وبين ذلك إذا علم لهم
أني أريد السفر إلى خارج القطر لما يتوقعونه مما يتحقق بهم من الضرر في المستقبل
ويترتب على ذلك حدوث فتنية داخلية » .

وانتقلت الملجنة إلى مأساة الأسكندرية فاتهمت عرباً بأنه أرسل تعليمات إلى
وكيل الجمادية بإبعاد الشبهة عن الأهالي والمساكر وهذا ما يفهم منه أن الحادثة
« إما أن تكون بأمركم أو بتعليماتكم » ...

ونقى عراقي أن يكون حادث كهذا من تعليماته وهو الذي يحافظ على الأمن
حرساً على سمعة مصر ؟ وكان اتهام الملجنة ضعيفاً جداً في هذا الحادث فلم يجد لديها
إلا كتاباً من عراقي كان قد أرسله إلى وكيل الجمادية المتذبذب فيلجنة تحقيق ذلك
الحادث فتلته عليه وسألته هل له علم به وكيف يقول مع ذلك إنه لم يرسل تعليمات ؟
والذي يدعوا إلى الدهشة حقاً أن هذا الكتاب مما يصح أن يقدمه عراقي
دليلًا على براءته وهذا مما يدل على تحفظ الملجنة وأنها كانت تزيد مجرد الاتهام
لعلها أن الحكم في نهاية الأمر معروف ، فلم يكن الفرض الوصول إلى الحق
 وإنما هو تحقيق صوري خسب ...

وقد جاء في هذا الخطاب قول عراقي « ولا تقبلوا كل ما يقال في جانب
الوطنيين والحكومة من غير تدقيق وبحث طويل وتحقيق تعرفون صدقه وعدم
تصنيعه ولا تغلو بمحابيكم لأحد من أعضاء الملجنة خشية أن يخدعكم ويستعملكم
لأمر ظاهره الأصلاح وباطنه الفساد ... وأما ما يلزم للعراقة العمومية فيلزم أن
تلاحظوا البلد وأخبارها وتنتبهوا مما تسمعونه وترؤنه وتبادروا بأخبارنا أولاً
 فأولاً عن جميع الأعمال » .

وأجاب عراقي بقوله : « نعم صدر من هذا الجواب الذي هو عبارة عن
الأخذ بالحزم في إظهار الحقيقة والعمل بالحق وليس فيه ما يذكر عليه » ...

وسئل عن سبب إصراره على عدم إبطال التجهيزات بالطوابق وعدم امتثاله لأمر الخديو فقال « إنه على حسب العادة السنوية كان جاري ترميم بعض طوابق اسكندرية ولما ورد تلغراف من الحضرة السلطانية إلى الحضرة الخديوية بناء على تبليلفات سفير إنجلترا بالاسناد بأبطال إنشاء تجديد استحكامات اسكندرية إذ يهدى ذلك تهديداً للمراسك الحربية الأنجلزية ، وصدر أمر الخديو بذلك في الحال صار إبطال الترميمات وتعين من قزم من رجال المعاية لمشاهدة إبطال العمل » .

ومن أهم ما سُئل عنه في الجلسة سبب رفضه أمر الخديو وعدم مجبيته إلى الأسكندرية وتلى عليه كتاب الخديو الذي استدعايه فيه ، فأجاب عرائى في صراحة وشم قائلاً « إن الحرب التي حصلت لم يسبق لها مثيل إذ هي خارجة عن حد القياس حيث أن الحرب المذكورة ما صارت إجراؤها إلا بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من النظار والذوات الاختيارية تحت رئاسة الحضرة الخديوية بحضور أعضاء الوفد العثماني ، فكان إجراؤها على مقتضى الحق والقانون . ثم بعد خروج المساسك من اسكندرية توجه الجناب الخديو من سرای الرمل إلى داخل اسكندرية التي تركها أهلها والمساسك فلما بلغنا ذلك تحقق لنا أن انتقال جنابه العالى إلى الأسكندرية مع حصول المناوشات الحربية بين مقدمات المساسك المصرية والمساسك الأنجلزية إما أن يكون لأحدهما أسيراً وإما لأنحيازه إلى الطرف المحارب بلاده ، فمن أجل ذلك كتبنا لوكييل الجمادية يعقوب باشا سامي بما حصل للمشاورة مع رجال الحكومة في هذا الأمر الذي لم يسبق له مثيل .

وبناء على ذلك صار عقد اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والأمراء والعلماء وشیخ الاسلام والقاضی السيد السادات والسيد البکرى وأعيان التجار والعمد وغير ذلك تشاوروا فيما بينهم في هذا الأمر الذى دهم البلاد واستقر رأيهم جيئاً على إعطاء قرار بعدم استئناف أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الأعمال حيث أنه توجه للطرف المحارب للبلاد وعرضوا ذلك تلغرافياً للحضرة السلطانية ببيان أسماء الشاهدين من أعضاء ذلك المجتمع العام » .

وفي الجلسة الرابعة سُئل عن صلته بنديم وهل يعلم أنه سافر إلى الأسكندرية قبيل المذبح فأثار فيها الفتنة وعما كان يكتبه بجريدة « الطائف » وأجاب عرابي بأنه لم يعلم بأثارة الفتنة ولم يكن له أن يمنع نديعاً عن كتابة ما يشاء في جريدة وسئل عن سبب اختفاء حسن موسى العقاد فأجاب بقوله « بُوْخَذَ مِنْ هَذَا السُّؤَالْ أَنِّي أَسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَنْ غَابَ مِنَ النَّاسِ وَلَمْ يُوجَدْ ، مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِعَامُورٍ عَلَيْهِمْ وَلَا مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ »

وسيط عن صلته بحملم باشا وهل وصلت إليه من الأستاذة صورته «فأجاب بأنه
وصلته صورة منه وأن كثيراً من الناس وطنين وأجانب كانوا يرسلون إليه صورهم
ووجهت إليه الاجتنة هذا السؤال «لما كنت بـكفر الدوار هل صدر منك
تلغراف إلى كل من راشد باشا قومدان خط الشرق محمود فهمي باشا رئيس
أركان حرب بردم قنال السويس الملاجع وسد الترعة الخلوة ! »

وأجاب عرابي بقوله « التلفيرات التي تداوات بيني وبين المسوبي لسبس تعلن وتوكلد احترام قنال السويس ما دام على الحياد ولم تتخذ فيه أعمال حربية فلماية دخول المراكب الحربية الأنجلوأمريكية في قنال السويس وحصول القتال منها في نفس الأسماعيلية على العساكر التي كانت بجهة نفيشة كان قد حصل احترام القنال المذكور . ومن بعد ذلك حيث أخذ القنال المذكور ميدانًا للحرب ولانا الحق في كل ما يمكن إجراؤه من الأعمال الحربية ، إذ ذلك تحرر لرئيس أركان حرب محمود فهمي باشا بتلك الجهة بالأخذ ما يمكن إجراؤه من التدابير الحربية وسد الترعة الحلوة لما صار بإعلان الموسوي دى لسبس بأن الحالة الحربية جبرتنا على ذلك لعدم احترام الأنجلوأمريكيان لحياد القنال »

وسيئل عرابي عن المجلس العرف من شكله فلم يتفصل منه وقال إن الذى
شكله وكلاه النظارات بعواقبه
وأفهم ما ووجه إليه في الجلسة الخامسة أن ما سماه مساعدات من جانب الأمة
لم يكن إلا إجباراً لها على ذلك بالقوة فأجاب «قد قلت بأجوبي المتقدمة في هذا

الخصوص أنه لا يتصور أحد أصلاً حصول تهديدات بمجلس مؤلف من أعيان الأمة المصرية ورؤسائها وبنهاها يزيدون عن الأربعين نفس كاً أن المساعدات والتبرعات التي كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية لم تكن بهتهديدات أيضاً بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومن الناس من تبرع به بالله أجمع ابتعاد مرضاعة الله وغيره على الوطن ، ومنهم موسى بك مزار تبرع من ماله بثلاثة آلاف أردد غلال وثلاثين رأس من الخيل وألف ومائتي ثوب بفترة تبرعاً لمساعدة الجيش إذ أن الحرب الشرعية إما أن تكون بالنفس والمال أو بالمال فقط أو بالرأي ، ومنهم حميد بك أبوستيت تبرع بألف وخمسمائة أردد غلال ، ومن ضمن من تبرع وافتتح باب المساعدة دوائر العائلة الخديوية وفي مقدمة الجميع دائرة والدة الخديو السابق وأغلب الذوات تبرعوا أيضاً ، ولو استكشفت التلعرفات التي كانت ترد من جميع أهالي المديريات حتى من مديرية إسنا بدون واسطة مديرية لهم يعلم أن الأمة المصرية جميعها كانت محاربة بمالها ونفسها ، ورأيها متفق على ذلك ولو استكشفت قوائم التبرعات لعلم أنه لم يتأخر أحد من أولى الرياسة في المساعدة ، ومن ضمنهم دائرة سعادة خيرى باشا حالة كونه لم يشهد الحرب بل كان في الأسكندرية مع الخديو عند الأنجلترا ، ومن ضمنهم دائرة دولتو رياض باشا وغير هؤلاء ، أفك كل هذا كان جبراً عن جميع الناس ؟ ومن ذا الذي كان يخبرهم ؟

إن هذا الأمر حق تعرفه أهل المصادر الثاقبة والضمائر الحقة ؛ وأما الذين وجدوا مسجوني في القلمة فأظنهم لا يزيدون عن مائة نفس من أرباب الجنابيات المحكوم عليهم بالحبس ومحضرى من المديريات وأنه لم يصدر مني أصلاً أمر بسجن أحد في القلمة أو غيرها ، وأما طلب إبراهيم باشا أدهم فذلك مبني على ما حصل بطقططا بين مهاجرى أسكندرية وبين الأوروبيين ، كما أن شاكر باشا وغيره لم يكن عزفهم من المديريات التي كانوا بها إلا بأمر المجلس الأدارى لا بأمرى » .

وفي الجلسة السادسة اطلع عرابى على كتاب وقع عليه بأنه رئيس الحزب الوطنى وسألته الجنة سؤالاً يدل على تعسفها ولقولها قالت « تعلمون أنه بالملك

المنتظمة وجود الحضرة الخديوية بغير الحكومة ، لا يجوز وجود أحزاب حتى
تعضوا تلك المكاتبية بصفة رئيس الحزب الوطني فهل تصرح لكم من الحضرة الخديوية
 بذلك ؟ وإن كان لم يتصرح لكم فهو جمل نفسكم رئيساً لحزب داخل الحكومة
 لا يعد عصياناً ؟ ، وإن كنتم ترتكبون على عدم وجود وظيفة لكم وقت تحرير
 هذا الجواب أفالاً كان يمكن أن توضعوا في الأمساك ناظر الجمادية سابقاً كالجاري
 فيما رفتو من مأمورى الحكومة ؟ » ... وأجاب عرابى بقوله « من المعلوم
 بداهة أن مصر مأهولة بأجناس مختلفة وعناصر متعددة وكل عنصر منهم يعتبر
 نفسه حزباً كما أن أهل البلاد وهم حزب قائم بذاته يعتبر عند الآخرين منحطّاً
 عليهم ويطلقون عليه فقط فلاحين إذلا لهم وتحقيراً ، وأولئك هم الحزب الوطني
 وهم أهل البلاد حقيقة . وحيث أنهم أنابوني عليهم في طلب ما يكفل لهم الحرية في
 حفظ الحقوق وكنت أنا القائم بطلب ذلك ولم تكن لي صفة في الحكومة في ذلك
 الوقت فوضعت إمامي بذلك لساني من حق الرئاسة على الحزب الوطني ولما يكون
 ذلك أدعى لاجتناب ما يحمل بأمر الراحة العمومية كما هو واضح بالكتاب المذكور
 ولا يعد ذلك عصياناً لأن كل أمة من الأمم المتقدمة الراقية فيها أحزاب مختلفة
 قائمون بحفظ حرية بلادهم والمدافعة عن حقوقهم » .

وفي الجلسة السابعة وجه إليه السؤال الآتي : « قد وجد في الأوراق التي
ضبطت ورقة محمر فيها صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديو
لأسباب تمويهية مختلفة في تلك الصورة فها هي الورقة المذكورة اطلع عليها وأفاده»
ونفي عراقي معرفته بهذه الورقة وقرر أنها ليست بخطه وقال إنه ربما كانت
مع أحد الناس «وتركتها على الترابيزة التي عليها الأوراق»
وسألته المجنحة هذا السؤال «في مدة أيام سقوط وزارة محمود سامي كفتم
جارين تحرير محاضر بمنزلكم بعزل الخديو وجارين إحضار الأهالي والعلماء
لتختيمهم عليها بالجبر عنهم واستحضارهم لمنزلكم كان بواسطة ضابطين من
الآليات وأشخاص من مستخدمي الضابطية كما هو متضح من التحقيقات التي

جرت بهذا القوم سينون فأفيدوا عن أسباب ذلك «

أجاب عرابي « لما تقدمت اللائحة القدمة من فصلٍ دوليًّا للإنجليز وفرنسا وقبلها الخديو ولم تقبلها الوزارة ، وحضر أعضاء مجلس التواب وأشيع ذلك بين الناس توارد الناس أفواجاً أفواجاً من المديريات والمحافظات ومصر واسكندرية لرفض اللائحة المذكورة ورفض من يقبلها محربين بذلك أعراضات ومحاضر . أهمل كذلك كان كل هذا جبراً على الناس وكنت أنا الجابر لهم ؟ الحق أن جميع المسلمين تأثروا القبول هذه اللائحة وأنكروها بل إن جميع المصريين أنكروها لما فيها من تداخل الأجانب في أمور البلاد الداخلية »

وسأله اللجنة « إلى أين توارد الناس ! هل إلى منزلكم أو لأى جهة وهل كانت المحاضر التي يحررونها ترد إليكم مختومة أو تختتم بمنزلكم وما الذي أجريتموه في ذلك ؟ »

أجاب بقوله « كانت تأتي الحاضر مختومة وكان حضور الناس بها جهراً لا خفية وبحضور الجميع لمنزل رئيس النظار محمود باشا سامي ، وكانوا يأتون بها ويقدمونها إلينا إعلاناً بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها . وكان ذلك بحضور كثير من أعضاء مجلس التواب وكلاهم مصادقون على ذلك . وكما قلنا أولاً إن الأمة المصرية لم تختلف في هذه الكارثة ، وكانت تلك الحاضر باقية بطرف أربابها وبحضور دلوتو درويش باشا وتشكيل وزارة راغب باشا وصدر المفو العمومي صرف النظر عن هذا وذلك »

ولم يكن في الجلسة الثامنة شيء ذو بال ، وعلى ذلك فرغت اللجنة من التحقيق ومنه يتبين أن ما وجه إليه لم يعد حد الاتهام ، فلم تستطع اللجنة أن تثبت عليه شيئاً مما حاولت أن تلصقه به من عصيان أو فتن أو إحراق ؛ ولو أن هذا التحقيق أجرته لجنة عادلة لما وجدت فيه ما يدعو إلى إرسال المتهم إلى المحكمة ...

واستدعت اللجنة عدداً كبيراً من المتهمين ومن الشهود ، وليس يعنيها إلا أقوال زعماء الحركة من أصدقاء عرابي . وهم على فهمي وعبد العال حلمي و محمود سامي ويعقوب سامي وطلبة عصمت و محمود فهمي ... وقد نفوا جميعاً كل محاولات اللجنة إلصاقه بعرابي من التهم وخاصة فتنة الإسكندرية وإحرافها ...

أما تهمة العصيان التي وجهتها اللجنة إليهم جميعاً ، فكانت تتلخص في أنهم أطاعوا عرابياً بعد أن علموا بقرار عزله ؛ وكانت إجاباتهم عن ذلك قوية إذ أنهم أرجعوا ذلك إلى رأي الأمة ممثلة في المجلس العام الذي أقر بقاء عرابي واستمرار القتال وعدم إطاعة أوامر الخديو .

وكانت إجابات كل من على فهمي وعبد العال حلمي قائمة على تصوير الواقع بصورة شرعية لا أثر فيها لعصيان الخديو ، ولكن لم يحاول أحد هؤلاء أن يسيء إلى عرابي أو إلى الجندي بشيء ...

أما البارودي فقد أساء إلى الحزب العسكري بأن نسب إليهم العنف والأرهاب وقال إن إراهيم تناوله هو كذلك بالذات ، ولكن البارودي لم يذكر عرابياً بسوء ولا اندهش بشيء ...

ولما سئل البارودي عما يعلمه عن حريق الإسكندرية أجاب بقوله « هـ ذه المسألة شنيعة جداً وكل الناس وبالجملة أخذ عرابي استقبحها »

ومما يعبّر على البارودي أنه حاول التفصّل من مسألة اعتنّ بها أكثر المتهمين ولم يجدوا فيها ما يدعوه إلى التفصّل منها وهي مسألة القسم الذي أدوه بقتل عابدين والذي تلي عليهم صيغته الشیخ محمد عبده ؛ ولما واجهته اللجنة بالشیخ محمد عبده قال البارودي إن الشیخ محمد عبده يكذب ؛ ولما واجهته بمعقوب سامي باشا عاب عليه بعقوب باشا إنسكاره وذكره بأنه كان حاضراً وأقسم مع من أقسموا فاضطرّ البارودي ونافقه أقواله السالفة ...

واعترف محمود فهمي بأنه أسلم نفسه للإنجليز طائماً ، وهذا يتفق مع رأى عرابي في هذا الحادث قال محمود باشا : « أما أنا وخدائي فسكننا صفة الترعة البحرية

فاصدبن الحسمة فسألني خادم عن قصدى فقلت له إننا سنتوجه لطرف الأنكلترا
وأمرته بقطع غابة وتمليق منديل أبيض فيها ، وحصل ذلك وتوجهنا ودخلنا عند
الأنكلترا في مقدمة جيشهم فقا باني ضابطاً إنجليزى يعرف فرنساوى ولما رأنى
لبس ملابس ملكية قال لي أنت شيخ البلد ؟ فقلت له نعم » .

وسأله الحاجة « لماذا كنت لابساً ملابس ملكية ؟ »

فأجاب بقوله : « لأنى ما كنت أريد أن أحارب ، فإنى لو كنت أريد المماربة
كنت لبست كسوبي الرسمية وطبنيجتى وحاربت »
ولما سئل محمود باشا فهمى عما يعلم عن إحراق الأنكلدرية ، شهد أن عراياً
اهم بالأمر ولم يرض عنه وأرسله في طلب سليمان سائى فلما حصر سليمان نهره
عرابى وقال له « إنى برىء مما فعلته »

ومما يجدر بنا الأشارة إليه في هذا المقام بعض أقوال الشيخ حسن المدوى
وكان شيخاً يستشرف للهائين فلم تفل السن ولا السجن من شجاعته ؛ ولندع
برودلى أن يقص علينا ما شهد من بسالة هذا الشيخ الجليل الذى تبعض به
وبأمثاله صفحات التاريخ المصرى ...

قال برودل : « وفي صوت الرعد سأل إسماعيل أبوب باشا الشيخ
الضعيف الطاعن في السن ألم يقع ويختتم بخاتمه على قرار يقضي بأن سمو الخديبو
توفيق باشا يستحق العزل ؟ وظهر على حسن المدوى كأنما استعاد حمية شبابه ؛
واتكاً على المنضدة وبسط يده وأثبت نظره في وجه إسماعيل أبوب وقال : أيهما
الباش لم أر الورقة التي تتحدث عنها ولا يمكننى أن أقول شيئاً عما إذا كنت وقعت
عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولકى أقول لك ما يأتى : إنك إذا أحضرت إلى ورقة
تحتوى على مثل المعنى الذى ذكره فأنى أبادر بالتوقيع عليها وختمتها بخاتمى في
في حضورك الآن ، إذا كنت مسلماً تستطيعون أن تنكروا أن توفيقاً باشا
وقد خان بلاده وذهب إلى الأنجلترا لم يعد يصلح لأن يحكمنا ؟ »

ولو أن قذيفة أقيمت خلاة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم والنف مثل

ما أعقبته كلام الشیخ ، لقد ظهرت الصفرة في وجنتي إسماعيل أيوب السمرابین
ولم ينس أحد لحظة بینت شفة ، ثم طلب إلى الشیخ في رفق أن يبرح المجرة ؛
ولم يفکر أحد بعدها في استجوابه فقط ؛ وبعد بضعة أيام أطلق مراجه على شرط
أن يذهب إلى قريته حيث لا تكون له صلة بعد بتاريخ مصر ^(١)

وكذلك يخلق بنا أن نشير إلى جرأة أحمد رفت بك وحسن دفاعه واندعا
كذلك برودي يتلو علينا بعض ما رأى من ذلك قال « ... وبعد تبادل التحيات
وتقديم القهوة والسكارفر أدخل رفت وكان يبدو في حالة عصبية شديدة وأجلس
على كرمي بجانبي وأنظرتني إلى أسأت إلى ولاه الأعضاء بعاصفته ؛ وإن أنسى أبداً
اللئام الشر في عيني إسماعيل أيوب حين تناول عدداً قديعاً فدرأ من جريدة الطان ^(٢)
كان يحتوى على مقارنة صريحية لا محاملة فيها بقلم أحمد رفت بين المدينة الفرنسيمة
والرصاص الأنجلترا ؛ وقال رئيس اللجنة يخاطبني : يا صديق العزيز : أظن أنه
يجب أن تتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ؛ وأنق إلى بالصحيفة ؛
وقرأت المقال وكتبت على رقعة صغيرة من الورق « لو أنسى كنت في مكانه لفعلت
عين ما فعل » ...

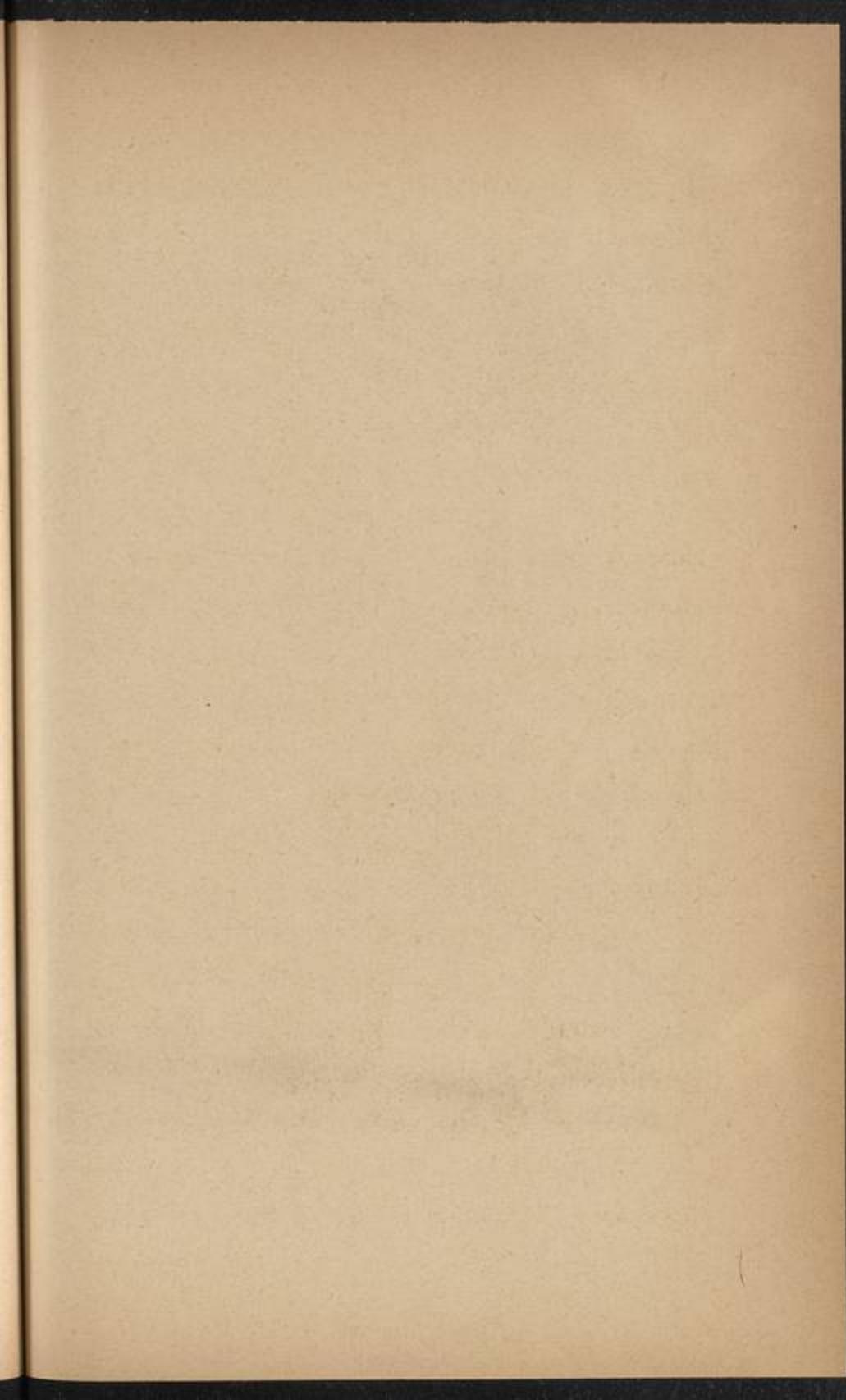
وسأل رئيس اللجنة المتهم عن برقيته في تلك الصحيفة فيها دفاع عن عربي
أكان هو مرسلاً لها فقال رفت بك « نعم وذلك بأمر مجلس الأمة الذي كنت أنت
نفسي عضواً فيه » ...

وقال الرئيس « إنني نفيت قاطعاً أنني كنت حاضراً أثناء بحث هذه المسألة »
وأجاب رفت فكان مما جبه به الرئيس قوله : « انت أذكـر ما إذا كنت
سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولكنـي أذـكر أنـك ذهـبت مـع يوم الجمعة
الثـامـنـ منـ أغـسـطـسـ فـقطـارـ خـاصـ وـكانـ بـصـحبـتـناـ روـوفـ باـشاـ وـعـمـانـ باـشاـ
قوـزـىـ وـحسـينـ باـشاـ الدرـمـلىـ ، إـلـىـ عـرـابـىـ بـكـفـرـ الدـوارـ لـتـعبـرـ لهـ عـمـاـ تـرجـوهـ لـهـ
منـ نـجـاحـ » ...

(١) How we Defended Arabi P. 370 (٢) Temps

(الشيخ حسن العدوى أيام بلنة النجفى)





وقال الرئيس معتقداً : إن أمنك عن الكلام لولا أنك تتكلم عنـي ، وعاد رفعت يذكره أنهم جميعاً تقدوا مع عرابي وأن طلبة طاف بهم على خطوط الدفاع وأنه أى الرئيس تغنى وهو الجندي القديم لو أتيح له الاشتراك في القتال ، وفقط الرئيس إلى ما يرى إليه رفعت في دهاء وكىاسة ، فقال إن كل إنسان يعلم أن ذهبـت إلى هناك بما في ذلك الخديـو وكان هذا بداعـح حـب الاستطلاع ...

وأحس الرئيس كذلك أنه صار في مثل موقف التهم فتدارك الأمر وسأل رفعت عمـا إذا كان ما جاء في البرقية من أفـكاره ؟ وأجاب رفعت بقولـه « نـعم من أفـكارـي كـما أنها من أفـكارـ كل امرـىء سـوانـي »

وسـأله الرئيس كيف يـصح وقد كان مديرـاً للمطبـوعـات أن تنشر جـريـدة الطـائف مـقالـات فيها طـمن على الخـديـو ، فـكان ماـما أـجـابـ به رـفـعتـ « إن ماـ قالـتهـ الطـائفـ وماـ قالـتهـ غيرـهاـ من الصـحفـ كانـ نـتيـجةـ لـقلـقـ الرـأـيـ العـامـ منـ مـسـلـكـ الخـديـوـ بـعـدـ انـعقـادـ المـجـلسـ العـامـ مـرـتـينـ بـوزـارـةـ الدـاخـلـيـةـ ، وـأنـ الطـائـفـ عـبرـتـ عـمـاـ اعتـنـادـ أـنـ يـقولـهـ حتـىـ الصـيـبةـ فـالـشـوارـعـ ». وـسـأـلـهـ الرـئـيسـ هـلـ مـعـنـيـ ذلكـ أـنـ يـقـرـ ماـ جـاءـ بـتـلكـ الصـحـيفـةـ ؟ فأـجـابـ رـفـعتـ فـيـ شـجـاعـةـ « لـقـدـ تـقـرـرـ فـيـ المـجـلسـ العـامـ الـذـيـ انـعقـدـ بـوزـارـةـ الدـاخـلـيـةـ وـالـذـيـ شـهـدـهـ الـمـلـمـاءـ وـالـقـوـادـ وـالـأـعـيـانـ أـنـ الخـديـوـ خـرـجـ عـلـىـ الشـرـعـ المـقـدـسـ وـبـاـ أـنـ مـصـرـ فـلـ يـكـنـ فـيـ وـسـيـ أـنـ أـخـرـجـ عـلـىـ مـاـ أـجـعـ عـلـيـهـ النـاسـ فـأـعـاقـبـ الطـائـفـ مـخـالـفاـ بـذـلـكـ مـاـ فـيـ نـفـسيـ ». وـوـجـهـ إـلـيـهـ الرـئـيسـ هـذـاـ السـؤـالـ « لـقـدـ ذـكـرـتـ مـنـ قـبـلـ أـنـ الخـديـوـ أـمـرـكـ أـنـ تـحـضـرـ بـعـضـ السـجـلـاتـ وـأـنـكـ آـثـرـتـ أـنـ تـبـعـ أـوـامـ عـرابـيـ فـكـيـفـ تـفـسـرـ ذـلـكـ ؟ـ » .

وـكـانـ مـاـ أـجـابـ بـهـ رـفـعتـ قـولـهـ « بـعـاـ أـنـ عـرابـيـاـ كـانـ نـاظـرـ الجـهـادـيـةـ وـالـبـحـرـيـةـ ، وـكـانـ السـجـلـاتـ المـذـكـورـةـ تـقـصـلـ بـعـملـهـ فـقـدـ ذـهـبـتـ إـلـيـهـ لـأـخـبـرـهـ بـأـمـرـ الخـديـوـ ثـمـ أـسـلـمـهـ لـسـمـوهـ ؛ وـلـكـنـ عـرابـيـاـ باـشـاـ أـعـرـنـيـ أـلـاـ أـسـلـمـهـاـ لـهـ قـائـلاـ إـنـ مـسـؤـلـ شـخـصـيـاـ إـذـاـ فـعـلـتـ ذـلـكـ ، فـكـتـبـتـ فـيـ الـحـالـ لـحـمـدـ بـكـ خـلـيلـ أـخـبـرـهـ بـذـلـكـ وـلـمـ أـتـلـقـ إـلـاـ جـوابـاـ شـفـوـيـاـ » .

وبعد يومين استئنف استجواب رفعت بك ويدرك برودل أنه دخل قاعة الجلسة هذه المرة وليس يبدو عليه شيء من الاضطراب ... وأطلاعه الرئيس على صور لبرقيات أرسلت إلى الأستانة وسألها عنها فقال رفعت إن المجلس العام كان يريد إخبار الباب العالي بكل شيء ، وأن برقية منها كتبت بموافقة رؤوف باشا^(١) وأنه يعتقد أنها لم تصل إلى غايتها بسبب قطع الأسلحة . وسأل الرئيس عما إذا كان ما جاء بهذه الأوراق يتفق مع آرائه أم أنه أجبر على إرسالها ؟ وعاد رفعت يؤكد أن البرقيات إنما أرسلت بقرار من المجلس الذي كان يمثل الرأي العام فيه أعضاء يرجع صيت بعضهم إلى عهد محمد علي ، وأنه لم يخبر على شيء ...

وقال الرئيس إنه يرى من إحدى البرقيات أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من رأي التهم ؟ وأجاب رفعت بك بأنها كانت ضرورة قصت بها الحرب وأنه يأسف لذلك ...

ووجه إليه الرئيس هذا السؤال « جاء في إحدى البرقيات المرسلة إلى القسطنطينية أن المجلس العام أمر محافظ السويس بأن يخبر الأدميرال الأنجلوزي أن المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة الشرعية في مصر ، فهل كانت هذه عقيدتك ؟

وأجاب رفعت بكل قوة « لقد قلت في اليوم السابق أن قوة سمو الخديوي قد وقفت بمقتضى قرار المجلس العام الذي عقد في القاهرة والذي تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد ؛ وببناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقة لمصر وقد أيدته وعضدته الأمة كلهما واضطلع بالدفاع عن الوطن ». وسأل الرئيس « هل وقمت على هذا القرار ؟ وهل كان هذا باختيارك ؟ » فقال رفعت « وقمت عليه بموجب إرادتي ولم أجبر أنا ولم يجبر أحد غيري على التقييم » .

(١) رئيس المحكمة العسكرية .

ورفت الجلسة على أن تعقد في اليوم التالي ؛ وكان أَمْهُد بِك رفعت قد أدى
بأقوال للجنة قبل مجيئه مسْتَر برودلِي فيها مطاعن واتهامات لرجال الجيش بأنهم
لدوا إلى العنف والتهديد وأنه كان مجرّأً على ما فعل ...

فَلَمَا عَقَدَتْ الْجَلْسَةُ فِي الْمَوْعِدِ المُحَدَّدِ ، سَأَلَهُ الرَّئِيسُ عَنْ سَبَبِ تَنَاقُضِ أَقْوَالِهِ
وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْيَنَ وَجْهَ الْحَقِّ ، فَقَالَ « إِذَا سَمِحْتَ لِي أَنْ أَنْكِلُمْ فِي صِرَاطِهِ فَأَنِّي
أَشْرَحُ هَذَا التَّنَاقُضَ ، وَإِنْ هَذَا حَقٌّ يُسَمِّحُ بِهِ لِأَىْ جُرْمٍ عَادِيٍّ وَأَنَا أَطَالُ بِهِ ». .
وَقَالَ الرَّئِيسُ « يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ إِذَا التَّرَمَتْ بِالْمَسَائِلِ الَّتِي يَدُورُ حَوْلَهَا
الْكَلَامُ » .

وَأَجَابَ رفعت « لَقَدْ عَوْمَلْتَ أَسْوَأْ مَعْاْمَلَةً فِي السِّجْنِ فَأَنْ إِبْرَاهِيمُ أَغْتَوْنَجِي ... »
وَقَاتَهُ الرَّئِيسُ قَاتِلًا « كَفْ عَنْ هَذَا ... لَيْسَ هَذَا هُوَ الْوَضْوَعُ . وَنَحْنُ
نَعْلَمُ جَيْئَنَا أَنَّهُ لَمْ يَشَكْ مِنْ تَوْنَجِي إِلَّا عَرَابِيُّ وَعَبْدُ الْفَقَارِ ». .
وَرَدَ السِّيرُ شَارَلُ وَلْسَنُ قَاتِلًا « لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَإِنِّي أَشْمَرُ أَنْ وَاجِي
يَقْضِي عَلَى أَنْ أَقُولَ إِنَّهُ أَنْتَ زَيَارَقِ الْأَسْبُوعِيَّةِ سَمِّيَتْ مِنْ جَمِيعِ السُّجَنَاءِ تَقْرِيبًا
شَكْوَاهُمْ مِنْ زِيَاراتِ هَذَا الرَّجُلِ وَمِنْ إِسَاءَتِهِ » .

وَاسْتَدَعَ الرَّئِيسُ الْمَسِيُّ بُورَلَى الْمُسْتَشَارِ الْقَضَائِيِّ لِلْحُكُومَةِ وَسَأَلَهُ مسْتَرُ برودلِي
عَمَّا إِذَا كَانَ الْحُكْمَةُ مَلَزِمَةً بِأَنْ تُسْجَلَ إِجَابَةُ الْمُتَهَمِّمِ كَاهِمًا ، وَأَجَابَ بُورَلَى أَنَّهَا
مَلَزِمَةٌ وَلَكِنْ يُجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُوجِزَ .

وَمَضَى رفعت فَقَصَّ عَلَى الْجَلْسَةِ مَا لَقِيَهُ مِنْ إِهَانَةٍ وَتَهْدِيدٍ بِالْمَوْتِ فِي سِجْنِهِ
وَقَالَ إِنَّهُ عَقْبَ ذَلِكَ اسْتَدَعَ لِلوقوفِ أَوْ مَرَّةً أَمَّا جَلْسَةُ التَّحْقِيقِ .

قَضَتْ الْجَلْسَةُ نَحْوَ شَهْرٍ وَلَمْ تَضْعِفْ يَدَهَا بَعْدَ هَذِهِ الْاسْتَجْوَابَاتِ عَلَى شَيْءٍ تَدِينُ
بِهِ عَرَابِيًّا ، وَكَانَ أَكْثَرُ أَسْتَلَّهَا لِلْمُتَهَمِّمِينَ جَيْئَانًا تَرَى إِلَى إِدَانَةِ عَرَابِيِّ وَبَعْدَ ذَلِكَ
يَحْقِّقُ عَلَيْهِمْ بِالْتَّبَعِيَّةِ مَا حَقٌّ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ برودلِي ذات ليلة عقب الفراغ من استجواب رفعت عند عرابي ، فقصَّ

عليه عراي أن شيئاً ذا بال حدث في مقر اللجنة ؟ وذلك أنه بعد مقادرة السير شارلز ولسن السجن عاد أعضاء اللجنة فاجتمعوا بعد أن كانوا قد تفرقوا وأقاموا في هذا المبني حتى ساعة متأخرة من الليل ، واستطاع عراي أن يسمع أن اجتماعاً عقد في الحجرة المجاورة وأنه استمر بضعة ساعات كما استطاع أن يرى من بين الأوح الخش في نافذته أن رسلاً من القصر كانوا يجتمعون ويدّهبون ...^(١) وارتبا عراي في أن شيئاً يدبر ...

وسمع برودل مثل هذا الذي ذكره عراي من رفعت ومن سجين آخر هو خضر بك خضر ؟ وظل في حيرة إلى أن علم من الحراس أن سليمان سامي استجوب في مقر اللجنة ساعات متواتية ؟ فطلب برودل من السجيناء أن يكتبوا له ما سمعوا وانطلاق إلى مسكنه صائف النفس بما أتيقنه أنه يدبر في الخفاء ...

وكان سليمان سامي قد أحضر من كريت فوصل إلى الأسكندرية في التاسع من نوفمبر ، وظل تحت مراقبة أعون الخديو منذ أن بلغ الأسكندرية حتى دخل السجن في بناء الدائرة السنوية فلم يتصل به أحد قط ، وذلك أنه اتفق معه على أن يكون شاهد إثبات !

فقد طلبت صحيفة الأجيالشيان جازيت بعد ثلاثة أيام أو أربعة من حضوره تعلن للناس بما مدهشاً وذلك أن سليمان بك سامي اعترف بأنه أحرق الأسكندرية وأنه فعل ذلك بأمر من عراي باشا أقام إليه على مرأى ومسمع من بعض الناس ؟ واعترف كذلك بأمر أعظم خطراً لا وهو أن عراياماً أرسله ليقتل الخديو بقتله في الرمل ولكنـه قابل وهو في طريقه إلى القصر كلام من سلطان باشا وحسن باشا الشريعي ، وحالـا رأى هذين الرجلين ثاب إليه رشده وندم على اعتزامه ما اعتزم واعترف لهما به ثم عاد أدراجـه ...

قال برودل « وكان لدى ما قاله في التحقيق كل من سلطان وحسن الشريعي

(١) How we Defended Arabi P. 257,

فلم أجد فيه أقل إشارة إلى شيء من هذا الذي لو أنه حدث لذكره سلطان على
الأقل إذا كان لديه أي سبيل لتأكيده .

وكتب برودل إلى إسماعيل أبوباشا يتحقق ويدرك أن ما حدث بغير حضوره
يختلف ما اتفق عليه ولذلك فهو لا يتقييد به никак الأقوال التي جاءت على لسان
سليمان ويمدحها كأن لم تكن .

وفرح رجال القصر وأعوان الخديو فرحاً عظياً ؛ ولكن فرحتهم لم تطل ،
فأن جميع من ذكرهم سليمان ساي في كلامه عند ما واجهوه في اليوم التالي أمام
المجنة رفضوا أن يشأموه فيما ذهب إليه ؛ وأنكر حسن الشريعي وكان سجيناً
رواية سليمان كما أنكرها سلطان باشا كل الأنكار ...

يقول برودل « وكان أحد الأوروبيين من أشد الناقدين على الحركة القومية
حاضرًا عند ما جاء وفد من قبل المجندة يسأل سلطاناً في داره عن رواية سليمان ؟
ونفى سلطان نفيًا باتاً حدوث ما سئل عنه فقال زائره الأوروبي : يا للأسف إن
إجابة مخالفة لهذه كانت ترسم الأمر كله » .

ويقف برودل على ذلك بقوله « فهل كانت تؤلم بهيمة من الضمير عقل سلطان
باشا في أخريات أيامه ؟ إن أظن ذلك »

وكان يرد إلى برودل كتب من مجاهولين مما يدل على مقدار ما كان يساور
الناس من خوف ، ومن أجمعها هذا الكتاب الذي يعززه برودل إلى أحد الأعضاء
المسؤولين قال مرسلاً « عزيزي الأخ : النصر للحق ! أشرف بأخبارك أن
سلطاناً باشا يتفق أنه رأى سليمان ساي في طريقه إلى قصر الرمل . وقد أفضى إلى
كثير من الناس أخيراً بأن عراياً لم يحرق الأسكندرية ولا أصدر أمرًا بأحرافها
وذكر أيضًا أنه تحقق من ذلك بنفسه حينما ذهب إلى عرابي ليتحدث إليه بشأن
الجند الذين أحاطوا بقصر الرمل يوم ١٢ يوليو . فإنه وجد عراياً خارج الباب
الشرقي يسخط بأعلى صوته على أعمال النهب والحرق ويعنف الجند على ما حدث
حتى لقد أخذ من أيدي بعض الجنود ما هبوا وأمر بأحرافه ؛ وسألته سلطان من

فهل هذا فاجاب عربى لهم يقولون إنه سليمان ساى . أرجو منك أن تزور سلطانه
فأن لديه كثيراً مما يريد أن يقوله لك . حقاً إنه في انتظارك . وسوف يُؤكّد لك
ما أقوله الآن . إحرق هذا ولك الفضل ... من أخيك ...؟

ويقول برودى « أما عربى فلم يجد عليه أنه اهتم كثيراً بما اتهمه به سليمان
ولم يؤلمه إلا شدة شعوره بما يحيط به من خيانة هو ضحيتها ؟ ... قال : إنني لم يعلم
عن قط أنى أساءت أو ألحقت الفرر بأى مخلوق ؟ وقد كنت أحرس الخديبو
في القاهرة مدة ثلاثة أشهر حراسة شديدة يوماً بعد يوم ؛ ولو كنت أردت مرة
أن أغتاله لكان ذلك فى وسمى فى آية لحظة ، فلم إذن أفكّر فى قتله فى الوقت
الذى كنت أعدّه من أسوأ أوقاتنا جميعاً ؟ »

* * *

هذا ما كان من أمر التحقيق وقد كان ما تبنته اللجنة إثباتاتهم التي
ذكرناها على عربى ؟ ولكن برودى كان من ناحيته يمد كل ما فى وسعه للدفاع
لا عن عربى وحده بل عن كبار أنصاره ...

وأول ما واجه إليه برودى اهتمامه هو الحصول على أوراق عربى ، ففى الثالث
والعشرين من أكتوبر زاد برودى عرباً فى سجننه ، وطلب إليه ما أخفى من
أوراق ، ويقول برودى إنه تحدث إليه طوبلاً فيما يلزم من ثقة تامة بين الحاضر
وموكله وفيما ينجم من خطر إذا كتم الوكل عنده شيئاً حتى اقتضى عربى وقال
« لكن تحصل على ما تريده لا بد لي أن أرى نجلى محمدأً أو خادمي محمد بن أحمد ،
فأنه لا يزال لدى أوراق كثيرة ، بعد أن أخذت كمية منها من بيته فى القاهرة
وكمية من خيمتى بالتل الكبير » ...

واستمعان برودى السير ادوارد مالت والسير شارلز ولسن ، حتى سمح لحمد بن
أحمد خادم عربى بالدخول على سيده مع محاميه ؛ وإنم محمد يد سيده فى احترام شديد
وناوله رقمة علم برودى أنها من أميرة مصرية لم يذكر اسمها من نصيرات الحركة
القومية وقد رَجَت فيها من عربى أن يعطي الأوراق المطلوبة لحاميه ؛ وأمر عربى

خدمه أن يعطي الأوراق للمستر برودل ودله على الأمكنة التي يجدها فيها ؛ ومضى الخادم وقد وعد أن يحضرها في الصباح بعد أن أوضح له برودل أهمية ذلك ... وجاء الخادم في الصباح ومعه محمد بن عرابي فقلالا إن زوجة عرابي وقد أحاط بها الخوف قد اختفت وأخذت منها الأوراق ؛ وإذا ذاك غضب برودل وكلها محتمداً فوعداً أن يبحثا مرة ثانية ثم عادا بعد ساعتين ومعهما الأوراق المطلوبة ، وفرح برودل وزميله فرحاً عظياً ، وحمل الأوراق إلى القنصلية الأنجلزية لتسكون في مأمن وليس له بيان على ترجمتها ...

ويقول برودل « لو أن معركة الدفاع استمرت حتى نهايتها لرة لسكن هذه الوثائق التي أتقى بها عرابي في أيدينا أهمية عظيم في إثبات براءته من تهمة العصيان » ...

كانت تحتوى هذه الوثائق على الكتاين الذين جاءاه من السلطان على لسانى محمد ظافر وأحمد راتب^(١) وما وثيقتان على أكبر جان من الخطورة في سدد ما أتهم به عرابي من عصيان لأنهما شهادتا براءته وفيهما رضاه السلطان عن أعماله حتى قبيل هزيمته في التل الكبير ...

وكان في تلك الأوراق كذلك ما يثبت كما يقول برودل « أن الأمة كلها كانت معه » على حد تعبير عرابي نفسه ؛ فقد جاءاته من مصر كلها من أقصى الصعيد إلى الأسكندرية ، كتب عليها مئات التوقيعات من أعيان البلاد وكبارها وعلى بعضها آلاف ، وكثيراً تؤيد عرابياً في رفضه الذكرة المشتركة الثانية وتقرر الثقة التامة به وبوزارة البارودى الوطنية ؛ وتسنكر « اللائحة ومن يقبلها » ...

وكان من بينها فتوى موقع عليها من كبار العلماء ومؤداتها أن الخديو بقبوله اللائحة قد انحرف عن الشرع وقد أورد فيها العلماء قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض وَ من يتولهم منكم فإنه منهم)^(٢)

(١) راجع صفحة ٢٢٥ من هذا الكتاب .

(٢) أورد برودل في كتابه ترجمة الفتوى وترجمة الآية الكريمة

ويعقب برودل على هذه الوثائق بقوله «إنها كانت أكثر ما يلزم لنفي تهمة المصييان في معناتها العادى ، وإنها لتبيّن أنه إن يكن قد ثار فأنا فعل ذلك قائداً لخمسة ملايين من الأهالى وأنه كان على رأس شعب مصر كلّه » ...

واعتمد برودل كذلك في دفاعه على ما كتبه له أ Ahmad بك رفعت والشيخ محمد عبده ويعقوب سامي باشا ؛ وكان ما كتبه رفعت بك والشيخ محمد عبده يدور حول معنى عام هو أن الأمة في مجلسها الشامل قد أعلنت كلّها وأيدت عراياً في الدفاع عن الوطن وقررت عدم إطاعة توفيق لا يحيازه إلى الأجانب ، وعلى ذلك فكل عمل ينسّب إلى عرايا وأصحابه بعد هذا التاريخ هو عمل مشروع لأنّه وليد إرادة الأمة ... أما يعقوب سامي فقد كان أكثر اهتمامه بنفسه ...

وأنتي برودل على رفعت بك لثقافته الفرنسية وذكائه وذوقه الأدبي ، كما أنتي على الشيخ محمد عبده وقال إنه له بين هؤلاء الزعماء مكانة عظيمة فهو أكثرهم علمًا وفضنة ونوراً ...

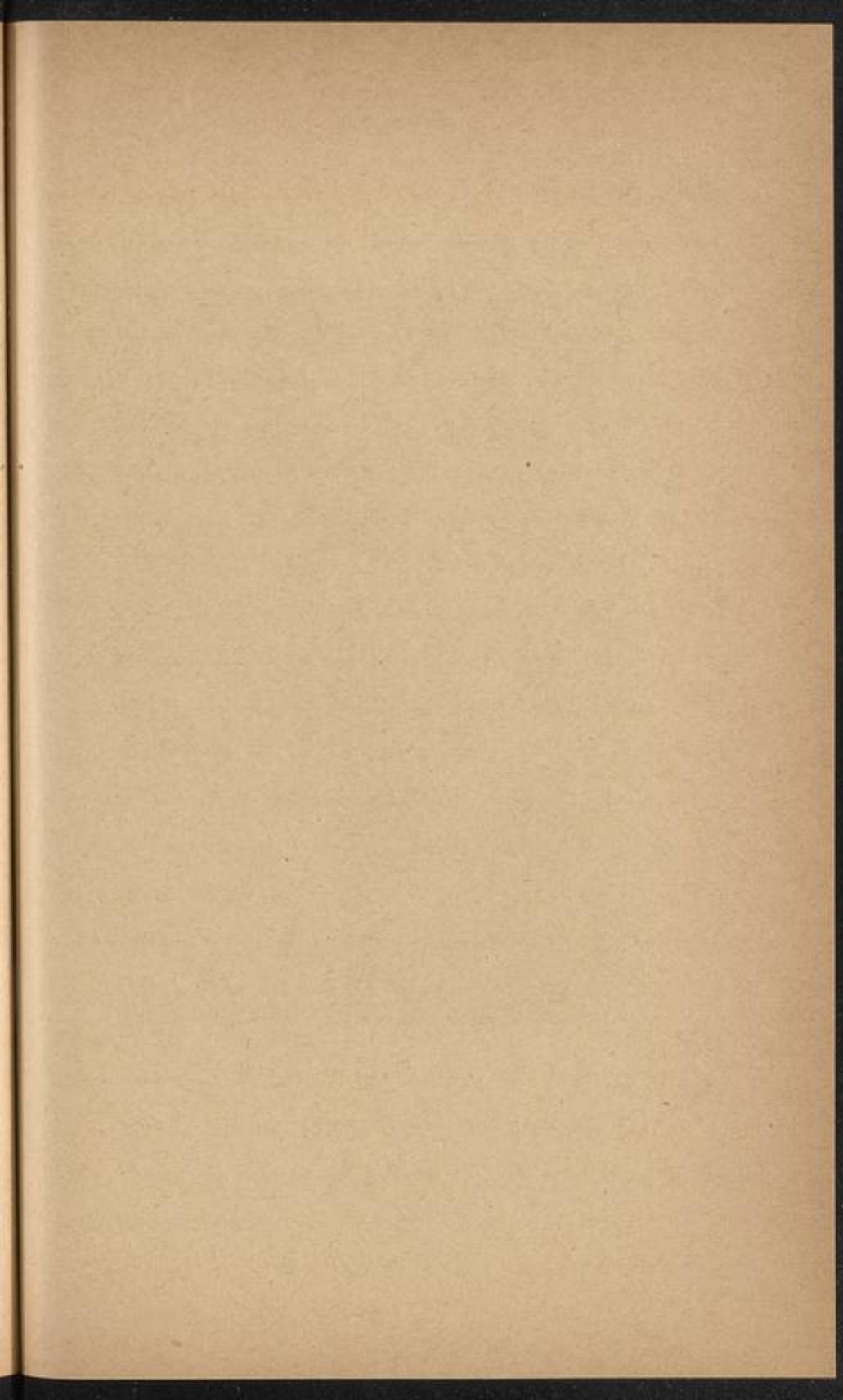
وقال برودل إنه بزيارتة لرفعت بك قد ازداد أملًا وثقة وذلك لما بدئ له من شجاعته ودفاعه عن زعيمه وتصوريه إياه أنه كان زعيم شعب بكل ما تحمله الزعامة من معنى وأنه ظفر بمحبة الناس وعطفهم عليه وأن حركة مصر القومية من أقوى الحركات وأبلّها ؛ وأن الحق سوف يظهر وسيعرف عرايا على حقيقته وتبيّن قضيته الوطنية للعالم ...

أما يعقوب سامي فقد أخلع عنه عزمه وكان يبكي في سجنه وبشكوى من الشكوى مما لحقه من إهانة وذلك كضرره والبعض على وجهه ؟ وقد تنكر لزعامة عرايا وتخلى عنه في غير خجل ، ولما ناوله برودل كتاباً من عرايا يعبر له فيه عن اهتمامه بأمره ومواساته له قال «أرجو أن تخبروا عرايا أنّي لا أستحق هذه الكلمات الطيبات التي يرسلها إلى»

وكان لا يحمل عرايا في سجنه أن يرد على كل ما يقع عليه من اتهام لقضيته ، وكان يعني بالقضية العامة أكثر مما يعني بشخصه ، وكان يبدى آراءه في شجاعية



(الشيخ محمد عبد أيام اعتقاله)



وصراحة جديرين حقاً بأعظم الثناء والأعجاب ؛ وإذا كان خصوصه بعد الذي
قدمناه من سيرته لا يزالون في حاجة إلى برهان جديد على إيمانه وقوته فليقرأوا هذا
الذى أرسله إلى التيمس من سجنه لينشر ويذاع في العالم وليتذروا فيما جاء فيه عن
الخديو ومسلكه ، وكان ذلك ردأ على جريدة الجواب التى كانت تهتف ببطولته
حتى صدر قرار السلطان بمعصيائه فصارت تهتف بالعاشر وقد اطلع في السجن على مقال
نشرته وفيه مطاعن على الحركة القومية فكتب يقول «سيدي: اطلعت في المدد ١١٠٥
من جريدة الجواب تحت عنوان « القبض على العاشر في مصر » على مقال ذكر فيه
أنه ألقى في السجن عدد كيت وكيت من الضباط والعلماء والأعيان والتجار والمديرين
وشيخوخ البدو ؛ والآن يا حماة الحرية إذا كان الجندي هم العصاة فلماذا ألقى في السجن
من ذكر من العلماء والأعيان والقضاة حيث أذيقوا الهوان ؟ وإذا كانت الأمة
كلها بكافة طبقاتها تتجه أتجاه واحداً وتفكر تفكيراً واحداً فلماذا تميزون الجندي
باسم العصاة ؟ إنى أعلم باسم الحق إنه لظلم مبين أن يعاملوا بهذه المعاملة ؛ لقد كانت
الحرب وفق قانون الله وقانون الإنسان ، وقد أعلنت بناء على قرار مؤتمر مجلس
عقد برئاسة الخديو ودرويش باشا مندوب السلطان ؛ وبعد أن غادر الجيش والأهالى
الأسكندرية ذهب الخديو إلى هؤلاء الذين كانوا يحاربون أمته ، الأمر الذى ينهى
عنه كل قانون

لقد أجمت الأمة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا نحووجه على الشرع
الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار في أعمال الدفاع عن الوطن بقرار
رفع إلى جلالة السلطان ؛ وبعد هذا نكون عصاة ؟ إننا كنا ندافع عن وطننا
بطريقة تقرها شريعة الله والأنسان ، وكل من يقول غير هذا كائن من كان فهو
عبد للهوى والمال ؛ وأضيف إلى ذلك أن علماء الإسلام والمسلمين في كل بلاد
العالم ، يسلمون أننا لم نعد حدود ما أنزل الله في كتابه وهم يستنكرون ما ناق من
سوء المعاملة لأنهم يتناق مع العدل .

يا دعاء الحق ! أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ويأخذ الأجانب

أما كثيرون ومن حضر إلى مصر من الشراكسة والأجانب والبلغار بحث أن جميع الرتب حتى أحطها مثل رتبة اليوزباشى في الجيش قد احتلها الأجانب دون إبناء مصر؟ ولكننا منزوجون بين حماة الإنسانية من يدافعون عن الحق في وجه طفيان هذا العهد الذى يسود منه وجه الإنسان ... أحمد عرابى المصرى^(١)»
هذا ما كتبه في سجنه عرابى الجاهل الجبان ! ألا ما أجمل هذا الجهل وما أعظم هذا الجنون وما أحاط ما ذكره عنه المفترضون من بهتان .

* * *

وكان برودل في شغل دائم بأعداد دفاعه الذي أقامه على ما افتتح به من أمور هامة وصل إليها بطول أناه وإحاطته بموضوع القضية التي هو بتصددها جلة وتفصيلاً ، وكان من ذلك الذي افتتح به نيل الدوافع التي دفعت عرابياً في حركته من أول الأمر ، وموافقة توفيق إيه حتى الثاني عشر من يوليو ، وكذلك موافقة السلطان إلى ما بعد ذلك التاريخ ، هذا إلى انضمام الأمة كالماء إلى البحر مما يجعل حركته حركة قومية عامة لا حركة فردية وسلوك عرابى مسلكاً إنسانياً فائقاً أثناء الحرب ...

هذا من ناحية عرابى ، أما من ناحية خصومه فقد أعد برودل الأدلة على سخف التهمة القائلة بإهانة الرأية البيضاء وبطلان تهمتي الاشتراك في فتنة الأسكندرية وإحرافها ...

ثم إنه اعتزم أن يقيم الأدلة على عدم شرعية المحكمة العسكرية في تأليفها على هذه الصورة ؟ وعلى ما كان في إجراءات التحقيق من نقص قبل مجيهه هو وزميله ، وعلى مالق السجناء من إهانة وتعذيب بقصد إراهتهم قبل استجوابهم وحملهم على غير ما يريدون ...

كذلك أراد برودل أن يتبيّن كيف كان توفيق يطعن الأنجلترا في رسائل منه إلى الآستانة ، حتى إذا اطلاعوا عليهم أنفسه في أحضائهم وأداروا للسلطان ظهره ...

(١) howwe D. Arabi P, 150

ولكن قوة الدفاع لا تغنى شيئاً في جو كذلك الذي كان يحيط به وزميله منذ مجئهما ، فقد عمدت الحكومة المصرية وبخاصة رياض ، ومن ورائه توفيق ، إلى وضع الصواب في سبيله هو وزميله منذ حضورها ؛ وجلأت لجنة التحقيق إلى أساليب أقل ما توصف به أنها ملتوية ومن أمثلة ذلك ما كان من أمر سليمان سامي ، ثم خروجهما في كثير من الأحوال على الاتفاق الذي وقعته برودل وزميله بشأن ما يتبع من أصول أثناء التحقيق وفي ساحة المحكمة ...

والواقع أن السماح لمراي بمحاميين إنجليزيين ، قد ألقى الفزع من أول الأمر في نفس الخديو ورجال حكومته فقد يقلب التحقيق فرحاً ويكشف عن أمور ظنوا أنهم باتصار الأنجلترا والقضاء على عراقي قد خلصوا منها إلى الأبد ؟ ولذلك جاؤا إلى وسائل الفس والتدليس والأرهاب وإعداد شهود الدافع والتجسس على رسائل برودل وزميله إلى حد فض الكتب وتلك أمور جعلت عملهما شاقاً محفوفاً بالخطر ، وزادها خوفاً أنه لا يبعد أن تفتعل الحكومة الأنجلزية عينيها وتدفع الخديو يصنع ما يشاء بعرابي وزملائه ، ولن تحيجم المحكمة العسكرية عن أن تعلن آخر الأمر على الرغم من كل دفاع أنها اقتنت بأدانتهم ثم تحكم عليهم بالموت وينفذ حكمها في الحال ويُسدل الستار على المأساة ، وتذهب جهود برودل وزميله عبثاً ؛ وتتنصل إنجلترا بعد ذلك من كل تبعة قاتلة إنها فعلت ما كان في وسعها أن تفعله وهو السماح لعرابي بدفع حر ، ولم يسكن في وسعها أن تتدخل في حكم المحكمة العسكرية ..

وكان التتفق عليه من أول الأمر بين بوري نائبًا عن الحكومة المصرية وبين برودل تجنب الخوض في الأمور السياسية ، والاكتفاء بالأشارات التي يقتضيها المقام إذا دعت الضرورة إلى ذلك ؛ وقد أرسلت الحكومة الأنجلزية إلى مالطا في الثالث عشر من أكتوبر رغبها في الا يسمح بمجادلات أو أدلة تتصل بالدافع أو الأسباب السياسية التي تبرر التهم الملعنة ، إلا ما كان منها لأثبات أو نفي تلك التهم ^(١)

(١) How we D. Arabi P. 45

و قبل برودل ذلك لأنه سمح له بشروط معقولة لأجراء التحقيق والمحاكمة ومن أمهما أن يسمح للدفاع بدعاوة من يشاء من الشهود وأن يناقشهم بحضور المتهمين بصرف النظر عما إذا كانوا أدوا شهادة قبل ذلك أم لا ...

ولكن حدث بعد ذلك أن الحكومة المصرية وقد كان أخوف ما تخافه هذا الشرط ، لم تقييد بما وافق عليه ؛ وبجل ذلك في شاهدين وقع عليهم برودل مصادفة ، أما أولهما فهو على راغب وقد رأى برودل في المر المؤدى إلى مقر اللجنة وذلك في اليوم الثاني من توقيفه فحدث إليه بالأخيلزية حديثاً مقتضياً في حذر وخوف إذ كان يحيط به الجنديان إن إسمه على راغب وهو الضابط البحري الذي كان يحمل كتب عربى إلى الآستانة ويحمل كتب الآستانة إليه ، وأنه حكم عليه بالنقى إلى السودان عشر سنوات مع الأشغال الشاقة ، ولديه معلومات تفيد قضية عربى ويرجو أن يؤدى الشهادة عنه ؛ ولكن حينما طلب برودل استدعاءه بادرت الحكومة بأرساله إلى السودان ليمضى هناك خمس عشرة سنة لا عشر ... وأما ثانهما فشخص يدعى كارى كان يقم في بيروت أثناء الحرب وكان يتمتع بالحماية البريطانية ، وقد كان كائناً لدى أسرة الشمسي ؛ وقد حدث أن أعيد إلى وظيفته مدير الشرقية الذى فصل وقت الحرب ، وواتته الفرصة الآتى للانتقام من شخصين ظن أنهما عملاً على فصله وهما أمنين بك الشمسي وأحمد بك أباظة وكانتا من أنصار عربى ، فجىء بهما من سجن القاهرة إلى سجن الرقازين ، حيث ألقا فى حجرة مظلمة والأغلال فى أيديهما ، وأجبرا وهما من عليه القوم على كنس السجن وتنظيفه ؛ وتسادف أن جاء كارى من فأرسلته أمراً الشمسي إلى برودل ليقدمه شاهداً وسرعان ما قبضت عليه الحكومة وقد أخبرها عنه جواسيسها وأخرج من مصر عنوة إلى بيروت ...

وفي السابع من توقيفه استدعت اللجنة برودل وزميله وسألتهما عما ينويان عمله ؟ يقول برودل « ووجدنا أنها أيام اللجنة كما نما خضينا لنوع من الاستجواب يقصد منه القضاء على ما أعدناه من إجراءات الدفاع ؛ كم يستغرق استجوابنا الشهود من أيام ؟ ومن يوجه الأسئلة عملياً ؟ وأى التراجمة يمول على ترجمته ؟ وهل يسمع

للمهين بالكلام؟ وهل لدينا ما يمنع عن إرسال أوراق عربي إلى اللجنة في الحال؟ ثم أليس السجناء في إنجلترا يُقضى في أمرهم بعد استجواب هن؟ إلى أمثال ذلك من أسئلة وجدنا أنها عقبات تدل على ما تنويه اللجنة ... »

وكان من أكبـر الصعوبات كذلك في طريق بروـدلي وصـاحبـه أنـ المـجـنةـ كانـتـ تستـدـعـيـ شـهـودـ الـأـثـيـاتـ وـتـسـأـلـهـمـ فـيـ غـيـابـهـماـ ،ـ وـكـانـتـ تـلـجـأـ إـلـىـ ماـ تـسـتـطـعـ منـ وـسـائـلـ التـهـيـيدـ وـالـأـغـرـاءـ حـلـلـهـمـ عـلـىـ مـاـ تـرـيدـ ،ـ وـكـانـتـ تـتـلـلـ إـلـيـهـمـ أـنـ يـقـدـمـواـ إـلـيـهـاـ كـتـابـةـ مـاـ يـعـرـفـونـهـ عـنـ الـأـهـمـاتـ وـتـوـحـيـ إـلـيـهـمـ مـاـ يـفـعـلـونـ^(١)

وفي الرابع عشر من نوفمبر منع رياض باشا المستر برودل من زيارة موكليه في السجن ما عدا عرايماً بمحاجة أن موظفيه من الكتبة ينقلون أنباء من السجناء إلى ذويهم خارج السجن مما يخشى منه أن يؤدى إلى هياج .

وظل الأفق هكذا مظلاً أمام برودل وصاحبه تجتمع فيه السحب من كل جانب ، وكانوا يرسلان إلى بلنت بهذه الأنباء الكدرة وقد طالت إقامتهما بمصر وكثرت نفقات القضية كثرة أو شكت أن تمجزه ..

وفي رسالة من بيان إلى بلنت في اليوم السادس عشر من نوفمبر تبين أن السحب قد تعزقت في بعض نواحي الأفق قال بيان «أكتب إليك هذه الكلمة لأنك
أن الأمور تسير الآن سيراً طيباً؛ فإن شهادة سليمان ساي التي طرب لها الاتهام
ما لبث أن تبين أنها لا تساوى قلامرة ظفر إذ أنها لفقت لوقتها وليس فيها مضى من
الأقوال ما يؤيدتها . وإن السؤال القائم الآن هو هل يطلق السجناء بغير حاكمة
أم هل تهيأ لهم الفرصة في عدالة ليتمكنوا مدافعين عن أنفسهم ؟ وإن مقتنع هنا أن
الحكومة تبذل كل ما في وسعها للقضاء على إجراءات التحقيق لأن الحقائق التي
سوف يبرزها استجواب الشهود سوف تم كل شخص تقريباً من يخدم السلطة
الآن ، وسوف تكشف عن أشياء تتصل بالخدع التي لا يحمد ؛ ولهذا السبب الأخير
احس أن حكومتنا ستتحسن في نفسها الميل إلى أن تمرض على عراى بعض شروط

مخافة أن يظهر التحقيق أن أكبر الآئمين في مصر هو الرجل الذي أحضرنا جيشنا لنصرته ؟ فلأنه كاد أجزم شخصياً أن الخديو وعمر اتفقا مديراً فتنة الأسكندرية لتكون خبرة لعربي الذي أعلن قبلها مباشرةً أنه يضمن الأمن العام » (١) .

والحق أن بيان قد تسقط هذه الأنباء مما كان يتحدث به همساً في الحلقات الأنجلizية منذ بجي ، دوفرين إلى مصر فقد أوفدته الحكومة الأنجلizية إلى مصر حل هذه المعضلة بلغ القاهرة في السادس من نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

وأقام دوفرين بقصر النزهة يستقصى ويستفهم الأنجلiz وغير الأنجلiz ، وقد تلقى هذا الذهابية روادى وصاحبها بقصر النزهة حيث كان يقيم . يقول روادى : « وفي حجرة من حجرات هذا القصر لقيني اللورد دوفرين وزميلي نايسير في الحادى عشر من نوفمبر وهما لي في الحال أتم فرصة لأسممه قضى ، فقصصت عليه في عنابة كل ما وقع لنا منذ حضورنا حتى ساعة لقائه وكان يصنف في صبر وصمت إلى كل ماقات ، ولم يتكلم إلا قليلاً شأن السياسى الحنث ؟ وشعرت أنى مفتعم كل الافتتان أنه آن للزعماء القوميين لا يأسوا من المدالة » .

وتلقى بذلك برقة من روادى في الثامن عشر من نوفمبر هذا نصها « أعتقد أن من الممكن الوصول إلى تسوية طيبة . لا هاجم إدارة الشؤون الخارجية . الحرص على السر أمر جوهري » .

ولكن السحب ما لبثت أن تقارب لتجمعت ثانية على الأفق يتبع ذلك من البرقيات الآتية : —

في العشرين من نوفمبر أبرق روادى يقول « لندن تشاور دوفرين . ضعف ميل الحكومة المصرية إلى عقد تسوية وذلك لظنها أن الرأى العام في إنجلترا قد تغير بسبب أقوال سليمان سامي » .

وفي الحادى والعشرين أبرق يقول « أزمة خطيرة مائلة . يؤكّد أصدقاء الحكومة المصرية تصميماً على شنق عربى . إبقاء في لندن » .

(١) المرجع نفسه ص ٣٥٤ .

وفي نفس اليوم أرسل برقية أخرى يقول « لا يعبر أى كلام في استطاعتي عن مسلك الحكومة المصرية الشائن ؛ إنها تضرب باتفاقنا وإياها على إجراءات التحقيق عرض الحائط ، ويقول إنها لا تبالى بشئ طالما أنها تعالج المسألة دبلوماسياً لشئق عربى » .

وأبرق ناپير كذلك في اليوم نفسه يشكو من الحكومة المصرية ويشير إلى ما يرجى من معاونة دوفرين ، ولكن الوزارة المصرية ماضية في سبيلها بسرعة نحو غايتها ...

وعاد إلى برودل شئ من التفاؤل بعد بضعة أيام فأبرق إلى بلنت في السابع والعشرين « أقيمت بالبريد ما يشرح لك الموقف شرحاً كاملاً . الذى ما يجعلنى أعتقد أنه لو وافق عربى ومحود سائى وطلبة موافقة صورية على تهمة العصيان أعني الاستمرار في الحرب على الرغم من أوامر الخديو ، فإن الحكومة المصرية توافق على نفيهم أو اعتقالهم في رأس الرجاء الصالح أو في أى جهة أخرى » ورد بلنت في الثامن والعشرين يقول « لا قبل الشروط المقترحة ورأس الرجاء بوجه خاص . سأشاور أحد أصدقائى الالية بشأن النفيات . موقفنا من الوجهة السياسية في منتهى القوة . سيصلك الرأى القاطع بعد » .

وكان برودل قد بسط الموقف في كتابه الذى أرسله بالبريد قائلاً إنه لم يبق ضعوبة في القضية إلا حادث حرق الأسكندرية فأنه وإن كان عربى برئ من حرقها إلا أن في مسلكه أموراً تجعل للاتهام سبيلاً للجدل والكلام ، ومن ذلك أنه لم يبذل أية محاولة لوقف النار والنهب ، كما أن صلته بسلمان سائى استمرت بعد ذلك ، ولم يعاقب المسؤولين ؟ فضلاً عن وجود أوراق فيها ثراء كثيرة من النفط هذا إلى ما بدا من الجند من الميل إلى ازدياد الحريق بدلاً من انطفائه ...

واقترح برودل أن تقبل التسوية وإلا فأمامهم محاكمة طويلة لا يؤمن معها تقلبات الرأى العام ؛ على أنه على استعداد لخوض غمار المعركة في قوة حتى نهايتها . وكتب ناپير كذلك إلى بلنت في السابع والعشرين من نوفمبر يقترح قبول

التسوية ، إن كان على استمداده هو وزميله للمرافقة قائلين إنهم قادران على أن يذروا
تهمة إحراق الأسكندرية هباء ، وأن يحملوا من مذبحة ١١ يونيو مسألة حامية بينهم
وبيان خصوصياتهم .

وفي الثامن والعشرين أبرقا معاً إلى بنت يقولان « قابلنا دوفرين طوبلا .
نرجو منك أن ترسل إلينا نصائحناك لنجعل على أحسن شروط ممكنة . الأبطاء
يقضى علينا . اعتمد على حكمتنا . لا جدوى في انتظار المعونة من إدارة الشؤون
الخارجية . يميل دوفرين إلى أنزيد تعليماته لصالحنا . يحكم دوفرين الحكومة
المصرية . الدفاع عن مسألة إحراق الأسكندرية يحيط به شيء من الشك . هذا
هو مبعث القلق . اغتنم الفرصة الحالية . خدمات دوفرين الطيبة ضرورية جداً .
أبرق لنا بتعليماتك . سنقابل دوفرين غداً في العاشرة » .

وأبرق نايبير إلى بنت في اليوم نفسه « أقول لك بشرف إنني وافق على
البرقية السابقة . الأمر يستدعي أشد استدعاء أن ترسل تعليماتك ليس ثمة أى
مصلحة شخصية فيما طلبنا » .

وذكر برودل في كتابه أنه منذ السابع والعشرين من نوفمبر مالت جميع
الجهات إلى تسوية لموقف ، فالحكومة الأنجلizية التي أعلنت من قبل عصيان
الجند والتي سمت الحركة كاما ثورة عسكرية والتي أرسلت حملة لقمعها أنفقت فيها
ملايين الجنيهات لا يمكنها أن تطلق عرائياً بعد هذا بلا قيد ولا شرط ، وإن
يوافق جلادستون على قرار مؤداته أن عرائياً قد سقطت عنه تهمة العصيان بعد كل
هذا ؛ ولكن الحكومة الأنجلizية من ناحية أخرى لم تجد تقوى على إقرار حكم
بالموت على عرابي ؟ وإن كانت لا تترض على الحكومة المصرية إذا ألقته في
السجن إلى أى أمد تشاء .

وكانت تركيما تزيد أن تتعنى هذه المسألة على أى وجه إلا الكابوس الذى
يزعجها وهو محاكمة عرابي ، ويعتقد برودل أنها استعانت ألسانيها لتتوسط لدى
دوننج ستريت لمنع ذكر ما من شأنه أن يمس السلطان من فضائح في القاهرة

ورأت حتى الحكومة المصرية ما عدا رياضًا أن تتجه هذا الاتجاه وذلك بعد أن عجز سليمان سامي عن إقامة الدليل على عربابي وبعد أن أخبر شريف باشا بأن الحكومة الأنجلizية لا تستطيع أن تقر حكماً بالموت على عربابي؛ وأصبح هم الخديو أن يخرج العصاة من مصر جملة على حد تعبيره^(١) ...

وفي الثامن والعشرين من نوفمبر أبرق بلن特 إلى بروكلي يقول «لا أقر شيئاً أقل من نق شريف . عدن . مالطة . قبرص . في حدود هذا أترك الأمر لحكمةك» واتسق على أن تكون التسوية كا يأى : تستبعد جميع التهم عن عربابي ما عدا تهمة عصيان أمر الخديو ويقدم إلى المحاكمة متهمًا بهذه التهمة الأخيرة ويعرف بها ؛ وتصدر المحكمة حكمها عليه بالموت ؛ ولكن مرسوماً خديوياً بتعديل الحكم يتلى في قاعة الجلسة ويقضى بنفيه من مصر ؛ ويصدر بعد ذلك قرار بتجزيره من لقبه وممتلكاته ما عدا ممتلكات زوجته ؛ ثم يقسم عربابي بشرفه أن يذهب إلى الجهة التي تحدد له وألا يردها إلا إذا سمح له بذلك ...

وقد كان هذا الانفاق من وضع اللورد دوفرين ، ويقول بروكلي إن الحكومة المصرية قبلته على رغبها ، وقد غضب له رياض غضباً شديداً إذ كان يصر على موت عربابي ، وسوف يستقيل عقب تنفيذه وإن لم يذكر سبب استقالته ... وأوعز رجال السرای إلى مراسلي الصحف الفرنسيّة فأثاروا حملة شديدة على الأنجلiz وعلى عربابي ، حتى لقد أبرقوا إلى صحفهم بأن هناك اتفاقاً سابقاً بين الحكومة الأنجلizية وعربابي .

وينتقد بروكلي مسلك الحكومة المصرية انتقاداً شديداً ، ويقول إنها بدل أن تظهر شيئاً من الصفح والتسامح يبعد عنها الشبهات قد أدت بما فعلت إلى إظهار نفسها بعظام الملوية على أمرها الأمر الذي لا يليق بكرامة أية حكومة ، ولكن الخديو هو الذى كان يدير ذلك كله من وراء ستار .

ولم يكن عربابي حتى اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر يعلم شيئاً من هذا

(١) How we Defended Arabi P. 307.

كله ، فلما ذهب إليه برودل في صباح ذلك اليوم ومهما ترجانه المستر سانتلا قص عليه القصص وقال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

وتفكر عرابي قليلاً وقد أخذته شيء من الدهشة ، ثم قال « أتعرف بصرامة أنك كنت أفضل المحاكمة لأسمع أوروبا كلها قضيتي وأفق من اتهموني بها وجهًا لوجه في ساحة المحكمة » وتساءل عرابي « أليس يرجى أن يفضي ما عسى أن يلقي من ضوء على المسائل المصرية في المحكمة إلى تحقيق الأصلاحات التي محبت عن تحقيقها بالحرب ؟ » .

وذكر له المستر برودل ما يكون من الخطر عليه من جانب محكمة كهذه المحكمة ، فتذمر ثم قال « إذا قبلت ما تتحدث عنه من شروط فإذا عسى أن يكون مصير إخوانى ؟ » وأخبره محاميه أنهم سيعاملون مثل معاملته ... وأطرق عرابي لحظة ثم صاح قائلاً « كيف أقول إنني عاص ؟ ألم أفعل ما أمر به السلطان والخديو ؟ وإذا كان الخديو قد انحاز إلى الأنجلترا فهل أسمى أنا عاصياً لأنني أطمنت إرادة الأمة المصرية ؟ » .

وحار برودل لحظة ماذا يقول ثم أجاب بقوله « إن الحكومة الأنجلزية لا يمكنها أن تتراجع عما أعلنته ولذلك قضت الفسورة بهذا الحل » . ولكن عرابياً سأله « وهل عاملت الحكومة الأنجلزية عدوًّا غالب على أمره من أعدائها مثل هذه المعاملة من قبل ؟ » .

وكان اللورد راندلف تشرشل قد سأله جلاستون هذا السؤال في البرلمان الأنجلزى قبل ذلك بثلاثة أسابيع ، ورد جلاستون بأن حال نابليون بعد فترة المائة يوم هي أشبه شيء بحال عرابي اليوم .

وذكر برودل ذلك لم耳边ى فقال عرابي وأين أنا من نابليون حتى أعمل بما عومل به ؟ فذكره برودل بأن الذى عقد هذه المقارنة هو خصميه الذى يقرر مصيره ونهض البطل السجين وأخذ يعشى فى غرفته جيئة وذهاباً وفي وجهه أمارات التفكير العميق ، وظل على هذه الحال زمناً ليس بالقصير ثم أتجه إلى محاميه قائلاً

وكتب عراقي هذا الكتاب ، وذكر فيه أنه يدع للمستر برودل أن يفعل
عراه لصالحه «مع تذكرة قضية إخوان السياسيين وغيرهم من المواطنين السجناء »
وأنه يشق أن ذلك سوف يكون كيشاكل شرف إنجلترا « حيث أنا أبرأه
جميعاً من التهم الوحشية الموجهة إلينا »

كان على برودل بعد ذلك أن يعد تشكيل المهزلة مع المسؤولين؛ وكان بورلي قد استقال لأنه «لا يستطيع الاشتراك في مهزلة سياسية كهذه» كما قال، ويدرك برودل أن الخديو هو الذي أوزع إليه بهذا فعله مشابهة لبقية بنى جنسه الفرنسيين ولذلك كان على برودل أن يتصرّل بتجران باشا الذي حل محله وقد بذل تجران أقصى ما في وسعه ليكتم غمه من اضطلاعه بهذا العمل ...

وكان على ممثل المهرلة أن يبحثوا في القانون المثار عن مادة تنطبق على مثل

هذا المصيان ، فوجدوا بعثتهم في المادة ٩٦ من القانون العسكري والمادة ٥٩ من
قانون المقوبات ...

وكتب لجنة التحقيق إلى المحامين تبليغها أنها رأت تقديم عرابي إلى المحكمة
العسكرية بمقتضى هاتين المادتين ، وتسألهما إن كان لديهما اعتراف على هذا ...

ورد برودل وصاحبها أنهما لا يعترضان ؛ وعلى ذلك أرسل إسماعيل أبوب
باشا عضو الجمع الشعبي العام وضيف عرابي في كفر الدوار^(١) إلى رؤوف باشا
عضو ذلك المجلس العام أيضاً^(٢) يقول إنه بعد استجواب عرابي باشا اقتنع بتقاديمه
إلى المحكمة العسكرية وفقاً للمادتين المشار إليهما .

على هذه الصورة فرغ من إعداد المهرزة في اليوم الثاني من ديسمبر ، واتفق
على أن يكون تمثيلها في اليوم الذي يليه ...

* * *

كانت قاعة مجلس النواب المصري^(٣) قد أعدت من أول الأمر لانعقاد
جلسات المحكمة العسكرية ، ووضعت فيها المقاعد لمجئور كبير يشهد الحكم على
عرابي بالموت ؛ وما يذكره المستر برودل وقد شهد القاعة عقب جيشه إلى مصر
أنه لم يكن فيها مكان للدفاع ...

وشاءت الأقدار لهذه القاعة التي كانت مجالاً لنواب الأمة والتي كان فيها منبر
حربيهم ، والتي هي الآن مقر مجلس شيوخها المؤقت ، ألا تشهد حكاً كهذا على
زعيم الحركة القومية في مصر أحد عرابي باشا .

وكان تمثيل المهرزة في مكان غير هذا الحرم الشعبي الجليل ، فقد اختيرت قاعة
من قاعات مبني الدائرة السنية حيث كان السجناء وحيث كان مقر لجنة التحقيق ..
وفي صباح الأحد الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٢ بدأ تمثيل المهرزة ، فتأهب

(١) هنا تعقب برودل على اسميهما .

(٢) قاعة مجلس الشيوخ الحالية .

رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية بملابس الرسمية ووسامه الجيدى الأكبر ، وتأهب بقية القضاة بأوسمتهم وملابسهم الرسمية كذلك في حجرة مجاورة .

ودخل قاعة الجلسة بعض الأنجلترا من العسكريين والمدنيين وبعض الأوروبيين وعدد صغير من الأوروبيات وفريق من مراسلى الصحف الأجنبية ، كانوا مس وستاندارد والدىلى نيوز والدىلى تلغراف ، والنيلويورك هرالد والجرافيك والأستراسيون وغيرها ؟ ولم يكن شهود الجلسة أو الملاحة يزبون في مجوعهم عن أربعين ...

قال برودل « ... ودنا مني إستعمال أبواب باشا وفي يده ورقة وقال إنه يأمل لا اعتراض على قراءته من أجل بعض الظاهر فقط ، عبارة من وضعه ، فأجبته في غير التواط أن له أن يفعل ما يقضى به رأيه ، ولكن إذا استعملت أية رقمية غير الرقعتان اللتين أنسف عليهما فسيعلن عرافي أنه غير مذنب ... فتفهد تنهيدة طويلة في هدوء ودس رقمته تحت المنشفة ولم يعرف عنها شيء بعد » ...

أما الرقعتان المتყق عليهما في إحداها عبارة قصيرة وقع عليها عرابي هي « إنني بأرادي وعملاً بنصيحة حماي أقر ما يتلى على الآن من اتهام » وفي الثانية يتعهد كجندى أن يبق في المكان الذى تحدد له الحكومة الأنجلتراية وفقاً للحكم الذى يتلى عليه ...

وكان من اسلوب الصحف المصورة يرسمون القاعة ومن فيها تاركين موضع القضاة في أوراقهم خالياً حتى يحضرروا وكذلك موضع المتهم ، وقد أعد الذين لم يبلغهم بما المهلة أوراقاً كثيرة وأقلاماً يحسبون أنهم سيملاً منها بالأوصاف والاتهام ... يقول برودل « وفي الساعة الثامنة دخل القضاة التسعة قاعة الجلسة ، وجلسوا على كراساتهم ذات الظهور الخملية الحمراء . وجلس السير شارل ولسن على يمين المكان الذى خصص للسجين ، وجلست أنا وراء قدر يواجه هذا المكان ، وكانت النصة المخصصة لممثل الاتهام خالية ...

وبعد دقائق رأيت عرائياً من الباب المفتوح يقطع الفناء ومه نايبير في رداء التقليدي وعهان شريف وحارسان شر كسيان ودار عراي حول مؤخرة القاعة ، وبعد أن مر بعمد طويل كان خصصاً لجلوس نحو عشرين شخصاً على الأقل ، جلس بجواري ، وأخذ المستر نايبير كذلك مكانه إلى جاني ، وساد الصمت العميق هنيمة ؛ وكان يبدو على عراي بعض الاضطراب المعيبي أول الأمر ولكن ما لبث أن تمالك نفسه ؛ وتناول رؤوف باشا رقمته وتلى ما بها ونصه كما يأتي : —

« أحمد عراي باشا ... أنت متهم الآن أمامنا بناء على قرار لجنة التحقيق بجريدة عصيان سمو الخديو ، مخالفًا بذلك المادة ٩٦ من القانون العسكري العثماني والمادة ٥٩ من قانون العقوبات العثماني ، فهل أنت مذنب أم غير مذنب ؟ »

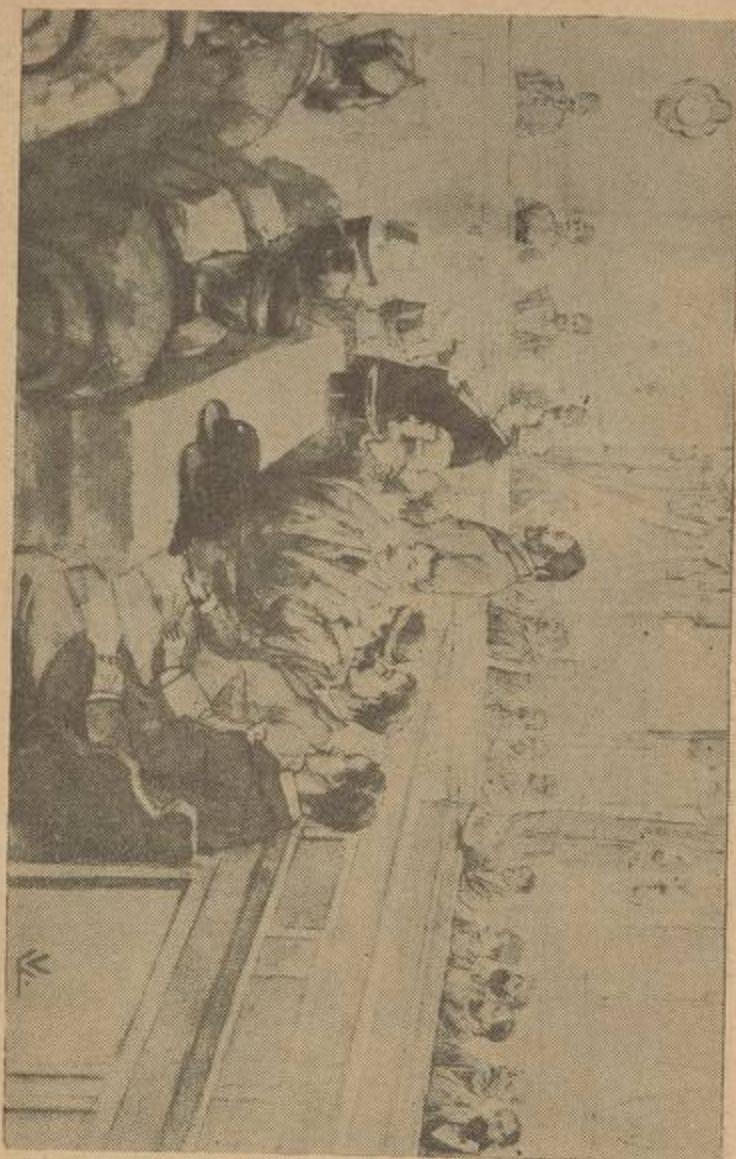
وقد نهض عراي بمجرد أن أخذ رؤوف باشا يتلوي هذه العبارة ، فلما فرغ منها أجاب عراي قائلاً « إن حامي سوف يرد عنى » .

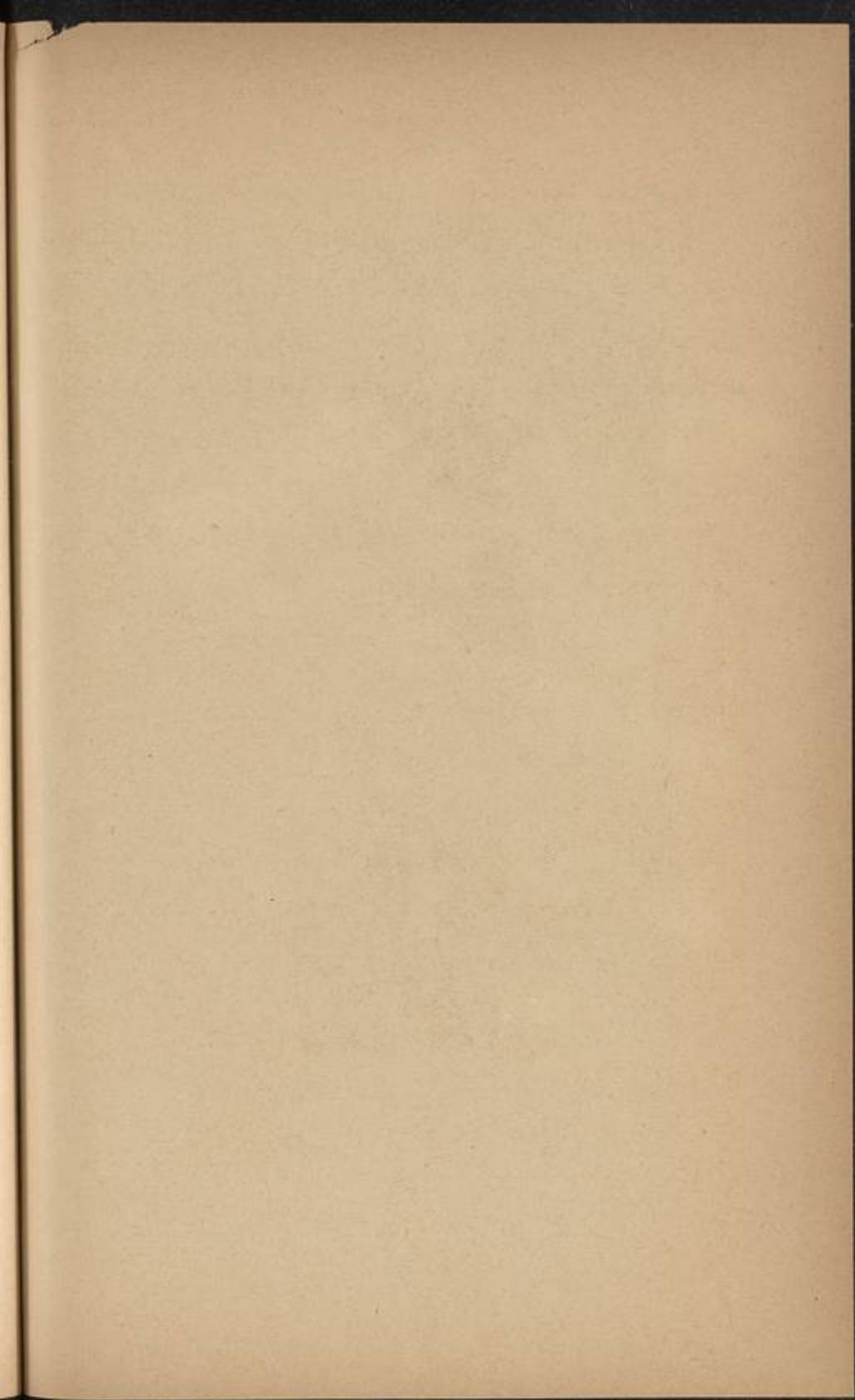
ونهضت وتلوت الترجمة الفرنسية لاعتراف عراي وأبرزت الأصل العربي وعليه خاتمه وقرأه كاتب كان يجلس على مقربة من الرئيس ، ونظر رؤوف باشا إلى عراي متسائلاً فأومأ برأسه علامه المواقفة ، فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ...

وفي الموعد المحدد ازدحمت القاعة بشهود الجلسة وحضر عدد غير قليل من السيدات وكانت بينهن زوجة نايبير ، وكان الطريق أمام الدائرة السنوية مزدحماً بالناس وانعقدت المحكمة ، فتناول رؤوف باشا كاتب الجلسة نص الحكم وأمره بتلاوته فتلاه ... وبعد فترة قصيرة من السكون ناوله ورقة أخرى واتجه إلى عراي قائلاً : « أحمد عراي . ستنسمع المرسوم الصادر من سمو الخديو ؛ وتلي المرسوم المذكور » ...

وكان الحكم يقضى بالموت على عراي ، والرسوم يستبدل به النفي المؤبد ، وانقضت الجلسة بعد عشر دقائق وأسدل الستار على المهزلة ...

(عرباب سپری الحکم به)







إلى مهني

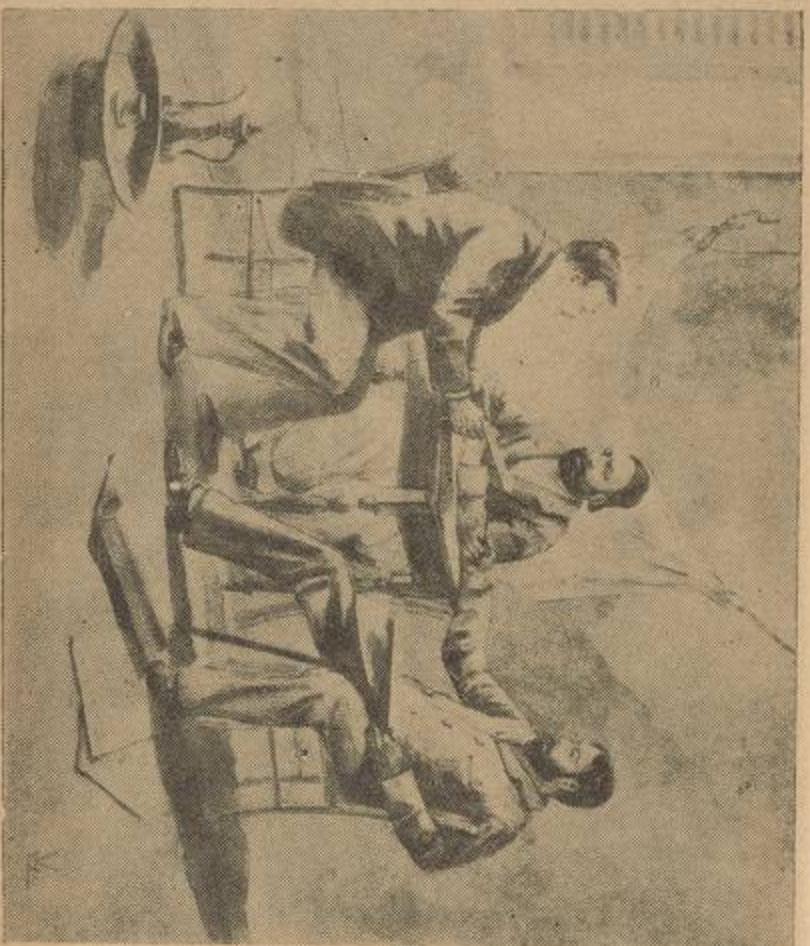
كان أول شيء فمله عرابي بعد عودته إلى سجنه أن صلّى الله وأطال سجوده شكرًا له سبحانه؛ ولما خرج من الصلاة وجد محامييه في الحجرة فوجه إليهم بعد الله شكره؛ وأعادا عليه تهنئتهم وخرجًا بعد حديث سار بينهما وبينه، وتركاه ليكتب كتاباً لصديقه مستر بلنت الذي أبلى في سبيل إنقاذه ما أبلى ...

وذكر برودل أنه علم اليقين أن الوطنيين من أهل القاهرة قد باتوا ليتلهم في فرح عظيم وإن لم يخرج مظاهر الفرح من بين جدران المنازل خوفاً من الحكومة والخديو، فوزعت الصدقات والملابس وأطعم الفقراء وأقيمت الصلوات وكان فرح الناس عاماً منبعثاً من أعماق نفوسهم أو على الأصح مستقرأ في تلك الأعماق .

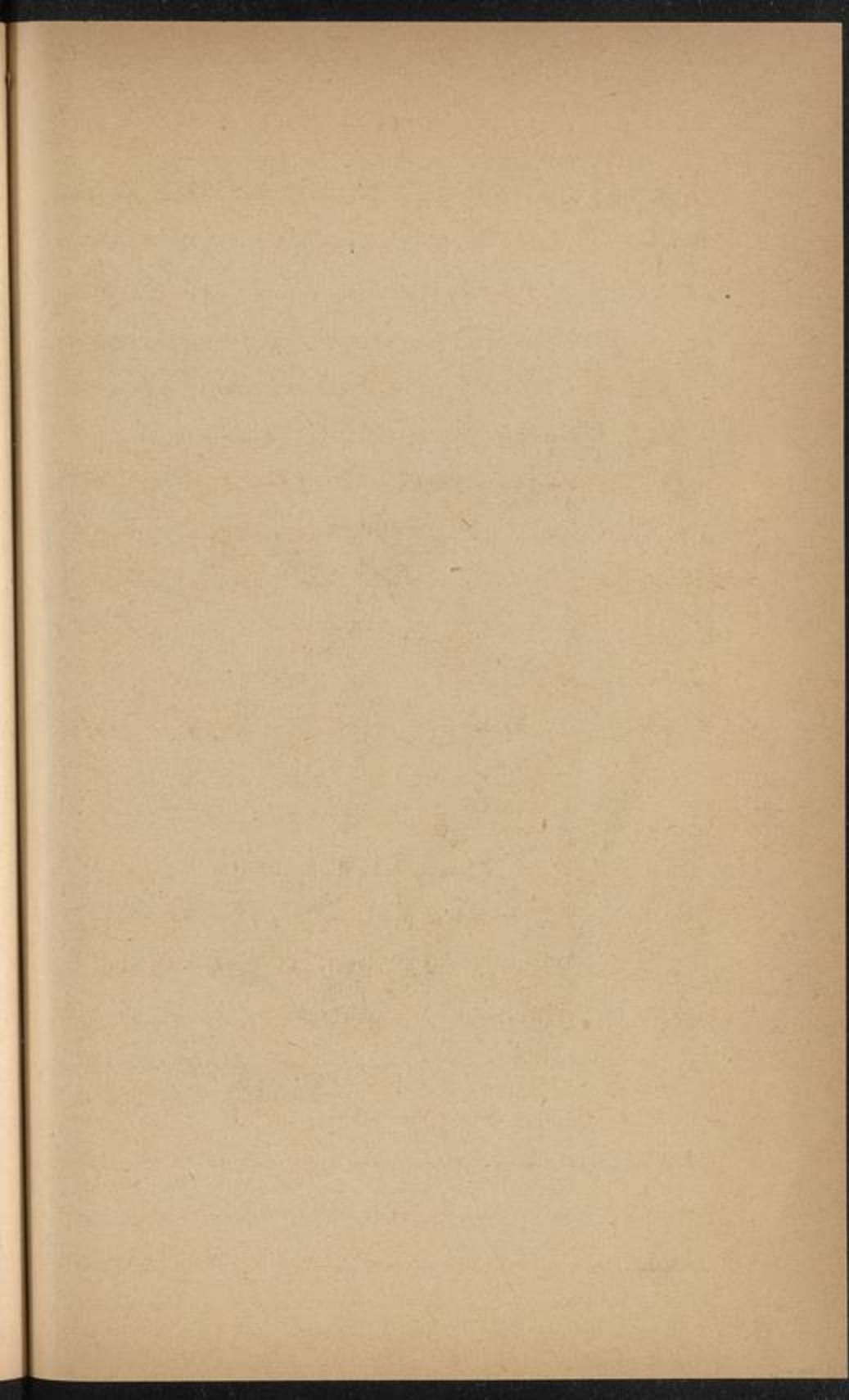
وزاره برودل صباح اليوم التالي فأخبره أنه لم يبق لديه مما يشغل باله إلا قلقه على إخوانه السجناء ورغبته أن يبين لأهل أوروبا حقيقة اعترافه الشكلي بعصيائمه أمر الخديو ...

وطاب عرابي نفساً بما ذكره له برودل من أنه يأخذ على عانقه قضية إخوانه، وأنه لن يألوا جهداً في العمل على إنقاذه ...

وكتب عرابي إلى التيمس كتاباً تارikhياً طوبلا فقال فيه بعد أن أعظم الثناء على محامييه أنه اتبع ما أشارا به عليه وذكر «أن الوزراء الأنجلترا قد أعلنوا قبل ذلك أكثر من مرة أنى ثائر ولست أتوقع أن يغيروا رأيهم بثابة» وأشار إلى تبرئته من تهمي المذبحة والحريق، وقال إنه «يفادر مصر صرحاً الضمير وملء نفسه الثقة في المستقبل لأنه يعتقد أن إنجلترا لن تستطيع أن تتحقق الأصلاحات التي حارب في سبيلها . وعما قريب ستلغى الرقابة الأنجلتراية الفرنسية ، وتتخلص



(بعد حلول وليام بريتون في سلسلة)



عصر من قبضة الوظيفين الأجانب الذين يشغلون كل منصب دون المصريين ، وستطهر حماكمنا الوطنية من العيوب . وستوحد القوانين ويكون لها سلطة ، وسيكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع وله حق التدخل في شؤون الشعب المصرى ، وسيطرد المرابون من القرى ؛ عندما يرى الشعب الأنجليزى تحقيق هذا كله يستطيع أن يتبين أن عصيائى كان له مسوغ عظيم .

إن ابن فلاح مصرى وقد بذلت جهد طاقتى فى سبيل الحصول على هذه الأصلاحات لوطنى المزير الذى أنتهى إليه والذى أحبه أشد الحب ، ولكن سوء حفى حال يبني وبين ما أردت ... وإذا لم تقف إنجلترا فى وجه هذه الأصلاحات وسلمت مصر للمصريين كما تقتضيها ذمتها وشرفها فيومئذ يتبين للعالم كله حقيقة مساعى عربى العاصى وحقيقة أغراضه » .

وأننى عربى أعظم الثناء على مستر بلنت « الذى لم يأل جهداً ولا مالاً يعيننى فى ساعة معنوى وحاجق ، حين تخل عنى جميع أصدقائى المصريين الذين كانوا يلازمونى في أيام اليسر »

واختتم الرسالة بقوله « إنى أغادر مصر مقتنياً كل الاقتناع أنه كلما صرت الأيام اتضحت للعالم عدالة قضيتنا شيئاً فشيئاً وسوف لا تندم إنجلترا على ما أظهرت من إنسانية وتسامح إزاء رجل حاربها وحاربته » .

وبعد أربعة أيام من الحكم على عربى قدم إلى المحكمة العسكرية كل من محمود ساى وعلي فهمى وعبد المال حللى وطلبة عصمت وكان مصيرهم مثل مصيره وكذلك كان مصير محمود فهمى ويعقوب ساى بعد هؤلاء ثلاثة أيام ...

وافتى أخيراً على أن تكون سرديب منفى عربى فذهب إليه برودى وبهان يبناته بذلك في الثامن من ديسمبر فسر عربى بذلك المكان ، قائلاً « إنى أخرج من مصر بستان الدنيا لأذهب إلى سرديب جنة آدم » ؛ وأخذ يحدث بلنت عمما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف أنه حل بهذه الجزيرة

فصارت تعرف بحنة آدم كذا ذهبت حواء إلى الحجاز فصار يعرف بحنة حواء ...
واستبشر عربي وشاع في نفسه السرور ...

ويذكر برودل أن اللورد شارلز برسفورد كان يجمع العلومات عن أسباب
الحرب أثناء مقامه بالقاهرة فأحب أن يعلم ما يقول عربي؟ وحمل نايفير إلى عربي
هذه الرغبة فكتب له تاريخاً موجزاً لل أيام السابقة لضرب الأسكندرية ثم وصف
كيف قررت الحرب وكيف بدأت ...

وكان عربي شديد التطلع إلى معرفة ما تكتبه عنه الصحف الأوروبية ، وقد
آلمه تغير الصحف العربية وتفكيرها له ولحركة ، وعرب له التراجمة أحوال بعض
الصحف الأنجلالية مثل التيمس وستاندارد والديلي نيوز . فسرى عنه كثيراً ،
وكان ذلك من أسباب كتابته للتيمس .

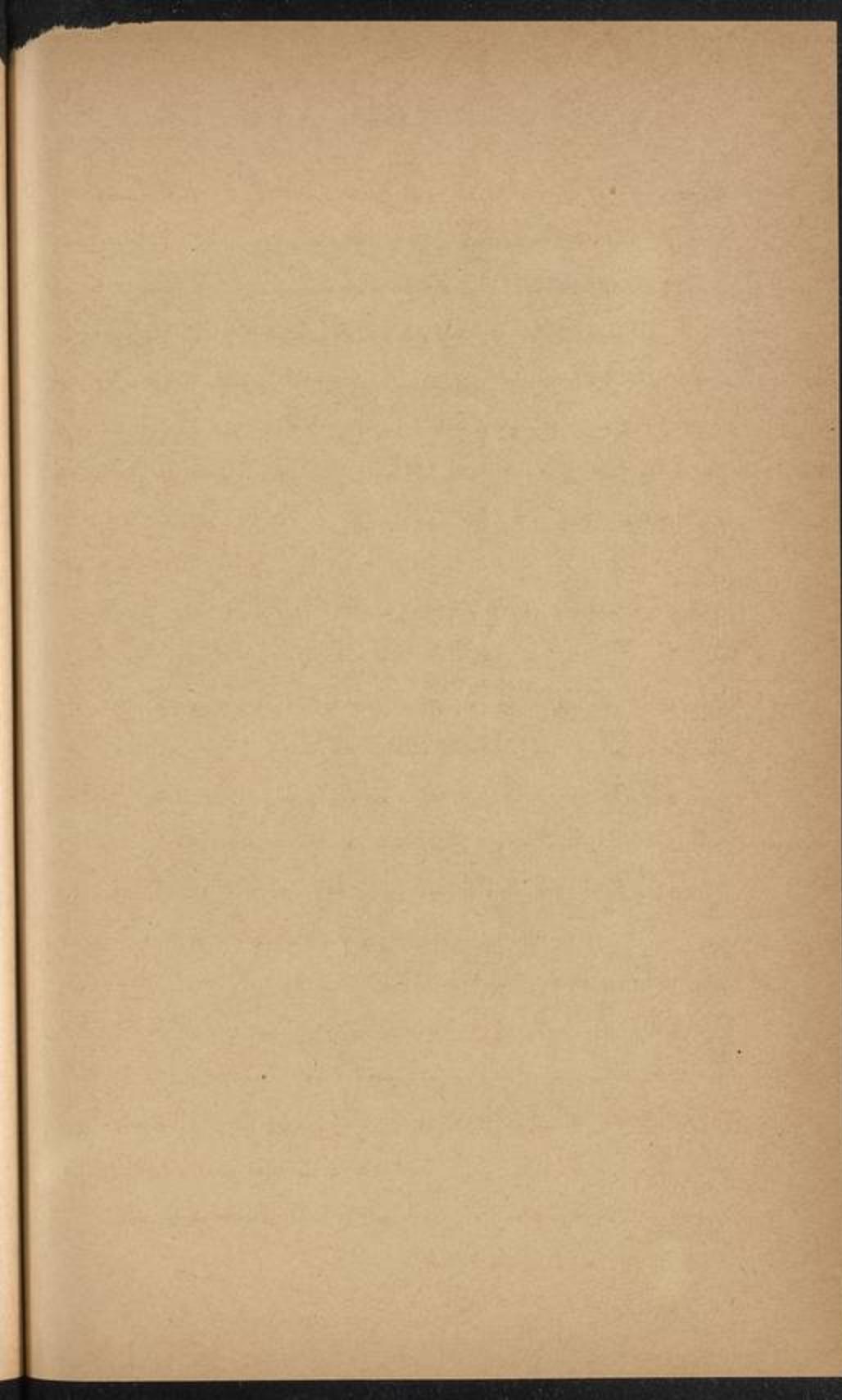
وكتب صحيفة روث الأنجلالية^(١) تندح عربياً وتنتهي على الحركة القومية في
مصر فسر عربي بما كتب سروراً عظياً وأعجبه إسمها وهو بالعربية « الحق » وقال
إنه يريد أن يعبر عن الحق في صحيفة « الحق » ، فكتب إلى محررها المستر لا بوشير
رسالة افتتحها بقوله « أرجو أن تسمح لي بأن أقدم إليك أصدق شكرى على
ما أعلنته داعماً من الحق فيما يتصل بي وبأخوانى في أيام سوه حظهم ؛ وإن مقتعم
كل الاقتناع ببراءة مقاصدك وأنك أردت داعماً أن تظفر بما يتفق مع الحق من عدالة
وليس من شك في أن أولى العدل من الرجال الذين يجودون بالمuron لن حقوقهم سوه
الحظ ، في ساعة حزنهم » .

وبعد فإنه لما كان لا يعنيه شيء أكثر مما يعني رخاه وطني وتقديره
وسعادة أهله، وذلك على الرغم من أنى أغادره الآن مقادرة أبدية ، فإنى أحب أن أذكر
ذلك بعض الأمور الجوهرية التي لوروعيت جلبت الخير الكثير لوطني وأفادت أهله
فائدة عظيمة ، وأحسب أنه لن ينبع ذلك بهذه الأمور في غير هوى مثل رجل محظوظ
فقد كل شيء في حب وطنه » .

(١) Truth

(الزعام يكتبون يوم ساقيه قبل المعركة)





ومضى عرابي يذكر ما يرجوه من أوجه الأصلاح معمقاً على كل وجه بما يفسره ، فأشار إلى ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس انتخاب حر كا هو الحال في الأمم المتقدمة ، يسأل أمامه الوزراء وينعقد لمدة محددة لاتنقض عن خمس سنوات ؛ وإلى ضرورة المساواة بين المصريين في المعاملة وفي الفرائض ، وإلغاء السخرة بحيث يؤجر الناس على ما يودون من أعمال لأن حياة الفقير تتوقف على عمله اليومي ، وإلغاء الربا في القرى ، ووضع قانون عادل يطبق في المحاكم ولا يعتقدى عليه أحد ، وأن تكون وظائف الدولة للوطنيين جميعاً على أساس الأهلية والاستعداد ، ولا بأس من أن يستخدم بعض الأوروبيين مع مراعاة حال البلد المالية ...

واختتم رسالته بقوله « وإذا وافقت إنجلترا على آرائي هذه فلست أبالي بالنقى أو بأى شئ آخر يحيطه لى القدر »^(١) .

ومازال يسى برودى حتى رفعت الحواجز الخشبية الفلينية التي كانت تفصل بين الردهات والحجرات ، واستطاع السجناء السبعة أن يلتقو فى الثالث عشر من ديسمبر ، فكان إقامه اهتزت له نفوسهم ، فثمة عنان وضفت على الأيدي ودموع في الماقف ؛ وأصبحت حجرة عرابي ملتقاهم كل يوم حيث كانوا يتحلقون أمامه وينظرن إليه جميعاً كما كانوا يفعلون من قبل نظرتهم إلى كبيرهم وزعيمهم ؛ وكانوا لا يبرمون أمرأ إلا برأيه ولا يتباخثون في شيء إلا في حضرته ..

وامتلأت الحجرات بالزائرين والزائرات من الأقارب القاهرةين والقرويين ، وكان أقارب السجناء جميعاً يذهبون إلى حجرة عرابي فيلثمون يده ويحظون بالجلوس ساعة بين يديه وأعينهم لا تحول عن وجهه ...

وأحضر الخدم ما يلزم من متعان في المنفى ، من سرير وكل وستائر وبسط وآنية وغير ذلك حتى امتلأت به الحجرات ...

وطلب إليهم صديقهم المستر برودى أن يعد كل منهم قائمة بأسماء من يريد أن

يرافقه إلى المنفي ليحمل هاتيك القوائم إلى وزير الداخلية وكان وقذاك إسماعيل باشا أيوب الذى حل محل رياض ...

وذهب برودل فقابل الوزير وأخبره الوزير أن الحكومة تفك فى أن ترسل بعض التنفيذين إلى هنجر كنج فقضى برودل لأن فى ذلك إخلالاً بالشروط المتفق عليها ، وبعد جدال طويل ومحاجة عدل الوزير عن رأيه ؛ ولكنه أبدى اعتراضاً على القوائم وأصر على وجوب إنفاسها ، ولم يجد برودل بدلاً من أن يعود بها إلى السجناء لينقضوها وقد وقع ذلك من نفوسهم وقماً شيئاً ولكنهم نزلوا على حكم الضرورة ...

وفى الرابع عشر من ديسمبر صدر أمر الخديو بمصادرة أملاك الزعماء السبعة وأموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك أى ملك فى الديار المصرية بطريق الأرث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة ما مع ترتيب معاش سنوى لـ كل منهم بقدر الضرورى لمعيشتهم ...

وما أن صدر هذا القرار حتى سلكت الحكومة مسلكاً يدل على الصغار والحقارة في الخصومة ، إذ أسرعت بإرسال جند افتتحوا منازل الزعماء في غلظة ولم يراعوا شيئاً حرمة ، وكانوا يقلبون الأمتعة رأساً على عقب ولا يسمحون بدخول أحد أو خروجه إلا بعد تفتيشه ، ولقد بلغت بهم الفظاظة والقحة أن كانوا يقتتحمون على السيدات خدورهن ؛ وكانت السيدات في تلك الأيام لا يرين الرجال إلا والنقاب على وجوههن ، وللمزيد أن يتصور مبلغ ما نالهن من ألم وفزع ...
ولقد شكا الزعماء إلى برودل مما حل بأزواجهم وببيوتهم وذهب برودل فقابل إسماعيل أيوب فتظهّر بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا وأحاله إلى رئيس الشرطة أو الحكمدار ، وهو يومذاك عثمان باشا غالب ...

ويقول برودل إن غالباً باشا ظل ساعة يتحدث في غير مواجهة من أجله ، ثم أشار إلى قطر في حجرته وقال إنه مليء بصور عرابي الفتوغرافية ، وأنه حطم في دكانين بعض المصورين زجاجات بصورة عرابي وصدر آلافاً مطبوعة منها ، وقال

إنه لا يفهم وقد فشل عرابي ماذا يريد الناس بعد ذلك منه؟ .
وبعد إلحاح برودل وعد غالب ألا يدخل الحراس بيوت الزعماء وألا يقتضوا
الداخلين والخارجين على هذه الصورة المهينة ولكن لم يف بما وعد ...
ويذكر برودل أن زوجة نايسير أرسلت إلى زوجها كتاباً من بيت على فهمي
تحببه بأن الحراس اقتحموه وروعوا السيدات واقتحموا الحجرات وطلبت من
زوجها أن يأتي إليها لأنها تخشى أن ينتقموا الحراس من الخروج ...
وذهب برودل ونايسير إلى هناك ، وتصادف أن كان الخديو في طريقه من
عابدين إلى قصر الأسماعيلية وكان يمر ببيت على فهمي ، فارعه إلا سيدة حاسرة
الرأس تفترض عربته فتوقفها وتصيح به « يا توفيق حارب الرجال ، ألم يكفاك
هذا حتى تخاف النساء ؟ إنك تراني الآن بغیر نقاب وفي وضع ينال من شرف
ولكن عار ذلك يلحقني كـ يلحقني » وتقدم بعض من شهدوا اللنظر فقدوا هذه
السيدة في رفق إلى منزلها وهي زوجة على باشا فهمي ، ولم يعد الخديو يسلك بعد
هذا الطريق ... ومشكت السيدة أنها إلى برودل وصاحبها من وراء ستار بكلمات
تتخللها إجهاشات مؤلمة ...

ولم تكف الحكومة عن هذا الطغيان إلا بعد أن تدخل دوفرين في الأمر ،
فلم يجد برودل مناصاً من انشكوى إليه ...

وحدث أن أبدت الحكومة تعنتاً في أمر جديد ، وذلك أن السفينة لا تتسع
للزعماء جميعاً ومن مفهم ، وعلى ذلك فهم لن يسافروا معاً وكتب اثنان منهم
رقمة وقما عليها لرسلاها إلى الحكومة وقد دعوا فيها للخديو بالتوقيف ، وما أن
رأها عرابي حتى صاح بيعوب سائى مغضباً أشد الغضب « هل وقمت على هذه ؟
إى أوّر أن أمرق إرباً قبل أن أفعل شيئاً كهذا ؟ لقد قلت ولا زلت أقول إن
توفيقاً لم يكن يصلح لأن يحكمنا فكيف أكذب اليوم وأدعوه ؟ إننا على أية حال
لم نبلغ هذا القدر من السقوط » .

وفي الرابع والعشرين من ديسمبر ، نشرت الوقائع المصرية أمراً خديوياً آخر

بتجريد الزعماء السبعة من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف التي كانوا حائزين لها ، وهو يوم عيد الميلاد زار برودل عراياً ...
وفي الخامس والعشرين من ديسمبر ، وهو يوم عيد الميلاد زار برودل عراياً وأصحابه في سجنهم ، وهنأه عرايى وزملاؤه بالعيد ، ولم يجد عرايى لديه ما يقدمه له هدية وذكرى غير مسبحته وبساطه ، وقبلهما برودل شاكرًا وتبادل وعرايى وأصحابه الصور ، وقد أغرىوا له جميعاً عن خالص مودتهم واعظيم شكرائهم له ولزميله وللمستربلنت ...

وأبى الحكومة إلا أن تخفي في صغارها وتمتن فيء قبل أن يسافر المنفيون فات عملاً سخيفاً أساء إليها أكثر مما ألم الزعماء ، وذلك أنها أبى إلا أن تلو عليهم قرار تجريدهم من ألقابهم على أعين بعض الجندي والناس .
حضرت عرباتان إلى باب الدائرة السنبلة ، وأمر السجناء بخلوة بعد الساعة الثانية بقليل أن ينزلوا في غير إبطاء ولم يكن آمرهم بالضرورة ليستطيعوا أن يقولوا لهم شيئاً مما يراد بهم ، ولكن إزاحهم على هذه الصورة كان مؤلماً لشمورهم إذ أنه لا يختلف عن معاملة الجرميين العاديين ...

ونزل الزعماء وهم يخشون أن يكون في الأمر غدر جديد فأمروا بالدخول في العربتين ، وسارتا بهم في حراسة بعض الضباط إلى قصر النيل ، حيث اصطف بعض الجندي على شكل مربع : وحيث اجتمع في شرفة عدد من عساكر الأنجلترا وضباطهم يتفرجون ويصفقون ووضع الزعماء وسط المربع وأخذ أحد الضباط يقلو عليهم قرار الخديو ، ولما فرغ هتف الجندي « يعيش سمو الخديو » ؛ وسئل الزعماء عن سيفهم وشاراتهم أين هي وهو سؤال سج لأنهم علايهم المدينة وليس معهم شيء ، ثم أعيدوا إلى العربتين فسارتا بهم إلى مقرهم في السجن وملء نفوسهم الألم والسخط على هذه الصغار وهذه الحقارة ...

وكان قد اجتمع عدد من الناس خارج قصر النيل فنظروا إلى عرايى وصحبه في ألم ولم يستطع إلا واحد أن يهتف « حاكم الله » ثم اندرس في الجماع ؛ وكان

يشهد الحادث خادم مصرى كان قد استأجره المستر برودلل منذ أن جاء إلى مصر ويدعى حسنا وكان شديد التحمس لعرابى وقد اشترى تأثيره وهو يقص على برودلل ما رأى وعقب على غياب السيف والشارات التى كانت تكسر وتنثر لو أنها وحدت ، فقل له « الله أكبر ! حق الخدوب لم يستطع أن ينال من عرابى ». .

وذهب برودل ونابير إلى السجن ، وأخذنا يهدنان خواطر الزعماء بالكلمات الطيبات ؟ ويقول برودل إنه تنفس الصعداء إذ علم أن السفينة ماريوبس^(١) دخلت قناة السويس فعلا لتكون على أهبة السفر من السويس إلى سيلان في مساء اليوم التالي ...

وبقيت مسألة هامة ، فليس مع عراي ولا أحد من أصحابه مال ؟ وقد بذل
برودلي مساعيه حتى صرف ل بكل منهم ثلاثة جنيهات مقدماً مما قدر صرفه لهم
بسم نديم ...

وقد كتب بيان بعد ذلك بنحو سنة معقباً على ذلك في إحدى الصحف
فكان مما قاله «إن عراياً الذي كان يستطيع أن يجمع لنفسه مليوناً من الجنسيات
لم يجد ما يشتري به ملابس له عند سفره وقد أرسل له بعض أصحابه حقيبة ملائى
بالملابس والقطار على أهبة السفر، وكانت أسرته تعيش وهو في السجن على صدقات
يدهمها بعض محبيه سراً وكانت أنا الذي أحملها إليها بيدي ... ولست أكتب
هذا بدافع عبادة البطولة ؟ وإنما لأبين لماذا اختار الشعب المصرى رجلاً نشأ من
طبقية الفلاحين وتتعلق به لأنّه يعرف ما يشكوه منه وكيف يدافع عن حقوقه المكتسبة
وآخر ذلك على أن يظل خاضعاً للسلطان الوروث » .

وفي اليوم السادس والعشرين من ديسمبر تأهّل عرّابي وأصحابه للسفر؛ وأُرسّلت إليه ببعض فضليات السيدات على يد برودل كثيرةً من المهدّايا^(٢) في حذر

(١) مجموع

Fort Nightly Review, November 1983 (Y)

(٣) لم يذكر مرودلي أسماءهن واكتفى بقوله بعض العظيمات ولعلهن من الاميرات .

خوفاً من توفيق ، فارسلت إحداهن حقيتين إنجليزيتين كبيرتين وأخرى مصطفى
نفي وثالثة سجادة للصلوة ، ورابعة حقيبة ملأى بالملابس الخامسة سلة جليلة ...
ولندع لبرودلى وصف هذا الرحيل قال « كان المتفق عليه أن يرتحل القطار
الخاص قصر النيل إلى السويس في الساعة العاشرة على وجه التحديد ... وفي
الساعة الأخيرة أخبرنا أن الرحلة ستتجول إلى ميعاد آخر بسبب رداءة الجو في
السويس ؛ ولكننا أخذنا الحيوطة فتركتنا حسناً عند السجن لينظر ماذا يحدث مخافة
أن نفاجأ مفاجأة أخرى .

وأقبل حسن قبيل الساعة العاشرة منقطع الأنفاس من المدوى فأخبرنا أن
الزعماء غادروا لتوجه الدائرة السنوية وكان نايبير في شغل بالبحث عن متاعه لأنه كان
يتأهب لرافقتهم حتى السويس ؛ فركبت عربة وأسرعت إلى قصر النيل ...
وكان منظر القصر واضحًا في نور القمر الساطع الذي كاد يمحو نور المشاعل
التي حملها بعض الحراس المصريين ؛ وكان أمام عربات القطار بعض شهود الرحيل
وكان بينهم السير شارل ولسن والمستر ماكنزي ولاس وعتمان باشا غالب .
وكان القطار عظيم الطول يكاد يمتد من أول الفناء إلى آخره ؛ وكان في مقدمته
السيدات وممن أطفلهن وفي مؤخرته الخدم والمتاع الثقيل وفرقة من الحراس
الأنجليز تحت إمرة الميچور فريزر ؛ وبعض الجندي والضباط المصريين الذين أتوا
أن يرافقوا النفيين حتى السويس ؛ وخصوصاً في وسط القطار عربة من عربات
الدرجة الأولى لم رابي وأصحابه ؛ وكانوا قد أخذوا أماكنهم في القطار عند ما بلغ
قصر النيل ... وبذا عليهم من البشاشة أكثر مما كان يبذلو على وجوه فريق منهم
من الأنجليز لو كانوا في مثل موقفهم ؛ وأسرعت إلى التوافذ لأنهم بعض كلمات
التدبّع ، وأعاد عرابي على كلمات ثناه وشكراً الطيبات ...

وكان الأمر بالرحيل على وشك أن يصدر ، ولكن بيان أعلنه الشرطة
عند بيت عرابي مثوا زوجة ابنه وأختها من مغادرته ... وما الحيلة ؟ لقد حانت
ساعة الرحيل ، ولم يكن ناظر محطة القاهرة يسمع بأى تأخير للقطار وكان على

الذى يقع فيه بيت عربى بميداً ؟ وعندئذ قال السير شارلز ولسن لعمان غالب باشا فى لمحة حاسمة إن القطار لن يمر مكانه إلا إذا حضرت السيدتان ؟ وأرسل غالب باشا عربته ليجىء بهما ... وأعقب ذلك فترة صمت محير ... وقد جاء بعض الخدم يحيونى ، وبحث المسر نايمير عن مكان له ولحقائب عربى وتقدم بعض الضباط الأنجلتراز فصاخوا عرباً وجلس إلى جانبه الميجور فريزر ، الأمر الذى ارتاح له عربى ارتياحاً ظاهراً ووصلت أخيراً سيدتان تلبسان ملابس يضاءن وسرعان ما توارتا فى إحدى المربات بين فريق السيدات . ولم يكن يغلق الباب عليهم حتى صدرت الإشارة برحليل القطار ، وغاب عربى وأصحابه وراء جدر قصر النيل ...

هكذا أخرج عربى ليسلا إلى حيث لا يرجو له خصومه عودة ، لم يره من الشعب المصرى أحد ولا ودعاه من محبيه أحد ، وتنفس توفيق وحزبه الصعداء مرأة ثانية ...

ولأن حيل بيت عربى وبين بني قومه وأخرج على هذه الصورة المدبرة ، فها نحن أولاء نودعه على صفحات هذا التاريخ بما هو أهل له من التوفيق والأجلال أخرج عربى من مصر مفروباً على أمره وأسدل الستار على حركته ، ومهما يكن من حقد خصومه عليه ومن محاولاتهم التوصلة لتشويه حركته من يوم أن طار صيته بحادث عابدين ، فإن شيئاً واحداً هو حسبه من الجهد والفاخر سوف يبقى على الرغم من كيدهم وسوف تزدهر الأيام وضوحاً درسوخاً لأنّ وهو أن عرباً كان الزعيم القوى الأول في مصر ، فهو أول فلاح من أعماق القرى هتف بمحرية مصر واستخلص لها الدستور وأنف أن يخضع لحكم الفرد ، وفرق بين ما هو حركة إسلامية عامة وبين ما أصبح يتحقق في مصر حركة قومية مصرية قوامها أن يكون أبناء مصر من الفلاحين هم السادة وهم مصدر كل سلطة لأنّهم عماد الترورة ودافعوا الفرائض ، ولأنّهم قبل ذلك أهل البلاد وأصحابها الحقيقيون ...

وهذه هي الدلائل على انتشارها في مختلف أنحاء مصر اليوم ...
كانت حركة عرابي حركة قومية على الرغم من باطل المطلعين ، وقد جدد بها
كثيرون من خصومه واستيقنوا أنفسهم ولم يستطع حتى كرومر نفسه كما ذكرنا
من قبل أن ينكر قومية هذه الحركة وقد جاء في موضع آخر من كتابه قوله «إن
حركة عرابي أكثر من أن تكون مجرد فتنة عسكرية . لقد كان فيها إلى حد ما
طبعاً للحركة القومية الحقيقة ؛ ولم تكن هذه الحركة موجهة كلها أو في جوهرها
ضد الأوروبيين والتدخل الأوروبي في الشؤون المصرية ولو أن التفورد من الأوروبيين
والتجني عليهم كانوا يسيطران على عقول قواد هذه الحركة ؛ إنما كانت هذه الحركة
إلى مدى عظيم موجهة من المصريين ضد الحكم التركي » (١) .

ولقد يتبادر أولاً في الأذهان موضع في هذا الكتاب كيف التفت الأمة حول
عربى وقد تجلى هذا الظاهر بوجه خاص فيما جادت به طوائفها جميعاً أثناء القتال ،
كما تجلى في المجلس العام الذى مثلت فيه طوائف الأمة جميعاً حتى الأمراء فكان
هذا المجلس يحقق مؤتمراً وطنياً عاماً يتكلم باسم الأمة ...

ومن كتبوا عن عرابى فأنصفوه وأنصفوا حركته السير ما كنزى ولاس الذى
رافق المورد دوفرين إلى مصر قال « لم يظهر من عهد محمد على أو من قبل ذلك
بزمن بعيد رجل في مصر كان له على البلاد من السيطرة مثل ما كان لعرابى ، فإنه
لم يقتصر أمره على أن الشرطة والجيش كانوا رهن إشارته بحيث يستطيع أن يأخذ
بالإرهاب كيف يشاء ، بل كان يتمتع كذلك بمطاف كل الطبقات في مصر تقريباً.
ولم يحصل عرابى على نفوذه أو يحافظ عليه بالأرهاب لأنه عند بدء حركته لم يكن
لهية أية قوة يضر بها أحداً ؛ ولم يعلم عنه أنه في أثناء قوته ذبح شخصاً أو
شنقاً أو رمأ بالرصاص ؛ ولو أنه خاض معركة انتخابية خالية من وسائل الشفاعة
وكان خصميه فيها توفيق لفاز عليه بأغلبية هائلة من أصوات الناخبين الأحرار » (٢)

(١) M. E. Cromer P. 251

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 379

وقال في موضع آخر «إذا كنا لم نرد أن نقيم نظاماً دائماً في مصر فلماذا ذهبنا إلى هناك؟ وإذا كنا لم نرم إلى إقامة حكومة صالحة حقاً فلماذا قضينا على الحزب القوى الذي كان لديه فرصة لإقامة نظام من أي نوع، كان خيراً مما يصنع الخديو الذي أعدناه إلى سلطته»^(١)

وكذلك من أصفوا عرباً اللورد شارلز برسفورد الذي اشتراك في ضرب الأسكندرية فقد كتب في التيميس بتاريخ الثامن من يناير سنة ١٨٨٣ «حقاً إن من الممكن أن تسمى حركة عربى حركة قومية ، فقد نعمت بها بعض الأنجلترا بهذا في شهر مايو سنة ١٨٨٢ عند ما تحرجت الأمور تحرجاً خطيراً ، وكان منهم بعض الضباط البحريين من ذوى المكانة والذين حضروا في الأسطول الذى جاء إلى الأسكندرية ... ونحن إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة النظر المصرية لا يخالجنا أدنى شك في أن عرباً كانوا يحظى بمطاف الشعب المصرى ... ويستطيع عربى وأصحابه أن يقولوا إنهم كانوا يحاربون في سبيل الأصلاح ، وإن الدليل الذى يؤيد عدالة قضيتهم هو أن إنجلترا آخذة في تنفيذ إصلاحاتهم بالذات ؛ ويستطيعون كذلك أن يبرهنوا بحقيقة أخرى هي أنهم لم يأخذوا من الشعب قرشاً واحداً إلا ما رأوا أنه ضروري لخير الشعب الأمر الذى يعد نادراً في الشرق» ...

أما برودل فيقول عن عربى «إن لا أكتفى بأن أقول إن الأمة كلها كانت في جانب عربى بل إنني أقر في غير خوف من نقض أرأى أن عرباً وأصحابه قد أظهروا في أداء رسالتهم أمانة نامة واعتدلا وروحاً إنسانية تشرفهم على مدى المصور» ... وقال في موضع آخر: «ليس يخامرنى أقل شك في أن عرباً وأصحابه كانت لديهم كل القدرة على أن ينهضوا بحكم أنفسهم حكماً شعبياً وأن ينفذوا في جداره كل التغييرات والأصلاحات التي خلفوها لنا بصفتنا ورثتهم وخلفاءهم . لم يكن عربى من ذوى الأحلام أو من ذوى التجمس ، وإنما كان - إذا قيس بالقياس المصرى - رجلاً متعلماً ذا مقدرة ملماً بشؤون وطنه وما تحتاج إليه بلاده وهب

كثيراً من النشاط وقدرًا عظيمًا من أمانة الفرض » ...
وكان الأمراء والعلماء والأعيان وهم صفوة الأمة يجلون عراياً ويرفعون قدره .
كتب إليه الأمير إبراهيم باشا وهو بـ كفر الدوار فكان مما خاطبه به قوله « إلى
صاحب المسماة حاتى حقوق مصر أحد باشا عراي » (١)

وأثنى الأمير في كتابه على همته ونحوه وعبر له عن مودته ومحبته ...
وقال الشيخ محمد عبده فيما كتبه للمستر برودل بعد أن ذكر ما كان بينه وبين
عرابي من خلاف في الرأي قبل يوم عابدين « إن الاجتماعات العامة المتنوعة التي
عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور رئاسة سلطان باشا حوت في الحال
مقام عراي من قائد جيش إلى قائد مصر ، وحينئذ أصبحت سلطان باشا والبلاد
المصرية قاطبة من أنباع أحد عراي » (٢)

وقال برودل عن الشيخ محمد عبده « إنه أمندنا بقدر كبير من المعلومات عن الأيام
الأولى للحركة القومية ، ووصف وصفاً حياً كيف أصبح عراي بطل مصر الذاي
الصيت ، وكيف أن آلافاً من الآباء المصريين سموا أبناءهم باسمه وكيف ذهب اسم
 توفيق من الأرض » (٣)

وكانت أميرات الأسرة الخديوية ما عدا زوجة توفيق وأمه ، يطفن على عرابي
ويتحمسن لقضيته ومن بينهن الأميرة أنجيه هانم أرملة المرحوم سعيد باشا التي
أهدت إلى عرابي خيمة زوجها : وقد كتبت هذه الأميرة إلى المستر برودل بعد
الحكم على عرابي تثني عليه أعظم الثناء وتشكره على صنيعه ، وقدمت إليه وإلى
زميله هدايا غالية ...

وذكر برودل حديثاً طويلاً جرى بينه وبين أميرة لم يذكر اسمها وكان يشير
إليها بقوله الأميرة ثم يضع خطأً مكان اسمها وما قالته هذه الأميرة « كانت تعطف

(١) How we D, Arabi p, 381

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٢٢٧

(٣) how we D, Arabi p, 200

كل واحدة منا على عراقي سرّاً لأننا عرفنا أنه يعمل خير مصر ؟ وقد ظننا في وقت ما أن توفيقاً يؤيده ، ولكننا لما رأيناها ينوى أن يخون مصر كرهناه أشد الكره ، وقد بذل كل ماف وسعه ليشقينا منذ ذلك الوقت ، ولقد حدثته الأميرة أنجه التي نجلها كل الإجلال ولكن في غير جدوى ؛ وذهب توفيق عقب ذلك إلى الأسكندرية وانضم إلى الأنجلترا ، ومنذ ذلك الوقت أتجهنا صوب عراقي للدفاع عن الوطن ... وكانت حماستنا له لا تعرف حدّاً وكنا نكتب له جميعاً الرسائل والبرقيات نهنئه ونشد أزره ... وقد كتبت له الأميرة — خطاباً عظيم الحق تمرض عليه أن تتزوجه لأمها تراه مخلص مصر»^(١)

وذكر بذلك في كتابه « أنه رجع إلى يومية من يومياته بتاريخ الحادى والثلاثين من يناير سنة ١٨٨٧ ، فوجد فيها أنه زار الأميرة نازلى التي يعد حديتها ممتناً في أي جماعة من جماعات الدنيا ، والتي كانت تعطف على عراقي أشد العطف وما ذكرته الأمير قوله « كان عراقي أول وزير مصرى حل الأوربيين على طاعته وقد رفع المسلمين رؤوسهم في عهده على الأقل ولم يجرؤ اليونانيون ولا الإيطاليون على الاعتداء على القانون ، وقد أخبرت توفيقاً بذلك أكثر من مرة ، والآن ليس هنا من يحفظ النظام فأنا المصريون وحدهم هم الذين يقمعون تحت سلطان الشرطة ويفعل الأوربيون ما يشاءون »^(٢)

وقد أورد برودل رأياً الشخص لا يعken المرء أن يتذكر منه كلمة طيبة عن عراقي وذلك الشخص هو توفيق نفسه ! قال برودل « أتيحت لي أن أرى توفيقاً مرتين وذلك عند ما سمح بأن يلقاني في قصره بعادين ... وبعيد أن قدم لي دخينة بدأ الحديث فأكدر لي أن أوربا أخطأها فهم آرائهم فيما يتصل بالتحقيقات الأخيرة فهو لم يرد فقط موت السجناء ولا اعتناق هذه الفكرة وكان إيدال الحكم عليهم تجربة سارة للتسامح أملتها عليه إرادته ... وحاولت أن أتكلم قليلاً عن عراقي فقال

(١) How we D. Arabi P. 375

(٢) S. h. B. P. 394

الخديو إلهيرى حتى في هذا الوقت أن عرائياً من خيار الرجال ، وأنه لم يصدق لحظة فقط أن عرائياً أراد أن يقتله ، ولو أنه كان ينوى شيئاً من هذا لاستطاع أن ينفذه في مائة فرصة أتيحت له عند ما كان وإلياه في القاهرة (١) ...

هذا جانب مما يقوله المنصفون عن عرائب وحركة عرابي من ناحية حياته العامة أما من الناحية الشخصية فكان من أبرز صفاتة كارأينا من سيرته الورع وخشية الله والوفاء والأباء الذى قل أن كان له فيها تغيير بين أقرانه ، والإيثار الذى جعله يقدم مصلحة مصر وقضية مصر على مصلحة الشخصية ، وقد رأينا كيف خرج من الحرب صفر المدين كما قال المستر يمان ؛ كارأينا أنه لم يكن يخطو خطوة واحدة بداعط الطمع الشخصى ، وقد تجلى ذلك في حرصه الشديد الذى هو من صفات الزعامة الصادقة على قضية مصر وهو في محنته واهتمامه بأن يرد على كل مطعن يوجه إليها دون أن يعني قليلاً أو كثيراً بما يقال عن شخصه ...

* * *

أقامت بعرابي وأصحابه السفينة مريوت من السويس في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم السابع والعشرين من ديسمبر ؛ وهى سفينة إنجليزية صغيرة حولها نحو أربعمائة وألف طن وقد استأجرتها الحكومة المصرية لنقل هؤلاء المنفيين ... ولم يقتصر الأمر على هؤلاء السبعة المنفيين فقد صدرت في مصر بعد ذلك أحكام أخرى على عدد كبير جداً من المصريين ، فحكم على الروبي باشا والسيد حسن موسى العقاد بالنقاشرين سنة في مصوع ، وعلى أحمد عبد القفار بالنفي ثمان سنوات خارج مصر وعلى أحمد باك رفعت بخمس كذلك خارج مصر وعلى الشيخ محمد عبده بثلاث قضاها في بيروت ...

وتحكم على نحو خمسة وثلاثين غير هؤلاء بالنفي مدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات ؛ وقضى على طائفته من كبار الأعيان بتجريدتهم من الرتب والامتيازات وأن يقيم كل منهم في بلده مدة معينة تحت رقابة الحكومة المحلية مع دفع تأمين

مالٌ كبيرٌ . وكذلك قضى على عدد من كبار الباشوات بأحكام كهذه وإن خلت
من التأمين المالي ...

أما العلماء فقد قضى بتجريد عدد كبير منهم من رتبهم وشارات مرتفهم
وامتيازاتهم ومن هؤلاء الشيخ حسن المدوى وابنه الشيخ أحمد المدوى
والشيخ محمد أبو الملا الخلفاوي والشيخ أحمد عبد الغنى ...

وقضى على عدد كبير من الموظفين والممدوه والأعيان بثل هذا الحكم ؛ كما فصل
أكثر من خمسين ومائتي ضابط من ضباط الجيش وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم
وحرموا من صرف الاستيداع ومعاش التقاعد ...

ومن أكبر مآسي هذه الأحكام ما حكم به على يوسف أفندي أبودهة ، فقد
كان هذا الضابط ياوراً لمبعوث العال قائد دمياط وأرسله في أمر إلى عرابي بكفر
الدوار ، وتصادف أثناء صروره بطنطا أن شهد فيها تلك الفتنة التي أشرنا إليها بين
الأوربيين والمصريين ، فذهب إلى المدير إبراهيم باشا أدhem فألفاه مهارضاً فعبر له
عن أسفه وكان في كلامه شيء من اللوم ؛ ولما أخبر عرابياً بذلك بادر عرابي
بإصدار أمره بالقبض على أدhem باشا والتحقيق معه ...

ومن المؤلم حقاً أن يقبض بعد هزيمة عرابي على هذا الضابط الأمين ثم يتم
باثارة الفتنة في طنطا ويحكم عليه بالموت ؛ وينفذ عليه هذا الحكم فيشنق وهو
بريء ... وما يزيد في معنى هذه المأساة أن الخديو أصدر عفوًّا عنه ولكن البرقية
المرسلة بهذا المفعول لم تصل إلى المختصين إلا بعد أن نفذ القضاء وشنق الشهيد ...
وحسبينا هذا الحادث وحده للدلالة على ما كان يسود هذه الفترة ، التي أعقبت
الثورة من إرهاب وبطش ومظالم كثيرة ..

* * *

وفي التاسع من يناير سنة ١٨٨٣ رست السفينة سريوتيس بميناء ،
كولومبو بسر نديب وزل الزعماء السبعة ليعيشوا بالجزيرة ما بقي من أعمارهم كا
كان مقرراً في حكم النق ...

وإن المرء ليتمنى ألا وحقناً على هذا الحكم الجائر الذي يقضى بحرمان هؤلاء الأمجاد اليامين من وطنهم الذى أحبوه في غير ذنب إلا هذا الحب ... ولو أن عرائياً قدم إلى محكمة عادلة يريد إحقاق الحق لما كان هناك إشكال في براءة من جميع ما نسب إليه من لهم ، فقد رأينا كيف عجزت لجنة التحقيق مع اضطرارها عليه عن أن تدينه في همتي تدبير فتنة الأسكندرية وإحرافها . أما المصليان فلم يكن له أى أساس أو شبه أساس كما يتنا ، وإنما قفت الظروف أن يقر عراي إقراراً صورياً جانباً منه وهو عصيان أمر الخديو وذلك بالاستمرار في الحرب بعد أن طلب وقفها ... وما سمعنا أنه في تاريخ المحاكمات في الدنيا كلها قد تقدم الحاكمون يساومون المتهم على أن يقبل كيت وكيت ثمناً لأن يعفى من الموت ! كذلك ما سمعنا أن متهمًا يتفق معه على ما يمحكم به عليه قبل مثوله أمام قضاة ، ولو أن عرائياً ضمِنَ أن يكون قضاة من يطمئن إلى عدالتهم ما قبل هذا الوضع وهو موْقَنٌ من البراءة ... ومن أبلغ الظلم في هذه المهزلة المازلة أن يُعنَى على امرء برىء بأن ينفي بدل أن يموت لأن من التفضل عليه أن يظلم هذا الظلم الفادح بحرمانه بقية حياته من العيش في وطنه ومن ممتلكاته التي أحلها الله له ومن أهله وعشيرةه وقد كان ينو مصر جيماً أهله وعشيرته ... ولكن هكذا شاعت سياسة إنجلترا ، فإن حملتها جاءت إلى مصر لأسباب بسطناها تتلخص في تحقيق حلمها القديم ، ولكنها ادعت أنها جاءت للقضاء على العصابة ، ولو برىء هؤلاء العصابة فكيف كانت تبرر إنجلترا مجنيها إلى هذه البلاد؟ ذلك ما جعل دوفرين يقترح ما اقترح ، وذلك ما قامت عليه مهزلة المحاكمة وما نتج عن هذا النفي أو هذا الظلم العظيم ..

أكياة في سرديب

تبلغ مساحة هذه الجزيرة التي تزل بها عرابى وأصحابه نيفاً وخمسة وعشرين ألف ميل مربع ، وتكثر بها سلاسل الجبال بالجنوب ويتخللها كثير من السهول الواسعة الخصبة التي تنمو فيها غابات عظيمة وعرة المسالك كثيرة الأراج والألغاف .. وتبلغ أعلى قمة فيها ثمانية آلاف قدم ، ومن أشهر هذه القمم قمة جبل آدم وتبلغ ما يزيد عن سبعة آلاف من الأقدام ..

ومناخ الجزيرة استوائى ولكن إحاطة البحر بها يلطف حرارتها : ومن أشهر مدنهما كولومبو وهى عاصمتها وأهم ثغورها ، ثم چافنا وكندى وكالوتارا .. والتربة عظيمة الخصوبة وتكثر فيها أشجار الفاكهة والخضروجوز الهند ويزرع فيها الشاي والبن والأرز والقطن والتوابل والطباق . وتمتد سيلان من أعظم حقول الشاي في العالم

ومن حيواناتها الفيلة والنور والدببة والجاموس والفلزان وتكثر فيها أنواع الزواحف وأعماط الطيور ...

وقد حل بها البرتغاليون منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، والهولنديون منذ منتصف القرن السابع عشر وفي سنة ١٧٨٥ امتنكها الأنجلز وكانت ملحقة بمدراس ، ثم جملوا منها مستعمرة قاعدة بذاتها سنة ١٨٠١

ومن سكانها الأصليين قبائل السناليز ، وأصلهم من الهندو من حوض نهر الكنج وقد حلو بها منذ القرن السادس قبل الميلاد ولغة هؤلاء أقرب إلى الهندية الحديثة وديانتهم البوذية ، ثم قبائل التاميل وقد نزحوا إليها من جنوب الهند وديانتهم الهندو كية

ويقطن الجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربي أو من أصل هندي ، وهم من أذكى سكانها وأكثرهم نشاطاً
كما أن بها بقايا البرتغاليين والهولنديين وعددًا من الأوروبيين من مختلف
الأجناس وعددًا من أهل جاوة والملابي وغيرهم من الآسيويين
ويقول عرابي في مذكراته الخطوطية أن تعداد أهلها زمن إقامته بها كان
نحو ثلاثة ملايين منهم خمسون ومائتا ألف مسلم ، وأن السنهاليز والتاميل أهل دعوه
وسكنون يكرمون الغريب ومحسنون معاملته ..

* * *

ويتحدث عرابي عن زوله بالجزيرة قاتلا « وفي غروب يوم الأربعاء الواقع
في ٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخلت الباخرة إلى ميناء ثغر كولومبو بجزيرة سيلان وألقت
رساها خضر إلينا وكيل حكومة سيلان ، وحياناً تحية القدوم ، وأخبر
موريس بك (١) بأن الحكومة أعدت أربعة بيوت لذوى العائلات هنا وفيها
الخدم وكل ما يلزم من أسباب الراحة كالسرير المفروشة الالزمة للنوم والكراسي
وأدوات الطبخ والسفرة والدواليب وغير ذلك وذخيرة ثلاثة أشهر ضيافة لنا ،
ولكن على حساب مصر ، ونمن تلك الأدوات ثلاثة آلاف جنيه . ثم أمضينا
تلك الليلة في الباخرة المذكورة ، وفي الصباح من يوم الخميس غرة ربیع الأول
سنة ١٣٠٠ و ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ خرجنا إلى البر فوجئنا رصيف الميناء مزدحماً
أيضاً ازدحام بأخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل جاوة والهندي والملابي
وأعيان طائفتي التاميل والسنهاليز أهل البلاد من عباد الأوثان على مذهب بوذا ،
وكانوا يشيرون إلينا بالسلام وزيادة الاحترام

ثم تقدمت لنا العربات فركبنا وتوجهنا إلى البيوت المذكورة وكان قد خصص
لنا بيت عظيم يسمى « ليث هاوس » ومساحة بستانه ١٤ فدانًا وأعظم أشجاره
من جوز الهند والوز وغيره ، فتوجهنا إليه والناس مزدحرون على جانبي الشوارع

(١) مراقفهم المتدب من قبل الحكومة المصرية

عن الميناء إلى البيت الذي كور بهنون لنا بالترحيب والأكرام إلى أن وصلنا إلى المنزل الذي كور وأخذنا معنا طلبة باشا عصمت وعبد العال باشا حلبي ليقيمها معنا حيث أنها تركا عائليهما بمصر . وكذلك توجه محمود باشا سامي مع محمود باشا فهمي ليقيمها في منزل واحد لأن الأول ترك أهله وأولاده بمصر أيضا ؛ وإنفرد كل من على باشا فهمي ويعقوب باشا سامي في بيت على حده لوجود عائليهما معهما ولما دخلنا البيوت المعدة لنا ، أخذت تلك الطوائف تتوارد علينا للسلام بوجوه باشة وقلوب طاغية بالحبة والحنان ليلاً ونهاراً »

وكان عدد من رافقوا الرعماه السبعة من الأهل والخدم واحدا وأربعين ؟ وكانوا عند وصولهم كبناء أسرة واحدة جمعت بينهم الحنة كما جمعت الصدقة من قبل ووقة الفربة أو أصر المحبة ..

وبعد ثلاثة أيام من وصول الرعماه إلى الجزيرة أولم لهم كثير من وجوهها وتجارها الولائم ، واشتراك في ذلك المسلمين وزعماء السنهايلز والتامل ، وقد استقرت تلك الولائم بضعة أيام ، وكان يدعى إليها كبراء سكان كولومبو ، فعرفوا زعماء المصريين وألفت تلك الاجتماعات بينهم .

وأولم عربي وأصحابه لهؤلاء ولهم كبيرة وصفها عربي بقوله « وبعد ذلك أقنا ولهم جامدة لأعيان المسلمين والأنجيليز والتامل والسنهايلز وكان عدد المدعوين إليها مائتي شخص على اختلاف الأجناس والمذاهب والمقتدات شكرأ لهم على حسن حفاوهم بنا »

وكانت الحكومة المصرية قد أرجأت تقرير ما يلزم عذراً لأكلاف العيش لـ كل من المنفيين حتى تعلم حال الجزيرة من حيث رخص الأنعام أو غلاءها ؛ وفي فبراير سنة ١٨٨٣ وصل إلى الجزيرة حاكم جديد هو السير آرثر جوردن خاطب الحكومة المصرية فقرر تعرابي خسيف جنيهها كل شهر ولـ كل من أصحابه عانية وثلاثين ..

وكان عربي وأصحابه يقضون أوقاتهم في القراءة والكتابة ، وتعلم اللغة الأنجلزية وفي التماور بينهم وبين حكام الجزيرة وأعيانها .

وكتب عربي إلى صديقه برودل كتاباً في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣ كان مما جاء فيه « . وقد لقيتنا السلطات هنا في الجزيرة بالحفاوة وأعدوا بيوماً لاحتنا وزودونا بقدر كبير من الأطعمة الدسمة التي كفتنا وأمسنا بضعة أيام .. ونجد الجزيرة ملائمة لسكنانا كل الملاحة عناخها ؛ ونتزم أن نرسل أبناءنا إلى المدارس المحلية وأن نتعلم نحن اللغة الأنجلزية ... وبيعت إليك إخوانى وأبناؤهم خالص مودتهم ؛ وإنى أرجو أن تذكروا أخي أحمد باك رفت إذا كان عندك وإلى أمك العزيزة التي هي موضوع إجلالنا جميعاً »

وابى وفاء بلنت إلا أن يزور صديقه في منفاه ، وقد اضطر أن يبق بلندن كما رأينا ليذربر وسائل الدفاع عنه فلم يستطع أن يزوره في مصر

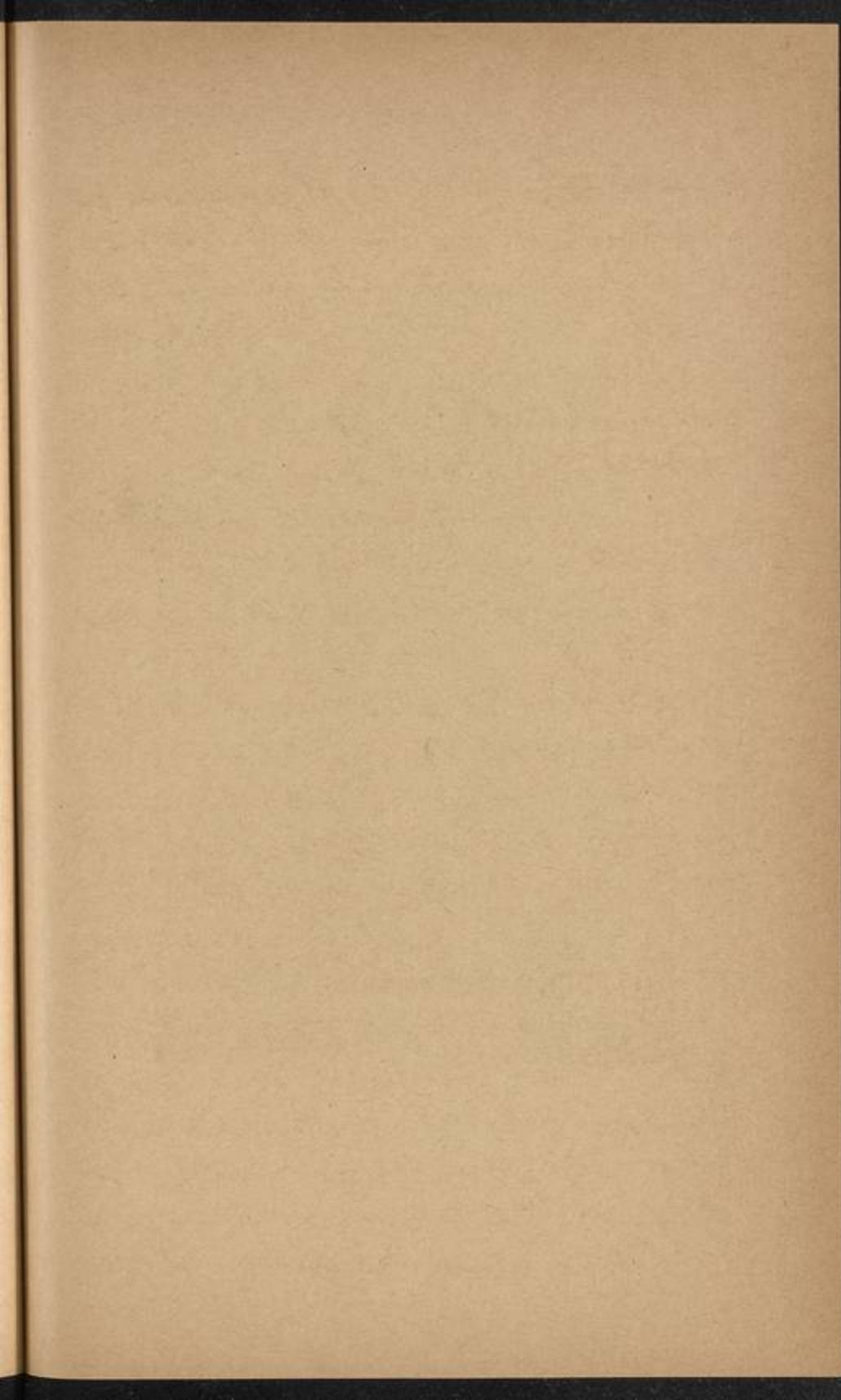
يقول عربي « وفي ١٢٠ كتوبر سنة ١٨٨٣ حضر صديقنا المستر بلنت من إنجلترا لزيارة وتهنئتنا على نجاحتنا من أيدي خصومنا . وبوصول الوابور كولومبو هرع جميع سكان الثغر المذكور لاستقباله حيث كانوا على استعداد تام لذلك قبل وصوله ، وقد أخذنا نحن وإخواننا وأولادنا زورقاً يخارياً وذهبنا إلى الوابور المذكور ثم صعدنا إليه وحظينا بمقابلته ومقابلة السيدة الفاضلة اليمى آنا بلنت وكان بمعيّتها القس لويس صابونجي ثم ترلنا بعد ذلك إلى الرفاص وعدنا إلى البر والزوارق الأهلية محطة بنا يهتف من فيها باصطلاحات الترحيب وبشيرون بأيديهم علامه للسلام والأعظام .

ولما وصلنا إلى البر تكاثرت علينا جموع المحتفلين بقدوم السير ولفرد اسكونا بلنت حتى تيسر علينا الوصول إلى المركبات ولو لا تدخل الشرطة لمنع ذلك البحر الزاحف من التكادس حولنا لاضطررنا إلى الوقوف في المياه الساعات الطوال ..

ثم ركبتنا العربات وتوجهنا إلى مرأى مورجن المدة لأقامة ذلك الضيف



(عراي في مدخل بيته)



الكرم مدة ضيافته ، وهي كائنة على بعد ثلاثة أميال من الميناء بجهة متواز «
مشرفة على البحر ، وكان الناس مصطفين على جانبي الطريق الموصل إلى السراي
وهم يحيون الستر بلنت ونحن معه في المركبة بوجوه باشة وأسaris نفرة حتى
وصلنا قصر الضيافة »

وبالغ أهل المدينة في الحفاوة بضيف عراibi وزوجته ، فوضعوا الزينات على
الدار التي نزل فيها ، وأقاموا أقواس النصر على مقربة منها وزينوها للناظرين
بالأحسان من كل صنف وبالأزهار المختلفة الألوان ، وكثروا عليها بالأنجليزية
« مرحباً بالصديق الوف المستر وفرد إسكون بلنت »
وأعدوا له مأدبة كبيرة شهدتها أكثر من مائة مدعو ، وخطب بعض الخطباء
مرحبي بالضيف العزيز وأثنوا على وفاته وإخلاصه ؛ ورد بلنت شاكرأ لحم حفاؤتهم
وshiref إحسانهم ...

وأقام بلنت وزوجته بالجزرة إثنين وعشرين يوماً ، وكان لقامة بين الزعماء أثر
طيب ، فقد أخذ قبيل مجئه يدب ديب الخلاف بين عراibi وبعض إخوانه وبخاصة
محمود فهمي باشا الذي استوحش المنفي فأضطررت أعيشه ، وهو في الحق منذ أن
أنسل نفسه لا يتجلى في الميدان الشرقي لا يخلص الود لعراibi ، ولم يلملأ كان يرجو من
وراء ذلك أن يخفف عنه ، فلما نفي مع المنفيين خاق صدره وأخذ يتذكر لعراibi
ويرد إليه سبب ما لحقه ...

وأعاد بلنت الوئام بينهم ولم يختلفوا بعدها أبداً ، وإن كان محمود فهمي باشا
ليخفق في نفسه ما لا يستطيع أن يبديه من السخط والنفور .

وفي شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ زار عراibi في كولومبو اثنان من اللوردات
الأنجليز هما اللورد روزبرى واللورد ما كدونالد واستطلاعا رأيه في حركة المهدى
بالسودان ، وكان يترجم الحوار بينهما محمود فهمي باشا ، فسأل عراibi هل محمد أحد
هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟ وأبدى عراibi دهشته قائلاً وماذا يعنيكم من أمره ؟
فقالا إن أمره بهم إنجلترا فإن في الهند ستين مليوناً من المسلمين يعتقدون أن

المهدى المتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، وأجاب عرابى بأن كل داع إلى الخير والصلاح هو مهدى ولكن لا يكون المهدى المتظر ؟ و قال اللوردان إن الحكومة الأنجلزية أرسلت جيشاً مكوناً من عشرين ألفاً بقيادة هكس وسالا عرابياً هل يكفى هذا الجيش للتغلب على المهدى ؟ فقال عرابى « نحن نرى أن وجود قائد إنجلزى على جيش يكفى من صالح المهدى فإنه يحكم بغير المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة ، وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قوياً يخشى جانبه » .

ونصح عرابى بمقابلته في منتصف الطريق بأن تقيمه مصر أميراً على السودان على أن يكون تابعاً للتابع المصرى ، وتباً عرابى باندحار حلة هكس ؛ وفي اليوم التالي أذاعت البرقيات هلاك الحلة كلها ...

وفي شهر يناير سنة ١٨٨٤ زار عرابياً في كولومبو ماه راجا سلطنة لاهور ؛ يقول عرابى « فلقيناه بما يجب لجلالته من التمعظ والاحترام وكان بعنته مستشار إنجلزى حتى لا ينسى نسبة إلا حفظها الرقيب عليه في حبة قلبه ، وبعد نصف ساعة عادا إلى دار حكومة سيلان » .

ووردت إلى عرابى بکولومبو رسالة خطيرة من المستر بلنت في أوائل سنة ١٨٨٤ ذكر فيها بلنت أن الحكومة الأنجلزية تفك فى تعيين عرابى سفيراً مؤقتاً إلى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متوجهة إلى إعادة إسماعيل بشرط أن يكون عرابى رئيساً لوزارته باعتباره زعيم مصر المختار ؛ وطلب بلنت رأى عرابى فأبرق إليه عرابى أنه يرفض ذلك وأنه يؤثر المنف على مثل هذه العودة وهذا الحكم تحت رئاسة إسماعيل الذى لا يشاكل مبادئه وخططه ، وقد أدى مقتل غوردون إلى الانصراف بالضرورة عن هذه المسألة ...

وكان لغوردون قبل ذلك مساع لأعادة عرابى إلى وطنه ، فقد كتب بلنت في صحفة البول مول جازيت في الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٨٧ مقلا

جاء فيه قوله «يجب أن أشير إلى أن الحكومة الأنجلوـية أدركت خطأها واعترفت بإصلاح موقفها وذلك بأن تعهد عرابياً بعد سنة أو سنتين من نفيه وتساعد على تشكيل الحزب الوطني من جديد ويؤيد رأي هذا كتاب وصلني من الجنرال غوردون وإن أسمح لنفسي بأذاعة محتوياته لأول مرة فقد كتب لي من الكتاب ينبئني عبليه وعطفه على عرابي باشا طوال مدة الحرب ولما عاد إلى إنجلترا في ديسمبر سنة ١٨٨٢ تفضل بزيارة ليؤكدي عزم الحكومة ونياتها وهذا أندى حين رجعت إلى اليومية التي كتبتها عن هذه المقابلة وجدت أنني كتبت فيها « زارني الجنرال غوردون وتفدى معي بمنزل السكان بشارع جيمس وقد تبين لي أنه كان يعطف عطفاً ناماً على عرابي إبان الحرب وقال الجنرال إنه أتي ليدرس معي أمر إنشاء حكومة حرة في مصر تحت ملاحظة إنجلترا » ...

وكان حياة الزعماء بالجزيرة حياة ودية لا تغير فيها ، ولكنهم لم يشعروا بالملل وذلك لما كان بينهم وبين سكان الجزيرة من صلات الود ومن المكاتب والزيارات وفي سنة ١٨٨٨ احتسب عرابي ابناؤه في الثالثة من عمره كان يسمى صالح ، وقد توفي بالدفتريا ، وحزن أبوه عليه حزناً شديداً .

ولم يقع مقدر بعد ذلك حتى كانت سنة ١٨٩١ فقضى عبد العال باشا حلمي تحبه في شهر مارس ، وكان لموته غريباً حزن عميق في نفوس أصحابه ، ورأوا في مصيره شبح مصيرهم فعظم ذلك عليهم ، وقد ذكر عرابي نباً وفاته بقوله « وفي سنة ١٣١٠ توفى إلى رحمة الله شهيد الوطنية والفرقة عبد العال باشا حلمي ودفن في قرافة قسم مردانة أيضاً وضريحه مشهور يزار ؛ ومن كراماته ما شهدناه من اجتماع أسراب الطير فوق نعشة تسير بسير الجنائز حتى واريناه التراب وقد أخذ المحب من الناس كل مأخذ » .

وفي سنة ١٨٩١ ، زار السير توماس لينن صاحب مزارع الشاي المعروفة باسمه عرابياً باشا ودعاه إلى زيارة مزارعه على نفقته على أن يصحبه من يشاء من

إخوانه ؛ وقد رحب عرابي بهذه الزيارة « ترويحاً للنفس واستجلاء لاجتنان من أكdas الصدا الذي اصطلاح عليه » ...

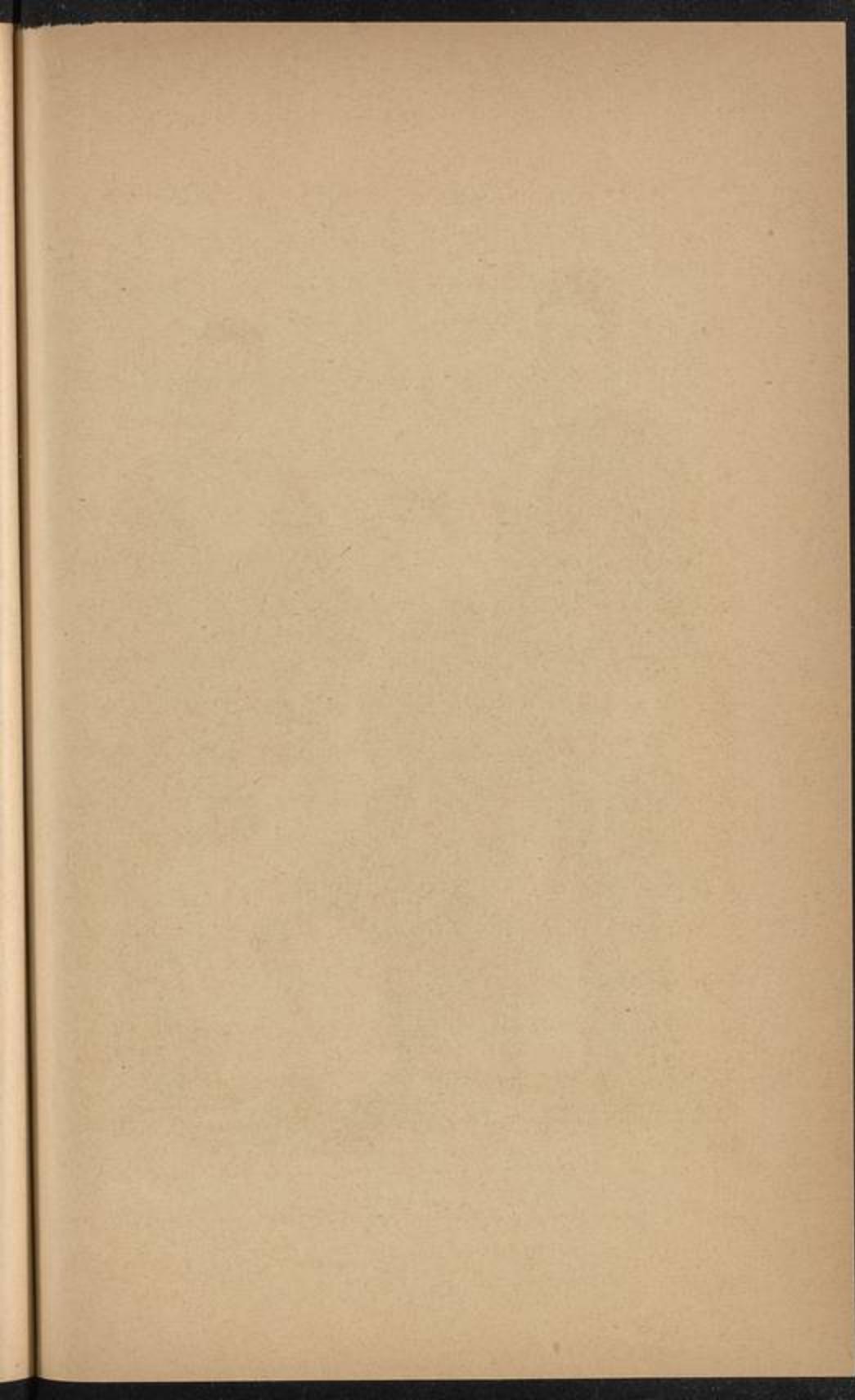
وعين السير توماس اثنين من وكلائه الانجليز لرافقة عرابي ؛ ولم يذهب مع عرابي من أصحابه إلا على باشا فهمي وكان أشد هم إخلاصاً ومحبة له ...

يقول عرابي « فقمنا من كولومبو ومننا أخونا على باشا فهمي والوكيلان المذكوران إلى مدينة كندي العاصمة القديمة ومقر الحكومة بطريق السكة الحديد فوصلناها بعد أن قطع بنا القطار اثنين وسبعين ميلاً ، ومن ثم ركبنا قطاراً آخر إلى نوراليه وهي آخر محطة للسكة الحديدية فبلغناها بعد طي عشرين ميلاً ، ومن هناك ركبنا المركبات وصعدنا إلى سطح جبل هناك وأقمنا ليالينا في فندق يقال له جراند أوتل ... ولما سمع المسلمون بقدمنا حضروا لزيارتنا والاحتفال بنا زرارات ووحداناً فشكراً لهم على حسن احتفاظهم بنا ودعونا لهم بالخير ... وفي اليوم الخامس سددنا خطواتنا إلى دمبتنا وهناك استقبلنا أهلها من المسلمين وغيرهم بكل بشاشة وإكرام وبعد أن تغذينا في ترلها امتعطينا حياداً كانت معدة لنا وصعدنا إلى سرائى السير توماس لبين البعيدة عن النزل بمسافة أربعة أميال ... وهناك وجدنا أسباب الراحة وافرة فأقمنا شهراً كاملاً في ضيافة صديقنا السالف الذكر ... ولإيجاد نوع البن اليمني في بلادنا المصرية أرسلنا إلى صديقنا المرحوم أحد باشا النشاوى تقاضى تكفي لزرع عشرين فدانًا حتى يتم انتشاره ، كما أرسلنا له لهذا الفرض أحسن أنواع المأجنة والموز الأخر والأصفر المصلح أيضاً وغيره من الأصناف المتعددة من الفاكهة الزكية الرائحة المديدة الطعم مما رجوت انتشاره في مصر . وبعثنا إليه أيضاً بأنواع الجبان والقرنفل والمنلا الطيبة الرائحة ... ثم زرنا مزارع صديقنا السير لبين بجهة يراسيا ومكثنا بها شهراً أيضاً » ...

وفي سنة ١٨٩٢ أى بعد نحو عشرة سنوات من مجئه إلى كولومبو انتقل عرابي إلى مدينة كندي وسوف يظل بها حتى يعود إلى مصر ... وقد أمر الحكم بسفره إليها في صالحه الخاص بالسكة الحديد ...



(عراقي في المتنى بين اثنين من أجياله)



وقد سبق عرابي إلى مدينة كندي محمود ساى ويعقوب باشا ساى وطلبة باشا
عصمت ، ثم انتقل إليها بعد بقليل على باشا فهمى ، ولم يبق في كولومبو غير
محمود فهمى باشا وكان قد أصيب بالفالج في جنبه الأيسر ...
وذهب محمود باشا فهمى إلى كندي لتبديل الهواء ونزل ضيقاً على محمد عرابي
نجل عرابي باشا ، وهناك وفاة القدر المحتوم فقضى نحبه في السابع عشر من
 يوليو سنة ١٨٩٤ ...

يقول عرابي « ومدينة كندي هذه كائنة في واد ذي ثلاث شعب بين
ثلاثة جبال ومهما يلت للحاكم ومحكمة نظامية في بيت ملوك طائفه السنهايز ...
وفي المدينة المذكورة ضريح للسيد شهاب الدين على مرتفع من الأرض يصعد إليه
بعرقى نحو عشرين سلماً ومسجد حده عظيم متقن وهو حرم المدينة ... وهناك مسجد
آخر لطائفة الملائ ، وكنيسة للبروتستانت وأخرى للكاثوليك ومعابد لطائفى
السنهايز والقامل ... وبلغ تعداد هذه المدينة عشرين ألف نفس منهم نحو عشرة
آلاف من المسلمين وكلهم على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه » ...
وصار امرأى مكانة عظيمة بين سكان هذه المدينة ، وقد سارع المسلمون
باستيراد الطراييش من الخارج ولبسها أسوة به وبأصحابه ، وبلغ من حبهم لعرابي
إجلالهم له أنهم كانوا يطلقون عدة طلقات من مدفن صغير بجوار المسجد الذى
كان يؤدى فيه صلاة الجمعة كل أسبوع ...

وذهب امرأى صيت في الجزر المجاورة مثل ملاديف ولا كاديف وفي الهند
وبورما والملابو ، وقد أرسى إله سلاطين هذه الجهات وبعض راجات الهند
كثيراً من المدaiا وظلوا على موته حتى عاد إلى مصر ؛ وكان يستشيره سلطان
چاؤة في كل أموره ويعد رأيه دستوراً لا يمكن نقضه ؛ ولما كان عرابي ممنوعاً من
مقادرة الجزيرة ، كان ينوب عنه بعض أولاده في إجابة الدعوات التي ترسل إليه
ومن ذلك دعوة أمير حيدر أباد في الهند ودعوات سلطان چاؤة وبعض سلاطين
الملابو وغيرهم في كثير من الجهات ...

وظل بعض أصحاب عربى وهم قلة قليلة فى مصر على الوفاء له فكانوا يرسلون إلى الكتب (١) ومن هؤلاء أحمد باشا المنشاوى ومحدى بك الزمر وحضر بك خضر والنجدى بك والشيخ أحمد عبد الغنى ، والشيخ محمد خليل المجرسى وكان منفياً بالحجاج ، وقد ضرب هذا الأخير مثل الأعلى فى الوفاء ، وذلك أنه لا انتهت مدة نفيه وهي خمس سنوات أرسلت إليه الحكومة إذنًا بالعودة إلى وطنه فرفض أن يعود « حتى يعود عربى وحتى يموت توفيق أو ينزل عن عرشه » ...

ودأب الشيخ المجرسى على إرسال كتبه إلى عراقى من الحجاج ، وكان إذا سمع عن أحد رجال الثورة الباقيين انحرافاً عن مبادئها كتب إلى عراقي ليسقطه من حسابه ، ويتبعين هذا فما كتبه عن أمين بك الشمرى فقد قابله أثناء الحج فكتب إلى عراقي كتاباً جاء فيه « وقد زار المدينة عدة أناس منهم أمين الشمرى الزقازيق وإلى لأنفس من دولتكم الاتخاطبوه أبداً في هذه الغربة حتى تتفصى هذه الكبرية فإنه أسيف على ضياع بعض أمواله وتغير بعض أحواله بسبب هذه المسألة ولا أسف له على المهم الأكبر من ضياع القطر وما حل بأعظم رجال الدين في هذا الأمر لأن أمثاله في خدمة الدنيا فقط ، أسأل الله الكريم بحاجة لهذا النبي العظيم أن يردمكم الرد الجليل مع الحفظ والنصر والسعادة الجزيل » ...

وظل على الوفاء له من الأنجلتراى المستر برودى ، فلم تنقطع كتبه إليه إلا بعد وفاته ، وقد أرسل إلى أولاده بعد وفاته أبىهم بذكر لهم أنه على استمداد لعاوتهم في المطالبة بردم أملاك أبىهم ..

وكان صديقه بلنت وزوجته آنا بلنت حفيدة اللورد يرون رسولان إليه الكتب الملوحة بالمطاف والمودة ، وكانت آنا تكتب العربية في يسر (٢) وكتب له غير هذين عدد من المجبنين بحركته من الأنجلتراى وبخاصة بعض أصحاب الصحف والمجلات ، وكانوا يستثنونه كثيراً عن حوادث تورته ..

(١) بين يدى بعض هذه الكتب يختلط أصحابها بفضل أبناؤه فاتسعنى عليها زماناً

(٢) بين يدى بعض كتبها إلى عراقي يختلط بها العربي وعباراتها العربية

وقد ذكر في أحد أبنائه أنه علم ممن لا يجهل ولا يكذب أن كثيراً من الرسائل تبودل بين أبيه وبين مصطفى كامل في أول حركته وأن فارس نغر باشا حصل على الرسائل التي كانت لدى مصطفى كامل ..

وفي شهر فبراير سنة ١٩٠٠ سمحت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة إلى مصر إذ ساءت صحته وقررت جمعية من الأطباء وجوب سفره في نفس السنة ودفن بعدهن الإمام الشافعى

وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٠٠ توفي بكنتدى يعقوب باشا ساى ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى ، وكان قد صدر العفو عنه ولكنه قضى نحبه قبل أن يبلغه النباء ..

وأصيب محمود باشا ساى البارودى بارتفاع فى القرنيتين أفقده بصره وقرر الأطباء وجوب عودته إلى مصر لمراجعته فى المناخ الذى نشأ فيه ، وعفا عنه الخديو عباس حلمى فعاد إلى مصر وردد إليه ممتلكاته الموقوفة ومتجمعة ريعها ولكن لم يعد إليه بصره ، وقد توفي سنة ١٩٠٤

وقد حدث في الثاني عشر من مايو سنة ١٩٠١ أن زار الجزيرة ولـى عهد إنجلترا وهو الملك جورج الخامس فيما بعد ولـى عراياً وترافق به وأظهر له البشاشة وسألـه عن صحته وعن حاله وكانت هذه الزيارة سبباً في عودة عرايا؛ ولندع لـعرايا أن يصف كيف كانت عودته قال «فعرضت على سـمه أنا اعتـبر تـشريفـه للجزـيرـة فـكانـاـ منـ الأـسـرـ فـتـكـرـمـ عـلـيـنـاـ بـأـنـهـ سـيـسـعـىـ لـدـىـ الخـدـيـوـ فـتـحـيـقـ أـمـيـنـتـنـاـ،ـ ثـمـ جـرـتـ المـخـارـةـ بـيـنـ سـمـوهـ وـبـيـنـ الـحـكـوـمـةـ الـأـجـلـيزـيـةـ وـالـحـكـوـمـةـ الـمـصـرـيـةـ فـهـذـاـ الشـائـانـ ..

وفي ٢٤ من الشهر المذكور جاءنا تلفراـفـ من حـاـكمـ الجـزـيرـةـ يـقـولـ فـيـهـ إـنـهـ قـادـ إـلـىـ كـنـدـىـ لـيـشـرـنـاـ شـخـصـيـاـ بـصـدـورـ أـمـرـ الخـدـيـوـ بـالـعـفـوـ عـنـاـ وـعـوـدـنـاـ إـلـىـ وـطـنـنـاـ الـعـزـيزـ،ـ وـبـحـضـورـهـ تـوجـهـنـاـ إـلـيـهـ وـشـكـرـنـاـ عـلـىـ لـطـفـهـ وـعـرـضـنـاـ عـلـيـهـ أـنـ لـنـاـ الـحـقـ فـالـسـفـرـ عـلـىـ حـاسـبـ الـحـكـوـمـةـ الـقـىـ جـلـتـنـاـ إـلـىـ تـلـكـ الجـزـيرـةـ

وفي شهر أغسطس بارح على فهمي باشا جزيرة سيلان وبلغ القاهرة في أول سبتمبر من السنة المذكورة ...

وفي ٤ سبتمبر بارحنا مدينة كندي صباحاً وكان صالون الحكم معداً لنا فأقلنا القطار إلى كولومبو ، أما احتفال أهل كندي بوداعنا فقد كان عظيماً حتى غصت أرصفة المحطة بالمودعين وفي مقدمتهم محمد أفندي يوسف والدكتور كيت طبيب عائلتنا وإبراهيم أبي وغيرهم ؟ ولما وصلنا ثغر كولومبو زلنا في بيت صديقنا الحترم كرمي حمفرجي ، وأقمنا به في انتظار السفينة المسماة البرنس هنري الألمانية الآنية من الصين ، وفي تلك المدة دعيانا لتوزيع المكافآت على الناجحين من تلاميذ مدرسة ميردانه الإسلامية التي صار افتتاحها بحضورنا على نفقته المسلمين .

وفي أصل ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ٦ جادى الآخرة سنة ١٣١٩ دخلت السفينة البرنس هنري ميناء كولومبو ، وتنطى وجه الماء بالزوارق والرافصات وتكدست جموع المودعين تكداً هائلاً حتى لم تتمكن من الوصول إلى السفينة إلا بشق النفس ، وهنالك ثلثت علينا قصائد التوديع من نخبة أهل سيلان ثم سلمت إلينا في محافظ من الفضة الخالصة البديمة الصنع ...

ولما استقر بنا المقام في السفينة بعد مغادرة تلك الجموع المكتظة بها أفلعت بعد ساعتين باسم الله بحرها ورساها تixer في عرض المحيط الهندي لأول مرة وقبلتها كنامة الله العزير الحكيم ، وكانت جولتها ١٢٠٠٠ طنًا وسرعة سيرها بنسبة ١٦ عقدة في الساعة وهي مستوفية لأسباب الراحة وكانت الرياح هادئة ، وما هو إلاقليل حتى غابت شواطئ الجزيرة عن العيون ...

على هذا النط مررت الأيام والليالي حتى أجزنا خليج عدن والسفينة تهادي في مياه البحر الأحمر ... وبعد أن قطعت نحو ثلاثة آلاف ومائتي ميل رست في ميناء السويس وذلك في غروب يوم ١٤ جادى الآخرة سنة ١٣١٩ فبتنا تلك الليلة في السفينة وفي الصباح ودعنا من فيها وخرجنا إلى البر ونحن نتنفس الصعداء ونلهج بأنواع الدعاء لله سبحانه وتعالى لوصولنا إلى بلادنا سالمين بعد صرور تسعة عشر عاماً ذقنا فيها وتحملنا مكرهين ألم الفراق » ...

لِعَادِلِ لِذِي نَسْمَةِ

ناب عرابي عن مصر تسعه عشر عاماً ، وأقام بها الاحتلال الذي جاء للقضاء على المصاة فحسب هذه الأعوام التسعة عشر ، وعمل الاحتلال في هذه السنين الطويلة على مد جذوره ويسط فروعه ، على الرغم من وعوده المتكررة بالجلال ، بل بفضل هذه الوعود التي لم يكن يقصد بها إلا خادعة المتسائلين ومطاولة الناقلين ..

لم تكدر تعصى خمسة أشهر على دخول الأنجلترا مصر حتى تمت لهم السيطرة على الجيش والشرطة ، أما جيش الثورة فقد حله توفيق بحيرة قلم كا قلنا بهمة العصيان ، وأحل الاحتلال محله جيشاً جديداً هزيلاً في قبضة سردار إنجلترا ، ولم يكن للروح المنوية سبيل إلى قلوب رجاله ، بل كان السبيل للرهبة والنظر إلى الأنجلترا نظرة السادة الذين أعادوا للخديو سلطنته فهو مدين لهم بـ كرسيه ، وإذا كان « أفندينا » يظهر الخضوع والولاء لا إنجلترا صغارهم وكبارهم فكيف بالجند؟

وبلغ هذا المعنى أقصى مداه في حادث الحدود في شهر يناير سنة ١٨٩٤ ، فقد أبدى الخديو ملاحظات على فرقة من الجيش المصري بقيادة ضابط بـ بريطاني عند وادي حلفا ، وعاب على الجيش سوء نظامه ، فعد السردار المورد كتشنز كلام الخديو إهانة له ولكرامة إنجلترا ، وكان جزاء الخديو وقد بلغ الفيوم في عودته إلى القاهرة أن منع منعاً صريحاً من دخول العاصمة إلا أن يعلن ثناهه على الجيش وإدارته أيكون هذا بثابة اعتذار منه ، ولم يجد الخديو بدأً من الأذعان ، ثم سمح له بذلك بدخول عاصمته ؛ وقر في نفوس الجندي أن سلطة أى ضابط بـ بريطاني أكبر من سلطة الخديو ، وأن الرق والأسماد لمن كان له عند الأنجلترا حظوة ...

وما الشرطة فقد عين رئيس عام لهم من البريطانيين كان له الأشراف

العام عليهم ...

وسيطر الأنجلترا على الشؤون المالية ، وذلك بأن أنفوا الرقابة الثانية ، وعيتوا مستشاراً عاماً مالياً إنجلتراً في أوائل سنة ١٨٨٣ لا يرم أمر يتصل بالمال إلا بأذنه ...

وملك الأنجلترا ناصية الحكم والأدارة ، فكان لكتاب موظفيهم وصفارهم في الدواوين الكلمة العليا والجاه والهيبة ، تكفي كلمة من أحدهم لنقض أي أمر لأى وزير ، تجد الدليل على ذلك في هذا البلاغ الذى أصدرته الحكومة البريطانية إلى معتمدتها في مصر ليحمله إلى شريف باشا بمناسبة إصراره على الاحتفاظ بالسودان : « ما دام الاحتلال المؤقت قائماً فيلزم أن تكونوا على يقين من أن النصائح التى تزوجنها لسمو الخديو وحكومته يؤخذ بها وتنفذ ، ويجب أن يعلم النظار والمديرون صراحة ، أنه ما دامت إنجلترا مضطلة بالمسؤولية في مصر ، فإن حكومة جلالة الملكة لابد أن تطمئن إلى تنفيذ سياستها المرسومة وإلا وجب على النظار والمديرين أن يترکوا كرامهم »

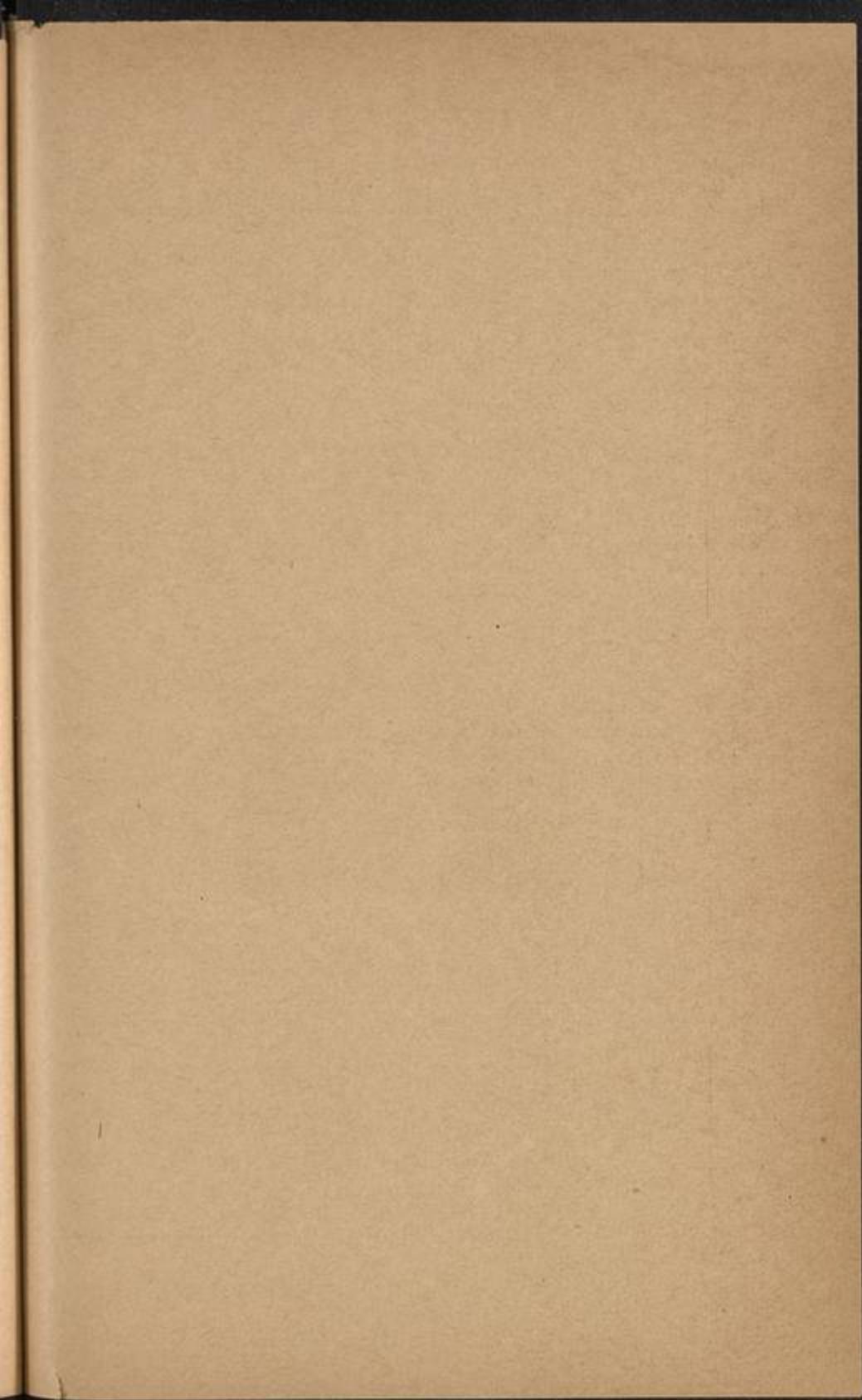
أما الدستور فيما أسفنا عليه ؛ قد ألغاه الاحتلال وأحل عمله في مايو سنة ١٨٨٣ ما عرف بالقانون النظمي وبمقتضاه أنشئ مجلس شورى القوانين وأنشئت الجمعية الموممية وهما هيئتان لا سلطة لها ولا شبه سلطة أريد بهما خادعة الأمة بأن لها مجلسين بدلاً من مجلس واحد ؛ وشتان بين هذين وبين ذلك المجلس النيابي الذى كانت الوزارة مسؤولة أمامه والذى وضعت وزارة البارودى أو وزارة الثورة دستوره ، ختمت به الأمة مصدر السلطات كما هو الحال في الدساتير الحديثة .

هكذا قضى الاحتلال على كل شيء ، وجعل منه بث هيبة إنجلترا في نفوس المصريين والقضاء في عنف على أية محاولة لبعث الروح الوطنية مهما كان من ضلالها ، وألقيت مقاييس الأمور إلى كرومس أحد بناء الأمبراطورية وأحد أساطير الاستعمار ...

وكان كتاب الاحتلال وأسلنته يلقون في روح الناس أن حركة عرابى لم



(القائد الذي نسي)



تُكَنْ إِلَّا عَصِيَانًا أَهْوَجْ بِعْثَهُ الْطَّمْعُ الشَّخْصِيُّ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَتْ إِنْجِلْتَرَهُ الْبَلَادُ
مِنْ فَوْضِيِّ هَذَا الْمُعْسِيَانِ الْأَحْقِقِ لَحَاقَ بِهَا الْمَلَكُ ...

وَقَرَ في أَذْهَانِ نَاسَةِ الْجَيْلِ الَّذِي أَعْقَبَ الْإِحْتِلَالَ أَنْ عَرَابِيًّا هُوَ سَبِّ النَّكْبَةِ
وَأَنْ «هَوْجَةً» عَرَابِيًّا هِيَ الَّتِي جَلَّتِ الْإِحْتِلَالُ؛ وَمَا يُؤْسِفُ لَهُ حَقًا أَبْلَغَ الْأَسْفَ
وَأَعْمَقَهُ أَنْ بَعْضَ الْمُصْرِيِّينَ لَا يَرَوْنَ حَتَّى يَوْمَ النَّاسِ هَذَا يَرْدُدُونَ هَذَا الْكَلَامَ
الْسَّخِيفَ وَمَنْ هُؤْلَاءِ مِنْ يَمْدُونَ بِحُكْمِ شَهَادَاتِهِمُ الْدِرَاسِيَّةَ وَمَنَاصِبِهِمُ الرَّسِمِيَّةَ
مِنَ الْتَّعْلِمِينَ !

وَسَاعَ الْأَخْلَالُ الْقَوِيُّ فِي الْأُمَّةِ، وَمَاتَتْ رُوحُ الْمَقاوِمَةِ، وَخَيَلَ لِلنَّاسِ أَنَّ
الْإِحْتِلَالَ قَوْةٌ لَا تَقْاومُ أَبْدًا وَأَنَّ هُؤْلَاءِ الْجُنُودِ الْمُتَسَلِّطُونَ لَنْ يَغْلِبُوهُمْ غَالِبٌ ...

وَفِي هَذَا الْجَوْءِ الْخَانِقِ الْفَظِيعِ وَصَلَّ أَحَدُ عَرَابِيَّيْنَ باشَا زَعِيمِ الثُّورَةِ الْقَوْمِيَّةِ إِلَى
مَصْرَ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنْ الْجَيْلِ النَّاشِئِ يَذْكُرَهُ وَيَذْكُرُ ثُورَتَهُ إِلَّا بِالسُّوءِ مِنْ
الْقَوْلِ، وَلَوْلَا بَقِيَّةٌ مِنْ شَهِدُوا الثُّورَةَ وَعَرَفُوا حَقِيقَةَ أَصْرِهَا، بَقِيَّةٌ تَلَقَّتِ الْمَائِدَةِ
الَّتِي نَسَى وَالَّتِي شَوَّهَ الْإِحْتِلَالَ ثُورَتَهُ وَأَنْسَى النَّاسَيْنِ مِبَادِهِ وَجَهَادِهِ، مَا لَقِيهَا
فِي مَصْرَ أَحَدٌ ...

يَقُولُ الزَّعِيمُ الشَّمِيعُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ السُّوِّيْسَ «وَهُنَاكَ نَزَلْنَا فِي بَيْتِ
الشَّيْخِ الْبَخَارِيِّ، بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا إِلَى مَحَافَظِ الْمِنَدَرِ مُصْطَفِيَّ بَكَ مَاهِرُ الَّذِي كَانَ
مِنْ تَلَامِيذِ السَّيِّدِ عَبْدِ اللَّهِ نَدِيمَ وَكَانَ مَعْرُوفًا بِحُبِّ الْحُرْبَةِ وَالْوَطْنِيَّةِ فَأَنْكَرْنَا وَأَعْرَضْنَا
عَنَا وَلَمْ يَتَنَازَلْ إِلَى الرَّدِّ عَلَيْنَا، فَبَعْثَنَا بِتَلْفِرَافٍ إِلَى قَائِمَ الْخَضْرَةِ الْخَدِيدِيَّةِ
تَخْرِي باشَا^(١) فَكَتَبَ إِلَى مَصْلِحَةِ السَّكَكِ الْخَدِيدِيَّةِ بِتَخْصِيصِ صَالُونَ لِنَزْلَنَا
وَعَالَقْنَا وَمِنْ مَعْنَا مِنَ السُّوِّيْسِ إِلَى الْفَاهِرَةِ عَلَى حِسَابِ الْحَكُومَةِ وَفِي
١٦ جَادِيَ الْآخِرَةِ سَنَةِ ١٣١٩ المُوَافِقُ أَوَّلِ أَكْتُورِ سَنَةِ ١٩٠١ بِرْحَنَا السُّوِّيْسِ
وَوَسَلْنَا الْمَحْرُوسَةَ قَبْلَ الغَرْوبِ، وَقَدْ كَانَ ازْدِحَامُ النَّاسِ لِتَوْدِينَنَا فِي مَحْطةِ السُّوِّيْسِ

(١) كَانَ الْخَدِيدُ بِأَوْرُوبَا وَتَصَادَفَ أَنَّهُ وَصَلَّ إِلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ
عَرَابِيٌّ إِلَى السُّوِّيْسِ

عظمياً وكذلك لاستقبالنا في الزقازيق وبها وخصوصاً في القاهرة فأن اجتماع الناس
بلغ حده الأقصى بالرغم من تنبيه المحافظة الشديد بعدم التجمهر والاحتفاء
ولما زلنا في محطة القاهرة أخذنا المركبات إلى منزل أولادي الكائن بشارع
الملك الناصر في شارع خيرت واجتمعنا بهم بعد غيابي تسعه عشر عاماً
وأربعة أشهر »

وأوى إلى منزل أولاده بشارع خيرت ليعيش عامة الناس الرجل
الذى كانت مصر كلها في قبضته ، والذى خللت الأمة طاعة الخديو لتطيعه في
الدفاع عن وطنه ، والذى أيده السلطان وراسله ، والذى لم تجد إنجليز بدأ من
إعداد حملة تحريره ومحارب مصر التوبية في شخصه ...

وكان جريدة اللواء تناصر عباساً فرأى أن تطلق عراياً لقاء كريهاً ابتقاده
رمضانه ، كرأى شوق شاعر الأمير أن يهجو الزعيم العائد تزلفاً إلى الأمير
و عملاً بسنة قديمة للشعراء مؤداتها أن يتحدى الشاعر من يرضى عنه أميره وأن
يذم من يغضب عليه ذلك الأمير دون أن يكون بين الشاعر وبين من يدح أو
يذم أية صلة ...

وقالت اللواء وهي تعلم أنها كاذبة فيما تقول إن الاورد كرومر جاء بنفسه إلى
محطة القاهرة لاستقبال عرايى وذلك لتلاقى في روع الناس أن عرايى من
سنائع الأنجلترا ...

ونشر شوق قصيدة قال في مطلعها :

صفار في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرايى ؟
وفي مثل هذا المهر من شاعر الأمير صورة من أخلاقه وصورة من روح
المصر كلها ، ودليل على ما نقوله من اجتماع عوامل كثيرة على تشويه سيرة عرايى ،
كان القصر أيام توفيق وأيام ابنه عباس من أهمها ...
ولو صدقت اللواء لخف إلى المحطة مع كرومر مئات من المصريين للقاء عرايى

والخفاوة به لا ليظفروا له مودتهم ولكن ليظفروا تعلقهم بعميد الاحتلال
صاحب القوة والجاه في مصر ...

قال عرابي « غير أن رجوعنا إلى وطننا العزيز لم يرق في نظر خصومنا الجهلاء
ظنناً منهم أننا بعثنا ذلك الوطن للإنجليز على اتفاق بيننا وبينهم فأوزعوا إلى بعض
الجرائم المأجورة وفي مقدمتها جريدة اللواء بالتنديد بنا والذروج علينا بألسنتها
فوجئوا إلينا سهام جملها وضفافها »
ولولا أن إنجلترا قد وقفت كل الثقة من أن عودة عرابى لن تسبب لها متابعة
في مصر ما أعاده ...

ولم يكن عرابي ليستطيع بعد أن بسط الاحتلال سلطاته على هذه الصورة أن
يعيد حياته سيرتها الأولى من الجهاد والعناد ، فإن الرماد الكثيف يطمر الجراث
التي أشعلها بالأمس وجعل نارها تتأجج ...

وستبقى هذه الجراث تحت الرماد حتى يهوي الله لها فلاحا آخر هو سعد زغلول
فا هو إلى أن ينفعن فيها من روحه القوية حتى تنبت جباره عانية لا يطفئها طغيان
وسوف تكون ثورة سعد في تاريخ مصر هي البعث لثورة عرابي ومكملتها ،
فعلى يد سعد تمود القومية المصرية التي بدأها عرابي وعلى يد سعد يستحرزى
الاحتلال الذي خنق ثورة عرابي وعلى يد سعد يبعث الدستور الذي هتف به في
سمع الزمن أحد عرابي حين جبه توفيقا يوم عابدين بأنه جاء يتكلم باسم الأمة
التي تطلب الدستور ولا ترضى غيره قاعدة للحكم ...



غريب في الوطن

رأى عراقي وقد أصدر الخديو عفوه عنه أن أدب الملايقة يقضى عليه أن يتقدم إليه بالشكر ، وقد تصادف كذاذ كرنا أن بلغ عباس الأسكندرية عائداً من إحدى رحلاته في اليوم الذي بلغ عراقي فيه السويس عائداً من منفاه ، فأبرق إلى القصر يعبر عن شكره للخديو ويهنئه بسلامة العودة ويستأذن في التلوك بين يديه ... ولكن لم يظفر من القصر حتى بالرد عليه ...

وزار عراقي الوزراء في بيته فلم يرد أحدهم له الزيارة ، ولقد تأمل عراقي لذلك كثيراً وهو ما زارهم إلا لأنه رأى الواجب يقضى بذلك ، قال في مذكرة « وما فعلنا ذلك إلا قياماً بالواجب » .

وتحاشى كبار الموظفين الاتصال به وإلا أغضبوا الخديو ، وكذلك أصدر كرومر أوامره ل الوزراء لا يتصل به أحد مخافة أن يستغل اسمه في تنبية الأذهان إلى مذلة الاحتلال كما أشار إلى ذلك بلفت في بعض مذكراته ... وهكذا يعامل عراقي معاملة من أساء إلى وطنه ، وليس في مصر يومذاك من أحسن إلى مصر إحسانه ...

وأحسن عراقي أنه غريب في وطنه ، فقد ذكره أكثر من كانوا يلازمونه إبان سلطانه ومنهم من كان يود لو وجده إليه يومذاك عراقي نظرة أو حياء بتحية ... ولو لا بقية من أولى الفضل والأباء منمن كان الوفاء فيهم طبعاً لاتفاق عراقي بالعيش في وطنه ولآخر عليه العيش في المنفى ؛ وكان في مقدمة هؤلاء الآباء الأمائل الذين أقبلوا على داره مهنتين والذين ظلوا يغشونها كما كانوا يفعلون أيام قوتهم ، على فهمي باشا زميله في الثورة وفي المنفى ، وإبراهيم فوزي باشا مأمور ضبطية القاهرة

بيان الثورة والشيخ محمد خليل المجرسي الصديق الوف والزبير باشا و محمد بك الزمر والسيد باشا شكري المهنوس وأحمد بك ناشد مدير الشرقية في أثناء الحرب ورزق بك حجازي من رجال الثورة ، وعبد الحميد باشا العبادي وأحمد جدي باشا والشاعر حافظ بك إبراهيم ، والدكتور محبوب ثابت و محمد بك أبو شادي المحامي وعلى بك آسف ونفر قليل ممن كانوا يجلون عرايماً ومحبونه ...

ومما يؤسف له أن البارودى لم يزره إلا بعد عودته بثirty أسبوع ، ثم انقطع عنه ولم يزره بعدها أبداً ... وفي أكتوبر سنة ١٩٠١ جاء صديقه المستر بلنت إلى مصر وزاره في داره وكان يزوره دائمًا كلما جاء إلى مصر ، وفي الرابع والعشرين من هذا الشهر جم بلنت بينه وبين الشيخ محمد عبد بمحيقته بالشيخ عبيد وقد شهد هذا اللقاء على باشا فهمي .

وتعانق الزعيم الشيخ والأستاذ الأمام عند اللقاء وقد اجتمعت ذكريات الثورة في هذه اللحظة ؛ ولكن عرايماً مالبث أن أغفل للامام في القول حين تشقق الحديث إلى الثورة وحوادثها ولاته على مصانته الخديوي في بعض ما كتب . وكان عرايبي يؤدي صلاة الجمعة في جامع الرماح بالناصرية أو بمسجد السيدة زينب أو بمسجد الحسين رضى الله عنهم ، وكان يتزاحم عليه الناس لرؤيته والسلام عليه ...

وقد حدثني كثيرون ممن رأوه في تلك الأيام فقالوا إنهم لن ينسوا قامته الطويلة ولا لحيته البيضاء ولا وجهه الذى تبعثر منه هيبة شديدة ويشع منه الأعنان والورع في وقت واحد ، ولا مسبحته التى كانت لا تفارق يده ، وإن ينسوا إقبال الناس عليه كلما رأوه وإشارتهم إليه وترافقهم لرؤيته إذا كان جالساً في دكان أو في مسجد وقولهم هذا هو عرايبي ، وسؤال بعضهم بعضًا هل رأيت عرايماً؟ ها هو ذا عرايبي ...

وكان عرايبي في فصل الصيف يخرج أصيل كل يوم لل الاستراحة فيذهب في عربته إلى الجزيرة أو شارع المهرم فيقضى ساعة أو بعض ساعة ؛ وكان وجهاء

المدينة في الشوارع التي يمر بها ينهضون وقوفاً إذا مر بهم وهم جلوس أمام بيوتهم
حسب عادة الناس في تلك الأيام ويحيونه برفع أيديهم إلى رؤوفهم إجلالاً له ، وكان
يرد عليهم تحياتهم شاكراً لهم جميل صنعتهم ...

卷一百一十五

وكان من أشد ما يتألم منه عربي وهو مقim مع أولاده بعارة البابلي بشارع
خيرت ، ضيق ذات يده فأن معاشه لم يكن يكفيه هو وأسرته الكثيرة المدد .
وحق للرجل أن يالم ، فقد كان من أكبر الجحود أن يظل هذا الزعيم محروماً
من ملوك الذى أحله الله له ، فيعيش وهو الأب الكريم عيشة المسرىن ، وقد
كانت مصر كاهماً طوع يعينه ذات يوم ... وذلك ما كان يبيت في نفسه الشعور
بالغربة في وطنه ، فهل هذا جزاء ما قدمت يداه من خير لهذا الوطن وما بذل من
جهود في سبيل إصلاحه والنهوض به ؟

وقضى عرابي أيامًا كانت شديدة الوطأة عليه ؛ يحسبه الجاهلون غنياً من التعمف
وإنه ليقامى بما هو فيه المذاب الألم ...

وكتب عرابي للخديو يرجو منه رفع هذا الحيف عنه فارجع من كتابته
بطائل ولا ظفر حتى برد؛ وكتب للحكومة فأعرضت عنه أشد إعراض؛ وكانت
حججته أن مصادرة ملك لا يتفق مع العدالة ولا مع الشرع لأنه لم يصدر بناء على
حكم شرعي، ثم إن المفو صدر عنه فرجع إلى وطنه فلم يكون المفو ناقصاً لا يشمل
المقوية كلها؟

وكان يكرر عربى ما أورده على أنه حديث وهو «مال المسلم على المسلم حرام» ونسى عربى أو لم يلهمه تفاسير أن العفو عنه لم يكن بأرادته عباس وإنما كان بشفاعة ولن عدد إنجلزية وهي شفاعة لا زرد، ولو أنها ثبتت إعادة ما أخذ منه لأعيد لم ينقص درهماً واحداً ... *

واشتكى عرابي إلى من كانوا السبب في نفيه ، ولكن الأنجلوـز كانوا يحـيلونه على الحكومة المصرية قائلين إنـهم لا يـستطيعـون التـدخلـ في مـسـأـلةـ هـيـ منـ اـخـتـصـاصـ

الحكومة المصرية ، وذلك هو دأبهم ، يتدخلون في كل شيء تقضي مصلحهم بالتدخل فيه ويتحجرون حين لا يريدون التدخل في أمر بأن ذلك من اختصاص الحكومة المصرية ...

والواقع أن مصادر ممتلكات عرابي وأصحابه على الصورة التي تمت بها لاستناد إلى شيء من القانون أو الشرع فاللهومن أن تباع أملاكه و يؤدى له ثمنها ، أما أن توخذ هكذا بغير حكم قضائي وليس وفاء الدين أو تمويضاً عن مال سلب فهذا مالم يسبق به حكم في مصر ولا في غير مصر .

ولقد يئس عرابي من إقناع أولى الأمر برد حقه المقصوب ؛ يقول في مذكرة أنه « ومن حيث أن الحكومة المصرية لا تزيد أن تستمع الحق ولا ترد على من يتظلم إليها أو هي لا تقدر على الإجابة ولا على أي عمل يغاير إرادة الأنكلزيز كأن الحكومة الأنكلزيزية لا تزيد أن تتوسط في إقامة العدل ودحض الفلم ورد أملاكي النهوية بقوة الاحتلال وتحيل شكوكاً على حكومة سمو الخديو وهي لا تقدر على عمل مابدون أمر الأنكلزيز ، فقد تركت لأولادى وحفدى من بعدى وذربي جيلاً بعد جيل الحق في الطالبة بحقوق وأملاك النهوية من الحكومة المصرية ومن المجلس التأسيسي المصرى حين تسترد الأمة حريتها واستقلالها و مجلسها التأسيسي . وإنني واثق بأن أمتي المصرية السكرية إن تنساني ولن ترك أولادي حين يأتيالي اليوم الذى تعرف فيه حقيقة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطني حر » .

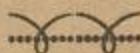
ونحن نقول إنه قد آن أن تنصف مصر عرابياً وأن تعرف حقيقة أعماله الوطنية كما يقول؛ ولقد أبدى أبناءه عملاً بوصية أبيهم ورغبة في الوصول إلى حقهم المعنوم، بالشكوى إلى ولاة الأمور منذ أن تألفت الوزارة الوطنية الثانية برئاسة الزعيم القوى الثاني سعد زغلول ، ولأن حالت دون إحقاق هذا الحق مشاغل وظروف لا داعي لتفصيلها الآن فإننا نحسب أن الوقت الذى ترد مصر فيه الجميل لمráبى هو هذا الوقت الذى تقلع فيه ما بقي من جذور الاحتلال ...

ويسرنا أن ثبت في هذا التاريخ آخر خطوة رسمية حتى يومنا هذا ، فقد

تقدمت اللجنة المالية إلى مجلس الوزراء في صيف سنة ١٩٤٧ بعد كثرة جاء فيها : « وقد استخرجت مصلحة الأموالك بياناً عن مساحة هذه الأموالك من الملفات المحفوظة فوجدت أنها ١٢ س ، ٦٩ ط ، ٤٦١ ف وقدرت ثمنها حسب الأسعار الحالية بمبلغ ٤٢٢ ر ٤٨٦٦١ جنية .

وقد طالب ورثة عرابي باشا مراراً وتكراراً بإعادة أملاك مورثهم إليهم تلك الأموالك التي يقدر ثمنها بتسعةألف فدان إلا أن هذه المطالبات كان نصيتها الحفظ في ٢٤ مارس سنة ١٩٣٨ ، ٢ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ . ومن أجمل ما ذكرته اللجنة المالية قولهما :

« ونذكر وزارة المالية أن مسألة إعادة أملاك أحمد عرابي باشا المصادرية ، إلى ورثته يجب أن ينظر إليها بانتظار اليوم لامتنان الأمس الذي انقضى بأثاره ونتائجها وتقادم عهده وانقضى عليه زهاء نصف قرن تماقت فيها أحياش وتغيرت فيها التظريات والمقاعد وأصبح ينظر إلى الثورة العرابية بأنها كانت حركة وطنية صميمية في مصريتها نبيلة في أغراضها سامية في مقاصدها ، وقد دافع عرابي باشا عن المبادئ والحربيات التي يحارب العالم من أجلها الآن والتي يضحي لها بالملائين من البشر ، وإن النظرة الحديثة إلى عقوبة مصادرة الأموالك لا تعتبرها عقوبة عادلة وادعية كما كان يؤخذ بها في المصور الماضي بل عقوبة متعددة إلى غير الشخص المقصود بذاته ، إلى ورثته الأبراء الذين لم يقدموا على جرم أو يترفوا ذنباً يستحقون عليه الحكم بالفقر والمعور والحرمان » .



قضى الزعيم نحبه

على تلك الحال التي ذكرنا قضى عرابي أيامه في مصر بعد عودته من المنفى ؟
يتلقى أصحابه في داره ويزورهم في دورهم ، وكانوا يتطارحون ذكريات الماضي
وبيالون مما آلت إليه مصر من حكم الأجنبي لها وقضائه على دستورها ؛ وكان
هؤلاء الإخوان يخدعون عرابياً عن عباس وكيف أخذ يناهض الاحتلال حتى
أذله كرومر وأرغمه على مصانعة الاحتلال ، ومن تجادل النفوس أيام أن كان
عرابي في منفاه ؛ وكان الأمي يرمض جوانع هؤلاء الذين خاضوا غمار الثورة
وشعروا بالعزيمة القومية قبل الاحتلال ، وهم لا يعلّكون اليوم إلا أن يسألوا الله
أن يجعل مصر مخرجاً مما هي فيه ...

وكان عرابي في أواخر أيامه يكثّر نلاوة القرآن ويحرص على أن يؤودى أبناءه
الصلوات في أوقاتها وكان يؤمّهم ويحرّم على الذكور منهم التحلّي بأية حلية ذهبية
ويحفظهم القرآن الكريم ؛ وقد قرأ عليه أحدّهم نسج البلاعنة وهو غلام ؛ وكان
يحبذ لهم الجد والاحتشام ومن ذلك أنه غضب على أكبر أبناءه لأنه حلق لحيته
ولم يرض عنه حتى أطلقها صرعة ثانية ...

وكان يتأسى عرابي عن حاله كلاماً سمع أحد الناس يتنى على حركته القومية
ويعدّها الخطوة الأولى لما بعدها من هرّهوض ، كما كان يتالم أكبّر الآباء إذا علم أن
الجيل الناشئ يجهل هذه الحركة التي لم تجد دفاعاً عنها ، والتي عمل الاحتلال
بمفتياته ومكرهاته على أن يصورها صورة بعيدة كل البعد عن حقيقتها ...
حدّنى أحد أبناءه أن أباه قال له ذات صرعة وقد اشتيد الله لما يجد من جهل
الجيل الجديد بحركته ، إن هذه الحركة سوف يقيض الله لها من يفهمها حق الفهم
من أبناء الجيل القادم الذين يقطّون إلى مكر الاحتلال وتنور نفوسهم على الاحتلال

ويومئذ يعرف ما فعلناه من أجل مصر ويرفع عنا هذا الظلم المظيم ...
والحق أن الاحتلال قد أضل الناس كثيراً عن ثورة عرابى ، وساعدت
الاحتلال عوامل منها الخوف والجهل وعدم تمكن أحد من نشر شيء عن هذه
الثورة يقصد به الدفاع عنها ، لأن ذلك يغضب الاحتلال من جهة ويغضب الخديع
من جهة أخرى ، إذ كان عباس ينقم أشد النقم على عرابى لاعتقاده أنه أراد يوماً
أن يخلع آباء وأن يقيم حلماً مكانه ...

وكان الأنجلزيز يعلمون التلاميذ في مدارسنا أن عرابياً الجاهل الأحمق المفروض
قد ساق البلاد إلى الفتنة العمياء كما يفعل القرصان ...

ولم ينصف عرابياً إلا صديقه بلفت حين نشر سنة ١٩٠٧ كتابه «التاريخ
السرى للاحتلال البريطاني لمصر » ولكن هذا الكتاب لم يقرأ إلا بعض
الأنجليز فلم يكن له أثر يذكر في مصر ...

وكل ما استطاع عرابى أن يفعله للدفاع عن نفسه وعن قضيته هو أنه كتب
بلفت بناء على طلبه تاريخاً موجزاً لحياته وحركته سلمه إليه بالشيخ عبيد في
السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٠٣ فأثبتته بلفت في آخر كتابه
عند طبعه ...

ظل عرابى حتى السنوات الأخيرة من عمره مرتفع الهمامة منتسب القامة
وامتشرف للسبعين وهو قوى البدن جم النشاط ؛ إلى أن أصيب بداء عضال هذه
واقمده ، وذلك هو السرطان الذى أصابه في الثانة ...

وكان يعالجها ثلاثة من الأطباء هم أحمد بك عيسى ومحجوب ثابت وأنيس أنسى
ولكن هذا الداء قد استعصى على الملاج و هو لا يزال حتى اليوم يعجز علم العماماء
وكان عرابى قد توفر على كتابة مذكراته عن الثورة فـ كتبها في ثلاثة دفاتر
كبيرة (١) ولم فيها بحوارث الثورة جيمعاً فلم يترك ناحية منها إلا وفاتها حرقها ...

(١) طبع الجزء الأول منها بعنوان : كشف الستار عن سر الأسرار

وقد حرص على كتابة ثلاثة صور منها إحداها محفوظة بدار الكتب والثانية والثالثة لدى أبنائه ...

وفى السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩١٠ فرغ من كتابة هذه المذكرات وقد اختتمها بذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ عهد الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى وبين كيف تخلصت مصر منهم جميعاً ثم قال « فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتحمّل وتعمل ليلاً ونهاراً على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسولة منها ومتطلبة الأجليل بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء ؛ ثم إنني أدعى الأمة المصرية إلى التباعد عن التمدن الغربي المزيف فلا تفعل التكارات التي هى الله عنها وتأسى بالمعروف الذى أمر الله به وأن تترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأن تقيم شعائر الدين الحنيف وتحيى مناسكه ، فلا عز ولا سؤدد بغير الدين وهو وحده يكفل لمن اتبعه بأخلاص هناء الدنيا ونواب الآخرة ؛ ثم أناشدكم أن يشدوا أواصر الأخاء بين أبناء وطتهم ويخرجوا ما في قلوبهم من غل وضفينة ويعملوا يداً واحدة ورجلًا واحدًا لرفع شأن بلادهم وإعزاز كلة دينهم ؛ فإذا فعلم كل ما ذكرت وأرهتم آداتكم للسمع وأصختم إلى نصائح من حنكته التجارب فمرف من تقلب الحدثان الطاريقه المثل والدواء الناجع واستفاد من تضارب الأحوال أية عدة يجب أن يتذرع بها ويتخذها مخبأ يقيه عوادي الزمان ؛ هنا لك يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم والله على كل شيء قادر » ...

وفى العشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ اشتتد وطأة الرض على الزعيم الشيخ وكان قد انتقل إلى دار فى المنيرة فأوصى أولاده بأن ينشروا مذكرة مها قام فى وجوههم من عقبات ليمعلم الناس حقيقة أعماله وما أراده من الخير لمصر ؛ وأنبدأ بآباؤه على المطالبة بحقهم حتى يعن الله عليهم به ...

وغاب عن الشيخ الزعيم وعيه ستة وثلاثين ساعة لم يتكلم فيها أو يفتح عينيه أو يدرى شيئاً مما حوله ، ثم وفاه الأجل المحتوم فى الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ وهو السابع والعشرون من رمضان سنة ١٣٣٩ ، فأصبح

فِي ذَمَّةِ اللَّهِ وَدَخَلَ فِي سُجْلِ التَّارِيخِ ...

وَلَمْ يَكُنْ لَدِي أَوْلَادَهُ مِنَ الْمَالِ مَا يَكْفِي لِتَجْهِيزِهِ وَدُفْنِهِ ، فَاضْطَرَّوْا إِلَى عَدْمِ
إِعْلَانِ نَبَأِ وَفَاتَهُ إِلَى الْيَوْمِ التَّالِي حَتَّى قَبضُوا مَعَاشَهُ إِذْ صَرَفَتْ وزَارَةُ الْمَالِيةِ
الْمَرْتَبَاتِ وَالْمَعَاشَاتِ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِعِنْسَابَةِ عِيدِ الْقَطْرِ ...

وَلَمْ يَشْيِعْهُ إِلَى مَقْرَبِهِ الْآخِيرِ رَجُلٌ دُسْنِي وَاحِدٌ أَوْ يَحْضُرُ فِي مَأْتِيهِ ؟ وَلَكِنْ
مَصْرُ الْوَفِيقَةِ الَّتِي أَخَافُهَا الْاِحْتِلَالُ فَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ حَيَا ، أَبْتَ إِلَّا أَنْ تَكْرَمَهُ مِيتَاهُ
فَأَحْاطَ بِنَمْشَهُ الْأَلْوَفَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَتَأْلَفَتْ مِنْ هُؤُلَاءِ جَنَازَةً شَعَبِيَّةً عَظِيمَةً سَارَتْ
فِي صَمَتٍ وَخُشُوعٍ مِنْ دَارِهِ بِالْمَنِيرَةِ حَتَّى أَهْبَلَ عَلَيْهِ التَّرَابُ فِي قَبْرِهِ بِالْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ
وَسُوْنِي عَلَيْهِ يَنْ رَحْمَ الْمُتَرْجِمِينَ وَبَكَاءِ الْبَاكِينَ .

وَسَتَنْطُولُ الْمَعْسُورَ وَيَبْقَى فِي أَذْهَانِ بَنِي الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ أَنْ أَحَدَ عَرَبِيَّ كَانَ
زَعِيمَ الْقَوْمِيَّةِ الْأَوَّلِ وَكَانَ الْفَلَاجُ الْمَصْرِيُّ الْأَوَّلُ الَّذِي دَعَا إِلَى حُرْيَةِ قَوْمِهِ
وَحَارَبَ فِي سَبِيلِهَا وَنَفَقَ وَذَاقَ أَلْمَ الْفَاقَةَ مِنْ أَجْلِ مَصْرُ ، وَكَانَ صَاحِبُ الصِّيَحَةِ
الْأُولَى وَصَاحِبُ الْخَطْوَةِ الْأُولَى فِي سَبِيلِ الْكَرَامَةِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْمَهْوَضِ بِعَصْرِهِ عَلَى
أَسَاسِ الدَّسْتُورِ وَالْحُرْيَةِ ؟ جَزِيَ اللَّهُ عَرَابِيَاً جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ عَنْ أَمْتَهِ وَأَسْكَنَهُ
فَسِيحَ جَنَّتَهُ .

[تُمْ طَبِيعُ كِتَابُ « أَحَدُ عَرَبِيَّ » فِي مَطْبَعَةِ الرَّسَالَةِ
بِالْقَاهِرَةِ فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ ٢٥ شَعَانَ سَنَةِ ١٣٦٦ھ (١٤
يُولِيو سَنَةِ ١٩٤٧ م) وَالْمَدْحُودُ أُولًا وَآخِرًا]

سِيدُ مَحْفُوظِ طَالِبِ

المُدِيرُ الْفَنِيُّ لِلْمَطْبَعَةِ

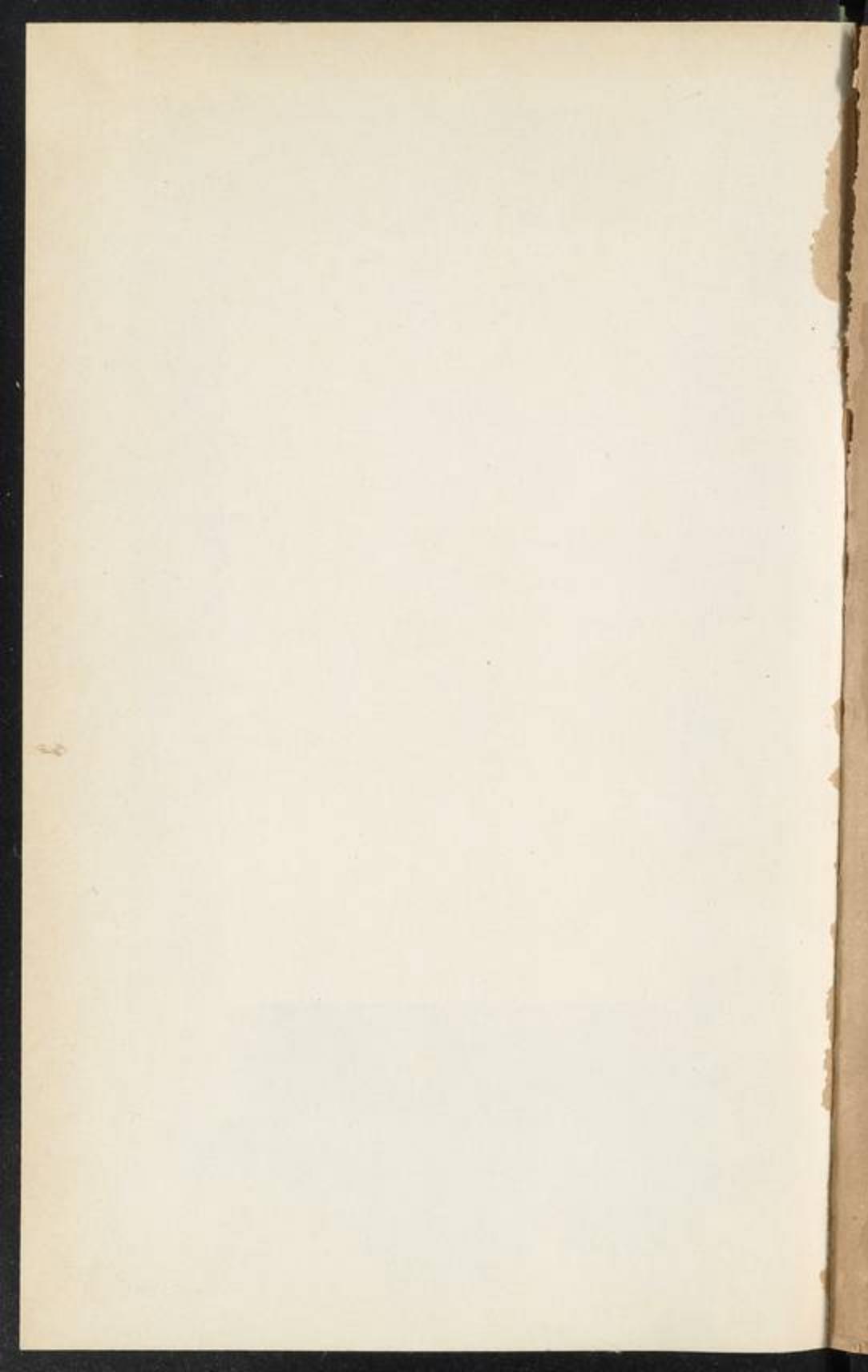
5192

*PB-32751-SB
5-10T
C-C

98-17755-29
TOL-2
5-

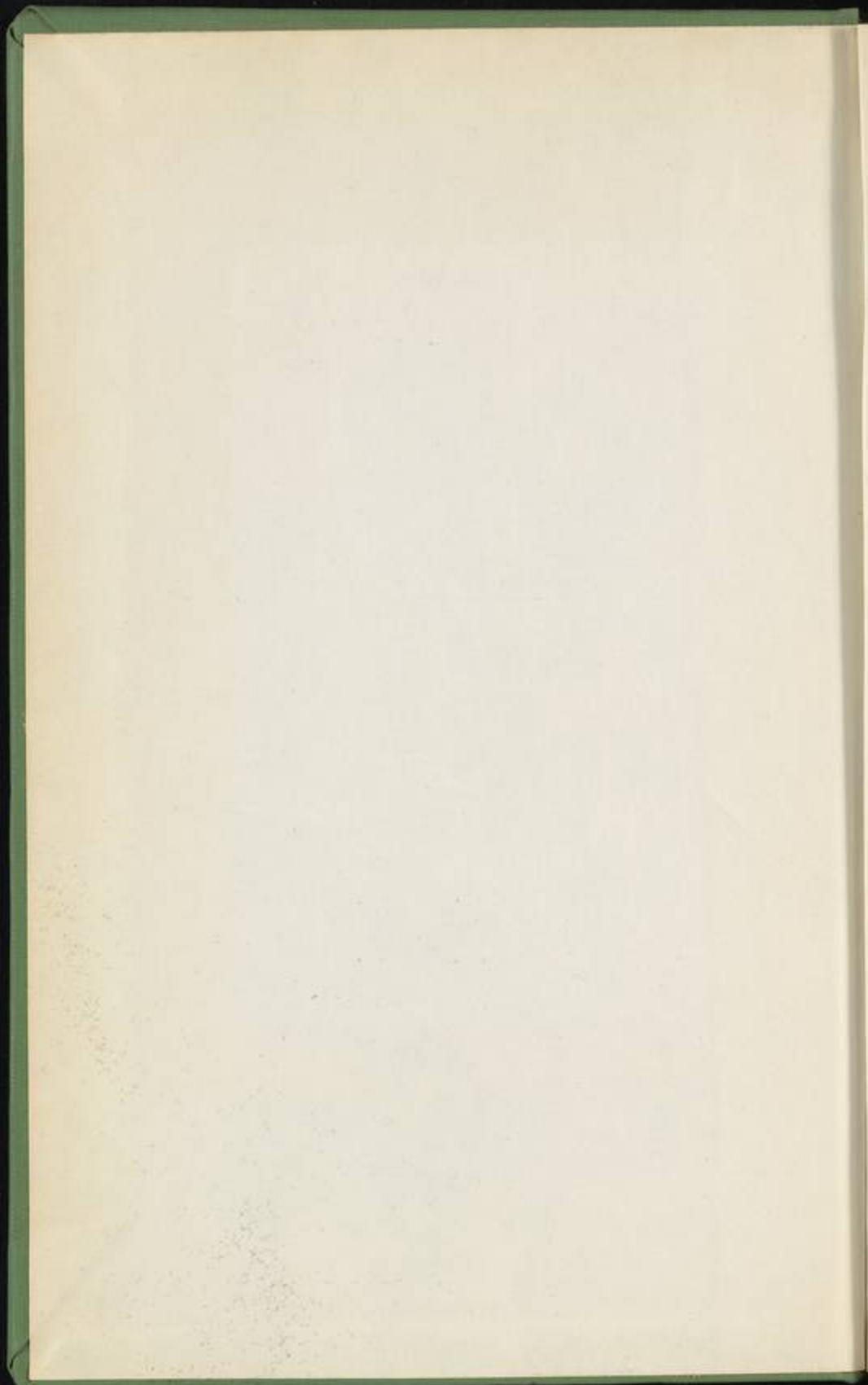
المؤلف

- أبراهام لينكولن : (تحت الطبع)
» » : تولستوى
» » : مِلَّان
» » : من وراء النظار



Date Due

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 02881 6547

DT107.4 K5

Ahmed Arabi al-zaim al-mutara